الدرويش والموت



تأليف : ميشا سليموفيتش
ترجمة : د. حسين عبد اللطيف
أحمد سمايلوفيتش



الدرويش والموت

تأليف : ميشا سليموفيتش

ترجمة : الدكتور حسين عبد اللطيف

وأحمد سمايلوفيتش

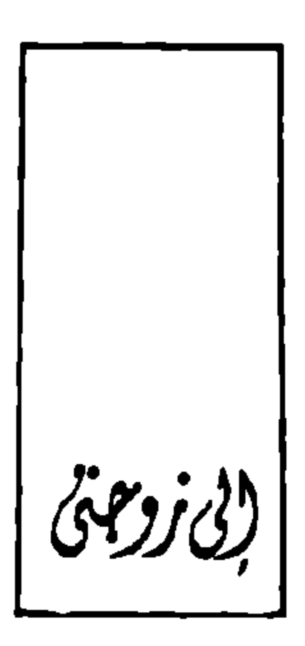
الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر

١٩٧١



مكتبة سور الازبكية
تليجرام
s://t.me/kotokha
@KOTOKHATAB

إهداء



القسم الأول

١

« بسم الله الرحمن الرحيم

ن • والقلم وما يسطرون •

والليل اذا يغشى والنهار اذا تجلى وما خلق الذكر والأنثى •

والقمر اذا تلاها والنهار اذا جلاها •

لا اقسم بيوم القيامة ولا اقسم بالنفس اللوامة •

والعصر ان الانسان لفى خسر • »

أبدأ قصتي هذه دون نظر الى شيء ودون قصد الى كسب لنفسي أو للآخرين ، وانما لحاجة اعظم من الكسب وأسمى من العقل ؛ وهى أن تبقى لى هذه القصة التى كتبتها بيدى ، مصورة ما دار بينى وبين نفسى من حوار مرير ، مع أمل بعيد فى ان أجد بعض الحلول بعد أن يسوى الحساب ان كان هناك حساب •

عندما أترك أثر المداد على هذه الصفحات التى تنتظر كأنها منبع للاثارة أو مظهر للتحدى ، لا أدرى ما الذى سيكون مسجلا عليها ، ولكن سيبقى فى أشكال الحروف شيء مما كان فى نفسى ولن يتبدد فى أمواج الضباب كأنه لم يكن شيئا أو كأنى لم أدر ماذا كان •

هكذا ساستطيع ان ارى نفسى على أى نحو أعيش • انه لعجيب اننى لا أعرف هذا • كما يبدو لى عجيبا أننى لم أكن دائما كما أنا الآن ! هأنذا أدرك اننى أكتب كتابة رديئة متشابكة ، فيداى الآن ترتجفان من أجل المحاكمة التى سابتدؤها والتى ساكون فيها كل شيء : القاضى والشاهد والمتهم • وسوف أمثل دور كل بامانة على قدر استطاعتى او استطاعة أى شخص آخر ، لأننى أبدأ بالشك فى أن الصدق والأمانة شيء

واحد ٠ ان الصدق هو الايمان بأننا نقول الحقيقة ، ومن توفر فيه هذا فهو مؤمن ؛ وأما الأمانة فهي متعددة وبعضها قد لا يتفق مع بعضها الآخر ٠

اسمي أحمد نور الدين ٠ أطلقوا على هذا الاسم وحملته مزهوا ، وانني الآن وبعد أن مضت سنوات طويلة تلتصق بنفسي كما يلتصق بي جلدي ؛ افكر فيه متعجبا احيانا وضاحكا أخرى ، لأن « نور الدين » ذلك الاسم الذي حملته معناه الفخر وانا الآن أخجل من هذا الاسم الذي يحمل هذا المعنى ٠ كيف أكون نورا ؟ وبم أكون مضيئا ؟ بالعلم ؟ بالمواهب اللدنية ؟ بالقلب الطاهر ؟ بالطريق المستقيم ؟ بعدم الشك ؟ كل هذا يدعو الى التساؤل ٠

وأنا الآن احمد فقط ، لست شيخا ولا نور الدين ٠ كل شيء قد سقط عني كما يسقط الثوب او الدرع وبقي ما كان قبل : جلد دون ساتر ورجل عار ٠

انني أبلغ من العمر أربعين عاما ، وهذه الفترة من السن عصيبة فالرجل فيها صغير السن بالنسبة لرغباته ، كبير السن بالنسبةلتحقيقها٠ وكل شخص في هذه الفترة ينشد التغلب على قلقه بأن يصبح قويا بفضل ممارسته للحياة وبأن يحصن نفسه بالنسبة لما تأتي به الحياة مما لا طاقة له به ٠ وهأنا ابدأ الآن بفعل ما كان يجب فعله منذ زمن بعيد ، منذ كنت في ريعان الشباب ، عندما كانت الطرق التي لا حصر لها تبدو جميعها جميلة رائعة ، والخرافات بأسرها تبدو مفيدة بالقدر الذي تبدو لنا به الحقائق ٠ وا أسفي لعدم بلوغي عشر سنوات أكثر من سني حتى يحفظني الكبر مما يضطرم في نفسي من ثورات ، او لعدم كوني في سن أقل عشر سنوات حتى يكون كل شيء عندي على حد سواء ٠ لأن سن الثلاثين هو سن الشباب ، هكذا أفكر الآن ، عندما أصبح من المتعذر أن أعود الى ذلك السن ، سن الشباب الذي لا يخشى شيئا ولا يبالي باندفاعاته وسورته ٠

كنت قد كتبت كلمة عجيبة : ثورة ٠ وأوقفت قلمي على الصحيفة حيث بقيت منقوشة عليها فكرة لم تنضج بعد مرت بخاطري عفوا ٠ وكانت هذه أول مرة أطلق فيها هذا الاسم على ما أعانيه من ضيق ٠ ولم يكن قد دار بخلدي هذا الاسم قبل ٠ ولم أكن قد دعوت ما أحسه من

ضيق بهذا الاسم · من أين جاءت هذه الكلمة الخطيرة ، وهل هي كلمة فحسب ، وساءلت نفسي اليس من الأفضل ان آكف عن هذه الكتابة حتى لا يصبح ما أعاني منه في وضع اصعب مما هو عليه الآن · اذا كانت هذه الكتابة تنتزع مني بطرق مبهمة ما لم ارد قوله ، وما ليس بأفكاري ، أو ما قد يكون لدى من فكرة غامضة اختفت في ظلام نفسي وسيطر عليها القلق والاضطراب ؟ وكان شعوري لا يطيعني في الكف عن الكتابة ـ اذا كان الأمر هكذا فالكتابة في هذه الحالة تعد اجراء قاسيا لانتزاع الحقيقة وعملا من أعمال المردة · ولعله كان من الأجدر ان ينكسر طرف القلم الذى حدد بمهارة فائقة وأن ينسكب المداد على البلاط أمام التكية لتذكرني بقعته السوداء بألا احاول أن أقرب السحر الذى يوقظ الأرواح الشريرة· ثورة ! هل هي كلمة فحسب أم هي فكرة ؟ ان كانت فكرة فهي فكرتي وقد تكون خرافتي · وويل لى اذا كانت خرافة ، والويل ثم الويل اذا كانت حقيقة · غير أنه ليس لى طريق آخر ، كما لا استطيع ان أقول لأحد سوى نفسي واوراقي · ولهذا تابعت الكتابة دون توقف من اليمين الى الشمال ، من حافة هوة الى حافة أخرى ، من هامش فكر الى هامش آخر في سطور طويلة تبقى بمثابة اثبات أو ادعاء ·

من المدعي ، يا الهي ، لم تركت لى اشد الآلام البشرية لأشغل بها نفسي · من المدعي ؟ وضد من ؟ أهو ضدى أو ضد الآخرين ؟ ولكن لم يعد هناك مهرب ، وهذه الكتابة تعد ضرورية كالحياة أو الموت · وسيكون ما لابد منه · وعيبي ـ اذا كان هناك عيب ـ يتمثل في كوني كما أنا الآن ·

ويبدو لى أن كل شيء يتغير تغيرا شاملا · وكل شيء يضطرب في نفسي ويهتز من جذوره ، والعالم يهتز معي لأنه خلو من اى نظام مادام الاضطراب يسيطر على نفسي · ومرة أخرى ان هذا الذى يحدث وذلك الذى حدث مرجعه سبب واحد : هو انني اريد وأرى لزاما أن احترم نفسي ، وبدون ذلك لا أقوى أن أعيش كانسان · ربما كان من المضحك انني كنت رجلا حين كنت في وضعي السابق ، واريد ان أكون رجلا كذلك في وضعي الحالي ، رجلا آخر ، ربما على النقيض منه · وعلى كل هذا الأمر لا يزعجني ، لأن الانسان متغير ، والشر كل الشر في عدم اطاعتنا الضمير اذا استيقظ ·

انني شيخ لتكية الطريقة المولوية أكثر الطرق عددا وانقاها ، وتقع التكية التي أعيش فيها عند نهاية البلدة بين صخور سوداء مرتفعة تحجب رؤية السماء على اتساعها ، وتبقى شريطا فوقها يشبه رحمة البخيل وذكرى الطفولة في تصورها للسماء الضخمة الواسعة . لا أحبها ، تلك الذكرى تعذبني شيئا فشيئا ، لقد كانت بمثابة الفرصة مرت دون أن أغتنمها وان لم ادر صورتها ، وانني في غير وضوح أقارن الغابات الخضراء التي تعلو بيت والدى كما اقارن الحقول والحدائق حول البحيرة بمضيق الصخور الذى حبست فيه أنا والتكية ، ويخيل الى أن هناك تشابها كبيرا بين المضايق في نفسي والمضايق من حولي .

هذه التكية جميلة وواسعة وتقع على شاطىء جدول ينساب بين صخر الجبال كما تحيط بها حديقة ذات ازهار وكروم تتسلق فوق الشرفة ، ولها ردهة طويلة يسودها هدوء يزيد من احساسنا به سماع وقرقة المياه التي تجرى بقربها .

وقد كانت في الماضي حريما للاجداد ، ثم أهداها الى الطريقة المولوية رجل موسر يدعى « على جانيتش » لتكون مجمعا للدراويش وملجأ للفقراء اذ أن قلوبهم منكسرة . وقد طهرناها بالدعوات والبخور مما كان بها من الآثام والشرور ، وارتدت بذلك ثوب الشرف الذى ترتديه الأماكن المقدسة على الرغم من اننا لم نستطع على وجه التمام أن نبعد عنها اشباح الشابات ، فقد كان يخيل الينا احيانا أنهن يطفن هنا وهناك وأن رائحتهن تصل الى أنوفنا .

كل يعرف هذا ، ولذلك لا اخفى شيئا ، والا كانت هذه الكتابة كذبا أعرفه وهذا يخالف الكذب غير المعروف الذى يخدع الغير بدون وعى ، اذ لا يسأل أحد عنه . ان شرف التكية ومجدها يتمثلان في شخصي ، ولولاى لكانت بيتا يحوى خمس غرف كسائر البيوت . لقد اصبحت بي قلعة للدين ، وبدت كأنها حامية البلدة من الشرور المعلومة والمجهولة ومالكة الدفاع عنها ، اذ لا يوجد في نهاية البلدة بناء غيرها . وفي الحق أن هذه النوافذ ذات المربعات وهذه الجدران الضخمة حول الحديقة جعلتنا في عزلة شديدة وضمنت لنا البقاء فيها ، غير ان الباب كان مفتوحا دائما كي يدخل كل شخص يشعر أنه في حاجة الى الطمأنينة ويريد التطهر من الذنوب . وكنا نستقبل الناس عند حضورهم بحلو الكلمات وان كانوا أقل عددا من المحن ، وأكثر قلة من الذنوب .

لست مختالا بسبب وظيفتي هذه ، فهي في الحقيقة وظيفة دينية شريفة للغاية • وقد رأيت اداء لواجبي وتحقيقا للسعادة أن أحمي نفسي وأحمي الآخرين من الذنوب ولن أستطيع أن أتخلى عن هذه الحماية • ان افكار المعصية التي تدور في راسي تشبه الاعاصير ، ومن ذا الذي يستطيع أن يقف في مواجهتها ؟ ولكنني لا أعتقد أن هذه الأفكار افكار معاص كبرى • وفيم يكون التدين اذا لم يكن هناك صعاب يجب ان نتغلب عليها ؟ ان الانسان ليس الها وان قوته تتمثل في أن يتغلب على ما تجنح به طبيعته • هكذا كان تفكيري • واذا لم يكن هناك ما يتغلب عليه ففيم يستخدم الانسان جهوده ؟ والآن أفكر في هذا بتفكير مخالف ، لكني لا اذكر ما سياتي مما تدعو الضرورة اليه ، وسيكون لكل شيء وقته المناسب • على ركبتي أوراقي التي تنتظر هادئة لتحمل أوزاري دون أن تجردني منها ، ودون أن تشعر بها وحدها ؛ فامامي ليل طويل دون نوم وليال طوال اخر أصل فيها الى كل شيء ، وسوف اعمل كل ما يجب عمله • سأتهم نفسي وسأدافع عنها • لا داعي الى العجلة • انني أرى ان هناك اشياء استطيع أن أكتب الآن عنها وقد لا تسنح لها الفرصة فيما بعد • وعندما يحين الوقت وتدعو الرغبة لأن يقال اشياء أخرى فستذكر في ذلك الوقت • انني احس كيف تتراكم هذه الاشياء في تلافيف مخي ويجذب أحدها الآخر لأنها مترابطة ولا يعيش أحدها منفردا بنفسه • بيد ان هناك شيئا من النظام تجده في هذا التراكم • قد يقفز احد هذه الأشياء من بينها — ولا أدري كيف يحدث هذا — خارجا الى النور ليظهر نفسه ويثير القلق أو يبعث الهدوء • وقد تتزاحم في بعض الأحيان ويهاجم بعضها بعضا دون صبر او انتظار كانها تخشى أن تبقى مختزنة ولا تنتشر على الناس • مهلا ، لكل شيء وقت الزمت به نفسي؛ فالمحاكمة تقتضي مواجهة واستماعا الى الشهادة ولن اغفلهما وسوف استطيع في النهاية أن اصدر حكما على نفسي ، فهذه المحاكمة خاصة بي ولا يدخل فيها أحد غيري • لقد أصبح العالم بالنسبة لي لغزا واصبحت أنا بدوري لغزا للعالم ، وقد وقف كل منا في مواجهة الآخر ناظرا اليه بعين العجب دون ادراك للفرق بيننا ودون أن يكون هناك أدنى تفاهم •

ومرة أخرى اعود الى نفسي والى التكية • لقد احببتها ولا زلت أحبها انها هادئة ونظيفة كما أنها تخصني ، وتنتشر منها في الصيف رائحة تشبه ما ينشره زهر « الكلوبر » وفي الشتاء رائحة تشبه مانشمه وقت الثلج القارس والريح الباردة • احبها لأنها أصبحت مشهورة بي ،

تعرف أسرارى التى لم أبح بها لأحد والتى أخفيتها عن نفسى • انها دافئة وهادئة ، يهدل الحمام على سطحها فى الصباح البـاكر ، ويسـقط المطر على سقفها الهرمى الأحمر فيحدث صوتا رتيبا ؛ وهاهو الآن يسقط المطر بعزم واصرار ، ويستمر فترة طويلة بالرغم من أن الوقت صيف ، ويسيل فى المجارى الخشبية المثبتة فى أسفل السقف الهرمى ثم يأخذ طريقه فى الأرض حيث يضيع فى ليل مشئوم غطى بظـلامه الأرض ، وأخشى الا ينجلى أبدا ، وآمل أن تشرق الشمس قريبا ، أحبها لأننى متنعم بهدوء حجرتين خاصتين بى يمكننى أن انفرد فيهما عندما أنشد الراحة بعيدا عن الناس •

ما اشبهنى بالجـدول ، أنه غزير ومندفع احيـانا ، وفى أغلب الأحايين يجرى هادئا ولا يكاد يسمع له صوت • ولقد اصابنى الغم عندما جعلوا له سدا بالقرب من التكية وسخروه على أن يسـير لادارة عجلة المطحن ، وعلى العكس من ذلك سررت عندما اندفعت مياه الجدول فأطاحت بالسد واخذت تجرى هنا وهناك فى حرية مطلقة ، رغم علمى أنه بتسخير الجدول لادارة العجلة يمكن طحن الغلات الزراعية •

ها هو الحمام يظهر فى عشه أسفل السقف ويسمع هديله الخافت، فالمطر مازال يسقط منذ أيام والحمام لا يستطيع الخروج من عشه • وتلك اشارة الى ميلاد صبح جديد لم يظهر بعد •

تصلبت يدى التى تمسك القلم واضطرب ضوء الشـمعة وأخذت تدافع عن نهايتها بما تنثره حولها من ذرات اللهب الصغيرة ، بينما أخذت عيناى ترنوان الى أحرف السطور الطويلة •• ترنوان الى رموز الافكار ، ولا ادرى هل قتلتها او بعثت فيها الحياة •

٢

« ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ماترك على ظهرها من دابة »

بدأت الأمور تتعقد منذ شهرين وثلاثة أيام ـ ويبدو أنني سأحسب الزمن ابتداء من ليلة عيد « ماری جرجس » لأن هــذه الفترة هي فترتي الوحيدة التي اهتم بها ـ لقد زج بأخي منذ عشرة أيام في سجن القلعة ٠

كنت أسير فى الشـوارع عشية ليلة عيد « مارى جرجس » وقد بلغ بى الكدر والاضطراب مبلغا عظيما ، ولكنى كنت أبدو هادئا ، وهذا شيء يستطيع الانسان اكتساب فعله بالتعود ٠ سرت وكانت خطوتي لا تكشف عما بى من الاضطراب ، وجسمى وحده يقوم بهذا الاخفاء ، تاركا لى حرية الولوج فى سحب التفكير التى تتعذر رؤيتها لأكون كيفما أريد ٠ وكان من دواعي السرور لنفسى ان أذهب خارج القصبة في وقت العشى ، ذلك الوقت الهادىء ، كى يحتوينى الليل وحدى ؛ ولكن عملى كان يقودنى الى جهة أخرى ، حيث يكون الناس ٠ لقد كنت نائبا عن الحافظ محمد وكان مدعوا من جانب « جانيتش » العجوز صاحب الخيرات والحسنات ٠ وقد عرفت ان « جانيتش » هذا يعانى من المرض منذ شهور ولعله اراد أن يدعونا قبل الموت ، كما عرفت أن القاضى « عينى افندى » الذى اصـدر حكما بالسجن على أخى هو نســيبه ٠ ولذلك لبيت الدعوة بسرور آملا فى شيء ٠

سرت وهم يصحبوننى فى فناء البيت ثم فى البيت كعادتى : لا انظر الى ما لا يتعلق بى ، وهكذا كنت اتقرب من نفسى ٠

بقيت في الممر الطويل انتظر أن يصل الخبر بقدومي الى من يجب أن يعلم وكنت احس الهدوء التام كان احدا لا يعيش فى هذا المبنى الكبير أو كان شخصا لا يتحرك فى ممراته وغرفه ٠ بقيت فى جو تخمد فيــه

الحياة وتسكن الحركة كأني قرب محتضر ما زالت أنفـاسـه تتردد فى ناحية ما من هذا المكان ٠٠ فى جو يتعذر معه سماع صوت الخطوات التى تلاشت فى البساط ٠٠ فى جو كذلك الذى تجرى فيه المحادثات الهادئة همسا ٠ وقد أمكن للأذن ان تسمع بصعوبة ما يحدثه خشب السـقف والنوافذ من صوت ٠ وكنت أفكر ــ وانا أنظر كيف يرخى الليل ببطء أسـتاره الرقيقة على المنزل وكيف يرتسـم على زجاج النوافذ بتأثير ما تعكسه عليه البقايا الأخيرة من ضوء النهار ــ فى الشيخ وفيما أقوله له فى اللقاء الأخير ، بالرغم من أن هذه المرة ليست أول مرة أتحدث فيها الى المرضى ــ كما أنها ليست الأولى التى أودع فيها محتضرا الى الطريق العظيم ٠

ولقد اكدت لى التجربة ــ ان كان لابد منها فى هذا الموضع ــ ان كل شخص يحس الخوف أو الرهبة ازاء الأمر الذى ينتظره ، ازاء المجهول الذى قد يطرق باب قلبه المنقبض ٠

لقد قلت معزيا :

ان الموت يقين ، والايمان به أمر لابد منه ، كما أنه الشىء الوحيـد الذى نعلم أنه سيصيبنا ، وكل الطرق تقود اليه ، لا استثناء فى ذلك ولا مفر منه ، وكل ما نعمله هو الاستعداد له ، الاستعداد فور خروجنا من بطون أمهاتنا نستقبل الحياة ٠ ان قربنا منه دائما أكثر من بعدنا عنه ٠ فاذا كان الموت يقينا فلم نتعجب عندما يحل بنا ، واذا كانت هذه الحياة مدتها قصيرة تستمر ساعة أو يوما فلم نحاول ان نطيلها يوما آخر أو ساعة اخرى ٠ ان الحياة الدنيا متقلبة وخادعة ، واما الحياة الأخرى فهى خير وابقى ٠

وقلت :

لم يتملككم الخوف فتضطرب قلوبكم وتلتف الساق بالساق عندما يحضركم الموت ؟ ان الموت هو الانتقال من دار الى دار ، انه ليس فناء بل هو ميلاد جديد ٠ وكما تنشق قشرة البيضة عندما يحين موعد خـروج الفرخ منها يكون الحال عند الانسان اذ تنفصل روحه عن جسمه عندما يحين أجله ٠ ان الموت شىء لا مفر منه ، فهو معبر ضرورى للحياة الأخرى التى يصل فيها الانسان الى أوج قمته ٠

كما قلت :

ان الموت هو فناء المادة لا الروح ٠

وقلت :

الموت حالة انتقالية ، حيث تبدأ الروح أن تعيش بمفردها ، فهي قبل أن تنفصل عن الجسد كانت تلمس باليد وترى بالعين وتسمع بالاذن ، لكنها مع ذلك كانت تدرك بنفسها حقيقة الأشياء منفردة بذلك (١) ٠

وقلت :

في يوم موتي ، عندما يحمل نعشي ،

لا يدورن بخلدك انني ساشعر بالألم على فراق هذه الدنيا ٠

لا تبك ولا تقل : ياللخسارة ٠٠ ياللخسارة

فاللبن حين يفسد تكون الخسارة اشد وافجع

عندما تراني اوضع في القبر فاعلم أن فنائي لن يكون

فالشمس والقمر لا يفنيان بزوالهما !

يخيل اليك أن الأمر موت ، والحقيقة أنه ميلاد

كما يخيل اليك أن القبر سجن ، والحقيقة أن الروح أصبحت حرة ٠

أية بذرة لا تنبت عندما توضع في الأرض ؟

فلم اذن تشك في بذرة الانسان ٠

وقلت :

كن شاكرا يامثوى داود ٠ وقل : جاء الحق ٠ جاءت الساعة ٠ وكل انسان يسير في طريقه حتى يوافيه أجله ٠ الله يخلقكم في بطون أمهاتكم ، خلقا من بعد خلق في ظلمات ثلاث ٠ لاتخافوا ولاتحزنوا ٠

---

(١) مقتطفات بتصرف من آراء فلاسفة وشعراء المسلمين : الراغب الاصفهاني ، ابن سينا ، الامام الغزالي ؛ ومولانا جلال الدين الرومي ٠

وابشروا بالجنة التى كنتم توعدون · يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون · يايتها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضية فادخلى في عبادى وادخلى جنتى ·

كررت هذا عدة مرات ·

والآن هانا في حيرة ، اذ لا ادرى هل من الواجب ان أقول للشيخ الذى ينتظرنى ما قلته الآن وكررته ؟! والحق ان حيرتى فى هذا ليست من أجله هو وانما من أجلى أنا · فى المرة الأولى ـ وكم من المرات اكرر هذه العبارة فى هذه الأيام ـ لم يبد لى الموت بتلك البساطة التى كنت اومن بها واقنع الآخرين · فقد حدث اننى رايت حلما مفزعا ، رأيت اننى اقف في الفضاء فوق جثة اخي · وكان نعشه الموضوع أمام قدمي مغطى بقطيفة خضراء يضرب لونها الى السواد · والناس يقفون حولى على البعد في دائرة · وكنت لا أرى احدا ولا اعرف شخصا · كل ما أعلمه انهم تحلقوا حولنا وتركوني في سكون موحش فوق الجثة التي لا استطيع ان أقول لها : لماذا يهتز قلبك ؟ اذ كان قلبى أنا يهتز بفعل الخوف الذى ينشره حولى هذا الهدوء الشديد والسكون الموحش · كم يؤلمنى ذلك السر الذى لا أدرى دلائله · ولقد قلت حماية لنفسى من رهبة هذا الموقف: « ان الدلائل موجودة ! ولكننى لم استطع أن اجد هذه الدلائل · وقلت مخاطبا أخى : قم ، قم · ولكن الظلام كان يخفيه والضباب يذهب به فى ظلمات تزداد قتامتها كانه الطريق يأخذ فى الاختفاء فى مياه مجهولة الحدود · وكيف أخاطب الآن محتضرا بقولى : سر فى سبل ربك مطيعا وقد ملأنى الخوف واحتوتنى الرهبة من تلك الطرق الخفية التى تقف معارفى المحدودة ازاءها عاجزة عن تصورها وكشف أمرها ·

اننى أؤمن باليوم الآخر وبالبعث ، كما اخذت أومن كذلك برهبة الموت وبالفزع أمام ذلك الستار الأسود الذى يحجب عنا ماوراءه ·

لم أقرر شيئا عندما أدخلونى فى احدى الغرف وقادتنى اليها فتاة ، سرت مطرق الرأس حتى لا أرى وجهها وحتى اعد شيئا اقوله · سوف اكذب عليك أيها الشيخ ، وسيغفر الله لى ذلك · انى ساقول ما تنتظره انت وليس ما افكر فيه وتنتابنى من أجله الحيرة ·

انه ليس موجودا هنا ، فقد شعرت ـ ولم أكن قد رفعت بصرى بعد ـ بعدم وجود تلك الرائحة التى توحى بمرض شديد والتى تنتشر فى

الغرفة بعد الملازمة الطويلة من المريض للفراش ولا يمكن أن تخرج منها بواسطة النظافة أو بتجديد الهواء أو التبخير ٠

عندما نظرت أبحث عن مريض لازم الفراش مدة طويلة دون أن تنتشر منه رائحة الموت رأيت على الأريكة شابة حسناء تبدو فى مظهر يفوق مظهر الحياة الطيبة ٠

وربما كان عجيبا أن اقول هذا ، ولكن الأمر في الحقيقة هكذا ، وقد احسست بعدم ارتياح ، وربما كانت الأسباب كثيرة ٠ لقد استعددت للقاء الشيخ المحتضر متحملا ماتطفى على به سود الأفكار ، ولكنى وجدت نفسي أمام ابنته (ولم آكن قد رايتها قط ولكنى عرفت انها ابنته) ٠ لست اجيد التحدث الى النساء ، وبخاصة من في مثل جمالها وسنها ٠ ويبدو لى أنها في حوالى الثلاثين من العمر ٠

ان الشابات يحلمن بالحياة ويؤمن بالكلمات ، بينما المسنات يخفن الموت ويسمعن بشوق ولهفة ما يدور عن الجنة ، كما يدركن قيمة ما يفقدنه وكذلك ما يكتسبنه من الأشياء ، ولديهن الأدلة على ذلك ، وقد تكون تلك الأدلة غريبة ولكن قل أن تكون ساذجة ٠ أما عيونهن الخبيرة فتتمتع بحرية النظر حتى عند اطراقها ، وتبدو مريبة اذا ما استرقت النظر من بين الجفون ، ويزيد من الريبة ما نعرفه من أنهن يعرفن أكثر مما يظهرن وأنهن يقسننا بمقاييسهن الخاصة التى يصعب علينا ادراكها ٠ وهذه الرغبة في التطلع الذى لا حدود له ٠ ـ تلك الرغبة التى تظهر رغم محاولة اخفائها ـ اصبحن يمارسنها آمنات تحت حماية حرمتهن ٠ وأما نحن فلا يحمينا شيء أمامهن ٠ انهن ينظرن الينا مؤمنات بقوتهن التى لا يقمن باستغلالها ، متحصنات بها كما يتحصن بالسيف فى غمده ولكن أيديهن دائما على المقبض ، وكان من الممكن فى نظرهن أن يكون الرجل عبدا أو مخلوقا حقيرا يفخر دون مبرر بقوته التى لا يرجى منها فائدة ٠ وتلك القوة النفسية الحمقاء تبلغ فى اقناعها حد التأثير وان كنا لم نعرها اهتماما ، ويبقى الخوف مستوليا على الانسان برغم عزيمته النفسية وايمانه ببعض الممكنات المجهولة كذا ببعض أنواع السحر وبعض أسرار القوة الشيطانية ٠

كان لهذه الشابة قوة خاصة مستمدة من العائلة التى تنتمى اليها ٠ وكان موقفها حازما ، كما كانت حركاتها تصدر بطريقة الآمر (هكذا

اشارت الى لأجلس) ولكن هذا كله يجرى بشيء من الخفة ، وعلى درجة من الرقة لا أستطيع تقديرها ؛ نتجت من كثرة التعود ، ومن خفة لمعان العيون المكحولة التي تبدو من فتحتى حجاب الوجه ، ومن تلك الذراع التي بدت في وضع منحن فاشبهت رقبة الوز العراقى وذلك عندما امسكت الأصابع بطرف النسيج الحريرى الشفاف الذى يتشح به راسها ، واخيرا من تلك الجاذبية المثيرة التي تنبعث منها انبعاث السحر • انهـــا بنت ابليس • رأيتها هكذا بوصفى ريفيا ، ولعنتها بوصفى درويشـــا ، وأنا أعجب فى كلا الوصفين •

اخذ الظلام يغطى الحجرة ، ولم يعد هناك شيء يضيء سوى حجابها الأبيض وذراعها البيضاء • وجلسنا أحدنا فى مواجهـة الآخر ، وبيننا مسافة قليلة وانتظار حرج قطعته بقولها والظلام يكاد يسترها :

ــ انني طلبت الحافظ محمد !

ولم تكن راضية أو هكذا خيل الى •

ــ رجانى ان أحضر نائبا عنه ؛ فهو مريض •

ــ الأمر سواء ، فأنت صديق البيت

ــ نعم •

أردت أن أجيب اجابة اطول ، فيها شيء من الاحتفاء ، كان أقول اننى لا استحق كلمة انســانية طيبة اذا لم اكن جديرا برعاية الواقف الذى أهدى الينا التكية ، وأما بيتكم هذا فهو منقوش فى قلوبنا الخ •• اردت أن اقول شيئا يشبه الشعر ولكن صدر منى شيء مبتور •

ودخلت الفتيات يحملن الشموع وما يقدم للتحية •

وانتظرت ••

وأخذت الشموع التي وضعت على منضـدة مستديرة فى جانبنا تلقى الضوء بيننا ،وبدت الشابة أقرب الى واخطر على • وما اســـتطعت ان أعرف ما يدور فى خلدها •

لقد ظننت أننى دعيت من أجل والدها ، وكان لزاما ان أحضر حتى لوكنت اعلم أن هناك مفاجأة تنتظرنى او بعض الاحتمالات غير المتوقعـة أو بعض المصادفات السعيدة ، وذلك كى أحاول انقاذ أخى •

وكنت قد أردت في أثناء حديثي عن الموت والجنة أن أزج بكلمة أطلب بها العفو عن أخي ، لعل ذلك يكون من قبيل المساعدة لهذا الأخ أو من قبيل الثواب لذلك المريض وهو على أبواب هذا الطريق الكبير الذي لا نعرف عنه شيئا ، أو لعلي بذلك أشيد لنفسي صرحا من الخير والمكرمات .. أقول لعل شيئا من ذلك يكون ، لاننا نتذكر بين يدي الموت أن الملكين يجلسان على اكتافنا ويكتبان اعمالنا السيئة والصالحة . ونحن البشر نهتم جميعا بأن نصلح من أمور حسابنا ، ومن الصعب أن نجد عند الموت زادا أنفع من الصفح الجميل الذي تبقى ذكراه حية على الدوام ، ولعل محتضرنا يود الحصول على ذلك .

وفي الحق لقد كان حرص القاضي « عيني افندي » على ألا يفعل ما يغضب صهره أكثر من حرصه على أن يبقى بعض الرعاع في السجن . فلو أوصى اذن « علي أغا » بأن يطلق سراح أحدهم دون أن يكون هناك تضحية أو كبير عناء لكان هذا السعي من جانبه درجة من درجات الوصول الى الجنة . ولا أعتقد أنه سيرفض ؛ اذ ليس باستطاعته أن يحصل على شيء بطريقة أيسر من هذه .

واما فيما يتعلق بهذه الشابة فلم أكن أعرف عنها شيئا ، ولا عما سيكون بيننا من حديث ، كذلك لم يتضح لي الشيء الذي يمكنني من أجله أن أقوم لها ببعض الخدمات . ولقد عجزت عن اكتشاف أية علاقة بيني وبينها .

وقف كل منا في مواجهة الآخر كمحاربين اختفت الأسلحة وراء ظهريهما ، أو كخصمين لم يكشفا عن مقصدهما . وسوف تبرز حقيقتنا عندما نتحرك من أجل الهجوم . وقد انتظرت لأرى ما تريد أن تستولي عليه .. ماتريد أن تغتصبه . ولم يزل الأمل يعيش في نفسي ولكن لم يعد قويا كما كان من قبل . هذه المرأة صغيرة جدا ، وعلى جانب كبير من الجمال ، وهاتان الصفتان لا تتيحان لها فرصة التفكير في الملائكة التي تسجل اعمالنا . لقد اندفعت الى الدنيا وحدها ولا تفكير لها فيما عداها . لم تتردد طويلا ولم يطل بحثها عن كلمة ، فقد كانت كالمحارب الحقيقي الذي يذهب الى المعركة ثابت الخطى مستقيم النظر ، وذلك أمر توافر لها من عائلتها ومن كونها تخاطب درويشا . انها لا تخاف ولا تتردد أمامي ان كان من شأنها ان يراودها الخوف او يعتريها التردد في بعض الظروف .

في البداية كنت أتابع باهتمام صوتها الهادىء الرخيم ، وكنت أسمع حديثها كأنه الثوب يطرز أو اللؤلؤ ينظم ، وكانت كلماتها وتراكيبها تختلف اختلافا تاما عن تلك التي تجرى على ألسنة العامة في السوق ، لقد كانت من تلك الكلمات والتراكيب التي يستخدمها خاصة العائلات منذ زمن ، غير أنها كانت تكتسب جمالا ورونقا من جو الغرف القديمة واستمراره الطويل ٠

ـ ليس من السهل لي أن أقول هذا ، وما كنت أريد أن أقوله لأحد ولكنك درويش ٠ لقد رأيت وسمعت الكثير ، وساعدت الناس بقدر استطاعتك ٠ وأنت تعلم أن كل أسرة تحدث فيها أشياء لا يود أحد حدوثها ٠

ـ انك تعرف أخي حسن ، أليس كذلك ؟

ـ بلى ، أعرفه ٠

ـ أريد أن أتحدث عنه ٠

وهكذا قالت في البداية كل ما ينبغي أن يقال : امتدحت ، وأظهرت ثقتها ، واستندت الى وظيفتي ، وهيأتني الى ما ستقوله ، ذلك الذي لن يكون جميلا ، مشيرة في ذلك الى جميع الأسر كي لا أنسى أن الأمور السيئة تغشى جميع الدور وليست خاصة بدارها ٠ ومهما يكن من شأن هذه الأمور السيئة فان انتشارها على نطاق واسع يقلل من العيب الذي يلحق الناس من أجلها ، ويمنحهم الجرأة على الافضاء بها دون تردد ٠

وبعد هذه المقدمة اللطيفة التي لم تزد الموضوع شيئا ذكرت الشكوى المعروفة من الفرد المنحرف الذي كانت الاسرة تعلق عليه الآمال الكبيرة ولكنه خانها ببعض التصرفات المشينة ٠ ان هذا الفرد السائر في طريق الضلال لا يقلقه انحرافه ولكن الأسرة هي التي تقلق من أجل الانحراف وتشقى به ؛ اذ يلحقها العار بذلك أمام الناس ، كما يسيطر عليها الخوف والرهبة أمام الله ٠ وهذه النغمة الرثائية يرددها الناس أمامنا أحيانا بصدق آملين منا المعرفة التي نعد بتقديمها ولكننا قليلا ماتقوم بتحقيقها ، وغالبا ما يرددونها لنكون شاهدين أمام الناس كيف أنهم فعلوا كل ما كان في استطاعتهم فعله ٠ وقد يصل بهم الأمر الى أنهم يرددونها ليحركوا بها عباد الله ٠ وفي الحق لا يمكن أن يعزى انحرافهم الى وجود الشر الذي لايمكن استئصاله ٠

أصبحت هذه القصة محفوظة عندى ، فأفراد هذه العائلة يقصّونها علينا منذ زمن طويل ، ولذا أجد فى نفسى اهتماما بالغا عقب سماعى اياها • وقد كنت اصطنع باهتمام وأنا أتابع حديث الشابة تروى هذه القصة مخفيا هذا التصنع باظهار علائم تدل على الاهتمام • وكنت أتوقع دون سبب حدوث شىء غير عادى٠٠شىء قبل أن يحدث٠٠افاجأ به • ولكن لن يكون هناك ما سأفاجأ به ؛ فهى ستقول ما يتطلب الأمر أن تقوله ٠٠ ستشكو من أخيها ، وستطلب الى ان اتحدث اليه محاولا أن أرده الى الصواب • وسوف أتلقى هذه الشكاة الحزينة التى تتظاهر بها بشىء من تطييب الخاطر وبوعدى اياها بأننى سأبذل كل ما استطيع من جهودى الضعيفة أملا فى المساعدة الالهية • وسيصبح كل شىء على ما كان عليه من قبل•ستهدأ نفسها ويستريح ضميرها لأنها فعلت ماكان يجب عليها فعله ، وسيقف الناس على ذلك•سأتحدث الى حسن محاولا أن أجنب نفسى سخريته ، وسيستمر حسن فى حياته التى يحب أن يعيشها ، سعيدا بغضب أسرته من أجل ذلك • ان ذلك لن يلحق الضرر بأحد ولن يجلب النفع لأحد ، وعلى الأقل بالنسبة لى ولأخى السجين ؛ اذ أنها تتحدث ـ دون ان تكون هناك حاجة ماسة لحديثها ، ودون انتظار لفائدة أو توقع لنجاح ـ بشعور فاتر أداء لواجبها الاجتماعى؛ فقد كان القصد منه أن ترمى به فى آذان الآخرين ، وعلى ان أقوم باعلانه • ولكن هذا لا يعدو أن يكون تصرفا حسنا ،وموقفا يناسب مكانة الأسرة ، واعتذارا لمن لم يقع فى الانحراف من أعضائها وسياجا يفصلها عن المنحرف ويحميها منه •

هذه الشابة لن تستفيد كثيرا لا من قريب ولا من بعيد حتى استطيع ان أطلب العفو عن أخى • وكان هؤلاء الخارجون على نظام الأسرة أشباه حسن يتزايد عددهم بين حين وآخر ، كما كان يبدو أنهم يزمنون بالنظام وبسلطة آبائهم ، ولم يكن حسن الا أحد هؤلاء الكثيرين ؛ ومن ثم فليس الخروج على نظام الاسرة عيبا يخص أسرة بعينها بل أنه يعد ظاهرة كسائر الظواهر الكثيرة التى لا يمكن لارادة الانسان ان تتحكم فيها أو تسيطر عليها دون بذل الجهود الكبيرة •

لم تستحوذ على ولم تشدنى هذه القصة التى عرفت نهايتها منذ أن سمعت بدايتها ، وما تأثرت ولو قليلا بحزنها اذ لم يكن هذا الحزن صادقا ، غير أنها استطاعت أن تحافظ على درجته دون نزوع منها الى المبالغة • وقد كان فى اداء ذلك الواجب الذى لم يصدر عن القلب شىء من الاقناع دون مراعاة لأى اعتبار • وحيث لم يكن لدى سبب أو

استطاعة لكي استمع اليها باهتمام فقد اخذت انظر اليها واتاملها وكان ذلك يحدث مني باهتمام حتى خيل اليها أن مصـــدر هذا الاهتمام هو ما تلقى الى به من الكلمات • وهكذا بدا كل منا أمام الآخر على جانب من التهذيب •

كنت أنظر اليها منذ بداية لقائنا : فقد فاجاتني بجمال وجهها البضي الذي يرى لمعانه خلال حجابها الشفاف ، وبالضوء الصافي المنبعث من عينيها الواسعتين اللتين تكشفان عن حرارة اندفاعها وشدة ما تعانيه في نفسها • ولكن نظرى اليها ، في انتظار ما ستقوله ، كان سريعا يشوبه الاضطراب وعدم الاطمئنان ، وكان يكشف عن نفسي أكثر مما يكشف عن نفسها • وعندما نزعت عن نفسها اسلحة السحر التي تحيط جاذبيتها ، وحصنت نفسي بالتظاهر بحسن الاستماع اليها جذبتني لـــكي أراها بالعيون لا بالخوف والتردد •

ولم يكن هذا تطلعا عاديا بغية أن يكون ادراكنا لهـذه المخلوقات الفريدة التي لا عهد لنا بها أكثر شـــمولا وعمقا ، بل كان ذلك التطلع الذى نادرا مانشبعه أو على الأقل نحس به فى لقاءاتنا العابرة وذلك لبعض الأسباب المعقولة • لقد وجدت نفسى فجأة فى موقف يســمح لى بالنظر اليها في خفاء دون ان اؤثر في شيء من العـلاقات ظاهرا أمامهـا بمظهر الدرويش الذى يقدر ارادتها وسيادتها • شـعرت بشيء من التفوق في نفسى ، فقد استطعت ان اعلم الشيء الذى تفكر فيه كما استطعت دون حرج أن أراها • اما هي فما كان بامكانها ان تراني أو تعلم شيئا عني • وهذا التفوق الذى يتمناه الانسان دائما ولكن قل أن يتحقق له • وفي الحق ان استتار الانسـان أمنية ينشدها منذ القدم • انني وقد جمعتني الظروف بها لا أفعل شيئا يوصف بالقبح أو السوء ، بل أنظر اليها نظرة تتسم بالهدوء والتركيز مدركا أنه لن يجول بخاطرى اية فكرة يمكن ان اتذكرها في المستقبل بشيء من الخجل • لقد استرعى انتباهي في البداية يداها ، فحين ارادت أن تمسك طرف حجابها الرقيق وتحركت اليدان لذلك وكانت حركتهما بشكل معين وفي مجال محدود ـ ابتعدت كل منهما عن الأخرى واستتراتحت حجاب بحيث يصعب على الرائى التطلع اليهما • ولكنها عندما تركت حجابها عادت اليدان الى الالتقاء وشـعت فيهما على الفور الحياة واصبحت الصورة متكاملة • لم تكن هاتان اليدان تتحركان بشيء من السرعة أو الحيوية ولكنهما كانتا تحملان في سكونهما الساجي أو في حركاتهما البطيئة من القـوة ومن التأثيرات الخاصة ما يجذب على

الدوام اهتمامي . وكان يبدو لى فى كل لحظة انها ستفعل شيئا هاماً ، شيئا له خطره . وبهذا كانت تخلق من القلق المستمر المثير الذى يصحب الانتظار . سكنت يداها فى حجرها فى وضع متشابك وكانما يبدوان كان احداهما تفرق الأخرى فى شوق هادىء ، أو تمنعها من الابتعاد حتى لا تفعل شيئا لا يمكن فهمه . وظلت اليدان دون حركة وقد شملتهما تلك الموجات المستمرة التى كنا نراها بصعوبة بالغــة ، والتى كانت تشبه اهتزازات غير منتظمة تحدث نتيجة ضغط خفيف من فرط قوتها . ثم أخذتا تنفصلان فى هدوء كانهما اتفقتا على ذلك لترتفعا لحظة فحسب ، تطلب بعدها احداهما الأخرى ليهبطا برفق كطائرين متحابين على ركبتها المغطاة بالحرير الاطلس كي تتعانقا من جديد سعيدتين بهــذاالتعانق الصامت . استمر الوضع هكذا طويلا ، ثم تحركت اليد الملاصقة للركبة واخذت تتحسس باصابعها التى كانت تنقبض ببطء وقوة ماكان تحتها من الحرير الأطلس وما استقر تحته من الجلد ، بينمــا ظلت الأخرى فى مكانها ملتصقة به ســاكنة تتسمع حفيف القماش الأملس فوق الركبة المرمرية المستديرة . وقد تنفصل احداهما عن الاخرى لترتفع وتلمس بخفة ذلك القرط المثبت فى طرف الأذن التى تتوارى لحمرة خجلها تحت شعرها الفاحم ، أو لتبقى قائمة فى الهواء كى تسمع بعض الكلمات ثم تعود دون اهتمام منها بالحديث الى مكانها الأول حيث تلتقى باليد الأخرى التى ظلت على حالها دون حراك غاضبة لعدم تمتعها بشيء ولو قليل من الرعاية من جانب الاخت الشقيقة .

لقد كنت أتابع اليدين دهشا لتعبيرهما عن حياتهما المستقلة ، وقد بدتا لى كانهما مخلوقتانصغيرتان تمتلكان مسار حياتهما الخاصة وغرائزهما وحبهما وغيرتهما وشوقهما وشهوتهما المنكشــفة . وكنت فى ذلك بين سرور يتملكنى لحظة وخوف ينتزعنى أخرى من أجل فكرة حمقاء توحى بانغلاق تلك الحياة الصغيرة وانعدام قيمتها شأنها فى ذلك شأن الحياة بالنسبة للجميع ، لكن هذه الفكرة جاءت ومرت دون أن يكون لها أثر خطير ،لكنها كانت الطريقة السريعة على أبواب حياة أخرى فى نفسى لم أكن اود أن أوقظها .

كنت انظر اليهما من أجل جمالهما ، وكان ظهورهما يبدأ من المعصم حيث أحاط السوار وحيث انتهى الطرف المطرز لكم قميصها الحريرى . لقد استدار المعصــمان فى رقة وبلغــا من النحافة مبلغا يستطيع معه الانســان أن يتبين ماتحتهمـــا . وكان أجمل مافى هاتين اليدين تلك

الأصابع الطويلة المرنة التي يبدو لنعومتها بريق والتي بدت كأنها الوشائع ركبت في الكف ، وقد زادها حسنا ما ارتسم من الظلال عند ثناياها ٠ وكانت هذه الأصابع تكشف عن حيوية عجيبة عندما تنفرج ببطء أو تتجمع كذلك لتلتقي في باطن كفها الناعم الصافي ؛ اذ كانت حركة انفراجها وتجمعها أشبه شيء بحركة السنونو ٠

على انني اذا كنت قد وجهت اهتمامي بادىء الأمر الى هاتين المخلوقتين الصغيرتين اللتين تدب فيهما الحياة واللتين تشبهان الاخطبوط وتبدو ان لجمالهما كوردتين ــ فذلك لانني لم أكن قد تنبهت اليهما لا في البداية عندما كانت معظم رؤيتي موجهة اليها ولا بعد ذلك عندما كنت اكتشفها كما تكتشف الأرض المجهولة ٠ لقد كان كل شيء فيها على قدر من النظام والتناسق : نظرة العيون يحددها لون أسود قد خفت حدته ، وحركة اليد التي تكاد تختفي تحت النسيج الحريري الشفاف ، وانحناءة لينة للرأس يهتز على أثرها ماوضع على جبهتها من زبرجد حلى أطرافه بالذهب ، واهتزاز يصدر دون ارادة من القدم التي ادخلت في شبشب مزركش بالفضة ، أما الوجه فقد خلت منه التجاعيد وانساب فيه ضوء خفيف ينبع من داخله ، من ذلك الدم الذي كان يتحول الى انعكاسات حارة ٠ وأما الاسنان فكانت تبدو رطبة لامعة خلف شفتين تظاهرتا بالتراخي واتصفتا بالامتلاء ٠

لم تكن تملك سوى الجسد : وكل شيء عداه كان يتلاشى في ظله ٠ ولكنها لم توقظ في نفسي الرغبة ، فلم اكن أسمح بذلك لنفسي ؛ اذ كنت أخنق هذه الرغبة عند تولدها بالخجل ٠٠ بالتفكير في سني ووظيفتي ٠٠ بالتنبه الى الخطورة التي قد اتورط فيها ٠٠ بالخوف من القلق الذي يمكن أن يكون أشد من المرض ٠٠ بالتعود على السيطرة على نفسي وكبح جماحها ٠ على أنني لم استطع أن أخفي عن نفسي انني كنت أنظر اليها نظرة الرضا ، نظرة التمتع العميق الصامت الى النهر الهادىء ٠٠ الى السماء قبيل الغروب ٠٠ الى القمر في منتصف الليل ٠ الى الشجرة المزدهرة ، كنت انظر اليها كما انظر الى بحيرة طفولتي في الفجر ، ولكن هذا دون رغبة مني في امتلاكها ودون امكانية للتمتع بها غاية التمتع ، وفي الوقت نفسه دون استطاعة للبعد عنها ٠ على أنه كان يحلو للانسان ان ينظر الى يديها اللتين تتميزان بالحيوية كيف تتصيد احداهما الأخرى وكيف تنصرفان هكذا الى اللعب ، كما كان يحلو له ايضا أن يستمع اليها كيف تتحدث ، لا ، لا يلزم أن تقول شيئا ، بل يكفي أن تكون حاضرة ٠

وطاف بذهني أنه من الخطر أن انظر اليها هكذا بسرور ، ولكنى لم أعد أحس قدرة فى السيطرة على نفسى أو التستر • لقد استيقظ فى نفسى شيء ماكنت أرغب فى استيقاظه ، ولم يكن هذا هو الشهوة ، بل شيء قد يكون أشد منها ، هو الذكرى • ذكرى امرأة وحيدة فى حياتى ، لا اعرف كيف برزت من تراكم السنين • لم تكن جميلة كهذه ولم تكن تشبهها فى شيء • لم استدعت احداهما الأخرى ؟ ان اهتمامى بالأخرى التى لا توجد يفوق اهتمامى بهذه ، فمنذ عشرين عاما اعيش بين نسيانها وذكراها ، تجيء ذكراها عندما لا أريدها أو آكون فى حاجة اليها مرة مثل الشبح • ومنذ زمن طويل لم تخطر ببالى ، فلأى شيء خطرت الآن • أمن اجل هذه الشابة التى بدا وجهها وكانما صاغته احلامنا الآثمة ؟ أمن أجل اخى حتى انساه ؟ آمن أجل كل ماحدث حتى أقوم بلوم نفسى ؛ اذ اننى تركت الفرص جميعها تذهب وتعذر على ارجاعها الآن ؟

غضضت الطرف ، فليس هناك رجل قط يستطيع أن يأمن على نفسه او يعتقد أن كل مافات قد مات • ولكن لم خطرت هذه الذكرى عند أقل ضرورة ؟ ان هذه الشابة لا تهم الآن ، أما تلك الفتاة البعيدة فذكراها يحتل مكان نزعة خفية بأن كل ما حدث كان من الممكن حدوثه بصورة مخالفة ، حتى هذا الشيء يؤلمنى • ابتعد أيها الطيف فليس من الممكن ان يكون الشيء على غير ماكان ، وسيوجد شيء آخر يسبب لى الألم • لايمكن أن يكون على نحو آخر حتى يكون أفضل فى حياة الانسان •

أعادت انتباهى هذه الشابة التى أثارت فى هذه الذكرى حين قالت :

ـ أتسمع ؟

ـ نعم

هل اكتشفت أننى خلوت الى نفسى ؟

اننى اسمع •

واخذت تتابع حديثها •

كنت استمع اليها حقا ، مكان ذلك بكل تاكيد • كنت اسمع وأصغى ، وقد فوجئت بأنها لا تقص على الاطلاق قصة عادية ، كما لاتعد فى الوقت نفسه قصة غريبة • انها ليست مملة ، وكان الاصغاء اليها افضل بكثير من النظر اليها •

.. وفجاة أطل الأمل برأسه •

لقد انتهى حديثها وكنت على علم به ، اكملت قصة عن قدر عجيب لعب دوره باخيهـا الذى أتم دراسـته في استانبول ووصـل الى منصب يناسب علمه كما يناسب مكانة الأسرة (وربما كانت ترفع من قدر أحد هذين الأمرين وتخفض من قدر الآخر لأن منصبه لم يكن رفيعا ، ولكنها استطاعت هـكذا ان تجعل الأمرين في كفتين متوازيتين بتعـويض من احدهما الى الآخر) وكان أفراد الأسرة ـ وبخاصة والده ـ يفخرون به • وفجاة حدث شيء ليس باستطاعة أحد ان يجد له تفسيرا ، وليس بامكان شخص أن يعرف سببا حقيقيا له حتى « حسن » نفسه • انها تقول : لقد تغير تغيرا كاملا ، واصبح لا يمت بصلة الى « حسن » الشاب ، ذلك الذى كان كريم النفس رائع الخلق • وكان الجميع يتساءلون في دهشة بالغة ، اين ذهب علمه الذى كان المدرسون يتحدثون عنه معترفين به ؟ كيف انقضت هذه الأعوام الطوال دون أن تؤثر فيه ؟ واين أعدت هـذه الشرور ؟ لقد ترك وظيفته دون أن يستشير أحدا وجاء الى هذا المكان وتزوج بمن لا تناسبه ، ثم اخذ يعاشر الطبقة الوضـيعة من الناس ، ويتناول معهم الخمر ، وينفق أمواله دون حساب ، ويقوم في البلدة مع اصدقائه ببعض الأعمال الغريبة عند الراقصات (وهنا انخفض صوتها لكنه ظل بحيث يسمع) وفي أماكن أخرى لا يحسن ذكرها ، ثم أصبح يستاجر لاحضار قطعان الماشية للتجار (وبدا في صـوتها مايدل على الاشمئزاز الموحى بالشناعة) يجيء بها لبعضهم من « فلاشكا » وصربيا ، ويذهب بها الى آخرين في « دلماتسيا » والنمسا ؛ فهو بهذا العمل خادم للآخرين • لقد ظلت خسائره تتوالى وأحواله تنحدر وأمواله تقل ، وكان ان باع نصف ماورثه عن امه ، واصبح الأب في حال لا يدرى معها كيف يتصرف ازاء هذا الابن ، حتى لزم فراش المرض من أجله • وكان يطلب اليه ويرجوه دون جدوى أن يعود الى حالته الأولى ، كما كان يحذره ولكن تحذيره لم يجد نفعا ، ولم يصبح في اسـتطاعة أحد أن يرده عن هـذا الطريق • وانصرف عنه الوالد فهو لا يريد أن يسـمع شيئا عنه كمـا لا يسـمح ان يذكر اسـمه أمامه ، كأنه لم يكن على قيد الحياة • لقـد استنفدت هذه الشـابة دموعها في البكاء امام والدها ولـكن ذلك لم يساعد في شيء • وواصلت حديثها بهذا القول الذى أيقظ اهتمامي : وعزف الناي اغنية مثيرة ؛ لقد قرر الوالد أن يحرمه من الميراث بأن يكتب

الوصية أمام أعيان الرجال وأفاضل القوم ويعلن اسقاط حقه ، وحتى لا يحدث هذا ٠٠ وحتى لا يكون الوضع أشد فقد رجانى الوالد أن نتحدث أنا وأنت الى حسن كى يقوم راضيا بالتنازل عن حقه فى الميراث لئلا تحل لعنة ابيه به ولتكون الفضيحة اقل بالنسبة الى العائلة ٠ واضافت ان « عينى افندى » لا يعلم شيئا عن ذلك ولا يريد أن يتدخل بين الأب والابن ، وأن جميع ما تفعله انما هو بتدبيرها كى تخفف من الكارثة ، واننى والحافظ محمد نستطيع فى الحقيقة أن نمدها بكثير من المساعدة لأنها سمعت أن « حسن » يأتى الى تكيتنا ــ وكان ذلك من دواعى سرورها ــ ليتحدث فى بعض الأحيان مع رجال صالحين عقلاء ٠

لقد شكرت لها ما فعلته من كشفها عن أمرها أمامى حقا ان هذه الشابة اظهرت انها لا تقدرنى اذ هى لا تبالى ، ولكن هذا ليس بشىء فالقضية تتعلق باشياء أخرى تعد أكثر اهمية ٠

بورك مرض الحافظ محمد المزعوم ؛ فقد أتاح لى فرصة لم أكن لأحلم بها : اذ لو لم يكن أبوها على فراش الموت لما كانت هناك دواع قوية كى يساعدنى ٠ وقد بدا لى واضحا ان « عينى أفندى » يعرف هذا كله ، وربما كان قد رتب الكلمات التى نطقت بها زوجته عن رضا وارتياح ؛ فقد كان فى استطاعته ان يعرف أنه ليس من السهل أن ينتزع من ابنه حقه فى الميراث دون أسباب حقيقية ؛ اذ لو تأكد او تأكدا من امكان حدوث مثل هذا لما اهتما بأمر شرف العائلة ومكانتها ، ولما طلبا منا المساعدة ٠ فليكن ، هكذا قلت لنفسى وأنا أفكر ناظرا اليها باهتمام كان على ان أظهره وفاء لذلك الاهتمام الذى أخذت به نفسها منذ البداية ، ومحاولا الا يرتسم على وجهى من السرور أكثر مما يستوجبه الأمر ٠ وكان تفكيرى يدور حول وقوعنا معا فى المصيبة من اجل أخوينا ٠ أنت تريدين لأخيك الضياع وأنا أريد انقاذ أخى ٠ كلانا يتمنى تحقيق ما يريد ويعده أعظم امانيه ، والفرق بيننا ان أمنيتى شريفة وأمنيتك على العكس من ذلك ٠ فليكن ٠٠ اننى لا أبالى ٠ اننى لا أعرف شيئا عنكم ، ولكن يبدو لى اننى أرى بوضوح كيف تستطيعين ان تسيطرى على قاضيك المتخاذل الذى يحترم قوتك ومالك لأنه يفتقدهما معا ٠ ان طلبا حازما منك فى ليلة من لياليه المخجلة كفيل بتغيير مصير أخى ٠ وهكذا نعطى قليلا ونربح من وراء ذلك الشىء الكثير ٠ أو شكت ان أقول لها بصراحة : عظيم ، ليس هناك ما يدعو الى اخفاء مابداخلنا ٠ سأساعدك فى أمر « حسن » وتساعديننى فى أمر أخى ٠ انك لا تهتمين بأخيك ، وأنا على

استعداد لأن افعل أكثر من ذلك في سبيل انقاذ أخي • ولكني لم أقل لها بطبيعة الحال هذا ، ولو فعلت لغضبت من صراحتي تلك الصراحة التي يغضب لأجلها الآخرون • بل قلت موافقا على أن أجيبها الى ماطلبت، ان « حسن » يأتي الى التكية حقا ، وأنه صديق للحافظ محمد (وهذا حق) وانه صديقي (وهذا ما ليس بحق) ، وسنتحدث معه ليقوم بما تطلبه منه ، لأنني متأثر بحزن الأخت على اخيها وباهتمامها بمكانة الأسرة ، ولأن الأسرة اذا خسرت شيئا فان الخسارة تلحق الجميع • ومن أجل ذلك تجب المساعدة حتى لا تحل الفضيحة بمن هم أحسن الناس بيننا وحتى نجنبهم ضحك الشماتة والسخرية الذي يصدر عندما تحل المصائب ببيوت كرام القوم ، كما يلزمني اداء الشكر لصاحب المكرمات الذي أوقف التكية (ذكرت والدها قصدا حيث لم ترد ذكره) • واظن ان مقصدها كان حسنا وكذلك محاولتها ؛ اذ ليس هناك ما يؤكد لنا غير ذلك • غير أنه من الصعب أن يحرم الوارث الأول من حقه دون أسباب قوية •

ـ توجد الأسباب القوية •

ـ أتحدث عن المحكمة • حسن يتجر بالماشية ، هذا حق •• ولكن هذه المهنة ليست غير شريفة • ينفق ، نعم •• ولكنه ينفق مايكسبه • نصف ممتلكاته أعطاها لزوجته ، حقا •• ولكنه لم يبعه • فمن الصعب اذن أن تجد سببا ما ، فضلا عن أن يكون قويا •

احسست بأنني أكثر صمودا منها ، فقد تبدل ما كنت أحسه في نفسي ازاء هذه الشابة • لسنا كما كنا في البداية : هي المرأة ذات السيادة وصاحبة العيون الجميلة ، وأنا الدرويش الفقير الذي تلازمه طبيعته الريفية ؛ بل نحن الآن شخصان متساويان يتحدثان عن أعمالهما • وفي هذا المجال أحس أنني أقوى منها ، لقد كانت كلما أبديت موافقتي على ذلك الذي تتحدث عنه تنظر الى نظرات ملؤها الحنان والتقدير ، وهذا يعني أنها قد أدركت موافقتي تمام الادراك ؛ ولكن عندما كنت أقول مالايصادف قبولا عندها كان حاجباها ينقبضان ونظرها تشتد حدته اذ كان يبدو لها أن اعتراضي عليها نوع من الحماقة والتسلط •

قالت مهددة :

ـ سيحرمه الأب من حقه بكل تأكيد •

لم اهتم كثيرا بما اذا كان الأب سيحرمه من حقه أم لا ٠٠ كما لم يقلقني كثيرا غضبها ٠ لقد أردت أن أزعزع اصرارها لأصل الى ذلك الذى يشغلني ، وهو موضوع أخي ٠

وقلت في هدوء :

ـ من الممكن أن يحرمه ٠ ولكن الأب كبير السن وقد لزم فراشه منذ زمن ، وباستطاعة « حسن » أن يرفع الشكوى لابطال وصية الميراث بأن يطعن بمرض أبيه وفقدان قدرته وانه لم يكتب وصيته عندما كان في كامل وعيه ، أو يشير الى أن أحدا قد دفع أباه الى ذلك ٠

ـ ومن ذا الذى كان يستطيع أن يدفعه ؟

ـ أتحدث عن الشكوى ، أيا كان الشخص ٠ أخشى أن يصدر الحكم في صالح « حسن » وبخاصة أن المحاكمة لن تجرى هنا نظرا لوجود « عيني أفندى » ولا نستطيع أن ننسى أن ل « حسن » صداقات كثيرة تستطيع أن تفيده ٠

نظرت الى في صمت وكانت قد خلعت حجابها الحريرى من قبل ٠٠ عندما وضعت الشموع ٠٠ وعندما بدأت تحكي قصتها القبيحة ، فبدت عيناها وسط ذلك الوجه الذى زاده القمر بهاء تلمعان في قلق وإضطراب شأنها في ذلك شأن اللهب المتصاعد من الشموع الموضوعة في أرجاء الغرفة ٠

ان هذا الاضطراب لم تكن هي في الحقيقة صاحبته ، ولكنني أقبله على أنها صاحبته ٠ لقد بدر مني قليل من السخرية ؛ فأنا أعلم أنني أثير في نفسها القلق ؛ اذ أنها لم تكن تعتقد انني ، ساضع على عاتقها كل هذه الصعاب ، وان كانت تعلم يقينا أنني ساضع بعضها ٠

نظرت الى مشدودة الأجفان كأنها تحاول أن ترى على وجهي ما يدل على المزاح أو يشير الى عدم صدق يقيني وامكان ترددى ، ولكنها لم تر غير اليقين والحزن لجريان الأمور هكذا ٠ لقد خيل الى أن غضبها يتزايد كأنه يندفع من غور عميق ويشتد تزايده لعدم استطاعتها أن تستند في مقاومتها الى سبب يقوى على التبرير ٠ وانتظرت عن قصد حتى امتلأت بالغضب ثم أوقفته حتى لا يحدث انفجار ، بأن وافقت على كل شيء أرادته ، ولكن ظلت هناك بعض المؤاخذات : لابد أن نقوم بنصحه كي تمر الأمور دون شكوى تقدم من جانبه ٠ وقد ظننت أنها ستتمادى في

كبريائها وستقاوم اية محاولة لجعل النزاع أمام المحكمة وتغيير رغبة أبيها ، وعندئذ تنتقل الى حديث آخر ابدؤه معها • ولكنها اظهرت تنازلها عن المقاومة فورا • لقد كانت في عجلة من أمرها •

قالت تسأل وقد راودها الشك :

ـ وهل سيوافق ؟

ـ يلزم البحث عن أسباب حسنة معقولة ، لا تغضبه ولا تجرحه ؛ اذ من الصعب حمله على غير رغبته •

ـ آمل أن تجد اسبابا حسنة ومعقولة •

هذه هي السخرية ، وقد يعزى ذلك الى تعجلها • لقد ظننت أن الأمور ستجرى هينة •

وهكذا ظننت أنا ايضا •

قلت : سأحاول •

لا أدرى اتكون قد أحست في صوتي عدم الثقة ، والتردد ، والشك ؛ انني لا أدرى • كل ما أدريه أن ذلك الذى كنت احسه من السرور قد ضعف وخبا •

ـ الا تعتقد انه سيوافق ؟

ـ لا أدرى •

لو انني تحملت لحظة واحدة فقط ، ولو كان حبى أخي اقوى قليلا من مراعاة الجانب الاخلاقي في نفسي لانتهى كل شيء على خير ، أو لكان قد انتهى على أسوأ حال • ولكن من يدرى ، لعلني انقذت بذلك أخي •

لم اتنازل بسهولة عن رغبتي ، كما كان يبدو ذلك • لقد وجدت في لحظة واحدة أسبابا لا حصر لها لكل من الوجهتين : أن أوافق ، وأن أرفض • وكثيرا ما كان السبب واحدا للوجهتين معا • كانت تنتظر ، وخلال تلك الفترة القصيرة من الانتظار والتى تقرب من فترة التقاط الانفاس ، دوت في نفسي العاصفة ؛ فقد كنت بصدد تقرير مصيرى ومصير أخي • سوف اترك لها حرية التصرف بأخيها بعد أن يتورط فيما يقدمه له الاصدقاء من نصائح ، وسأتقاضى أجرى عن الجهد والخيانة ،

ولن تكون الخيانة كبيرة . سيعملون مايريدون بدوني ، وباستطاعتي أن أقدم المعونة كي يبدو الأمر جميلا . لماذا أخجل من نفسي ، ولماذا اتهمها ؟ انني انقذ أخي .

غير أنه كان لزاما علي أن أصيح بأعلى صوت واصدقه كي اتغلب على ذلك الصوت الذي يناديني بداخلي . انني لا أدري ماذا فعل أخي ، ولا ادرى الى أي حد هو مذنب ؛ ولكنني أعتقد انه لم يرتكب جرما كبيرا ، ذلك لأنه شريف ولا يبلغ من السن ما يمكنه من فعلة كبيرة . ولعلهم يفتحون له عن قريب أبواب السجن ليخرج منه . على أنهم اذا لم يفعلوا ذلك ، وحتى لو كنت متأكدا من انهم لن يفعلوه ، هل في استطاعتي أن أوافق على هذا التآمر الدنيء ضد الرجل الذي لم يقل لي في حياته كلمة نابية ! لا دخل للمال في هذه المسالة ، فأنا لا املكه ولا احترمه كثيرا في يد الآخرين ان المسالة تتمثل في شيء آخر خطير ، هو الظلم ، العمل القذر ، الغدر ، انتزاع الحقوق بالقوة . حقا انني لا اقدر أخاها كثيرا ، فهو ساذج ، متأرجح ، عجيب في أمره ؛ ولكن كيف يكون موقفي أمام ضميري ، ولو كان هذا الأخ على درجة من السوء أكثر مما هو عليها الآن ، اذا أنا قمت بمعاونة هذه الشابة التي لا تبالي بأمور الآخرين في عملية القرصنة هذه .

ماذا قلت للآخرين اذن في حديثي اليهم طوال هذه السنين ؟ وماذا أقول لنفسي بعد هذا كله ؟ ان أخي الحي سوف يذكرني دائما بفعلي الدنيء الذي لن أستطيع فيما بعد أن أمحو أثره . انني في الحقيقة لا أملك شيئا غير اعتقادي انني شريف ، واذا فقدت ذلك تهدم كياني وصرت حطاما .

هكذا كنت أفكر . وربما بدا للبعض عجيبا أن أتردد بين هذين الأمرين المختلفين ! لقد أصبح باستطاعتي ان ارتكب خيانة صغيرة لانقاذ أخي . ولكن اذا كان الرجل قد تعود أن يقيس تصرفاته بمقاييس ضميره الدقيقة وخشيته من الوقوع في الذنب أكثر من خشيته الموت فان ذلك لا يعد اذن عجيبا .

وعدا هذا ، كنت أعلم علم اليقين أنني لو ذهبت الى «حسن» وقلت له : تنازل عن حقك من أجل شأن أخي لتنازل فورا .

لكننى لم استطع • كما لم ارد ان أقول لها شيئا حتى أتحدث اليه•

قالت تتعجلنى ـ محاولة القضاء على ترددى ـ :

ـ لن استطيع أن أنسى هذه الخدمة التى ستقوم بها ، فأنا حريصة على الا يثار اللغط حول عائلتنا •

يا الهى ، بم ستكافىء هذه الشابة خدمتى •

قم يا احمد نور الدين ، قم وأخرج •

قلت ممهدا للقاء آخر :

ـ سأخبرك •

ـ متى !

ـ نور مجىء « حسن »

ـ سيرجع بعد يوم أو يومين •

ـ اذن بعد يوم أو يومين

نهضنا فى لحظة واحدة •

ولم تتحرك يدها الجميلة لتغطى بحجابها الشفاف وجهها •

كنا ندبر مؤامرة •

ولقد حدث امر قبيح بيننا ، ولم أكن متأكدا اننى بقيت بالتمام طاهرا •



« رب انهم لا يؤمنون »

كان القلق الذى لازمنى حتى لحظة دخولى المنزل ينتظرنى صابرا عند خروجي منه ، كما لو كنت قد تركت شيئا ثم خرجت لآخذه ٠

غير انه الآن صار أكثر تعقيدا مما كان منذ قليل ؛ فقد اتسع مداه، واشتدت وطأته ، وأصبح من المتعذر تحديده ٠ انني لم أرتكب شيئا من الشرور ، ولكن بقيت هناك ذكرى ما كان من هدوء رهيب ، وظلام تتعذر فيه الرؤية ، وأضواء عجيبة تلوح وتختفي ، وانتظار ممل ، وضغط نفسى مريع ، وأفكار يجملها الاستتار وتزينها البسمة ، وأسرار خجلى ٠ وكان يخيل الى أنني لم أصب شيئا مما كنت أهـــدف اليه ، وانني يقينا قد أخطأت فى شيء ، ولكنى لا أدرى فيم ، وكيف ٠٠ نعم لا أدرى وانما أحس أننى لست هادئا ٠ لقـد تحملت بصـــعوبة ذلك الاحســـاس بالقلق ، بالاضطراب الذى لم أستطع تحديد ســـبب له ٠ وربما كان ذلك لاننى لم أذكر أخى ولم احاول ان أزج بموضـــوعه خلال حديثنا ـ والحق أننى قصدت ذلك حتى لا أفسد شيئا ـ أو لاننى حضرت مجلسا دار فيه حديث قبيح ، واستمعت الى نوايا خبيثة ، ولزمت الصمت فلم أتول الدفاع عن الرجل البريء ٠ غير أنه كان لدى من الامور ما يعد أهم من هذا كله ، واذا فليس من الانصاف ان أشتد فى القاء اللوم على نفسى ٠ وكنت كلما قربت الى نفسى أمرا من هذه الامور وجدت مبررا للاعتذار ، ومع ذلك فقد بقى القلق يسيطر على نفسى ٠

كان القمر يرسل ضوءه الحريرى المترقرق ، وشواهد القبور تشع بالدفء ، ومن بين المنازل كانت تنبعث همهمات ليـل تقطعت أوصاله ٠ وفى الأزقة وأفنية الدور أخـذت تدب حركات الفتيـة والفتيـات ويسمع الضحك والاغانى البعيدة والهمس ٠ وبدت القصبة فى هذه الليلة (ليلة

عيد ماري جرجس) ترتجف وتموج وقد اخذتهـا حمى الحركة • وفجاة شعرت دون ما سبب أنني في عزلة عن هذا كله ، وتملكني الرعب ، وبدأ كل شيء يتخذ مقاييس عجيبة • ولم تعـد الحركات هي الحركات المالوفة ولا الناس هم الناس الذين نعهدهم ولا القصبة هي القصبة التي نعرفها• وما رأيت قط هذه الاشياء في مثل هذه الحال • وما كان يدور في خلدي أن في استطاعة الناس أن يتغيروا بهذه الدرجة في يـــوم واحد وساعة واحدة ولحظة واحدة • كان دماء الحوريات قد ثارت ولم يستطع احد من الناس ان يقوم بتهدئتها • لقد رأيتهم زوجا زوجا وسمعتهم زوجا زوجا• كانوا وراء جميع الأسوار ووراء سائر البوابات • لم يكن ضحكهم ونظرهم وحديثهم كما كان في الايام الاخرى ، وكانت أصـــواتهم قـــوية تشبه الصياح ، وصراخهم ينطلق كالرعد في هذه العاصفة التي تنـذر بالشر ، والجو كان مشبعا بالذنوب • والليل قد امتلأ بها ، وستحلق الساحرات فوق أسطح المنازل التي انسكب ضوء القمر على أجزاء منها فاشبه انسكاب اللبن • ولن يبقى أحد من الناس عاقلا ، فسينفجر الجميع من الشـهوة والغيظ وقد أصابهم الجنون والرغبة في هلاك أنفسهم جميعا في لحظة واحدة • وأما أنا فالى اين أتجه ؟ يجب التوجه الى الله وطلب الرحمة منه لجميع المذنبين أو عقوبتهم ليعودوا الى صوابهم • كان الغضب يسرى في اوصالي كما تسرى الحمى أو قشعريرة الاغماء • اليست هناك نتيجة لكل ما نفعله ؟ اأصبحت كلمة الله التي ننشرها وندعو اليها بكماء هامدة ، أم اصبحت أذنهم صماء لا تعيها ؟ أضعف الايمان الصحيح فيهم حتى أوشك على الانهيار أمام قطيع من الرغبـــات المسعورة كما ينهار السياج أصاب العطن أعواده ؟

ترامت من وراء الأسوار الخشبية أصوات ساخنة تصدر من الشابات اللاتي يستعددن للعيد بوضع البيض الأحمر مع زهر الـ « ميلو دوح » في القدر الممتلىء بالمـــاء ، كي يغسلن وجوههن به عند طلوع الفجر • انهن يعتقدن كسائر المتبربرات في القـوة السـحرية التي تكمن في الازهار والليل •

انطلق صوتي خلال السور الخشبي يقول : عدمتن الحياء ! عدمتن الحياء والخجل ! بأى دين يكون ايما نكن ؟ ولأى شيطان تسلمن انفسكن؟

كان من غير المجدى أن نفعل أو نقول شـــيئا في تلك الليلة على الأخص • وفي منتصف الليل ســـتذهب هؤلاء الفتيـــات الى الطواحين وسيغتسلن عاريات فيما يتناثر من ذرات مياهها قرب العجـلات مشبها

البخار ، والشياطين الذين يقومون في ذلك الوقت من أوكارهم سيضربونهن بأكفهم المغطاة بالشعر على أفخاذهن الرطبة التي تلمع تحت ضوء القمر ٠

أخذت اقول لهؤلاء العابرين من الشبان المراهقين : اذهبوا الى بيوتكم ، غدا عيد ماري جرجس ، عيد النصارى وليس عيدنا ، لا ترتكبوا الذنوب ٠

ولكن الأمر لديهم على حد سواء ، وكذا لدى السكان جميعا في هذه القصبة ٠ وليس هناك من يستطيع أن ينتزع منهم تلك الليلة ٠

لقد أصبح لهم منذ القديم حق في ارتكاب الذنوب ، يمارسونه في ليلة عيد ماري جرجس ، ويحافظون عليه ، غير مبالين بدينهم ، بل فاعلين ما يحرمه ٠ يرتكبون الفواحش في الساعات الاربع والعشرين الممتلئة بالروائح المغرية التي ينشرها زهر الـ «ميلوروح» كما ينشرها الحب ٠ ان هذا الزهر يشم من رائحته الشريرة رائحة المرأة ، وهذا الحب يشم من رائحته رائحة أفخاذ المرأة ٠

لقد انتصرت الذنوب في هذا الالتحام بين النهار والليل ، وبدت كأنها انسابت من دلو كبير ، أو اندفعت من وعاء الرغبة المحكم ٠ ان الزمن البعيد الذي نراه غريبا عنا يزحف في اثرنا أقوى منا متمثلا في ثورة الجسد التي تستمر لحظات ثم تظل ذكراها الى أن تأتي من جديد ثورة أخرى ٠ وهكذا يسير الأمر دون توقف ٠ وكل شيء عدا هذه الثورات التي حققت انتصار الذنوب منذ الأزل كان يمر على الخاطر مرا سريعا ٠ وفي الحق ان الفاجعة لا تتمثل الفاجعة في تلك الفواحش قدر تمثلها في استمرار ما يرتكبه الآخرون من الشرور خلال العصور ، ذلك الاستمرار الذي تفوق قوته قوة الايمان الصحيح ٠ ماذا فعلنا ؟ ماذا أفدنا ؟ ماذا هدمنا ؟ وماذا بنينا ؟ أليس من العبث أن نحارب الغرائز الطبيعية التي هي أقوى من اي شيء يستطيع أن يقدمه العقل ؟ ألا يكون أكثر جفافا وأقل جاذبية ذلك الذي نقدمه بدلا من تلك السعادة المترعة التي لا تأبه بعقل أو قانون ؟ بأي شيء نواجه تلك المفاتن التي تدعونا منذ الأزل ؟ ألا يقوم أجدادنا القدامى الذين كانوا يعيشون في البرية بالاستيلاء علينا والعودة بنا الى زمنهم ؟ انني لا أرغب في شيء آخر سوى أن يكون خوفي أشد مما تكون عليه الحقيقة ؛ ولذا أخشى أن يكون نظر روحي القلقة أصفى من نظر هؤلاء الاخوان الذين ترى لديهم الدنيا أقرب من الآخرة ٠ انني لا أتهم أحدا ٠ ربي ، أنت تعلم كل شيء ٠ فكن رحيما بي وبهم وبجميع المذنبين٠

تذكرت تلك الليلة ، ولا زلت أذكرها . ذكرتني بهـــا على الأقل حرارتها التي كانت تضايق أنفاسي ، وفراغها الذي كنت اشعر به وأحس فيه بشهوة الآخرين تسحقني . وقد شاءت ارادة الله ألا تكون هذه الليلة على غرار الليالى الاخر ، كي ينهار علي فيها ـ كما لو كانت موعد لقاء أعد منذ زمن طويل ـ مايشطر حياتي ، وكي يباعد بيني وبين ما كنته خلال أربعين سنة مرت في هدوء .

سرت في طريق العودة الى التكية ، خائر العزم محطم النفس ، ولعل الوحيد الذي أصابه الهم من سكان القصبة في تلك الليلة .. كنت معذبا بما رأيته من تلك الفوضى التي سادت الازقة وغيرت مظهرها ، وبهذا الضوء الخافت الذي يرسله القمر ، وبالخوف المنبعث دون سبب ما في نفسي ، وبعدم الاطمئنان الذي يملؤني بالنسبة للعالم . كنت كانما أمر بين بيوت محترقة ، وقد بدت التكية الهادئة النائمة كانها الملجأ المبتغى أو الحصن المنشود ، تردني جدرانها الضخمة الى الهـدوء الذي اراني في حاجة اليه والى السكون الذي لن يكون منفرا . سوف أتلو سورة يس ، وسوف أعيد بالدعاء الاطمئنان الى نفسي التي تتعذب بصورة أشد مما يرضى عنه الله : اذ ان المؤمن الحق لا يسمح لليأس والتعاسة بالتسرب الى نفسه ، وأما أنا المذنب فقد بلغت من التعاسة مبلغا جعلني أنسى السبب الذي وجدته في الطريق ، وكنت أستعين على استعادته بقـــوة ذاكرتي ، وذلك كي يكون هناك ما أعزو اليه قلقي . لقد اردت أن يكون ذنب هذه التقاليد الوثنية التي قوى التصاقها بنا هو السبب الوحيد ، اذ كيـف يمكنني أن أترك الآخرين يعيشون في ظلام .

لم يكن من الضروري أن أجـري وراء السـاهرات بالازقة في تلك الليـــلة ، اذ لم أكن أهتم بذنوب الآخرين . ولكني كنت أريد أن أنحي افكاري عن اخي وعن المحنة التي هبطت علي . وقد نجحت فقط في ان أعود كسير النفس فاقد الاطمئنان .

كثيرا ما كنت أتردد في بعض الليالي على شاطيء النهر تحت ضوء القمر ، تاركا لخواطر ذكرياتي الهادئة أو للرغبات غير الواضحة أن تستولي على شيئا فشيئا ، وكنت كلما أحسست في نفسي بالهدوء الصافي الذي لا ينذر بالعواصف عرفت أن قدمي ستتجهان بي الى هناك . ولكنني عندما كنت أتوقع ولو قليـلا حدوث شيء من العواصف كنت أحبس نفسي بين جدران غرفتي الاربعة ، وألزمها السير في الطريق الثابت المعروف .. طريق العبادة . ان بين هذه الجدران يكمن شيء حبيب الى نفسي كذلك الذي

يكمن في تلك الاشياء العائلية المتوارثة التي أصبحت جزءا لا يتجزأ منا ، كما اصبحت لنا بمثابة تعزية معروفة ومقبولة تهدىء وتميت الفكرة الخطيرة التي في نفوسنا أحيانا دون رغبتنا ، وأصبحنا كذلك نؤمن بها دون تفكير ونلقى بضعفنا تحت قوتها المستمرة عبر القرون ، ونقلل من همومنا الانسانية ومصائبنا التي اعتدنا أن نقيسها بمقاييس ازلية ثابتة وأن نضعها هكذا في موضع غير متساو ونقوم بجمعها حسب مقاييس ضئيلة الشأن •

لم أستطع في تلك الليلة أن أمكث في الحديقة ؛ فقد كان لزاما على أن أنفرد بنفسي بغية النسيان • وفي الحق لقد كان كل شيء هنا مغريا ؛ فضوء القمر ينساب رطبا تفوح منه رائحة الكبريت ، والزهور تنشر بقوة ووفرة رائحتها المثيرة ، وقد كان من الواجب انتزاعها والقاؤها تحت الأقدام كي لا يبقى سوى بعض النباتات الضارة ، وارض قد اجتث ما بها من زروع ، وقبور دون شواهد ؛ لئلا تذكر بشيء ، لكي يبقى الفكر الانساني المجرد ، دون صور ، ودون رائحة •• دون علاقة بالاشياء التي توجد حولنا • وهذا النهر يجب أن يوقف حتى لا يرسل في سخرية خريره ، وهذه الطيور التي توجد فوق فروع الأشجار أو تحت أسقف المنازل يجب أن تخنق لكي تشقشق بلا وعي • والطواحين التي تغتسل تحتها الفتيات العاريات يجب أن تهدم • والأزقة يجب أن تسد• والبوابات يجب أن تسمر • ولا بد من استخدام القوة في تهدئة الحياة حتى لاينطلق الشر •

الهمني الرشد ياربي •

لم أكن أفكر على الاطلاق بهذا الغضب الجامح في الناس وفي الحياة• لقد احسست بالفزع • من أين أتتني هذه الرغبة في الا يكون هناك شيء؟

أردت أن أدخل غرفتي ، بل كنت مضطرا الى دخولها ، ولكنني لم أستطع • كان الليل الذي كنت أكرهه يجذبني بقوته العجيبة التي كانت تفوق قوتي • وعندما استسلمت اليه أحسست بالهدوء ؛ فقد استولى على بطغيانه الذي خففت من حدته أنغامه الهادئة الحالمة التي انطلقت تسلى نفسها ، وبسرابه الذي كان يشكل حركات يصعب رؤيتها ويبدي أشباحا واشكالا على جانب من الغرابة وينشر روائح تنفذ الى الدم وتصبح جزءا مني وتشم منها رائحة الحياة التي تترابط أصواتها الدقيقة وحركاتها لتشكل شيئا تفوق صلابته جميع ما كنت أريده •• شيئا لا ينفصل عني بل كأنني واياه شيء واحد •• شيئا لم يكتشف بعد ولكنه سيظل امنية •

ولقد نسيت منذ قليل أن ضوء القمر كان رطبا ، وأنه ينشر رائحة كبريتية ، وكان ذلك بتأثير الخوف منه · والآن قد زال · ها هو ضوؤه الهادىء فوقي وفوق العالم ، فآثار ذلك الخوف اذن هو من شيء في نفسي ·· من شيء كان يمكن حدوثه أو يتوقع حدوثه اذا استمررت على حالة الفراغ هذه بدون دفاع وبدون حماية ، ولكنه قد حدث · فاما أن ازيل ذلك الخوف باستعادتي قوة التحمل وبايقاظي الضمير وبتقويتي مالدى من ارادة ، واما أن تندفع من خلايا دمي السوداء رغبات غير معروفة، وسيكون الوقت قد فات اذ ذاك ، ولن أستطيع ان أتيقن أنها ماتت او احتبست ، وعندئذ لن أكون مرة كما كنت من قبل · ولكن يخيل الى أنني لا أملك القوة على ايقاف هذه الرغبات ·· لاعيدها الى ظلام مقرها المحدد لها ، وأنني كذلك لا أرغب في ايقافها · لم يتضح لي بعد كنه هذه الرغبات ، وكل ما أعرفه أنها كانت قوية ، ويمكن الجزم بأنها ليست بريئة والا لما كان لها أن تعمد الى الاختفاء ·

في تلك اللحظة ، لحظة الضعف والانتظار التي كنت ارجو استمرارها ، نجاني الله من تهدم خطير · وأقول « الله » لان الصدفة لم تكن لتستطيع ان تكون هكذا موافقة ، وان تكون لها المبادرة بذلك الحسبان الدقيق ، حتى تأتي في تلك اللحظة القصيرة الخاطفة ، حيث اخذت القوى المجهولة تستعر في نفسي · نعم لقد كانت مجهولة لان نظري الباطن لم يسلط عليها الضوء بعد ، ولكنها كانت متجمعة وفي طريق الاستعداد للانطلاق · وبعد ، فحين كنت أتحدث مع «ملا يوسف» شعرت بابتهاج ، ولكنني شعرت في الوقت نفسه بألم لأنني لم أستطع ادراك كنهها ؛ ولذا كنت مضطربا داخل نفسي ، وظاهرا بمظهر الهدوء الذي تعودت الاستتار خلفه أمام الآخرين ·

لقد اقترب « ملا يوسف » في هدوء ، وسمعته عندما صرت الرمال تحت قدميه اللتين تسيران بحذر وعندما لفحتني حرارة أنفاسه · عرفت من هو على الفور دون أن أدير وجهي ناحيته ؛ اذ لا أحد هناك يطأ الارض هكذا في صمت · وقد أتيح له ذلك بفضل تدربه منذ زمن بعيد على السير بالخطوات الحذرة ·

ـ هل شغلتك عن التفكير ؟

ـ لا ·

كان صوته هادئا ، يخفي وراءه شيئا دون مهارة في تصنع الاخفاء ، اذ كانت نبراته تعلن عن ذلك ، وعيناه تكشفانه بلمعانهما واضطرابهما ·

لن أساله شيئا . يجب ان يقول هو بنفسه . لقد ارتضى ألا تكون هناك أسرار شخصية عدا تلك التي لا يمكن لأحد ان يعرفها . فالنظام في التكية شديد ، ولو لم يقل اين كان لظل يذكر طيلة حياته هذا الكتمان .

ـ كنت في تكية « سنان الدين » حيث كان عبد الله افندى يتحدث عن المعرفة .

ـ عبد الله أفندى هذا ناسك . وهو أحد أتباع الطريقة البيرامية .

ـ أعرف ذلك .

ـ ماذا قال ؟

ـ كان يتحدث عن المعرفة .

ـ اهذا كل ما تعرفه ؟ اما حفظت شيئا ؟

ـ حفظت الأبيات التى قام بشرحها .

ـ لمن هذه الأبيات ؟ .

ـ لا أعرف

ـ فلاسمعها .

ـ لا يعرف أهرمان سر وحدانية الله .

سل آصف فهو يعرف ذلك .

هل يستطيع العصفور أن يبتلع اللقمة التي تبتلعهـــا العنقاء هل تستطيع الجرة أن تستحوذ على مياه البحر الكبير ؟ » .

ـ هذه الأبيات لابن عربى . وتقـــول ان معرفة حكمة الله ممكنة للأصفياء فقط ، للقلة النادرة فحسب .

ـ وماذا يبقى اذن لنا ؟ .

ـ أن نعرف ذلك الذى نســتطيعه . فالعصفور اذا لم يستطع أن يبتلع اللقمة كالعنقاء فسياخذ منها ما يستطيع ابتلاعه . وانت بالجرة لا تستطيع أن تستحوذ على مياه البحر جميعها ولكن هذا القدر الذى تناله بها هو من ماء البحر .

اندفعت مسرعا أدحض فى سهولة ويسر صـــوفية ابن عربى ، وقد تملكنى السرور وداخلتنى المتعة · ولعلنى كنت أرى للمرة الاولى ان السموات وأسرار الكون ، وكذا أسرار الموت والوجود انسب مجـال يستطيع الانسان أن يلجأ اليه فارا من هموم الدنيا · ولو لم توجد تلك الأشياء لوجب ابتداعها لتكون لهؤلاء الأناسى بمثابة الملجأ ·

ولكن هذا الرجل الشاب لم يكن على درجة تؤهله لسماع مثل هذا الحديث · فالانسان يتحدث غالبا من أجل نفسه · ولكن يجب أن يحس صدى كلماته · وقد كان هذا الشـاب يقف امامى · وقد أضاء القمر وجهه بحيث يستطيع الناظر اليه أن يرى جميــع ما به من خطوط · وقف وقفة المطيع لا يستطيع الانصراف حتى أسمح له به ، ولكن فكره قد انصرف عنى ، والله يعلم أين ذهب ، والى أى مسافة وصل · اننى لا أستطيع أن أظفر به · لقد ترك الجسد يعبر بوجوده الفارغ عن اطاعته الواجبة · كانت الابيات والتصوف والمعرفة بعيدة عن اهتمامه وعن امكانيـة فهمه ، حتى انه كان يسمع بعينيه مراقبـا تلك الحركات التى تأتى بها شفتاى · وكان هذا الوضع بالنسبة الى أكثر سـخفا من أن أصيح فى بئر خالية فيرتد الى على الأقل صدى صوتى · انه لم يبذل ولو محاولة من أجل الفهم كى يستجيب الى رايى ولو لم يفهمه · ولم يطل كذلك سماعه لهذه الأبيات فى تكية « سنان الدين » ·

كان عديم الخبرة ، فقد عرض نفسه لضوء القمر ولم يكن قد تعلم بعد كيف يتوارى فى الظلمة ، أو يستتر خلف المظاهر الخادعة ، فعيناه كانتا تحملقان كانه يبالغ فى السماع ، ولكن لمعانهما المشاهد قبل هذه اللحظة يشهد ضده ، يقول انه لا يسمعنى ، يكشف أمره · ماذا تحمل هاتان العينان ؟ أية صـــورة او أية ذكرى ، أية كلمة لا يزال الى الآن دويها ، أية صحوة حالمة ، أية خطيئة ؟ ان ضوء القمر الشاحب لم يستطع أن يخمد لون خديه اللذين أشرقا بما ارتسم عليهما من علامات الرجولة لفلاح شاب قد اكتمل نضجه ، وبما تدفق من دمه القوى فيهما · ماذا يطلب فى هذا الهدوء الذى يسود هذا المكان المقدس ، فى هذه القيود الشديدة لطريقة الدراويش · انه من أصحاب الدنيا ، من أصـحاب ليلة عيد مارى جرجس ، من عشاق الظلام الدافىء الذى يخالطه بعض الضوء والذى يبعث على الذنب · وأن رائحة « الميلو دوح » تنتشر منه ، جاء بها فى يديه ·· فى انفاسه · لقد استولى عليه سحر الأزقة التى

انطلقت فيها الغرائز ، وامتلأ سمعه بهمسات القطا فلم يسمع شيئا بعد • ولعله مازال يحس في كفه الخدرة بدفقات دم لجسد آخر قد امتلأ شبابا • وكنت ترى اللهب الذى يصعب تهدئته والذى يضيق به جسمه يخرج مندفعا من خلال فتحتى عينيه • لقد أصابه دنس هذه الليلة فاصبح مدنسا ، ملفوحا ، مستنيرا ، مطهرا • ولذا يجب أن يوضع هذه الليلة خلف سبعة أقفال كيلا يحترق فى ناره ونار الآخرين • سوف يخنقه هدوء هذه التكية وانفراده فيها • لماذا لا يعود الى الليل ، لماذا لا يبقى على الحالة التى تمثل حقيقته ، فمن الصعب أن ينتظر طويلا حتى يبزغ الفجر • ان رائحة « الميلودوح » تنتشر فى هذه الليلة ، وسوف يحدث شىء فيها •• شىء مفزع للغاية ، فالقمر سيظل طويلا ، وعلى ضوئه المتموج الذى تترامى فيه ظلال كثيرة مسعورة ستنبعث شرارات من قطرات الماء تحت الطواحين ، وسوف ينشر القمر ضوءه أسفل تلك الأشجار التى تسمى بالحورات الرومية ويظل يطلق نداءه طول الليل • يجب الذهاب تلبية لندائه الى هذه الليلة التى تبقى بعد زوال كل شىء فيها • يجب الذهاب دون صحبة أحد نعم يجب الذهاب والتسكع •• الذهاب دون عودة •• الذهاب من أجل الموت •• الذهاب من أجل الحياة •

ها قد طغى السيل • لم يستغرق هذا بالتأكيد غير لحظة تقدر بطرفة العين ، وقد أدركت ذلك بوقوف الشاب أمامى ، وعلى وجهه ابتسامة صماء شاردة • انه لم يسمع شيئا •• لم يشعر بشىء من الجلبة فى داخلى •• لم يتعجب لما استولى على من الجنون فجأة ، من هذا الذى أصابنى كثورة بعد قلق وخوف من أجل أخى ، بعد شكوك كانت تهزنى من أعماقى • لقد اندفعت قوة الحياة التى كانت تنتظر انهدام الاسس التى كنا قد بنيناها ، واجتاحت فى هديرها المبادىء التى رعيناها وتعهدناها ، ولم تترك سوى الأنقاض والخراب • لم أستطع آنذاك ، وقد حلت لحظة الفزع هذه ، ان احاكم نفسى ، أو ألجأ الى التوبة ، أو أتوجه بالدعاء الى الله • لقد كانت حرارة الموقف لاتزال فى درجة تعوق تصرفى ، وكنت كمن أصابه الرعد فهد كيانه وجعله مسلوب القوى •

قلت له فى هدوء : اذهب • قلت اذهب ، وربما لم اقل ، ولكنه فهم من حركة الشفتين أو من حركة اليد ، فقد كان يرغب فى الذهاب • وذهب فى تراخ كى لا يظهر تلك اللهفة التى كانت دون شك تدفعه الى

الانطلاق كي يصبح في اقصر وقت منفردا بذلك الشيء الذي جاء به في عينيه • قلت اذهب فقد كان شاهدا على ما يدر من ضعفي ، بالرغم من انه لم يكن واعيا ولم يكن سميعا او بصيرا ، ولكني اعلم انه كا نهنا ، ولم أكن ارغب أن أشعر بحياء امامه ، ولا أن أحس بكره تجاهه • أردت ان أخلو بنفسي •

لقد عرفت الاضطراب والقلق من قبل في نفسي ، ولكن ذلك كان يأتي ويزول ، كأنه لحظة اغماء تمر بي ، كأنه صراع غير واضح ضد النظام في نفسي • كان ذلك بمثابة زلات قصيرة لم تكن لتترك أثرا • اما في تلك الليلة فقد بدا لي أن ارتباكا شديدا أصابني ، وأن جميع الاتصالات في نفسي قد انقطعت ، وانني لست كما كنت من قبل ، فقد ادركت أن احدى قدراتي بامكانها أن تحدث الدمار اذا استمر بقاؤها •

لقد شعرت أول ما شعرت بالخوف • انه مازال بعيدا ، ولكنه عميق ، محقق ، وكأنه كان من المعلوم أنني سأدفع حساب تلك اللحظة • سيعذبني الله بقلق ضميري ، ولن أنتظر طويلا حتى يتحقق ذلك • ربما في هذه الليلة • وربما الآن •

ولكن شيئا لم يحدث • كنت أقف في المكان نفسه ، وقد توارت قدماي في رمل الحديقة ، مشتت الخاطر مهدود القوى ، أكاد لا أزال أحس بحرارة من أثر النار التي تلتهب في داخلي • اغفر لي يا ربي • كنت أهمس بلا وعي ، بلا انفعال ، غير متذكر الدعاء الذي يمكن أن يساعدني في تلك اللحظة •

ابتعدت عن هذا المكان كما لو كنت أفر ، ووقفت بجانب السياج المطل على النهر •

خيل الى أنه لا توجد أية فكرة في نفسي ، وأن حواسي قد تبلدت مما دهمني • ولكن ياللعجب ، كنت واعيا كل شيء ، كنت أشد احساسا وأشد تقبلا لكل شيء حولي مما كنت منذ قليل • كانت الأذن تتصيد أصوات الليل الرنانة ، واضحة نقية ، كأنها كانت ترتد من الزجاج • وكنت اميز كلا منها عن الآخر ، وكلها كانت تلتقي في هدير واحد ، تشكله أصوات المياه والطيور والرياح الهادئة وأصوات بعيدة ضالة وعواء الليل الهادىء الذي تموجه ضربات الأجنحة المجهولة الخفية • ان شيئا من ذلك لا يضيرني ولا يقلقني • وددت لو تزايدت تلك الأصوات ، وكثرت الضوضاء ، واشتد الهدير ، وتعددت ضربات الاجنحة • وددت

لو تضاعف كل شيء خارج نطاق نفسي • لعلني كنت أسمع هكذا بوضوح حتى لا يتسنى لي الاستماع الى نفسي •

كانت هذه هي المرة الوحيدة في حياتي التي تظهر فيها الاصوات والضوضاء ، وكذلك الاضواء والأشكال ، على حقيقتها ، كلحن ، كخرير ، كرائحة ، كشكل ، كرمز ، كاثنات للامور خارج حدود نفسي ، وذلك لأني كنت اسمع وأرى في بعد • دون تدخل ، ودون حزن أو سرور ، ودون تعرض لها بافساد أو اصلاح ، فقد كانت تعيش منعزلة ، دون مساهمة مني ، ودون تأثير عليها لتتشكل باحساساتي • هكذا كانت تعيش ، مستقلة ، صحيحة ، غير ممتزجة بفكرتي عنها ، تاركة تأثيرا خاملا كذلك الذي يتركه الشيء لا يتعلق بنا ولا يدرى صاحبه • كانت كشيء ما يحدث ويتم بالرغم من أى شيء آخر ، دون أن يرجى منه نفع ، ودون أن يكون هناك احتياج اليه • لقد باعدت بيني وبين هذه الأشياء فصرت منفصلا عنها ، عن جميع الأشياء من حولي • وبدا العالم في صورة تقرب من الاشباح ، تدب فيه الحياة ولكنه خامل • واما انا فقد كنت مستقلا لا يستطيع أن ينفذ الى داخلي شيء •

كانت السماء صحوا صافية ، لا توحي بالوعيد ولا تبعث على السلوى : كنت أنظر اليها في الماء ، وقد انعكست صورتها ، وبدت هكذا متغيرة منكسرة ، فكانت بصيصا من الضوء قريبا مني ، ولم تكن ذلك الفضاء الرحب الذي يكتنفه الغموض • وكان يرى في الماء الصافي انعكاسات لتلك الاحجار البيضاء تبدو كأنها بطون الاسماك التي تنام او تموت في هذا القاع القريب الغور • كانت الاحجار مستترة جامدة تشبه في ذلك افكاري ، غير أن هذه الافكار سوف تسبح ولن تبقى في قاع نفسي • فلتكن كذلك • لتقم عندما تعود اليها الحياة ، عندما يكون في استطاعتي ان أستحوذ عليها بالمعنى الذي لا يقتصر على التلميح • انها الآن هادئة ، وربما كان ذلك لأن حواسي قد انصرفت تمتع نفسها ، وتعيش منعمة في جو من الهدوء لا أدرى كم تستمر مدته • ياللعجب ، ان الحواس تكون طاهرة وبريئة عندما لا احملها طغيان الافكار أو الرغبات ، فهي في هذه الحال تحررني وتعود بي الى الطمأنينة ، الى زمن بعيد ربما لم يكن موجودا ، يبدو جميلا ونظيفا بقدر يجعلني لا أومن بوجوده السابق ولو كانت الذكرى تحمله ما أجمل أن يتحقق ذلك الذي ليس في الامكان ، أن نعود الى ذلك الحلم ، الى الطفولة البعيدة التي يتعذر ادراكها ، الى السعادة الواقية المنبعثة من مصدر أزلي تسوده

الحرارة ويغشيه الظلام · لم أشعر بالحزن ولا بجنون تلك اللهفة التى لم تكن رغبة اذ لا يمكن تحقيقها ولو كفـــكرة ، والتى كانت ترف فى داخلى كضوء خفت حدته ، ملتفتة ناحية الوراء الى جهة ما ، الى ماليس فى الامكان ، الى ماليس فى الوجود · وكان النهر يجرى الى الوراء ، وطيات الماء الصغيرة المكبلة بضوء القمر الفضى لم تكن تجرى ، ومرة أخرى كان النهر يعود الى منبعه ، والسـمك المتحجر ذو البطن الابيض أصبح طافيا على سطح الماء · ومرة ثالثة كان النهر يجرى الى منبعه ·

وعندئذ أدركت ان فكرتى أخذت تستيقظ ، بادئة بتحويل ما أراه واسـمعه الى ألم ، الى ذكرى ، الى رغبات يتعذر تحقيقها · وبدأت خلايا مخى الغـاضبة تمتص وتتشرب · لقـد كانت قصيرة تلك اللحظات التى قضيتها فى الانفصال ·

٤

« أم للانسان ما تمنى »

كانت هناك أصوات لأقدام تنبعث من الزقاق بجانب سور التكية المغطى بشـــجر اللبلاب ، لم أعرها أدنى اهتمـام ، فقد كنت أتبينهـــا بصعوبة ، بواسطة شيء يمكن أن يبدو غير عادى ، ولكن التأثير ظل سطحيا للغاية ، غير متضح ، فالتشتت لم يكن يسمح لى أن أعقد صلة بين الظاهرة والسبب الممكن · وكذلك لم يكن لدى اهتمام بمعرفة ذلك الذى استطاع أن يمر بالتكية فى ذلك الوقت المتأخر من الليـــل ·· بالبيت الأخير لمكان الخروج من القصبة · لم يتحرك فى نفسى شيء ·· أية يقظة شعورية ·· أية هواجس · كانت تلك الخطوات تحمـــل من الدلالات قدر ما يحمله رفيف الفراشات فى الليل ، ولم يكن هناك شيء ينبهنى بأن تلك الخطوات تســتطيع أن تكون نقطة فاصلة فى حياتى · ولو كنت أعرف ذلك لأغلقت الباب بمزلاج ضخم ، ولدخلت البيت · فلتحل مصائر الآخرين بدونى · ولكننى لم أكن أعرف ، وأخذت أواصل التأمل فى النهر ، محاولا أن أراه كما رأيته منذ لحظة ، وحده ، بدونى · ولكنى لم أوفق · وعما قريب سينتصف الليل ·· وشيئا فشيئا وجدتنى أتجـــه ، وقـــد استولت على الوساوس ، الى لقاء مع تلك اللحظة التى تستيقظ فيها أرواح الظلام بأنواعه ، متوقعا أن ينبعث من هدوئى هذا شيء يمكن أن يكون خيرا أو شرا ·

عادت الخطوات ، هادئة ، أشد هدوءا مما كانت عليه منذ قليل · لم أدر كيف كانت ، ولكننى كنت متأكدا من أنها الخطوات الاولى نفسها · شيء فى داخلى كان يعرف ·· شيء غير عادى لم يكن يدور بخلدى أدركته الاذن ، ووعته ، احدى الخطوتين كانت حذرة ، والأخرى غير مسموعة ، وربما كانت مسموعة ، اذ أنه لا يمكن أن نتصور أن أحدا يسير على قدم

واحدة ، ولذا كنت أخلق بنفسي صورة لتلك الخطوة الأخرى غير الموجودة. لم يسمع ما يدل على الخفير ، أتكون الروح ذات القدم الواحدة قد بكرت في الحضور ٠

توقفت الخطوات أمام الباب : الخطوة الحقيقية الهادئة ذات الحذر ، والخطوة غير المسموعة التي صورتها ٠

التفت وانتظرت ، بدأت الخطوات تهمني ، شدتني بما تبعثه من فزع ٠ كان ولا يزال بامكاني ان اتجه ناحية الباب واغلقه بمزلاجـــه الضخم ، ولكنني لم أفعل ذلك ٠ كما كان باستطاعتي أن أستند على الباب الذي نخره السوس وأن أسمع ، أيتنفس صاحب الخطوات ، أم أنه انطلق ، أم تحول الى ظلام ٠ ولكني انتظرت ، كنت أساعد الفرصة دون أن اشترك فيها ٠

سمعت الخطوات في الزقاق ، كانت أكثر من ذي قبـل ، كانت تجري في سرعة ونظام ٠ هل سيلحق بهم صاحب القدم الواحدة ، أم أنه ليس موجودا بعد ؟ ٠

فتح الباب ، ودخل شخص ٠

وقف عند المدخل واستند بظهره على الباب العريض ، كما لو كان منهوك القوى ، أو يريد أن يمنع أحدا من الدخول ٠ كانت تلك الحركة تصدر دون وعي ودون جدوى ، فجسده النحيل الصغير لا يستطيع ان يقوم بمنع أحد من الدخول ٠

كان هناك شجرتان تلقيان بظلهما على الباب ، وكان ذلك الشخص يقف فيما شح بين الظلال من ضوء ، كأنه محكوم عليـــه ، منفصلا ، مكشوفا ، وكان يود دون شك أن يختفي في احلك ظلام ٠ ولكنـــه لم يجرؤ على التحرك ٠ لقد مرت الخطوات في حالة انطلاق ، وكان يسمع وقعها على أحجار الطريق ، ثم هدأت عند المنحنى في المضـيق ، حيث موقع حراسة الارناءوط ٠ لقد سأل المطاردون دون شك عن هـذا الذي يقف متصلبا على الباب ٠ وادركت أنا وهو أن المطـاردين ســوف يعودون ٠

كان كل منـــا ينـــظر الى الآخر ، ثابتـــا في مكانه ، وقـــد لزم الصمت • وعبر المسافة التي تفصلنا من الحديقة ، وعلى اللوح الحجرى في مدخل الباب ، رأيت رجله الحافية ، وكان وجهه أشد بياضا من جدار التكية • ومن هذا الوجه الابيض ، وهاتين اليدين الضعيفتين المصلوبتين ، وهذا الصمت ، برزت صورة الفزع في هذا الانتظار •

لم اتحرك ولم أطلق من فمي كلمة ، حتى لا أخـــل باللعبة المثيرة لتلك المطاردة والفرار • وكان انتظارنا يزداد توترا كلمـــا قل امكان بقائنا على هذا الوضع • أحسست انني جذبت الى شيء غير عادى ، الى شيء صعب عنيف ، لم آكن أعرف من منهم العنيف ، أهذا الذى يفر أم هؤلاء المطاردون ؟ ولم يكن ذلك يثير اهتمامي في هـــذا الوقت ، كانت المطاردة تنشر رائحة الدم والموت • وكان كل شيء يتقرر أمـــام عيني لقد برق في خاطرى أن الحياة بذاتها تشـــكل عقدة دموية ، وربما كان هذا بصورة أقوى مما كنت أظن •• أشد امتلاء •• أكثر قربا ، بادية الخشونة ، وهذا هو شأنها على الدوام ، في جميع المطـــاردات الصغيرة والكبيرة التي لا تنقطع • لم آكن متحيزا الى أحد الجانبين ، ولكن موقفي كان مهما على وجه الخصوص • كان يثيرني ما كنت أستطيعه وهو أن أكون قاضيا ، وأن اقضي بكلمة واحدة تسمع على المـــلأ في كل شيء ، فمصير هذا الرجل كان في يدى ، لقد كنت بالنســـبة اليه قدرة ، ومـــا شعرت قط بمثل هـــذه القدرة في ذلك الذى يمكنني القيام بـــه الآن • انني لم اغدر به ، فتحية بريئة مني ، أو سعال عادىء يصدر عني كان كفيلا بأن يعرضه للهلاك • ولم يكن امتناعي عن ذلك لأن عينيـــه اللتين لم أتبينهما جيدا من مكاني هذا تقسمان دون شك طالبتين مني الرحمة ، أو لأن فعل ذلك ربما كان فيه الظلم ، وانمـــا لأني أردت أن تستمر تلك اللعبة حتى أكون متفرجا وشاهدا ، مفزعا ومثارا •

رجع المطاردون ، لم يعودوا يجرون ، بل كانوا يســـيرون ، مضطربين ، غاضبين فقد تعقد كل شيء ، والآن لم يعـــودوا مطاردين فحسب بل متهمين كذلـــك : فهروبه كان معناه اتهامهم • وهنـــا لم يعد في الامكان أن يحل الأمر سلميا ، فالنتيجة على آية حال لا بد أن تكون شرا •

لزم الصمت كل من اشترك في هذه اللعبة ، انا والهارب والمطاردون كان الأرناءوط الذين يقومون بالحراسة عند المضيق يغنون اغنية ممطوطة

الأصوات أتوا بها من موطنهم الاصلي ، وكانت تلك المرثية الغريبة التي تشبه تشييع البدو تزيد صمتنا كآبة ووحشة ٠

اقتربت الخطوات ، هادئة مزعزعة ، وبدأت أتابعها بتوتر عميق ، وكنت كأني آونة مطاردا ، وآونة هاربا ؛ اذ لم أكن في الحقيقة هذا ولا ذاك ٠ تمنيت بشغف عظيم أن يقبض عليه ، وتمنيت ايضا أن يقوم بالهرب وعجيب أن يمتزج في داخلي الخوف على الهارب والرغبة في الصياح لأنبه على مكان وجوده ٠ لقد كان هذا كله يتحول الى متعة مشـــوبة بالقلق والضيق ٠

وقف المطاردون أمام البـاب ، وامسكت عن التنفس ، وبالعضلات المشحونة بالتوتر وبحال نفد معها الصبر كنت أحيا تلك اللحظة التي كانت تقرر مصيري ايضا ٠

امسك الهارب دون شك عن التنفس ايضا ٠ لم يكن يفصله عن المطاردين غير اللوح الخشبي الدقيق ، غير مسافة أقل من الشبر ، ولكنهما كانا على بعد ، كأن جبلا يفصلهما ، هم بالجهل وهو بالأمل ٠ كان لايزال مصلوب اليدين ، ووجهه يلمع لمعان الفوسفور ٠ ازداد توتري ، وبدأت تهتز أمام عيني مفارق يديه ورجليه ، واستحال وجهــه الى بقعة بيضاء أصبحت علامة دالة على فزعه ٠

هل سيفتح المطاردون البـاب ويدخلون ؟ أتنزلق قدمه على الحجر الأملس فتنبههم ؟ هل أسعل بدافع من التوتر فيكون ذلك نداء مني ؟ لو حدث شيء من ذلك لالتقى المطـاردون والهارب وجها لوجه ، ولقـاومهم لحظة واحدة فقط اذ كانوا أكثر عددا ، ولكان صراع بين يأسين ،ولتحققت النهاية للهارب ، فسينقضون عليه بغلظة وخشونة بسبب ما تملكهم من الخوف والغضب من جراء فقدانهم اياه ، وبسبب ما استولى عليهم من السرور بظفرهم به ، ولنظرت حل المعضلة في اشـــمئزاز ، ولرجوتهم فقـــط أن يغـادروا حديقة التكية ٠ ولكنني في تلك اللحظة أحسست باحساس الهارب ، وكان ذلك بطريق الصدفة ، اذ كان في الامكان ان يراودني احساس المطاردين ، وربما لم يكن ذلك بطريق الصـدفة ٠ لقد رايت الهاب وتمنيت ان يبتعد عن الباب هؤلاء الذين لم أكن قد رايتهم ، لكي لا أرى النهاية البغيضة ٠ وخيل الى أن امنيتي هذه تساعد الرجل الذي يدافع عن الحياة بهذا الضعف ، وتمنحه شـــيئا من الأمل في أن يصادفه الحظ السعيد ٠

وحقا ، كان ارادتى القوية أثرت ، فابعدت الخطوات عن الباب ، ولكنها توقفت فى غير نظام ، فالبعض منهم لم يكن على يقين بشأن ما اذا كان يلزم القيام بمحاولة أخرى ، وما زال باستطاعتهم الرجوع ، ولكنهم لم يرجعوا ، بل واصلوا السير منحدرين فى الزقاق، ومتجهين نحـــو القصبة ٠

ظل الهارب فى وضعه الذى كان عليه ، ومن المؤكد أن تصـــلب عضلاته قد قل ، وأن قوته كانت تتضاءل كلما ابتعدت الخطوات عنه ٠

كان من الخير ان انتهى الأمر هكذا ٠ فلو قبضوا عليه ، أو ضربوه امامى ، لاحتفظت ذاكرتى طويلا بصورة غليظة ، ولكان فى الامكان أن يظهر الندم على ما جال بخاطرى لحظة من استعدادى لتسليمه اليهم ، وعلى ما كنت احسه ـ متألما ـ من تنعم ٠ ولكنى تنعمت بهذه العملية لصـيد الأناسى ، وسوف تكون صورة الندم اضعف من ذى قبل فيما لو تحقق ظهوره ٠ اننى لم افكر فيمن يكون المخطىء ومن يكون صاحب الحق ، فما كان هذا يهمنى ؛ لأن الناس يتباحثون فيما بينهم من حساب ويكتشفون ما يجرى من الخطأ بسهولة ، والعدل هو الحق فى أن نفعل ما نظنه واجبا وعندئذ يستطيع العدل أن يكون كل شىء ، حتى البهتان أيضا ، ومادمت لا اعلم شيئا فليس هناك من واجب على ، ولذا لا اريد أن أتدخل ٠ولكنى بالرغم من ذلك تدخلت ، بالصمت ، وهذا هو التدخل الذى لا يناقضنى اذ أستطيع دائما أن ألتمس له سببا يسهل على نفسى قبوله ، اذا ماتوصلت الى معرفة الحقيقة ٠

اتجهت صوب التكية ، تاركا ذلك الهارب لنفسه ٠ انه الآن يستطيع أن يفعل ما يحب ، فالمطاردة قد جاوزته ٠ ليذهب فى طريقه ٠ كنت أنظر أمامى ، حيث الرمل يغطى الطريق ، وحيث الحشائش الخضراء تنمو على جانبيه ، لكى أنحيه عن فكرى ، لكى اقطع الخيوط الدقيقة لتلك الصلة التى كانت بيننا منذ لحظة فقط ، لكى يبقى على ما هو عليه فى حقيقة أمره مجهولا ، لا تتقابل معه عيونى ولا يتـــلاقى معه طريقى ٠ ولكنى رايت ـ دون أن أنظر ـ ابيضاض قميصه واصفرار وجهه ، وربما كان ذلك فى نفسى ، بالصورة التى أذكرها ، رايت يديه قد أسدلتا الى جانبيه ،وقدميه قد تضامتا ، فلم يكن متوترا بعد ـ ولا مشدودا الى تلك العضـــلات المتقلصة المضطربة التى تعيش فقط لتلك اللحظة المستمرة التى تقـرر الحياة أو الموت ، وانما كان قد تحرر من فترة القلق ليكونمستعدا للتفكير فى ذلك الذى ينتظره ٠ وقد عرفت أن شيئا لم يتقرر بينه وبين هؤلاء

الذين يطاردونه، وان الأمر قد امتد فقط ؛ لقد تأجل الى وقت غير معين، ربما لساعة قادمة فحسب ، اذ كان مقدرا عليه ان يهرب وكان عليهم ان يطاردوه • وعندئذ خيل الى انه رفع يده في تردد ، وهو لا يكاد يفصلها عن جسده ، كأنه اراد ان يستوقفني ، ليقول لى شيئا ، ليدفعني الى ان اتدخل في مصيره • لا أعلم :هل رأيت هذا ، وهل فعل هو هذا حقا ، ام انني توقعت الحركة التي يمكنه ان يقوم بها ، والتي يجب ان يفعلها • لم اتوقف ، لم ارد ان يكونمصدر اهتمامي بعد • أدرت المفتاح فى القفل الصدىء ودخلت التكية •

وفى الغرفة كان لا يزال يرن فى اذنى ذلك الصرير الذى أحدثه الباب ، والذى كنت قد انفصلت به عن الخارج • كان ذلك بالنسبة للهارب ترك لحريته ان تنطلق ، وربما كان عاملا لازدياد خوفه ورهبته ، حيث انفرد أخيرا •

كنت اشعر بحاجة الى تناول كتاب ، ليكن القرآن او كتابا آخـــر عن الأخلاق أو عن عظماء الرجال أو عن الأيام المباركة ، لتبعث الى الهدوء موسيقى جمله المعروفة التى اومن بهـا ، والتى لا أكاد أتناولها بشىء من التامل والتفكير ، بل احملها فى داخلى شأنها فى ذلك شأن الدورةالدموية فنحن لا نعيها ، وهي بالنســـبة الينا كل شيء ، اذ انهـا تمكننا من أن نعيش ونتنفس ، كما تجعل أجسادنا منتصبة ، وتهيىء لكل عضو ان يقوم بأداء وظيفته • ومن أجل ذلككنت اشعر دائما بهزة عجيبة لهذا الرتل من الكلمات الجميلة تتناول الاشياء التى لى بها علم او دراية • واننى فى هذا المجال المعروف الذى أسير فيه وأحيا داخله أشعر بالامان ، اذ أنه مجال بعيد عن الخداع وما يبعث على الحذر •

غير أنه لم يكن من الصواب ما فعلت من عدم تعييني للكتاب الذى اردت تناوله ، ومن طلبى الحماية بتلك الافكار المشهورة ، فمن اى شىء كنت أخاف ؟ ومن اى شىء أردت الهرب ؟

لقد عرفت أن الرجل ما زال هناك ، بالحديقة ؛ اذ لو فتح الباب لوصل صوته الى السمع • لم اضىء المصباح ؛ بل ظللت واقفا فى ظلام الغرفة ، ورجلاى فى ضوء القمر ، وكنت أنتظر • ماذا كنت انتظر •

كان الهارب ما زال هناك ، فكل شىء يشـــير الى ذلك • يكفى ان التكية انقذته ، يجب أن يذهب • لماذا لا يذهب •

كانت رائحة الخشب القديم تنتشر في الغرفة ، وكذا ما بلي من الجلد ، وما اختزن من هواء التنفس • كانت الاشباح تمر بهـا فقط في بعض الاحايين ، اشباح الشابات اللاتي متن قبل زمن • لقد تعودت عليها فقد عاشت أصحابها في هذا المكان قبلي • والآن ، وفي هذا السكون المقيم وفي هذا الملجأ القديم الذى حل به شخص جديد مجهول يحمل في وجهه بقعة بيضاء ويصلب نفسه لشدة قلقه على الباب ـ عرفت انه غير وضعه ، فقد رأيت كيف أعاد الى جسده استرخاءه ، كما لو كانت مفاصله قد انحطمت فجأة ، وكان هذا أحدث الأمور وأهمها واشدها ألما • وقد كنت أتذكر تقلصه ، وشدة معاناتـــه ، وتوتره الذى كان يتزايد ويتربص للدفاع غير مستسلم لأحد ، كنت أتذكر لوالب عضلاته المشدودة مستعدة للاتيان بما يثير العجب • لقد أحببت تلك الصورة أكثر من حبي هـذه الصورة المتهدمة • وكان أملي في تلك الصورة أقوى ، وتحررى من الخوف عليه لديها ايسر ، فقد كانت توحي باعتمادها على قواها الذاتية ، أمـا الأخرى فقد بدت بائسة ، في حاجة الى من تعتمد عليه • كما تذكرت تلك الحركة المرئية أو غير المرئية التى كان يرغب في أن يلفت بها نظرى اليه • كان يناديني ، كان يرجوني الا آمر به ويفزعه كما لو لم يكن هناك شيء يهمني • انه ان لم يكن قد فعل ذلك ، وكنت قد تخيلت أن تلك الحركة حركة ضرورية للحياة التى تدافع عن نفسها تطلب بها المساعدة، فقد أصبح اذن مجردا بالتمام من اية قوة ، وها هو الآن أصبح مجردا من اى أمل • واأسفا لعدم علمي شيئا عن هذا الرجل ، اذ لو كان لما اهتممت بأمره •

اقتربت من النافذة ، وفزعت لضوء القمر اذ سلط بشدة على وجهي كأنه كشفني • نظرت من الجانب فلم أجد الهارب عند الباب ، لقد ذهب نظرت بشيء من الحرية في جوانب الحديقة ، لكي أراها خالية • ولكن الهارب لم يذهب • كان واقفا في ظل شجرة وقد استند اليها • رأيته عندما كان يتحرك ، وكانت رجلاه في ضوء القمر ، فقد حجبه الظل الى ما فوق الركبة •

لم يكن ينظر الى البيت ، ولا الى النافذة ، اذ لم يكن ينتظر مني شيئا • كانت أذنه مسلطة على الزقاق ، وكان يسمع دون شـك خطوات القطة • وهدهدات الطيور ، وتنفسه الهادىء • لقد نظر الى أغصان الشجرة وأرسلت نظرى الى حيث ينظر ، كانت الاغصان تتمايل في هدوء بفعل تلك الرياح الخفيفة التى سرت بعد منتصف الليل • فهل كان يرجو أن

تسكن تلك الأغصان ، أو كان يلعن حفيف أوراقها ؟ اذ ما كان باستطاعته أن يتبين الاصوات خارج جدران التكية ، تلك الاصوات التي يمكن أن تكون بمثابة حياته ٠

استدار حول الشجرة ، مستندا بظهره الى ساقها ، ومحركا حولها قدميه اللتين فضضهما ضوء القمر ، ثم ابتعد عنها ، بخطوة لم تكن تسمع كما لو لم يكن لجسمه أدنى ثقل ، واقترب من الباب الخارجي للتكيـــة واغلقه بالمزلاج حذرا ٠ ثم عاد مختفيا تحت ظلال الاشجار حتى وصل الى السياج ، فاطل على النهر ، ورمى ببصره تجاه منبعه حيث المضيق ، ثم حول بصره تجاه مصبه حيث القصبة ٠ وتراجع بعد ذلك واختفى داخل الشجيرات الكثيفة ٠ اسمع او رأى شـيئا ، أم أنه لا يجرؤ على الخروج أم انه لا يدرى الى اين يتجه ؟

وددت لو عرفت امخطيء هو ٠

هأنا قد مررت به مطرقا ببصرى الى الأرض ، واغلقت باب التكية وحبست نفسى داخل غرفتى ، ولم أكن قد انفصلت بعد عن ذلك الرجل الذى القى بنفسه فى هذا السكون ، فارغمنى‌ان أفكر فى امره ٠ وأن اتابع ـ واقفا بجانب النافذة ـ خوفه الذى تيقظ من جديد ٠ لقد جعلنى انسى ذنوب الآخرين فى هذه الليلة التى يحتفل فيها بعيد مارى جرجس وانسى كذلك بداية ذنب لى ٠ ويدين ساحرتين عند بدء هبوط الظلام ، وما كان يعتريني من الهموم ٠ وربما كان ذلك النسيان بتأثير هـــذه الهموم نفسها ٠

كان من الواجب على أن اجعل ظهرى الى النافذة ، واضيء شمعة ، ثم اذهب الى حجرة أخرى ، اذا لم أكن أرغب فى اقلاقه بنافذة مضيئة ، وافعل شيئا ما غير الذى فعلت ٠ اذ أن ما فعلته لا يعنى غير الارتبـاط به ، غير القيام بمهنة دنيئة ، غير التردد فى داخلى ، كأننى لم أعد املك الثقة بعد بنفسى وبضميرى ٠

لقد كان هذا التخفى أشبه بتخفى الصبية ، ولعله كان اشد ، كان أشـــبه بتخفى الجبان ٠ ولكن ليس هنـــاك شيء اخافه ، حتى نفسى ٠ لمـــاذا أتظـــاهر بأننى لا أرى رجـــلا ، وأمنحه الفرصة كي يذهب ، وهو لا يريد ، لماذا أخدع نفسى بأننى لست متأكدا من وجوده فى‌حديقة التكية ، وبأنه يخفى جرمه أو يهرب منه ؟ ان هناك شيئا يحدث ، وهو على الأقل ليس بريئا ٠ اننى اعرف أن الأمور الصعبة والرهيبة تحدث

دائما ، ولكن هذا يحدث أمام عينى ، ولا استطيع أن أدفع به الى مكان سحيق لا تراه الأعين كما أدفع بالأشياء الأخرى ، كما أننى لا أريد ان اكون متهما ولا مشتركا بدون ارادة ، بل أريد أن اقطع ـ دون قيد ـ برأى فى ذلك ٠

نزلت الى الحديقة ، وكان القمر يرسل ضوءه بعيدا فى نهاية السماء وبعد قليل سيختفى ، وزهرة « الدانينا » بدأت تتفتح ، والجو كان معطرا بها ، يجب أن تقطع فهى مفرطة فى حلاوتها ، مثيرة برائحتها ٠ لقد أصبحت شديد الاحساس أحيانا بالروائح ، والأرض كلها تفوح منها رائحة لا أقوى على تحملها وأحس بها تكاد تخنقنى ٠ وذلك شىء يحدث لى فجأة ، عندما يصيبنى اضطراب أو يعترينى توتر ٠ كان يبدو لى ذلك وان لم آكن اعرف اية علاقة يمكن ان تكون بينها ٠

كان الهارب واقفا بين فروع الشجيرات المتشابكة ، ولو لم آكن قد عرفت مكانه لما استطعت أن أجده ٠ كان وجهه خاليا من التجاعيد ، ولقد غمره ما يشبه الظلال ٠ وكان يرانى أوضح مما أراه ، فقد كان الضوء يكشفنى ، وخيل الى أننى عار ولا أستطيع أن أستتر ٠ لقد تحول الى شجيرات ، ونما فاصبح اغصانا ، وسوف يأخذ فى التمايل والاهتزاز بتأثير تلك الرياح الليلية التى تهبط من الجبل وتمر بالمضيق ٠

قلت له هامسا :

ـ يجب أن تذهب ٠

ـ الى أين ؟

كان صوته قويا عميقا كأننى لست أمام ذلك الرجل المتضائل الذى كنت قد رأيته ٠

ـ اذهب من هنا ٠ لا يهمنى أين ٠

ـ شكرا لك ، لأنك لم تكشفنى ٠

ـ لا أريد أن أتدخل فى شئون الآخرين ٠ ولذلك اود أن تذهب ،

ـ وعندما تطردنى تكون قد تدخلت ٠

ـ لعل ذلك من الأفضل ٠

ـ لقد ساعدتني مرة · فلم تفسد الآن ذلك ؟ ربما أعوزتك في مستقبل الايام ذكرى جميلة ·

ـ لا اعرف شيئا عنك ·

ـ انت تعرف عني كل شيء · انهم يطاردونني ·

ـ لقد ارتكبت بالتاكيد جرما ·

ـ لم ارتكب اى جرم ·

ـ ماذا تظن الآن ؟ انك لن تستطيع أن تبقى هنا ·

ـ انظر ، هل الحارس على الجسر ؟

ـ نعم ·

ـ انهم ينتظرونني · وهم في جميع الاماكن حولي · أتدفعني الى الموت ؟

ـ ان الدراويش يستيقظون مبكرين · وسيرونك ·

ـ خبئني الى مساء الغد ·

ـ قد يمر المسافرون ، القاصدون ·

ـ وانا مسافر قاصد ·

ـ لا أستطيع

ـ ادع الحراس اذن ، فهم هنا ، خلف السور ·

ـ لا أريد أن أدعوهم · ولا اريد أن أخبئك · لماذا أساعدك ؟

ـ لا لشيء · فلتنصرف · فذلك شيء لا يهمك ·

ـ كان باستطاعتي ان اهلكك ·

ـ لم تكن لديك قوة ، حتى لهذا ·

أوقعني في الحيرة أنني لم أكن مستعدا لمثل هذا الحوار · واشد ما كان يفاجئني في انتقالنا من كلمة الى أخرى ذلك الذي ما كنت أتوقعه وهو أن أجد الرجل على صورة مخالفة لما تصورت ان يكون عليه · لقد خدعتني صورته على الباب مصلوب اليدين والرجلين · كنت أتخيله ، في حزنه ، والبقعة البيضاء التي شعت من وجهه ، في دفاعه الضعيف باحتمائه خلف ذلك الباب الخشبي الرقيق ، مسكينا ، مفزعا ، ضائعا ،

حتى لقد ظننت انني أعرف كيف يكون صوته ، فهو مهتز ؛ متردد ٠ولكن ذلك الذى شاهدت كان جميعه على خلاف ما توقعت ٠ كما كنت أعتقد أن كلمة واحدة منى سوف تخفف عنه وتشعره برد الراحة ، وأنه سوف ينظر الى نظرة الخادم الى سيده ، فقد كان فى موقف ليس له من طريق الى الخروج ، كما كان مصيره معلقا بارادتى التى يمكن أن تجلب له الشر أو الخير ٠ غير أن صوته كان على درجة من الهدوء تكاد توحى انه غير غاضب ، ولذا خيل الى أن الصوت يكاد يحمل نبرات السرور والضحك والاثارة ، فما كان يجيب فى تجهم أو ذلة ، بل كانت اجابته تشعر باللامبالاة ، كما لو كان فوق كل مايدور ويجرى من أحداث ، كما لو كان يعلم شيئا ما يجعله آمنا ٠ لقد أخلف ظنى الى درجة أوضحت أننى كنت مبالغا فى تقديرى لهدوئه ٠ وقد استولت على الدهشة عندما طلب أن أقوم باخفائه كما لو كان ذلك شيئا عاديا للغاية ، أو خدمة تلبى بالترحيب ، لا أمرا يتعلق به مصيره ٠ لم يكرر طلبه أو رغبته ٠٠ لقد تخلى عن ذلك بسهولة ، ولم يغضب لرفضى طلبه ٠ كما لم يكن ينظر الى ، وانما كان ينصت ، رافعا رأسه قليلا ، غير منتظر منى ان أقدم له مساعدة ٠ انه يعرف الآن ــ وقد أصبح لا ينتظر بعد مساعدة من أحد ــ أن أحدا لايمكنه أن يمد يده اليه ، فليس له أقارب ولا أصدقاء ولا معارف ٠ لقد حكم عليه أن يكون وحيدا فى محنته ها قد ترك وشأنه ، وكان المجال حوله وحول مطارديه خاليا ٠

ــ لا شك انك تظنني رجلا سيئا ٠

ــ لا أظن ٠

ــ اننى لست كذلك ، ولكننى لا أستطيع أن أساعدك ٠

ــ كل أدرى بشأنه ٠

لم يكن ذلك من قبيل العتاب أو الاستسلام للمصيبة ، وانما كان قبولا للواقع ، لذلك الواقع المر الذى نعرفه منذ القديم من عدم ارادة الناس على اختلاف أنواعهم أن يقوموا بمساعدة شخص محكوم عليه ، وكان يضعنى فى عدادهم ، ولذا لم يصدمه ذلك أو يسلب شيئا من قوته فما كان يدور ببصره فيما حوله فاقد الوعى ، بل كان يدور به فى يقظة تامة ، وتركيز شديد ، عازما أن يدافع بمفرده ٠

سألته لماذا يطاردونه ، فلم يجب ٠

ـ كيف هربت ؟

ـ لقد قفزت من فوق الصخرة ٠

ـ هل قتلت أحدا ؟

ـ لم اقتل ٠

ـ هل سرقت ، أو نهبت ، أو ارتكبت عارا ؟

ـ لم أفعل شيئا من ذلك ٠

لم يتعجل تبرئة نفسه ، ولم يحاول أن يقنعني ٠ كان يجيب عن اسئلتي كأنها فضول أو كأنها مملة ٠ لم يعد يقدرني بعد ، لا بخير ولا بشر ، لا بمصدر لخطر ولا ببشير لأمل : انني ما غدرت به ، ولا اريد أن اقوم بمساعدته ٠ باللدهشة : ان انصرافه عني ، كما لو كنت شجرة ، او شجيرة ، أو طفلا ، قد أصاب غروري ٠ انه كان يجردني بطريقة ما من شخصيتي ، كان يقلل من شأني ٠ وكان قدري بذلك يسلب مني لا في نظره فحسب بل في نظري أنا أيضا ٠ انه لا يهمني ، فأنا لا أعلم عنه شيئا ، ولن أراه بعد أبدا ، ولكني كنت مهتما برأيه عني ، لقد جرح احساسي ما تظاهر به من اغفال وجودي ، كم وددت لو استولى عليه الغضب ٠

اخفت أتركه ، وكان استقلاله يثير نفسي ويلفها في حيرة ٠

كنت اقف هكذا ، كنت اقف وسط هذه الرائحة التي تنشرهـا زهرة (الدافينا) ، والتي كنت أحس بها تخنقني في ليلة عيد ماري‌جرجس التي كانت تعيش لنفسها ٠ وفي تلك الحديقة التي أصبحت عالما بذاتها كنا نقف ، رجلا بجواره رجل ، ولم يبد علينا شيء من السرور لالتقائنا ، ولم يعد في الامكان أن نفترق كما لو لم يكن أحدنا قد قابل الآخر ٠ كنت أفكر ـ قلقا ـ فيما افعل مع ذلك الرجل الذي استحال الى‌الحصان، حتى لا يصدر مني شيء يمكن أن يوصف بالسوء ، حتى لا أؤيد مايرتكبه الآخرون من الخطايا ، غير عالم بأربابها ، حريصا على الا أخطيء في حق الضمير ، وغير متوصل الى حل بشأنها ٠

كانت هذه الليلة عجيبة الشأن ، لا بما يحدث فيها فحسب ، وانما بكيفية قبولي له ٠ لقد كان العقل يحدثني بالا أتدخل في ذلك الذي لا يهمني ، ولكني تدخلت الى درجة لم ار عندها مخرجا ٠ كان ما تعودته

منذ زمن طويل من السيطرة على نفسي يقودني الى غرفتي ، غير أني رجعت مطاردا ببعض ضرورات جدت في نفسي . لقد علمتني طريقة الدراويش ونظام التكية ان أكون صلبا ، وقد كنت اقف أمام الهارب لا أدرى ماذا أفعل ، وكان ذلك يعني أنني أفعل مالا ينبغي فعله . كانت الاسباب جميعها تدعو ان اترك الرجل لمصيره ، ولكنني كنت أسير معه في طريقه الزلج الخطير الذي لم يكن باستطاعته أن يكون طريقي ايضا .

وعندما كنت لا ازال أفكر في ذلك ، باحثا عن الكلمة المناسبة لانسحب بموجبها ، قلت فجأة :

ـ لا استطيع ان ادخلك التكية ، اذ لو فعلت لكان في ذلك خطر على وعليك .

ولكنه لم يجب ، ولم ينظر الى ، فلم يكن فيما تحدثت به من جديد وكانت لا تزال هناك فرصة لانسحابي ، ولكنني كنت قد بدأت فيالانزلاق وكان من الصعب على أن اتوقف .

قلت له هامسا :

ـ يوجد في نهاية الحديقة مسكن صغير ، لا يذهب اليه أحد . تضع فيه الادوات التي لسنا في حاجة اليها .

وعندئذ نظر الهارب الى ، وعيناه تفيضان بالحيوية ، وتعلنان عدم الثقة ، ولكنهما لا تظهران شيئا من الخوف .

ـ اختبىء فيه حتى يذهبوا . واذا حدث أن قبضوا عليك فلا تقل لهم انني قمت بمساعدتك .

ـ لن يقبضوا على .

نطق ذلك بلهجة تأكيد جعلتني اشعر بالاشمئزاز . احسست مرة أخرى بذلك الاضطراب في داخلي من أجل ثقته بنفسه ، وندمت على أنني قدمت له المخبأ . كان يكفيه الاعتماد على نفسه ، فهو يردك عنه : كان كأنه ضربني . لقد رد اليد التي امتدت اليه ، واثقا في نفسه الى درجة الاشمئزاز . وكنت أخجل بعد ذلك من جلال قدرى (وماذا بقى له غير أن يثق في نفسه ؟) فقد سيطر على نفسي احساس وضيع بالحاجة الى ان يقوم الناس بشكرنا ، وأن يظهروا بالتضاؤل أمامنا والارتباط بنا ، لأن ذلك يولد عاطفة الحنو عليهم ويغذيها ، كما يزيد من قيمة اعمالنا وقدر أفضالنا . وهكذا اصبحت العاطفة ضئيلة وليس لها من مبرر . لم أعد

اذ ذاك أحس بالخجل ، بل كنت أراني غاضبا ، فقد كان يخيل الى أنني تدخلت في أمر تافه ، ومع هذا فقد وجدتني أسير خلال الحديقة متجها نحو مسكن صغير بال تخفيه الشجيرات ، وذلك دون أن أحس سرورا أو أجد اعتذارا لنفسي ، ودون أن تكون هناك حاجة معينة في داخلي ، ولكنني ما كنت أستطيع أن أفعل شيئا غير ذلك •

كان الباب مفتوحا ، وكانت الوطاويط والحمام تتخذ لها مسكنا بداخله •

لقد وقف •

ـ لماذا تفعل هذا ؟

ـ لا أدرى •

ـ لقد ندمت •

ـ انك فخور أكثر مما يجب •

ـ كان في استطاعتك ألا تقول هذا ، فالانسان لم يكن قط فخورا أكثر مما يجب •

ـ لا أريد أن أسألك من أنت وماذا فعلت ، فذلك أمر يخصك • ابق هنا ، ذلك هو كل ما أستطيع أن أمنحك اياه • وليكن الامر كأننا لم نلتق ولم ير أحدنا الآخر •

ـ هذا هو الأفضل • اذهب الى غرفتك •

ـ هل أحمل اليك طعاما ؟

ـ لا يلزم ، فقد شعرت بأسف لهذا الذى فعلت •

ـ لماذا تظن أنني شعرت بأسف ؟

ـ انك تتردد أكثر مما يجب ، وتفكر أكثر مما يلزم • فأى شيء تفعله الآن ستحس بأسف نحوه • اذهب الى التكية ، ولا تفكر بعد في امرى ، فلسوف تخبر عنى اذا ظللت تفكر •

أتكون هذه سخرية ، أو تهكم ، أو احتقار ؟ من أين أتته القوة ليكون له هذا الموقف ؟

ـ انك لا تثق كثيرا فى الناس •

ـ عن قريب سيبزغ الفجر ، ولن يكون من الخير أن يجدونا معا •

اراد أن يحملنى على الانصراف ، فقد نظر فاقد الصبر الى السماء تتغير بتباشير ضـــوء الفجر • ولكننى أردت ان أوجه اليه عـديدا من الاسئلة لأننى لن اراه ابدا فيما بعد ، وليس هناك من يستطيع أن يجيبنى عداه •

يبقى هذا فقط : انك بمفردك ، الا تخاف ؟ انهم سيقبضون عليك سيقتلونك • وليس لديك بصيص من أمل •

ـ دعنى وشأنى •

كان صوته غليظا ، يكاد يخنقه الغضب ، وما كان هناك داع فى الحقيقـة لأن يحـدثه أحـد فى ذلك الذى يعرفه هو بذاته ، وربما كان يظن اننى حقا رجل سىء ، واننى أتنعم شامتا بما يعانيه من العذاب • ولذا فقد كان رده ردا مناسبا :

ـ هناك شىء يعذبك ـ قال ذلك بفكره الثاقب الذى لم يكن متوقعا والذى كان يهزمنى ويتصيدنى فى أجمة مجاهلى ـ سوف أجىء اليك مرة من أجل الحديث ، عندما لا يكون هناك خطر • اذهب الآن •

لم يجبنى عن ذلك الذى كان يهمنى ، وبذلك أرجعنى الى داخلى • أية اجابة اســتطاع أن يعطينى ؟ أية عـلاقة استطعنا نحن الاثنين أن أن نكونها ؟ وأى شىء استطاع أن يعلمنى ؟

فتحت النافذة ، فقد كان جو الغرفة خانقا • ولو لم يكن هناك لنزلت الى الحديقة ، لكى أبقى هناك دون نوم فى انتظار الفجر كمــا سأبقى هنا فى انتظاره • لقد قرب موعده ، فالطيور التى تستيقظ مبكرة تنبىء عن ذلك بازدياد تتابع أصواتها ، والسماء فى أعلى التل المظلم تفتح كواتها ، مظهرة حدقتها الرمادية ، والاشجار الآن مستغرقة فى أحلامها ، وقد اتشحت بغلالة من الظلام نسجت بها خيوط من الضوء • وعمـا قريب ستبدأ الاســاك مع تباشير الفجر فى القفز الى سطح الماء • لقـد احببت هذه الساعة المبكرة للاستيقاظ ، حيث تبدو الحياة كأنها تدب من جديد •

انتظرت في وسط الغرفة ، تنتابني مشاعر مضطربة لم استطع ان احدد لها سببا • وكنت أحس بالمرارة من أجل ذلك الذى فعلته ، ومن اجل ذلك الذى لم افعله ، شاعرا انني اخطأت الهدف في تلك الليلة المملوءة بعلامات التحذير ومشاعر الخوف دون مبرر أو سبب •

كنت اتسمع كل ما يصدر من حفيف ، سمعت رفرفة أجنحة الطير وجريان النهر على وتيرة واحدة • وكنت انتظر ان اسمعه هو ، او اسمعهم كيف يجيئون من أجله • هل سيهرب ، هل سيبقى ، هل سيقبضون عليه ؟ أاخطأت في عدم غدرى به ، أم انني أخطأت في عدم اخفائه في غرفتي ؟ لقد قال لي : اى شيء تفعله ستحس بأسف نحوه • كيف استطاع ان يعرف ذلك الذى لم يتضح لى انا نفسي اتضاحا كافيا ؟ انني ما اردت أن اقف ضده ولا أن اقف الى جانبه ، لقد اتخذت موقفا وسطا لم يكن بمثابة حل ، اذ انه لا يقرر شيئا ، بل كان من شأنه أن جعل العذاب يمتد ، وسيكون لزاما على أن اقف عند أحد الجانبين •

كانت هناك أسباب لا حصر لها تقف مساندة لكل من الامرين : أن اهلكه ، وأن أنقذه ، انني درويش اقف مدافعا عن الدين وعن الطريقة فالقيام بمساعدته يعني خيانة اعتقادى ، خيانة ذلك الذى كرست من أجله سنوات عديدة من حياتي الطاهرة ، ثم لو حدث أن قاموا بعد بالقبض عليه لكان الموقف حرجا بالنسبة للتكية ، ولكان اشد تحرجا اذا عرف أنني قمت بمساعدته ، ولن يغفر لى أحد ذلك ، ومن المؤكد أن ذلك سوف يعرف تماما ، وقد يقوم هو باعلانه بدافع الحسد أو الخشية نعم لو تم ذلك للحقني الحرج وللحق أخي ايضا ، ولكنت قد افسدت موقفي وموقفه ، ولوجدت علاقة وارتباط ما في هذا التصرف ، ولشبه ذلك بثار من اجل اخي ، أو لبدا ذلك من قبيل المساعدة للآخرين ،حيث لم استطع أن اقوم بمساعدة اخي • كانت هناك أسباب عديدة تدعو الى تسليمه الى السلطات ، وليسو أموره مع العدالة وفق ما يعلم •

انني رجل لا أعلم ماذا فعل وليس من اختصاصي أن احكم ، كما ان العدالة قد تخطيء ايضا ، فلماذا آخذه على عاتقي واحمل نفسي امكانية الندم • ومن ناحية اخرى كانت هناك كذلك اسباب تدعو الى مساعدته ولكنها كانت ضعيفة ، غير مقنعة اقناعا كافيا • واذ كنت أختلقها وامنحها شيئا من الفحوى فانما كان ذلك فقط من أجل أن تخدمني كستار أمام ذلك السبب الحقيقي ، السبب الوحيد المهم : ما حاولته من حل قضيتي الشخصية به • لقد وصل بالتمام في اللحظة التى أمكنه فيها

ان يصبح بمثابة المؤشر فى ميزان ترددى ، فلو حكمت عليه ، وسلمته الى السلطات لاجتزت ما يعتريني من التردد ، ولبقيت على الحال التى كنت عليها من قبل ، دون اعتبار لكل ما حدث فكأنه لم يكن ، ودون مراعاة لأخى السجين وحزنى من أجله ، ولضحيت بذلك الاخ المحروم وبنفسى الجريحة ، ولاندفعت الى الأمام فى الطريق المعروف طريق الطاعة ، وقد خنت صحابى · ولو أنقذته لكان ذلك قرارى النهائى : لكنت فى الجانب الآخر ، لوقفت ضد أحد من الناس وضد نفسى حتى اللحظة التى هى عليها الآن ، خاذلا هدوئى · ولكنى ما استطعت هـذا ولا ذاك · كان الأمان المتزعزع يردنى عن أحد الامرين ، وكانت قوة تعودى والخوف من الطريق المجهول يبعداننى عن الآخر · لو كان ذلك منذ عشرة أيام ، حيث لم يكن أخى قد دخل السجن بعد ، لاستوى الامران عندى ، ولكنت أحس الهدوء باقدامى على أى منهـما ، ولكنى عرفت الآن ان الموقف يتطلب التحديد ، ومن أجل ذلك بقيت فى منتصف الطريق غير محدد الاتجاه كل شىء كان ممكنا ، ولكن شيئا لم يحدث بعد ·

لقد كان فى الحديقة ، فى المسكن القديم ، بين الشجيرات ،وكنت أنظر دون انقطاع الى هذا الاتجاه · لم يكن هناك شىء يتحرك او يسمع لقد كنت ضجرا لعدم ذهابه ، اذ لو ذهب لكان قد أنهى الأمر بنفسه · والآن لم يعد باستطاعته أن يهرب · سوف يبقى هناك يوما باكمله ، ويوما باكمله سوف يظل فكرى مشغولا بأمره ، وسأنتظر الليلة التى ستكون بمثابة المنقذ ، بالنسبة له أو بالنسبة لى ·

عرفت كيف تستيقظ التكية · كان أول من يستيقظ مصطفى ، وذلك اذا لم يكن قد قضى ليلته فى منزله ، وكان يضرب بنعله الثقيل على الأحجار التى غطيت بها ارض الطابق الارضى ، وكان يدفع الباب بشدة عند الدخول أو الخروج ، كما كان يخرج الى الحديقة حيث يتوضأ وكان يتنخم بشدة كى ينظف حلقه ، مدلكا بكلتا يديه صدره العريض ويصلى فى سرعة ، ثم يوقد النـار ويأخذ فى تنـاول وترك بعض الاوانى المنزلية ، وكان يقوم بهذا كله فى تلك الصورة من الفوضى التى تجعل النـائمين يستيقظون حتى من لم يتعود منهم على الاسـتيقاظ فى وقت مبكر · لقد كان أصم ، وكانت الجلبة فى عالمه الخالى من الأصوات شيئا محببا اليه ، وعندما كنا نفلح فى أن نقول له ان ما يحدثه من الخبط والضرب والكسر والرنين شىء لا يحتمل كان يتعجب لاستطاعة هـذه الأمور أن تحدث ازعاجا لأحد ·

ويكاد في نفس الوقت أن يسمع سعال خفيف يصدره الحـافظ محمد ، وأحيانا يظل هذا السعال يسمع طول الليل ، وفي زمني الربيع والخريف يكون شديدا وخانقا . لقد عرفنا أنه يبصق دما ولكنه كان يزيل آثاره بنفسه ، وكان يخرج على وجهه ابتسامة ، وعلى خديه احمرار في شكل دائرتين ، ويأخذ في الحديث عن الامور العادية مغفلا أمر نفسه وامر مرضه ، وكان يخيل الى احيانا ان ذلك غرور من نوع خاص ،يرتفع به فوقنا وفوق العالم . كان يقوم بغسل أجزاء جسمه بعناية فائقـة ، منفقا وقتا طويلا في تدليك ما يشاهد من جلده . لقد كان سعاله في هذا الصباح قليلا وسهلا ، واحيانا يكون جو الربيع العليـل سببا في تهدئته ، وأحيانا اخرى يكون هذا الجو عاملا من عوامل ارهاقه وتعذيبه وقد عرفت أن حافظنا اليوم سيكون بحالة طيبة ، مستريحا ، منصرفا عن كل ما حوله . وهكذا كان يثأر لنفسه من الحياة بعدم اظهار مرارته.

وبعده كان ينزل « ملا يوسف » . وكان وقع قبقابه يدل على أنه يسير ببطء وحذر ، وكانت مشيته على درجة كبيرة من الاتزان رغم وفرة صحته وشدة حيويته ، كما كان اكثرنا اهتماما بملبسه ومظهره ، اذ كان حرصه على اخفاء اموره أشد من حرصنا . لم أكن أثق في هـذه السكينة التي كانت تشبه الرياء ، فطبيعتها لم تكن توافق طبيعة وجهه المشرب بالحمرة ولا طبيعة تلك السنوات الخمس والعشرين التي تمثل عمره الغض . ولكن هذا لم يكن رأيا قاطعا ، بل كان شكا .. كان تأثيرا يتشكل حسب الوضع .

لم يكن أحدنا يعرف كثيرا عن الآخر بالرغم من أننا نعيش معا ، اذ لم تكن قط نتحدث عن أنفسنا ، وما كان الحديث الذي يدور بيننا يتناول كل شيء عنا ، وانما كان خاصا بذلك الذي كنا نشترك فيه ، فالأمور الشخصية دقيقة أكثر من اللازم ، كدرة ، عديمة الفائدة ، ويجب أن نتركها لأنفسنا اذا لم يكن باستطاعتنا اماتتها . ان حديثنا في معظم الاحايين كان يتجه الى الأشياء العامة ، وكنا نستخدم الجمل المعروفـة التي استخدمها الآخرون قبلنا لأنها آكيدة ، يطمئن اليها ، ولأنها تحفظ من المفاجآت وتحول دون عدم التفاهم . ان الذوق الشخصي هو الشعر، هو امكانية الميل والانحراف الى ناحية ما ، هو امكانية الاختيار .والخروج من دائرة الفكرة العامة هو الشك فيها ، ولذا لم يكن أحدنا يعرف الآخر الا بذلك الذي لم يكن مهما ، أو بذلك الذي كان مشتركا فيما بيننا .

وبعبارة أخرى لم يكن أحدنا يعرف الآخر ، وما كنا في حاجة الى ذلك ، اذ التعرف كان يعنى معرفة ذلك الذى لا يلزم معرفته ٠

ولكن هذه التطلعات العامة لم تكن تتسم ولو قليلا بشىء من الهدوء لاننى كنت أحاول بواسطتها ان أجعل نفسى فى مكان آمن ، كى لاتنتزعنى العاصفة من عالمنا المشترك ، كنت أسير على حافة ، وددت لو تجردت من شخصى ٠ وكنت أحسد الجميع فى هذا الصباح ، لان صباحهم كان عاديا شانه شان كل صباح ٠

وكانت هناك طريقة مؤكدة وبسيطة استطيع بها ان أقلل قلقى أو أكاد أصل بها الى ابعاده عنى : وذلك بأن أجعله هما يشترك فيه من بالتكية من الدراويش ٠ فالهارب يهم التكية الآن ، ولا ينبغى اذن أن أتحمل وحدى اصدار قرار فى هذا الصدد ٠ أيكون من حقى أن أخفى ذلك الذى أصبح أمره يتعلق بهم كذلك ؟ نعم باستطاعتى أن أبدى رأيى ، وباستطاعتى أن أدافع عن الهارب ، ولكن ليس باستطاعتى أن أخفيه ٠ فلو فعلت ذلك لكنت قد اتخذت القرار الذى أهرب منه ، ولذا يجب العمل على أن يكون القرار صادرا منا جميعا لا منى وحدى ، وبهذا يكون الأمر أيسر واشرف ، وبكل ماعداه يكون الأمر أقل شرفا ومن قبيل الخداع ، ولكننى أدرك أيضا ـ لو فعلت ـ اننى آتى أمرا مخالفا ٠ وفى الحق لم يكن هناك من سبب يحملنى على ذلك ، كما لم يتأكد لدى انه من الواجب أن أتصرف على هذا النحو ٠

ولكن مع من أتحدث ؟ لو دار الحديث بيننا جميعا لأصبح الهارب منذ البداية دون شك ضحية ، فلسوف يخشى أحدنا الآخر ، وسيتناول حديثنا أولئك الذين لم يحضروا اجتماعنا ، وعندئذ سيكون أشد قبولا ذلك الذى يعد أكثر صرامة ٠ واذن يكون التحدث مع واحد فقط أسهل وآمن ، اذ لا تجذبه الكثرة ٠ ويمكنه اذ ذاك حيث الآذان قليلة أن يرى كثيرا من الاعتبارات أمام ما يأتى به العقل من دلائل ٠ ولكن ، من الذى اختاره ؟ ان مصطفى الأصم مستبعد دون شك من حسابنا ، اننا متساوون أمام الله ، ولكننى لو تحدثت معه لكان ذلك بالنسبة للجميع أمرا مضحكا ، وليس ذلك من أجل كونه أصم فحسب ، وانما لشدة انشغاله أيضا بالتفكير فى أمر زوجته التى لم يعقد عليها ، والتى كان يهرب منها كثيرا وينام من ليلة الى أخرى فى التكية ، وانشغاله كذلك بالتفكير فى أمور الأولاد الخمسة ، أولاده الذين أنجبهم والأولاد الذين جاءوا اليه بمجىء الزوجة ، الأمر الذى يجعله يعجب فى قرارة نفسه لسؤالنا

اياه عن شيء لا يعرفه ، وكم كانت هناك اشياء عديدة أخرى لا يعرف عنها شيئا على الاطلاق ، حتى ليمكن تشبيهه فى ذلك بأولاده الكثيرين ٠

واما الحافظ محمد فلو أفضيت اليه بذلك لسمعنى مشتت الفكر ، وعلى وجهه ابتسامة لا توحى بشيء ٠ لقد كان يعيش منكبا على الكتب التاريخية الصفراء ، وكأنه مرتبط بالزمن الذى انقضى ، يعايشه ويحيط نفسه به ٠ وكنت احسد هذا الرجل العجيب على هذا ، فما الزمن الحالى سوى زمن سوف يمر وينقضى ٠ وكان من النادر ان نجد شخصا قد انعزل عن الحياة بمزيد من السعادة كما انعزل هو ٠ لقد تنقل بين مدن الشرق سنين طويلة سعيا وراء المؤلفات التاريخية داخل المكتبات المشهورة ثم عاد الى مسقط رأسه وبصحبته مجموعة كبيرة من الكتب ٠ انه فقير ولكنه غنى ٠ فعقله قد امتلأ بكثير من المعارف التى لا تلزم أحدا سواه ٠ كان علمه يتدفق كالنهر ، ويطفى كالفيضان ،وكان يغرقك فيما يذكره من الأسماء والمعارك ، وكنت تحس الخوف يسيطر عليك من فوضى الأحداث التى كانت تعيش فى هذا الرجل ، والتى تبدو كأنها وجدت لساعتها ، وأنها لم تعد بعد أشباحا وظلالا ، بل رجالا احياء لا يزالون يقومون بأعمالهم فى بعض الخلود الزمنى المثير ٠ لقد تتلمذ فى علم الفلك على أحد الضباط بالآستانة ثلاث سنوات كاملة ، ومن أجل هذين العلمين الفلك والتاريخ كان يقيس جميع الامور بمقاييس الفضاء والزمن علمت انه يكتب تاريخ عصرنا ولكنى كنت فى شك من ذلك ، اذ أن الاحداث والرجال كانت تتخذ مقاييسها ومعانيها بعد أن تصبح فى عالم الموتى ٠ كان باستطاعته أن يكتب فلسفة التاريخ فقط ٠٠ فلسفة يائسة لا تخضع لمقاييس الانسان ، غير مبال بتلك الحياة العادية المستمرة ٠ فلو أننى سألته عن هذا الهارب لكان من المؤكد أن يحس بالاشمئزاز مما أسببه له من الأذى فى هذا الصباح الجميل الذى استقبله فى غير اضطراب أو هذيان ، ومما أجشمه اياه من التفكير فى مثل هذه الامور الصغيرة ٠٠ كمصير الرجل الموجود بحديقة التكية ، ولأجاب اجابة غير محددة ليظل الأمر بعد كما كان فى انتظار قرار منى ٠

قررت فى نفسى أن أتحدث مع ملا يوسف ٠

لقد انهى وضوءه ، وأراد أن يذهب بعد أن حيانى دون أن ينطق بكلمة ، فأوقفته مخبرا اياه أننى أريد التحدث اليه ٠

نظر الى نظرة قصيرة ثم أطرق برأسه ، كان هناك شيء يخفيه ، ولكنني لم أكن اود ان احرز شيئا من الشعور بالتفوق خلال لحظات انتظاره القلق ، فحكيت له كل شيء عن الهارب : كيف سمعته ، وكيف رأيته من غرفتي عندما دخل الى الحديقة واختبأ بين الشجيرات . ومن المؤكد أنه يوجد الآن في مكان ما هناك ، ومن المؤكد أنه يقوم بالهرب ، والا لما حاول الاختفاء . لقد قلت ماكان حقا وهو أنني كنت في تردد كما لاأزال فيه الآن ، ماذا افعل ، أأسلمه الى السلطات أم أترك الامور للصدفة . ربما كان مخطئا ، فالأبرياء لا يطاردهم في الليل أحد ، ولكنني فكرت مرة أخرى هكذا : انني لا أدرى شيئا عنه ، ولعله قد ارتكب جرما ، فليحفظني الله منه ، والآن يجب أن نبحث ، هل يكون الشر في تدخلنا أو في عدمه ؟ هل يكون الشر أشد في اخفاء الجريمة اذا كانت هناك جريمة أو في عدم القيام بواجب الرأفة ؟

كان ينظر الى في توتر ، مخفيا ما أثارته قصتي المحيرة في نفسه من الاهتمام والتشوق ، ولكن وجهه المتورد الاملس الذى بدا رطبـــا من أثر الماء ونسمة الصباح كانت تدب فيه الحياة ويسرى فيه القلق .

سألنى بصوت خافت :

ـ أما زال فى الحديقة ؟

ـ حتى الفجر لم يخرج ، وفى النهار لا يجرؤ على الخروج .

ـ ماذا ترى أن نفعل ؟

ـ لا أدرى . اننى أخاف من الذنب . لو ثبت أنه مخطىء للحقنا اللوم من الناس ، ولكانت التكية فىموقفحرج . ولو ثبت عكس ذلك لوقع الذنب على عاتقنا . ان الله وحده هو الذى يعلم خطايا كل انسان أما الناس فلا يعلمونها .

ما زال الضوء الوردى الخافت لبزوغ الفجر تطغى عليه اشـــباح الليل . ان صحو اليوم الوليد يبدأ فى تلك اللحظة حيث تبدو الالوان جميعها أكثر حيوية ، وحيث يسمع ما تبقى من همهمات الليل بصـــورة أقوى . ولكننى اليوم لا أحس فرحة رغم أن الصباح غير ممل ، فلقـــد وصلت نهار الامس بنهار اليوم دون أن أخفف همومى بالنوم .

عندما عدت من المسجد دون أن تهدئنى صلاة الصبح وجدت الحراس في حـديقة التكية مع ملا يوسف • لقد فتشوا جميع الأركان وفتشوا البيت الصغير ايضا ، ولكنهم لم يعثروا على الهارب •

قلت للحراس :

ـ ربما أكون قد خدعت

ـ انك لم تخدع • لقد هرب ليلة الامس واختفى في مكان ما • وبعد أن ذهب الحراس سألت ملا يوسف :

ـ أأنت ناديتهم ؟

ـ لقد ظننت أنك ترغب فى هذا • اذ لو لم تكن راغبا لما تحدثت الى•

على أية حال الأمر سواء • هكذا كان أفضل • لقد نحيت المسئولية عن نفسى ، ولم يمس أحد بسـوء • وارى من الواجب ان استمتع بالهدوء واترك التفكير فى أمر الليلة الماضية •

وعلى الرغم من ذلك كنت أفكر ، وكان تفكيرى أكثر من استطاعتى ، دون أن أجد مبررا لذلك • بحثت في الحديقة ، وكانت الآثار واضحة فى الطريق المغطى بالرمل ، احدى رجليه كان بها نعل والأخرى كانت حافية• كان أثر كل قدم محاذيا للآخر ، وكان ذلك هو كل ما بقى منه ، كما كانت هناك بقايا من أعواد زهر الـ (بيسرك) ، وصـورة تحفظها الذاكرة ليديه وقدميه المصلوبتين على الباب ، ورؤى لاشياء غريبة تتعلق بأسفل أغصان تلك الاشجار القديمة ، ورائحة لم تكن توجد من قبل ، وخواء وفراغ يتعذر اثباتهما ، ورخاء ونضارة بعد شـدة واعصار • والآن حيث لم يكن فى متنـاول يدى ، وحيث لا خطر على منه ولا خطر عليه منى ، أخذت أفكر تفكيرا عجيبا فى أمر هذا الرجل المجهول ، جاء كالسيل ثم أصبح رياحا صافية ، وطاف بنا كما يطوف الحلم • لقد ذاب وتلاشى ؛ فالواقع ينفى وجوده ، وخروج رجل حى من هذا المكان دون أن يلحظه أحد متعذر ، كما أن هاتين القدمين اللتين لم تستطيعا أن تزيلا بأثارهما الحقيقية ذلك المعنى الغريب الذى علق بذهنى ولم تكن لى قدرة على الاحاطة به ـ كانتا تثبتان وجوده • هذا الرجل قد هرب أمام الحراس ، هرب من نافذة بيته عندما دهموه ليقبضوا عليه ، وهرب من السـجن ناقبا جداره وقفز من الصخر وولج الباب المجهـول دون مراعاة لحرمة حدود الآخرين واختفى دون أن يحدث صـوتا لخطواته وغاب عن أعين الحراس الذين كانوا يضربون نطاقا حوله كما لو كان قد استحال الى روح • لم يثق بى ، ولن يثق بعد بأحد،

يهرب من خوف الآخرين هربه من غلظة الحراس ، لا يثق الا في نفسه ، ويؤسفني ذلك الذى فقده من الثقة في النـاس ، ســوف يكون تعيسا وشاعرا بالفراغ في نفسه • ولذا هو الآن حي ، وحر على الأقل ، ولكني وددت ألا يعرف على الاطلاق كيف استطعت أن أكون متسببا في هلاكه • لا يهمني ذلك الرجل ، وليس أحدنا مدينا للآخر في شيء ، كما ليس في امكانه أن يلحق بي شرا أو خيرا • ولكم وددت أن يحمل في عزلته فكرة حسنة عني ، لكي يحتفظ ازاء فقدانه الثقة بالناس بذكرى عني تختلف عن ذكراه عن الآخرين •

نظرت بعد الى ملا يوسف ورأيته كيف ينسخ القرآن خارج غرفته، أمام التكية تحت الظـلال الكثيفة لشجرة التفـاح التي كثرت وامتدت فروعها ، فقد كان في حاجة الى ضوء تساوت درجته لا يبدو فيه لمعان ولا تؤثر فيه خيـالات • وكنت أنظر الى اليد الشابة الوردية الممتلئة ترسم الحروف في أشكالها المعقدة ، والى عديد من السطور اللانهائية التي سوف تجرى عليها أعين الناس دون أن تفكر في المدة التي استغرقها هذا العمل الشاق ، ولعلها لن تلمح جماله • وكنت قد انتابتني الدهشة عندما رأيت لأول مرة هذه المهارة التي يأتي بها الشاب والتي يندر أن يتأتى مثلها ، وهأنا بعد زمن غير قصير أنظر اليها كأنها معجزة • هذه الالتواءات المجودة، والاستعدادات الحـانية ، وموجات السطور المتزنة ، والبدايات الحمراء المذهبة للآيات ، والرسوم التي اتخذت شكل الازهار على جانبي السطور- كانت تشكل جمالا يأسر الرائي ويوقعه في حيرة ، وينم في الوقت نفسه عن قليل من الاثم لأنه لم يكن وسيلة بل كان غاية • كان ينبع من نفسه ارضاء لنفسه • كان لعبة براقة من الألوان والأشكال تصرف الاهتمام عن ذلك الذى كان على الجمال أن يسعى لخدمته ، كما ينم كذلك عن قليل من الخجل كما لو كانت هناك اثارة خفية تنبعث من هذه الصفحات المزدانة، ربما كان ذلك لأن الجمال نفسه اثارة واثم ، وربما كان لأنني أرى الأمور كما لا ينبغي •

أخذت زهرة (الدافينا) تنشر رائحتهـا ، تلك الزهرة التي كانت تخنقني في الليـل برائحتها ، وترامت من الحي أصوات الأغاني ، تلك الأغاني التي كانت تفزعني بمجونها الفاحش ، واستولى على ذلك الغيظ الشديد الذى كان يملؤني في الليل ويثير الرعب في نفسي ، وخرجت من الأخدود ، وقفزت من الدائرة ؛ فلم يعد هناك شيء يقيدني ، ولم يعد كذلك شيء يحميني من نفسي ومن الآخرين ، أو يـوم يكون لي بمثـابة الواقي والمعين • لست الآن سيد أفكاري وتصرفاتي ، لقد أصبحت متسترا على

الأفاقين وقطاع الطرق • يجب مغادرة هذا المكان والاتجاه الى أية جهة • يجب الابتعاد عن هذا الرجل الشاب الذى يثيرني بنظرته المختبرة • يجب التحدث اليه في أي موضوع كي أبقى مستترا أمامه ! فهو يعرف الكثير عني في صباحي هـــذا ، كما يكمن بداخله شيء غامض يجمع بين عنف حقيقته وهدوء مظهره ، ولا أذكر أنني رأيت قط عينين أشد حرارة وفي الوقت نفسه أكثر ثقة من عيني هذا الشاب •

تحولت عنه ، عن الصورة القبيحة التي رأيتها في داخله ، عن الكره الذى ليس له من سبب والذى التهب في داخلي وأخذ يخنقني كما يخنق الدخان أو العفن • كيف ذهب بهدوئه هذا الى الحراس وأتى بهم ليقبضوا على الهارب • انه لم يفـكر لحظة واحدة في مصير ذلك الهارب ، ولا في حياته ، ولا في احتمال براءته • لقد قضيت الليل كله أتردد في الأمر ؛ وأما هو فقد فصـل فيه في لحظة • والآن جلس في هدوء واطمئنان ينسخ حروفه الرائعة الآثمة ، مطرزا اياها كما يطرز العنكبوت نسيجه العجيب• ما اشبهه بذلك العنكبوت ؛ فكلاهما يتصف بالمهارة والصرامة كما يعرف عنه عدم المبالاة •

اقتربت من آثار قدمي الهارب ، تلك الآثار التي لم تكن متساوية ، وطمستها •

وقال يوسف :

ـ احدى رجليه كانت حافية •

كان ينظر الى ويراقب تحركاتي وافكاري • وعندئذ تملكتني رغبة مجنونة في أن اساعده كي لا يضل وكي لا يلجأ الى الحدس والتخمين •• في أن اقول له كل شيء عن الهارب ، وكل ما يدور بظني عنه وعنهم وعن نفسي وعن اشـــياء أخرى كثيرة ، وحتى عن ما لا أفكر فيه من الأشياء ، بشرط أن يكون قبيحا •

قلت دون ادراك وقد كدت افقد الوعي :

ـ ربما قبضوا عليه أخيرا •

كانت هذه اللحظة كافية لكي تجعلني آخذ حذرى ولكي يتغير فيها الحديث • لقد انتابني الفزع من هـــذا الرجل الشاب •• من أجل ذلك الذى أردت ان اقوله •• من أجل ذلك الذى استطعت أن أصبح •• من أجل ذلك الذى استطاع هو أن يفعل •

كانت كلمتي غير متوقعة ، وغير مطـــابقة لحرارة العزيمة الغاضبة التي كادت الآن أن تختفي ، وللون الصـــوت الذى كان يتحفز للهجوم والانتقاض ؛ ولذا نظر الى فى دهشة وكأنه قد خاب أمله ٠

اتضح لى اذ ذاك أنني كنت أعلم حقا ما سيفعله هـذا الرجل منذ اللحظة الاولى ٠ انني عندما قررت أن أفضى الى احد أتباع التكية بكل شيء عنه ، وعندما اخترته بالذات واسقطت الآخرين سلفا من حسابى ، وعندما قلت ان من الافضل عدم تدخلنا ـ كنت واثقا أنه سوف ينادى الحراس ، حتى انني بعد صلاة الصـــبح فى المسجد كنت أطوف بالشوارع المحيطة بالتكية لكيلا أرى كيـــف يقبض الحراس على الهارب ويذهبوا به ٠ لقد وضعت فى اعتبارى تبلد ضميره ، وكنت أعرف عنه ذلك ؛ ولكنني ـ رغم هذا ـ شعرت باشمئزاز واحتقار نحوه عندما فعل ذلك ٠ لقد كان منفذا لتلك الرغبة التى استترت فى نفسى والتى لم تكن بمثـــابة قرار منى ؛ فالقرار اذن كان قــراره ، وحتى لو كان القرار صادرا منى فالتنفيذ جاء على يده ٠

وربما كنت ظالما اياه ؛ اذ لو ظن حقا أنني أرغب فى تسليم الهارب الى الحراس لكان خطؤه يتمثل فى اطاعته ، وذلك لا يعد ذنبا ٠

وأما هذا الاستعداد للصرامة والفلظة فقد كنت لا أزال حتى الأمس اسميه عزيمة ، وهانا اليوم أؤاخذه ٠ انه لم يتغير ، بل انا الذى تغيرت ، وقد تغير عندئذ كل شيء ٠

لقد اردت بكريم المعاملة أن أدفع عنه امكان وقوع الظلم الذى لايعلم عنه شيئا ولكنه فى الحقيقة يؤرقنى ، بالرغم من أنني لم اغير كثيرا من رأيى فيه ، ولكن الكره كان لا يزال يتسرب منى ، وربمـــا كان ذلك لعدم استطاعتى أن اخفيه جيدا ٠

قلت ان ما ينسخه من القرآن سوف يكون عمـــلا فنيا حقا ٠ ولكنه نظر الى دهشا ، يكاد الخوف يتملكه ، كأنه سمع انذارا منى ٠ وربما كان ذلك لان المجاملة الصادقة بيننا كانت نادرة ، فاذا تصادف حدوثها فانها توحى دون شك بشيء ٠

ـ يجب أن تذهب الى القسطنطينية لكى تزيد من اتقانك الخط ٠

وهنا ظهر على وجهه خوف حقيقى كان من الصعب اخفاؤه ، وسألنى فى هدوء :

ـ لماذا ؟

ـ أنت تملك يدا ذهبية ، ومن الخسـارة الا تتعلم كل ما يكون فى امكانك ٠

اطرق براسه ٠

لم يثق بى ٠ لقد ظن اننى ابحث عن طريقة لابعاده عن هذا المكان ٠ غير انى طمأنته بالقـــدر الذى كان فى الامكان ان يخفف فى تلك اللحظة القصيرة من عدم ثقته ، ولكن احساسا غريبـــا بالضيق ظل يسيطر على نفسى ٠ أكان عدم ثقته هذا موجودا بالأمس وموجودا فى السنة الماضية وموجودا على الدوام ولم أكتشفه الا الآن فقط ؟ وهل كان ذلك لأنه يخاف منى كما أخاف أنا منه ؟

اننى ما فكرت قط بهذه الطريقة من قبل ٠ ان كل شىء يتغير عندما يتزحزح الرجل من وكره ؛ ولكننى ما اردت ذلك ٠٠ ما اردت أن أتزحزح من الوكر ولا ان اغير زاوية بصرى ، لأننى لن أكون اذ ذاك كما أنا الآن ، وماذا سأكون اذن ، هذا مالا يستطيع أحد ان يعرفه ٠ وربما أكون انسانا جديدا يجهله الناس ، انسانا لا أستطيع ان أحدد تصرفاته أو أتنبأ بها ٠ ان السخط اشبه شىء بالوحش ؛ اذ هو ضعيف عند مولده ، رهيب عندما ينمو ويشتد ٠

نعم أردت أن أسلم الهارب الى الحراس ، وهانا أحس الهدوء من أجل ذلك ٠ ان هذا الشاب كان مصدر تحد كما كان دافعا وجاذبا الى المجهول ، كان أحد أبطال قصص الاطفال ، كان حلما يمثل الشجاعة ، كان عنادا جامحا ٠ واذا كنت قد تصورته هكذا فهو فى الحقيقة أخطر من هذا ٠ كان لزاما على ان أقتل أفكارى التى لا تحمل المسئولية ، وأن أمهد بدمه مكانا يصبح مكانى ، أحتله بعقلى وضميرى ٠

بدت التكية تحت أشــــعة الشمس الهادئة ، تزهو بلونها الأخضر الذى ألبسته اياها شجيرات اللبـــلاب ذات الأوراق الريانة ، وتشع من جدرانها الســـميكة ومن قبعة سطحها الحمراء القـــاتمة هالات من الأمن المقيم ، وينبعث من تحت أطراف هذه القبعة هديل خافت استطاع ان ينفذ الى حواسى التى كانت لا تزال الى هــــذه اللحظة مغلقة ، وكان ذلك يؤذن برجوع الطمأنينة ٠ اما الحديقة فكانت تمتلىء برائحة الشمس وبما تزفره الأعشاب الحارة ٠ ولا بد لكل انســان من أن يكون له مكان يمنحه حبه ، لشـعوره بأنه مكانه ، ولاحســـاسه بأنه المأمن له ؛ فالعالم تكثر أحابيله

وتزداد فخاخه لمن لا سند له ٠ مهلا ، فقدمي تسير مستوية في غزير من الأعشاب ، ويدى تلمس كرة صدفية من أزهار ال (بيسرك) ، وسمعى يصل اليه تدفق أصوات المياه ، وهأنا استقر في هدوئي السابق، كمريض بريء من مرضه ، كعائد بعد طول ترحال ؛ فقد قضيت الليلة الطويلة بأكملها أتنقل بأفكارى ، والآن طلع النهار وسطعت الشمس ، وقد عدت من تطوافي ، وها هو كل شيء يبدو جميلا مرة أخرى ، ومن جديد أحسست به ٠

عندما وصلت الى المكان الذى افترقنا فيه قبيل الفجر ، رأيت الهارب مرة أخرى : طالعتني ابتسامة غامضة ، وسخرية ترتسم على وجهه ، في تلك الوقدة التي كانت تشتد مع تقدم النهار ٠

نظر الى وسألني في هدوء ٠

ـ هل أنت راض ؟

ـ نعم أنا راض ٠ ولا أريد أن أشغل بالى بك ، فقد أردت أن أقتلك٠

ـ لا تستطيع ان تقتلني ٠ لا أحد يستطيع أن يقتلني ٠

ـ انك تغالى في تقدير قواك ٠

ـ انني لا أغالى ، بل انت الذى تغالى ٠

ـ أعرف ٠ لست أنت الذى تتكلم ، ولعلك لست موجودا بعد ٠ انني أفكر وأتكلم في مكانك ٠

ـ اذن أنا موجود ٠ وكم في هذا من الخطر عليك ٠

حاولت أن أبتسم ارضاء لنفسى ، فلم يكن ذلك في قدرتي ؛ اذ كنت على وشك أن أكون منهزما ٠ لقد مرت اللحظة التي كنت فيها مغتبطا من أجل انتصارى عليه ، ومن أجل ذلك الذى كان في الامكان أن يكون ؛ فقد أحيا وجوده في خاطرى بصورة أشد خطورة ٠

٥

« أم على قلوب أقفالها »

في الممر الطويل الذي يحيط بداخل الخان القديم والذى اتخذ شكل المربع كان النـــاس في أحد جوانبه يســدون الطريق • كانوا ينتظرون متوترين امام باب لاحدى الغرف، وقد احتشدوا مشكلين دائرة غير منتظمة يقف في وسطها الحارس • وكان هنــاك آخرون ينضمون على التوالى الى هذا الحشد ، والممر يمتلىء بهم كما تمتلىء القناة المسدودة • ومن بين هؤلاء المجتمعين كانت الاذن تسمع أصواتا لهمسات توحي بالغضب والدهشة • والحشد له لغته التي تختلف عن تلك التي يستخدمها كل فرد من أفراده• انها تشبه طنين النحل أو تشبه الأزيز ؛ ففيها تفقد الكلمات ويبقى رنين متحد ، تفقد ميول الافراد وتبقى ميول الجمع ، ويالها من ميول خطيرة •

لقد قتل أحد العابرين في الليـــل ، ويعمل تاجرا ، والآن سوف يجيئون بالقاتل ، قبضوا عليه في الصباح ، وكان جالسا يتناول الخمر في هدوء ، كأنه لم يقتل رجلا •

لم أجرؤ على السؤال لأعرف من هو القاتل ، ولو سألت لما أفادني اسمه شيئا •• انني اخاف أن أتعرف عليه بأى اسم اسمعه ، فقد كان ظني متجها الى واحد فحسب • كدت دون تفكير أنسب هـــذا القتل الى هاربى • لقد فعل ذلك في الليل ، كانوا يطاردونه فاختفى فى التكية ، وفى الصباح ذهب ليسكر ظانا أنه في أمان • عجبت كيف تكون الدائرة التى تحيط حياة الانسان ضيقة ، وكيف تتقاطع الطرق التى نسير فيها ؛ ففي ليلة الأمس جاء به القدر الى ، والآن قادني القدر لأشهد نهايته • ربما كان من الأفضـــل ان أحمـــل تلك المعرفة والأدلة لعدالة الله السريعة فى نفسى كشعار وكباعث للطمانينة ولكنني لم اســـتطع ، انتظرت أن أرى وجهـــه الذى حيرني ليلة الامس ، وان أرى ثقته المتداعية او أرى عناده

الشرير لكي ارفضه ، سامعا حولى حديثا خافتا عن القتـل وكيف انتهى بالسكين في العنق وفي القلب · أخذت افكر كيف أصبحت مشتركا في امر قبيح ، وكيف قضيت الليلة العصيبة معذب الضمير دون ان أشعر سلفا بشيء يدل على أنه قاتل · كنت مدنسا بلقائه ، مهدر القدر بكلماته ، مذنبا من أجل هروبه ، ومن اجل انه كان يستطيع الا يقوم بعمل جنوني والا يذهب ليتناول الخمر في المشرب ·

ولكنني ، دون مبرر ، كنت اتصور كل شيء على وضع أشد واصعب مما كان عليه ، متهما نفسي ومتظاهرا بأنني أحس اشمئزازا · وفي الحقيقة كان الأمر بالنسبة لي أيسر ؛ فالحمل المضنى قد سقط عن كاهلي ، والضيق الذي جثم على صـدري واستقر طويلا كان يأخذ في الزوال · انه قاتل قاتل شرير ودنيء ، انتزع حياة آخر بحركة سريعة لحد سكين ، لا لأجل شيء ، وربما كان لأجل كلمة او لأجل ذهب · لقد تمنيت من كل قلبي أن يكون هو القاتل ، وعلى هذاالنحو استطعت ان أنحيه عني ، ومن أجل ذلك كان يستولى على الاحساس ببرد الراحة ، والآن سوف انتزعه من نفسي ، وسوف أنسى ليلة الامس العصيبة الهوجاء التي اتت كالنيران على ما كان محفوظا في نفسي كأنه شيء مقدس · ليس القاتل سـوى شخص تعيس حقا ، فالأمر سـواء بصقت عليه أو رثيت لحاله ، فهو لا يستطيع أن يحرك في داخلي غير الحزن أو الاشمئزاز من أجل الناس ·

عرفت انهم يجيئون بالقاتل ، وذلك على اثر سماع الاصـوات المضطربة الغاضبة التي كانت اشبه شيء بما تحدثه الرياح الخفيفة عند هبوبها (وفي الامكان ان ينطلق منها عاصفة أو ينبعث منها هدوء) تلك الأصوات التي يملؤها الكره ، وشدة الانفعال ، والتطلع القلق ، ورائحة الدم ، والدهشة المكتومة ، والتحفز للبطش والثـأر · كان يعلن عن مجيئه تكاثر حركات المتجمعين ، وتململ ارجلهم المضـطربة ، واتجاه أنظارهم المتطلعة نحو القادمين ، وتقلصات وجوههم التي كانت تطغى عليهم فتسلب أصواتهم ولعلها تحبس أنفاسهم · وفي هدوء ساد المكان ترامى الى السمع وقع خطوات في الممر المغطى بالاحجار ، ودون أن ارفع رأسي حاولت أن اتبين هل احدى خطواته غير مسموعة ، واذا به يتقدم بين اثنين من الحراس وكان نظرى موجها الى قدميه ، وكانتا داخل حذاء ، رفعت نظرى الى أعلى ، ولم تك ذاكرتي تختزن من ليلة الامس سـوى قميص أبيض ووجه صارم ، فرأيت رسغيه مقيدين في وضع متقاطع وقد

ازرقت يداه وبرزت عروقها من أثر القيد ، وما كنت اعرف شيئا عنهما ، وتوقف بصرى عند عنقه النحيل ، كان من الواجب أن أذهب من قبل (مجيئه) ، وبدون عجلة أو رغبة رفعت بصرى الى وجهه ، فالرجل لم يكن هو هارب الامس ٠

عرفت ذلك قبل أن أراه ٠

كان هذا الرجل يقف في وسط دائرة ، وقد بدا شاحب الوجه ، هادىء النفس ، وكان يخيل الى أنه يبتسم بطرف احدى شفتيه الدقيقتين ربما كان ذلك لأن الامر بالنسبة لما سيحدث له سواء ، أو لأنه كان معجبا بنظر الناس اليه ٠ ومهما يكن من أمر فقد شق الحراس طريقــا بين جمهور الواقفين ودخلوا به الى الغرفة التي يرقد فيها التاجر القتيل ٠

اخذت أذهب في الممر ، فما كان هذا يهمني في شيء ٠ لم اعجب لعدم كونه هو ، ففي الحق لم يكن هذا متوقعا ٠ لقد وددت أن يكون هو ، وكنت أنتظر المعجزة ، ربماكنت ظالما اياه ، وربما لم أكن ، قفز هذا الى فكرى وأنا أربط بين الاسباب الخارجية ناسيا كل ما فكرت فيه في الصباح والليلة الماضية ٠ لم يكن هو المهم الآن بل أنا ، لقد كنت أريد أن أحرز نفسي منه كما اردت في الصباح ٠ وكانت تلك محاولة أخرى منى لاهلاكه ، كي اقتص لنفسي وأفسح الاثر الذى تركه ٠ لقد شغلت نفسى به أكثر من اللازم ، فقد جذب اهتمامي الى درجة جعلتنى أتردد في نفسى ولكم تمنيت أن يهرب من المطاردين ويحتفظ بحريته كما يحتفظ بها النهر خلت من أمامه العــوائق والســـدود ٠ كان فرصة نادرة غريبة ، يجب الاحتفاظ بها ٠ هكذا فكرت وندمت على الفور ٠ لقد دخل حياتى في لحظة ضعف وكان سببا وشاهدا لخيانة لم تستغرق سوى زمن قصير ، ولكنها حدثت بالفعل ٠ ومن أجل ذلك كنت أود أن يكون هو القــاتل ، اذ عندئذ تكون الامور جميعها أكثر سهولة ويسرا ٠ فالقتل أقل خطرا من الفتنة ، ولا يمكن أن يتخذ أسوة أو يكون بمثابة التحريض ، انه يستوجب الادانة ويثير الاشمئزاز كما يحدث فجأة عندما يغفل أمر الخوف والضمير ، انه مقزز ؛ كاسترجاع الذكرى القبيحة لاستمرار الشهوات الدنيئة التي يخجل الناس منها خجلهم من أجدادهم الساقطين وأقاربهم المذنبين ٠ وأما الفتنة فهي وباء ، فباستطاعتها أن يثير السخط الذى يوجد دائمــا ، وهي تشبه الشجاعة وربما كانت شجاعة حقا ، لانها مقاومة وتمرد ؛ كما تبدو جميلة، يحملها الرجال المتعصبون الذين يموتون من أجل كلمات براقة ويضعون كل

شيء رهن الحظ ، اذ كل ما يتعلق بهم غير مضمون · ومن أجل ذلك يبدو للرجل جميلا وجذابا في بعض الاحايين كل ما هو خطير من الأمـور ·

كان والدى يقف في وسط الغرفة · لقد فتح الباب وأخذ ينتظر · كنت على علم بما يجب أن يفعل ، أن اقترب منه وأعانقه ، دون ان تكون هناك لحظة انتظار أو تردد ·ولو تم ذلك لانتهى كل ما بيننا على أفضل الطرق وايسرها ، ولحللت بهذا جميع المشاكل ، مشاكلي ومشاكله ، وعندئذ نستطيع أن نتعامل كما يتعـــامل اب وابنه · ولكن كان من الصعب مد اليدين ومعانقة هذا الرجل الاشيب الذى لم يكن وقوفه هكذا فى وسط الغرفة بطريق المصادفة ، والخوف يسيطر من أجل هذا اللقاء · كلانا كان مترددا ، وما كنا نعرف كيف يعامل بعضنا بعضـــا ، وماذا يقول أحدنا للآخر ، فسنوات طويلة كانت قد مرت على لقائنا الاخير ، وقد اردنا بطريقة ما أن نخفى أن الحياة قد فرقت بيننا · نظر أحدنا الى الآخر لحظة طويلة ، كانت تجاعيد الشيخوخة تظهر على وجهه ، وكانت عيناه تنظران الى دون حركة منهما · لم يكن شيء في الرجل كما كان من قبل ، وكان لزاما على أن أعيد صورته الى ما كانت عليه من قبل ،خطوط حادة مشدودة ، صوت جهورى ، بساطة رجل قوى منحت يداه حرية الحركة · وكان الأمر يفرض على لسبب أن أتخيله قبل هرمه ، فقد كنت احمل صورته هـــكذا اعواما طويلة في ذاكرتي · والله يعلم كيف كان يرانى ، وماذا كان يريد ، وماذا وجد · لقد كنا كغريبين وما كنا نود ان يكون تصرفنا على هذا النحو · وكان ضيقنا يشتد من أجل تصـــورنا للوضع الذى كان يجب ان يكون عليه لقاؤنا ، ومن اجل ما كان بامكاننا فعله وما لم يكن بامكاننا ان نفعله ·

انحنيت لأقبـل يده ، فجميع الابناء يفعلون هذا ، ولكنه لم يسمح وأمسك بساعدي ففعلت مثله كما لو كنا صديقين ، وكان هذا هو الافضل وبدا الوضع يتسم بالود وليس تكلفا · ولكننى عندما شعرت بيديه اللتين لا تزال بهما القوة على ساعدي ، وعندما رأيت عن قرب عينيه الرماديتين المغرورقتين ، وتعرفت على رائحته القوية المحببة الى منذ الطفولة ـ نسيت حيرتي وحيرته ، وبحركة طفولية أسندت راسى على صدره العريض ، فأحسست على الفور بنعيم شيء كنت اراه قد فقد منذ زمن بعيد · ربما كانت هذه الحركة قد اثارت مشاعرى ، أو لعل قرب الشيخ قد حرك ذكراى الخامدة فقد كان يحمل رائحة البحيرة وحقول الغلات ، وربما كان

السبب في ذلك شدة ما بدا على من انفعال وأنا احس كيف تهتز ترقوته التي اسندت جبهتي عليها ، أو ربما كانت الفطرة قد غلبت على فأحييت باعجوبة بقايا ذلك الذى كان فى الامكان‌ان يكون طبيعتى ، حتى فوجئت بغزارة دموعى الصادقة • استمر هذا لحظة فحسب ، وقد خجلت ولم تكن الدموع قد جفت بعد لهذا الموقف الصبيانى المضحك ، اذ لم يكن يناسب ما بلغته من السن ولا ما ارتديته من ثياب • ولكن ، يا للعجب ظللت اذكر على مدى طويل هذا الضعف المخجل الذى كان لى بمثـــابة تيسير لا حدود له : ففى لحظة قصيرة كنت منفصلا عن جميع الاشـــياء ومرتدا الى الطفولة ، تحت رعاية أحد الاشخاص ، متحررا عما سلخت من السنين ومما مر بى من الأحداث ومن عذاب ما اتخذت من قرارات ، وقد سلم كل شيء الى أياد كانت اقوى من يدى • كنت ضعيفا للغاية ، وما كانت لى حاجة الى القوة ، فقد كنت أحتمى بالحب الذى يستطيع أن يفعل كل شيء • أردت ان اقص عليه كيف كنت أركض فى الأحياء ، مفزعا بما أراه من توتر الناس وجموحهم الى المعاصى ، وكنت اذ ذاك مسمم النفس بأفكار غريبة ، وهكذا حالى دائما عندما احس بضيق وأشعر بتعاسة ، اذ يبدو الجسم عندئذ كانه يبحث عن الخلاص من العذاب ،وكان ذلك كله من أجل أخى ، وقد جاء الوالد من اجله ، اعرف ذلك ، وقد رغبت ان اقول له كيف لجأ الهارب الى التكية ولكنى ما كنت أعرف كيف أتصرف ، لقد احتدم كل شيء فى داخلى ومن أجل ذلك اردت ان اعذب نفسى وأعذبه • وفى هذا الصباح ، والآن ، ومنذ قليل ــ وان كان الامر فى ذلك على السواء ــ لم يعد شيء بعد على ما كان عليه ، ولذا اطلب مأمنا على صدره ، فقد عدت صغيرا كما كنت يوما ما •

ولكن عندما انقضت لحظة الحنان ومرت مرور البرق رايت امامى رجلا أشيب قد حيرته وفزعته دموعى ، كنت اعرف أنها بلهاء لا مبرر لها، وقد كان بامكانها أن تقتل فيه كل أمل ، حيث كان يفكر فى شيء واحد فقط ، أو تثبت له كيف أننى اخطأت فى اختيار طريق حياتى ، وذلك ما لم يكن حقا، وكان واضحا لى أنه لا يستطيع أن يفهم شيئـــا من جميع ذلك الذى رايت أن اقوله له ، وان كنت لم أر فى الحقيقــة فحسب ، بل كنت أرغب بشغف فى قوله ، كما يرغب الطفل ، كما يرغب الضعيف : ولو حاولت لمنعتنى على الفور عيناه الفزعتان ولحالت دون ذلك يقظة عقلى • كان أحدنا يتمنى من الآخر ما يتمناه الآخر منه ،

آملا هو في قوتي وآملا أنا في قوته ، وكلانا ضعيف ، وهذا ما كان يبعث على الحزن الشديد في هذا اللقاء الذي لم يتحقق منه الهدف ·

سألته لماذا لم يقصد التكية ، فعندنا ينزل مالا نعرفهم من المسافرين وهو يعرف كم يسوني حضوره · والناس سوف يعجبون حين يطلب المبيت في مكان آخر ؛ فنحن لم نكن متخاصمين كما لم ينس أحدنا الآخر · وليس من المناسب النزول في الخان ، فالخان منزل للجميع ، ويصلح لمن لا اقارب له في القصبة ، ولا أحد يعلم من يخرج ومن يجيء ، فمن جميع الصفات يوجد اليوم أناس ·

كان يرد على جميع محاولات الاقناع التي كنت أؤجل بها ما كان يجب أن يكون برد واحد فقط : انه وصل ليلة الامس متأخرا ولم يرد أن يحدث ازعاجا ·

لوح بيده عندما سألته عما اذا كان يعلم عن حادثة قتل في الخان لقد كان يعلم ·

لم يوافق على أن ينتقل الى التكية ، وبعد الظهر سيغادر القصبة ، وسيبيت عند أصدقائه في احدى القرى ·

ـ ابق يوما أو يومين لتستريح ·

لوح مرة أخرى بيده وأشاح برأسه · لقد كان في فترة من عمره حسن الحديث ، يأتي به على مهل ، ويوفي كل موضوع حقه ، ناظما كلماته في جمل حسنة التكوين بديعة النظام ، وكان يسود هذا الحديث المتأني شيء من الهدوء والثقة ، حتى ليخيل للمرء أنه فوق مستوى الأشياء وأنه يتحكم فيها ، كان يؤمن بموسيقى الكلمات ومعانيها · والآن كان ذلك التلويح بيده يعني الاستسلام أمام الحياة ، يعني التخلي عن الكلمات التي ليس باستطاعتها أن تحول دون الكوارث ولا أن تقوم بتفسيرها · لقد اتخذ بهذا التلويح ستارا وأخفى حيرته أمام ذلك الابن اذ لم يستطع حتى أن يكلمه ، كما أخفى فزعه أمام المدينة التي استقبلته بالشرور والظلام ، وعدم تكيفه أمام المصائب التي افسدت شيخوخته كان عليه أن ينهي العمل الذي جاء من أجله ، ويهرب على الفور من هذه القصبة التي سلبت منه كل ما كان يملكه : الابناء ، والطمأنينة ، والايمان بالحياة · كان يتلفت حوله ، ويلقي ببصره على أرض الحجرة ،

كما كان يكثر من الضغط على أصابعه الغليظة الخشنة ، ويحول دون رؤية عينيه • وكان ذلك يبعث الضيق والأسف في نفسي •

قال :

ـ لقد افترقنا ، ولم تعد تجمع بيننا سوى الشدائد • •

ـ متى سمعت ؟

ـ منذ أيام • لقد مر بنا بعض حمالى البضائع •

ـ وعزمت فورا على المجيء ؟ وانتابك الخوف ؟

ـ جئت كي أرى •

كنا نتحدث عن أخ وابن سجين كأنه من الأموات ، دون أن نذكر اسمه ، وقد جمع بيننا وهو غائب • كنا نفكر حتى عندما تحدثنا عن أشياء أخرى •

أخذ الوالد الآن ينظر الى بخوف وأمل ، فكل ماسأقوله سيكون بالنسبة اليه حكما فاصلا • لم يذكر خوفه ولا انتظاره ، مانعا نفسه بمهارة من أن يقول شيئا معينا ، وخائفا من الشر الناجم عن سحر الكلمات • غير أنه أضاف السبب الاخير الذى جاء به هنا :

ـ انك هنا صاحب سمعة ، وتعرف وجهاء القوم جميعهم •

ـ ليس في الأمر خطر على الاطلاق • لقد قال شيئا لا ينبغى قوله •

ـ ماذا قال ، أمن أجل كلمة يزج بالناس في السجن ؟

ـ سأذهب اليوم الى المسلم (١) ، لأعرف السبب وأطلب الرأفة •

ـ أيلزم ان اذهب انا أيضا ؟ سأقول لهم انهم مخطئون ، فلقد زجوا في السجن برجل من أشرف الناس ، وليس في امكانه أن يأتي بعمل قبيح • وقد أركع على ركبتي ليروا حزن الوالد • وسأدفع ان لزم الأمر ، سأبيع كل شيء وسأدفع ، أريد أن يطلقوا سراحه فقط •

ـ سيطلقون سراحه ، ولا يلزم أن تذهب الى أية جهة •

---

(١) بمثابة المحافظ .

ـ اذن سانتظر هنا • لن اخرج من الخان حتى ترجع • وقل لهم انه وحده هو الذى بقى‌لى • لقد أملت انه ســـوف يعود الى البيت ، ولن يخمد موقدى •

انني على استعداد لأن ابيع كل شيء ، فلا شيء يلزمني •

ـ لا تقلق ، فسيكون كل شيء على مايرام ، بفضل الله ورحمته •

لقد اختلقت كل شيء ، عدا فضل الله ورحمته • لم يطاوعني‌قلبي أن أتركه بدون امل ، كما لم أستطع ان اقول له انني لا أعلم شيئا عن أخي • كان الوالد يسيطرعليه اعتقاد ساذج بأنني بوجودي وســمعتي يمكنني أن احمي اخي ، ولم أرد ان أذكر له أن وجودي لم يســاعد اخي وأن سمعتي وقعت في مأزق ، اذ كيف يستطيع أن يفهم أن جزءا من ذنب أخي قد اصابني ؟

خرجت من الخان أحمل عبء الالتزام الذي أخذته على نفسي من‌أجل المراعاة ، دون أن أعرف كيف احققه ،متأثرا بكلمة غير حذرة خرجت من فم أبي في حالة الحزن • وما كان ليقولها على الاطلاق لو انه كان‌مسيطرا على نفسه ، وقد أدركت بها مقدار حزنه ، كما رأيت انه اسقطني من حسابه ، فانا بالنسبة له غير موجود وكأنني في عداد الموتى ، لم يبق له سوى هذا الآخر ، هكذا يجب أن أقول للناس انني ميت في اعتبــار أبي لم يبق له بعد سوى هذا الآخر ، عودوا به اليه • أنا لست موجودا • سلام على روح الدرويش المذنب أحمد • لقد مات ، ويبدو فقط أنه حي • أبدا ماكان لي أن اعرف ذلك الرأي عني لو لم يكن الحزن قد افقده صوابه، وهانا الآن اعرفه ، وأرى نفسي على‌خلاف ما تعودت أن أراها ، أراهــا بعيون الآخرين • اتكون الطريق التي اخترتها تافهة في نظر والدي الى الحد الذي جعله يدفنني حيا ؟ ايكون عدم اعترافه بوجودي لأن ماأفعله لا يساوي في نظره شيئا ، ولأننا مفترقان افتراقا كبيرا ومختلفان اختلافا عظيما ، فنحن نسير في طريقين متضادين على وجه التمام ؟ لقد كان فقده اياي قد تم منذ زمن ، وتأبينه لي قد مر وانقضى ، حتى ان حزنا لا يبدو على وجهه من جراءفقداني • ربما كنت أبالغ في ذلك ، ربما أتى والدي ركضا من أجلي اذا المت بي حادثة ولم يفكر في شيء سوى أمري، اذ الأحق هو من تكون حالته أشد •

ماذا حدث نجأة ، وأي حجر من الأساس تزحزح فأخذ كل شيء في التداعي والانهيار ؟ لقد كانت الحياة تبدو بناء صلبا محكما ، لا يرى

فيه شيء من التصدع ، وفجأة حدث زلزال دون أن يكون هناك مبرر أو تحريض ، فهدم البناء المشيد كما لو كان قد بني من الرمال ٠

من أعلى الجبل ، ومن درب الغجر الذى يمتد آخذا فى الصعود الى نهاية القصبة ، كانت تصل الى الآذان ضجة مبعثها ضربات الطبـــل وأصوات تخرج من المزمار ، وكانت الأفراح بعيد مارى جرجس تنحـدر انحدار السيول الهادرة الى القصبة ، وذلك دون توقف او انقطاع ، ولم يكن من الممكن الهروب منها الى اى مكان ٠

يالهم من مجانين ، كنت أفكر دون تركيز بروح قد استولى عليهـا غضب الامس ٠ انهم لا يعلمون أن فى العالم أشياء أهم من ذلك ٠

ولكن غضبى لم يكن حارا كما كان ليلة الامس ٠ ولم يكن هذا فى الحقيقة غضبا بل كان سخطا ، فهذه الافراح الجنونية كانت تمثـــل حائلا وتشكل ظلما ، اذ كانت همومى تشتد صعوبة بها ، وقد تركزت جميع جهودى وامكانياتى فيها ، فقد أصبحت عالمى وحياتى ، ولم يعـد يوجد هناك شيء خارجها ٠ كان جميع ما يمكننى فعله قد بلغ من الصعوبة قدرا بحيث لا يمكن التغلب عليه ، فقد كان أشبه شيء بالمخالفـــة أو بالخطوات الاولى فى الحياة ٠ لقد كان لزاما على من أجلى ، اذ أننى اخوه ومن اجله ، اذ انه اخى ، وما دمت لا ابحث عن سبب آخر ولا أنشـد سببا أفضل من هذا السبب العادى الذى يجمل وقعه والذى يفسر نفسه بنفسه ـ أن أقوم بفعل شيء لو لم يكن فى داخلى هذا القلق ٠٠ لو لم يكن هذا الاضطراب الذى يذكيه تنبؤات سوداء والذى كان يضطرنى الى التفكير بغضب أرزق فى أخى المسـجون : لماذا دفعنى الى هذا ٠ كنت احاول فى البداية أن أدافع عن نفسى ازاء هذه الفكرة التى تتسم بالانانية كنت أحدث نفسى قائلا ليس جميلا ان نظن فحسب أن مصـيبته مصيبتك فدمه دمك ، ويجب ان تساعده بدون أن تفكر فى نفسك ٠

لو تم الامر هكذا لكان أجمل ، ولاستطعت أن أكون فخورا بفكرتى الكريمة ، ولكننى لم أنجح فى أن أبعد الهـــم عن نفسى ، وكنت أجيب فكرتى النقية غير القادرة بقولى : نعم انه أخى ، والأمر من أجل هـــذا عسير ، وها هو قد ألقى على شيئا من ظلاله ٠ فقد كان الناس ينظرون الى بريب ، أو بسخرية ، أو باشفاق ، وكان بعضهم يحولون وجوههم حتى لا تلتقى أنظارنا ٠ ولقد حاولت أن أقنع نفسى قائلا : ليس من

الممكن ان يكون هذا ، بل هو يخيل اليك ، فكل شخص يعلم أن تصرف أخيك أيا كان ليس تصرفك ٠

ولكن على الرغم من ذلك لم يكن نظر الناس الى كما كان من قبل وكان من الصعب تحمله ، فقد كان يذكرني دائما بذلك الذي أردت الا يعرفه الناس ، ويكاد يقول انك تحاول دون نجاح أن تبقى طاهرا وحرا ولكن أحدا من أقاربك سوف يسمم عليك حياتك ٠

انحرفت من السوق الى طريق يمتد بجانب نهر صغير ، سائرا فى اتجاه مجراه بين الحدائق وبين قناته القريبة القاع ، فهنا يمر الناس فحسب ولا يتوقفون ؛ وكان من الأفضل الذهاب في اثر مياه النهر والاتجاه بعيدا خارج القصبة ، حيث الحقول تترامى فى أحضان التلال ٠ انني أعرف انه ليس بجميل أن يرغب الانسان في الفرار ، ولكن الفكرة تأخذ بنفسها فى التحرر عندما تشتد بها الصعوبة ٠ وفى الماء القريب الغور كانت تسبح أسماك صغيرة فضية يغلب على الظن أنها لا تأخذ فى النمو ، وهذا شيء حسن ، وكنت أنظر اليها باصرار دون أن أتوقف عن السير ، متابعا اياها ان هذا الطريق ليس طريقي ، وكان من الواجب أن أتجه الى الجانب الآخر، ولكنني لن أعود كي أعبر اليه ؛ فالانسان يرى الوقت متسعا أمامه عندما يقدم على شيء لا يطيب له ٠ لقد كان من الأفضل أن أحيا متشردا ، فالمتشرد يستطيع على الدوام أن يبحث عن الناس الأفاضل والأماكن المحببة اليه ، وأن يحمل روحا صافية متفتحة لسماء صافية وطريق حر لا يقـــوده الى جهة معينة بل يقوده الى كل الجهات ٠ ومن الممكن أن يتحقق هذا لو لم يكن الانسان مرتبطا بمكان قد استقر فيه ٠

اذهب عنى ، أيهـا الضعف الكريه ، انك تخدعنى بصـور الاراحة الكاذبة التى لا تستطيع أن تصل الى مجرد رغبة ٠

وفى الطريق حيث كنت أسير سمعت ورائى وقعا خافتـــا ، وكأنه يخرج من باطن الأرض ؛ فقد كان هناك قطيع من الأبقار يمشى حذاء النهر وسط سحب من الغبار ٠

انتحيت جانبا عند أحد أبواب الحديقة لأفسح طريقا للقوة المتمثلة فى مائة رأس من ذوات القرن ، تسير دون ابصار ودون وعى ، وتجرى مغمضة الأعين تحت ضربات الرعاة ٠

وعلى حصان أمام القطيع كان يركب حسن ، وقد ارتدى معطفا احمر اللون ، وجلس منتصب القامة منفرج الأسارير ، وكان الوحيد الذى يرى هادئا مبتسما وسط هوة الفوضى ٠٠ هذا الرغاء المثير ٠٠ هذه الصيحات والعبارات البذيئة التى كان يتردد صداها فى وادى النهر ٠

كان كعهدنا به دائما ٠

لقد عرفنى هو بدوره ، وجرى مبتعدا عن القطيع ، وعن الرعاة ،وعن سحب الغبار الى حيث أقف ٠

وقال مبتسما :

ـ اننى لا اود أن تطاك أنت اقدام حصانى ٠ لو كان غيرك لما حزنت نزل عن حصانه بسهولة كما لو كان قد بدأ من لحظة فى السفر ، وعانقنى بشدة ٠ لقد استولت على الدهشة وعدم الارتياح عندما أحسست بضغط يديه على كتفى ٠ انه كان دائما يظهر سروره دون اخفاء ، وقد كان هذا هو ما يثير دهشتى على وجه الخصوص ٠

أكان ذلك من أجلى ، أم انه فيض من المجاملات يصيب به كل من يراه ؟ ومهما يكن فهو ابتهاج مظهرى فى حياته يطفو كما يطفو الماء ، وليس له من قيمة لأنه يصيب الجميع ٠

انه عائد من (فلاشكا) وقد قضى أشهرا عديدة فى السفر ٠ هأنا أسأله رغم علمى كى أجد شيئا أقوله ٠ وقد كنت ليلة الأمس على استعداد للتآمر عليه مع أخته ٠

ابتدرنى قائلا :

ـ أراك قاتم الوجه ٠

ـ اننى أحمل هموما ٠

ـ أعلم هذا ٠

كيف استطاع أن يعلم ؟ انه قضى ما يقرب من ثلاثة أشهر فى التنقل بين البلاد الأجنبية ، وقطع آلاف الاميال من أجل الأعمال التجارية ٠ لقد سمع فور وصوله كل شىء ، وقد كنت أظن أن جميع الناس فى القصبة لا يعرفون ٠ ان الجميع يعلمون دائما ما يحدث من المصائب والشرور ، والخير وحده هو الذى يبقى مستورا ٠

ـ لماذا سجن ؟

ـ لا أدرى .. ولا أعتقد أنه استطاع أن يرتكب أية جريمة .

ـ لو ارتكب جريمة لعرفت .

قلت دون أن أفهم قصده :

ـ لقد كان هادئا .

ـ ان رجالنا يعيشون هادئين ويصابون فجأة . اننى أشعر بأسف من أجله ومن أجلك . أين هو الآن ؟

ـ فى القلعة .

ـ لقد ألقيت التحية عليها من بعيد ، ونسيت ما فيها . ساجيء فى المساء الى التكية اذا كان هذا لا يضايقك .

ـ لماذا يضايقنى !

ـ كيف حال الحافظ محمد ؟

ـ بخير .

ابتسم ثانية وقال :

ـ انه سيدفننا جميعا .

ـ سننتظرك هذا المساء .

لن يساعدني ولن يضايقني معروفه الذى لا يحمل شيئا ولا نجنى من ورائه نفعا ؛ فكل شيء عنده فارغ وغير مفيد : طبعه الهادىء ومزاجه الصافى وعقله الذكى ، كل هذا فارغ وسطحى . ولكنه كان الرجل الوحيد فى القصبة الذى قال لى كلمة العزاء لم تكن مفيدة ، ولكنها كانت صادقة وبالتالى فاننى أخجل أن أقول انها كانت تشبه صدقة الفقير ، اذ لم تبعث فى نفسى الدفء ولم تثر فيها مشاعر الحزن .

انطلق بحصانه أمام قرون الثيران التى كانت مطرقة كأنها تستعد للهجوم ، وقد لفه الغبار الذى أخذ يسبح كفقاقيع رمادية فوق الأبقاء مخفيا اياها .

لقد قابلته بفتور وابتعاد نفسى ، من أجل ما حدث فى الليلة الماضية ومن أجل ما أنتظر أن يكون .

انحرفت والأفكار تدور برأسى الى الجسر الخشبى لأنتقل الى الضفة الأخرى ، الى سكون الأزقة الهادئة التى تصبح الخطوة فيهـــا منفردة ،

وتختفي البيوت بين أغصان الأشجار خلف الأسوار المرتفعة ، كان كل شيء يختفي أمام الآخر ويركن الى العزلة والهدوء · لم يكن لي أي عمل هناك ، ولكنني وددت الذهاب مرجئا كل شيء قبل أن تكون هناك محاولة مني لفعل شيء ما · وكنت أذهب الى هذه الأزقة الهامدة المختفية التي تقبع في الضفة الاخرى ، حيث يكون السير أيسر ، ولكن حدث اذ ذاك أن سمعت من السوق ضربات الطبل المفزعة التي تخالف تلك التي تصدر عن الفجر، وانطلاق صوت البوق من برج الساعة في وقت غير مناسب ، وأصواتا مختلطة غير واضحة تصيح وتنادى من جراء مصيبة مشتركة ، وكانت أشبه شيء بخلية النحل أصابها الهجوم · وكان النحل من الأناسي يطن ، وكان ينطلق ليهرب ، ويعود ليدافع ، مطلقا اللعنات ومناديا من أجل المساعدة· كان عمود من الدخان القاتم يرتفع فوق القصبة ، وكأنما كانت صيحات الناس قد تشابكت وامتزجت وتمثلت في هذا العمود صورة تراها الأعين· وكانت أسراب الحمام تطير من حوله ، أرغمها على التحليق صياح الناس واشتداد الحرارة ·

وبعد قليل كان عمود اللهب قد اشتد وأخذ ينتشر فوق البيوت أسود كثيفا · لقد تحرر اللهب ، وأخذ يندفع في صولة الجبار ، ويقفز في شدة وغزارة من سطح الى سطح معلنا سروره ، ومظللا صيحات الناس ومخاوفهم ·

انتابتني رجفة لهذه المصيبة · اننا على الدوام مهددون ، فدائما يحدث أمر قبيح · كنت اذ ذاك منفصلا بمصيبتي التي كانت أشد من هذه وأهم حتى انني اخذت أنظر بالرضا الى هذه النار ، آملا أن يبقى الناس أمامها عاجزين ، وأنه بهذا سوف يتقرر مصير كل شيء ومصيري · كانت لحظة جنونية ، وبعدها لم يعد يهمني شيء ·

وهكذا ، في الوقت الذي كانت توجد لدى أسباب كافية لأنحرف عن الطريق حتى لا أقوم بتنفيذ ذلك الذي كنت أنوى عمله ، قررت ألا أؤجل القيام بمهمة التنفيذ · لم أفكر طويلا ، وربما قوى الأمل في نفسي أن الكلام عن الرحمة أيسر في لحظة المصيبة التي تذكر الناس بالانكسار والضعف أمام ارادة الرب ·

ان لي الحق في أن أعرف عن أخي الشقيق قدر ما يجب عليهم أن يدلوا به الى من المعلومات عنه ، ذلك القدر الذي يجب عليهم أن يدلوا به الى أي شخص له نفس الصفة ونفس الوضع · يجب أن أساعده اذا كان

فى الامكان مساعدته ، وقبيح أن أبقى بعيدا عن أمره ، وسيعاتبنى الجميع من أجل ذلك ٠٠ من لى غيره ؟ ومن له غيرى ؟

كنت اشجع نفسى وابرؤها ، وأثبت حقى وأستعد للتراجع ٠ لم أنس ما كنت أفكر فيه قبل ذلك ، من أننى اخاف على نفسى وأحزن من اجله ، حتى اننى ما استطعت أن اعرف ما هو اهم ، ولا أن افصل بسهولة أحد الأمرين عن الآخر ٠

وأمام مبنى المسلم كان أحد الحراس واقفا ، وسيفه معلق بحزامه ، وبندقيته الصغيرة قد حشرها فى حزامه العريض أمام بطنه ٠ لم أكن قد حضرت الى هذا المكان من قبل ، ولم أفكر فى الحراس المسلحين الذين يقفون عقبة فى طريق القادمين ٠

ـ هل المسلم موجود ؟

ـ لماذا ؟

كان يراودنى خلسة رجاء فى ألا أجد المسلم : فالنار فى المدينة ، وهناك أعمال اخرى مختلفة تشغله ، ومن العجيب أن يكون موجودا عندما أطلبه أنا ، ولعل تلك الفكرة المستترة قد حتمت على المجىء لاننى لن أجده ، وسأضطر الى الرجوع مؤجلا زيارته ليوم آخر ٠ ولكن عندما سالنى الحارس بغلظة ، ويده تقبض على زناد بندقيته عن ذلك الذى لا يهمه ، ثار فى نفسى الغضب ، وكأن همومى قد وجدت لها متنفسا وكانت تنتظر على مضض حتى تتهيأ لها الفرصة لتنطلق بأية طريقة ٠ اننى درويش ٠٠ شيخ للتكية ، ولا يستطيع أحد الحراس أن يستقبلنى بهذه الطريقة ، بيد على البندقية ، ولو من أجل الملابس التى أرتديها ٠ لقد لحقتنى الاساءة حقا ، وبعد قليل كنت أفكر كيف ننتقم لتخويفنا ما امكنتنا الفرصة ٠ ان سؤاله كان ينم عن غلظة ٠٠ كان يبرز سلطته ومهمته ٠٠ كان يشير الى انتفاء قدرى ٠ لقد اظهر ان الطريقة التى أتبعها لا تثير الاحترام ٠ ولكن ذلك كله لم يستطع أن يكون بمثابة سبب يدعو الى الانصراف ٠ لو قال ان المسلم ليس موجودا او أنه لا يقابل أحدا لشكرته ولذهبت بارتياح٠

قلت فى هدوء محاولا تهدئة غضبى :

ـ اننى شيخ التكية المولوية ، ويجب أن ألتقى بالمسلم ٠

نظر الحارس الى فى سكون ، ولم تثر كلماتى فيه شيئا ولو قليلا ٠ لقد بدا متشككا ، ومغفلا ـ وفى ذلك اساءة ـ أمر ذلك الذى قلته ٠خشيت

من هدوء الذئب هذا ، وخيل الى أنه يستطيع دون رحمة ودون غضب ان ينزع بندقيته وأن يرديني قتيلا ، كما يستطيع كذلك ان يصرح لى بالدخول الى المسلم · انه كان يطارد ليلة الأمس حاربى ، وانه قد ذهب بأخى الى القلعة · لقد اخطأ بالنسبة اليهما ، وهما قد اخطآ بالنسبة الى · وانني هنا الآن من أجلهما ·

وفى غير عجلة ، وفى انتظار شيء آخر مني قد يكون سبا وقد يكون رجاء ، دعا حارسا آخر من الممر وقال له ان درويشا ما يريد لقاء المسلم· لم أثر من أجل عدم التعيين هذا ، فربما كان من الأفضل ذلك · على أنه كان يحق لى أن أثور فالمسلم لا يرفضنى أنا بالذات وانما يرفض درويشا غير مسمى ·

انتظرنا أن ينتقل الخبر خلال الممرات وأن تعود الاجابة ، ووقف الحارس مرة أخرى فى مكانه دون أن ينظر الى ، ويده على البندقية ، اذ لم يكن يهمه هل سيطلب مقابلتى أو يرفض » وكان وجهه الأسمر النحيف يبدى خشونة تحمل طابع اللامبالاة ، يغذيه بها وقوفه فى هذا المكان ·

ندمت وانا أنتظر لما كان منى من عناد لأتخطى هذه العقبة ، ظانا أنها ليست من الصعوبة فى شيء ، والواقع أنها عقبة المسلم نفسها ، فهى يده الممتدة · والآن لم استطع بعد أن أرجع ، لأننى ربطت نفسى بهـــذا المكان ، وضـــعت نفسى فى مأزق ، فاما أن يدخلونى واما أن يردونى ، ولا أعلم أيهما اكثر شرا · كانت نيتى أن التقى بالمسلم ، فقد كنت أعرفه وان ازج عندما تسنح الفرصة فى الحديث بموضوع أخى · والآن لا يمكن الانصراف : لقد حركت سلسلة الحراس ، وطلبت أن اقابل المســـلم ، فالحديث لا يمكن أن يكون عرضيا ، فقد اتخذ طلبى شكلا رسميا · سوف يكون دليلا على الجبن لو تحدثت الى المسلم بصـــــوت منخفض ·· بذلة وانكسار · كنت ارغب فى المحافظة على الوقار والحذر ، فالشدة لا تساعدنى ولا أملكها ، والضعة تجرح مشاعرى ولكننى أحس بها تسرى فى جميـــع شرايينى ·

سيكون من الخير ان يرفض مقابلتى ، فقد كنت متوترا وعلى غير استعداد ، ودون جدوى حاولت ان افكر فيما ساقوله له ، ودون جدوى حاولت أن أتخيل تعبير الوجه الذى سأحمله معى الى مكتبه · كل ما كان اننى رأيت التجاعيد المتقلصة لرجل مذعور لم يكن يعرف حتى ذلك الذى يحثه ويدفعه الى تلك الخطوة ، أهو حبه لأخيه ، أو خوفه على نفسه ، أو

مراعاته جانب الأب ؛ وكان يفزع كأنه يفعل شيئا محرما ، كأنه يعرض كل اموره لحكم القضاء • ماذا عرضت ؟ لا أعرف ، ولذا أقول : كل الأمور •

لقد دعوني للدخول •

كان المسلم واقفا بجانب النافذة ينظر الى الحريق • وعندما أدار بصره بدا لى أنه مشتت الذهن ، ولم أر صورتى فى نظرته، كأنه لايذكرنى، لم يساعدنى هذا الوجه الجامد بشىء •

وفي لحظة واحدة ، عندما كنت أنظر الى عينيه اللتين تلفظان الناس واللتين كانتا تنتظران أن تفصلا في قضيتي ، كنت احس بأنني متهم • لقد كنت أقف بينه وبين جرم مرتكب غير معروف ، اما هو فكان يبعدنى عنه ويقربنى الى المتهم •

كان في الامكان ان ابدا حديثي بطرق شتى لو لم أكن متوترا •• ان ابداه بهدوء قائلا :

ـ لم أجىء لأدافع وانما لأسأل •

او أبدأه في قليل من التوسع :

ـ مذنب هو حيث انه سجين ، هل لى ان اعرف ماذا فعل ؟

او اتناوله بشىء من التجريح :

ـ لقد سجن ، لا بأس ؛ ولكن كان من الصواب أن تقوموا باخبارى•

كان يجب البدء بهدف ما ، بارادة ما معينة ، مظهرا صلابة أكثر في هذا التدخل ، فاخترت شر طريقة ، ويبدو انني لم اخترها بل فرضت هي نفسها •

ـ اردت ان أسأل عن أخ •

قلت ذلك في ارتباك ، ودون اطمئنان ، مبتدئا بما لا ينبغي البدء به ، ومكتشفا في الحال مكان ضعفي ، دون أن أنجح فى تهيئة الجو ليكون منه الاقبال المرجو وليكون للكلمات التأثير • أن ذلك الوجه الجامد قد فرض على أن اقول اى شىء ، كل شىء دفعة واحدة ، لكى يتذكرنى ، لكى يلحظنى •

ـ عن أخ ؟ اى أخ ؟

في هذا السؤال الأصم ، وهذا الصوت الميت ، وهذه الدهشـــة ما بدا له أنني أتوقع وجوب معرفته شيئا ليست له (في نظرة) أهمية. احسست كيف صغرنا أنا وأخي الى درجة الذرة من الغبار ٠

ليغفر لي جميع الشرفاء الذين هم أشجع مني ، جميع الصالحين الذين لم يقعوا تحت الاختبار لكي ينسوا فخرهم ٠ ولكن يجب ان أقول ، انني لو أخفيت الحقيقة عن نفسي لما ساعدني ذلك في شيء : لم تجرحني خشونته التي اظهرها عمدا ، ولا المسافة الشاسعة التي وضعها بيني وبين نفسه؛ وانما أفزعني ذلك السؤال اذ أنه لم يكن متوقعا ٠ وقد أحسست أنني غير مطمئن وأنني في خطر ؛ فالأخ لم يكن موجودا ليكون رابطـــة ممكنة بيننا ٠ كان يجب احياؤه ، والمجيء به أمامه لأول مرة ، وتحديد جريمته للمرة الأولى ٠ ولكن ماذا يمكنني ان أقول لكي لا أجلب ضررا لأخي ولكي لا الحق أذى بالمسلم ؟

قلت انني حزين لما حدث ، لقد أصابتني المصيبة كما يصيبني موت أقرب الناس الي ، اذ القدر لم يحفظني من شر رؤية أخي الشقيق في المكان الذي يذهب اليه المذنبون والاعداء ، ومن نظر الناس الي بدهشـــة كما لو كنت قد حملت جزءا من الذنب ، أنا الذي أخدم الله والدين ســنوات طويلة بشرف وامانة ٠ وبينما كنت اتحدث عرفت أن ذلك كان قبيحا ، كنت ارتكب خيانة ، ولكن الكلمات كانت تجري بسهولة وصـــدق ، فالشكوى من حظي كانت تنطلق من ذاتها ٠ الى الدرجة التي أصبح لومي لنفسي قويا مجلجلا ، حتى تملكني اشمئزاز من أجل ما حبب الي من البكاء على نفسي ، من أجل الجبن الذي لم أكن أعرف سببه الحقيقي ، من أجل الأنانية التي كانت تخمد كل تفكير آخر ٠ ها هو شيء يهتف من داخلي : لا ! هذا قبيح ، أجئت لتدافع عن نفسك ، من اي شيء ، أخوك في خطر، ستخجل فيما بعد ، ستعقد الأمور بالنسبة لأخيك ، اسكت واخرج ، قل واذهب ، قل وابق ، وجه بصرك الى بصره ، ان ما يخونك منه هو وجهه الجامد ، سكن مشاعر الخوف فليس هناك من شيء تخافه ، لا تهن نفسك بالشكوى أمامه وأمام ضميرك ، قل ما يجب أن تقوله ٠

وقلت ايضا ٠ ان أخي كما سمعت قد فعل شيئا ربما كان من الواجب عدم فعله ٠ انني لا أدري صحة ذلك ، غير اني اعتقد أنه لم يفعل شيئا خطيرا ، ولذا أرجو من المسلم ان يحقق الأمر كي لا ينسب الى السجين ما لم يفعله ٠

كان قليلا ذلك الذى قلته ، ولم يكن على قدر كاف من الشجاعة والشرف ، ولكنه كان كل ما كنت أستطيع قوله ؛ فقد نال منى التعب مبلغا عظيما ٠

ان وجهه لم ينطق بشىء ، لم يظهر غضبا ولم يعلن تفهما ٠ وكان من الممكن أن تخرج من فمه كلمة الادانة أو كلمة الرأفة ٠ اخذت أسترجع ذكراى فيما بعد فعرفت أننى كنت أفكر اذ ذاك فى مدى خطورة الوضع الذى يكون فيه كل من يقوم بالرجاء : انه صغير دون شك ، ضئيل ، مكانه تحت القدم ، مذنب ، حقير ، مهدد بما تكون عليه رغبة الآخرين ، خاضع لسلطتهم ، تواق الى ارادة خيرة تأتى مصادفة ، لا شىء من ناحيته يحدث تأثيرا حتى تعبير الخوف أو الكره الذى يطفى عليه والذى بامكانه أن يودى به ٠ وتحت تأثير هاتين العينين اللتين زال بريقهما ، واللتين تبصرانني بصعوبة ، قطعت الأمل فى انتظار كلمة طيبة تخرج منه أو رأفة تصدر عنه ٠ وما كنت أرغب فى شىء سوى الذهاب ، ولينته كل شىء كما يريد الله ٠

ولخيرا تكلم المسلم ، وقد أصبح الأمر عندى سواء ، وكان كلامه أشبه شىء بصمته ، فلقد تعود سنوات على هذا الموقف الصلد الذى يحمل الاحتقار الشديد ، ولكن ذلك أيضا كان عندى على حد سواء ٠ وكل ما هنالك اننى كنت أحس اشمئزازا قليلا من موقفه هذا ٠

ـ تقول أخوك ؟ مسجون ؟

نظرت خلال النافذة ، وكانت النيران قد أخمدت ، غير أن الدخان كان ما يزال يحلق فوق السوق ببطء السير حالك اللون ٠ يا للأسف لعدم اتيانها على كل شىء ٠

ـ أتعرف لماذا سجن ؟

ـ جئت لأسأل ٠

ـ هأنت لا تعرف لماذا سجن ، وقد أتيت ترجو ، بغض النظر عما فعل ٠

ـ لم أحضر من أجل الرجاء ٠

ـ أتريد أن تثبت عليه تهمة ؟

ـ لا ٠

ـ اتستطيع أن تقدم شاهدا له او عليه ؟ وأن ترشد عن متهمين آخرين أو مشتركين (معه) ؟

ـ لا أستطيع ٠

ـ ماذا تريد اذن ٠

كان يتحدث في تراخ ، وعلى فترات ، ملفتا رأسه الى ناحية كما لو كان قد أسيء اليه ، كما لو كان يشمئز مما يجب عليه من القيام بتوضيح هذه الأمور الشديدة الوضوح ، ومما يضيعه من الوقت مع رجل عديم الفهم ٠

لقد استولى على الخجل ، من أجل الخوف ، من أجل الأنانية المتشحة بالجبن ، من أجل احتقاره ، من أجل ماله من الحق فى استخدام الخشونة ، من أجل ملله الذى لم يكن يخفيه ، من أجل هذا الذى كان يزدرينى ، من أجل هذا الذى كان يتحدث معى كما لو كنت حمارا ٠٠ تلميذا ٠٠ عدوا ٠ تعودت أن أكون مطيعا ، وألا اعارض ، وأن أحنى الراس استجابة ، حتى لقد كان يبدو فى تصورى أن ما كان منى من سؤالى عن اخى أشبه بذنب قد ارتكبته ، ولكن جسارة هذا الرجل الفظ قد قضت فى داخلى على هذا التعود الطويل ، وربما كانت وقاحته التى تبلغ وقاحة السوقة هى السبب الأقوى للقضاء على هذا التعود ٠ كنت احس أن لونى قد ازرق من أثر الكره ، وان كنت أعلم أن ذلك لا يفيدنى ، فالأمر لديه سواء ٠ وأما لدى فلا ، انه يريد ذلك ، انه يحاول ، ويكاد يبدو أنه لا يحاول ، فهو يرسل أشعة الشعور بالاشمئزاز نحو الناس ٠ ولا أدرى لم يكون مصمما على خلق الأعداء ٠ ان ذلك لا يهمنى ، ولكن كيف يجرؤ على أن يتصرف معى هكذا ؟ لازالت الفكرة عن أهمية الطريقة التى اتبعها والصفة التى أنا عليها تخدعنى ٠

ان الناس يعيشون هادئين ويموتون فجأة ٠ هكذا قال حسن تاجر الماشية العجيب الذى لن يتورط ولن يصاب بشىء من أجل عدم تبصره وعدم اعماله الفكر فيما يحيط به من امور ٠ وأما أنا فقد كنت أعتقد اننى فى أمن مما يعترى النفس من تقلبات ٠

لقد قلت متعجبا من نفسى ومدركا أنه لن يكون من الخير هذا الذى أقوله :

ـ ماذا أريد ؟ ! ما كان ينبغى أن تقول هذا ٠ أيعد خطيئة أن

يسأل الرجل عن أخيه مهما كان قد فعل ! ان هذا هو واجبي بمقتضى القوانين الآلهية والقوانين الوضعية • فكل شخص يستطيع أن يبصق في وجهي اذا أغفلت حتى هذا • كما يستطيع أن يبصق في وجوهنا جميعا اذا كان قد صدر حظر لاعطاء هذا الحق • أأصبحنا حيوانات أم أقل درجة منها ؟

ورد المسلم بطريقته الهادئة غير ان أجفانه بدأت تضيق فوق عينيه المتثاقلتين •

ـ ان كلماتك ثقيلة • في أي جانب يكون الحق ؟ أنت تدافع عن أخيك وانا أدافع عن القانون • والقانون شديد وأنا خادم له •

ـ اذا كان القانون شديدا فهل يجب أن نكون ذئابا ؟

ـ هل الدفاع عن القانون يعد فعل الذئاب ، أو مهاجمته كما تفعل أنت ؟

أردت أن أقول ان الرجل ينتمي الى فصيلة الذئاب بمحاولته أن يكون فظا بأية وسيلة • حقا يصاب الانسان من حيث لا يدري • كان من الخير ألا أرد على اثارته بشيء ، فهو يحس بحاجة الى أن يوقع الناس في الخبل ويشعر برضى من أجل ذلك •

لم يمض قليل حتى كنت مكتئب النفس ، لقد زايلني الغضب سريعا وحل محله الندم من أجل سرعة تصرفي ، تلك التي لم تكن من طبيعتي • لقد رددت بحدة ، فقد كنت شديد التوتر ، عاجزا عن السيطرة على مشاعري المتهورة • وكل ما يفصل في هذه الحال يؤدي عادة الى الخسارة : انه مظهر للشجاعة الحمقاء ، عناد يدفع الى التهلكة دون هدف ، لا تدوم مدته ولكنه يخلف وراءه عدم الرضا ويحمل فيما بعد على التفكير الذي لا تتحقق منه فائدة أو يرجى من ورائه نفع •

لقد حدث ذلك الذي كنت شديد الخوف من أجل حدوثه ، قيل لي انني أدافع عن أخي معارضا القانون • اذا كان الأمر كذلك حقا ، واذا كان يخيل لأحد ذلك ، ـ اذ أنني أعرف أن الأمر ليس هكذا ـ واذا كان الناس يظنون أنني أوثر مصلحتي الشخصية على كل شيء خارج نطاقي فسوف تكون النتيجة عندئذ على أسوأ ما يمكن أن تكون ، وسوف تكون مخاوفي المتشائمة قد تحققت • وأشد ما في الأمر أنني حقيقة ما كنت أدافع عن أخي ، غير أنني في لحظة جنونية قد ثرت ضد صرامة شديدة ،

ولم اكن الى اى من الجانبين ، جانب اخى او جانب المسلم ، لم اكن الى اى جانب على الاطلاق ٠

احسست بسرور لاقتراب وقت الظهر ، لعدم بقائي وحيدا ، سوف انفصل عن نهار هذا اليوم بالصلاة ، سوف اترك فكرة محيرة أمام باب المسجد ، ومن المؤكد انها ستكون بانتظاري ، ولكننى على الأقل سوف اقضى بعض الوقت بدونها ٠

عندما وقفت أمام عدد من المؤمنين وبدات الصلاة ، احسست اشد مما كنت احس من قبل ٠ بهدوء مكان معروف ينشر حمايته ، ورائحة كثيفة دافئة لشمع مذاب ، وبسكون يشفى النفوس لجدران بيضاء ، وبسقف اكتسب بمرور الأيام لون السواد ، وبحنان الأم متمثلا فى ضوء الشمس الذى كان يتكسر على ذرات الغبار الذهبية ٠ ان هذا المكان هو مملكتى ، أكلمة قديمة ، قناديل نحاسية ، محراب أصلى فيه أمام الناس الذين انحنوا ممسكين بركبهم ٠ انه سكونى وامنى ، قضيت فيه سنوات طوال وأنا سيد نفسى ، أعرف خط البساط المزخرف الذى تقف عليه قدماى والذى تآكلت وبرته وخف لونه ، لقد تركت أثرى على هذا الذى يبقى فى الحياة اكثر منا ٠ اننى من يوم الى آخر أؤدى الوظيفة المقدسة فى هذا البيت الذى أصبح بيتى ، أصبح بيتنا وبيت الله ، مخفيا حتى عن نفسى أنه كان فى اغلب أوقاته بيتى ٠ ولكنى فى هذا اليوم ، وفى وقت الظهر ، حيث كنت متحررا من القلق ، وعائدا من عالم غريب لم آلفه من قبل الى هذا السكون العميق ، لم أقم بأداء وظيفتى ٠ كنت على يقين من أننى لا أخدم أحدا ، بل كل شىء كان يقوم بخدمتى ، كان يخفينى ويردنى ، كان يبدد حلما سيئا عن شىء غامض فى نفسى ٠ كانت تغمرنى متعة الصلاة التى أعرفها ، وكنت أشعر باتزانى الذى كان قد اختل من قبل يعود الى ، وذلك من أجل هذا الذى أملكه منذ سنوات طويلة ، من اجل تلك الروائح الطيبة ، من اجل تمتمة الناس الغامضة ، من اجل الارتطام الصامت للركب فى حالة السجود ، من اجل الأدعية التى تتلى دائما على نمط واحد ، من أجل الدائرة التى اغلقت كدفاع أو كحصن والتى تقف الى صفى وتقوينى ٠ رأيت دون أن اقطع صلاتى هذه التى كنت أؤديها بشكل مظهرى ـ أشعة الشمس التى كانت تخترق زجاج النافذة مشدودة من النافذة الى يدى ، كأنها كانت تلهو كى تستميلنى اليها ، وسمعت ما تصدره العصافير من شقشقة مرحة أثناء لهوها وتنازعها ، وما تحدثه من غوغاء لا انقطاع لها تحمل سرورا يحاكى النضار

لونا ، حتى ليخيل الى انني أرى التلال وقد كستها أشعة الشمس ٠ واحسست بشيء حار صاف يحلق حولي ، فاصلا اياي عن واقعي ، وموقظا في ذكرى ذلك الذي حدث مرة ، لا أدري متى ، ولا أدري أين ، ولكنه كان، وما كنت في حاجة الى احيائه ، فهو حي ، قوي ، ومحبب الي كما كان آنذاك ، بل محبب الي بصورة لم تكن قط ، دون أن تكون له معالم تحدده ، ولذا يرى محيطا بكل شيء ٠ لقد كان ، أعرف ذلك ، وربما في أيام طفولتي ، التي لم يعد لها وجود في ذكراتي ، وانما تنبعث في حالات الحزن ، وربما من أجل الرغبة في وجوده ، ويوجد ٠ انه شفاف ، خفيف ، كاهتزاز ، كمجرى هادىء ، كدم ينساب بطيئا ، كان سروري كسرور الشمس لا من أجل شيء ٠ وكنت أعرف أن هذا يعد ذنبا ، هذا النسيان في الصلاة ، هذه المتعة الجسمية والفكرية ، ولكنني لم استطع ان انتزع نفسي ٠ لم أكن ارغب في أن أوقف هذا النسيان العجيب ٠

وها هو قد توقف من تلقاء نفسه ٠

خيــل الى ان هاربي في ليلة الأمس يقف خلف ظهري بين جموع المصلين ٠ ولم أجرؤ أن أستدير ، ولكن كنت متأكدا أنه موجود بالمسجد، وقد دخله بعدي ، أو كان قد دخله ولم أره ٠ ان صوته يسمع على خلاف أصوات الآخرين ، فهو أعمق وأكثر رجولة ، وصلاته ليست رجاء وانما مطلبا ، وعيناه حادتان ، وحركاته مرنة ، اسمه اسحاق ، أناديه هكذا ، لأنه هنا ولأنني لا أعرف اسمه الحقيقي ، وينبغي أن أعرفه ٠ جاء من أجلي ليقدم الشكر الي ، أو جاء من أجله هو لكي يختفي ٠ ســوف نبقى منفردين بعد الصلاة ، وسأنتهز الفرصة لأسأله عما فاتني أن أسأله عنه ليلة الأمس ٠ اسحاق ، وهأنا اكرر مرة اخرى اسحاق ، ان هذا الاسم يحمله خالي الذي كنت أحبه كثيرا في طفولتي ، اسحاق ، لا أدري كيف أوجد صلة بينهما ٠ وكيف ولم أنادي طفولتي بهذا الاصرار ، ان هذا هو الهروب دونما شك ٠ الهروب من الواقع ، النجاة بالذكرى اللاواعية ، وبالرغبة الحمقاء في الا يكون هناك وجود ، بهذه الرغبة التي لا تتحقق على الاطلاق ، والتي لو كانت فكرة حقيقية لأوقعتني في مأزق ، ولكنها كانت هكذا توشك أن تتحقق في لحظات ، في فترات الانحرافات ، في حالات التشوش والغيبوبة ، حيث كان الجسم والقوى الداخلية المجهولة ينشدان هدوء هما المفقود ٠ لم أكن أعي في تلك اللحظة أن عمر النسيان قصير ، ولكن عندما ظهرت الفكرة عن اسحاق عرفت أن صفوي بدأ يتعكر ثانية ، لأن اسحاق كان أيضا من ذلك العالم الذي لم أرد أن أفكر فيه ،

وربما من اجل ذلك رغبت ان اضعه فى مجال أحلام بعيدة ، فاصلا اياه عن ساعة وعن زمن لم نكن نستطيع أن نعيش فيهما معا • لقد رغبت أن استدير ، فقد كانت صلاتى من أجله فارغة ، تقوم على الشكل دون المضمون ، وكانت أطول من أى صلاة صليتها •

عن أى شىء ساتحدث معه ؟ انه لن يقول شيئا عن نفسه ، ولقد تأكدت من هذا فى ليلة الأمس • سيكون الحديث اذن عن نفسى • سوف نجلس هنا ، فى هذا المسجد حيث المكان يكون خاليا ، سنكون فى العالم وفى الوقت نفسه خارجين عنه ، وجالسين على انفراد • سوف يبتسم ابتسامته الآمنة ذات المغزى ، تلك التى لا تعد ابتسامة ، بل رزانة طابعها الفطنة ، نظرة تحيط بكل شىء ولا يدهشها شىء • سوف يستمع الى باهتمام ، ناظرا الى خطوط الكليم الملونة امامه ، أو الى اشعة الشمس التى تنفذ بعزم واصرار فى أطياف من الضوء متلألئة • وسوف يقول لى الحقيقة التى ستخفف كثيرا من همومى •

كنت بتخيلى هذا الحديث اعمل على احياء صورته دون أن ادهش كيف وعت ذاكرتى كثيرا منها ، وانتظرت ان نبقى معا على انفراد كما كنا ليلة الأمس لنستانف حديثنا الخاص دون ان يخفى أحدنا نفسه عن الآخر • ان هذا الرجل المتمرد والقلق الذى كان يفكر على العكس من كل ما كنت أستطيع تصوره قد ابدى لى بكبريائه الشديدة التناقض أنه الرجل الذى أستطيع ان اعتمد عليه • كان كل ما يفعله يعد ضربا من الجنون ، وكل ما يقوله لا يمكن قبوله بحال ، غير اننى كنت استطيع أن أودع سرى عنده ، لأنه تميس ولكنه شريف ، لا يعرف ماذا يريد ولكن يعرف ماذا يفعل • انه مستعد ان يقتل ولكنه ليس مستعدا أن يغرر أو يخدع • وحينما كنت أسجل فى قلبى صفات حسنة لمتمرد مجهول على التمام لم أكن قد لاحظت لم كانت تلك الرحلة التى قطعتها منذ ليلة الأمس • ففى الصباح أردت أن أسلمه الى الحراس ، وأما فى الظهر فقد كنت فى صفه • على أننى لم أكن ضده فى الصباح ، وربما كنت على استعداد لأن أخبر عنه الآن ، وهذان الأمران لا علاقة بينهما ، أو بينهما علاقة ، ولكن بشكل متناقض ، وبصورة مختلطة متشابكة • وفى الحق أننى كنت متأكدا تمام التأكد من أنه اسحاق ، المتمرد ، ومن انه يستطيع أن يوضح بعض الأمور التى تجمعت واصبحت تشكل عقدة فى داخلى • انه وحده الذى يستطيع • لا أدرى لماذا ، ربما لأنه تعذب ، او لأنه اكتسب تجربة خلال العذاب ، او لأن ثورته حررته من التفكير الذى

تعوده الناس والذى يقيدهم ، أو لأنه لا يؤمن بالخرافات ، أو لأنه حور نفسه من المخاوف ، او لأنه بدأ يسير فى طريق لا مخرج منه ، او لأنه محكوم عليه ويؤجل موته بشجاعة • ان أمثال هذا الرجل يعرفون كثيرا ، أكثر منا نحن الذين تهزنا القواعد المحفوظة الى حد الخوف من الذنب ، ويؤثر فينا ارتباطنا بهـا وتعودنا عليها الى حد الذعر ازاء خطيئة يمكن حدوثها فى أى وقت • وبالرغم من أنه لا يمكننى السير مطلقا فى طريق التمرد ولو بأفكارى فقد حبب الى أن أستمع الى ما يقصه عن حقيقة امره • اية حقيقة تكون ؟

لا ادرى •

سوف اتحدث اليه هكذا :

انني درويش منذ عشرين سنة ، وكنت أذهب فى صغرى الى المدرسة ، ولذا لا أعلم شيئا سوى ذلك الذى ارادوا أن يعلمونى اياه • كانوا يعلموننى أن اطيع ، أن أتحمل الصعوبات ، أن أعيش من أجل الدين • كان هناك كثيرون أحسن منى • أما بالنسبة للتمسك بالدين فلم يكن يفضلنى كثير • فدائما كنت أعرف ماذا يجب ان افعل ، كانت طريقة الدراويش تملى على طريقة سيرى وتصرفى ، وكنت اعلم ان أصول الدين شديدة وواسعة ، ولم يكن فى أمورى أو تصرفاتى شىء يمكن أن يتنافى معها • كانت لى اسرة ، تعيش حياتها الخاصة ، ولا تربطنى بها سوى قرابة الدم وذكريات بعيدة ، وطفولة ظللت اعمل على دفنها طيلة حياتى ، موهما نفسى أنها قد زالت وانتهت • انها أسرتى ، اذ يجب أن تكون هكذا ، وكنت أحبها ذلك الحب الذى لا اتصال فيه ولا نفع ، والذى كان من أجل ذلك فاترا • كان أفرادها موجودين ، وكانوا أهلى ، وكان ذلك كافيا لى ، وربما كان كافيا لهم أيضا • وهذه اللقاءات الثلاثة التى تمت خلال السنوات العشرين لم تفسد ولم تصلح شيئا • لم يضايقونى وكذا لم يساعدونى فى خدمتى للدين ، وان كنت أشعر فى داخلى ان احساسى بالفخر لأننى وجدت أسرة أوسع يغلب احساسى بالحزن لبعدى عن أسرتى الخاصة • وها قد حدث أن ألمت بأخى مصيبة • أطلق هذه الكلمة لأنى لا أعرف كيف تكون التسمية الحقة ، ولا أستطيع ان اطلق على ما حدث أنه عدل أو ظلم ، وهنا يبدأ العذاب • اننى لا أحب الظلم ، وفى ظنى أنه علامة على الضعف وسوء التدبير ، كما يعد احدى الطرق التى تدفع الناس الى ارتكاب الشر • وذلك رغم التزامى الصمت عندما كان هذا ينصب على الآخرين ، كنت أرفض اصدار حكم فى هذا ملقيا

المسئولية على الآخرين ، أو متعودا ألا افكر في ذلك الذى ليس على تبعته ، ومعترفا بانه يجب ان يفعل الشر احيانا من أجل خير أنفع واهم ٠ ولكن عندما أصاب اخي سوط السلطات احسست به يصيبني ويسيل دمي ٠ انني أفكر دون وضوح ان مقياسهم كان عنيفا ، فهذا الشـــاب آعرفه ، واعرف أنه ليس لديه استعداد لفعل الشر ٠ ولكن هأنذا لا أدافع عنه بصلابة كافية ، ولا أؤيد السلطات ، والذى يبدو لى ان الجميع قد القوا بهذا العبء الفادح على كاهلي بانصبة متساوية ، ودفعوني للتحرك ، وواجهوني بالحياة خارج مدارى ، لقد اجبروني على أن احدد موقفي ٠ ماذا أكون الآن ؟ أخ فقد قوته أم درويش متردد ؟ افقدت العاطفة الانسانية أم أضررت بصلابة الدين ، اذ أراني هكذا فاقدا كل شيء ؟ كم وددت أن ابكي لأجل اخي ، أيا كان هو ، أو ان أكون مدافعا بصلابة عن القانون ، ولو كان هذا يمس أخي ، ولو كان هذا يؤدى الى الحزن ٠ ولكن ليس باستطاعتي أن اقوم بأى من الأمرين ٠ ما هذا ، يا اسحاق ، يا معذب الثائر ، يا من وقفت في جانب واحد ولا تعرف طريق التردد ، اأراني فقدت الصورة الانسانية أم فقدت الدين ؟ أم هما معا ؟ ماذا بقى عندئذ منى ، قشرة ، قبر ، شاهد بدون علامة تميزه ؟ ان الخوف قد استقر في داخلي يا اسحاق ، الخوف والحيرة ٠ ان خطوة واحـدة الى احـد الجانبين لا يمكنني أن أخطوها بعد ، ولو فعلت لضللت ولكان مصيرى الهلاك ٠

لم استدر لكي اراه ، اذ كنت أعتقد أنه لم يعد هنا بعد ، كما لم أكن اعرف ماذا استطيع ان اقول له من هذا العذاب كله الذى لا يزال يفتقد اسما يطلق عليه ٠ وكانت فكرة خطرة ان أقول له بالذات ذلك الذى لا أستطيع قوله لأحد ٠ لم يخطر ببالي أحد من الدراويش ، أو أحد من الناس الذين التقى بهم ، وانما خطر ببالي رجل متمرد هارب ، انسان خارج على القانون ٠ أكان في ظني أنه لن يفاجيء بكلماتي حين يسمعها ؟ أكان في اعتقادى أنه هو الوحيد الذى لن ينظر الى نظرة العتاب ؟ أعني يارب كي أخرج من هذه الاختبارات على الحال التي كنت عليها من قبل ٠ على أنني أرى المخرج الحق الوحيد في هذا أن لم يكن شيئا من ذلك قد حدث ٠

الصلاة والسلام على ابراهيم ،

الصلاة والسلام على موسى وهارون ،

الصلاة والسلام على الياس

الصلاة والسلام على اسحاق

الصلاة والسلام على أحمد نور الدين التعيس ·

أخذ الناس يخرجون وقد انتابهم السعال وسرى بينهم الهمس ، أخذوا يتركونني وبقيت جالسا جلسة التشهد أمام العذاب ، وحيدا كما شاء حظي ، وحيدا ويا للأسف ، خائفا أن أترك هذا المكان الذي استطعت أن أعذب نفسي فيه بالتردد ·

وكانت تصل الى الأذن من الخارج أصوات لأقدام تتقاطر من كل ناحية ، وكان البعض يصيح والبعض يهدد ، وما كنت أريد ان اسمع كلمة ، وما كنت أريد أن أعرف من يصيح ومن يهدد ، فكل ما يحدث في العالم قبيح · اقبل يارب دعاء ضعفي ، انتزع مني ما أملك من القوة والرغبة من أجل الخروج من هذا السكون ، اعدني الى الهدوء ، الأول أو الأخير ، كنت أظن أن شيئا ما يوجد بينهما ، وفي سالف الأزمان كان هناك نهر يكتنفه الضباب عندما يقبل الليل ، وتنعكس أشعة على صفحته ، وهو الآن يوجد في داخلي ، ظننت أنني نسيت وجوده ، ولكن يبدو لي أنه لا شيء ينسى ، فكل شيء يعود الينا من صناديق مغلقة ، من ظلام النسيان الوهمي · وكل ما قد ظنناه لطول العهد لا يخص أحدا أصبح الآن يخصنا ، اننا لا نحتاج اليه ولكنه يقف أمامنا ، يبرق بوجوده السابق ، يذكرنا ويوخزنا ، ويثار من أجل الخيانة · لقد تأخرت أيتها الذكريات ، ثم ظهرت دون جدوى ، فتهديدك لي فقدت قدرتها وتنبيهك اياي لذلك الذي كان يظن في الامكان حدوثه أصبح عديم الفائدة ، لأن ذلك الذي لم يحدث ما كان باستطاعته أن يكون ، مع أنه يبدو دائما جميلا ذلك الذي لم يتحقق · أيتها الذكريات انك مخاتلة تولدين عدم الرضا ، مخاتلة لا أملك القدرة على تنحيتها وليست لي رغبة في ابعادها ، اذ أنها تجردني من السلاح ، وتدافع عني بحزن هادىء ازاء العذاب ·

كان الوالد ينتظرني ، وقد أفقده الألم صوابه من أجل ابنه ، من أجل ذلك الوحيد الذي بقي له بعد ، لقد أسقطت أنا من حسابه ، وما هو الآخر ليس معه · انه وحيد الآن ، وهو ينتظرني بمفرده في الخان · لقد كنا فيما مضى نعتقد أننا شيء واحد ، والآن لا نفكر في شيء من ذلك · سوف تبتدئني بالسؤال عيناه ، وسأجيب بابتسامة ، فسوف تكون لدي القوة الى هذه الدرجة رأفة به ، قيل لي سوف يفرج عن أخي في

القريب ، ساودعه بالأمل ، لماذا يذهب مطحونا ، انه لن يستفيد اية فائدة من ذكر الحقيقة · ساودعه وساعود بعد وداعه حزينا ·

كنت أستنشق ذلك الهواء العليل الذى يسرى فى الليالى الأولى المتلالئة لشهر مايو · اننى أحب الربيع ، ظننت ذلك ، ظننت أننى أحب الربيع ، ذلك الذى لا يبعث على الضيق ولا يوحى بالثقل · بل يوقظنا بما يطلقه من صحو ورعونة لنبدأ من جديد · انه خداع وامل يطالعنا فى كل عام ، براعم جديدة تنبت من أشجار قديمة · اننى أحب الربيع ، أصيح معلنا ذلك لنفسى فى اصرار ، وأجبرها على اعتقاد ذلك · لقد كنت أخفيه عن نفسى فيما مضى من السنين ، والآن أناديه ، أقدم اليه نفسى ليستولى عليها ، والمس زهرة من شجرة التفاح التى تقوم على جانب الطريق ، وغصنا من اغصانها الملساء الجديدة ، تتدفق العصارة فى قنواته العديدة ، وأحس بتدفقها فيها · ألا فلتنتقل هذه العصارة الى جسمى عن طريق أناملى ، ولتنبت براعم هذه الشجرة على أصابعى ، والأوراق الخضراء الشفافة على راحتى ، كى أكون رائحة طيبة لاحدى أشجار الفاكهة ، واكون طمانينتها الهادئة ، سوف أرفع يدى المزهرتين امام الأعين المعجبة ، سوف امدها الى المطر ليسقيها بقطراته ، مواريا نفسى فى التراب ومتناولا غذائى من السماء ، ومتجددا بفصول الربيع ، وساكنا بفصول الخريف ، كم من الخير ان يبدأ كل شىء من البداية ·

ولكن البداية لا وجود لها بعد ، وهى ليست مهمة ، ولا ندرى وقت وجودها ، فنحن نحدده فيما بعد ، عندما نكون فى دوامة الأحداث ، عندما يستمر تتابع الأمور ، اذ حينذاك نظن أنه كان من الممكن أن تحدث الأمور مخالفة بعض الشىء لما حدث ، ولكن لا ، ليس بممكن هذا ، ولذا نحن نقحم أنفسنا فى الربيع لكى لا نفكر فى بداية لا وجود لها ولا فى ذلك التتابع المستمر القبيح ·

اننى أجوس خلال الأزقة دون هدف ، واقضى هذا الوقت الذى يتعذر قضاؤه ، فها هو حسن ينتظرنى فى التكية · كان والدى ينتظرنى فى هذا النهار فى الخان ، وحسن ينتظرنى فى هذا المساء فى التكية ، الجميع يقفون فى الطرق وعند تقاطعها ، لا يسمحون لى بالخروج مما يحيط بى من الهموم · لقد قال لى والدى فى لحظة ذهابه :

ـ أخبرنى فور الافراج عنه ، فلن تهدأ نفسى حتى أسمع النبأ · وكم يكون من الأفضل أن يأتى الى البيت تو خروجه ·

كان من الأفضل لو لم يكن خرج من البيت ·

كما كان يذكرني لكيلا أنسى بقوله :

- اذهب غدا الى المسلم واشكره · اشكره باسمي كذلك ·

شعرت بارتياح لذهابه ، فقد كان من الصعب النظر الى وجهه الذي كان بحاجة الى العزاء ، وقد كان باستطاعتي أن أقدمه اليه عن طريق الكذب فحسب · لقد حمل معه الكذب والعزاء ، وبقي لي الذكرى القبيحة· توقفنا عند نهاية الحقول ، وقبلت يده ، وقبل هو جبهتي ، وأحسست مرة أخرى بأبوته ، كنت اشيعه بنظري ، وكان يسير مقوس الظهر ، ممسكا بزمام حصانه كما لو كان يستند اليه ، مرددا بصره الى دون انقطاع · لقد أحسست بالراحة عندما افترقنا ، ولكنني كنت حزينا ووحيدا ، وكان ذلك هو الافتراق الأخير ، ولم يعد هناك مجال بعد للتضليل والخداع · لقد دفن أحدنا الآخر في تلك اللحظة التي تعرف فيها أحدنا على الآخر ، ولم تستطع الحرارة الشديدة المتزايدة التي كانت بيننا في لقائنا الأخير أن تساعدنا في شيء ·

كنت اقف وسط الحقول الواسعة عندما ركب والدي حصانه واختفى وراء الصخور كما لو كانت قد ابتلعته ·

أخذ الظل الممتد لهذا الجبل ، أو روحه الغامضة ، يزحف بعد الظهيرة على الحقول فيغطيها ، وقد مر بي واحاطني من جميع الجهات ، واما الجانب الذي تغمره أشعة الشمس فقد كان يهرب أمامه متقهقرا نحو جبل آخر · مازال الليل بعيدا ، وهذه علاماته المبكرة ، وثمة شيء متشائم في هذه البشائر القاتمة · لا أحد في الحقول التي يقسمها الظل ، فكلا الجانبين خال ، انني أقف وحدي في هذا المتسع المتعارك الذي بدأ يسوده شيء من الظلام ، صغيرا في تلك المساحة التي أخذت تغلق من حولي ، وقد استولى على ذلك الضيق الكدر الذي تحمله نفسي القديمة ، نفسي التابعة لغيري والتي أحملها الآن · انني وحيد في الحقول ، وحيد في العالم ، ضعيف أمام أسرار الأرض ورحب السماء · وكانت تصل الى الأذن آنذاك أغنية لأحد من الناس من مكان ما ، من جهة الجبل ، من جهة البيوت التي قامت على البعد تجاهي ، كانت تنفذ خلال المسافة التي غطتها الشمس من الحقول ، حتى تصل الى ظلي ، كأنها كانت تأتي الى للمساعدة ، وحقا لقد حررتني من ذهولي ، ذلك الذي استولى على فترة قصيرة ولم يكن له من سبب أو داع ·

لم اتهرب مما كان يبديه حسن من ذلك الاهتمام غير المرغوب فيه ٠ كان يجلس مع الحافظ محمد ، في شرفة ممتدة على النهر ، مرتديا عباءة من الجوخ ، مشذبا لحيته الناعمة ، ومتطيبا بأجود أنواع العطور ، وبدا موفور النشاط ، يعلو وجهه الابتسام ، لقد أزال ما علق بجسده خلال اشهر ثلاثة قضاها في السفر ، من رائحة الماشية والعرق والخانات ومن الغبار والوحل ، ونسي الشتائم ، كما نسي معابر الجبال والمعابر الخطرة للأنهار ٠ والآن كان يشبه الأغا الشاب الذي دللته الحيـــاة دون أن تطلب منه جهدا أو شجاعة ٠

فاجأتهما في أثناء الحديث ٠ كان تاجر الماشية والمدرس السابق يحث الحافظ محمد ليعرض ما لديه من معرفة ، كي يعارضه مازحا معه ، دون أن يلقي اهتماما لهذا الذي يسمعه ولا لهذا الذي يرد به ٠ كنت دائما اعجب كيف يستطيع ان يجد أسبابا معقولة في المناقشات غير الجدية ، ملبسا اياها أشكالا غريبة حمقاء ٠

عندما تبادلنا التحية سألني :

ـ هل عرفت شيئا عن أخيك ؟

ـ لا ، لم اعرف ٠ وساذهب غدا مرة أخرى ٠ وأنت كيف حال سفرك ؟

هكذا كان افضل ٠ فلتبق همومي في داخلي ٠

لقد نطق بعدة جمل عادية عن سفره مازحا كما هي عادته ، ومعلنا ان كل شيء يتعلق بارادة الله وبماتقتضيه ميول الماشية ، وأنه يضع ارادته وميله تحت تصرفهما ٠ ثم اقترح اذ ذاك على الحافظ محمد مواصلة عرضه الذي كان غاية في الامتاع وباعثا على الشك ، والذي كان يتناول نشأة الكائنات الحيـة وتطورها ، وتلك مسألة ستظل لها أهميتها طالما وجدت الكائنات الحية على وجه البسـيطة ، كما تعد موضـوعا ملائما للجدل وبخاصة في الوقت الذي لايوجد فيه هذا النوع من النقاش ، والذي نموت فيه من الملل متفقين في شتى الأمور وجميع المسائل ٠

اخذ الحافظ محمد الذي مكث ثلاثة أشهر صامتا ، أو متحدثا عن الأمور العادية للغـاية يواصـل عرضه عن نشـأة العالم ، ذلك العرض الغريب والمشكوك في صحته ، وغير المدعم بما ورد في القرآن ، والذي كان بمثابة صورة عجيبة مطورة اخذت من كتاب يعلمه الله من أحد الكتب

الكثيرة التي كان قد قرأها ، ثم أبرزت بخياله ، وصارت تتلالأ بأكملها من سعير الحمى التي لم يكن يشركها شيء عندما كان العالم في رؤياه المريضة يمر بمراحل الخلق ثم يأخذ في التحلل • كانت نظرية تبدو خروجا على الدين ، ولكننا كنا قد تعودنا على ذلك منه ، ونكاد لا نعده في الدراويش الأصحاء • كان قد اكتسب لنفسه الحق الذي يعفيه من المسئولية ، ذلك الحق الذي يعد افضل وانذر شيء في طريقتنا • وما كان ذلك الذي يقوله يعد ضارا ، اذ كان على وجه التقريب غير مفهوم •

وكان يبدو لي أن ذلك شيء غير عادي على الاطلاق ، ولا يكاد يتصوره الانسان ، اذ كيف يتحدث عالم ساذج عن نشأة العالم الى رجل واسع الحيلة ، لا يحفل بعرف أو قانون ، يميل الى الفكاهة والهذر ، الى رجل طيب النفس غير أنه لا يتصف بالجد ، الى عالم سابق وراع للماشية ومرافق للقوافل الآن • لكأن الشيطان قد بذل جهدا ليجمع بين هذين الرجلين اللذين لا يشتركان في شيء ، ويثير بينهما الحديث الذي لا يتوقعه أحد •

ان هذا الشاب كان يفاجئني دائما بأمر من تلك الأمور غير المتوقعة ، والتي لم يكن من السهل تفسيرها ولا تبريرها • وبالرغم من كونه عاقلا ومثقفا فقد كان كل ما يفعله يعد غريبا ، خارجا عن كل ما قد يكون في الحسبان • لقد أنهى دراسته في استانبول ، وجال في الشرق ، وكان مدرسا في احدى المدارس ، وموظفا لدى الباب العالي ، كما كان ضابطا • ثم ترك كل شيء وعاش في دوبرفنيك لأمر ما ، ورجع مع أحد تجار دوبرفنيك وزوجته ، وقد دار الحديث بين الناس أنه كان معجبا بتلك اللاتينية ذات الوجه الأبيض والشعر الفاحم والعينين الرماديتين ، والتي تعيش الآن مع زوجها في « لاتين لوك » (١) • كما تقدم بشكوى الى المحكمة ضد أحد أقاربه البعيدين كان قد اغتصب ضيعة له ، ثم تنازل عن شكواه عندما رأى أن قريبه التعيس يعول عددا من الأولاد • وتزوج بابنة قريبه هذا الذي زفت اليه دون طلب منه ليكون بمثابة رد للجميل ، وعندما رأى بأي شيء أسعدوه هرب غير مبال بشيء وتركهم جميعا في بيته ، وبدأ يشتغل بالتجارة متنقلا بين الشرق والغرب على مرأى ومسمع لما نال أسرته من الفزع • كيف استطاع أن يجمع بين هذه المهن ، أيها كانت له منها ، من الصعب الاجابة • أراه يجيب ضاحكا ، لا واحدة ،

---

(١) حي كان يعيش فيه الكاثوليكيون من أهل سراييفو •

ولكن يجب للانسان أن يعيش من مهنة ما ، فالامر سواء في آخر مداه ٠ كان كثير الحديث على عكس ما تتطلب الوظيفة لدى الباب العالى ، وكان كثير الشغب بالنسبة لوظيفة المدرس ، كما كان كثير الثقافة بالنسبة لتاجر الماشية ٠ وكان يدور على ألسنة الناس أنه مطرود من استانبول ، كما كانت تدور الحكايات العديدة عن شرفه وتدور حكايات تماثلها فى العدد عن عدم شرفه ٠ وكانت هناك حكايات أخرى عن امكانياته الخارقة للعادة ، وتقابلها أخرى تشير الى ضعفه التام ، لقد وصفوه بعدم الرحمة عندما قدم شكواه من أجل ضيعته ، وبالجنون عندما تنازل عن الشكوى ، كما وصفه بعض الناس بالوقاحة لأنه يعيش مع امرأة من دوبروفنيك بجانب زوجها الغبى ، ورأى الآخرون انه هو الغبى لأن المرأة وزوجها يستغلانه ٠ كانت القصبة تحلله بمنخلها الدقيق ، وكان مادة ملائمة لمئات التطلعات الفضولية ، وخاصة فى البداية ، وظل ذلك حتى أصبح أمرا مألوفا ، واما هو فكان يصدر بيده حركة تدل على عدم المبالاة ، اذ كان الأمر عنده ســـواء ككل شىء فى حياته ٠ كان يصاحب الجميع ، ويحادث المدرسين ، ويتجر مع التجار ، ويسكر مع الصعاليك ، ويمزح مع الصبيان الذين يتدربون على المهن المختلفة ، وكان يضارع فى كل مهنة أو حرفة أصحابها الحقيقيين ، ولكنه لم يوفق فى شىء ٠

لم أرغبْ فى التحدث معه عن أخى ، فسوف يكون حزينا وغاضبا ، ولكن للحظة قصيرة ، كما كان حديثى مع أخته فى الليلة الماضية لا يزال يعذبنى ٠ وودت لو لم يكن قد جاء ٠

انه لحسن الحظ ليس لحوحا ، كما أن هـــذا الحـــديث الذى يدور بينهما كان يأسره ٠ وهكذا سيكون باستطاعتى أن أؤجل كل شىء ٠

ان الرطوبة والحرارة مصــــدران للحيـــاة ٠ هكذا كان يقول الحافظ محمد ٠ ومن الرطوبة العطنة نبتت الكائنات الحية بادىء ذى بدء دون أن ترتسم أشكالها ، أو تتحدد أعضاؤها ، وذلك بعد أن ظلت تتأهب للتكوين فى هذا العطن سنوات عديدة ٠٠ نبتت حبيبات وعصى تنبض الحياة فيها ولم تكن لها القوة بعد ، وكانت تتحرك فى ظلالها غير المنظور دون هدف او غرض ، سابحة فى الماء وطافية على البر ومتغلغلة فى الغرين ٠ ومرت على ذلك آلاف السنين ٠٠

وانطلق حسن يسأل :

ـ وأين الله ؟

كان هذا سؤالا يشوبه المزح ، ولكنه كان جديا • وقد تجاهله الحافظ محمد ، وواصل حديثه :

ــ •• ومرت آلاف السنين ، واخذت تلك الكائنات الضعيفة تتطور ، وكان بعضها يتعود ان يعيش على اليابس والبعض الآخر يتعود ان يعيش في الماء • كانت تولد صماء وعمياء ، دون أيد ودون أرجل ، دون أعضاء تبرز من جسمها ، وكان كل شيء يظهر بعد طول احتياج وعديد من المحاولات •

ــ وأين الله ؟

ــ لقد أراد الله هذا •

كان مضطرا ان يجيب بهذا ، وان لم تكن الاجابة مقنعة • لقد اراد الحافظ محمد أن يزيل احدى الصعوبات بنظرية عامة لا تنتهك أكثر مما أراد ان يرد على الاثارة والاستفزاز •

لقد عجبت لمسلك كل من الرجلين ، فالحافظ محمد كان حقا يتخلى عن اشراك الله في خلق العالم ، وحسن كان يحذره من ذلك بمزاحه فقط ، دون أن يرغب في تعقب الأمر الى النهاية ، ودون أن يستفيد بهذا التفوق الذى كان في استطاعته أن يحصل عليه بسهولة •

كنت اعرف أن هذه كانت نظريات فلاسفة اليونان جرى عليها شيء من التغيير ، ونقلها ابن سينا في مؤلفاته باللغة العربية • وبحسب هذه النظرية أصبح الانسان تدريجيا على تلك الصورة التى هو عليها الآن ، كان يساير الطبيعة رويدا رويدا ، مخضعا اياها لنفسه ، فهو الكائن الحى الوحيد الذى يملك العقل • ومن أجل ذلك لم تعد الطبيعة سرا له بعد ، ولا الفضاء الرحب حوله معادلة ذات مجهول ، فقد غزاه وتغلب عليه ، مجتازا في ذلك طريقا هائلا تحول فيه من دودة الى سيد الأرض •

ابتسم حسن وقال :

ــ انه سيد سيء •

بدأ الجدل حول هذا ، وكان الحديث باكمله ينصب على ان الناس نظموا هذا العالم نظاما سيئا كما كان يؤكد حسن دون غضب منه لكونه هكذا • ولم يكن الحافظ محمد يوافقه على هذا ، وذهب من اجل البرهان الى بدء انبثاق العالم •

كان من الممكن أن تكون هناك مئات المآخذ على جميع ما كان يجرى على لسان الحافظ محمد ، من بداية تفسيره نشأة الكائنات الحية التى حدثت بنفسها الى تأكيده النظرية التى تقول ان الانسان سيد الأرض ، اذ كل هذا يكاد لا يتعلق بإرادة الله ، ولكنني عندما تدخلت في المناقشة لم أوجه اليه لوما من أجل هذه الأخطاء ، فقد كان يخيل الى أنه من السخرية أن أثير جدلا حول الأمور المعروفة للجميع ٠ كما كان هناك شيء آخر أهم في اعتبارى من هذا : أليس من السذاجة أن يرى الانسان أنه قد احتل مكانا طيبا بوضعه على الأرض ، وأن موطنه الحقيقي فيها ؟

ان الفضاء سجننا ٠ قلت هذا وانا أتسمع صدى افكار مجهولة ، مولدا حرارة لم تكن متوقعة في الحديث الذى جرى منذ قليل والذى كان هامدا ولم نكن بحاجة اليه ٠ ان الفضاء يملكنا ٠ ونحن لا نملك منه الا القدر الذى تستطيع العين أن تحيط به ٠ انه يتعبنا ويخوفنا ، ويناديننا ويطاردنا ٠ اننا نظن أنه يرانا ، وهو لا يهتم بأمرنا ، نقول اننا نتغلب عليه ، ولكننا ننتفع فقط بعدم مبـــالاته ٠ ان الأرض لا تجنح الينا ، والرعود والأمواج ليست لأمثالنا ، فنحن لا قدرة لنا عليها ، بل واقعون في قبضتها وتحت سيطرتها ٠ ان الانسان لا يملك موطنه الحقيقي ، وانما يغتصبه من القوى العمياء ٠ وهذه الأرض عش لغيرنا ، من الممكن أن تكون موطن الغيلان التى تستطيع أن تتسابق مع الشدائد التى تقدمها الأرض في سخاء ، ومن الممكن الا تكون لأحد ، وبالتالى لا تكون لنا ٠

اننا لا نتغلب على الأرض ، وانما نتغلب على مكان منها لأقدامنا ، ولا نتغلب على الجبل ، وانما على صورته في أعيننا ، ولا نتغلب على البحر ، وانما نتغلب على صلابته المرنة ولمعان سطحه لا شيء لنا سوى الخداع ، ولذا نحن نتشبث به في قوة ٠

اننا لسنا شيئا داخل شيء ، وانما لا شيء داخل شيء ، لا تماثل بيننا وبين ما يحيط بنا ، لسنا شيئا واحدا في ذاته ، بل شيئين يتعذر بينهما الاتصال ٠ يجب أن يتجه تطور الانسان الى فقدانه الوعى عن نفسه ٠ ان الأرض غير صالحة للسكنى كما هو الحال في القمر ، ولكننا نخدع أنفسنا بأنها موطننا الحقيقي ، اذ ليست لنا القدرة على الالتجاء الى مكان آخر ٠ انهـــا صالحة لغير العقلاء ، أو الذين لا يؤثر فيهم شيء ٠ وربما سيكون مخرج الانسان في عودته الى الوراء ، في تحوله الى مجرد قوة ٠

وعندما نطقت بجميع هذه الأمور غير المعقولة ، خفت أن أكون قد

كشفت عن كل شيء أردت اخفاءه • لقد كنت متجاوبا مع نهار هذا اليوم، ومع ما كان يعتمل في نفسي ويثيرني • وقد وضعت الرجلين كما وضعت نفسي في موقف حرج •

كان الحافظ محمد ينظر الى في دهشة ، وفي فزع تقريبا • وأما حسن فكان ينظر الى في شرود مبتسما ، وقد أدركت اذ ذاك من خلال نظراتهما الثقل الحقيقي لكلماتي التي لم أفكر فيهـا من قبل • ولكن ضـــميري لم يكن يعاتبني ، بل على العكس ، لقد كان الأمر بالنسبة لى أخف وأيسر •

لقد تغيرت معالم وجه حسن ، واتخذت صورة جدية لم تكن متوقعة • وانبرى يقول : لا ، ـ مشيحا برأسه في هدوء ، كما لو كان يعتذر عما بدر منه من ذلك الموقف الجدى ـ لا حاجة للانسان الى أن يناقض نفسه ، فكل ما يقدر في المرء هو ذلك الذى يمكن اثارته •

ربما ليس من السهل الحياة في هذا العالم ، ولكن الأمر سـيكون اشد وأصعب اذا ظننا أن مكاننا ليس هنا في هذا العالم • وأما رغبتنا في القوة والوصول الى فقدان الشعور فمعناه أننا نثأر لأنفسنا من أجل خيبة الآمال • ومن ثم لا يكون هذا هو المخرج ، بل رفع الأيدى عن كل ما يستطيع الانسان أن يكونه • ان رفض جميع الاعتبارات يمثل الخوف البعيد العهد ، يمثل حقيقة الكائن الانساني الذى ينشد القوة ، لأنه يخـاف •

قال الحافظ محمد وقد بدا عليه الانفعال :

ـ اننا هنا ، في هذه الأرض • ونفي صلاحية هذا المكان لنا معناه نفي الحياة ، لأن •••

انتابه السعال ، ولكنه أخذ يلوح بيده معلنا عدم موافقته اياى ، دون أن ينجح في تهدئة مرضه المثير •

نصحه حسن قائلا :

ـ يجب أن تذهب الى الغرفة ، فالطقس بارد ورطب • أأساعدك ؟

قال وقد أشار بيده رافضا : لا يلزم • وذهب وهو يسعل ، فلم يكن يرغب أن يشهده أحد في مرضه •

بقينا وحدنا ، حسن وأنا •

يا للأسف لعدم استطاعتنا ان نفترق ، دون أن نبدى أسبابا للافتراق ، ودون أن يصدر منا حديث بعد ، ولكن كان من الأفضل النهوض والذهاب ، حيث كان من الصعب قطع الحديث أو مواصلته ، اذ لم يعد بيننا الحافظ محمد ذلك الذى كان بمثابة حلقة الاتصال ، كما كان سببا لحديثنا الشامل وحيث كان ينتظرنا ذلك الذى يهمه ويهمنى فحسب ٠

ولكن الموقف بالنسبة لحسن لم يكن حرجا ٠ فانه كان دائما يجد السبيل ليجعل كل شيء طبيعيا ٠ حول بصره من الحافظ محمد الى وابتسم ٠ وكانت الابتسامة طريقه الى الانسان ٠ انها تعبير عن التفهم وتيسير الأمور ٠

ـ لقد أخفت الحافظ محمد ، فقد كان يبدو عليه الحيرة والارتباك ٠

ـ اننى آسف لذلك ٠

ـ اتعرف ماذا كان يدور بخاطرى عندما تحدثت ؟ كنت اعجب كيف يستطيع بعض الناس أن يقولوا كل ما يريدون ، وتستطيع ان تقبل أو ترفض محتفظا بهدوئك ، بينما يوجد آخرون ينقلون فى كلمة واحدة ما يعتمل فى أنفسهم ، وعلى الفور يتلظى كل شيء ويخرج كل شخص عن هدوئه ، واذ ذاك نحس كان شيئا مهما يحدث أمامنا ، ولا يصبح الأمر عندئذ أمر حديث عادى ٠

ـ بل ماذا ؟

انه الاستعداد لأن يلقى بكل شيء فى شعلة النيران ٠ لقد أصابتك مصيبة أخيك بأكثر مما ينبغى ٠

لو تحدث الى أحد بهذه الطريقة لما سمحت له ولرفضته بشدة ، ولكنه هزمنى باصابته حقيقة تمردى ، واكثر من ذلك بطيب مقصده الذى لم يتضح فى كلمات وانما اتضح فى نظرته ، فى صدقه العميق ، فى تفهمه ، فى قلقه ، فى جميع أساليبه التى بدا فيها متالقا كأنه يرانى الآن من ذلك الجانب الذى يخفيه الانسان غالبا ٠ ولكن اذا لم أكن قد رفضته فقد رغبت فى أن أتجه بالحديث الى موضوع آخر ، اذ لم أكن أود أن ينبش أحد فى داخلى ٠

ـ ماذا قصدت عندما تحدثت عن ذلك الخوف الذى يستولى علينا منذ أزمان بعيدة ؟

ـ القاؤنا فى هذه الليلة يعد أول لقاء ؟ لقد أردت أن نتحدث عن اخيك اذا لم يكن في هذا ما يضايقك ؟

كنت أستطيع أن أقول له : لا شأن لك بهذا ٠ اتركنى فى هدوء ، ولا تنفذ الى مساربى الخفية ٠ اننى اشمئز من النـــاس الذين يقدمون النصائح ٠ ولو قلت هذا لكان أصدق تعبير لما أحسه ، ولكننى لم أكن استطيع ان اتحمل خشونتى او خشونة الآخرين ، فقد كنت أحس بالخجل عندما تتملكنى فى قليل من الأحايين هذه الخشونة ، كما كنت اظل أعيها فى ذاكرتى مدة طويلة عندما تصيبنى من الآخرين ٠ قلت له معتذرا ، ان والدى جاء من قريته ولم أعد بعد معتدل المزاج ٠

فابتسم وقال :

ـ انك ترفض التحدث الى للمرة الثانية ٠

ـ ماذا أستطيع ان أقول لك ؟

ـ ماذا أستطيع ان أقول لك ؟ لم يصل الى علمى شىء٠

ـ ولا لماذا سجن ؟

ولا هـــذا ٠

ـ اذن أنا أعرف أكثر منك ٠

لم يكن من السهل صرفه عن الموضوع ٠

لقد حكى لى حكاية غريبة ، كدت الا افهمها بخبرتى المحدودة ذات الجانب الواحد ، والتى لا تتجاوز ما لدى الطفل عن هذا العالم الذى أعيش فيه ٠

قال حســن : فى ضواحى المدينـــة كان يعيش مالك صغير من ملاك الأرض ، لقد كان حيا وأما الآن فقد مات ٠ هل كان له دافع حقيقى لأنه أضير فى شىء ، أو كان ساذجا ، أو شريفا ٠ هل كان غليظا ، حاد الطبع ، متعصبا ٠ هل كان هناك أحد يعتمد عليه ، أو كانت لديه البراهين ٠ هل كان مجنونا ، أو كان الأمر بالنسبة لما سيحدث له سواء ٠ من الصعب معرفة ذلك ، وليس هذا هو المهم الآن ، وانما المهم أن هذا الرجل بدأ يتحدث عن بعض أصحاب السلطة حديثا مشينا ، متهما اياهم فى وضوح وعلانية من أجل ذلك الذى يعرفه جميع الناس ولكنهم لايعلنونه ٠ لقد

أوصوه بطريقة ما غير مباشرة ليعود الى نفسه ، ولكنه ظن أنهم يخافون منه فلم يكف عن ذلك الذى لا يرجى من ورائه نفع لأحد • وعندئذ ارسلوا الحراس اليه فجاءوا به مقيد اليدين الى القصبة ، وسجنوه فى القلعة ، واعدوا محضرا اعترف فيه المسكين بذنوبه العديدة ، وأورد بنفسه كلمات ضد الدين والدولة والسلطان والوالى ، موضحا أنه كان يتحدث فى غيظ واحتدام • لقد وصل اعترافه الى حد أنه ذكر قيام صـلات بينه وبين المتمردين فى (كراينا) ، وأنه كان يرسل اليهم مساعدات ، وأن بيته كان نقطة الالتقاء لمخابراتهم وأصحاب الثقة من رجالهم • وقد أرسلوه مع محضره الى الوزير فى تراونيك ، ولكن الرجل قد مزق بالسيوف فى الطريق لأنه حاول الهرب • والآن ، يستطيع كل شخص أن يزعم فيما يتعلق بأمر محاولة هربه ما يشاء ، ربما حاول الهرب ، وربما لا • ان الأمر بالنسبة له سواء ، فلو لم يمزقه الحراس لمزقه الوزير • وما كنت أريد أن أتحدث اليك عنه • اذ ليس هو الوحيد ولن يكون الأخير لو لم يتعلق هذا بأمر أخيك • انه لم يكن يعرفه ، ولم يكن حتى قد رآه ، كما ان الرجل لم يكن يعلم اطلاقا بوجود أخيك ، وسواء تداخل أمر أخيـك او لم يتداخل فقد كان المصير بالنسبة لهذا الرجل واحدا • انهما لم يتعارفا ، ولم يلتقيا أبدا ، ولم تقم أية علاقة بينهما • لقد كانا شخصين مختلفين ، ولكن بالرغم من ذلك كانا متشابهين فى شىء : ففى داخل كل منهما كانت تسيطر نزعة انتحارية • ولسوء الحظ كان أخوك يشتغل لدى القاضى • أقول لسوء الحظ لأن القرب من أصحاب السلطة فيه خطورة وصعوبة ، وقد توصل بطريقة ما باعتباره كاتبه الموثوق به الى ملفات سرية • وكيف توصل اليها ؟ لا يعرف أحد الآن ، ومن المؤكد أنهم حالوا بينه وبين رؤيتها ، ولقد توصل اليها عن طريق الصدفة • وكان هذا أخطر شىء استطاع أن يبلغه •

– ما الذى توصل اليه ؟

– توصل الى ملفات التحقيق الخاصة بهذا المتهم التى دونت قبل أن يجرى التحقيق معه ، وقبل أن يستدعى الى القصبة ، وقبل أن يزج به فى السجن ، وفى ذلك كان قدره المحتوم وخطورته الشديدة • اتعى ذلك ، فقد كانوا يعرفون سلفا ما سيدلى به المتهم ، وما سيعترف به ، وما سيؤدى الى قتله • نعم ، لم يكن ذلك شيئا غير عادى ، لقد كانوا فى عجلة ، ولذا كان من الضرورى أن يتم كل شىء على وجه السرعة وبطريقة قاطعة ، ولو كان الكاتب الشاب قد ترك هذه الملفات المعدة من قبل فى المكان

الذي وجدها فيه لانتهى الأمر أيضا على الحال التي انتهى اليها ، وكذا لو كان قد أخفى أمر اطلاعه عليها • ولكنه لم يفعل • ماذا فعل ؟ لا أدري. ربما أظهرها لأحد ، وربما ذكر له مضمونها ، ربما فاجأوه والملفات معه ، وعندئذ زجوا به في السجن • لقد كان يعرف أكثر مما يجب •

كنت استمع بشيء من الارتياب • ما هذا ؟ أجنون ؟ أفزع كهذا الذي ينتابنا في احلامنا المزعجة ؟ أنا حية مظلمة من الحياة لا يمكن للبعض على الاطلاق أن يتسلل اليها ؟ يبدو من المستحيل أن يكون هناك رجل على هذه الدرجة من الجهل • هل كان الناس يسكتون أمامي ، هل همساتهم خافتة الى حد كبير ، هل كنت على استعداد من قبل كي لا أصدق ، اذ أن معرفتي لهذ الأمر قد تخرجني من دائرة الهدوء التي أحتلها ، ويكدر تلك الصورة التي كونتها عن عالم متزن الى درجة ما أحيا فيه وأراه عالمي • واذا كنت لم اعتقد انه عالم كامل فقد كان في اعتقادي أنه مقبول على الأقل ، فكيف استطيع اذن أن اقبل انه عالم يجرى فيه الظلم ؟ من الممكن ان يشك احد في صدق كلماتي ويلقي الى بهذا السؤال : كيف يمكن لرجل على درجة من النضج والوعي عاش سنين طويلة بين الناس معتقدا انه قريب اليهم وانه يفطن الى ذلك الذي يخفونه عن الآخرين ، وليس بليدا ، ألا يرى ولا يعرف ذلك الذي يحدث حوله ، والذي لا يمكن وصفه بأنه غير هام ؟ هل هو النفاق ؟ او العمى ؟ لو لم يكن في القسم شيء من الذنب لأقسمت قسما شديدا أنني لم أكن اعرف • كنت اعتقد أن العدل ضرورة ، وأما الظلم فشيء يحتمل وقوعه • ولكن هذا الأمر كله يبدو متشابكا ومعقدا ازاء فكرتي الســـاذجة عن الحياة ، تلك الفكرة التي كونتها في فترة الانفصال والطاعة ، كان ينبغي أن يكون الانسان مزودا بخيال متشائم لكي يزج بنفسه في تلك العلاقات المتشابكة المعقدة ، التي كنت أقبلها كحرب شديدة المراس ، تتصف بالقداسة ، تشب دفاعا عن شريعة الله ، دون أن يكون لها تحديد أو وضوح في نفسي • أكان الناس يحاولون ، مشفقين ، ألا يقولوا ذلك الذي لا ترغب نفسي في سماعه ؟ كان من الصعب اعتقاد ذلك • واذ ذاك ، عندما سمعت ، كنت على استعداد لئلا أصدق ، وعلى الأقل الا أصدق الحكاية بأكملها : فتصديقها كان يعني الخوف الى درجة الموت او كان يعني فعل شيء ، وما كنت املك حتى الكلمة التي استطيع أن اجعلها علامة لتلك الضرورة المجهولة التي كان يفرضها على ضميري • انني اعترف ، ولا أشعر بالخجل فصدق التفكير يبرر موقفي ، أن شخصية حسن بنفسها قد أضعفت قيمة الأخبار التي سمعتها • لقد

كان حسن النية ولكن حديثه كان ينم عن سطحية ، وكان شريفا ولكنه يتصف بالسذاجة ، وكان خياله الطلق يستطيع أن يختلق حكاية الله أعلم بها ، مضيفا الى ذرة من الصدق حمـــلا مما يأتي به هواه وتدعو اليه رغبته . وكيف استطاع ان يعرف وقد وصل توا من السفر ؟

سألته ملقيا بما أستطيع أن أقتنصه به :

ـ من أين تعلم ذلك ؟

اجاب في هدوء ، وكأنه كان يتوقع السؤال :

ـ بطريق الصدفة .

ـ لعل ذلك من قبيل الحدس ، أو حكاية فارغة !؟

ـ ليس من قبيل الحدس ، ولا حكاية فارغة .

ـ هل هذا الذى حكى لك يشغل منصبا يمكنه من أن يعلم .

ـ انه يعلم ما قلته لك فقط .

ـ من هو ؟

ـ لا أستطيع أن أقول لك ، وليس هذا مهما ! فلن تستطيع أن تسمع منه غير ما سمعت . ماذا تريد أكثر من ذلك !

ـ لا شيء .

ـ لقد بلغ خوفه درجة جعلتنى أرثى لحاله .

ـ لماذا اذن تحدث اليك بهذا ؟

ـ لا أدرى . ربما كان ذلك لكى يتخفف مما يثقله ، لكى لا يخنقه هذا الذى يعرفه .

كنت فى حيرة شديدة من اجل ما سمعته ، ولم أوفق فى جمع شتات أفكارى التى كانت تنطلق هنا وهناك انطلاق الطيور أصاب مكانها الحريق ، كما كان بعضها يختفى فى جحور مظلمـــة كما تفعل ثعابين الصخور . وقد ظهرت امامى صورة مفزعة لشر قهار .

قلت له : هذا شيء فظيع ، فظيع الى درجة تجعلنى لا أصدق . ووددت لو لم تكن قد حكيت لى ما حكيت .

ـ وأنا أيضا . وهانا أحس بذلك الآن . فليكن الأمر كما لو لم أقل شيئا ، اذا لم تكن فى حاجة الى ما قلته .

ـ هذا غير ممكن . ان الأشياء لا وجود لها قبل أن تقال .

ـ ان الأشياء لا يمكن أن تقال قبل أن توجد . والمسألة تتعلق فقط بما اذا كان ينبغي ان تقال . لو كنت اعلم انني سأثيرك الى هذه الدرجة لربما كنت قد آثرت السكوت .. لماذا تفزع من الحقيقة ؟

ـ ما الذي استفيده منها ؟

ـ لا أدري ، وربما لم تكن هذه هي الحقيقة .

ـ فات الوقت لكي تتراجع . لا نستطيع أن نمحو ما قيل . أأعرفه ذلك الذي قال لك هذا ؟

نظر الى في دهشة وقال :

ـ لقد أردت ان أساعدك . وظننت أنك ستشغل نفسك بالتفكير في أمر انقاذ اخيك في اقرب وأسرع وقت ممكن . ولكنك كما يخيل الى قد وعيت في ذاكرتك فقط ذلك المسكين الذي لا يستطيع دون شك ان ينـــام ليالي وليالي من شدة خوفه . وكأنك لا ترغب في أن تعرف شيئا آخر .

وربما كان هذا صحيحا . وربما كان على حق في ذلك ، فقد كنت بهذا التفكير الجانبي أخفف مما اعانيه من شدة . غير انه ما كان ينبغي أن يكون الحديث بهذه الطريقة ، فقد كان يخيل الى انني أعرف كيف ينبغي ان يكون الحديث . وكان على أطراف شفتي ســؤال ســاذج كسؤال الطفل : ماذا أفعل أيها الرجل الصالح الذي تخطيت ما يحذرك به حسن تبصرك وذهبت الى لقاء رجل آخر ، قل لى ماذا أفعل ؟ لقد أفزعتني ما كشفته لى واحسست كما لو جيء بى الى حافة هوة ولا أريد أن أنظر فيها وانما اريد ان اعود الى حيث كنت ، او الا أعود ، أريد ان أنقذ الايمان في العالم . ولكن ذلك شيء يظل مستحيلا حتى يتم ابعاد ما بداخلى من خلاف شديد يورد موارد الحتوف . قل لى بأى شيء أبدا ؟

لم أكن أعى اذ ذاك ، كيف لا أوافق على قطع العلاقات ، وكيف احافظ باصرار على هذه العلاقات التي نشأت منذ زمن طويل ، دون أن أدرى انني بذلك القى الذنب على أخى ، لأن احدا يجب أن يكون مذنبا . يا لحظى ، فلو بدأت الحديث لتوقفت عن الاختفاء أمامه وأمام

نفسي · انني لا أدري ما الذي كان سيحدث ، ربما لم يكن في استطاعته أن يقول لى شيئا ، وربما لم يكن فى امكانه أن يساعدنى بشىء ، ولكن ما من شـــك انني لو فعلت لضعف على الأقل تقلص روحى ولما بقيت وحيدا · ولو كنت قد قبلت خبرته التي كانت أكثر اتساعا واشد مرارة ، ولو لم أغلق على نفسي باب عذابي ـ فلربما كنت قد ابتعدت عن الطريق التى أخذت حياتى تسير فيه فيما بعد · وان لم يكن هذا مؤكدا ايضا ، لأن نيتنا أو غايتنا كانت مختلفة تماما ، اذ أنه كان يرغب أن ينقذ رجلا ، وأنا كنت أريد أن انقذ فكرة · وفى الواقع انني أخذت افكر هكذا فيما بعد ، وأما فى تلك اللحظة فقد كنت مرتبكا ، وكنت احس بالمرارة ، وبالغضب عليه دون وعى لأنه كشف ما لم أكن اعرفه ، وكنت ادرك انه يجب على أن أفعل كل ما كان فى وسعى كى تتكشف الحقيقــة ، يجب أن افعل الآن ذلك ، فلو لم أكن قد عــرفت لاستطعت ان أنتظر ، ولكان يشفع لى عدم معرفتى · وأما الآن فلم يعد هناك اختيار ، فقد أصبحت تحت سـلطان الحقيقة ·

لقد شغلنى الهم عن ذلك الذى يجب أن يحدث ، غدا ، أو بعد يومين ، أو خلال زمن لا يعد بعيدا · وعلى الرغم من ذلك كان يدور بفكرى كم يكون من الصعب ان نفترق · أيذهب دون أن ننطق بكلمة ، انقول شيئا عاديا للغاية ، أنفترق بالبرودة والغضب ؟ انني لا أجد تعبيرا صحيحا ولا اتبين علاقة حقيقية عندما يتعلق الموضوع بأمورى الشخصية: الى الآن كنت أعرف دائما ما أقول وكيف أتصرف · لقد بقى بعض الكره من هذا الحديث ، وشىء من وطأة الشعور الداخلى ، وعدم الرضا حيث لم يقل كل شىء ، ولكننى كنت دون قصد أتمالك نفسي كى لا أظهر البرودة والاهانة ، اذ لم أعرف هل سأكون فى حاجة الى هذا الرجل فيما بعد · اقول : دون قصـد ، لأنى لم أكن قد دبرت شيئا من التحايل والمكر ، ولم أكن أعرف فى أى طريق كان يمكنه ان يفيدنى ، لأنى لم أكن أحدد هذا الطريق ؟ ولكن حذرى الداخلى كان يفرض على الا أفقده · وربما سأكون فى حاجة الى ميله الى وانعطافه نحوى من أجل العمل الذى اتفقت بشـــأنه مع أخته · ولذا انهيت الحديث نهاية يمكن معها أن يستأنف أو لا يستأنف ، وذلك حسب ارادة الله ·

لقد قلت له وبى رغبة شديدة فى أن يكون صوتى عاديا ولطيفا :

ـ ان الوقت متأخر · وأنت الآن دون شك مجهد ·

فاجأني باجابته وبتصرفه ، ذلك التصرف الذي لم يكن متوقعا ، والذى كان طبيعيا ، كما كان على درجة من البســـاطة جعلته يبدو غريبـا ٠

لقد وضع أصابعه الطويلة الصلبة على راحـة يدى التى استلقت على مسند الأريكة ، لامسا اياى لمسة خفيفة مكنتنى فقط من أن اشعر ببرودة جلده المستحبة ونعومة اناملة ، وقال في هدوء وبصوت خافت عميق قد يستخدم فى التعبير عن مشاعر العاطفة ٠

ـ يخيل الى أننى جرحتك ، وما كنت أريد ذلك ٠ كنت اظن انك تعرف أكثر من ذلك عن العالم وعن الناس ٠٠ أكثر من ذلك بقدر كبير ٠ كان يجب على ان اتحدث معك بطريقة مخالفة ٠

ـ كيف كنت تستطيع أن تتحدث معى بطريقة مخالفة ؟

ـ لا أدرى ٠ كما يتحدث مع الأطفال ٠

كان من الممكن الا تعنى هذه الكلمات شيئا ، غير أن نفسى قد تأثرت من الطريقة التى نطق بها ، من ذلك الصوت الذى يشبه صوت المزمار المصــنوع من الطين المحروق يخـرج فى امتلاء وعمق ، دون أن يصحبه حفيف أو يسمع لرنته صدى ، ودون أن تقطعه هذه التنفسات غير الهادئة ، من تلك الابتسامة الحزينة من أجل شىء لم يحدث الآن ، والتى كانت توصف بالوداعة والفطنة والتحرر ٠ وعندئذ أخذت افكر فى دهشة ولأول مرة ، كيف يحيا بداخله شىء ناضج ممتلىء يظهر فقط فى تلك اللحظات التى لا يحاول فيها اخفاء نفســـه ٠ لقد حفظت فى ذاكرتى فى ذلك الوقت الذى غمرنا فيه ضوء القمر وملأنا بتأثيره ، وفى تلك اللحظات التى تتأزم فيها الأمور ـ ذلك الصوت المستدير الذى يدفعنا الى الايمان به والثقـة فيه ، وتلك الابتســامة التى تبعث فينـا الهدوء ، وتلك الفترة قبيل منتصف الليل عندما تفتح أبواب الأسرار ، وبقى فى الذاكرة كل شىء من أجل سبب قوى وان لم أكن قد استطعت أن أدركه على وجه التمام ٠ ولعله من أجل ذلك خيل الى أننى صادفت فجأة ـ وفجأة بالتمام ـ أحد الرجال يظهر جانبه الخفى الذى لم يره أحد قبلى ٠ ولا اعرف أكان يولد عندئذ أم كان يكشف نفسـه ، متجردا عن ثيابه الرقطاء ، كما لا أدرى ماذا اظهر ، ولكننى كنت مقتنعا أن اللحظة كانت لحظة اســتثنائية ٠ كنت أفكر حتى شمل تفكيرى أيضا

ما اذا كانت شدة انفعالى تستطيع أن تقلب معانى كل كلمة وكل حركة وكل واقعة ، ولكن برغم هذا ظل ما حفظته باقيا ٠

واذ ذاك نهض حسن وحل بنجاح عقد لحظة عصيبة فيما بيننا ٠ لقد عثر على كلمة مناسبة يسمع رنينها جميلا ويظل طويلا ، وكان فى استطاعته عندئذ أن يذهب ٠ ان شدة انفعالى التى كانت تنتابنى منذ قليل قد زايلتنى وحل محلها قصد سيىء كان ميلاده بعد الحماس أشد غرابة من ظهوره ٠

وعند قيامه أخرج من جيبه لفافة ووضعها على الأريكة وقال :

ـ هذا لك ٠

وذهب ٠

ودعته حتى الباب ، وعندما اختفى خلف احدى الزوايا أخذت أسير وراءه ، كنت اخطو خطوات هادئة ، بجانب الجدران والأسياج الخشبية ، مستعدا أن أتوقف اذا استدار ، وسيظن عندئذ اننى ظل من هذه الظلال ٠ بدأ يختفى فى ظلام الأزقة الصغيرة ، وكنت أتابعه على هدى من وقع اقدامه ، ولم تكن خطواتى تسمع ، اذ أنها لينة ومتلصصة ٠ لم أكن اخطو قط بهذه الطريقة من قبل ، وهانا مرة أخرى أكشف عباءته الزرقاء وهيئة قامته الطويلة عند تقاطع الطرق التى يضيئها ضوء القمر ، فأخذ فى متابعته فى دوران كما يبدو لى ، ثم أرى خائب الأمل كيف تتقاصر لفات الدوران المتخيل لتكون نهاية المطاف مكان معروف ٠ توقفت عند الجامع ، أما هو فقد قرع باب حديقة منزله بتلك الحلقة المثبتة فيه ، وفتح أحد الباب كما لو كان ينتظره وراءه ٠ انه لو دخل بيتا يخص آخر لاعتقدت أنه ذهب الى ذلك الذى لم يرد أن يكشف لى عنه ٠ وهكذا لم أستطع أن أعرف شيئا ٠

عدت الى التكية متعبا ، ولم يكن ما أصابنى هو تعب الجسد ٠

كانت هدية حسن تقبع على الأريكة : (كتاب الحكايات) لأبى الفرج ، وكان مجلدا بجلد مغربى ثمين حليت أركانه بأربعة طيور مذهبة٠ فوجئت أيضا بما ارتسم فى المنديل الحريرى الذى لف به الكتاب من طيور أربعة طرزت بلون ذهبى ٠ ان تلك الهدية لم تشتر بطريق المصادفة ٠

ذات مرة ذكرت في الحديث أبا الفرج وأنا أسترجع ذكرى أيام شبابى • ذكرت ونسيت • وأما هو فلم ينس •

لقد جلست على الأريكة ممسكا بالكتاب في حجرى ومتحسسا باصابعى جلده الأملس ، وكنت أنظر الى النهر أماته ضوء القمر ، واسمع كيف تدق ساعة البرج معلنة الوقت • وفي هدوء عجيب تمنيت أن أبكى • فمنذ العيد البعيد الذى يرجع الى عهد طفولتى والذى نسيته ذاكرتى كانت هذه أول مرة يحمل لى فيها أحد هدية ، وأول مرة يفكر في أحد • لقد وعى كلمتى وتذكرها في مكان من البلاد البعيدة •

لم يكن شعورى على الاطلاق عاديا •• كنت احس كما لو كان الصباح نديا ومشمسا ، كما لو عدت الى دارى بعد سفر طويل ، كما لو غمرنى سرور يتصف بالقوة وان لم تعلم دوافعه وأسبابه ، كما لو كان الظلام قد انقشع •

اعلنت الساعة منتصف الليل ، وبدأ الخفراء يظهرون كما تظهر طيور الليل ؛ كان الوقت يواصل مضيه ، وأما أنا فقد كنت أجلس مذهولا من أجل كتاب أبى الفرج ، ومن أجل تلك الطيور الاربعة الذهبية • لقد رآها حسن في منديل من البز ، وكان هذا المنديل هو كل ما بقى لى من بيتنا ؛ وقد أتى به والدى منذ وقت طويل حين حمل الى كعكا من العسل يابسا ، ولفه في بشكير قروى من الكتان الخشن ، ورأى أن يحيطه بهذا المنديل الذى كان أفضل منه من حيث الشكل والنوع ؛ وقد وعى ذلك في ذاكرته •

كان من الصعب اعتقاد أننى كنت متأثرا للغاية ، ولكن ذلك كان حقيقة • لقد كنت متأثرا من أجل ما ذكرنى به واحد من الناس • لم يكن ذلك منه من أجل شىء أو من أجل فائدة ؟ وانما كان مما أملاه عليه قلبه الطاهر ، أو ربما مما أملاه عليه دعابته ومزاحه • وهكذا كان بمثل هذا التصرف الجميل الآسر يستحوذ على الناس ، حتى على الدرويش القاسى الذى أمضى في الخدمة سنوات ، والذى ظن أنه قد تغلب على ما بنفسه من نواحى الضعف الصغيرة • ولكنها كما يبدو لا تزول بسهولة ، كما انها ليست في الواقع صغيرة •

أخذ الليل يمضى ، بينما كنت أجلس وقد أضاءت جوانبى ورحت أضحك في نفسى من شدة انفعالى ، ذلك الذى لم استطع أن افسره ، وفي الوقت نفسه لم أرغب في التخلص منه •

٦

« ضعف الطالب والمطلوب »

ذهبت فى الصباح الى الحقول ، وتسلقت الجبل المزهر ، ثم وقفت مستندا الى شجرة صغيرة من اشجار الفاكهة ، وكان وجهى بجانب عنقود من الزهور ، وبعض الاوراق والاكمام ، وآلاف من العجائب الحية المستعدة للتناسل ، وكنت احس بلذة ثملة من هذا التكاثف ومن فوران العصارة التى تجرى خلال الألياف التى لا حصر لها والتى تتعـذر رؤيتها ، ومرة اخرى كنت ارغب كما رغبت فى الليـلة المـاضية أن أدخل يدى خلال الأغصان كى يسرى فى دم النبات الذى لا لون له ، وأن ازدهر دون ألم ثم أذبل • وهذا التـكرار لرغبة عجيبة كان يؤكد لى شدة ما أعانيه من العـذاب •

كان صدى صوت الفأس يسمع مدويا فى الغابة ، فى لحظات محددة، كانت فيها تنهال ضربات شديدة من يدين قويتين لشخص ما ، ثم يسود سكون قصير بعد الضرب ، وكنت أعرف على هـذا البعد أن الفأس حادة ونصلها طويل ، وأنها تحز فى الخشب بصياحها الساخط ، وتشق فى غضب طريقها حتى اللب • كما كان يصل الى الأذن أيضا صوت الوقواق يطلق مرثيته ذات المقاطع المزدوجة ، والتى كانت لا تبالى بشىء شأنها فى ذلك شأن عمال التراحيل أو شأن القـدر • وعدا ذلك كان يتناهى الى سمعى صوت لشخص ما ، صوت نسائى ، صاف ، مدو ، غـير مفهوم ؛ انه صوت امرأة شابة لوحت وجهها شمس الربيع • انها تضحك ، ولا أراها ، ولكنى أتجه نحو صوتها الشاب كما أتجه نحو القبلة ، اننى أعرف عنها كل شىء • كانت تلك الأصوات الثلاثة وحدها هى التى تصدر وتسمع فى هدوء ذلك الصباح الربيعى ، فى رحب العالم المنتمى لغيرى • أغمضت عينى وكانت رائحة الزهر اللذيذة فى نفسى ، وكنت اسمع : ثلاثة أصوات

بسيطة للغاية • وعندئذ شعرت بلحظة نسيان غير عادية • لم يكن مبعثها الذكرى ، وانما الحضور فى زمن آخر مر منذ فترة طويلة • ولم يكن يوجد فيه اذ ذاك شيء من كياني الحالي ، بل كان يوجد فحسب شعور منى بالوجود يتصف بالخفة والسرور ، اتصال غير وثيق بكل شيء حولي • كنت اعرف أن الفأس للوالد وأن يديه القويتين تضربان في الغابة التي يقبع فى سفحها منزلنا • وتعرفت على صوت الوقواق ، وما رأيته قط ، ولكنه يظهر دائما من مكان واحد • كما عرفت الشابة ايضا ، عمرها ست عشرة سنة ، وأراها عبر زمن موغل في القدم تتابعت بعده العصور الخوالى ، اننى ما نسيت شيئا ، كان يحيط بشفتيها المبتسمتين نبت خفيف من شعر ذهبى ، وكان خصرها يقدر بتقابل أصبعى السبابة واصبعى الابهام ، وكانت تنشر رائحة (الميلودوح) التي لم تختف فيها خلال السنوات الطويلة • من ذلك الذى تناديه الفتاة عبر الزمن ؟ لم استطع ان أرد على ندائها ، كما لم أستطع ان أعود •

انتزعني مما استولى على من سحر ذلك الزمن البعيد لقاء طيب • لقد اتجه صبى في الطريق نحوى ، كان يقطف الزهور ويلقى بها خلفه من فوق راسه ، وكان يضرب الطيور بكرات يابسة من الوحل المجفف ، ويصيح بكلمات غير مفهومة ، هى كلماته الخاصة ، كان مسرورا لا يحمل هما ولا يبالى بشيء شأنه شأن القطيط • وعندما رآني التزم الهدوء ، ولزم الجانب الآخر من الطريق ، وبدت عليه علامات الجد • اننى لم أكن من عالمه •

منذ زمن بعيد ، وقبل سنوات عديدة لقيت فى طريق آخر ، وفى منطقة أخرى صبيا يشبه هذا تمام الشبه • لم يكن هناك من سبب لاسترجع ذكرى ذلك الصبى وأقارن بينهما • ولكن هأنا قد استرجعت الذكرى • ربما كان ذلك لأن هذا اليوم كان محددا لاسترجاعها ، أو ربما لأننى كنت حين قابلت ذلك الصبى فى مفترق طرق الحياة ، كما انا الآن ؛ وقد يكون ذلك لأن كلا الصبيين كان بارز الوجنتين ، متحمسا ، مكتفيا بنفسه فى منطقة خالية ؛ وقد يكون أيضا لأن كلا منهما قد مر بى وبدت على وجهه علائم الجد ، كما لو كنت قد أطفأت مشعل سروره • كانت عينا هذا الصبى تشبهان زهر القنب ، وقد وجهت اليه السؤال نفسه الذى وجهته الى الصبى الاول ، وكان هذا السؤال قديما ، كما كان رنينه حزينا ، ولكنه لم يعرف ذلك •



ولحسن الحظ كانت طريقة الحديث بيننا تختلف عن طريقته في الحديث السابق . وقد سجلته لأشعر بالتخفف والراحة فحسب ، كما يتوقف المسافر نال منه التعب أمام نبع من المياه الباردة .

ـ من أبوك أيها الصغير ؟

توقف الصبي لحظة ونظر الى نظرة لا توحي بشيء ولو قليل من الود او الارتياح .

ـ لا شأن لك بهذا .

ـ أتذهب الى الكتاب ؟

ـ لا اذهب بعد . لقد ضربني المعلم امس ضربا مبرحا .

ـ لفائدتك هذا الضرب المبرح .

ـ اذن فباستطاعتي أن أوزع هذه الفـائدة على النـاس باليمين وبالشمال . فهذا المعلم يوزعها على أردافنا . ومن أجل كل حرف نتعلمه تزرق أردافنا وتصبح في لون الباذنجان .

ـ لا تتحدث بالفاظ قبيحة .

ـ أيكون الباذنجان لفظا قبيحا ؟

ـ انك عفريت كبير .

ـ لا تتحدث بالفاظ قبيحة ، يا افندى .

ـ هل كنت تتحدث أمس بهذه الحرية .

ـ حتى الأمس كنت طبلا بالنسبة للمعلم . وأما اليوم فانا مثل هذا الطير . هأنذا ، فليضربني احد الآن !

ـ ما قول أبيك في هذا ؟

ـ انه يقول : انك دون شك لن تصبح عالما . ولكن تستطيع أن تحرث بالمحراث سواء علمت الألف أم لم تعلمها ؛ فالارض تنتظرك ، ولن نعطيها لأحد . واذا كان الأمر يستوجب توزيع الضرب فانا استطيع ان أقوم به .

ـ اتريد أن اتحدث الى أبيك لكى أذهب بك الى القصبة ؟ هنـاك ستتعلم في المدرسة وتصبح عالما .

لقد قلت هذا للصبي السابق ، وهو الآن في التكية ، أصبح درويشا. ولكن هذا الصبي يخالفه • لقد زالت علامات السرور من وجهه وحلت محلها علامات الكره • نظر الى لحظة وقد اكفهر وجهه وبدت عليه حيرة يشوبها الغضب ، ثم انحنى فجأة نحو الأرض وأمسك بحجر كان فى الطريق •

قال مهددا :

ـ هاهو والدي يحرث • تفضل اذا كانت لديك الجرأة • اذهب اليه وقل له •

ربما كان في استطاعته أن يقوم بالضرب حقـــا ، وربما كان على استعداد لينطلق باكيا نحو الجبل • لقد كان أنضج عقلا من ذلك الصبى الآخر •

قلت له مسالما :

ـ لن اذهب • وليس فى استطاعة احد ان يجبرك • وربما يكون من الأفضل أن تبقى هنا •

كان يقف مذهولا ، ولكنه لم يترك الحجر من يده •

اخذت أســـير ، وكنت أدير بصرى الى الوراء مرات عـــديدة • انه لم يتحرك من مكانه ، وقف حاجزا بين والده وبين اقتراحى ، وكان خائفا وفاقد الثقة • وعندما ابتعدت وتلاشت منه اسباب الخوف القى بالحجر بعيدا بين غلات الحقول ، وأخذ يجرى نحو والده •

وعدت وقد لحقتنى كآبة •

فتحت الشابة لى باب المدخل ، وبدت كأنها تحاول أن تحجب وجهها بحجابها الشفاف ، وأشارت الى لأتجه الى الحـديقة قائلة : انهم هناك ، ثلاثة من الحمقى يحـاولون أن يمسكوا بشرس ، واذن أستطيع أن أذهب هناك اذا أردت ، كما أستطيع أيضا ان أنتظر هنا وستخبر هى « حسن » وتنقل لى ما يقوله اذا قال شيئا ، اذ هو اليوم قليل الحديث •

قلت لها : سأذهب هناك • وعندئذ أغلقت البـاب ، واتجهت الى البيت •

فى حديقة كبيرة خلف البيت ، وفي مكان معشوشب فسيح وسط أشجار البرقوق كان خادما حسن يحاولان الامســاك بمهر يافع • وكان

حسن يقف بجانب السياج من الداخل وينظر في هدوء ، صامتا ، أو محثا اياهما بصيحاته القصيرة وشتائمه ٠

لم ادخل في تلك الحلبة المعشوشبة التي كانت تتطاير قطع من أرضها تحت حوافر الحصان الجامح ٠

لقد كانا يقتربان منه بالتناوب ، احدهما تلو الآخر ، كان الخادم الأكبر قصيرا وقويا ، وأما الأصغر فقد كان طويلا ورشيقا ٠ كان غريبا ألا يحاولا الامساك به معا ؛ اذ بذلك يكون التغلب عليه أيسر ٠ وكان غريبا أيضا أن يصمت حسن تاركا اياهما كي يتعذبا ٠

كان المهر أسود الشعر لامعه ، كما كانت أردافه مكتنزة ، وقوائمه قوية ، ومفاصله دقيقة ٠ وكان يقف في وسط الحديقة غاضبا ، وقد اتسع منخراه المتوردان ، وحملقت بشدة عيناه ، وانتابته رعشات خفيفة، كانت تسري في جلده القوي كموجات متتابعة صغيرة ٠

وكان الخادم الأكبر الذى شد رأسه الى أكتافه العريضة ، والذى تقلصت عضلاته ، يقترب منه من احد جانبيه ، دون أن يحاول تهدئته بصوت أو حركة ، قابلا أن يكون واياه عدوين ٠ وفجأة قفز الخادم محاولا أن يمسك بعنقه وعرفه دون أن يشك في قوته ٠ وكان الحصان يقف متظاهرا بالهدوء ، وفجأة أخذ يدور بسرعة السهم ، ولكن الرجل كان يتوقع هذا ، فتراجع قليلا ثم القى بنفسه عليه من جانب آخر ممسكا بعرف الحصان الطويل ٠ وقف الحصان وقد فوجيء ، واخذ اذ ذاك يجر الخادم محاولا أن يتخلص منه ، ولكن العناق كان شديدا ، ولم يعد في الامكان أن ينجو العنق الرشيق من يديه القويتين ٠ وكان يبدو أنه سيتغلب عليه٠ كما كان من قبيل المعجزة أن يكون في امكان القوة الانسانية ترويض هذه المجموعة من العضلات القوية ٠ لقد كانا يقفان في صلابة ، وقد تشبثت اقدامهما بالارض كما لو كانا قد بلغا مبلغا من التعب ، كما لو كانا لا يستطيعان الافتراق ، كما لو كانا لا يعرفان ماذا يجب عليهما أن يفعلا بعد ٠ واذ ذاك تحرك الوحش ، وبحركة مفاجئة قذف بالرجل بعيدا عنه ٠

وحدث مثل ذلك للخادم الأصغر ايضا ٠ كان يقترب من الحصان في حذر ومخاتلة ، محاولا أن يخدعه بكفه المنبسط ، وكذا ايضا بوجهه اللطيف الذى كانت تشيع فيه ابتسامة لا معنى لها ، ولكنه عندما اقترب منه بحيث يستطيع اذا مد يده أن يمسكه دار الحصان بسرعة عدة دورات طرح في أثنائها الخادم على الارض ٠

واذ ذاك نطق حسن بكلمة قبيحة ، وضحك الخادم الأصغر ، وصب الخادم الأكبر شتائمه على هـذه الجيفة الوحشية · وقال له حسن : انك أنت الجيفة ·

كنت أنظر الى حسن كيف يتابع في هدوء هذه المعركة ، التى بدت كأنها مصارعة ، كأنها مبارزة ؛ ولم يكن يهمه أن يمسكا بالحصان ، وان كان الحـداد ينتظر على هـذا الجانب من السـياج كما انتظر انا ، بل كان يهمه أن يرى كيف يحاولان ولا يفلحان ، دون أن يساعدهما بنصح منه ، ودون أن يطلب ايقـاف هذه اللعبة الخطرة · ولكن الذى جعلنى أكثر دهشـة أنه كان على درجة من الجدية لم تعهد فيه من قبل ، حتى انه كان يبدو منقبض النفس متذمرا من كل شيء ، وان كنت لا أعتقد ان ذلك من أجل عدم مهارة خادميه · كان غريبا ان يسمح لهذا الصراع أن يستمر فترة بالغة الطول ؛ كما كان يبدو أن ذلك يمثـل خشونة لا داعى لها ، ربما كانت فيما بينهم آمرا عاديا ولكنها كانت فيـما أرى دون هدف أو فائدة · وكان تصرفه هذا يغير صورته التى كونتها عنه · انه ليس وديعا وليس سمحا كما كنت أتخيله ، أو لعله كذلك عندما يكون مع أقرانه ، أما مع الخدم فهو كالآخرين · ولكنه عندما لاحظنى حيانى بتحية قصيرة ، ولم تتغير حالته التى كان عليها · كما لم يقصر من عذاب هذين الخادمين ، ومع ذلك لم يبديا تمردهما ·

ولحسن الحظ أصاب الحصان الخـادم الأكبر فى بطنه ، ورد هذا عليه بضربة قوية فى الأضـلاع ·

صاح حسن قائلا :

ـ انك مجنون مثله ! اخرجا !

واذ ذاك خرج الرجل يعرج ، مبتعدا عن حدود هذا الوحشى ·

انتظر حسن كى يبتعدا ويقفا الى جانب السياج ، ثم اتجه على مهل ناحية الحصـــان ، ودار حوله ، ثم أخذ يقترب منه من ناحية الرأس ، منحرفا قليلا عن قصد منه الى اليمين والى اليسار ، وكان ذلك دون عجلة ودون تحركات مذعورة ، ودون محـــاولة لخداعه ، وظل يفعل ذلك حتى توقف الحصان ، وقد هدأه شيء ، ربما هدأته حركات حسن المتناسقة ، وربما كلماته الخافتة الغامضة التى كانت تسمع كخرير مستمر ، وربما هدأه نظره اليه باصرار ، أو لعله هـدأ لزوال خوفه وغضبه ، وانتظر ـ ولازال مظهره يدل على عدم الثقة ـ كى يقترب الرجل منه ، محدثا بمنخريه

الواسعين صوتا في أثناء الزفير، اقترب منه حسن ومازال يهدئه بهمساته، ثم مد يده الى جبهته وأخذ يلاطفه ، واستمر في ملاطفته دون عجلة ودون لهفة ، وكانه لا يلاحظ ان الحصان يلوح براسه ، منقلا راحة يده في هدوء بين خطمه وجبهته وعنقه ، وأخيرا أمسك بعرفه وجاء به ناحية السياج ·

وقال لخادميه :

ـ ها هو · وربما تستطيعان الآن أن تمسكا به ·

ثم اقترب منى قائلا :

ـ هل انتظرت طويلا ؟ كم يسرنى انك حضرت · هيا بنا الى البيت·

ـ انك لست معتدل المزاج اليوم ·

ـ كنت من قبل في حالات اشد ·

ـ أتريد ان انصرف اذا كان حضورى يضايقك ؟

ـ لا ، لماذا ؟ لو لم تحضر لطلبتك ·

ـ هل اغضبك الخادمان ؟

ـ نعم · تمنيت أن يقتل احدهما ·

لم ارد بشىء ·

فضحك وقال :

ـ الاجابة الحقيقية للدراويش : السكوت · نعم ، انني رجل على النقيض ، وأتحدث في أشياء تافهة · لا تؤاخذنى ·

قلت له : « أن انصرف » ، وكنت ارغب في أن يمنعنى من الذهاب، ولو سمح لى بالذهاب لما استطعت ، ولما جرؤت على الخروج الى الزقاق · اننى ما كنت أجول في الصباح هنا وهناك دون سبب أو دافع ، لقد كنت أريد رؤيته ، كنت في حاجة الى كلمته الهادئة ، واطمئنانه التام الذى كان يسكن العواصف حولى ، وهكذا يرغب الانسان أحيانا أن يجلس قرب نهر قوى هادىء ، وأن يستشعر الاطمئنان بقوته الهادئة ومجراه الآمن · وهأنا قد وجدت رجلا آخر ، رجلا مجهولا ، وقد أسفت لهذا ، وشعرت أننى أصبت بضرر ، ولم آكن أعرف ماذا يستطيع أن يفعل رجلان مضطربان ·

ولحسن الحظ انه عرف كيف يسيطر على نفسه ، أو لعل طبيعته الصافية لم تستطع أن تتحمل الغضب وقتا طويلا ، فقد أخذ يتحول بمرور الوقت الى ذلك الرجل الذى أطلبه ٠

ادخلنى غرفة كبيرة ذات نوافذ عديدة فى حائطها المقابل للباب ، وبدا نصف السماء معرضا امامنا للرؤية وقد أسفر عن وجهه ، لقد فوجئت باتساع تلك الغرفة الصيفية ذات الأرائك واللوحات والأصونة المنقوشة والأكلمة العديدة ، انها ثروة باكملها مغطاة لطبقة من الغبار ، نفائس تركت دون اهتمام بها أو عناية بصيانتها وتنظيفها ٠ انها مثله ، هكذا رأيت ٠ كنت أحب النظام ، النظام الصارم ، نظام الدراويش ، فكل شىء يجب أن يكون له مكان يخصه ، شأنه شأن جميع ما فى العالم ، وعلى الانسان أن يخلق نظاما لنفسه كى لا يصيبه الذهول ٠ ياللعجب ، لم يعد يزعجنى هذا الاهمال ، فقد كان يمثل حرية لها معناها واهميتها ، وهى أن ينتفع الرجل بالاشياء دون ان يخدمها ودون ان يقدرها أكثر من اللازم ، وان كنت أنا نفسى لا أستطيع ذلك ٠

كان يضحك ، مبعدا أشياءه المبعثرة ، عباءته وحذاءه وسلاحه : انه وقد تعود على عدم النظام فى الخانات لا يدرك اهماله الا فى اللحظة التى يرى فيها باعين الآخرين ، عندما يأتى اليه أحد ٠ واننى على يقين من أنه على هذه الحال من الاهمال دائما ، فهذا جزء من طبيعته ، طبيعته غير المسئولة والمتروكة دون قيد او نظام ٠ وقد قلت له مازحا ان هذا بالخصوص شىء جميل منه ، ومن المؤكد أنه كان على الدوام هكذا ٠ لقد قبل مزاحى ضاحكا : ففى الحق كان دائما مهملا ، واذا كان يحترم فى بعض الأحايين ذلك النظام الذى يضعه الآخرون ، فانه لا يشعر فى قرارة نفسه بحاجته هو اليه ، انه لا يفكر بعد فى هذا ٠ لقد أجهد نفسه مرة فى حياته ، ضاغطا عليها بالتزام النظام ، ولكن كان ذلك دون جدوى ، كما لو كان يحمل عداوة شديدة للأشياء ، او كما لو كانت الاشياء لا تحترمه وترفض سيطرته عليها ، لشخصية ليس لديها من صفات السلطة شىء ٠ وفى الحق ان شيئا من الخوف ينتابه ازاء النظام ، فالنظام له نهايات تحدده ، انه قانون صلب ، انه تقليل عدد الاشكال الممكنة للحياة ، انه اعتقاد كاذب بأننا نسيطر على الحياة ؛ فالحقيقة أنها تتسرب منا على الدوام ، وكلما اشتددنا فى جذبها كلما اشتدت فى البعد عنا ٠ كيف يتدخل تاجر الماشية هذا الخشن بسهولة فى ذلك الحديث الذى لايتناسب ومهنته الحالية ، ان ذلك يعد أمرا غريبا للغاية ، ولكننى قبلت ذلك منه برضى ، وسألته :

ـ كيف يجب أن يعيش الانسان ؟ أيعيش درن نظام ، دون غاية ، دون مقاصد يدركها ونسعى نحن الى تحقيقها ؟

ـ لا أدرى . اننا لو استطعنا أن نحدد الغاية والمقاصد ونضع القواعد لظروف الحياة جميعها كي نقيم النظام المتخيل لكان الخير فيذلك. من السهل أن تضع الاحكام العامة ، متخطيا بنظرك رءوس الناس ومتطلعا الى السماء والابد . ولكن حاول أن تطبقها على الناس الاحياء الذين تعرفهم وربما تحبهم دون ان تخدشهم . انك لو فعلت لكان من الصعب نجاحك .

ـ الا يحدد القرآن كل العلاقات بين الناس ؟ اننا نستطيع إن نطبق مضامين احكامه على كل حالة بمفردها .

ـ أتظن ذلك ؟ اذن حل لي هذا اللغز . انه ليس نادرا وليس غريبا وليس بعيدا عنا . سنلتقي به كلما نريد ان نفتح اعيننا . لنقل يعيش الزوج والزوجة وينعمان بالمودة كما يبدو في الظاهر . أو انتظر لنتحدث عن الناس الذين نعرفهم ، فالأمر اذ ذاك سيكون اسهل . لنتصور انهذين الاثنين هما اللذان رأيتهما ، الزوجة التي فتحت لك الباب ، وذلك الخادم الاكبر «فضل» زوجها . يعيشان عندى ، في مسكن بفناء الدار ، وليس الأمر بالنسبة اليهما سيئا ، فهو يسافر معي ويربح أكثر مما يحتاجان اليه ، ويحمل اليها الهدايا من السفر ، ويحظى بسرورها ، فهي تعرف كيف تفرح كما يفرح الطفل . انه مضحك ، وغير ماهر في عمله ، وقوى كالثور ، ويكاد يحاكي الطفل في تصرفاته ، ولكنه مهتم بها الى درجة غير مالوفة . يحبها ويرى فقدان نفسه بفقدها . يسرق مني القليل من أجلها، ولكنه يحبني ايضا ، وهو مستعد أن يضحي بنفسه دفاعا عني . كم كنت سعيدا لتوافقهما . فانا شخص لا استطيع البقاء قرب زوجين يتعاركان . انني أهتم بهما ، فقد ساعدتهما على أن يلتقي كل منهما بالآخر ، وربما احببتهما قليلا . والآن أفكر هكذا : ماذا عساه يحدث اذا صادفت المرأة رجلا آخر واخذت تهدى اليه في خفاء ذلك الذى يجب أن يكون لزوجها حسب القوانين الالهية والانسانية ؟ وما الذى ينبغي فعله اذا حدث ذلك؟

ـ هل حدث ؟

ـ لقد حدث . ورأيت أنت ايضا مرتكبه . انه الخادم الاصغر. وهذا الزوج لا يعرف . والقرآن يقول : الرجم للزانية . ولكنك تقر أن هذا بات أمرا متخلفا . وماذا على أن افعل ؟ أن أقول للزوج ؟ أن اهددها ؟ أن أبعد الشاب ؟ كل ذلك لن يساعد في حل القضية .

ـ ولا تستطيع أن ترى الذنب وتظل هادئا ٠

ـ وأصعب من ذلك أن تحول دون وقوعه ٠ فكلاهما يحبانها وهي تخاف من زوجها وتحب شابا ٠ وهو أيضـا عندي ٠ انه ماكر قليلا ؛ ولكنه عاقل ، وماهر في الاعمال الى درجة تجعلني أتوجس خيفة من امانته، ولكنني محتاج اليه ٠ انه يسكن هنا معهما ، لقد أتى به الزوج بنفسه ، وهو أحد أقاربه البعيدين ٠ الزوج انسان طيب النفس لا يشك في شيء ، يثق في الناس ، ويتمتع بسعادته ؛ والزوجة لا ترغب أن تغير من الوضع شيئا ، فهي تخشى ان تفسد كل شيء ؛ والشاب يسكت ، ولكنه لا يريد الذهاب ٠ انني أستطيع أن أجعله يقيم في مسكن آخر ، ولو فعلت ذلك لذهبت هي اليه ـ هكذا قالت لي بنفسها ـ ولكان الأمر اذ ذاك أشد ٠ كما استطيع ايضا أن ارسله الى مكان آخر ، لكنها ستذهب كذلك وراءه ٠ فأي شيء يغير في هذا الوضع الحالي لن يأتي بخـير ٠ لو عرف الزوج ذلك لقتلها وقتله ، لأنه ـ هذا الأحمق ـ ربط حياته بها ٠ ان هذين العاشقين يسرقان سعادتهما ، ويظنان ان لهما حقا فيها ، ولا يجرؤان على جعلها اجمل من ذلك ٠ ان الامر بالنسبة لهما ليس سهلا ، أما بالنسبة لها فيلزم أن تكون زوجة لرجل لا تحبه ، وأما بالنسبة للشـاب فلأنه يتركها كل ليلة للآخر ٠ وعلى العكس من ذلك كان الأمر بالنسبة للزوج على درجة كبيرة من اليسر والسهولة ، لأنه لا يعرف شـيئا ، وفي حسابه لا يوجد شيء ، وأما نحن فنظن أنه هو الذي أصيب بأفدح الضرر ٠ لم يعد له حق فيها بعد ، وما يراه حقه انما يقوم على خوفهـا فحسب ٠ وأما أنا فانتظر واترك كل شيء ليستمر ، لا أجرؤ أن افعل شيئا ، ان كل شيء هش الى درجة بالغة ، ولو فعلت شيئا ما لقطعت الخيـوط الدقيقة التي يمسك الثلاثة بها معـا ، ولتعجلت المصيبة التي تحلق فوقهم ٠ ها نحن الآن ٠ أوجد لي قانونا كيفما أردت ، حل لي ذلك ، ضع نظاما ! ولكن بشرط الا تهلكهم ، اذ بذلك لا تكون قد فعلت شيئا ٠

ـ ان ذلك لا يمكن انتهاؤه الا بالمصيبة ، كما تقول انت ٠

ـ إنني خائف ٠ ولكني لا أريد أن أتعجل المصيبة ٠

ـ انك تتحدث عن المسببات لا عن الاسـباب ، تتحدث عن ضعف القوانين عندما يحدث شيء ، ولا تتحدث عن ذنب الناس الذين لايتمسكون بها ٠

ـ ان الحياة أوسع من أي قانون • فالأخـلاق منهج أو فكرة ، وأما الحياة فهي ذلك الذي يحدث في الواقع • وكيف ندخلهـا في المنهج أو الفكرة بدون أن نلحق الضرر بها ؟ ان الخسارة وقعت على الحياة من أجل تحريم الذنب أكثر مما وقعت عليها من أجل الذنب نفسه •

ـ اذن أتريد أن نعيش في الذنب ؟

ـ لا • وحتى هذه النواهي لا تساعد أيضا في شيء • انهـا تخلق المنافقين ومشوهي العقول •

ـ وماذا يجب أن نفعل ؟

ـ لا أدري •

لقد ضحك كما لو كان يسره أنه لا يعرف •

دخلت المرأة وقد حملت أكواب الشراب •

وخفت أن يبدأ حسن حديثه معها ، فهو صريح أكثر ممـا ينبغي ، ومتعجل بحيث لا يستطيع أن يخفي ما يراه ، ولكن لحسن الحظ لم يقل شيئا ، وكان ذلك عجيبا ، كان ينظر اليها بابتسامة تكاد تلمح ، ولم يكن فيها شيء من الحقد ، بل كانت توحي بشيء من الانعطاف مشوب بقليل من المعاتبة ، وكان نظره اليها يماثل نظر الانسـان الى مخلوق حبيب أو الى طفل نجيب •

قلت له بعد خروجها :

ـ انك تنظر اليها كأنك في جانبها

ـ نعم انني في جانبها • ان المرأة ممتعة دائما عندما تكون عاشقة ؛ اذ هي عندئذ أعقل واشد تصميما واحب الى الانسان منهـا في أية لحظة أخرى • واما الرجل العاشق فهو شارد الذهن ، أو غليظ في تصرفاته ، أو عدم المبالاة ، أو رقيق تغلبه دمعته • ولكنني مع ذلك في جانب الشاب والزوج ، في جانب كليهما • ليذهب بهما الشيطان !

كنت أشفق عليه في تلك اللحظة ، وفي الوقت نفسه كنت احقد عليه • ولم يكن هذا الاشفاق وهذا الحقد بدرجة كبيرة • كنت أشفق عليه لأنه قد هدم في نفسه واعيا منهج تفكيره الكامل القديم الذي استطاع به أن يخدم الدين ، وكنت أحقد عليه من أجل حريته غير الواضحة التي كنت أراها خلال ما يشبه الضباب • لم تكن على غرار حريتي ، بل كانت على النقيض منها ، وبرغم ذلك كانت تجعل تنفس الانسـان أكثر سـهولة

ويسرا • وكنت أظن انني هكذا من أجله كنت أسلم له في بعض الأمور . اذ لا استطيع أن أخفي عن نفسي كم كانت تسعدني رؤيته ، وابتسامته الرقيقة السهلة التي تنمو وتتفتح بذاتهـا ، ووجهه الذي ألهبته الرياح والذي تلمع فيه عيناه الرماديتان • ان ابتهاجه الذي كان يشع كهالة من النـور حوله كان يبعث في نفسي الرضـا والسرور ، وربما كان كذلك استخفافه الذي لا يرى الآخرون ازاءه انهم ملزمون بشيء • كان يرتدي ثيابا غير عادية ، سروالا أزرق ، وحذاء أصفر من جلد الماعز ، وقميصا أبيض واسع الكمين ، وعلى راسه قبعة شركسـية ، وكان نظيفا كحجارة المرو ، ذا كتفين عريضين ، وصدر قوي يظهر في أعلاه مثلث حالك السواد يعلن عن قوته خلال فتحة القميص • كان يشـبه قائد الصعاليك عندما يستريح لدى أحد المتسترين ، أو وغدا مسرورا لا يخاف الناس ولا يخشى نفسه ، أو أيلا ، أو شجرة مزدهرة ، أو ريحا تهب كما تشاء • وعبثا كنت احاول أن أراه على خلاف ذلك ، أن أعود به الى البداية • وعلى الرغم من ذلك أراني مبالغا اذا أنا وضعته على النقيض مني •

لقد مر وقت كان فيه كما أنا الآن ، أو ما يشبه ذلك • وقد حدث له مرة اذ ذاك شيء ، جعله يغير على اثره طريق حيـاته ويغير نفسه كذلك • وانني أتخيل الآن الشيخ أحمد نور الدين وقد تغير بدوره كما تغير هو ، يضرب في الارض ، ويغشى الحانات ، ويروض الخيول الوحشية ، ويسب، ويتحدث عن النساء ، وقد اضحكني هذا التخيل الذي لا أجدني أفلح في الوصول الى نهايته ، فالتغير يبـدو مستحيلا ، اذ كان لزاما أن أولد مرة أخرى ، والا أعرف شيئا مما أعرفه الآن • لقـد رغبت أن أسأله ، وربما كان ذلك من أجل ما كان يخالجني من شعور بالتغير في داخلي ، ليس على شاكلة ذلك التغير الذي أتخيله والذي كان يتصف به حسن ، انني أحس في نفسي بالتغير وأخاف منه ، ولا أدري كيف أفاتحه في هذا الأمر الذي يبدو أنه غريب للغاية ، انه لا يرى طريقة تفكيري ولا دوافع تطلعي •

لجأت الى طريقة ملتوية وسألته :

ـ هل أنت راض بعملك ؟

ـ نعم •

ثم ضحك ، ناظرا الى عيني في سرور ، وقال دون مداراة :

ـ أعترف انك لم ترد ان تسأل عن هذا •

ـ أنت تفطن الى أفكار الآخرين كأنك ساحر •

أخذ ينتظر مبتسما ، وقد أبعد عني جميع الاعتبارات بصراحته ومظهره المتهلل الذى يدفع الى الجرأة · لقد انتهزت هذه الفرصة السانحة، والتي كانت فرصة لنفسي ، فهو يعطي الآخرين فرصا على الدوام ، ورحت اقول :

ـ لقد كنت في وقت ما تفكر كما افكر ، او شبيها بما افكر ، بما نفكر نحن الدراويش · وليس من السهل أن يتغير الانسان ، اذ يلزم لذلك ان يرفض كل ما كان عليه ، وكل ما تعلمه ، وكل ما تعوده · وها انت قد تغيرت تغيرا كاملا ، وبدا هذا كما لو كنت قد أخذت تتعلم المشى من جديد ، وتنطق بالكلمات الأولى ، وتكتسب المبادىء الأساسية · فلابد اذن أن يكون هناك سبب هام للغاية ·

نظر الى لحظة باهتمام غريب ، كأنني قد عدت به الى الماضى أو الى فترة من فترات العذاب المنسية ، ولكن أمارات الاهتمام المتوتر سرعان ما خفت حدتها · لقد قال في هدوء مؤكدا :

ـ نعم ، تغيرت · كنت أعتقد ما تعتقده انت ، وكما تعتقده أو ربما أشد · واذ ذاك قال لى « طالب افندى » فى ازمير : « عندما ترى رجلا شابا يريد أن يرقى الى السماء امسكه من احدى رجليه وعد به الى الارض » · وهكذا عاد بى الى الارض ـ وعاتبني قائلا ـ لقد قدر لك أن تعيش هنا فعش اذن ! وعش في أجمل وضع تستطيع ، على الا يكون فى ذلك مايجعلك تحس بالخجل · واقبل في سرور أن يسألك الله : لماذا لم تفعل هذا ؟ من أن يسألك : لم فعلت هذا ؟

ـ وماذا أنت الآن ؟

ـ متشرد في طرق واسعة التقى فيها بالناس الأخيار والأشرار ، وهم يحملون الهموم والشدائد كما نحمل نحن هنا ، ويشعرون بالسرور من أجل سعادة صغيرة كما هو شأن الناس فى كل مكان ·

ـ كيف يكون الحال اذا ما ذهب الناس جميعا فى طريقك ؟

ـ ربما كانوا في وضع اسعد ·

وبدا كأنه يغلق دائرة الحديث ·

ـ والآن ، انت لا تهتم بشيء · هل هذا كل ما حصلت عليه ؟

ـ لم احصل حتى على هذا ·

هانا أجلس واتحدث معه ، وكان اهتمامي يقل واقبالي يفتر كلما تقدم الحديث ، كنت انتظر الكثير من اعترافه ولكنني لم أحصل على شيء • انه فريد في تصرفاته • انه رجل على جانب من الغرابة ، أو لعله رجل عاقل يخفي دوافع أموره وأسباب سلوكه ، أو ربما كان رجلا تعسا يدافع عن نفسه بالعناد او التعنت ، ولذا لا بد أن يكون هذا الانسان اما على درجة كبيرة من الضعف أو مثلها من القوة ، ولكنني لست متصفا بواحدة منهما • ان العالم يقيدنا بقيود صلبة ، فكيف يمكن كسرها والتخلص منها ؟ ولماذا ؟ وعلى أي وضع يمكن العيش دون ايمان •• دون ذلك الذي التصق بالانسان كما يلتصق به جلده •• دون ذلك الذي تمثل في ذاتك؟ كيف يمكن أن تعيش بدون ذاتك ؟

واذ ذاك تذكرت أخي ، تذكرت الى أين اردت الذهاب • كما تذكرت أنني لا اجرؤ أن أبقى وحيدا دون سند أو معين •

ـ لقد حضرت لاقدم شكري على الهدية •

ـ وددت لو جئت دون ما سبب ، حتى لا يكون حديثنا في موضوع معين ، ولا من أجل أمر من الأمور •

ـ منذ زمن طويل لم يثر شعوري كما أثير في الليلة الماضية • فالصالحون من الناس بمثابة الحظ السعيد في هذه الدنيا •

لقد كانت هذه هي المجاملة التي لا تفرض شيئا على ذلك الذي يقول ولا ذلك الذي يسمع • غير أني تذكرت الليلة الماضية ، وكان يخيل الى ان ما قلته هو رأيي حقا ، وان ذلك الذي قلته كان قليلا • كنت أحس برغبة في أن اقول أكثر ، كي ارضي احدى حاجاتي التي كانت تنمو في داخلي ، كي أملأ نفسي بالرقة والحنان • ودون جدوى كان حسن يحاول خلال ضحكه أن يوقفني ، وما كان هذا بممكن اذ ذاك • انه كان لي بمثابة المرساة للسفينة ، وكنت في حاجة اليه في تلك اللحظة بالذات ، ولا بد أن يكون محبوبا الى عندئذ ، وافضل الناس بالنسبة الى في ذلك الحين • قلت انني سأفعل غدا وربما اليوم كل ما في وسعي من أجل أخي • واعتقد أنني على صواب ، وسأطلب العدل في كل جهة يمكنني الوصول اليها • ربما لن يكون الأمر سهلا كما أظن ، وربما صادفتني بعض اصعاب (وقد بدأت أشعر بها : ففي الصباح لم يرد المسلم ان يسمح لي بالدخول، وقد قالوا لي في غضب انه ليس موجودا بالرغم من انه دخل المبنى أمامي)، وربما سأكون وحيدا ومهددا ، وهأنا من أجل ذلك حضرت اليوم الى حسن، اذ انني أشعر انه قريب الى ، وقد اردت ـ دون أن اطلب منه شيئا سوى كلمة انسانية ـ ان أكاشفه بانني جئت من اجل موضوع يخصني •

كان ما قلته هو الحق ، حتى غير معهود نبع من داخلي وجرني الى هنا ، وان كنت لم أصرح به لنفسي الا أمامه حين كنت أتحدث معه . كنت - وكأنني سأندفع الى طريق الهلاك .. الى معركة خطيرة - انظر الى الصديق الذي بقي لي ، والذي لاح من المصيبة كي لاتكون بالغة الذروة . وعلى الرغم من عدم استطاعته أن يساعدني بشيء ، وعدم احتياج الأمر الى مساعدته ، فقد كانت احدى مخاوفي المجهولة تدفعني الى الاحتفاظ به . وربما عندئذ فحسب ، وامام ذلك الرجل المتزن الذي كان يستمع الى في هدوء منجذبا بما يحمل صوتي من جدية وبما لدي من ضـــيق خفي استطاع أن يلمحه خلال الضباب ، قد خطر ببالي في صـــورة كاملة ذلك الفراغ الذي كنت احسه في الصباح أمام مبنى المسلم عندما كان الحراس يلفقون الأكاذيب . لقد كنت مهانا ، ولكن لم تكن لدي قوة كي أحس بهذه المهانة . كما فزعت لمعرفتي أنهم جمعوا بيني وبين أخي في حكم لا رجعة فيه . كان لزاما علي أن أنقذ نفسي بانقاذه . ولكنني لم استطع أن أخفي عن نفسي ما أحاطني من موجة باردة . كنت أعرف أن هذا الباب ليس هو الباب الوحيد الذي يجب أن اقرعه ، وليس هـــذا الرجل هو الرجل الوحيد الذي يجب أن يستمع الى مطلبي ، اذ يوجد هناك آخرون ، افضل واقوى من هذا الظالم الذي أسكرته السلطة ، ولكنني بالرغم من ذلك أصبت بالذعر واستولى علي الضعف فجأة كما يستولي على الساري بالليل ضل الطريق . وكان هذا هو السبب الذي جعلني في لحظة الثقة وطلب المساندة أشده الى نفسي بأواصر الصـــداقة وروابط الحب ؛ وقد فوجئت بما كان من نفسي وبهذا الاحتياج الذي شعرت به حديثا والذي بدا غير معقول بدرجة ما كان له من القوة . لقد نجحت ، وتوصلت بأحسن ما يمكن من الطرق ، وكان يقودني مكر تولد من ضعفي الصادق ، ورغبة عارمة في ارضاء نوع من الظمأ شديد ، كان يوجد دون شك منذ زمن في حالة اخفاء واختناق . وكنت أختزن في ذاكرتي لوقت طويل فيما بعد تلك اللحظة وذلك التأثر الشديد الذي كان قد استولى علي .

لقد أثرت شعوره . فقد كانت عيناه الرماديتان تحدقان في كما لو كانتا تحاولان التعرف علي . وكانتا تنتزعانني من فراغ أمامهما لا تبدو فيه الشخوص ، وتكونان لي الملامح ، وتشكلان لي الصورة . كانت أمارات سروره المشوب بقليل من السخرية المألوفة قد تحـــولت الى علائم توحي بتوتر مضطرب ، ولكنه عندما بدأ يتحدث عاد ذلك الرجل الهادىء المتزن الذي يسيطر على مشاعره ويراقبها لكيلا تتضح أكثر ما يجب ، كما هو الحال عند أولئك الآخرين الذين لا يراعون ما يبدر منهم عند حماسهم .

ان حماســه جذوة تسـتمر حرارتها فترة أطول ، وليس لهبا يندلع من احتراق الكلمات الحارة · وهذه الفكرة عنه كانت بالنسبة لى جديدة · انني ما زلت حتى اليوم وحتى اللحظة السابقة اراه سطحيا وفارغا ، وان كنت دون شـــك قد رايته في جانب ما من نفسي على خلاف ذلك ، والا لما جئت عنده بالذات حينما كنت محتاجا الى كلمة انسانية · ان ذلك كان دفاعا عنه يصدر من عاطفة الحب الجديد التى ألمت بى ، ومن حماسي الذى علقته به ، مشفقا أن أبقى وحيدا فى هذا المعترك · وعلى كل فالأمر سواء، ليكن هو سطحيا ، وليكن ساذجا ، وليستغل عقله النادر الوجود كيفما يشاء ، ولكنه رجل صالح ويعرف الطريق لمصادقة الناس · أنا لااعرفه ، وهو سيكشفه لى · ربما كان ذلك كله صلاة أمام خوف كبير ، وربما كان طلسما لمواجهة القوى الشريرة ، وربما كان سحرا قبيل الذهاب الى رحلة العذاب ·

ولكننا لا نعرف على الاطـــلاق ماذا نثير فى رجل آخر بكلمة نقولها تحمل بالنسبة لنا معنى معينا وترضي رغباتنا فقط · لقد حركت فىنفسه كما يبدو رغبته التى كان يبالغ فى اخفائها كى يتدخل فى حياة الآخرين· وبدا كمـا لو كان ينتظر فى لهفة أن أغمره بفيض صداقتى كي يمد يده ويقدم المســـاعدة · لقد استيقظت رغبته ، ولم تعد الكلمات له اذ ذاك كافية ·

قال في استعداد :

ـ كم أنا سعيد بما لديك من ثقة بى · ســـوف أساعدك على قدر استطاعتى ·

لقد استيقظ كل شيء في نفسه دفعة واحدة ، واستعد فور استيقاظه لأمر ، لفعل ، لمخاطرة · وكان يجب ايقافه ·

ـ لا أطلب المساعدة · واظنها ليست ضرورية ·

ـ ان المساعدة لا غنى عنها على الاطـلاق · وانت الآن اشد احتياجا اليها منك في وقت آخر · يجب علينا أن ننقذه فى اقصر وقت ممكن ، وأن نبعده عن هذا المكان ·

ثم نهض متوترا واندفع الى ، وكانت عينـاه تتقدان غضبا · ماذا أيقظت فى نفسه ؟

لم أكن أنتظر هذا الاستعداد ولا هذه السرعة فى التقرير ، سوف اظل أتعرف على الناس حتى نهاية حياتى ولن أعرفهم على حقيقتهم أبدا ، وسوف يذهلوننى بدوافع تصرفاتهم غير الواضحة • لقد فاجأتنى وأخافتنى تلك السرعة ، ولذا اخذت افكر لحظة خشية ان أكون منجرا الى ارتكاب عمل قبيح • ورفضت دون ان أبدى سببا حقيقيا ، ودون أن أعرفه على التمام•

ـ اذن سيبقى مذنبا •

ـ انه سيبقى على قيد الحياة ! المهم انقاذ الرجل •

ـ اننى انقذ شيئا أسمى : العدالة

ـ ستهلكون جميعا ، أنت وهو والعدالة •

ـ اذا كان هذا مقدرا أن يكون ، فتلك اذن ارادة الله •

من الممكن أن تكون هذه الكلمات الهادئة التى صدرت منى حزينة ، مرة ، ضعيفة ؛ ولكنها دون شك كانت صادقة • لم يبق لى شىء آخر • ولا أدرى لماذا كانت كلماتى مثيرة الى هذه الدرجة كما لو كانت وحلا ألقيت به فى وجهه • ربما كان ذلك لأننى أوقفت اندفاعه ، ومنعته ان يكون كريما • لقد اشتعلت النار فى مكان ما داخل نفسه ، وكانت على خلاف تلك التى ظهرت منذ قليل ، كانت اشد مباشرة وأكثر قربا ، وكانت عيناه تلتهبان التهاب الجذوة المتلألئة ، وفى خديه كان يتصاعد احمرار شديد ، وقد أمسك يده اليمنى بيسراه كأنه يمنعها من ان تهوى على شىء • وقلما رأيت مثل تلك القوة المثيرة ومثل هذا الغضب • كنت أتوقع أن يحدث شىء ، انفجار ، او سباب • ياللعجب ! انه لم يصح ، وكم وددت لو أنه صاح • كان يتحدث بصوت خافت وفى هدوء عجيب ، ضاغطا على أحباله الصوتية • وفجأة أصبح متوترا الى درجة تغيرت معها ملامح وجهه• ولأول مرة سمعته يتحدث بشىء من الغليان ، بطريقة تماثل طريقة تفكيره الغاضب ، دونما تخفيف أو تلطيف لكلماته الثقيلة ، وما يسوقه من التجريح •

كنت أسمعه فى ذهول يقول :

ـ أيها الدرويش المسكين ! أيمكن أن يقلع الدراويش ولو للحظة عن التفكير بطريقتهم ؟ حدوث الاشياء بالقضاء والقدر ، القدر بارادة الله ، انقاذ العدالة والعالم ! كيف لا تختنق انفسكم من تلك الكلمات الكبيرة ! ألا يمكن أن يحدث شىء بارادة الانسان ايضا ، ودون ان يكون كما تزعمون

من أجل انقاذ العالم ؟ أترك العالم فى هدوء اذا كنت تعرف الله ، فالعالم سيكون أسعد بدون حملكم أعباءه • أفعل شيئا من أجل الرجل الذى تعرف اسمه ولقبه ، والذى تصادف كونه أخا لك ، لكيلا يهلك باسم العدالة التى تدافع عنها دون أن يكون مذنبا أو مدينا • لو كان موت أخيك ضمانا لفردوس الغد بالنسبة للآخرين فليمت ولا بأس بأن يموت ، فسوف يكفر بموته عن كثير من ذنوبهم • ولكن ذلك لن يكون ، فكل شىء سيبقى كما كان •

ـ اذن هذه ارادة الله •

ـ ألديك كلمة أخرى أكثر قربا لعالم الانسان ؟

ـ لا ، ولا أحتاج اليها •

اقترب من النافذة ، وأخذ ينظر الى مابدا له من السماء فوق القصبة وفوق الجبال التى كانت تحيطها ، كما لو كان يطلب اجابة أو طمأنينة فى ذلك الفضاء الصافى ، ثم أخذ يصيح بشخص فى فناء البيت ، سائلا اياه هل ركب النعل للحصان ، ومصدرا اليه أمره بأن ينطلق الى الموسيقيين ويسرع باحضارهم •

كان من الصعب أن أدرك حقيقته ، وكانت محاولاتى دون جدوى • كنت كلما رأيت جانبا منه فاجأنى جانب آخر مجهول ، وما كنت أدرى أيهما الحقيقى الذى يمثله •

وعندما استدار كان هدوؤه قد عاد اليه للمرة الثانية ، ولكن ابتسامته لم تكن صافية كما كانت من قبل •

قال لى وهو يحاول أن يبدو فرحا :

ـ لا تؤاخذنى ، كنت خشنا وتصرفت بحمق • ان هذه الطريقة هى طريقة تجار الماشية • حسن أننى ما بدأت فى صب الشتائم •

ـ الأمر سواء • فذلك لم يعد مهما الآن •

ـ وربما لم يكن لى حق • ولعل طريقتك أنفع • فمن الأفضل أن يمسك الانسان بالمقاييس السماوية من أن يمسك بالمقاييس العادية ، الأرضية•• ان الفشل لا يزعجك ، فأنت دائما تحسب بالزمن اللانهائى ، وتجد المبررات فى أسباب خارجة عن محيط نفسك • والخسارة الشخصية تصبح لديك أقل أهمية • والألم أيضا • والرجل كذلك • وحتى هذا اليوم

الذى نعيشه الآن • كل هذا يأخذ في الاستمرار ، متضخما غير متميز ، وقد بدا عليه التراخي ولم يعد يحفل بشيء سوى نفسه ، مثله مثل البحر: لا يمكنه ان يحزن على الضحايا الذين لا حصر لهم والذين يبتلعهم على الدوام •

لزمت الصمت • فماذا كنت استطيع أن اقول ؟ ان تلك الكلمات المثيرة كانت تكشف عن قلق وحيرة لا يمكن للانسان ان يجد لها نهاية • لماذا اختلف معه أو اتفق اذا كان هو نفسه لا يعرف على أى شيء قد استقر؟ انه يشك ليس الا • وانا لا أشك • انني أعتقد حقا أن ارادة الله هي القانون الأعلى ، وأن الآخرة ميزان أعمالنا ، وأن الدين أهم من الانسان• نعم ان البحر موجود منذ القدم والى الأبد ، ولا يمكن ان تضطرب أمواجه من أجل ضحية صغيرة في جوفه • لقد قال ذلك في مرارة ، قاله وهو لا يؤمن به قاصدا معنى آخر • واما انا فبي رغبة ان ارتقى الى تلك الفكرة ، ولو كان ذلك على حساب سعادتي •

لم ارد ان أوضح له — حيث لم يكن في استطاعته أن يفهم لان تفكيره كان يخالف تفكيرى — أن تخليص أخي بالهرب المدبر أو بالرشوة لا أستطيع أن اقبله لأنى مازلت أومن بالعدالة ؛ ولو اقتنعت أن العدالة غير موجودة في العالم لما بقي لي سوى ان أقتل نفسي ، أو أثور ضد العالم الذى لم يعد بعد عالمي • انني لو أوضحت لقال حسن أيضا ان هذه هي طريقة التفكير عند الدراويش ، وهذا هو التقيد الأعمى بالقانون ، ولذا لن اقول له شيئا، ولكنني لا أدرى كيف يستطيع الانسان أن يعيش على خلاف ذلك •

لعل في الامكان ذلك ؟

كنت أتطلع الى غصن مزهر أسفل النافذة المفتوحة ، وكان يجب على ان أنصرف •

قلت : الربيع •

قلتها كما لو كان لا يعلم • ومن المؤكد ان علمه عنه ليس كعلمي انا ، ولم يكن يخطر ببالى أن تثير كلمتي هذه الدهشة في نفسه ، فقد كانت تبدو كأنها تقطع الحديث والفكر ليس الا •

تذكرت كيف كانت تلك النباتات التي خرجت من باطن الارض تعلن بياضها الشاهق أو خضرتها الزاهية تتعاقب في وفرة وبلا نهاية ، في هذا الصباح الذى كان قد مر بي منذ ساعات طوال ، كانت هناك ظلال عديدة متلألئة تحت الاشجار ، وكانت الارض التي أحياها قدوم الربيع تنشر

رائحتها ، واذ ذاك رايت كم يكون جميلا ورائعا أن أنطلق الى العالم حاملا معي صندوق الزاد الذى يحمله الدراويش فى تنقلاتهم ، مقودا بالشمس الوحيدة التي لا مثيل لها ، وبنهر ما من الانهار ، وبطريق ما من الطرق ، دون ان تكون هناك رغبة مني في شيء سوى أن أراني منطلقا لا يقيدني مكان ، ودون أن يكون هناك ارتباط مني بشيء ، لكي أرى مع كل صباح مكانا جديدا ، واستلقى فى كل ليلة على سرير آخر ، ولكي لا يكون هناك ما يشغلني من واجبات ، أو ينتابني من أحزان ، أو يثيرني من ذكريات ، ولكي أترك لعاطفة الكره حريتها عندما أبتعد وعندما تصبح اذ ذاك عديمة الاهمية ، ولكي أبعد العالم عن نفسي وأنا أمر به • ولكن لا ، لم أكن أرى ذلك ، ولكنني نسبت الى نفسي تلك الرغبة التي أعلنها حسن منذ قليل ، لقد بدت لي جميلة ومنقذة الى حد جعلني أستحوذ عليها واظن للحظة كاملة أنها رغبتي • وقد وصل الامر الى أنني سجلتها فى نفسي بكلماته • كانت تتناسب وحالتي في الصباح ، حيث كنت في مفترق الطرق ، وقد اعتنقتها فيما بعد ، كأنها كانت موجودة ، والحق انها لم تكن كذلك ، وذلك شيء أعرفه على وجه اليقين •

لقد حكيت لحسن أمر لقائي بالصبي بعد الاهانة التى لحقتني من المسلم •

وسالني حسن ضاحكا :

ـ لماذا ناديته ؟

ـ كان يبدو ذكيا •

ـ لقد كنت تعاني الشدة ، كنت تهرب من العذاب ، واردت ان تنسى كيف طردك الحراس أمام مبنى المسلم ، وعندئذ وفي لحظة المعاناة من صعوبة تمر بها استطعت أن تلاحظ الصبيان الأذكياء وأن تفكر فى المدافعين عن الدين لجيل المستقبل • أليس هكذا ؟

ـ واذا كنت أعاني الشدة فهل أتوقف عن أن أكون كما أنا فى حقيقة أمري •

اشاح برأسه ، وما علمت أكان يسخر مني أم يرثي لحالي •

ـ قل انه ليس هكذا ، أرجوك ، قل ان أخاك أهم عندك من كل شيء ، قل انك ستلقي بكل شيء الى الشيطان كي تنقذه • انك تعرف أنه بريء !

ـ سوف أعمل كل ما في وسعي •

ـ ان هذا ليس كافيا • هيا بنا لنعمل أكثر !

ـ هيا نترك هذا الموضوع •

ـ حسن ، كما تحب • كم أود الا تاسف •

لقد كان مصرا • ولا أدري لماذا أراد أن يزج بنفسه في عمل خطير وغير مأمون في انقاذ رجل يكاد لا يعرفه ، كما كان يبدو غريبا اذ كان على النقيض من كل ما أعرفه عنه • ولـكنه لم يكن كاذبا ، فلم يكن يقدم الكلمات فحسب لأنه يعلم تصميمي على عدم القبول : وانما كان في الحقيقة على استعداد للقيام بعمل دون أن يتردد فيه لحظة •

ربما استطاع بعض الناس أن يظن أنني كنت متاثرا باستعداده هذا للقيام بالمساعدة ، وانني استقبلت تضحيته غير العادية بدموع في حلقي • ولكني لم أكن كذلك ، لم أكن كذلك على الاطلاق • لقد اردت في البداية أن يكون اقتراحه كاذبا ، كلمة فارغة لا تلزم بعمل • ولكنني عندما لم افلح في النزول باقتراحه الى تلك الصفة ، اذ كان صدقه ثابتا لا شك فيه ـ احسست بالغضب والاهانة • وكان يبدو لي أن اهتمامه الكبير فيه مجاوزة عن الحد ، فيه مجاوزة عن الحد ويرى تدخلا زائدا ، اذ لم يكن الوضع طبيعيا • كان بموقفه هذا يفوقني حمية ، ويبرز عدم كفاية اهتمامي ، ويقدم تضحيته ليشير الى حبي الصغير ، كما كان يعاتبني ويعاقبني • لقد عذبني هذا الحديث ، ولم أكن أود سوى أن ينتهي ، اذ لم يكن في استطاعتنا أن نتفاهم • لقد اوقعني في حيرة باستنتاجه المفاجيء لما انا فيه حين فرغت من حكاية الصبي ، بكشفه عن ذلك الذي لم يكن يدور في خلدي والذي كان دون شك يعد حقا ، غير ان جميع ما صدر عنه من حديث كان ينبيء في مضمونه عن ثورة • وضعت نفسي بعد وصولي الى استنتاجه في زنزانه ، واصبحت قلعة محصنة تنهال عليها السهام دون جدوى • انه ليس صديقا لي ، أو هو صديق عجيب يقطع جذوري ، ويقوض اساسي • لا يمكن أن تقوم صداقة بين أناس يتناقض تفكيرهم •

تلك المعرفة المرة (وقد كنت في حاجة اليهـا كالهواء والدواء) ساعدتني لكي ارفضه بطريقة اسهل ، وابدأ معه حديثا صعبا كنت أؤجله باستمرار وكنت أفكر فيه على الدوام •

كان باستطاعتي ان ارجوه ، وكان لي الحق في ذلك ، اذ انه صديقي، ولكن تفكيري كان يتجه الى طريق آخر ، وكان يحول بيني وبين أن أقوم

بهـــذا الرجاء ، كما كان باستطاعتي أن أزعم أن هذا الرجاء توصية من الآخرين ولا دخل لى فيها • ولكنني لو فعلت لكان من الصعب أن أرجه اليه بعد ذاك رجائي ، وسيصبح كل شيء في وضع سيء • والأفضل هكذا: انه ليس صديقا لى ، وهذا شيء لا شك فيه ، وسأذكر مطلب الآخرين الذى أتوقع منه فائدة • ولعلني من أجل ذلك لم اظهر غضبي منذ قليل ، لانني لو فعلت لحركته ليقف ضدى ولاضعفت من فرص نجاحي •

قلت له ، وأنا أتاهب للانصراف ، كانني تذكرت على وجه الصدفة انني كنت عند أخته ، انها دعتني (فأردف يقول ، أعرف ، وهكذا أدركت أنه يجب على أن اقول أكثر من ذلك الذى لو اقتصرت عليه لكانت لى من ورائه فائدة) ورجتني ان أقول له ان والده ســوف ينتزع منه حقه في الميراث (وهنا قال : اعرف ذلك أيضا ، وضـــحك) ومن الأفضل نظرا لحديث الناس ان يتنازل بنفسه أمام القاضي ، لتكون الفضيحة عندئذ أقل•

ـ لمن تكون الفضيحة أقل ؟

ـ لا أدرى •

ـ لن اتنازل • وليفعلوا ما يحلو لهم •

ـ ربما يكون هذا هو الأفضل •

حاولت دون جدوى ان اخفى أنني كنت آمل ان يساعدني أنا واخى هذا التوسط في العمل القبيح • وعندما رفض خيل الى أنه خشن وعنيد ، واشهد أنني بذلت جهدا كبيرا كي أؤيده في قراره • لقد كان الأمر عسيرا، كانت الكلمة تلذعني في حلقي كما يلذع السم ، ولكنى لم أستطع ان افعل خلاف ذلك ، اذ لو أنه لاحظ لعبتي لما غفرت ذلك لنفسي • لقد اخطأت منذ البـداية ، عقـدت كل شيء ، وكان يجب على أن أقول مباشرة كما يقـول الرجل للرجل ، وما كان هنـــاك عيب لو أنه رفضني ، ولـكنى الآن قد أفســدت كل شيء • والفرصـــة التى أنتظرها منـــذ زمن أخذت تولى دون رجعة ، وهكذا كنت أقف فاقد القدرة على التصرف •

وعندئذ ، عنـــدما فقدت كل أمل ، وعنـــدما برق بخاطرى أن هذه الزيارة لم تحقق فائدة ولم تصب هدفا ـ تذكر وقال :

ـ اذا تنازلت عن حقى في الميراث أيكون نسيبي القاضي على استعداد لان يقدم العون لأخيك ؟

ـ لا أدرى • لم افكر في ذلك •

ـ هيا بنا فلنحاول هذا ! ليساعدك هو وسأتنازل عن كل شيء • سوف أصيح من فوق المئذنة معلنا تنازلي اذا احتاج الأمر • فالأمر سواء بالنسبة لي • فسوف يتركونني دون شيء بهذا أو بذاك •

ـ انك تستطيع أن ترفع الأمر للقضاء ، اذ أنك الوارث الأول ، ولم ترتكب مايشين العائلة ، فوالدك مريض ومن السهل أن تبرهن على انه يفعل كل شيء تحت تأثير الضغط عليه من أحد الاشخاص •

ـ أعرف ذلك •

كنت أبذل كل ما لدى من جهد لأقول هـــذا ، وللمرة الثانية كنت اضغط على نفسي لأكون شريفا • لقد اردت ان اكون مساويا له ، أردت ذلك حتى يكون لدى فيـــما بعد ، حينما اتذكر رحابة صدره ومروءته ، جواب لنفسي : فعلت ماكنت مضـــطرا أن افعله على حساب ضرري ، لم أخدعه ، فليقرر هو بنفسه كما يشاء • لقد قال :

ـ أعرف ذلك ، ولـــكن فلنتصرف الآن هـــكذا ، ان نسيبي يخشى القضية ، وليس ذلك لبلادته وانما لعدم نزاهته • ولحسن الحظ انه رجل طماع • وربما يكون على استعداد لمساعدتك ، لأنه يهتم بالمـــال أكثر مما يهتم بفعلة كاتب صغير مجهول • فلنعتمد اذن على عيـــوب الناس عندما لا نستطيع أن نتصرف على خلاف ذلك •

ـ انك تقدم أكثر من اللازم • وليس في استطاعتي ان أقدم سوى الشكر •

فضحك ، وقلل على الفور من قدر ما يقدمه حيث قال :

ـ ليس ما اقدمه كثيرا • ومهما يكن الأمر فهو لهما • من ذا الذي يستطيع أن يتردد على المحاكم !

والآن ، كان باستطاعتي أن أحثه على التراجع كيفما أردت ، فمهما فعلت فلن يتراجع ، ولكني لم ارد بعد ان ألعب دورا مع القدر •

قدمت له الشكر ، واخذت اتأهب للذهاب • لقد عاودني الابتهاج والأمل ، فقـــد تغلب على برحابة صدره التي لا حد لها • ولحسن الحظ تنازل عن كل شيء بنفسه ، ولم يطوق عنقي بجميله ، لم يحملني واجب الشكر ، كما لم يعد عدوا لي بعد • (لقـــد استطاع أن يكون كل شيء في تلك الايام الاولى ، ولم يعد بعد شخصا يمكنني تحديد صفته ، كنت أحدد موقفي تجاهه بحسب الأحوال ، شأني في ذلك شأن الشـــخص في حالة

الحب الأول ، لم يهتد بعد الى قرار بشأنه ، ومن الممكن أن يتحول بسهولة الى كره) •

قال فجأة ، وهو يقهقه :

ـ يا للخسارة لكونك درويشا ، لو لم تكن لدعوتك لحفل السمر ، سيحضر عندى الأصدقاء •

واردف فى صراحة ودعابة :

ـ لن اخفى عنك هذا ، فسوف تعرفه بالتأكيد غدا •

ـ الا تحب الطريقة ؟

ـ نعم ، لا أحبها • واعرف انك ستندد بى ، ولكن ، « لكم دينكم ولى دين» • ليس المهم أننا لا نفعل خيرا ، وانما المهم اننا لا نفعل شرا • وهذا ليس شرا •

كان يمزح حتى بالقرآن ، ولكن دون عداوة ، ودون اهانة • لم يكن يحب الطريقة ولا المقدسات ، وكان لا يحفل بامرهما •

وفجأة انقطع صوته الذى يحمـــل طابع السرور ، وتجمعت شفتاه المنفرجتان فى شكل دائرة ، وظهر على وجهه الذى سفعته الرياح صفرة يصعب رؤيتها • نظرت خـلال النـــافذة الى حيث ينظر : « لقد دخلت الدبروفنيكية الرشيقة برفقة زوجها الى فناء المنزل •

ـ هل حضرا من أجل الحفل ؟

ـ ماذا ؟ لا ، لم يحضرا من أجله •

لم يستمر فقدانه السيطرة على نفسه واستيلاء الحـيرة والاضطراب عليه سوى لحظة واحدة • لقد تسمرت عيناه بين اطار النـــافذة ، كما اضطربت يداه • لحظة واحدة وزال كل شىء ، كأنه لم يكن • لقد عادت اليه ابتسامته ، فقد استرد ثباته وصفاءه التام ، وتملكه سرور هادىء من أجل حضـــور الأصدقاء اليه • ولكن نشوته ظلت تلازمه ، بالرغم من أن مظهره كان يعلن عن هدوئه • لقد مكننى من معرفة ذلك أنه لم يعد يرانى بعد ، وأن وجـــودى لم يكن فى حسبانه • لم يكن تصرفه نحـوى منافيا للذوق • لم يتخطانى بنظره ، بل طلب الى أن أمر به مرة أخرى ، وذكرنى أن اذهب الى أخته ، وكان كل شىء يبدو عاديا ، ولكن فكره لم يكن معى : انه أســفل ، فى فناء البيت ، فى جانب المرأة التى تأتى للقائه • ذهبنا للقائهما ، وتم اللقاء عند الباب ، نظرت فى خفاء وسرعة وانا أحييهما الى

وجه المرأة ، ولم أرها في هذا القرب رائعة الجمال ، كان خداها على درجة من النحول والشحوب ، وكان بعينيها آثار لحمى أصابتها أو حزن ألم بها ، غير أن معالم وجهها كانت ترسم صورة من الصعب أن تزول من الذاكرة • وذهبت وأنا أمر بما نشرته خلفها من عطر خفيف ، وابتعدت عنهم وأنا أحمل فكرة تنبيء عن استحالة وجود حل لما بينهما • لذا كان يتحدث باهتمام كبير عن تلك الشابة التي توجد في فناء بيته وعن خادميه!

لو لم يحب لكانت الأمور جميعها أيسر وأبسط ، ولكن اصفرار وجهه السريع لا يخدع • أتعرف هي ؟ أيعرف زوجها ، ذلك الرجل اللاتيني طيب النفس الذي انحنى انحناءة شديدة أمامي وهو يبتسم ابتسامة لطيفة تنبيء عن أن صاحبها لا يعرف الشر ، والذي يؤدي كل شيء على مهل • انه على وجه التأكيد لا يعرف ، كما ان الغيرة لاتنهش قلبه • فهو اذا علم فلن يقتل • أما الزوجة فهي تعرف ، فالنساء يعرفن دائما ، ولو لم يكن لهن دلائل ، انها ستفكر أنه يحبها قبل أن تفكر في عدم حبه اياها • ماذا يدور في داخلهما ، ليس مقولا ، أو متلعثما فيه ، وبينهما الزوج يفصلهما بحضوره ، ويقربهما بعدم شكه ، مستعدا أن يقطع على الدوام صمتهما الخطير بكلامه المرح في غير موضوع معين ؟ اي عنف يكون في رغبة مذاقة أو متعطشة تسيطر على هذين الشابين من الناس ، وأية قوة سحرية تكون تلك التي تتغذى بالاحلام فحسب والتي يمكنها أن تتحول الى هذيان خطير • قد يكون حسن مسحورا وحده من أجل قامتها التي تتسم بالرشاقة والمرونة ، ومن أجل لمعان عينيها الصافيتين اللتين تحملان آثار المرض • أمن أجل هذا انفصل حسن ، الأجل أن يقع هكذا ـ ولاخلاص ـ في أحابيل رغبة عارمة لا يستطيع ارضاءها ولا يمكن أن تزول ؟ انه يفكر فيها وهو منفصل عنها شهورا طويلة ، ويلتقي بها عندما يعود وقد جملتها رغباته التي اختزنها في نفسه خلال سفره الطويل ، فيتشربها بعينيه المتعطشتين لكي يختزنها في ذاكرته ويحملها معه في أسفاره الجديدة • عند أية نقطة سوف تغلق تلك الدائرة التي تتغذى فيها الشهوة ولا تتخلص من بعض الغذاء • لقد نسيني الآن ، وان كان باستطاعته أن يذكرني في بعض الاحيان ؛ أبعدتني هي عن نفسه منذ زمن ، كما أبعدت كل شيء عداها ؛ وانني اذا كنت أكرهها في هذه اللحظة فذلك لان ثوبها المخملي الذي يصل الى قدميها ، وشفتيها الفتيتين اللتين بدتا أكثر امتلاء ، وصوتها الناضج الرخيم ، كانت أهم مني ومن عذابي • لقد أبعدتني الى درجة ينتفي معها وجودي ، هدمت لي سندا لم يكن في حقيقته موجودا ، ولكن كم وددت لو لم يكشف الستر عن الخداع •

ومرة أخرى أصبحت وحيدا ٠

لعل هذا هو الأفضل ، لا تنتظر مساعدة ولا تخشى خيانة ٠ وحيدا٠ سوف افعل كل ما في وسعي دون أمل مني في سند لا وجود له ، واذ ذاك سيكون لي كل ما احققه من عمل ، شرا كان أم خيرا ٠

مررت بجانب المسجد الذى يقوم على ناصية زقاق حسن ، ومررت بجانب المدرسة التي لم تكن ترى من وراء السور ، كما مررت بزقاق القباقيب ، ووصلت الى دكان الجلود ٠ لقد تلاشت رائحة المرأة اللاتينية، وأخذت الصورة التى كونتها عن حسن يخف لونها ، وكنت أواصل خطوى مارا بدكاكين الحرفيين والصناع الذين كانوا يباشرون أعمالهم فى هدوء ، وهنا بدأت حدود همومي الشخصية وحدود طريقي الى المجهول ٠ ولكن لماذا الى المجهول ؟ لم أكن اشك فى نجاحى ، ولم أجرؤ على الشك ، والا لما كانت لي القوة كي أمضي ولو خطوة الى الأمام ٠ وكان يجب على ان أمضي ، فقد كانت المسألة مسألة حياتي ، او لعلها أهم ٠ كنت أتطلع الى الهدوء في تلك اللحظة ، وكنت أسير بجانب تلك الأرائك الخشبية التي تعرض عليها الدكاكين بضائعها او يجلس أصحابها عليها ، مطرق الرأس، منهوك القوى ، تمتلىء خياشيمي برائحة الجلد وقشور الشجر المسمى بالحور الرومي ، وكنت أنظر وقد نال مني التعب الى احجار الطريق المستديرة أمامي والى أقدام المارة ، شاعرا أنني لا أملك ذرة من القوة ، وراغبا أن تحتويني غرفة مغلقة ، وان يستولى على نوم طويل كنوم الموتى، خلف باب موصد ونافذة محكمة ، أن أكون على الحال التي يكون عليها المختنق والمريض ٠ ولكن هذا الضعف وذاك الخوف أمام الشدائد الطارئة، وتلك الرغبة في الاستلقاء والموت ، والتنازل وقبول القدر ، لا تستطيع الآن بحال أن تجعلني اتوقف ٠ ولا يمكن لأى تعب أو ضعف أن يحول بيني وبين القيام بواجبي ٠ كان يدفعني الى السير اصراري القروي الذي تبقى لي ، وفكرتي الواضحة غير المتزعزعة عن ضرورة دفاعي عن نفسي ٠ يجب على أن أمضي ٠ سر الى الأمام ومت بعد ذلك ٠

من أين جاء الخوف وتوقع الشدائد المنذرة ، وخبرتي ليس باستطاعتها أن تحذرني ؟

رفعت عيني عندما سمعت وقع حوافر الخيل في الطريق ، فرأيت حارسين مسلحين يركبان حصانين ويسيران متوازيين ، دون أن ينحرفا لأحد عن الطريق ٠ كان المارون في الزقاق الضيق يندفعون الى الجانبين، ويقفون ملتصقين ظهورهم بالحائط ، لكيلا يصيبهم الحصان بأردافه ، وكيلا

يصطدم بهم الركاب الحاد • كانا يسيران على مهل دون أن ينطقا بكلمة ، وكان الناس يفلحون في اخلاء الطريق لهما ، وينتظرون حتى يمرا بهم • لم يكونا يريدان أن يخدشا أحدا عن قصد ، ولكنهما مع ذلك لم يتنازلا لأحد عن الطريق ، كأنهما لا يكادان يريان أحدا •

ترددت ، هل ادخل في أحد المحلات حتى اسمع لهما بالمرور ، أو اقف مستندا الى الحائط ، كما فعل الآخرون • ساقف مثل الجميع • ساترك لهما أن يمتهنا كرامتي ، فطريق العبور ضيق ، ويكاد لا يتسع لغيرهما ، سيمسانني بركابهما ، وسيمزقان جبتي ، ولن أحول عندئذ بصري اليهما ، فليفعلا ما شاءا ، سوف أكون مثل هذا الجمع ، يسكت وينظر وينتظر ، ماذا ينتظر ، ماذا ينتظر هؤلاء الرجال أمام المحلات عندما كان الحارسان يتجهان نحوي ؟ أليروا كيف يمتهنان كرامتي ، أو ليسمعوا كيف اصيح فيهم ، فمكانتي وملابسي يعطيانني الحق في ذلك • كلا الأمرين كنت أوده اذ ذاك ، وقد خيل الى فجاة ان ما سافعله لم يعد مهما وحاسما ، لقد أوقعوني في الحيرة بانتظارهم ونظرهم ، أهم في جانبي ، اهم ضدي ، أهم غير مبالين ؟ لم أكن اعرف حتى ذلك • ما كنت أجرؤ على الصياح ، فسيسخر الحارسان مني ، وسأبدو مضحكا أمام الناس ، ولن يرثوا لي من أجل تلك الهزيمة • لا ، فليمتهنا كرامتي ، سوف يرى الناس كلهم انني تجنبتهما وسمحت لهما بالمرور ، وأني كنت مثلهم تماما ، ضعيفا ، حتى لقد وددت أن تكون الاهانة بالغة ، أن تكون اشد من تلك الاهانة التي تلحق الآخرين • لقد وقفت ملتصقا بالحائط ، وكدت أحس بظهري عدم استواء لبناته ، مطرق البصر ، غير متوتر من أجل الاهانة التي تنتظرني ، بل اخترت عن قصد أضيق مكان ، وكنت أنتظر حدوث الاهانة بلهفة مريرة • ستنتشر ، وسيرثى الناس لي ، وهنا ابدأ أن أكون ضحية•

ولكن حدث ما لم أكن أتوقعه : تقدم أحدهما بحصانه الى الأمام ، ومرا بي أحدهما وراء الآخر • وليس هذا فحسب بل القيا على التحية • لقد فوجئت في البداية ، فهذا التصرف صادفني على غير استعداد ، ولم يعد هناك حاجة لكل ما بذلت من جهد • لقد بدا كل شيء على صورة مضحكة : شجاعتي الضعيفة ، التصاقي الشديد بالحائط ، استعدادي لقبول الاهانة • اخذت أسير دون أن أرفع بصري ، بين الناس الذين كانوا يقفون في الزقاق ويودعونني صامتين ، مخدوعا فيما ظننت وشاعرا بالخجل • كنت على الحافة لأكون مثل الآخرين ، ولكن الحارسين فصلاني عنهم •

عندما اخترقت الأنظار الممتدة لهـذا الحشد المستغرق في التفكير ، دون أن أجرؤ على النـــظر اليه ، وعندما انحرفت الى الزقاق الآخر الذى لم يكن فيه شهود على فريستى التى اخطاتها ، بدأ توترى يقل ، وأخذت اشعر بأننى تخففت من العبء ، وصرت أرفع بصرى الى الناس ، وأحييهم ردا على تحيتهم ، هادئا ، مطمئنا ، وأخذ يتضح لى شيئا فشيئا انه كان من الخير أن انهى الأمر على هذا النحو • لقد اعترفا بى ، وقدما لى احترامى، تنازلا عن الحاق الظلم بى ، وهذا بالذات هو ما كنت اطلبه ، حتى اننى كنت احدس وانا اســتند الى الحـــائط : اذا مرا بى احدهما وراء الآخر فسوف ينتهى كل شىء على خير ، كل شىء أنوى فعله ، أو ربما لم أكن قد فعلت ذلك ، ربما تصورت ذلك فيما بعد ، عندما حدث ، اذ لو فعلت ذلك قبل لخفت ، وقد غلبنى التشاؤم ، ان أربط النجــاح الذى أنشده بوجود شرط ، بوجود معجزة • وعلى كل فالأمر سواء ، لقد حدثت المعجزة ، وربما لم يكن ما حدث معجزة ، وانما آية وبرهان • كيـف استطعت بالله ان أكون صغير النفس حتى افكر اننى منبوذ ومحروم من الحقوق ؟ لم يكون الأمر هكذا ؟ ومن الذى يسـتفيد ؟ لقد بقيت كما أنا فى حقيقة أمرى ، درويش الطريقة الفاضلة ، شـيخ التكية ، مدافع ذو خبرة وبصيرة عن الدين • كيف أكون منبـوذا ، ولمـاذا ؟ لا ارغب ، ولن اسمح ، لا أستطيع أن أكون اى شىء آخر ، كلهم يعرفون ذلك ، فلماذا يحولون بينى وبين ما اريد ؟ لقد تخيلت كل شىء ، ونسجته فى داخلى دون حاجة الى ذلك ، غير انى لا اعرف من أين جاء هذا الجبن • كم من المرات وقفت فى مواجهة الموت ولم يكن يعترينى الخوف ، والآن أصبح قلبنا حجرا صغيرا ، تجرد من الحياة وتملكته البرودة • ما هـــذا الذى حدث ؟ الى اى شىء تحولت شجاعتنا ؟ الى ارتياع خجل ازاء صوت البومة ، ازاء صوت أقوى ، ازاء ذنب لا وجود له • لا قيمة للحياة اذا عاشها الانســان هكذا • لقد حملت سيفا بين أسنانى وانا اسبح عبر النهر ، كما سرت زاحفا على بطنى بين شجيرات كثيفة ، وانا أتسمع فى لهفة تنفس العـدو ، وقفزت مرات على البنـــدقية دون تردد ، والآن أخاف من حارس قـــذر • آواه ، يالمحزن الشديد ، أن شيئا قد حدث لنا ، شيئا مريعا قد حل بنا ، لقد تضاءلنا وما أحسسنا بذلك • متى فقدنا انفسنا ومتى سمحنا بذلك ؟

ما زال النهر يبـدو ، ضعيفا ، كليلا ، تمتد اليه ألسنة الظلال ، ولكن يجب أن ينتظر فترة ، كى لا يقبـــل على الليل ومازلت مع العذاب والخجل • كنت اعرف الى أين اتجه ، وان لم أكن بعد قـد قررت ما اذا كنت سأقوم بزيارته • كنت أفكر فيه دون وعى ، آملا أن تكون زوجته قد

حكت له حديثنا ، سوف نتظاهر كلانا أننـا لم نهتد الى شيء ، وسوف نحتفظ بسر لم يكن الا على سبيل الايهام سرا ، لن نتـحدث عن حسن ، ولكن علامات الانشراح على وجهي ستكشف كل شيء • وربما كان من الأفضل لو ذهبت اليهـا قبل ، لكي أحمل اليها الخبر عن موافقة حسن ، كأنه هدية ، واذ ذاك سيكون الحديث مع زوجها أخف وأيسر •

لا فائدة ، فالجبن قد استولى علينا ، ونحن نفكر به • انه يتحدث بلساننا ، وحتى عندما نخجل منه • فليذهب عليه اللعنة •

انتهزت لحظة المرارة هذه وقمت بزيارته فورا ، كي لا تكون مؤجلة على الاطلاق •

وكان عجيبا ان يستقبلني « عيني افندى » لحظة وصولي ، كأنه كان ينتظرني ، فلم تتقدمني الاصوات أو المخبرون ، وان كان يحس في الممرات بوجود غير ظاهر لبعض الناس ، وتطلعات خفية لبعض العيون •

استقبلني في ود ، وحياني بتحية لم تكن صاخبة الصوت ولم تكن أيضا تدل على عدم المبالاة ، دون أن يتظاهر بالسرور لمقدمي ، ودون أن تبدو عليه الدهشة من أجله ، فقد بدا متزنا في كل شيء ، كما ارتسمت على وجهه ابتسامة لا تفصح عن شيء معين ، ودون أن يحاول تخويفي أو تشجيعي • ان هذا لشيء شريف ، هكذا كنت ارى ، ولكنني كنت أحس بعدم الارتياح •

اقترب منا قـط جاء من أحد الأماكن ، ونظر الى بعينيه الصفراوين الشريرتين ، ثم اتجه اليه وأخذ يتشممه • ودون أن يحول القاضي بصره علي ، ذلك البصر الذى كان ينسـاب بلطف لينتشر في المكان ، مد يده يلاطف الحيـــوان الصغير الوديع الذى كان ينعطف في تلذذ ومتعة تحت كفه ، حاكا رقبته وجانبيه بركبته ، ثم تسلل الى حجره وعطـف بسرعة ظهره ثم استلقى ، وبدأ يخر ناظرا الى ومضيقا عينيه كأنه يضمر شرا • والآن ينظر الى زوجان من الأعين ، كلاهما كان أصفر اللون يحذر في غير حرارة •

لم أكن اريد ان أفكر في زوجته ، ولكنها كانت تبرز وحدها • من الظلام ، من البعد ، بسببه ، بسبب هذا المتصلب الذى كان على حذر دائما والذى كانت يداه المختفيتان تختنقان دون شك في كميه الطويلين ،والذى بدا وجهه شفافا ، وشفتاه دقيقتين ، ومنكباه لم يمنحا بسطة • انه شاحب

وهش ، ففي عروقه لا تجرى دماء بل مياه ، كيف تبدو الليالى بينهما فى ذلك البيت الكبير الأصم ؟

كان يجلس فى هدوء لا يتصور ، دون أن يشعر بحاجة الى شيء من التحرك (انه سكون أشبه بتصلب الموتى ، او بقوة تحكم الفقير وسيطرته على نفسه) وعلى وجهه لا تزال تلك المعالم التى شاهدتها عندما دخلت ، وتلك الابتسامة التى لا توحى بشيء ، والتى بدت كالصليب على فم دون شفتين . لقد كانت تتعبنى تلك الابتسامة أكثر مما كانت تتعبه .

غير أنه من فترة الى فترة ، ودون أن يكون هناك توقع ، كانت يده تتحرك بطريقة ما وفى شيء من المكر ، لتخرج من كمه كالحية (أما يداها فكانتا مثل طائرين) كما كانت عيناه تنظران الى ما يشبههما تماما ، الى عينى القط . وكانت هذه هى اللحظة الوحيدة التى توحيان فيها بالدعة واللطف .

لا ادرى كم من الوقت مر على هذه الحال ، انقضت فترة الغسق ثم هبط الظلام ، وأخذت العينان الفوسفوريتان فى حجره تلمعان ، وللعجب كانت عيناه كذلك أو كان يخيل الى هكذا ، كان لديه اربع اعين متلألئة ، وجيء له اذ ذاك بالشموع (كما كان الحال فى تلك الليلة التى زرت فيها زوجته ، ولكننى لم آكن بعد افكر فيها ، فما كنت استطيع) واشتد الأمر ، فقد كانت تقلقنى ابتسامته الميتة ، ويخوفنى مظهره الجامد ، وذلك الظلام وراء ظهره متمثلا فى ظله على الحائط ، كما كان يريبنى حفيف هادىء كأن الجرذان تحبو حولنا . وربما كان اشد عذابا من جميع ذلك ما لوحظ من عدم ارتفاع صوته ولو مرة واحدة ، لم تتغير طريقة نطقه ، لم تثر نفسه ، لم يكن الغضب يعتريه ، أو الضحك ينتابه . وكانت الكلمات تتساقط منه فى تأن وفى هدوء ، صفراء ، من عصر الشموع ، جرت بها من قبل السنة الآخرين ، وكنت اجدنى على الدوام فى دهشـــــة ، اذ كيف كان باستطاعته أن يدخلها فى الجمل ويجد لها مكانا صحيحا . لقد بدت كأنها ستتبعثر من داخله ، وستنهال فى غير نظام متضخمة فى ناحية من تجويف فمه . كان يتحدث فى اصرار وصبر كما كان يتحدث فى اطمئنان وثقة، لم يخالجه الشك مرة فى حديثه ، ولم يتوقع أى احتمال آخر ، واذا حدث أن عارضته ـ ونادرا ما يحدث ذلك ـ كانت الدهشة تنتابه حقا ، كأن حاسة السمع قد خدعته ، كأنه قد التقى برجل مجنون ، ثم يستمر فى نظم حمله مما قد وعاه من الكتب ، مضيفا الى قدم عمرها برودة مواته .

اخذت اسائل نفسي في اضطراب لماذا يتحدث ؟ أيظن أنني لا أعرف هذه الجمل المعروفة أو انني نسيتها ؟ اينطق بها مكانه الرفيع ، واجبه العظيم؟ اينطق بها على سبيل التعود او رغبة في الا يقول شـــيئا أو من أجل السخرية ، أو لكونه لا يعرف سوى كلمات محفوظة ؟ ربما كان يبغي أن يعذبني حتى يقودني الى الجنون • وهذا القط قد جاء هنا من أجل يقتلع عيني في النهاية •

ادركت عندئذ أنه قد نسي حقا جميع الكلمات التي تجري على السنة الناس ، وبدا لي ذلك امرا خطيرا : الا يعرف كلمة واحدة تصدر عن نفسه، الا يعرف فكرة واحدة تنبع من داخله ، أن يكون فاقد الاحساس لكل شيء انساني ، أن يتحدث بما لا يدعو الأمر اليه ، بما لا معنى له ، أن يتحدث امامي كانني لست موجودا ، أن يكون محـكوما عليه بالتحدث بما هو محفوظ • وأن يكون محكوما على بأن أستمع الى ذلك الذي اعرفه •

اهو مجنون ؟ أهو ميت ؟ اهو شبح ؟ اهو معذب شديد القسوة ؟ لم أصدق نفسي في البداية ، اذ بدا مستحيلا الا يدفعه الرجل الحي الماثل أمامه والسجين في القلعة الى قول كلمة واحدة حقيقية في امرهما ، مجالها هذه اللحظة • لقد حاولت أن أجذبه الى حديث انساني ليقول شيئا ما عن نفسه ، عني ، عن أخي ، ولكن لم تجد محاولتي ، فما كان يتحدث بشيء سوى القرآن • يا الله ، ومع ذلك فقد كان في هذا حديث عن نفسه وعني وعن اخي •

واذ ذاك اندفعت اغوص في بحار القرآن ، انه قرآني بقدر ما هو قرآنه ، اعرفه كما يعرفه ، وبدأت معركة الكلمات التي يرجع ظهورها الى اكثر من ألف سنة ، والتي حلت محل كلماتنا ، كلماتنا الحالية ، والتي سيقت من أجل أخي المسجون • كنا أشبه بصنبورين من صنابير القرى، تهدم ما حولهما ، فأخذ الماء المختزن يندفع من بعض الفجوات وينساب هنا وهناك •

عندما ذكرت له سبب حضوري ، أجاب بالآية القرآنية :

ـ « لاتجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم او ابناءهم او اخوانهم او عشيرتهم » •

صحت قائلا :

ـ ماذا فعل ؟ هل لأحد ان يقول لي ماذا فعل ؟

ـ « يأيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء ان تبدلكم تسؤكم »

ـ سابقى مدينا لك حتى أغيب فى القبر · جئت كى يقال لى فى صراحة · اننى كما ترى فى هم ويأس ·

ـ « ··· بما كنتم تستكبرون فى الأرض ·· وبما كنتم تفسقون »

ـ عمن تتحدث ؟ لا أستطيع أن أعتقد انك تتحدث عن أخى · ان الله يقول ذلك عن الكافرين · وأما أخى فهو مؤمن ·

ـ « فويل للذين كفروا »

ـ لقد سمعت انه سجن بسبب بعض الكلمات ·

ـ « ما يكون من نجوى ثلاثة الا هو رابعهم » « انما النجــوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا » ·

ـ إننى أعرف أخى جيدا · ليس باستطاعته أن يفعل شرا !

ـ « فلا تكونن ظهيرا للكافرين » ·

ـ بالله انه أخى !

ـ « قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وازواجكم وعشيرتكم·· أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره »

ـ « يأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن ان بعض الظن اثم »

هذا ما اوردته ·

لقد رددت عليه بالسلاح نفسه ، بالقرآن ، اذ لم أستطع بعد أن اظل بكلماتى العادية ، فقد كان فى الوضع الأول اقوى منى · كانت أدلتـــه الهية وكانت أدلتى انسانية · لم نكن متساوين · انه كان مرتفعا فوق الاشياء وهو يتحدث بالكلمات الآلهية ، وأنا كنت أحاول أن أضع همى الصغير فى ميزان العدالة الانسانية العادية · لقد اضطرنى أن اتجه بأمرى الى المقاييس الخالدة ، لكى لا ابخس قيمة هذا الأمر · لم أحس آنذاك اننى قد فقدت أخى حين اتجهت بأمره الى هذه المقاييس ·

وعلى هذا الوضع ، أخذ هو يدافع عن المبادىء ، وأخذت أنا أدافع عن نفسى ، لقد كان هادئا وواثقا فى نفسه ، اما أنا فقد كنت مضطربا

وكنت أكون مشتعلا • وسار الحديث كما كان ، غير انه كان مختلفا تمام الاختلاف •

قال : « فما بكت عليهم السـماء والأرض » وطاف بذهني : ويل للانسان اذا كان ميزانه السماء والأرض ، ثم قال : « انا من المجرمين منتقمون » واضاف : « ياذا القرنين ان ياجوج ومأجوج مفسـدون فى الأرض » •

وقلت انا : « ياذا القرنين ان ياجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض » و : « انا من المجرمين منتقمون » و : « فماذا بعد الحق الا الضلال » و : « ليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم » ؟ وأيضا : « ان الانسان لظلوم كفار » « بل الظالمون فى ضلال مبين » •

وهنا استولى عليه الصمت لحظة ، ثم قال فى هدوء وهو يضحك :

ـ ويل لك ، ويل لك ، ثم ويل لك !

فأجبته دون وعى :

ـ « حسبنا الله » •

ونظر اذ ذاك أحدنا الى الآخر ، أنا المهلهل بكل ما قيل ، ذاكرا أمر نسيان أخى ، وملقيا اللعنة على نفسى ؛ وهو المطمئن يدلل ذيل القط البفيض الذى كان ينعطف وراء ظهره • كان يجب على أن انصرف • يالحظى السعيد لو لم اكن قد حضرت ، لو لم أكن قد عرفت شـيئا ، اننى لم أساعد فى شىء ، وقد قلت ما لا يجب قوله • اذ القرآن يصبح خطيرا اذا حاولت أن تجعل علاقة بين كلمة الله عن المذنبين وبين من يقوم بتعيينهم • فآلاف المرات تندم لذلك الذى تقوله ، ونادرا ما تندم لذلك الذى سكت عنه ، كنت اعرف هذه الحكمة عندما لا تكون لى حاجة اليها • كان من الافضل لو ظللت استمع فقط ، وقلت ذلك الذى كان أفضل من كل شىء ، والذى سهوت عنه ، واننى على ثقة من أنه شىء هام • لقد كان ليلة الأمس وهذا هو ما كان يهمه ويهمنى ، وأما زوجته فقد قالت انها تخفى عنـه الأمر • برق فى ذهنى : لقد خنت صديقا من أجل هذا الأمر •

وحكيت له بايجاز ، متغلبا على الخجل الذى كان يعترى وجهى ، كيف نجحت فى حث حسن ليتنازل عن حقه فى الميراث • لم أقل شيئا أكثر ، وانما قلت هذا وحسب • ولم آت بعلاقة ما تربط بين هذا وبين نفسى وزيارتى هذه واخى • ولكنه سيجد بنفسه العلاقة ، يجب ان يفعل

ذلك ، ولن يستطيع أن يجيب بالقرآن • لقد كان في ذلك التغيير المفاجيء للحديث حقد أسود ورغبة شامتة في أن أدنسه بشراهته وطمعه •

وضللت مرة ثانية • لم يظهر عليه شيء يدل على أنه فهمني ، لم يفجأ ، ولم أر في وجهه غضبا أو فرحا ، ولكنه وجد في الكتاب الكريم جوابا لهذه المناسبة :

ـ « ضعف الطالب والمطلوب » •

كان من الممكن أن يشير هذا الى كل شيء • قطع الحديث ، أو الغضب والسخرية • كما كان من الممكن ألا يشير الى شيء •

عبثا حاولت ، لقد كان أقوى مني • انه يشبه الموتى ، ولكنه ليس ميتا : ان المبدأ ينور منطلقا من داخله •

تلألأت عينا القطة في حجره وتحت كفه ، وما كنت أجرؤ لأنظر الى عينيه ، اذ انهما تنفذان الى في برودة بلمعانهما الفسفوري •

اطرقت ببصري وسكت ، وقد لحقني الخوف بسبب شجاعتي التي لم تكن في محلها ، وبسبب رفضه المتعالي •

لقد قال لي في لطف :

ـ مر بي ثانية ، فنحن لا نلتقي كثيرا •



« ولا تحزنوا وابشروا بالجنة التى كنتم توعدون »

انصرفت في الليل ، وكنت احس أننى اسير على قدمين خشبيتين ، كما كنت احس ان قشعريرة باردة تجرى فى عروقى ، وان التعب والندم والغضب والفزع كل أولئك قد استولى على ، لقد تجمع فى داخلى الجنون والضعف وتحول الى رواسب يختنق فيها الضمير • لقد ودعنى فى أدب ولطف سائرا معى حتى الممر ، وكانت الشموع تهتز فى أيدى الخادمين (كيف كانا يعرفان أننى خارج ؟) ، سـوف تسلب الشموع بصرى باهتزازها فى الممر الطويل الذى سيطر عليه الظلام ، دعانى أن أجىء ثانية حيثما اريد • ربما كان لايزال ينتظر ان أعود ، وربما كان ينبغى لى أن أعود ، لكى ابين اننى ما قصدت ان اسىء اليه بشىء ، اننى فى عذاب ، اننى فى حيرة واضطراب ، ولذا ينبغى أن ينسى كل ما قلتـه • وربما كان يجب أن أعود ، لكى اقتله ، لكى اطبق على عنقه واخنقه • ولن تذهب حتى فى هذه اللحظة تلك الابتسامة التى ترتسم على شـفتيه الشاحبتين ، ولن يخفت كذلك ضوء الفسفور الذى يشع من عينيـه الصفراوين •

كنت اضغط باحدى راحتى على الأخرى ، لكى أزيل عرقهما ، فقد خيل الى أنهما تحملان رطوبة جلده ، وكنت أعرضهمـا مفتوحتين أمام نفسى لكى يتلاشى اللمس المتخيل ، فقد كنت أحاول التخلص منه •

واصلت السير فترة طويلة على شاطىء النهر ، وكنت التقى بقليل من المارة ، فالناس يأوون الى بيوتهم مبكرين ، ولا يبقى فى الليل سوى الخفراء والسكارى والتعساء •

كل شيء كان يدفعني الى التكية كي أغلق بابها الضخم وابقى وحدى. كانت الرغبة في ذلك قوية ، وكانت أشبه ما يكون بتلك الغريزة التى تدفعنا الى الهرب عندما يحدق بنا الخطر ، ولكنى لم أسمح لنفسى بهـذا الضعف ، كنت ارفضه ، ضاغطا بالظلم على نفسي ، اذ كنت أعرف أن هذا التراجع المرغوب فيه لن يكون اشد خطرا فى وقت كما يكون الآن ، سوف يصغرنى ، وينقص قيمتى ، ولن يكون لى بعد حق لاحترام نفسى ، لن أكون مستعدا لكى أفعل على الاطلاق شيئا ، سـوف أتلقى مطرق الرأس كل ماينهال على من ضربات ، سوف أكون مسكينا ، وسوف أصبح لا شيء . لن اجرؤ على التراجع . لقد تحديتهم ويجب أن اقف ثابت القـدم . ولو تراجعت الآن لأجهزت على نفسى .

كنت اخطو على الشاطيء الساكن ، وقد أمتعنى صوت جريان الماء فى النهر الصغير ، وكنت آمل ان تهدأ نفسى ، لأن الطبيعة وحياتها القوية تهدءان من ثورة الانسان وانفعاله ، وربما كان ذلك من أجل عدم مبالاتهما به . ولكن النهر لم يساعدنى فيما كنت آمله ، فقد كان صوت مجراى يعلو صوت مجراه .

لم أكن أحرص على الالتقاء بالمتشرد اسحاق ، فلقد ازددت نضوجا منذ تلك اللحظة التى استولت على فيها رغبة غير واضحة فى أن أسمعه بالمسجد . لم يعد اليوم يهمنى رايه ونصيحته . ان له هدفا ، وهو يتقبل الشدائد كما يتقبل المطر ، كما يتقبل السحب المكفهرة . واما أنا فلا أفكر فى الشدائد الخاصة . لقد عرفت ان كل شيء يتعلق بى فى انتظار الفصل الآن . كل شيء ـ وذلك أمر غير محدد بالتمام ولكنه حقيقى للغاية . ان هذا هو الضياع والوقوف فى مفترق الطرق ، انه الخروج عن طريق الحياة ، وليس للانسان طريق آخر سواه ، انه الشـعور بالفزع غير المسمى ، وذلك من أجل الفراغ والاتساع الأصم الذى يمكن أن ينبعث حولك .

وربما أتيح لشخص بعيد مجهول أن يقرأ هذه المذكرات الغريبـة الخاصة بى ، ولذا اخشى الا يستطيع أن يفهم كل شيء فيها ، اذ يبـدو دون شك أنه يوجد للدراويش طريقهم الخاص فى التفكير عن أنفسهم وعن العالم الذى يرى فيه كل ما يخصنا متعلقا بالآخرين . لا يمكن أن يكون هناك أحد منزوع السلاح مسلوب اللب مهلك النفس كما نكون نحن معشر الدراويش ، عندما يفصلوننا عن المجتمع . ونحن انفسـنا نكاد لا نتبين ذلك الا بعد حدوثه .

لقد أوقفني الخفير عند الجسر الخشبي القائم عند منعطف النهر ٠ كان يقف في ظل شجرة ، مختبئا ، وهمس لي طالبا أن اختفي ، وقال : حتى يذهبوا ٠ فقد كان بعض الشبان يقومون بالقاء الأحجار على المصباح الذي تركه الخفير بجانب الطريق ٠

عندما انكسر زجاج المصباح وانطفأ النور الأصفر ذهب الشبان في غير عجلة ٠ كان الخفير ينظر خلفهم في هدوء ، ووضح لي ان ذلك أصبح عادة لدى الشبان لكي يتلفوا شيئا ما في كل ليلة ٠ وأما الخفير فيختفي ليحمي رأسه ، وغدا سيدفع الأهالي قيمة ما أتلف ، اذ ليس من الحق أن يدفعها هو من جيبه ٠ ولم أسأله عن سبب عدم اخباره عنهم ، اذ كيف يخبر عنهم وهو لا يعرفهم ؟ هناك ليل ، وظلام ، وبعد ، ومن الممكن أن يكتسب الانسان اثما لنفسه ، وعندما قلت لو انني في مكانه لما رحمتهم، أجاب ولما رحمهم هو أيضا لو كان في مكاني ٠ وأما هكذا ، فهو لا يرى ولا يسمع ، وماذا يبقى له بعد ذلك اذ انه كالبرعم : اذا نفخت فلن تجده أمامك ٠ الله يعلم لمن ينتسب هؤلاء الشبان ، فكلهم قد نالوا حظا من الطعام والشراب ، وبالغوا في الملبس والأناقة ، لم يحسوا بوطأة البرد ، ولم يشعروا بثقل المسئولية ، يظلون في تسكعهم حتى الفجر ٠ يذهبون ويجيئون من أجل النساء ، من أجل الكوارث ، لتغفر لي وظيفتي ، والخفير يواصل هربه منهم طول الليل ، يختفي لكي لا يتم لقاء بينه وبينهم ،وعندما لا يستطيع الهرب يقول لهم : اذهبوا قليلا الى منطقة أخرى ، ويردون قائلين : لن نذهب ، فيقول عندئذ : لا تذهبوا ٠ ويردون بقولهم : انك مجنون ؛ ويقول : اعرف ذلك وكل يوم يزداد جنوني ؛ فيرد الشبان : أتريد أن نلقى بك في النهر ، فيجيبهم بقوله : لا ٠ وهكذا يجرى الحديث فيما بينهم ، والخفير يفكر كيف يبتعد عنهم ٠ ويرى أن عملا كهذا العمل يتيح للانسان أن يرى ويسمع أشياء كثيرة ٠ فالليل قد خلق من أجل هذا الذي يعمل في الخفاء ، والخفير يتعرف سائرا حتى الفجر على ذلك الذي لا يرغب أن يعرفه وذلك الذي لا يهمه ٠ وربما كان يهم عديدا من الناس ، غير أنه لا يود أن يتحدث في ذلك ، وخاصة عندما لا تكون هناك فائدة : لماذا يضيع الانسان شيئا من الوقت سدى ؟ وأما ذلك الذي يعرفه فهو ليس بحاجة اليه ، لا يستطيع أن يتناوله طعاما او شرابا ، وفي امكان البعض أن يستخدمه في شيء ، وان كان ذلك بالنسبة له على شيء من الغرابة : انه يعرف ولا يهمه ، والآخر يهمه ولا يعرف ٠ انه ـ أي الخفير ـ يهمه ذلك في حالة واحدة ،عندما يستطيع أن يهب علمه هذا ، عندما

يستطيع أن يقدمه الى ذلك الذى في الامكان أن يستفيد منه ، وكل ذلك من أجل المودة والصداقة ، وبالقدر الذى لا يجعله يعود الى أولاده فارغ الكفين • غير انه يقول هكذا فقط : الصداقة ، وعلى الرغم مما يزعم من توفر الصداقة لديه فليس ذلك بصحيح ، ففى الليل لا يراها ، وفى النهار ينام فلا يعرفها • ولكنه بذلك الذى يعرفه لم يحقق لنفسه السعادة فقد بدأ ينظر الى زوجته نظرات التشكك ، خشية أن يكون بنيتهـــا شر تدبره له • انه كان فيما يتعلق بأمر الزوجة يبالغ ويظلم نفسه ، فهى مستعدة أن تنزع من أجله عينا ، تنزع من أجله عينها اذا كان هو فى حاجة الى ذلك ، كما كان يقول على سبيل المثال •

كنت أسمع هذه الثرثرة الحمقاء الماكرة ، هذه المشاكسة الصريحة لجاسوس بالنسبة للجميع ، مستعد أن يبيع أسرار الآخرين ، تلك التى لا تهمنى ، ولم أكن أتعجل الانصراف ، بل أردت أن أقف فترة طويلة ، مقصرا الوقت بالنسبة لى وبالنسبة له ، كان هو يود أن يحكى ، وكنت أنا أود أن أستمع ايا كانت حكاياته ، أخذ يتحدث وأخذت أتابع فى اهتمام كيف كان يحاول اخفاء فكرته ثم يقوم بكشفها على التمام ، حريصا على الاستمرار فى مكره ودهائه •

لقد أصبح عندئذ عجيبا غريبا • انه كبير السن ، يبلغ من العمر خمسين عاما على الأقل ، وكبار السن ينتابهم الملل عادة أو يستولى عليهم الخوف من الانفراد • دعانى أن أصحبه فى جولة بالشوارع ، اذ أننى دون شك لم أرالقصبة قط فى أغوار الليل ، والانسان الحى ينبغى أن يرى كل شىء ، وبخاصة تلك الفترة الجميلة قبيل الفجر ، عندما يبدأ خروج أرغفة الخبز الطازجة من المخابز • ويمكننا أن نذهب الى زقاق حسن اذا كنت تريد ، انه يسمر وينتشى ، فقد جاء بالموسيقيين ، وسنقف نحن فى جانب ما ، وسنستمع ، وليس هذا بذنب ، وبامكانه ادخال البهجة فى نفوس الجميع ، حتى الدراويش • لقد انتابه الحزن عندما لم أوافقه • وردد : كما تحب •• كما تريد ، انها رغبتك ، وياللخسارة حيث لا تريد• لقد عجبت لتلك الدعوة ، فقد كانت تبدو مزاحا خشنا ، أو رغبـــة من رغبات الصبية • والآن سوف ينتظر شخصا آخر •

قال يودعنى :

ـ حسن ، فلتصحبك السلامة •

أكان يخاف من شىء ؟

تركته واقفا تحت سقف أحد الأبواب ، وقد أخفته الظـــلال ٠ اخذت أفكر فى غرابة العالم ، وأنا أسير خلال الأزقة الخالية ٠ كل شيء يتغير عندما يرخى الظلام سدوله ٠ ليس هناك أوقات محددة للذنوب ، ولكن وقتها الطبيعى هو الليل (والآن ينام الاطفال الصـــغار العقلاء ، والاطفال الكبار البلهاء ، وهؤلاء الذين تمكنوا من اتمـــام شرورهم خلال النهار) وعلى الدوام عندما يتحقق البعد عن الأنكار ٠

ها هو ما حققناه ، لقد طوحنا بالذنب الى منطقة الخفاء ، وجعلناه بذلك اقوى ٠

اننى أمر بمدينة هادئة ، لا يسمع فيها سوى صوت بعيد يخرج من المزمار ، واحيانا تطوف بها اشباح الآدميين ، مضطربة كارواح معينة ، ومارة بى فى بعض الأحايين ، كما تنطلق أصـــوات الكلاب من بعض الدروب ٠ كان ضوء القمر رصاصى اللون اذ ذاك ، ولو هاجمـك الموت وصحت مستغيثا لما انفتح من اجلك باب من الأبواب ٠ وكنت أتوقف بصعوبة فى هذه الساعة التى تمر بى ، فكل شيء فى نفسى يدفعنى نحو ذلك الذى كان أو سيكون ٠ ولكن كان من العسير أن أفلح فى تخطى حدود هذه الليلة ٠ غير اننى كنت احس بها على البعد ، كما لو كنت أنظر من الجبل العالى الى بقعة حزينة من الأرض ، فأنا خارج عنها ولكننى فى نطاقها ، منفصل عنها ولكننى محاط بها ٠ كل شيء فى عالمى هذا يبدو لى صغيرا ، العديد من المواليد الذين يولدون الآن ، العديد من الموتى، الكثير من علاقات الحب ، الكثير من اعمال الشر ٠ فى عالمى هذا ، اذ لايوجد العالم الآخر ٠ فحوله ظلال وأضواء قمرية جوفاء ، وحولنا قطرات الزمن تتساقط فى هدوء ٠ وفى نفسى كانت لا مبالاة عديمة القـدرة ، وسكون خمدت فيه الحياة ٠ لم يعد نور الرؤية فى داخلى ، كما هو الحال لدى غير المؤمنين ٠ أى ذنب يكون هذا الذنب المجهول الذى من أجله تعـــذبنى يا ربى ؟ اننى أدعوك فاقبل دعائى ٠

صلاة وسلاما على اسحاق الذى ليس موجودا فى هذه الليلة ٠

صلاة وسلاما على أحمد نور الدين وعلى اخيه هارون اللذين يطلب احدهما الآخر فى هذه الليلة ٠

صلاة وسلاما على جميع المفقودين فى هذا الســكون الكبير بين السماء والأرض ٠

كان لزاما على ان أبقى مع الخفير ، كى لا آكون مع نفسى ومع ضعفى، كى اقاوم أو أقبل ٠

كنت أشعر بالفراغ ، وأحس بوطأة الخمول ٠ ولكننى أحسست بالسرور يعاودنى عندما اقتربت من التكية ٠ لم أعد أشعر بذلك الفراغ وأحس بتلك الوطأة من الخمول ، فقد كان خيرا أن يحس الانسان بالفرح او الحزن من أجل أى من الأمور ٠ وعندما لاحظت تباشير الفرح وبوادر السرور (وكنت أمعن النظر داخل نفسى متتبعا كل ما يحدث فيها كما يمعن الفلاح النظر الى السماء ، الى السحب ، والرياح ، ليرى كيف يكون الطقس) احسست أننى اصلب مما كنت ، من اجل علامات الصحو التى تظهر من خلال السحب ٠ ان هذه العلامات موجودة وان كنا لا نراها أو نحس بها ، أنها موجودة وان كنا نشك فى وجودها ٠

وعندما بدات الخطو فى زقاقى الضيق الذى احتوانى احتواء ذوى القرابة ، برز شخص ما من ظلال سور التكية ، وظهر فى ضوء القمر رأسه فحسب ، كما لو كان يسبح واطل بوجهه فوق صفحة الماء ، كما لو كان قد ترك جسمه فى مكان آخر ٠ حيانى ، محاولا ان يكون لطيفا من أجل خوفى الذى كان عليه أن يتوقعه ٠ وقال :

ـ لقد ظللت فى الخارج طويلا ٠ اننى انتظرك منذ فترة طويلة ٠

لزمت الصمت ، فلم اكن أعرف ماذا ينبغى أن اقول او اسأل ٠ كان وجهه يبدو معروفا لى ، وان كنت لا أتذكر أننى رايته على الاطلاق ، معروفا لى بطريقة ما خاصة ، كما يحدث أن نكون قد لاحظنا بعض العلائم المميزة ، بعض تعابير الوجه ، بعض الصفات التى لمحناها فى مكان ما ، فى لحظة ما ، فى شخص ما ، ثم نسيناها لانها لم تكن مهمة ٠

نظرت الى التكية ، وقد بدت فى ضوء القمر هادئة هدوء الموتى ، وعندما أدرت وجهى تجاه الرجل كنت قد نسيت مظهره ، ادرت وجهى اليه مرة ثانية محاولا الآن ان أحفظ وجهه ، ولكن دون جدوى ٠ كان يضيع من ذاكرتى عندما لا أنظر اليه ، وياللعجب كانت شخصيته عديمة الوجود ٠

لقد لاحظ تكرار التفاتى اليه ، فاسرع يقول :

ـ أرسلنى الأصدقاء ٠

ـ أى أصدقاء ؟

ـ أصدقاء • لقد ظننت أنك لن تعود هذه الليلة ، وفي التكية لم يستطيعوا أن يخبروني بأمر عودتك • لقـــد ظللت في مكان ما فترة طويلة •

ـ كنت أجول في الشوارع •

ـ وحدك ؟

ـ نعم كنت وحدي حتى الآن • وكنت راضيا •

ضحك في ادب ولطف وقال :

ـ افهم ، كيف لا !

كان وجهه مسطحا كراحتين يفصلهما الأنف ، وكان فمه منبسطا في ابتسامة صافية ، وكانت عيناه تحدقان الى في اهتمام ، كما لو كان سعيدا للغاية بالتقائنا ، وكان يسره كل ما يصدر مني من قول او فعل • كان من الممكن أن يكون مظهره لطيفا او طيبا لو لم يكن الليل ولو لم نكن وحدنا • انني لا أخشى هذا الرجل ، ولا يوجد ثمة خوف في داخلي ، حتى عن امكان ظلمه واعتدائه ، غير ان احساسا غريبا كان ينتابني ، فقـــد أخذت اشعر بضيق ما حولي ، واصبحت قليل الصبر •

ـ حسنا يا صديقي ، قل ما تريد ، أو اتركني لأذهب •

ـ كنت تجول في الأزقة وتضيع الوقت ، والآن أصبحت على الفور هكذا متعجلا ! حاولت أن أمر ، ولكنه وقف أمامي ، وقال :

ـ انتظر • ها هو ما أردت •

كان يبدو مضطربا ، كما لو كان يبحث عن كلمات مناسبة ، أو كان يشعر بعدم الارتيـــاح لأنه أوقفني ، غير انه لم يكن مترددا في أمر ايقافي •

ـ انك تصعب مهمتي • والآن لا اعرف كيف ابدأ •

ـ لقد انتظرت طويلا ، وكان في استطاعتك أن تعد نفسك •

ضحك في سرور وقال :

ـ لك الحق • لم يعد الأمر سهلا معك • وهأنا ابدأ • وربما يكون من الأفضل أن ندخل التكية •

ـ لا بأس ، تفضل ·

ـ الأمر سواء ، يمكننا أيضا ان نظل هنا · فالمطلب قصير · ممن تظن هذا المطلب ؟

ـ لا أحد يبعث الى بمطالب ، فالأصـــــدقاء يقولون لى بانفسهم ما يريدون · وأما أنت فلعلك تسخر منى او ترغب فى اغضابى ·

ـ اتظنني جئت من أجل ذلك ! حقا انكم معشر العلماء مضحكون · وماذا اذا كنت أمزح ؟ اليس في استطاعتنا أن نتحدث كما يتحدث الرجال! لا بأس ، المهم أن الأصدقاء ينصحونك بالتبصر قليلا فيما تفعل ·

ـ لابد أنك أخطأت ، وأنك لا تعرف دون شك مع من تتحدث ·

ـ انني لم اخطىء ، وأعرف مع من أتحدث · لتكن على بصيرة · انك تتقدم أكثر من اللازم ، وقد يكون فى ذلك خطورة · بالنسبة اليك فيما اظن · لماذا تضع الذنب على عاتقك وخاصة عندما لا يتعرض اليك احـد · لم يحمل الرجل المصيبة وليست له مصيبة ! ألست معى فى هذا ؟

اذن ، فهذا هو التهديد ، وضع للاهانة عن قصد فى فم هذا الشرطى الساذج ، الذى كان يتخذنى الى جانب ذلك مسلاة لنفسه وهو يقدم الى نصيحته · والآن اصبحت بالنسبة اليه شيئا يجذب اهتمامه ، كوحش نادر وقع الشباك أمامه ، وربما كان يحبني قليلا : فلعلني أحقق له بعض السرور ·

قلت مهدئا غضبى ، حيث لم أرد اظهاره امام هذا الرجل :

ـ حسنا ، قل لأصدقائك ···

ـ وأصدقائك ·

ـ قل لأولئك الأصدقاء اننى أشكرهم لنصيحتهم ، وان كان فى استطاعتهم أن يأتوا ويقولوا لى ذلك بأنفسهم · وأما بالنسبة لجميع ما افعله فسوف أكون مسئولا عنه أمام الله وأمام ضميرى · أوعيت ذلك ؟

ـ كيف لا ! غير أننى اظن ان من الممكن أن تكون مسئولا امام احد آخر كذلك · ان مسئوليتك أمام الله سهلة ، تحتمل الغفران · ومسئوليتك أمام ضميرك امر أكثر سهولة : فستأتى بمئات المبررات · ولكن عندما

تجد نفسك مكبلا بالأغلال هناك في القلعة ، فسيكون الأمر ، والله ، أصعب واشد • وبخاصة عندما تعرف أنك واقع تحت سلطان الادانة •

ـ ليس من الممكن ان تلحقني أية اهانة •

ـ ليس الأمر هكذا كما تدعي • من ذا الذي لا تلحقه الادانة • قل لي صراحة • واليك هذا ، أياتي اليك حسن تاجر الماشية في التكية ؟ ياتي • أتتحدثان في أمور مختلفة ؟ تتحدثان • فماذا اذن •••

ـ كيف لا تخجل من هذا !

ـ ليس هناك ما يجعلني أخجل ، يا أفندي ، ثم أخبرني الم يختف الهارب في حديقة التكية ؟ بلى قد اختفى • الم يهرب ؟ بلى لقد هرب • ومن الذي ساعده على الهرب ؟

ـ لقد ناديت الحراس •

ـ انك ناديتهم متأخرا • وأما عن الادانات الأخرى فخير الا أتحدث عنها • وسيادتك تقول : ليس من الممكن أن تلحقني ادانة ! ومع ذلك هل سألك أحد بشأن هذه الأمور ؟ لم يسألك • ولذا أقول لك أترك البلايا• وأما اذا لم ترد فهذا شأنك • أليس كذلك ؟ ما علي الا ان اقول •

ـ هل هذا هو كل شيء ؟

ـ وماذا تريد اكثر من هذا بالنسبة للرجل العاقل يعد بالغ الكثرة • ولكن اذا احتاج الأمر فستجد هناك أشياء أخرى ، وكن مطمئنا• فكلهم هكذا يسألون في البداية : هل هذا هو كل شيء ؟ وبعد ذلك لا يسألون • انني أحب الرجال الشجعان ، ولكن اين هم ؟ في كل بضع سنوات قد نلتقي بواحد أشجع من الآخرين • واحد بين هذا العدد الكبير لتبصق على العالم ! هكذا الامر يسير ، فلا تقل : لم أكن أعرف فهانت الآن تعرف •

كان ينظر الي بذلك الاهتمام الذي كان يبدو منه في البداية • غير أنه الآن قد انتهى من عمله ، وأراد أن يرى ما حققه ، هل استطاع أن يضرم في نفسي الخوف •

لقد اثارني ، ولكنني لم اشعر بالخوف • فقد تغلب علي الغضب من أجل تصرفه السيء وايذائه • حتى لقد ظهر لدي العناد ، لكي استمر ، متولدا من الفكرة التي طرأت علي في هذه اللحظة ، والتي أبرزت لي كيف

أرادوا أن يوقفوني عن السير ومواصلة ذلك الذى أفعله بالحق • ان ذلك يعنى أنهم غير مطمئنين ، وأنهم خائفون : اذ لو لم يكن الأمر هكذا ، ففيم يحذرونني ؟ لقد كان بامكانهم أن يفعلوا ما يريدون ، دون أن يهتموا بذلك الذى أفعله أو اقوله • ان ذلك قد قوى ما بداخلي من ثقة أحملها منذ زمن ، وهى أنني أمثل شيئا هنا ، في هذه المدينة ، في طريقة الدراويش ، وانني لم امر بالعالم دون ان ألفت الأنظار أو أثير الانتباه، وانني لست ضئيل الشأن قليل الأهمية • انهم ليسوا من البلاهة الى تلك الدرجة ، فهم يعرفون ان خسارتهم تكون في مهاجمتى ، اذ بذلك يكشفون امام الناس أنهم لا يحترمون احدا حتى أشرف الناس واخلصهم ، وذلك ما لا يريدونه وما لا يستطيعون تعليله •

كنت أفكر ، متجهـا الى التكية وشاعرا بتلك الثقة الزائدة ، على هذا النحو ؛ رأيت ان الخير كل الخير فى ارسالهم هذا الرجل : لقد اكتشفوا انهم خائفون ، وباهانتهم حثوا عزيمتى • غير انى كنت أعرف أن نفسى لن تسمح باعطائهم وقتا طويلا ليعملوا ضدى ، وانما يجب على أن اذهب الى ذلك الذى يمكنه أن يفصل في كل شيء • لو لم يكن الليل لذهبت اليه في هذه اللحظة • لقد سرتنى هذه العزيمة ، وذلك حتى لا أنتظر وحتى لا أترك نفسى نهبا لحزن فارغ وأمل ضعيف ، بل أفعل كل ما فى استطاعتى أن افعله ، اذ لا استطيع ان اسمح لنفسى أن أجول بالأزقة كما يجول النائم سلبت منه الارادة ، أو كما يجول الكسيح امتدت يداه لتناول الصدقات • فليس الانسان بذلك الذى يظنه ، وانما بذلك الذى يفعله •

ولكن عندما أغلقت هذا الباب البلوطى الثقيل وأحكمت رتاجه ، وعندما وجدت نفسى فى طمأنينة حديقـة التكية ، وعلى العكس من كل التوقعات ، وعلى النقيض من منطق الأمور ، اذ كان كل شيء هنا يحميني ـ استولى على ضجر اليم ، انتابنى دفعة واحدة دون أن تكون هناك لحظة انتقال ، كما لو كنت قد تركت ، فى أثناء فتح الباب واغلاقه ووضع رتاجه وتأكدى من استقراره في موضعه على التمام ، فكرة كانت تذكى حماسى • انها لم تعد باقية بعـد ، اندفعت الى الليل كما يندفع الطير البرى ، وظهر اذ ذاك على الفور اضطراب اشبه بالخوف ، لا ادرى مبعثه، ولم أجرؤ أن أفسد أسبابه • وربما كنت أخاف من تلك الاسباب بالذات ولذا كنت أتركها فى الظلام ، دون تعرض لها بشيء من الايضاح ، ولكنى كنت أعى أمر وجودها • لقد لفحتنى الفكرة كما تلفحنى الحرارة ، ضربتنى

واظن انها تأتي فجأة كما تأتي الصدمة القاتلة ، كبريق أليم ، اذهلتني كما تذهل الرعود التي تصم الآذان : انهم أخذوا يحيطون بي ٠

لم أتذكر عندئذ ولا بعد وقت طويل أن فكرة الانسان موج غير آمن، ترتفع بالانسان أو تهدىء عواطف خوفه أو رغبته ٠

لقد عرفت شيئا وحيدا ، وعرفته للمرة الثانية ، اذ كنت قد نسيته عرفت أن الهاجس النفسي هو المخبر عن المصيبة ٠

ولكنه حتى هذه اللحظة كان واضحا لي انني لا استطيع بحال أن الجأ الى الاستسلام ٠ فغدا ؛ في الصباح الباكر ، سأقيم سدا محكما أمام ذلك السيل المنهمر الذي أسمع هديره ٠

لن استسلم ٠

فلتجف يداي ، وليخرس لساني ، ولتقفر نفسي ، اذا لم افعل ذلك الذي يجب على الانسان فعله ٠

وليقدر الله ما يريد ٠

اديت في الصباح ما علي من فروض ، وربما كان ذلك بحيوية أشد من تلك التي أؤدي بها الفروض عادة ، جاعلا حماسي يمتد الى تلك الحركات والكلمات المعروفة ، متذكرا قلقي في الليلة الماضية ، ومفكرا في أهمية ما ينتظرني من عمل ، كما لو كنت أمام معركة فاصلة ، ولم أكن أشك لحظة واحدة في ضرورة ذهابي ٠ رغم علمي أن الانسان قد يصاب في المعركة بجراح وقد يسقط قتيلا ، ولذا كانت صلاتي أحر مما كانت في أي وقت مضى ، غير أن الرجوع أصبح متعذرا ، ومن أجل ذلك لم يكن هناك حاجة لما صدر مني من يمين وقسم أقطع به التردد الذي اعتراني ليلة الأمس ٠ ها قد تذكرت ، ان كل شيء بدا الآن كما كان يبدو قبيل المعركة آنذاك ٠ لقد استحممت عندما وصلت ، وكان يخيل الى أن المياه ستعيد الى هدوئي ، واستحممت كذلك في الصباح ٠ وكان قميصي نظيفا ، ولكنني ارتديت آخر تم غسله حديثا وبدا شديد البياض ، تماما كما حدث من قبل ٠ غير انني ذهبت الى تلك المعركة مع الآخرين ، ذهبت في صف أصلب من الحجر ، بسيف عار في يد عارية ، بسرور حار في عيني ٠ والآن اذهب وحدي ، أيها الزمن النائي الحبيب ، في جبة سوداء تلتف حول قدمي ، وبيدين فارغتين أصابهما الوهن ، وبوجل ينتابني ويسيطر على نفسي ٠

ولكن يجب الذهاب ٠

مررت في طريقي بحسن ٠ لم يكن لدى كثير من الوقت بسبب تلك اللهفة التي استولت على ، ولكنني مررت به ٠ اذ لو لم اره لما استطعت أن اذهب ، ولبدا لى اننى أغفلت شيئا على جانب كبير من الأهمية ٠ على الرغم من أننى لم آكن أدرى لماذا كنت في حاجة الى ذلك : انه لم يستطع أن يساعدنى ، كما لم يستطع أن يقدم الى النصيحة ٠ لعلنى فعلت ذلك لأنه اقرب الناس الى ، وان لم آكن أراه قريبا من نفسى ٠ لقد خيل الى أن مرورى به كان من أجل التفاؤل من أجل التخلص من السحر : فمن الممكن ان ياتي صفاؤه بالخير ٠

لم يكن في البيت ٠ فقد ظللت اقرع الباب فترة طويلة بتلك الحلقة التي علقت فيه ، كنت اظن أنه مستغرق في النوم ، وعندما توقفت عن القرع فتحت لى الباب تلك المرأة الصغيرة ، مخفية وجهها للمرة الثـــانية ، ومصففة بيدها شعرها ، وكانت تبدو مضطربة الى درجة غريبة ٠ لقد أوضحت لى ، متعجلة ومتعثرة في كلامها ، أن حسن ليس في البيت ، لقد خرج في الليلة الماضية ولم يعد بعد ، وزوجها يبحث عنه ، والآن همـــا ينتظرانهما ٠ هما الاثنان ينتظرانهما ، في منزل مغلق ، وحالة مضطربة ، وشعور بالرضى عن مصيبة الآخرين التى اتت بالسعادة اليهما ٠

لقد ذكرت للحافظ محمد المكان الذى ساقصده ؛ حتى أسمع رأيه٠ ولو قال اى شيء لما غيرت قرارى ، ولكنى رغبت أن يشجعنى ، لقد كان يرعى شعورى كما لو كنت انا المريض وليس هو ٠ قال ينبغى أن تذهب ، ومن المؤسف أنك لم تذهب من قبل ، ان من واجبنا أن نمد يد المساعدة حتى للغريب الذى يطرق بابنا فكيف بالأخ الشـــقيق ٠ لا تخف فانت لا تفعل شيئا يعد شرا ٠ هكذا قال ، وقد صدر ذلك عنه في صـــدق وانفعال ٠ ولكنه لم يشجعنى تشجيعا كبيرا ، لأننى كنت انتظر هذا ، وكان هو يعرف أننى أنتظره ٠ ان الرجل الصالح دائما يقول ذلك ، وهذا لا يعد رأيا ، بل عزاء فارغا ٠

لا يوجد حسن : هكذا على الدوام لا تعثر على من تبحث عنه ٠

شـــممت وأنا أمر بطريقى امام المخبز رائحـــة الخبز الســـاخن ، وتذكرت أننى لم أطعم شيئا منذ الأمس ٠ كان الخفير يتحدث عن الخبز ليلة الأمس ٠ يجب على أن أبحث عن هذا الخفير اليوم ٠ كيف لم افطن الى أنه يريد أن يقول لى شيئا ؟ ليس عن هذا الرجل الذى كان ينتظرنى

بتحذيره ووعيده فحسب • كيف وقد كاد يستخدم القوة رغبة منه فى أن يبقينى معه لكى اسأله • وأما انا فقد كنت اصم كما كنت أعمى •

وعندئذ حملت نفسى على التفكير فى زوجة القاضى ، سوف أذهب للمرة الثانية الى هذا البيت الصامت ؛ وفى حسن ، ماذا فعل ليلة الأمس والى أين ذهب ؛ وفى والدى ، سوف أخبره فورا بعد أن يحل كل شىء ؛ وفى الليلة الماضية ، تلك التى اتصفت بالطول والأرق ، وفى عديد من الأمور الصغيرة ، لم يقم احد بتشذيب شجيرات الزهور فى حديقة التكية ، ولسوف تحيطها الأشواك،ومن أولاد مصطفى حيث كثر جلوسهم امام التكية ، فزوجته تطردهم من البيت ، لكى لا يعوقوها عن العمل ، ومصطفى يتمتم ويخرج لهم الطعام ، سوف يضحك منا الناس ، فقد بدأوا ينادونهم بأولادالدراويش ، وليس لى قلب يطاوعنى ان أمنع حدوث ذلك ، وفى اشياء أخرى كثيرة تتعلق بأمور يعلمها الله ، وذلك لكى أحول بينى وبين التفكير فى الحديث الذى سيدور بينى وبين المفتى • وليس ذلك لأننى لا اعرف ماذا سأقول ، وانما من أجل ذلك الذى لن يكون بعده شىء • ان الآمال العديدة تظل تراودنا حتى اللحظة التى يصدر فيها الحكم ، وبعدها ليس هناك من شىء سوى ما أتى به الحكم • فاذا كان الحكم خيرا فلا حاجة الى الآمال ، واذا كان على خلاف ذلك فلا قيمة للتفكير

ان بيت المفتى يقع على الجبل ، منفردا ، داخل حديقة يحيط بها سور مرتفع • لم أكن قد دخلت هذا البيت من قبل ، ولن أدخله الآن فيما يبدو •

قال لى الحارس أمام الباب ان المفتى ليس موجودا ، لقد ذهب خارج القصبة •

- متى سيعود ؟
- لا أدرى •
- الى أين ذهب ؟
- لا أدرى •
- من يدرى ؟
- لا أدرى •

ها قد اصبح عبثا كل ما كان يتملكنى من الخوف • ان الامل يمتد ولكنه يأخذ فى الضعف ، وربما عن قريب لن أكون فى حاجة اليه •

لم أكن اعرف ماذا افعل • فلو ذهبت من هنـا لكان من الصعب الوصول اليه ، ولو تم ذلك لكان متأخرا • الى أين ذهب ؟ الى أى بيت من بيوته ؟ الى أية ضيعةمن ضياعه ؟ « أوجسكو » ؟ « أوجليشيتشا » ؟ « جور » ؟ « تيهوفيتشا » ؟ الى السهل ؟ الى البحيرة ؟ الى النهر ؟ فكثيرا ما كان يهرب من كل شيء ، من الحر ، من البرد ، من الضـــباب ، من الرطوبة ، من الناس •

أين هو الآن ؟ لا أحد غيرهم هنا يستطيع ان يقول لى •

شكوت الى الحارس قائلا :

ـ لا ادرى ماذا أفعل • لقد أوصى المفتى بحضورى ، فلنا معا حديث هام • يجب على أن أجده •

رفع الحاجب كتفيه ، يكرر بهذه الحركة تلك الكلمة الوحيدة التى كان يعرفها ولكنى ما كنت استطيع بحال ان انصرف •

ـ لا بد أن يكون هناك فى البيت من يعلم •

واذ ذاك فتح الباب وظهر رجل نحيف ، جندى سابق ، كما يبدو من خدوش وجهه وأجزاء ثيابه التى كان لا يزال يحتفظ بها على جسمه وقد عز عليه دون شك أن يلقى بها بأكملها ، واخذ ينظر الى فى حـدة وغضب • اننى الى اللحظة التى استطيع فيها ان أبرىء نفسى اعد مذنبا فى نظره •

قلت له أيضا ذلك الذى قلته للحارس •

وخيل الى بما بدا على وجهه من علائم الريبة أنه يشك فى صدق كلماتى • لقد جرحنى هذا الارتياب ، ولكننى احسست برغبة قوية فى أن يكون قد داخله الشك حقا • لقد ورطت نفسى بالكذب ، وكنت مجبورا على هذا التصرف ، ولكن اذا عرف المفتى ، ولا بد أنه سيعرف ،فسوف أكون مضطرا أن أطلب العفو لا أن أطلب العدالة •

قلت متراجعا عن اصرارى :

ـ لا شيء •

لاحظتعندئذ أن وجه الجندى الصارمتتغير ملامحه ، تنبسط أساريره تنبعث منها ابتسامة ، لماذا ؟

واذ ذاك عرفته انا كذلك • كنا نحارب معا فى وقت واحد ، غير انه كان فى المعركة قبلى وظل فيها بعدى •

لقد فرح كل منا بالآخر •

واخذ يقول فى سرور :

ـ لقد تغيرت ، من ذا الذى يعرفك فى ثياب الدراويش هذه ! ولكن هاانا قد عرفتك !

ـ وأما أنت فكما كنت • كبرت قليلا ، ونحفت كذلك ، ولكنك لا تزال كما كنت •

ـ لست هكذا بالتمام كما تقول • لقد مر على ذلك عشرون سنة • ادخل •

وعندما اغلق الباب وراءنا بدا اكثر شكا من ذى قبل •

ـ اطلبك المفتى ؟

ـ يجب أن اتحدث معه • وهذا الحارس لم يشأ أن يذكر لى الى اين ذهب •

بدا للعين خلال الحديقة ابيضاض طريق نظيف ، سوى بحجارة جلبت من النهر الصغير ، وحدد بسياج من شجر البقس (١) وازهار « البيسرك » ذات الوريقات الخضراء الفضة • لقد بعثر أحدهم بمهارة فائقة فى هذه الحديقة أشجار الفاكهة وأشجار البتولا وأشجار العرعر وشجيرات الزهور البرية، جاعلا فى بعض الجهات لكل شجرة مساحة خاصة ، وضاما بعضها فى جهات أخرى على شكل مجموعات ، مبدعا هكذا اللعبة التى تشبه الطبيعة ، والطبيعة التى تشبه اللعبة • ان هذا الجمال المزهر المورق فى ذلك الاتساع الضخم يحدث فينا من التأثير ما تحدثه المعجزة ، ربما كان ذلك من أجل ما يدور بفكرى من أن هذا كله قد خلق ، لكى تطأ قدمه الحشائش المتلألئة الخضراء ، ولكى تستريح

---

(١) شجر يشبه الآس •

نظرته عندما تلقى على القمم الناضرة لهذه الاشجار • حقا ان هذا الجمال يبدو اسرافا وترفا •

خفض الجندى صوته • وخفضت أنا كذلك • واصبحنا نكاد نهمس فى هذه الغابة النظيفة المشذبة التى جردت من وحشيتها وأبقيت لهـــا نضارتها ، فى هذا المتسع الهادىء الذى حال دون مرور العواصف به ما ضرب حوله من سور •

أخذ الجندى ينظر عبر هذا الطريق تجاه بيت أبيض قد توارى بين الأشجار • وأرسلت بصرى الى حيث ينظر • كان يتعاقب على أعيننا الباهر والاخضر ، الحاد والهادىء ،من أثر انعكاس الشمس على النوافذ ، ومن أثر ما تحدثه الأغصان من اهتزاز خفيف •

كان هذا الجندى يدعى « قره زاعم » • وهو الآن ظل من شخصيته السابقة التى كانت تحمل هذا الاسم ، خرقة من ذلك الشاب الشجاع الذى كان ينطلق بالسيف العارى لمواجهة سيف آخر مثله ، حتى شق له السيف الأولانى طريقا بين اضلاعه من الصدر الى الظهر • كم من المرات طعن وجرح ، وقطع وكسر ، قبل أن يصيبه هذا الحادث الاخير • لقـــد فقد نصف أذنه اليسرى ، وثلاث أصابع من يده اليسرى ، وبقيت على وجهه آثار حمراء عديدة لجروح اصابته تم التئامها دون ان يغطيها جلد جديد ، كما كانت هناك جروح أخرى تخفيها ملابسه ، كان يشفى على الدوام من تلك الجروح ثم يعود من جديد الى المعارك • لقـد كان دمه قويا ، ومن أجل ذلك كانت الجروح العميقة فى بدنه الشاب تلتئم فى سرعة • ولكن عندما طعنه السيف الأولانى للعدو محدثا ثقبا تدخل فيه الشمس لأول مرة ، وعندما مر طرف السيف ثم نصـــله بطريق ليس طريقهما ، مخترقا رئته ، سقط « قره زاعم » • وكاد يموت ، تركوه متقهقرين ، ولمس الجراح عند مروره به يده الباردة فحسب ، وأسرع خلف الجيش ، وفى نيته أن يقرأ له الفاتحة عندما يصل الى مكان أمين • واستيقظ « قره زاعم » فى الليل ، على أثر البرودة ، ووجد نفسه بين الموتى وكان ضعيفا هادئا مثلهم • لقد بقى على قيد الحياة ، ولكنه لم يكن بعـــد صالحا للجيش • لقد فقد قوته وسرعته وسروره • وأصبح الآن حارس الحديقة أو حارس البيت أو المسكن الذى يقبل الصدقة •

نظر الى فى سرور وقال ، وأنا أحاول أن انظر فى هدوء الى وجهه المخدوش :

ـ اننى راض بوجودى هنا . فالعمل ليس صعبا . والمفتى يثق بى . اننى ناظر الحراس ، أدربهم قليلا ، وأراقبهم ، وما الى ذلك .

ـ كان باستطاعتك انتكون شيئاآخر . أن تكون حاكما للقلعة ، أن تكون مساعدا لحاكم عسكرى . وكان بامكانهم أن يمنحوك ضيعة كما منحوا الآخرين ، لكى تعيش فيها .

سأل فى اضطراب :

ـ لماذا ؟ لقد عرضوا على ذلك ولكننى لم أرد . اننى راض . وفى المكان الذى أنا فيه لا يمكن أن يكون أى شخص .

لقد كنت احس بالم وجراح من أجل هذه النظرات يرسلها فى خوف الى البيت الابيض ذلك الغازى السابق « قره زاعم » . آكان يتعين على أن انظر بهذه الحالة لو انني قصدت الى هذا المكان ؟ من أى شىء يخاف هذا الذى لم يخف من شىء ؟

قلت دون أن أرغب فى اثارته :

ـ اى شجاع كنت ! يا الهى العظيم ، أى شجاع !

وندمت على الفور . لماذا تحيى فى نفسه الزمن الماضى ؟ لماذا توقظه من السبات ؟ انه لم ينسه ، فهذا غير ممكن ، ولكنه ربما هدأ نفسه أو ارتضى الوضع أو بكى ما كان ورثاه ، فلا حاجة لاثارة جروحه التى كفت عن النزف وتوقفت عن ارسال شىء من القطرات .

أواه ، اننى كنت أتحدث عن نفسى كذلك .

لقد فات الاوان ، وليست هناك حاجة لما قيل .

نظر الى مشدوها ، فمن المؤكد ان أحدا لم يتكلم عن ماضيه منذ سنوات عديدة ، ربما كان يتحدث هو من تلقاء نفسه ، ليدفع الآخرين الى قول شىء عنه ، الى ذكر ماضيه الذى كان على صورة تخالف حاضره ، أيكون كل شىء قد انقضى حتى ذكرى هذا الرجل ؟ ألا توجد فى ذاكرة أحد من الناس ؟ وربما كان حديثه عن الماضى قد انقطع ، اذ لأى شىء يتحدث عنه ؟ أو أنه قد ازداد ، اذ كان يأسه قد اشتد بتباعد الماضى عنه ولم يعد يأمل أن أحدا سوف يتذكره . ان كل شىء فى نفسه حى ، وفى نفوس الآخرين قد زال وانقضى .

وها هو أحد الدراويش قد ذكره ، ذكر ماضيه • يا لهذا القول وما يحمل ! ربما كان يحلم أن يقول أحد ما قلت وبهذه الكلمات بالذات يا الهى العظيم ، اى شجاع ! لقد أصابت هذه الكلمات قلبه دون شك ، وسرت خلال دمه كما تسرى الرياح الحارة ، وأصمت أذنه ، او لعله كان يرى أن تلك الكلمات من نسج أحلامه ، ولم ينطق بها أحد وانما سمعتها رغبته فحسب • ولكن لا ! لقد قال هذه الكلمات هذا الدرويش العجوز لقد تذكر وقال •

أخذ ينظر الى لحظة فى ذهول ، كما ينظر المصاب بالصرع • ولم أكن أعرف ما اذا كان سيقفز من السعادة ، ثم يرتمى على الحجر فيصبح مهشما ، أو أنه سيعانقنى لكى يبقى على قدميه الضعيفتين ، أو أنه سيضحك ، أو سيبكى ويموت ، اذ ان معرفتى بـ « قره زاعم » لم تكن كافية • تذكرت هذا الشجاع ، لم لا يكون الآن كذلك ؟ لم يكن يخذله سوى اهتزاز صوته ، وما تصدره رئته المخترقة من قرقرة هادئة ،وذلك بسبب ما اعتراه من التوتر :

ــ اتتذكر ؟ اتتذكر حقا ؟

ــ نعم اتذكر • واراك دائما عندما افكر فى هذا الزمن •

ــ كيف ترانى ؟

كان همسه هادئا ، وكان يناديني من ظلام البعد •

ــ أراك فى شعاع من الضوء يا « قره زاعم » • أراك فى حقل واسع وحدك • تذهب فى هدوء وفى غير التفات ولا تنتظر أحدا • وقد غطى جسدك ثياب بيضاء ، وبدت يداك عاريتين الى المرفقين • فى يدك سيف ربما كانت أشعة الشمس تنعكس على نصله • وكنت تشبه الريح التى لا يمكن ايقافها ، كما تشبه أشعة الشمس التى تنفذ الى كل مكان • كان الآخرون يتوقفون وينظرون • لم يعد لهم الى جانبك وجود • وصمدت وحدك •

ــ ما ذهبت هكذا •

ــ ان هذه ذكراى • ربما انمحى ذلك الذى كان ، ولم يبق سوى ما ذكرت •

ــ كم هو جميل • انه أجمل من الواقع ، ولعله لا • تقول انك ترانى فى شعاع من الضوء • ترانى فى حقل واسع •

كان يهمس كأنه ثمل ، ثم أخذ ينظر الى باحثا عن صورته فى كلماتى ، عن مجده الغابر على شفتى ٠

لقد خيل اليه اننى أترنم باغنية عن بطولته ، والحقيقة أننى كنت أرثى له ٠

اننى لا أستطيع أكثر من هذا ٠

وهانا اقول له مودعا .

ـ كم سعدت برؤيتك ٠

ـ انتظر ٠

كان من الصعب عليه أن يتركنى ، فقد كان متعطشا الى لقـــاء الرجل الذى يعرف عن ماضيه ، وكنت أنا ذلك الرجل ، كنت برهانا على أن الذكريات لا تموت ، وكنت تصديقـــا على أن كل ما فى نفسه ليس ظلا منها فحسب لقد كانت ذكراى تعويضا لنسيان طويل ، كانت جائزة لانتظار بدأ منذ وقت بعيد ٠

كانت كلماتنا واحدة ، ولكن حالتنا النفسية كانت مختلفة ٠ ان هذه الحالة مصدرها أصل واحد ، ومع هذا فقد كان ما ينشر فى نفسه البهجة والسعادة يثير في نفسى الحزن والتعاسة ٠ ليكن هذا ، فحالتى وحالته يرجع زمنهما الى الف سنة ٠ وربما الى أكثر من ذلك ٠ فليس هناك ما يستحق التوقف طويلا لبحث هذا الأمر ٠

ـ ينبغى أن اذهب ٠

ـ انتظر ٠ ان المفتى هنا ، فى البيت ٠ ادخل اذا كان الامر مهما ٠ قل له اننى سمحت لك ٠ أو لا تقل ٠ قل انه دعاك ٠

ـ انه لم يدعنى ٠ لقد جئت من تلقاء نفسى ٠

ـ أعرف ٠ ولكن قل له هذا فقط : لقد طلبت ان أجيء ٠ وستحول أعماله العديدة دون التذكر ، واذا سأل عنى ، او كانت هناك مناسبة لذكرى فقل ما تعرف ٠ قل ذلك الذى كان منذ زمن ٠

لقد ظننت ان المفتى ليس موجودا وكنت حزينا من أجل ذلك ،ولكنى استسلمت للأمر ٠ وكاد ان يكون الامر لى أيسر بتأجيل المقابلة ٠ والآن قد تغير فجأة كل شيء ، ويجب أن تتم هذه المقابلة التى كنت أتمناها ٠

لقد كنت مضطربا وعلى غير استعداد. لم أدهش لما كان من طلب «قرمزاعم» أن أذكره ، وانما كنت أشعر بالحزن لانه تنازل فجاة عن ان تكون توصيته مساندة لى . لقد عرض على وكان ما يزال فى أحلام صورته السابقة ، فى شعاع من الضوء ، فى معركة بطولية ، أن يكون سندا لى . غير انه سمح لنفسه بذلك التنازل فى اللحظة عينها ، فور تذكره أن ذلك ليس سوى ماضيه البعيد . لقد اشتعل واحترق فى اللحظة ذاتها . وعلى هذا الوجه المخدوش كانت ما تزال تهتز سعادته من أجل ذلك الذى كان ، ويبدو قلقه المخيف من أجل كل ما هو عليه الآن . هل كان هناك زمنان يتضاربان فى نفسه ، زمنان مختلفان فى كل شىء ولكنهما لا ينفصلان : اذ لا يستطيع الخروج من أحدها .

وبينما كان يهمس فى أذن أحد الرجال عند مدخل البيت ، كنت أفكر فى حيرة ، وبى ندم على ما فاتنى من مساندته الهزيلة ، كيف أصبحت اشبهه فى التخلخل وتزعزع الثقة . كنا فى حزن ننتظر أن يساعد أحدنا الآخر ، دون أن نثق كثيرا فى أنفسنا . كنا نمزج ضعفين ليخرج منهما واحد ضعيف . لقد بقى لديه أمل، ولكنه كان يعادل فى قيمته أمل المنهار .

وعندما خرج الرجل من البيت ، محدثا اشارة أو هامسا بكلمة لقره زاعم ، ناداني هذا الاخير باشارة من يده تعنى ، لقد ساعدتك فتفضل ! ودون أن يقول شيئا أشار بيده الى الطريق نحو المدخل ، ولكنه الآن كان يعني هذا : ادخل ، ربما سيكون خيرا . أدركت هذا كله بنظرة عابرة وفى شىء من الغموض ، وعلى هذا النحو وبحالة الشحوب التى كنت عليها رأيت شجرة الليمون الشوهاء أمام البيت ، ونخلة أكثر تشوها شفيت من شتائنا الشديد بصعوبة بالغة ، وأخذت تنفى الآن فى شمس الربيع كما يغفى المريض ، لا أذكر بأية أماكن قد مررت ، ولا كم من الناس كانوا يراقبون بأعينهم ، وكنت على الدوام أفكر فى الكلمة الاولى التى ساقولها . الكلمة الأولى ! انها كالسلاح ، كالدرع . فكل شىء سيتعلق مصيره بها ، وليس ذلك لأنها ستوضح شيئا ، وانما لكونى سأفقد كل شجاعة اذا كانت غير مناسبة ، اذ فى امكانها أن تجعلنى مضحكا وتفرض نفسها حكما على . لقد اختبرت فى نفسى عددا لا حصر له من الكلمات ، وكان عجيبا حقا أن يفرض نفسه .

ان كلا من جميع ما دار فى خاطرى كان يفرض نفسه ليكون فكرة أولى . كان ذلك يمثل خللا فى المخ ، ارتجاجا فى الدماغ أفسد النظام

وترك التشوش واستحالة التفكير • وبينما كنت اسير في هذا الممر الذي ظل في ذاكرتي مظلما لا يتضح فيه شيء ، كان يخطر ببالي كل شيء ، من الايمان المغلظة الى الشتائم والسباب • انني لا استطيع ان ادون كل ماكان يريد أن ينطلق من فمي قبيل هذا اللقاء الاول ، قبيل هذه الرؤية الاولى لقد كان هذا جنونا يصعب تفسيره ، وكان على درجة من الغموض كل ما كنت ارتئيه ، كل ما كان يخترعه مخي ، غاضبا وساخرا من كل ما هو معقول • لكأن ابليس نفسه حل في نفسي ، وأخذ يهمس الى بهذه الكلمات الحقيرة الشائنة ، ويحثني على الاتيان بهذه التصرفات المضحكة والتي لا تليق بي ، حتى اصبحت مشدوها • كيف تصيدني في هذه اللحظة بعينها التي احتاج فيها لتركيز فكري أشد ! انه يأتي بالذات عندما لاتتوقع مجيئه وعندما يصادفك أمر بالغ الشدة عظيم الخطورة • اذ كان التفكير كما فكرت انا ، الرجل الجاد والهادىء ، أن اقترب من المفتي وأدعـــوه بالماعزة الانطاكية ، وذلك ما لا يكون الا من غمزات الشيطان الآثمة • ابتعد عني يا من تمردت على الله ! ـ هكذا كنت اهدده وأكثر من اثارته •

لقد حيرتني كذلك النخلة وشجرة الليمون ، هاتان الشـــجرتان النازحتان من الجنوب ، واللتان استغرقتا في قبرين خشبيين أمام البيت• كنت أعرف أن المفتي من انطاكية ، وأنه لا يعرف لغتنا ، ولكن أين انطاكية هذه ، في اي ارض تكون ،وبأية لغة يتكلم اهلها هناك ، لم تكن الاجابة عن هذا تخطر ببالي على الاطلاق •

ولحسن الحظ لم أكن في حاجة الى الكلمة الاولى ، لم تكن هناك حاجة الى أن أقول أو افعل شيئا •

وفي الغرفة التي أدخلوني فيها كان المفتي يلعب بالشطرنج مع رجل لم أره من قبل على الاطلاق • وكان الوضـــع يدل على أن اللعب قد انتهى أو توقف ، في البداية لم أكن أعرف ماذا حدث ، ولم يكن يهمني ذلك ، وكان الرجل المجهول الذي تنبيء ضخامته عن عدم تمتعه بالصحة ،وتنفرج أساريره عن ابتسامة وضيعة مرهقة ، يوافق المفتي في كل مايقول ، ملفقا رأسه نحوي في اصدار ، لكي يحول اهتمام المفتي الموجه اليه • كان يتمنى لي النجاح دون شك في جميع ما كنت أرغبه ، وقد فعل كل ما بوسعه لكي يوجه نظر المفتي الي -

ولكن المفتى لم يتنبه لفترة طويلة أن أحدا قد دخل الغرفة (فقد كان من الضرورى أن يسمح لى بالدخول عندما سألوه) ، وبالتالى لم يرد على تحيتى ·

لقد قضى الشتاء بأكمله فى الغرف الدافئة ، خائفا من البرد الشديد الذى كان يزين الأفاريز العليا للمنازل بأهداب بلورية يكاد بعضها يبلغ المتر ، وكان ينظر دون شك الى هذه الاهداب فى خوف وفزع ، وقد انتابه الالم والشحوب كما انتاب شجرتيه اللتين نزحتا من الجنوب ، وعبرتا الشتاء على قيد الحياة فى صعوبة بالغة لتستقبلا ربيعا يعيد اليهما الدفء ويشد من ازرهما فى الحياة · كان يستمتع بدفء الشمس معرضا ظهره للنافذة ، ومتدثرا بمعطف كسى باطنه بالفراء ، وقد امتقع وجهه وبدا عليه العبوس ·

كان كلا الرجلين على جانب من البدانة ، غير أن شحمهما لم يكن يكسو جسدهما فى نظام وتناسق ، كما كانا على درجة من الشحوب والتجعد وفى حالة من التغضن والاختناق بتأثير جو الغرفة غير المتجدد ، كما لو كانا قد لزما هذه المنضدة السوداء المصنوعة من الابنوس وعكفا على الشطرنج الذى اتخذت قطعه من سن الفيل منذ الخريف الى الآن ·

كان المفتى يلوم صاحبه بغضب فى البداية ، ثم أخذ يقل تدريجيا كلما تقدم اللوم ، وكانت ارادته تضعف تبعا لذلك ، وكان صاحبه يسلم بما يقول · لقد بدا غريبا أن يقوم المفتى بالسؤال والتأكيد والاجابة · وكنت أفلح بصعوبة بالغة فى التقاط بعض المعانى لهذا الذى يقوله ·

ـ هناك شىء لم يكن صوابا ·

ـ أرى ذلك ·

ـ انك لا ترى شيئا ·

ـ هناك شىء لم يكن صوابا ·

ـ طيلة الفترة كان جانبى فى اللعب افضل ·

ـ اعرف ·

ـ ماذا ترى ؟

ـ فى موضع ما اخطأت فى نقل القطعة ·

ـ كيف اذن اخسر ،

ـ هذا ما لا أراه واضحا لى بالتمام ٠

ـ لقد أخطأت دون شك فى موضع ما عند نقل القطعة ٠

ـ من أين جاء هنا فرسك ؟

ـ ها هو موضع الخطأ ٠ اننى لم أستطع ان آتى الى هذا الموضع ٠

ـ اذن احذر الملك ٠

ـ صحيح ٠ ها هو الشيخ قد حضر

ـ لماذا لا تلاحظ ؟ انى لا أستطيع أن أرى كل شىء ٠

ـ ان ذلك لا يحدث لى فى العادة ٠

ـ اذا كان الفرس هنا فأنا آكله ٠ أليس كذلك ؟ انا آكله ٠٠

آ آ آكله ٠

ـ ومات الملك ٠

ـ اى شيخ ؟

أشار الرجل الى سعيدا ، واستدار المفتى ٠ كان وجهه أصفر مغبرا وقد لحقه الذبول ، وبدا انتفاخ شديد أسفل عينيه ٠ سألنى دون أن ينهض :

ـ أتلعب الشطرنج ؟

ـ العبه فى ضعف ٠

ـ ماذا تريد ؟

ـ انك طلبت أن أجىء ٠ ورجوت أن اتحدث معك ٠

ـ أطلبت ؟ نعم ، نعم ٠ الى من طلبت ؟ كيف الجو فى الخارج ؟

ـ مشمس حار ٠

ـ وفى الشتاء كانوا يقولون هكذا : ليس باردا ، هل فصـــــول الشتاء شديدة هكذا على الدوام ؟

ـ يكاد يكون على الدوام ٠

ـ قطيعة هذه البلاد ٠

ـ الانسان يتعود ٠

ـ عملة هذه البلاد ٠ اتلعب الشطرنج ؟

تدخل الرجل البدين وقال فى هدوء :

ـ انه لا يلعب ٠ لقد قال ذلك ٠

ـ وماذا يريد اذن ؟

ـ له مطلب ما ٠

ـ من هو ؟

ذكرت من انا ، وبينت ان كارثة المت بى ، وأننى اطلب العدالة ٠ واذا لم اظفر بها عنده فلن اظفر بها عند أحد ٠

واذ ذاك نظر المفتى الى الرجل الجالس امامه ، دون ان يخفى ملله ، واليأس يكاد يغلبه ٠

فى اى شىء اخطأت ؟

نهض المفتى وتلفت يمنة ويسرة ، كأنه كان يبحث عن طريق يمكنه من الهرب ، واخذ يقطع الغرفة جيئة وذهابا ، واطئا ارضها التى غطتها الشمس فى تمهل وتؤدة ٠ ثم توقف واخذ يفكر ، ناظرا الى فى سرور ، وانبرى يقول :

ـ لقد تحدثت بشأن العدالة مع قاضى استامبول ٠ كنت أحب أن اتحدث معه أحيانا ، لا بوصفه رجلا عاقلا ، اذ الرجال العقلاء باستطاعتهم ان يجلبوا الملل الشديد ، وانما بوصفه رجلا يعرف أن يقول شيئا لم نكن نتوقعه شيئا يفاجئك ويثيرك ـ هل تفهم هذا يا مالك ، انك دون شـــك لا تفهمه ! ـ واضاف : ما الذى يجعلك ترى أن هناك قيمة للاستماع ، والاجابة ٠ وأخذ يواصل بقوله : ان معرفة الانسان ضئيلة ٠ ولذا لايعيش الرجل العاقل بذلك الذى يعرفه ٠ ولكن ، اردت ان اقول شيئا آخر ٠٠ عن أى شىء كنت اتحدث ؟

قال مالك :

ـ عن قاضى استانبول ٠

ـ لا . عن العدالة . قال ذلك القاضي ذات مرة : اننا نظن اننا نعرف ما هي العدالة . وفي الحق ليس هناك شيء أشد غموضا منها . يمكن أن تكون قانونا ، ثأرا ، جهلا ، ظلما . وهذا كله بحسب الموقف . ها قد أجبت ...

اخذ يواصل سيره في الغرفة ، صامتا ، منهوك القوى ، وخيل الى أن بداخله لولبا يحركه ، يدفعه بكلمة ، يحيي النشاط في جسده . وعندما يتوقف اللولب يكف عن الحركة ، وتنتابه السآمة .

لم يعرض على الجلوس ، ولم يكن يهمه ما أردت أن أقول ، فلم يبق لى الا أن اتحدث أو انصرف . فقد اوشكت انا كذلك بهذه الطريقة أن أصبح مالكا ، أن أكون الظل الثانى للمفتى ، لا حاجة اليه كما لا حاجة الى الظل الأول . لقد قررت أن أتحدث .

ـ جئت من أجل مطلب

ـ انني متعب .

ـ ربما كان فيه جذب لاهتمامك .

ـ أتظن ذلك ؟

ـ سأحاول . لقد تحدثت عن العدالة . انها مثل الصحة ، تفكر فيها عندما تفقدها ، وحقا انها شيء غامض ، ولكنها ربما تكون رغبة زائدة ليخنق بها الظلم ، وهو شيء واضح معين . ان حالات الظلم كلها متساوية ، ويخيل الى الانسان أن ذلك الظلمالذى لحقه هو الظلم الاكبر . واذا حدث هذا التخيل حقا لما تخيله صحيح ، اذ لا يستطيع الانسان أن يفكر برءوس الآخرين .

اشتد لولب المفتي للمرة الثانية . لقد نظر الى مشدوها وتوقفت عيناه المنتفخ أسفلهما عند تحمل الاعتراف ، لم يكن اعترافا على درجة كبيرة ، ولكنه كان كافيا ليبعث فى الشجاعة . لقد أثرت اهتمامه . وهذا هو ما أردت: لقد علمني هو ذلك بقصته المشوهة عنقاضي استانبول .

وقد رأيت منذ لحظة أن لعب الانسان بالكلمات يتحدث بها عن الامور العامة الخاصة التى تتعلق بنا ولا تتعلق بالآخرين .

قال المفتي ، فى انتظار مواصلة الحديث ، وقد القى على مالك نظرة ملؤها الاحترام :

ـ انه شيء ممتع ، ممتع حقا . ولكن هل يستطيع عدد من الناس أن يفكر بتفكير واحد ؟ واذا أمكن هذا فهل يفكر كل فرد من أفراد هـذا العدد اذ ذاك بفكره أو بفكر الآخرين ؟

ـ ان تفكيرين حقيقيين لاثنين من الأناس لا يمكن بحال من الاحوال أن يكونا على صورة واحدة ، كما لا يمكن أن يكون ذلك بالنسبة لراحتي اليدين .

ـ ما هو التفكير الانسـاني الحق ؟

ـ انه ذلك الذي لا نقوله عادة لأحد .

ـ قول جميل ، ربما ليس صحيحا ، ولكنه قول جميل . ومـاذا بعد ؟

ـ لقد اردت أن أتحدث عن مصيبتي . قلت انها تبدو أكبر مصيبة لأنها مصيبتي . ولكن كنت أود لو انها تخص الآخرين ، اذ لو كانت كذلك لما تعجلت معرفتها ، كما أتعجل الآن قولها .

اردت ان أنتقل من القضايا العامة الىذلك الذي يؤلمني ، طالما يحركه اللولب ، طالما تحيا عيناه ، اذ كنت أخشى أن يفقد قوته عن قريب ،وعندئذ ستدور كلماتي حوله ولن يكون لها تأثير أو صدى .

اخذ يتضح لي بمرور الوقت ان السأمة والملل يعذبانه . كان الملل ينسدل عليه كالستار ، يغشاه كالضباب ، يلتصق به كالصلصال، يحوطه كالهواء ، يتغلغل في دمه ، في تنفسه ، في مخه ، ينتشر منه ومن كل شيء حوله ، من الأدوات ، من الفراغ ، من السماء ، وينهمر كالدخـان السـام . وكان ذلك يحتم علي أن أنهار أنا الآخر ، أو أحارب ضـد هذا الملل .

لا أبالغ اذا قلت انني لو كنت واثقا من انني سـأبدد ضـباب المستنقعات في نفسه ، لجمعت أطراف جبتي ورقصت الرقص الشرقي ، ولفعلت كل ما يصـعب أن يخطر ببال الرجل العاقل . ولربما دفعه اهتمامه ، قبل أن يخمد ، الى تحريك يده الصفراء الضعيفة لتكتب ثلاث كلمات يكون فيها الحل : الافراج عن هارون . وذلك دون أن تدرى ماذا كتبت ، ودون أن تتذكره الى الأبد . نعم لفعلت كل شيء ، كل ما يوصف

بالجنـــون ، كل ما يرى انه قبيـــح • ولمـــا خجلت فيما بعـد ، بل لعلني أتذكر في فخر كيف تغلبت على صورة ميتة من صور اللامبالاة ،من أجل رجل حي ، من أجل أخي • ولكنني لم اجرؤ ان اغير اللعبة ، فقـــد رأيت أن مراوغات المفكر قد أفلحت في ايقاظه للحظة ، لقد بدت بمثابة الحشيش ، وكان لزاما على أن اعطيه أكثر ، لكيلا ينتابه خمول أشد •

لقد كانت هذه المعركة تفوق في غرابتها ما كنت أسمعه في حياتي كانت معركة ضد الخمول في نفسه ، ضد شلل الارادة ، ضد تقزز من الحياة ، وقد زاد من شدتها وضراوتها أنه كان يتحتم أن تنشب بأسلحة غير طبيعية ، بتفكير معكوس ، بمداخلة قبيحة بين مشاعر غير متفقة ، بانتهاك حرمة الكلمات • غير أني كنت أخشى ، وكم كانت خشيتي ، أن يموت اهتمامه في اللحظة التي اتوقف فيها عن اللعبة وأنتقل الى الغرض الأصلي الذي فعلت من اجله كل ما فعلت • لقد كان لزاما على أن احلق فوق الهدف الحقيقي ، مقتربا منه ، ومخفيا اياه ، اذ كان باستطاعة حواسه أن تغلق من تلقاء نفسها فور احساسها به •

ولحسن الحظ لم يكن مرائيا ، ولم تكن مرآة وجهه تخفي شيئا : لقد كان الرجل يبدى كل شيء ، وكان كل شيء يرى فيه ، الاعجـــاب والاشمئزاز • ولذا كنت أقود فكرتي الطائشة حسب ما يظهر على وجهه من ظلال واضواء ، مغتبطا بتلك الدلائل الهادية ، اذ كان في الامكـان الا يكون لها وجود •

كان كل شيء فيه يقول : فاجئني ، أيقظني ، ادفئني ، وقد كنت أفعل ، كنت افاجئه ، اوقظه ، ادفئه ، خائضا معركة مريرة ، أشـــعر على الدوام أنني على حافة الخوف من عدم النجاح ، لكي أحتفظ بالحيـاة لرجل محتضر ، تجمعت فيه كل آمالي • لقد عكست التفكير ، وحفرت في زوايا النفس ــ محموما ــ لكي أجد بعر الشيطان في داخلي ، وخضت معركة مع الميت ، كي لا يكون هناك ميت آخر ، وارتحت للحظـة عندما جلس المفتي في شيء من الاهتمام ، وفي شيء من الحيوية في وجهـــه المتغضن ، وعندئذ بدأت اجنحة آمالي تريش •

هذيت دون أن ادرى ما اذا كان هذا كافيا :

ــ لي أخ ، ولو لم أتعجل اخبارك عنه لاستطعت ان اقول كان لي أخ ، و « لي وكان لي ، تعادل « لي وليس لي » • ويمكن لكلمة تنطلق في لحظة من فم رجل يحمل ارادة سيئة أو ارادة حسنة أن تفصل في امره • انه

أخي ، لا لأنني أردت ذلك ، اذ لو اردته لصنعته أنا ، ولما كان اذ ذاك أخي ، ولا أدري كذلك هل أراده والدي ، ولكن عندما اجتمع بوالدتي ، وعندما دخلت قطرة كدرة الى الرحم ، من أجل الارضاء لنفسيهما ؛ من أجل اللا شيء لنفسي ، نبتت علاقة والتزام نسميهما الابن والأخ • وسواء أكان سلوى مرغوبة أم مصيبة ألفناها فالله سبحانه يربطه بنا دون أن يكون لنا رأي في هذا ، ويحرمنا من جميع مسراته ، ويحملنا جميع شدائده ومصائبه ، والمصائب كما يعرف عقلك المفضال أكثر وقوعا من المسرات ، فعلى هذا نستطيع القول ان الأخ مصيبة يرسلها الله الينا ، ولذا نقبلها على أنها ارادة الله وقدره شاكرين له كل ما يأتي به • وهكذا ، ها نحن ، نقدم الشكر لله على المصيبة ، وكم وددت ان يكون هو أخاك ، لكي اشكر على السعادة باستماعي اليك ، كما تستمع الي الآن ، اذ يكون الامر بالنسبة الى سواء • ولكن ، حيث لا يمكن أن يكون هو اخاك ، لأنه اخي ، وحيث لا استطيع أنا ان أكون انت ، لأن الله قدر ان أكون درويشا ضعيفا وحسب ، فلنكن ذلك الذي نحن عليه في الحقيقة : أنا أرجو وانت تقرر : او الأفضل : أنا أقص وانت تستمع • انني أعرف أن الأمر بالنسبة اليك اشق • انت غير ملزم وانا ملزم •

لقد أيقظته ، أحييته ، انه ينظر ، يستمع ، يفهم ، يقبل ! لم تكن هناك ضرورة للرقص ، فقدكانت تكفي كلمات فارغة ، اتركها لتنطلق كالريح ، لتقفز كالقرود في كل اتجاه ، لتجري طائشة بين اشعةالشمس وبين ظلال الغرفة ، كالمجنونة ، ها هو قد هدأ في كرسيه ، يستمعوينتظر

وفي حيوية كافية انطلق يقول :

ـ وماذا بعد ؟

وكان طله الأول يمعن النظر الي ويتعجب ، ربما كان يتعلم • انني لا أنظر اليه جيدا ، لأنه لا يهمني • وانما أتطلع الى وجه المفتي •

هناك أمل يا اخا هارون !

ـ وهأنذا ، لدي أخ ، أو لدي نصفه : انني اذكر اسمه ، وهو مسجون في القلعة • ان نصفحياته هنا ، ونصفها الآخر هناك • واذا فقد هذا النصف كان في الامكان أن يفقد النصف الآخر •

ـ أي نصف ؟

ـ النصف الذي أمسك به متحدثا اليك ؟

ـ اية قلعة ؟

ـ القلعة التي تقع بأعلى المدينة ٠

ـ الامر سواء ٠ استمر ٠

ـ انهم في القلعة يسجنون رجال السوء ، اللصوص ٠ الاشرار ، قطاع الطرق ، اعداء السلطان ٠ وذلك احيانا ٠ وفي اغلب الاحايين يزجون بالحمقى في السجن ، حيث يظن هؤلاء انهم ليسوا مذنبين ، ويظل امر اتهامهم على الدوام غير معلوم لأحد ٠ انهم يعملون في اصرار لتقويم اعوجاج النهر ، وهذا ليس من شأنهم ، ولا احد يطلب منهم ذلك ٠ وكيف يفخرون بهذه الحماقة ، ومن السهل ان يقبض عليهم ، ولذا كان عددهم في السجون اكبر ٠ وبحسب هذا يمكننا ان نستنتج ان الناس العقلاء فحسب هم الذين يتمتعون بالحرية ، وليس الامر كذلك : اذ يتمتع بالحرية أيضا هؤلاء الحمقى اذا كانوا يستطيعون التخفى ٠ ولا يتمتع بها العقلاء اذا ما كشفوا عن أنفسهم ٠ ويتمتع بالحرية بعد ، أولئك الذين يملكون ان يكونوا كما يريدون ٠ ان اخى كان رجلا عاديا ليس له من الامر شيء ، وكان سعيدا ، لم يكن عاقلا حتى يكون لهم منه خوف ، ولا أحمق حتى لا يكون في وسعهم أن يعرفوا ماذا يفعل ، كان من الجبن بحيث لا يمكنه أن يكون قاطع الطرق ، ومن السذاجة بحيث لا يمكنه ان يكون خبيثا ، ومن الكسل بحيث لا تتوافر له الامكانيات لكى يعادى احدا ٠ وبكلمة واحدة ، قدرت له العناية الالهية ان يحبه الناس دون أن يقوموا باحترامه أن يعترفوا بقيمته دون أن يطلبوا منه اظهارها ٠

ـ لماذا سجن ؟

ـ لأنه لم يطع والده ٠

ـ عجيب ٠

ـ ان الوالد رجل بسيط ، يعمل على قدر استطاعته ، ويعطى ما يجب أن يعطى ، لا يهتم بشيء سوى المطر ، السحب ، الشمس ، آفة الأشجار جعلان البطاطس ، القمح ، الذرة ، هدوء العائلة ٠ وحيث انه رجل بسيط جدا ، ومكون من قطعة واحدة كما هو حال الملعقة الخشبية ، والقصعة المصنوعة من شجر الزيزفون ، ومقبض المحراث ، فانه لم يتنازل عن تلك العادة الابوية التي لم تعد تلزم بعد ، وهي ترديده ذلك الذى يردده الآباء دائما ولكن الابناء لا يسمعونه ٠ لقد نصحه بعدم الابتعاد عن البيت ،

فالأرض ستصبح خالية ، والمدن ستضيق بالناس ، ستصبح مكانا صغيرا لأفواه كثيرة ، وستكون الامكانيات فيها قليلة والرغبات كثيرة ، وسوف يتقاتل الناس من أجل كسرة من الخبز أكبر · ولكن اخي لم يطعه ، واذ ذاك قال الوالد : تذكر ، ان المصيبة لدينا ان أحدا لا يعتقد أنه في مكانه الصحيح · وقد أصبح من الممكن ان يكون لكل انسان منافس ، فالناس يحتقرون أولئك الذين لا ينجحون ، ويكرهون أولئك الذين يعلونهم بالترقية ، فاذا رغبت في الهدوء فتعود على الاحتقار ، واذا ارتضيت الدخول في المعركة فتعود على الكراهية · ولكن اذا لم تكن واثقا من أن تصدع عدوك فلا تدخل المعركة · لا تشر ببنانك الى عدم شرف الآخرين اذا لم تكن لديك القوة الكافية لكي تبرهن على ذلك · حتى في هذا لم يطعه · وللوالد الآن أسباب ليفرح ويقول : ها هو مصير الابناء غير المطيعين ·

لاحظت في فزع وانا اتحدث الى المفتي أن الضوء الخافت في عينيه أخذ يخمد ، وبدأت تتثاقل عيناه وينال منها التعب ، كما ضاع من صفحة وجهه ما كان لي بمثابة الدلائل المرشدة · سألني وهو يفتح فمه بصعوبة بالغة :

ـ من ذا الذي لم يطع ؟

يا الهي يا عظيم ! كلما تقدمت في الخطو ابتعدت · كلما قربت من ذلك الذي أهدف اليه انتابه الخوف والفزع · كلما أردت أن استفيد مما بنيته أسرع يهدم كل ما بنيت · ان عملي ليس له نهاية !

اندفعت أقول دون وعي · فما زالت في نفسه جمرة لم تنطفىء ، ولو لم تكن لما استطاع أن يسألني حتى هذا السؤال · ها قد أصبحت غير ممتع ، اتعبته بالتفلسف لم أكن اتلاعب وانما كنت اسخر · لقد أثار السخط حماسي ، وبدأ كل شيء يرن جادا · وأحسست بدوار شديد يستولي على رأسي : أرجوك أيتها الجمرة ، انتظري قليلا ، لا تخمدي وظلي لحظة واحدة ·

أخذت البقايا الأخيرة لضوء الشمس في الزوال ، وكنت ما ازال في مكان أحس بوحشته وبرودته ، وأمامي ليل طويل محتضر · ولم تكن لي الجرأة لكي اصيح ·

لقد فقدت ثقتي بنفسي ، وزالت عني تلك السهولة التي كنت اتلاعب بها بالكلمات ، وكنت احس بان هذه الكلمات لن تنطلق بعد ، ولن تضرب بأجنحتها في الفضاء ، وانما ستحبو على الأرض كما تحبو السلحفاة ·

كنت أدعو الله في يأس ، ولكن دعائي لم يساعدني ، كنت أدعوه قائلا : يا ربي ، ادعوك لتمدني بحفنة من الكلمات الحمقاء ، لا تبخل على بها لأنني احارب من أجل حياة واحدة ! لقد قتلني ما عكسته لي صفحة وجهه من عدم اصابتي الهدف ، وذلك بما ضاع منها مما كان لي نعم المرشد والمعين ·

. الى أين تتلاشى يا أخا هارون ؟

لم تكن هناك حاجة لكل ما قلته بعد ذلك ، فقد كان دون جدوى ، ولكن كنت مجبورا أن أكشف عن نيتي ·

كان الملل يطغى على المفتي في سرعة متزايدة كلما تقدم الوقت · وكان ينزلق في مستنقع ضعف ارادته الميتة · وكنت أرى أن العالم سيبدأ في الفناء من أجل هذا الرجل ·

أما مالك فكان ينام ملقيا برأسه على صدره ·

قال المفتي وقد كاد أن يتملله الفزع مثل :

ـ انني متعب · متعب ، اذهب الآن ·

ـ لم أقل جميع ما اريد ·

ـ اذهب الآن ·

مرليفرجوا عنه ·

ـ عمن يفرجوا ؟

ـ عن أخي ·

ـ جيء غدا · أو قل لمالك · اذهب وتعال غدا ·

استيقظ مالك في دهشة وسأل :

ـ ماذا حدث ؟

ـ يا الهي ، ما هذا الملل ·

ـ أتريد أن نلعب بالشطرنج ؟

ـ لم يحدث شيء ·

لقد كان يجيب في تضارب ، متخطيا بعض الأسئلة ، محتفظا في عجب ببعض الكلمات يورد الاجابة عنها متأخرا ، فتبدو ولا معنى لها على الاطلاق ٠

خرج المفتى دون أن ينظر الينا ، وقد قتله الملل ، ربما كان قد نسى أننا هنا ٠ وربما أراد أن يهرب ٠

لم استطع الانتصار على الملل ٠ لقد تغلب هو علينا معا ، وكدت ارغب في الانصراف لو عرفت كيف يبدو الملل لما جرؤت أن أذوق طعمه ٠

نظر مالك الى نظرة تحمل الغل والكراهية ، ووثب يحمل جسمه الثقيل منطلقا وراء المفتى ٠ وقلت :

ــ طلب الى أن أحضر غدا ٠

ــ انني لا اعرف شيئا ٠ أوه ٠ لقد أهلكتنى ٠

وهكذا انتهى هذا اللقاء ٠ وربما كان ينبغي أن امسك بأذنيه ، أو انقره في جبهته الصفراء بطرف سبابتى عندما اطلقها من قبضة الابهام ٠ وللمرة الثانية لم أكن أعرف اين تقع انطاكية ، ولا بأية لغة يتكلم اهلها٠ لقد خيل الى طول فترة هذا اللقاء انني واقف على راسى ، وانني معلق بين الأرض والقناديل ، وانني أعاون بكتفى في حمل السقف ، وكنت اذ ذاك فاقد الوعى ، وفي حالة تشبه الجنون من أجل سآمته ورغبتى في التغلب عليها ٠ لقد كنت اتحدث بلغة غريبة حقا ، ولكن ذلك لم يجد نفعا ٠ ربما يكون الأمر غدا دون جدوى كذلك ، فسوف يضعف من قوتى عدم نجاحى اليوم ٠ يجب أن أجيء ، وسأجيء مرتعد الفرائص ، ولن اعرف اين تقع انطاكية ــ لعنة الله عليها ــ كما لن أعرف كذلك كيف يدعى ابن والدتى، سوف نتعب للمرة الثانية كما يتعب الزوجان المسنان في الليلة الثانية لزواجهما بعد أن مرت الأولى في أسف وحزن من جراء الفشل ، غير أن الأمور في المرة الثانية ستستغرق وقتا أقصر ، اذ لن يكون هناك امل كبير بالنسبة لى وله ٠

والآن ليس ثمة ما يدعونى لأن اتعجل ٠ فاليد الصفراء المتثاقلة لم تكتب في لحظة انتعاشها القصير : الافراج عن هارون ٠

أترى من أجل هذا وصل السجين هارون الى غياهب اشد ظلمة ؟

خرجت ، اخرجونى ، دلعونى ، وأمام البيت كان ينتظرنى ، قره زاعم ، المنسى ٠ لقد نسيه الناس بعد عشرين سنة ، وأنا نسيته بعد

ساعة واحدة • غير انه وحده لا يستطيع النسيان ، وهكذا العادة فى بنى الانسان •

قال ناظرا الى فى تطلع :

ـ لقد ظللت عنده طويلا •

ـ اتستغرق المعركة وقتا اقصر من هذا ؟

ـ عادة يخرج الزائرون بسرعة • وعادة يخرجون وهم فى حيرة •

ـ هل أنا فى حيرة ؟

ـ لست ارى ذلك •

لم تكن عينا « قره زاعم » صافيتين تمام الصـــفاء • فليكن كما يقول •

ـ لقد تحدثنا عن كل شيء •

ـ وعنى ؟

ـ طلب الى ان أحضر غدا •

ـ هكذا ! اذن غدا •

وللمرة الثانية كنا نسير فى الطريق المغطى بالأحجار البيضـــاء المستخرجة من النهر • وسنسير مرة أخرى فيه غدا •

ظننت انه لن تكون لدى قدرة للتحدث مع « قره زاعم » ولن يكون فى استطاعتى أن اسمع ما يقوله لى • ولكننى سمعت وكنت أجيبه ، وان كان كل شيء معكوسا ، وان كنت ما زلت اقف على رأسى ، وقليلا قليلا اخذت اعود الى الحالة الطبيعية للوقوف ، واثقا ان كل شيء ســـيبدو لى بصورة اغرب عندما أعود الى نفسى • سوف يظهر لى كتهيؤات سكير ، كحلم سيء ، وساعتقد اننى وقعت تحت تأثير السحر ، وأن شـــيئا لم يحدث فى الواقع •

ان « زاعم » لا يعلم ماذا يحدث فى داخلى ، فهو يعتقد أننى نجحت ويقول :

ـ ان دعوته اياك للحضور غدا يدل على الخير ، فهو عادة لا يفعل ذلك مع أحد • ان هذا يعنى أنه معجب بك ، وانك قد نزلت فى نفسه •

لست بالغ الحكمة ولست عظيم الفصاحة يا « زاعم » ياذا الصديق الطيب · نعم ، انني أعجبته ، اعجبته جدا ، لقد ذهب وهو يكاد يختنق ، وسنواصل العذاب غدا ·

أخذ « زاعم » ينظر الى في حيرة ، باحثا عن بعض الكلمات · ثم قال :

ـ هأنذا أردت أن أرجوك ·

أكان ينظر الى وجهي ليرى أيخمد من كلماته ؟ انني اشـــجعه دون ارادة ، وقد أخذت أتذكر :

ـ قل يا قوه زاعم ، قل في حرية ، فهناك شيء يعذبك ·

هكذا كان يجب ان يقول لي هذا المفتي منذ قليل ·

ـ لا ، لا شيء يعذبني · ولكنهم هنا لا يعرفون من أنا ، انهم يظنون انني هكذا رجل مصاب بالربو ولم أكن شيئا فيما سلخت من حياتي · لا أقول هذا بالنسبة للمفتي ، وانما أقوله بالنسبة للآخرين ·

ـ هل حدث لك شيء ؟

ـ لم يحدث · يقولون انني لم أعد صالحا للوظيفة ·

ـ أيستغنون عنك ؟

ـ تصـــور ، يستغنون عني · ولذا أرى أن تقول للمفتي اذا كان باستطاعتك كي يبقيني · لست صالحا بعد للجندية · ولكني أستطيع أن أحرس الباب ، وأكون في هذا أفضل من الآخرين · انني أتقاضى مائة قرش في السنة ···

ـ ان المفتي يتقاضى اثنى عشر ألفا ·

ـ المفتي شيء آخر · وأنا أقول اذا كانوا يســـتكثرون المـــائة ، فليقللوا الراتب ، ليجعلوه ثمانين ، ليجعلوه سبعين ، أترى سبعين قرشا في السنة كثيرا ؟ ها هو ما أردت ·

في الواقع ليست السبعون قرشا في السنة مبلغـــا كبيرا · ولن تصبح بها مدينا ـ يا زاعمي ـ الذي أخطأت خطأ كبـيرا اذ لم تمت في الوقت المناسب · وأرجو الصفح لعدم استطاعتي أن أرثي لحالك ، فقد

كنت في صراع مع الشيطان الاسود واصبحت مفكك الجسم كله ولم تعد عظمة من عظامي في مكانها ·

قلت دون أدنى تفكير :

ـ انك لم تعد صالحا للجيش ، ولكنك تستطيع أن تحمل البندقية، وكذا تستطيع أن تحمل السيف الأحدب · كم تطلب اذا اردنا أن نقـوم بانقاذ رجل بريء · لقد سجن لوجه الله ، لم يرتكب ذنبا · أتوافق لقاء مائة قرش ؟

انتابته حيرة · ثم قال :

ـ لا أدري أتختبرني ، أم تتكلم عن شيء يمكن تنفيذه ·

ـ أجبني ·

ـ ليست الاجابة سهلة · لو أنني كنت « قره زاعم » زماني لما أخذت شيئا · والآن ، اذا كان العمل شريفا ·· مائة قرش ؟

ـ مائتين ·

مائتي قرش ! يا الهي يا رحيم · ثلاث سنوات استطيع ان أعيش بمائتي قرش · وأكون مع ذلك قد انقذت رجلا بريئا ؟ أين هو ؟

ـ في القلعة ·

ـ يعني ، مائتي قرش · وانقاذ رجل بريء في القلعة · لا يمكنني·

ـ لو كان ذلك قبل عشرين سنة لوافقت ؟ وحتى لو كان في القلعة؟ بشرط أن يكون بريئا ، ومسجونا دون ذنب ؟

ـ نعم لوافقت ·

ـ والآن لا توافق ؟

ـ والآن لا ·

ـ اذن لا شيء ·

ـ أيكون هذا أمرا جديا امنوعا من المزاح ؟

ـ نوع من المزاح · لقد اردت ان ارى كم تغيرت ·

ـ نعم تغيرت · واذا استغنوا عني ايمكن عندئذ انأجيء ؟

ـ اذا استغنوا عنك فسوف أجد لك عملا ٠

ـ أشكرك ٠ سوف أظل ذاكرا ذلك ٠ ومع هذا أرجو أن تتحدث بشأني غدا مع المفتي ٠

لقد كان يرغب أن يبقى بأى ثمن فى هذا الطريق الأبيض ، من الباب الخارجى الى مدخل البيت ، فقد كانت اهمية المفتي تنعكس عليه ، على ذلك الذى ليست له أهمية ، وكان يخيل اليه دون شك أنه بتلك الوظيفة اقرب الى مكانته السابقة حين كان غازيا فى المعركة منه اليهـا بوصفه خبازا أو منسق حديقة ٠ وكانت شخصية الغازى أهم شىء له فى هذا العالم ٠

التقى بى قبيل المساء ، فى تلك اللحظة التى كانت من أشق اللحظات عندما كنت أتجه نحو باب الموت ، لقد انطلق من الضباب ، وسقط من السماء وامامى فى الطريق ، حيث لم يكن هناك أدنى مبرر لالتقائنا ، لأن التقى انا وهو ، أو يلتقى وجهانا ، أو تلتقى حالتنا النفسية ٠ لا أدرى كيف كان وجهى ، أما وجهه فقدكان يشع بالبهجة والسرور ٠ وكانت خشخشة صدره عند التنفس توحى بغبطة الانتصار ٠

قال وقد غلبته نشوة الفرح :

ـ سابقى ، لن يستغنوا عنى ٠ ومعنى ذلك أننى سأبقى ٠ لقـد سالونى عما دار بيننا من حديث ، وقد حكيت لهم ٠ ثم ذهبوا بى الى مالك وحكيت للمرة الثانية ٠ حكيت عن أشعة الضوء ، وعن ساحة القتال ، وكيف كنت تعرض على مائتى قرش ، وباقى الحديث ، اذا أصـبحت بلا عمل ٠ وكان مالك يضحك ويقول عنك « رجل صالح » وقلت مؤكدا « نعم رجل صالح » ، وهكذا ٠ اذن ، لا حاجة بك الى أن تقول شيئا بشأنى غدا ٠

ـ كذلك ٠

لم يكن يعرف أننى ساعدته ٠

يجب أن يدفن الماضى مع كل يوم يفنى ، يجب أن يمحى لكيلا يثير فينا الألم ٠ فمن السهل تحمل الانسان يومه اذا هو لم يقسه بذلك الذى لم يعد له وجود بعد ٠ أما هكذا فتختلط أشباح الماضى بالحياة ، وعندئذ يتعذر أن تظفر بذكريات نقية ، كما يتعذر أن نجد حياة صافية تستقل بنفسها ٠ فهما فى صراع مستمر ، وتحد على الدوام ٠

٨

« رب انى لا أملك الا نفسى وأخى »

بحثت عن حسن فيما بعد عدة مرات ، ولكنى لم أوفق فى الالتقاء به ، وبحث عنه خادمه كذلك ، ذلك الخادم الاكبر ، وعرف أنه فى السجن مع رفقائه • لقد خرجوا فى منتصف الليلة الماضية من البيت ، وضربوا بعض الشبان فى محل « فرانك » ، وكان من الصعب أن تجد ظهرا لأحد هؤلاء الشبان قد سلم من التحطيم ، وقد كانوا هم السبب فيما حدث لهم، فقد بدءوا بالهجوم ، والآن يضع لهم أقاربهم قطعـــا مبللة على الأماكن المصابة ، وأما اولئك ففى السجن يستلقون • وعلى هذا النحو كانت تنتهى ليالى السرور والطرب ، يسجنونهم حتى عندما لا يقومون بارتكاب جرم أو مخالفة ، ويفرجون عنهم عندما يدفعون الكفالة ، ولا يعلم هؤلاء الذين سجنوا أمذنبون هم ، وغالبا ما يكونون كذلك • وسيفرجون عنهم فى هذه المرة أيضا ، غير أنهم سيطلبون كفالة كبيرة ، لأن الضربات كانت شديدة ، والشبان كانوا من الأسر الكبيرة ، ولكن حسن لا يريد أن يعطى ذلك القدر الذى يطلبون ، ويرفع عقيرته معلنا أنه حزين لأن ضرباته لم تكن أشد ، ويتوعد بذلك عندما يفرج عنه ، اذ ليس هناك من يماثل هؤلاء الأوغاد اللئام • ولكن خادمه سوف يقوم بدفع الكفالة ، وحسن لا يهتم بالنقود وانما يهتم بالعناد ، ولكن أى عناد يكون ذلك الذى يبقى من أجله فى السجن • حقا أنهم ليسـوا فى زنزانة ولا فى أحد البدرومات وانما هكذا فى احدى الغرف ، ولكن على الرغم من ذلك ، هنا خارج السجن يوجد ضوء الشمس ، وأما داخله فيوجد الظلام • كما أن النزول به ولو ساعة يعد نوعا من العذاب ، وبخاصة اذا لم يكن الانسان مجبورا على ذلك ، فكيف اذا استمر البقاء فيه ساعات أو بعض أيام •

سوف يخبرونه فى البيت عند عودته اننى كنت أطلبه ، وينبغى أن يجىء الى فور انتهائه من استحمامه وارتدائه ثيابا اخرى ، لأنه يوسخ ثيابه ويقملها فى كل مرة ، ولذا كان عليه أن يخلع هذه الثياب فى فناء البيت لكى لا يحمل الى داخله بعض الحشرات القذرة · وأما أنا فينبغى أن اكون فى التكية اذا كان الأمر مهمـــا ، لكى لا يبحث أحدنا عن الآخر كالثنين من الحمقى ، واذا لم يكن الأمر مهما فالأمر عندئذ سواء ، وسيكون هناك لقاء عندما تسنح الظروف · ولعل من الأفضل أن ينام حسن بعض الوقت لأنه لم يغمض عينيه منذ صباح الأمس ، وان كان فى استطاعته الا ينام ثلاثة أيام بلياليها ، كما أن باستطاعته ايضا أن ينام ذلك القدر من الوقت ، وما عليك الا أن توقظه ليتناول شيئا من الطعام ، هكذا وهو بين النوم واليقظة ، ثم يعود الى النوم كالبهيمة ، عفوا يا الهى · عبثا كل ما يقال ، فلم تلد أمثله بعد !

لم أكن أبحث عنه دون سبب ، كما لم يكن بحثى عنه رغبة فى ان أتلقى منه عزاء أو التمس منه تشجيعا · ولا أدرى كيف خطر ببالى ذلك التفكير · والواقع أنه ليس تفكيرى ، وانما تفكير حسن ، غير أننى قبلته كتفكيرى انا ، وأردت أن احثه لكى نقوم بالتنفيذ · لقد اظهرته ل « قره زاعم » وتراجعت عندما لم يوافق ، ولكن يخيل الى انه برق لى منذ قليل، حين اتيح لى ان ارى كيف كان يخمد وجه المفتى ، وأن أدرك كم كان عبثا كل ما كنت أفعله واقوله ·يجب اغتصاب هارون ، يجب الدفع للحراس من أجل هربه ، يجب ارساله الى بلد آخر ، لكى لا يروه بعد على الاطلاق· وبهذا فحسب سيمكنه التحرر من بلدومات القلعة : ان صيحاتى المشينة لن تساعده · مع حسن واسحاق يمكن تنفيذ كل شىء · ومع اسحاق يمكن تنفيذ كل شىء · ربما يعرف حسن مكان اختفائه ، وسوف يقبل دون شك · فالذكريات لا تعذبه · كما تعـــذب « قره زاعم » ولا تقف فى طريقه ·

لقد شجعنى التفكير فى هذا المتشرد ، وما استولى على من قوة قاهرة تدفعنى الى التحرك ، الى القيام بشىء · وكنت أحس باضطراب صادق وانفعال شديد : لقد أصبح كل شىء ممكنا ، أصبح فى متناول اليد ، ويبقى الا يستسلم الانسان · ان الأمر صعب حتى عندما يعزم الانسان ، والى أن يتقرر عزمه تبدو العقبـــات أمامه صعبة التخطى والشـدائد باكملها مستعصية على الهزيمة · ولكن عندما تنسلخ من نفسك المترددة وتتغلب على تخاذلك تنفتح امامك طرق عديدة غير متوقعة ، ولم يعد العالم بعـد

ضيقا ولا مملوءا بالتهديد والوعيد • كنت ارسم خططا جريئة مكتشفا اكثر من وسيلة للقيام بعمل بطولى حقا • كما كنت اعد حيــلا وخدعا لا يمكن للحذر الأكبر أن يقوم بكشفها واحباطها ، على اننى كنت احس بانفعال أكثر واستعداد للحركة اشد كلما ازددت شعورا باليقين فى اعماق قلبى والتواءات مخى التى يصعب الاهتداء اليها أن هذا كله يعد خيالا فارغا • لا ، لم أكن أفكر بوعى فى هذا ، ولم اكن أودع قلبى ارادتين مختلفتين جمعت فى نفاق بينهما • ان تفكيرى لم يكن منقسما ، اننى كنت فى صدق اجهد نفسى كى أجد الطريق الأفضـــل لأحرر اخى • وكان صدقى يزداد وحيوتى تشتد كلما كان يسرى فى مكان ما فى داخلى ــ كهمس غامض يصدر من ظلام ، كحقيقة لا يقال عنها شىء ولا يتناولها التفكير ولكنها حاضرة ــ اعتقاد بأن التدبير لا يمكن أن ينجح • وحتى اسحاق كنت أناديه ، اذ كان الوصول اليه أمرا مستحيلا • لقد استطعت أن أشتاق اليه بقدر ما كانت نفسى ترغب فى الحصول عليه • ولم يكن هذا بكذب منى ، لأن رغبتى لم تعد ممكنة التحقيق • ان هذه الغريزة الخفية ، غريزة التمسك بالحياة ، تلك التى تحمينى دون تدخل لارادتى الواعية ــ كانت تسمح لى فى رحابة صدر أن اقوم بكرمى الجميل دون أن تحملنى على الحد منه ، اذ كانت تعرف أن الخطر لم يعد له وجود ولا يمكن أن يكون محقق الوقوع • ولكن هذا الكرم كان يساعدنى أن اثار من أجل الخجل الذى امتلأت به نفسى فى أثناء مقابلتى للمفتى •

اذا كان هذا يبدو غريبا لأحد ، أو مستحيلا ، ففى استطاعتى أن اقول ان الحقائق تبدو أحيانا غريبة جدا ، ونحن نقنع أنفسنا انهـــا غير موجودة ، لأننا نخجل منها كما نخجل من أولادنا أصابهم البرص والجذام وان لم تكن آنذاك اقل حياة واقل حقيقة • اننا عادة نجمل تفكيرنا ونخفى ما يدب فى نفوسنا من أفاع • ولكن أينعدم وجودها اذا نحن أخفيناها ؟ اننى لا أجمل شيئا ولا اخفى شيئا ، بل أتحدث كاننى أمام الله • والى جانب ذلك اريد أن اقول ، اننى لست رجلا سيئا ولا غريبا ، بل انا رجل عادى ، وربما اقل من الصورة التى كنت أرغب أن أكون عليهـــا للرجل العادى ، رجل كغالبية الآخرين •

قد يستطيع قارىء حسن النية أن يقول لى : انك تطيل أكثر من اللازم وتتفلسف كذلك • واذ ذلك ستكون اجابتى على الفور : أعرف ذلك اننى أناقش فى اتساع واحدة من هذه الأفكار الفقيرة ، مستدرا اياها كما تستدر الجرة فارغة وقد تعذر أن تجود ولو بقطرة واحدة • واننى أفعل

ذلك عن قصد ، كي أؤجل الحديث عن ذلك الذى يهزنى الآن ، بعد عدة أشهر من حدوثه . غير أن الدوران لا يساعدنى اذ لا أستطيع أن أتهرب ولا أريد أن اتوقف .

ينبغي أن أقول حتى هذا . لقد وجدت الخفير في البيت ، وكان قد استيقظ منذ وقت مبكر ، حتى لقد ذهب الى السوق وعاد ، وقد استقبلنى عابس الوجه مكفهره ، كما لو كان قد صحا من نومه في هذه اللحظة . وليس ثمة أثر لما كان ثرثرته فى الليلة الماضية ولما تملكه من رغبة فى ان يحول بيني وبين الذهاب ، كما لا يوجد شيء من علامات تعلقه بي وانعطافه نحوى ، بل لقد كانت الدلائل تشير الى أنه يريد التخلص منى فى أقصر وقت ممكن . لقد غضب حسين سألته عما أراد أن يقوله لى الليلة الماضية وأجابني بقوله :

ـ كل ما كان لدى من قول ذكرته لك . لماذا اخفيه ؟

كيف تسنى لى أن أخدع نفسى الى هذه الدرجة ؟ لقد شغلت نفسى كثيرا بالتفكير فيما دار بيننا من حديث ، ولم افكر فى الكلمات بقدر ما فكرت فى المضمون . اذ كان يعرف شيئا عنى دون شك ، وقد ذكرت له ذلك ، وكان يقسم هو بكل شيء بأننى فهمته خطأ . ان الليل هو الليل والنهار هو النهار ، والله يعلم ماذا كان يدور بفكره وهو يتحدث عن أشياء عديدة ، وماذا كنت أفكر مستمعا الى حديثه عن تلك الأشياء ، والآن أرانى قد حشوت فى رأسى حتى ذلك الذى لم يكن فى تصوره . ماذا يعرف هو ؟ وماذا يستطيع أن يعرف الرجل ـ وكان يطلق ذلك فى صوت متهدج ـ الذى يتسكع طول الليل ، متعبا كحصان أعرج لسقاء ، وينتظر فى لهفة بالغة أن يندفع الى بيته الصغير الفقير ولحافه الممزق . انه يعول أربعة سواء فى هذا الوقت السيىء . وهذا يكفيه وزيادة ، وليس له بعد ان يهتم بأمور الآخرين . توقف غضبه اذ ذاك ، ونطق على الفور فى هدوء ، وربما فى حنو وانعطاف ، ذاكرا أنه يود أن يساعدنى أكثر من أن يساعد أحدا غيرى ، ومعلنا ان مصيبة ما دون شك تعذبنى وتضيق على الخناق ، والا لما جئت اليه لكي يقول لى ما لا يعرفه ، وهو لا يعرف ماذا أطلب . ويبدو اننى كذلك لا أعرفه .

اسمعت فى كلماته فى الليلة الماضية ما لم يكن فيها ، أو ان شيئا قد حدث معه ؟

انصرفت دون أن أعلم شيئا ، وحقا كان على حق ، ودون أن أعرف حتى ذلك الذى كنت أطلب معرفته ٠

احسست اذ كان الوقت عصرا ، واذ كنت متعبا شديد التوتر ، معذبا بافكارى عن تحرير أخى حيث كانت الصعوبة تزداد بازدياد تلك الحشود من العقبات ، ومستبعدا فى تفكيرى امكان تحقيق هذا التحرير ـ أننى فقدت حتى هذا الأمل ، وان كان يرى كاذبا ، وأخذت استسلم ثانية لعذاب الغد عند المفتى ٠ لقد كنت ضعيفا ، هشا ، مستنفد القوة بتلك الجهود التى كنت أتخيلها طول اليوم : وكان يخيل الى أننى لو كنت أباشرها فى الواقع ، أو كنت أنتظرها بحسد ، لما نالنى هذا القدر من التعب ٠

دخل أولاد مصطفى حديقة التكية ، ولعبوا فى البداية لعبة الحصى على الألواح الحجرية التى كانت عند مدخل التكية ، ثم تناولوا حيث يجلسون غداءهم ، وأخذوا بعد ذلك يجرون كما تجرى الجراء ٠ كانوا يقفزون متخطين الزهور ويكسرون أعواد « البيسرك » ويغطون اغصانا من شجرة التفاح ، ويملئون الجو صراخا وضحكا وبكاء ، وكنت أرى كيف أننا سنكون مضطرين أن نترك لهم التكية وحديقتها وننتقل الى حيث ندرى ٠ لقد صرخت عدة مرات ، ثم ناديت مصطفى عند خروجه من البيت ، وافهمته أن الأولاد يحدثون ضجيجا غير محتمل ٠

ورد على دون أن يسمعنى :

ـ انهم ينتظرون العشاء ٠

قلت بصوت أعلى :

ـ انهم يحولون بيننا وبين الهدوء ٠ قل لهم ليخرجوا ٠

ـ اثنان لى ، وثلاثة لها من زوجها السابق ٠

أشرت بيدى قائلا : اطردهم ، اننى سوف أجن !

لقد فهم ، وذهب غاضبا وهو يتمتم :

ـ لقد أصبح الأولاد الآن يحولون بينهم وبين الهدوء !

وعندما هدأ الضجيج ، نظرت الى الخسارة ، آملا أن تكون أكبر ، ورغبت أن ينتابنى الغضب حتى استطيع التحرر من تلك الافكار التى لا زمتنى ولا تريد فراقى منذ أيام ، وجلست تحت كرمة تقوم على شاطىء

النهر الذى كانت مياهه ما تزال تتلألأ تحت أشعة الشمس وقد مالت الى الغروب ٠

أحسست بتوترى يقل ويتضاءل ٠ ولا أدرى أكان ذلك تلبية لما أحسه من رغبة شديدة فى استشعار الهدوء ، أو استجابة لما تنشــــدم النفس من سكون يكون عـــلاجا لها بعد ضــجيج الأولاد ، أو بتأثير هذا الجريان المستمر للنهر على وتيرة واحدة يعلن عنه خرير لا يكاد يسمع٠ وأحسست كذلك بالجوع ، ولا أدرى متى تناولت طعامى أخيرا ٠ كان ينبغى أن آكل شيئا لتشتد قواى ، وليتحول اهتمامى الى ناحية أخرى، ولكن الوقت الآن غير مناسب ، وقد خطر ببالى هذا فى لحظة صــــفاء ، فمصطفى غاضب ، اذ طردت الأولاد ، ولعله ما كان ينبغى لى أن أفعل هذا غير أننى فى الحقيقة هدأت نفسى ، وكان يطيب لى الهدوء ، على الرغم من حزنى لهذا التصرف ٠ لم يكن الحزن يتملكنى بدرجة كبيرة ، وكان هذا من الخير ، كما كان من الخير أيضا أننى كنت حزينا ، وهانذا أعود الى الأفكار العادية والحياة المألوفة ، حيث يحس الانسان بقدر من الخير ومثله من الشر ، يحس من كل بهذا القدر الذى لا يقلقه ولا يخل بتوازنه ، وحيث نشعر أن الملل قد أصابنا بدرجة كافية ، فالانســــان قد يصيبه السوء عندما يفقد احساسه بالملل ، ففى الحرب لا يوجد شعور بالملل وكذا عند المصيبة وكذا فى حالات العذاب ٠ وحيث تكون الصعوبة لا يكون الملل ٠

وهكذا وصلت الى حالة طيبة من التفكير السطحى الذى لا ينتــــابه التقلص ولا يعتريه التضارب ، وانما يجرى فى انزلاق ملامسا ســـطح الأمور ، ويهتدى الى حلول سهلة يسيرة لا تعد فى الواقع حلولا ٠ ان هذا لا يعتبر تفكيرا بل توهما لوجوده ، ترفيها عن النفس ، كسلا لذيذا للعقل ولم يكن هناك شىء أنفع من هذا فى تلك اللحظة ٠ لا ، لم أنس شيئا من ذلك الذى كان أشق عذاب لنفسى ٠ والذى كان يستقر فى بطنى كما لو كان حجرا ، ويجرفه دمى فى دورته كما لو كان يجرف السم ، والذى كان يكمن مترصدا فى التواءات مخى كالأخطبوط ٠ ولكنى أحس أنه قد هدأ الآن كما يهدأ المرض الشديد ، وجاءت لحظة اليسر ، ولذا يبدو كأنه ليس موجودا ٠ ان هـــذا الاختفاء القصير للشـــدة ، وهذا التحرر لبعض اللحظات من العذاب ، قد مكنانى بهذا القصر والتوقيت ـ وقد كان كل شىء فى داخلى يعرف ذلك ـ من أن ارى الأشياء حولى قريبة الى وجميلة فى ناظرى ٠ لقد احســـست ان حضورى الهادىء فى هذا التناسق الذى صنعته الطبيعة يوشك أن يكون سعادة ٠

عاد الحافظ محمد من مكان ما ، والقى على التحية ثم دخل غرفته ٠ انه رجل صالح ، هكذا رأيت بفكرى ، وكنت ما أزال محاطا بالسعادة من تلائمى السطحى مع الطبيعة وتفكيرى المبسط ، وكان يبدو لى أن الحيـاة قد أوقعت ظلما بهذا الرجل ، ولم يكن هذا سوى خرافة منى ، فالحيـاة حياة ، وكل منها تشبه الأخرى ، وكل شخص يسعى لارضاء نفسـه ، وأما الشدائد فتأتى وحدها ٠ وهو يرضى نفسه بالكتب ، وغيره يرضيها بالحب ، أما مصيبته فتتمثل فى مرضه ، كما تتمثل عند الآخرين فى الفقر أو فى الطرد ٠ كلنا نعبر من شاطىء الى آخر ، سائرين فى طريق حياتنا على حبل دقيق ، ولكل منا نهاية معروفة ، نهاية يتفق فيها الجميع ٠

لقـد خطرت ببالى ابيـات حسين أفندى الموستارى ، ونطقتها فى تؤدة ، وبارتياح اليها لم أكن احسه من قبل ٠ وكنت أسمعها كهمس هادىء ، دون تهديد ، ودون ظلال صوتية قاتمة :

وقف شاهين البهلوان
حاسر الراس حافى القدمين
على حبل لا يستطيع المرور عليه دون خوف سوى النسيم
ولم يكن شاهين ، الباز ، يخشى من الخطر
فذكر اسم الله وانطلق
فعبر ما بين الشاطئين
وتلاميذه ، الصقور الصغار ،
عبروا كذلك فوق الهاوية ٠٠
فوق المياه تتلألأ فيها أشعة الشمس
وكانوا يبدون كالدرر يجمعها خيط دقيق
كانت الهاوية عميقة تحتهم ، والسماء بعيدة فوقهم
وكانوا على حبل بهلوانى متأرجح
كانوا على الطريق
طريق الحياة الزلج ٠٠ الصعب ، الخطير ٠

لقد كانت صورة الرجل المنفرد الذى كان يمضى رغم ذلك فى شجاعة عبر طريق حياته الخطير تتجاوب تجاوبا حسنا مع شعورى الحالى بقدر الانسان ومصيره ٠ ولو كنت فى حالة نفسية أخرى لكان فى الامكان أن يزلزلنى

التشاؤم والاجبار على المضى فى السير الشاق العنيف ، ولكنه بدا لى اذ ذاك كالمسالمة المعقولة مع المصير ، بل لقد بدا لى كأنه العنـاد • لا أدرى ماذا قصد حسين افندى الصالح على وجه اليقين بهذه الأبيات ، غير أنه بدا لى أنه يسخر قليلا من نفسه ومن الآخرين •

خرج الحافظ محمد من التكية ، ووقف بجانب السياج على شاطئ النهر • كان وجهه شاحبا يعلوه الاضطراب • ولم يلق ولو نظرة على • أهو مريض ؟

ـ كيف تشعر اليوم ؟

ـ انا ؟ لا أدرى • لست بخير •

اننى أشعر أنه لا يحبنى ، ولكنى لا أعاتبه • فهو أيضا يخطو على الحبل البهلوانى بين الشاطئين ، على النحو الذى يعرفه • وأحيانا يحاول أن يكون صالحا •

سألته مبتسما ، وكنت ما أزال فى حالة الانشراح ، وعلى استعداد لأنهم كل شئ ، وعلى استعداد كذلك لأن اقدم له شكرى :

ـ قل لى فى صراحة ، انك كنت تعرف ما تريد زوجة القاضى ، ولذا ارسلتنى ؟

ـ اية زوجة لقاض ؟

ـ هناك فى القضية قاض واحد ، وزوجة قاض واحدة • أخت حسن

استولى عليه الغضب ، وكاد ينتابه الاشمئزاز • ولم أكن تعودت أن أراه على هذه الصورة •

ـ لا تجمع بينهم فى الذكر • أرجوك !

ـ اذن كنت تعرف ما تريد • ولكنك لم ترد أن تتدخل • أليس كذلك ؟

ـ اترك هذه القذارة ، بالله عليك • لقد قصدت أن أساعدك ، وهذا هو السبب فى عدم ذهابى • ولكن لا تذكرهم الآن •

ـ لماذا ؟

ـ الم تعرف شيئا ؟

ـ لا •

ـ اذن يجب على أن أقول لك •

وبصوته الكدر ، وبما يتجشمه من عذاب ليحمل وجهه على النظر في وجهي ، وبيديه المتوترتين اللتين كانتا تلجئان كثيرا الى الاختفاء في جيبيه العميقين ثم تنسحبان منهما ، وبكل ما ظهر منــــه ولم آكن قط لاحظته عليه من قبل فبدا من أجله رجلا آخر في عيني ، وبخوفي الذي كان قد استولى علي ـ عرفت أن ذلك الذي يريد أن يفضي الى به أمر بالغ الصعوبة ٠

سألته ، متعجلا أن أغرق نفسي في مياه سوداء :

ـ عن أخي ؟

ـ نعم ، عن أخيك ٠

ـ أخي هو ؟

ـ قتل قبل ثلاثة أيام ٠

ما كان باستطاعته أن يزيد شيئا ٠ وما كان باستطاعتي أن أوجه اليه سؤالا ٠

نظرت اليه : كان يبكي وقد اعوج فمه ، فبدا منظره غاية في القبح اعلم انني لا حظت ذلك ، واعلم كذلك أنني دهشت لبكائه ٠ انني مابكيت وما أحسست بشدة تعتريني ، فقـــد لمع ما قاله فجاة كما يلمع البرق الخاطف ، ثم استولى علي الهدوء ٠

كانت المياه تخر في هدوء ٠

ووصل الى سمعي أصوات الطيور على الغصون ٠

ها قد انتهى كل شيء ، هكذا ظننت ٠

أحسست بالارتياح : لقد انتهى كل شيء ٠

قلت :

ـ هكذا اذن ، هكذا ٠ وأنا فوق المياه التي تتلألأ على صفحتها أشعة الشمس الذهبية ٠

واندفع الحافظ محمد يقول في فزع ، ظانا أن لوثة أصابتني :

ـ اهدأ ٠٠ اهدأ ٠ سنرفع أكف الدعاء الى الله من أجله ٠

ـ نعم ٠ هذا هو الشيء الوحيد الذي تستطيعه ٠

لم أكن أحس حتى بالألم • كما لو كان شيء في داخلي قد استؤصل ولم يعد موجودا الآن ، هذا كل ما في الأمر • لقد بدا عدم وجوده في داخلي غريبا للغاية ، غير مقصور على التمام ، غير ممكن على الاطلاق ، غير أن الألم كان أشد عندما كان موجودا •

حضر مصطفى ايضا ، ولم يكن هناك شك في أن الحافظ محمد قد أوضح له مصيبتي ، كان يحمل الى شيئا في طبق ، وقد بدا شـــديد الاحساس رقيق العاطفة ، كما بدت خطاه أكثر اضطرابا مما كانت عليــه في العادة •

قدم الى الطعام ، وقال محاولا الا يرفع صوته :

ـ ينبغي أن تأكل ، فانك منذ الأمس لم تذق شيئا •

وضع الطعام أمامي كأنه دواء ، كأنه دليل لرقته وانعطافه ، وكنت آكل دون أن أعرف ما الذى آكله ، وكانا ينظران الى ، أحدهما كان يقف بجانبي ، والآخر أمامي ، كما لو كانا حارســين غــير ماهرين يقومان بحراستي من الحزن •

احسست اذ كنت في الفترة بين تناول اللقمتين أن الجزء المقطــوع بدأ يؤلمني •

توقفت عن الطعـــام ، مشـــدوها ، وفي صعوبة وبطء اخذت أنهض •

واذ ذاك سأل الحافظ محمد :

ـ الى أين ؟

ـ لا أدرى • لا أدرى الى أين •

ـ لا تذهب الى مكان ما • لا تذهب الآن • ابق معي •

ـ لا أستطيع ان أبقى •

ـ اذهب الى غرفتك • وابك اذا استطعت •

ـ لا أستطيع البكاء •

وبدأت أعرف شيئا فشيئا ماذا حدث ، واخذ الألم يطغى على ، كماء هادىء جرى اليه السيل فأخذ في الازدياد • وبينما كانت المياه لا تزال الى الكعبين كنت أفكر في اضطراب عن الخوف ازاء يأس الغد •

واذ ذاك ، وكما لو كنت ارى أخي المذنب يقف أمامي ، احسست بسيل الغضب يندفع فجأة • كان ينبغي ان يحدث لك ما حدث• وتطايرت الكلمات كشرر من الغضب الممتزج بالبكاء • ماذا كنت تطلب ؟ ماذا كنت تريد ؟ لقد أوقعتنا جميعا في اليأس أيها الرجل الأحمق ! لماذا ؟

ومر هذا ، لقد استمر لحظة فحسب ، ولكنه بعث في الحركة ٠

من فوق الجبل ، ومن حي الفجر ، كانت تنطلق ضربات الطبل تصم الآذان ، وكان انطلاقها على فترات ، كما كان ينساب الى الأذن صوت المزمار ولكن ذلك على التوالى ودون انقطاع ، سمعت هذا منذ الصباح ، منـذ ليلة الأمس ، منذ الأبد ، وكان الجنون المخيف لعيـد مارى يرتمى على القصبة كأنه العناد ٠ كأنه الوعيد ٠ وكنت استمع وارتعد ، وكان يضرب فى مكان ما طبل كبير كأنه للناس بمثابة النذير ، كان ينادى أولئك الذين لا وجود لهم ، اولئك الأخوة الموتى جميعا تحت الأرض وفوقها ٠ لقـد بقى شخص على قيد الحياة ، وهو الآن ينادى ٠ ولكن ليس من مجيب ٠

لم تتولد الأفكار فى نفسى بعد ، ولم يتملكنى البكاء ، ولم يتقرر الاتجاه ٠ لا ينبغى أن اذهب الى أى مكان ، ولكنى أسير ، وفى مكان مافى نفسى بقيت آثار الميت هارون ٠

تحت الجسر الحجرى الصغير كانت تنساب مياه نهرى ، وهناك على الجانب الآخر للنهر كانت تقبع أرض ميتة ٠ اننى لم اعبر هذا الجسر فى حياتى ، وان كنت قد عبرته بنظرى ، اذ عنده ينتهى السوق والقصـبة والحياة ، ويبدأ الطريق القصير الى القلعة ٠

ان أخى مر هنا ولم يعد ٠

ومن الآن اخذت اقطع بافكارى هذه المسافة من الجسر الحجرى الى الباب البلوطى الثقيل الذى كان يربط طرفى السور الأغبر للقلعـة ٠ وكنت فى وصولى المتخيل أسير كأننى فى حلم ، كان الطريق دائما خاليا، ممهدا للعابر ، وان كان يبدو وعرا فى خيالى ، وذلك لأستطيع اجتيازه بسهولة ٠ ان الباب الكبير هدف لكل شيء عندى ، والطريق من جميـع الاتجاهات يقود اليه ، انه عتبة القدر ، انه قوس المنون ٠ لقد كنت أراه فى أفكارى ، فى حلمى ، فى خوفى ، وكنت أشعر بندائه من غور الظلام، وأشعر بجوعه الذى لا يعرف الشبع ٠ كنت أستدير وأهرب ٠ وكان ينظر الى قفاى ، ويخشى على العودة ، وينتظرنى ٠ كنت أراه كالغسق ، كالهاوية ، كالحل الأخير ٠ وقد يوجد خلفه سر ، وقد لا يوجد شيء ٠ هناك تبدأ وتنتهى الأسئلة ، تبدأ للأحياء وتنتهى للموتى ٠

كانت هذه أول مرة فى الحقيقة أمر فيها بزقاق عذابى الذى استمر ليالى طويلة ، وما كنت على يقين من أننى سألتقى به ٠ وحقا كان الطريق خاليا كما كنت اتصوره وارغب أن يكون آنذاك ، وأما الآن فالأمر عندى سواء ، حتى لقد وددت الا يكون خاليا هكذا كالمقابر ٠ كان ينظر الى فى

عبوس واكفهرار وحقد ، كما لو كان يريد أن يقول لى : على اية حال لقد جئت ! لقد كان الذهاب الى اللاشيء فى هذا الطريق يثير فى نفسى القلق والاضطراب ، ويقتل فيها ما بقى من شجاعة حزينة تتمثل فى كونى أرى، أرى الأمر سواء • لقد اردت الا يكون منى تطلع الى شيء حتى استطيع أن اقلل ما يعتريني من الاضطراب والارتعاد ، ولكن هانا اتطلع الى كل شيء ، اتطلع الى عداوة الزقاق الخالى ، الى الباب المخيف أمام السر ، الى عينى حارس مختف وراء ظهرنا من ثقبه الصــــغير • لم ار هاتين العينين فى تخيلاتى آنذاك ، عندما كان ينبغى ان اجيء ، لم يكن يوجد سوى الباب، وسوى هذا الزقاق المؤدى اليه ، هذا الحبل الذى يوصل الى الشـاطيء الآخر •

سأل الحارس :

ـ ماذا تريد ؟

ـ هل جاء الى القلعة شخص بمفرده ؟

ـ لقد جئت أنت • ألك احد فى القلعة ؟

ـ لى أخ • مسجون •

ـ وماذا تريد ؟

ـ أأستطيع أن اراه ؟

ـ سوف تراه اذا سجنوك أنت كذلك •

ـ أأستطيع ان أحمل اليه بعض الأشياء ؟

ـ نعم • وسوف أسلمه أنا اياها •

لقد كنت أحاول فى جنون أن اعود بالزمن الى الوراء وأن أحيى قتيلا، لم يقتل بعد ، فقد علمت أنه سجن وجئت على الفور لكى اسأل عنه ، ان هذا واجب انسانى أخوى ، لا يستوجب الخوف أو الخجل ، ولا يزال هناك أمل ، سوف يفرجون عنه عن قريب ، سوف أحمل اليه الأشياء ، وسوف يعرف أنه لم يترك وحيدا ، فأمام الباب يقوم دمه • لم تستطع القلاع او الحراس او الحذر والحيطة ان تحول دون مجيئه ، وقد جاء ، نعم جئت ، انه يصغرنى بخمسة عشر عاما ، ودائما كنت اهتم بأموره ، لقد جئت به الى القصبة ، أيها الناس ، فكيف استطيع أن اتركه فى اشـــد الحالات عسرا ، سوف تنقشع سحابات من الحزن عندما يعلم بأمر مجيئى وسؤالى عنه • ليس له احد غيرى ، فهل لى أن أخدعه ، لماذا ؟ باسم اى

شيء ؟ انظروا الى جميعا شذرا ؛ اغضبوا على ، أشيحوا برؤوسكم ، فكل هذا على السواء عندى ، انني هنا ، لا أتنازل عن صلة ليس لدى أقرب منها ، اصلبونى اذا أردتم من أجل هذا الحب ، أيمكن ان أقف ضده ؟ لقد جئت يا اخى • لا ، لست وحيدا •

كان المجيء متأخرا ، وليس في وسعى بعد كل ما حدث وما لم يحدث سوى ان أتلو الفاتحة على روحه ، آملا أن تصل اليه ، وربما سيكون فى حاجة اليها •

كانت تلاوتى يشـــوبها الحزن والمرارة ، وكانت تختلف عن تلك التلاوة التى كنت أتلوها على أرواح الموتى فى التــوابيت • فقد كانت تتعلق بى وبه ليس غير •

اصفح عنى يا أخى ، أنا المذنب بهذا الحب المتأخر ، لقد ظننت وجود هذا الحب عندما كانت الحاجة تدعو اليه ، ولكن ها هو الآن يستيقظ عندما لا يكون بامكانه أن يساعد أحدا أو يقدم حتى بمساعدتى • ولا أدرى بعد أهو حب أم عودة الى الوراء بلا جدوى • لم يكن لك أحد غيرى سوى هاتين المقبرتين اللتين تقبعان فى البيت ، والآن لم يعد لك ولا لى أحـد • لقد فقدتنى قبل أن افقدك ، وربما لا ، ربما ظننت أننى اقف امام هذا الباب الموثق بالحديد ، كما لو كنت تقف انت من اجلى ، وربما كنت تامل حتى اللحظة الأخيرة أننى سوف أساعدك ، وبالحسن حظى لو كنت تثق بى الى هذه الدرجة ، ولو كان ذلك لما استولى عليك الخوف من الوحدة النهائية، عندما ينفض عنا الجميع • واذا كنت تعرف هذا كله فليساعدنى الله •

سأل الرجل عن وراء الباب :

ـ ما هذا الهمس ؟

ـ أتلو الدعاء للأموات •

ـ اتل الدعاء للأحياء ، فأمرهم اشق واعسر •

ـ لقد رأيت كثيرا ، فيجب ان اصدق قولك •

ـ لا يهمنى أن تصدق أو لا تصدق •

ـ .كم رجلا دخل من هذا الباب ؟

ـ أكثر مما خرج • ومع ذلك فعددهم مكتمل •

ـ أين يكون عددهم مكتملا ؟

ـ عند المرتفع ، فى المقابر •

ـ قبيح أن تمزح هكذا يا صديقى ٠

ـ انهم يمزحون ٠ وانت كذلك تمزح ٠ والآن ابتعد ٠

ـ أيجب عليك أن تكون خشنا الى هذه الدرجة اذا كنت فى هذا المكان ؟

ـ أيجب عليك أن تكون أحمق الى هذه الدرجة اذا كنت فى هذا المكان

ادخل هنا ، تخط العتبة ، ستخطو مقدار راحة اليد فقط ، وعلى الفور ستتكلم على خلاف ما تتكلم الآن ٠

راحة اليد ، هذا القدر فقط ، وسيتغير على الفور كل شيء ٠

كان ينبغى احضار الناس جميعهم ليروا هذه المساحة التى تقـــدر بالراحة كى يمقتوها ٠ أو لا ينبغى ذلك ، بل ينبغى اخفاؤها عنهم ،وعدم احضارهم اليها ، حتى يجاء بهم عندها ، وذلك لكى لا يكتموا كل فكرة تراودهم ، أو يروا القبح فى كل كلمة يقولونها ٠

عدت مطرق العينين ، باحثا فى الطريق تغطيه الأحجـــار ويتعذر ظهور المشب فيه عن آثار قدمية ، عن المكان الذى وقف فيه للمرة الأخيرة خارج جدران القلعة ٠ لا توجد آثار منه بعد فى هذا العالم ٠ وكل ما بقى منه هو ذلك الذى فى داخلى ٠

كنت أحس بقفاى كيف كان يطعننى الباب بثقبى عينيه المجريتين ، سوف ينفذان الى فى شوق ولهفة لابتلاعى ٠

لقد كنت على حافة الموت ، على عتبة القدر ، وما كنت قد تعرفت على شيء ٠ تعرفت من ذا الذى يدخل فحسب ، ولكنه لا يستطيع أن يدلى بشيء ٠

ربما يخطر ببال الناس أن يجعلوا من هذا الباب بابا وحيدا للموت٠ فيسمحوا لنا بالدخول واحدا وراء آخر وحشدا اثر حشد ، لماذا يجب انتظار الصدفة ، لماذا يجب انتظار الأجل المحتوم ٠

لم يكن هذا التفكير الجنونى ســـوى دفاع عن الفزع الذى يصعب التعبير عنه والذى كان قد استولى على ، سوى محاولة لكى لا يشـــعر الانسان بعذابه وهو يرى عذاب الجميع ٠ ذهبت لأبحث عن الأثر الأخير للقتيل ، ولكنى وجدتنى فى جنازته ، بدونه ، بدون أحد ما ، وحدى ، ولم يكن فى ظنى أننى سأقوم بمثل ذلك ، كما لم أكن أعرف لماذا كنت

فى حاجة لأن اجىء الى هذا المكان كى اذكره وهو ميت ٠ وربما كان ذلك لأن هذا المكان أشد الأمكنة حزنا فى العالم ، وذكرى الأموات فيه ترى اكثر لزاما ٠ وربما كان لأن هذا المكان أشد الأمكنة فزعا فى العالم ، ويجب على الانسان أن يتغلب فيه على الفزع لكى يذكر المقتولين ٠ أو كان ذلك لأنه أكثر اثارة للاشمئزاز ٠ وذكرى لنفسه السابقة يمكنها أن تبعث نظرة فزعة الى ذاته ٠ لم آكن ابحث عن هذا المكان ، ولكن تم وجودى فيه ، لم أكن فى حاجة اليه ، ولكن لم يكن فى استطاعتى غير ذلك ٠

عند مدخل السوق كان يقف رهط من الناس ، ينتظرون ، كما لو كنت عائدا من العالم الآخر ٠ كانوا ينظرون الى فى سكون تام ، كانت اعينهم هادئة ، ولكنها لا تتجنب النظر الى ، كانت ترهقنى ، كانت تنثال على جبينى ، كما تنثال جماعات النحل على موطنها الجديد ، سوف أبدأ في التعثر ٠ لا أدرى لماذا جاءوا ، ولا لماذا سدوا الطريق ، ولا ماذا ينتظرون، كما لا أدرى ماذا يجب على أن افعل ٠

وبينما كنت أخرج من زقاق القلعة ، وكأننى أخرج من الليل (ومرة ثانية سمعت صوت ضربات خافتة تصدر من طبل كبير ولم يكن مصدره بينهم) شاهدت بين هؤلاء المنتظرين تحميهم الشمس ويفصلهم الجسد عن هذا الطريق الذى يقود الى اللا شىء ـ المتشرد اسحاق ، احدى قدميـــه محتذية والأخرى حافية ، وكان وجهــــه جامدا كما كانت كذلك وجوه الآخرين ، انهم كتلة واحدة ، فلا شىء يفصل أحدهم عن الآخر ، اننى أراهم صورا مكررة لاسحاق ، لهم أعين عديدة وسؤال يراودهم وحيد ٠ لقد خيل الى بسبب وجود اسحاق أننى أفطن لماذا يقفون هنا ، وماذا يرغبون أن يعرفوا ، أفطن ، وليس هذا على وجه التحديد ، بل أتنبأ من أجل وجوده ، ولا أجرؤ على أن أرفع بصرى عن الطريق ، ربما يفسحون لى الطريق ، وربما يمرون بجانبى وأمر بجانبهم ، وسوف أتظاهر اننى مشغول الفكر وأتغافل أنهم ينتظرون شيئا ، وســواء عندى أأدركوا هذا أم لم يدركوه كما لست أبالى اذا ما اعتقد هو اننى أتحاشى نظرته ، ولكن على الرغم من ذلك كم وددت لو لم يكن معهم ٠ انه لو لم يجىء بهم لما حضروا ٠

وعندما اقامت الأقدام سدا أمامى ، رفعت عينى ناظر نحو اسحاق، اذ يجب على ان أرى ماذا يريد ، لأننى لا أستطيع أن أتجنبه الآن ٠ ها لم يعد موجودا ٠ اننى اعرف أين كان يقف ، الثالث من الجهة اليسرى ٠ والآن كان ينظر الى من ذلك المكان شاب نحيف ، دون أن تبدو عليــــه الدهشة لتوقفى أمامه ٠

كانت أعينهم تعلن الاصرار ، تنظر محدقة وتنتظر · أين هو ؟ ليس موجودا على يمين الشاب ولا عن يساره ، ومررت ببصري على وجوه هذا الصف دون أن اقوم بعده وكان بعلمي أنهم تسعة ، كما قمت بعرض شفاههم المطبقة ، وحواجبهم المشدودة المتوترة ، ونسيت أنهم يريدون شيئا ، فقد كنت أبحث عن اسحاق · لا أدرى لماذا انا فى حاجة اليه ، ولا أدرى بما أحدثه ، ولكن الحزن تملكنى لعدم وجوده · غير أننى رأيته، رأيته فى الواقع عن بعد ، فقد خطوت عشرين خطوة وأنا خافض العينين، وكانت الشمس تفيض عليهم ضوءها ، فبدوا كأنهم غمسوا فى طلاء ذهبى، وكانوا فى عالمهم هذا يتلألئون كالمشاعل ، وكانت النظرات ترتد كليلة عنهم ، ومهما يكن من شيء فلو تعرفت عليه لقدمت نفسى رهينة عنده · واما هؤلاء فلا يجب على ان احدثهم بشيء ، ولو كنت أعرف ما ينبغى أن أتحدث به ·

مررت ، وانشقوا ليفسحوا لى الطريق ، لقد مرت بعض اللحظات فى هدوء ، كنت أسير وحدى ، ثم اخذت الأقدام تحدث خشخشة فى هذا الطريق المغطى بالأحجار ، لقد تحركوا خلفى · أسرعت بخطاى لكى أبتعد عنهم ، ولكنهم أخذوا يتابعوننى مغذين السير ، ولم تعد المسافة تحول بينهم وبين اللحاق بى ، وبدا كما لو كان عددهم قد تزايد ·

أخذ الظلام يهبط ، وبدت الأزقة اذ كان الوقت ربيعا تضرب الى الزرقة وتثير بذلك فى النفس قدرا خافتا من الاضطراب ·

لم أسمع صوت المؤذن ، ولا أدرى أحان الوقت للصلاة أم لم يحن بعد ، غير أن المسجد كان مفتوحا ، وكانت تضيئه شمعة وحيدة وضعت فى شمعدان كبير ·

دخلت المسجد ، وجلست فى مكانى أمام المحراب · سمعت دون أن أستدير حركة دخول الناس وجلوسهم خلفى دون أن تصدر منهم كلمة أو يدور بينهم همس · لم يكونوا قط على هذا النحو من الهدوء · وكانوا فى صلاتهم هادئين كذلك ، وعلى صورة مهيبة كما كان يخيل الى · غير أن تلك التمتمات الخاشعة التى تصدر منهم وهم وقوف خلفى يؤدون الصلاة كانت تثير مشاعرى ·

وبينما كانت الصلاة ما تزال تؤدى كنت أشعر أن هذا الأداء كان على جانب من الغرابة ، اذ كان يختلف عن أى أداء الى الآن ، كان أشد حرارة وأكثر احساسا بالخطورة ، كان بمثابة الاستعداد لوقوع شيء · وكنت أدرك أنها لا يمكن أن تنتهى على النحو الذى كانت تنتهى عليه

الصلوات الأخرى • ان كلمة « آمين » تعنى البداية وليس النهاية : لقد كانت تسمع فى صوت خافت كثيف ، وكانت تشير الى الانتظار • انتظار أى شىء ؟ ماذا سيحدث ؟

لقد اتضح لى من صمتهم وسكوتهم واصرارهم على عدم الذهاب بعد أن انتهت الصلاة ذلك الذى لم آكن أود أن أعرفه ، انهم كانوا يريدون أن يرونى بعد أن علمت بامر المصيبة ، كانوا يرغبون أن اكشف عما أكونه فى هذه اللحظة •

اننى أنا نفسى لا أدرى ما أكون ، كما لا أدرى أية اجابة يمكننى أن أجيبهم بها •

ان كل شىء يتوقف الآن على •

كان بامكانى ان أنهض وانصرف ، أن أهرب من نفسى ومنهم ، ولو فعلت لكان هذا أيضا جوابا •

كما كان باستطاعتى أن أرجوهم ليخرجوا ، كى أبقى وحيدا فى هدوء المسجد الخالى • ولو فعلت لكان هذا بالتالى أيضا جوابا •

ولكن سيبقى اذ ذاك فى داخلى كل شىء • ولن يصل شىء الى أحد• لقد احسست حتى عندما كنت أمام باب القلعة بخوف من الم الفقد وندمه ، ففى استطاعة النيران أن تلتهمنى ، وبامكان الأسى أن يخنقنى ، وفى مقدور الغضب والحزن اللذين لا يمكن تصورهما أن يخرسانى الى الأبد • كان لزاما على أن أقول ، من أجل هؤلاء الذين ينتظرون ، فأنا انسان ولو الآن ؛ ومن أجله هو ذلك الذى لم يدافع عنه أحد • وليكن هذا له دعاء حزينا من قبل أخيه ، دعاء للمرة الثانية فى هذا اليوم ، ولكنه سيكون الدعاء الأول الذى يسمعه الناس •

هل كنت أخاف ؟ لا ، لم آكن ، لم آكن أخاف من شىء سوى ما يسيطر على من القلق • هل سأفلح فى انجاز ما يجب على فعله • كنت أشعر باستعدادى المطمئن لكل ما يمكن وقوعه ، بهذا الاستعداد الذى يصحب حتمية وقوع الفعل ، وارتضاءنا الشديد به ، ذلك الارتضاء الذى يكون أقوى من الثأر وأقوى من العدالة • لم استطع أن أفعل شيئا ضدى بعد •

قمت ، واضأت الشموع منقلا الشعلة من واحدة الى أخرى ، لقد أردت أن يرونى جميعا ، وأردت أن أراهم جميعا ، ليحفظ أحدنا الآخر فى ذاكرته •

استدرت في بطء ، لن يخرج أحد ، لن يخرج فرد منهم . فقد كانوا ينظرون الى ، جالسين جلسة التشهد ، ومنفعلين من جراء حركاتى البطيئة ومن السنة اللهب التى كانت تضىء على طول الحائط الذى يقع فيه المحراب مطلقة رائحة قوية من الشمع .

ـ يا ابناء آدم !

اننى ما دعوتهم قط بهذا من قبل .

لم أكن أعرف ، حتى منذ قليل ، ماذا ساقول . فكل شىء كان يحدث تلقائيا . لقد كان الأسى وشدة الانفعال يجدان صوتهما وألفاظهما .

ـ يا ابناء آدم ! لن ألقى وعظا ، فلن استطيع ذلك حتى ولو اردت. ولكن أعتقد أنكم ستلومونني اذا لم احدثكم الآن ، فى هذه الساعة التى لا اذكر اصعب منها فى حياتى ، عن نفسى بالذات . لم يكن يهمنى ذلك الذى ساقوله الى تلك الدرجة قط كما يهمنى الآن ، ومع ذلك لا أرغب اذ أقوله فى الحصول على شىء سوى أن أرى عزاء فى أعينكم . لم اناديكم بقولى أيها الاخوة ، وان كنتم لى الآن ألصق بهذا الوصف منكم فى أى وقت آخر ، بل أناديكم ـ ابناء آدم ـ معتمدا على ذلك الذى نشترك فيه جميعا . اننا آدميون ، ونفكر التفكير نفسه ، وخاصة عندما يكون الأمر صعبا . لقد انتظرتم ، اردتم أن نبقى معا ، لكى يكون لقاء بين أعينكم وعينى ، فالحزن ينتابنا من اجل موت رجل برىء ، والاضطراب يعرونا من أجل الجريمة . فهذه الجريمة تتعلق بكم كذلك اذ انكم تعرفون : من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكانما قتل الناس جميعا . وقد قتلونا جميعا عديدا من المرات ، أيها الأخوة القتلى ، والفزع يسيطر علينا عندما يصاب من يكون أقرب واحب الينا .

ربما كان من الواجب على أن أكرههم ، ولكنى لا أستطيع ذلك . اننى لا أملك قلبين . أحدهما للكره والآخر للحب . وهذا الذى أملكه لا يعرف الآن سوى الحزن والأسى . ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين . ولكن حزنى لى أنا .

ارعوا صلة الرحم ، فقد أوصى الله بذلك .

اننى لم أرعها ، يا ابن أمى . لم اكن املك قوة لكى ابعد المصيبة عنك وعن نفسى .

قال موسى : رب ! .. اجعل لى وزيرا من أهلى ، هارون أخى ، اشدد به ازرى ، واشركه فى أمرى .

ان أخى هارون لم يعد موجودا ، واستطيع ان اقول فقط : رب ، اشدد بهذا الأخ الميت أزرى ·

اشدد بهذا الأخ الميت الذى لم يدفن حسب شريعة الله ، ولم يره اقاربه ، ولم يقبلوه أمام سفره العظيم الذى لا يرجى منه رجوع ولا تتحقق فيه عودة ·

اننى كقابيل ذلك الذى بعث الله اليه غرابا يبحث فى الأرض ليريه كيف يوارى سوءة اخيه · والذى قال : يا ويلتا أعجزت ان أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوءة أخى ·

أنا قابيل التعس ، أكثر تعاسة من غراب أسود ·

لم أنقذه حيا ولم اره ميتا · والآن لا أملك سوى نفسى وسواك يا ربى وسوى هذا الحزن يملكنى · اللهم امنحنى القوة لكى لا أضعف من حزن تمليه الأخوة والانسانية ، ولكى لا أسمم نفسى بأن اغرس فيها الكره · اننى اردد كلمات نوح : فافتح بيني وبينهم فتحا ونجنى ومن معى من المؤمنين ·

اننا نعيش على الأرض يوما واحدا فقط ، أو أقل من يوم · فامنحنى القوة كى أصفح · اذ الذى يصفح هو الأفضل والأعظم · ولكنى اعلم أننى لا أستطيع النسيان ·

وأما أنتم يا اخوانى فأرجوكم الا تؤاخذونى من أجل هذه الكلمات· لا تلومونى اذا أثارت الألم والحزن فى نفوسكم ، واذا كشفت عن ضعفى أمامكم · اننى لا أخجل من هذا الضعف أمامكم ، بل على العكس كنت اخجل لعدم وجوده ·

والآن اذهبوا الى بيوتكم واتركونى ومصيبتى · لقد أصبحت الآن أقل وطأة ، اذ جعلتكم تشاطروننى اياها ·

واذ كنت جالسا وحدى ، وحدى فى هذا العالم كله ، فى ضوء الشموع القوى ، فى الظلمة الشديدة الحالكة ، دون أن أخفف شيئا مما أعانيه فى نفسى (فقد حمل الناس كلماتى فقط ، ولكن الحزن بأكمله بقى لى ، دون أن يمسه أحد ، وقدزادت قتامته ، حين غدر بى أملى فى تخفيف المصيبة) ـ ضربت بجبينى على الأرض ، وكنت اعرف أن فعل هذا دون جدوى ، وتطقت فى يأس بآيات من سورة البقرة :

« غفرانك ربنا »

« ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا »

« ربنا ولا تحمل علينا اصرا »

« ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به »

« واعف عنا واغفر لنا وارحمنا ٠٠ وانصرنا »

ربما غفر ، وربما رحم ، ولكنه لم ينصرني ٠

بكيت في ضعف لم أكن أحس به على هذا النحو من قبل ، بكيت كالطفل العاجز ٠ فكل ما كنت أعرف وما كنت أنكر لم يكن له أي معنى ، ها هو الليل خارج الجدران أصبح حالكا ينذر بالشر ، والعالم أصبح مخيفا وأنا ازاءه صغير ضعيف ٠ من الأفضل أن أبقى هكذا جالسا جلسة التشهد وأن أفنى دموعا تسيل ، كي لا أنهض بعد ٠ انني أعرف أنه لايمكن ان يستولى علينا الضعف والحزن اذا كنا مؤمنين حقا ، ولكن معرفتي ذلك كانت من قبيل العبث ٠ فهأنا ضعيف وحزين ، ولست افكر أأنا مؤمن حقا أم انسان ضائع في هذا العالم الوحيد الأصم ٠

واذ ذاك ألم بي هدوء خالي الأثر ٠ وكنت ما ازال أشعر بدمدمة في مكان ما بداخلي ، تأخذ كلما تقدم الوقت في الابتعاد ، واسمع صراخا تجف حدته كلما تتالت اللحظات ٠ لقد أفرغت العاصفة غضبها وهدأت، هدأت من تلقاء نفسها ٠ وربما كان ذلك من أجل ما سكبت من دموع ٠

كنت متعبا ، كنت كمريض نهض توا من فراشه ٠

أطفأت الشموع منتزعا حياتها واحدة اثر أخرى ، دون أن يكون لدى مشاعر الاحتفاء التي كنت أحسها وأنا أقوم باشعالها ٠ لقد أهلكني الحزن ، وكنت اذ ذاك وحيدا ٠

سأبقى في الظلام طويلا ، وهذا ما أخشاه ٠ سأبقى وحيدا ٠

ولكن عندما انتزعت روح الشمعة الأخيرة لم يتلاش ظلي ٠ كان يهتز متثاقلا على الحائط ، في ظلام لم يكن تام السواد ٠

استدرت ٠

كان بجانب الباب يقف حسن ، ذلك الذي كان قد نسي ، وشمعة بيده كانت تضيء ٠

كان ينتظرني في صمت ٠

٩

« ... فاجمعوا امركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا الى ولا تنظرون »

كانت يدى ما تزال تهتز ممسكة بالقلم ، كما لو كان ذلك الذى اتناوله بالكتابة يحدث الآن ، كما لو لم يمر أكثر من شهر منذ وجود تلك اللحظة التى تغيرت عندها حياتى . لا استطيع ان أذكر على وجه الدقة جميع ما عانيته من الأمور والأحداث ، ولا ان اقول على اية نار كنت احترق نارى ونار الآخرين ، ولا أن أصف كل ما دار بفكرى وسرى بمشاعرى عندما هبت على العاصفة ، فهناك أشياء عديدة قد استترت للبعد الزمنى خلف ضباب كثيف ، فاصبحت رؤيتها اذ ذاك متعذرة ، وصارت تشبه رؤى المحموم . كما لا أستطيع أن احكى على الترتيب كل ما حدث معى وحولى ؛ وأما ذلك الذى كان يحدث فى نفسى فسأحكى عنه بقدر ما أستطيع وبقدر ما تعرف نفسى .

فى اليوم التالى لحديثى بالمسجد ، كان ردهم على ما صدر منى من قول .

لم يكن يختلج فى صدرى شىء ، ولم اكن أتوقع أن يقوموا بشىء ، وان كنت أظن أنهم سينسجون خيوطا قذرة من حولى .

بعد ظهر هذا اليوم عاد حسن الى التكية . وكان يبدو لى انه ينظر الى منذ ليلة الأمس على خلاف ما كان ينظر الى من قبل ، انه ينظر الى الآن باحترام ، وبارتياب معا ، كما لو كان يدهش ، كما لو لم يكن يتوقع ثورتى . والآن عندما حدثت ، كنت اجد اسبابا لها ، فيما بعد ، محتفظا فى نفسى بمشاعر الظلم والاهانة . انه أخى ، كنت أظن هكذا ، واذا كنت لم استطع انقاذه فباستطاعتى ان ارثيه . لقـــد كنت اخشى ان يلومنى حسن لعدم قيامى بشىء آخر ، من قبل ، عندما كانت هنـــاك

فسحة من الوقت ، ولكنه لم يقل شيئا ، كما لو كان قد نسى . لقد كنت شاكرا له من أجل هذا النسيان . كنت أنظر اليه أكثر مما كنت أنظر الى نفسي .. فقد كنت أعتد به لأنه يعرف كل شيء : فباستطاعته أن يصيبني بجرح بالغ .

لقد كانت نظرته الدهشة محببة الى لسبب آخر كذلك . وربما لم اشعر فيما مضى قط كما أشعر الآن كم كانت تتوقف حالتنا النفسية وقراراتنا على من حولنا من الناس . لو كان حسن والحافظ محمد قد ذهلا وانتقدا حديثي بكونه منافيا للعقل لأصابني الذهول أنا الآخر . وأما هكذا فقد أحسست أن موافقتهما قد انزلت عن عاتقي عبء الشك ، وعرفت أنني فعلت ما كان يجب أن يفعل ، فعلت ما كان حسنا . ربما فعلت شيئا غير معقول ، ولكن فعله واجب . كان حسن يدهش اذ أنه كان يظن أنني جبان ، ولكن هانا لم أعد ذلك .

كم يكون جميلا هذا الشعور بالفخر ؛ اذ أنه يدافع عنا ضد الندم .

ان ذلك الذى قلته فى المسجد كان حزنا ، فزعا ، امتناعا عن البكاء وربما امتناعا عن الصراخ . ولكن كل شيء كان لى . لقد كان حسابا حزينا ودفاعا حزينا ، ولكنني عندما قلت ذلك أصبح على الفور شيئا آخر . فمن اى شيء بدأ ، واى شيء كان ، فقد تحول الى عبء جماعى ، وحكم كذلك . واصبحت ملزما به ، لأنه لم يعد يخصنى وحدى ، من أجل كلماتي . قال هذا حسن كذلك (كان يحكى للحافظ محمد وأنا استمع من البيت) وذكر كيف أنه لم يسمع حزنا اصدق وادانة أشد . لقد كان يجلس مأخوذا كالآخرين ببساطة الكلمات العادية المروعة ، وبحزن الانسان الذى يشعرك بقوله انه يبكى . ثم أضاف أنه كان يشعر بأننا أصبحنا جميعا مذنبين واصبحنا جميعا حزانى .

ألا ينبغى الآن أن انسى كل ما حدث وكل ما قلت ؟ فالكلمة تلزم وهى الفعل ، تلزمنى أمام الآخرين وأمام نفسى أيضا .

وعندما خرجت الى الحديقة اخذا يتحدثان عن شخص آخر . لقد كان يؤسفنى أننى لم أبق فى أفكارهما فترة اطول ، ولكن الأمر سواء ، فان ذلك الذى قيل فى غيابى اكبر قيمة من ذلك الذى يقال فى حضورى.

قال الحافظ عندما اقتربت منهما :

ـ اننا نتحدث عن والد حسن ٠

وكأنه كان يرغب بهذا الا أتناول موضوعا آخر ٠ وأما أنا فقد خطر ببالي في ارتياح أن لكل شخص عذابه الخاص به ، وحمدت الله ان كان الأمر هكذا ٠

أخذ حسن يتحدث كعـــادته ، يلقى القول فى صفاء وسخرية ، كاشفا بهذا عن بساطته وسطحيته في كل شيء ، فى التفكير ، فى الشعور في علاقته بنفسه وبالآخرين ٠ (لقد نسيت أنه بقى معى طيلة الليلة الماضية وهو حزين) ٠ لقد قال ان والدى رجل غريب اذا كان الأمـــر يستلزم أن يقال هذا ، لأن كل انسان غريب في ذاته ، عدا هؤلاء الذين لا لون ولا صورة لهم ، هؤلاء الذين يوصفون بالغرابة أيضا ٠ لأنهـــم لا يملكون شيئا يخص أنفسهم ، أى ، يخصهم بالذات ذلك الشيء الذى لا يخصهم ٠ وعدانا نحن بطبيعة الحال ، لأننا نتعود على أنفسنا بالقدر الذى يجعل كل شيء يخالفنا يبدو لنا غريبا ، فباستطاعتنا ان نقـــول انه غريب ذلك الذى ليس لنا ٠ وما هو الوالد يبدو غريبا لأنه يعتقـــد أننى غريب ، وأنا بدورى أراه غريبا وهلم جرا وهلم، ولا نهاية لهـــذه الغرابة ، وربما كان لزاما أن ندهش لذلك بالذات ٠ ان الفرق بينهما يتجلى فيما يعتقده الوالد من أن « حسن » أتعس نفسه بهذه الطريقـــة وفيما يعتقده « حسن » من أن الانسان يستطيع أن يتعس نفســه بطرق شتى ، واقل هذه الطرق تعاسة أن يفعل ذلك الذى يرضيه ولا يفضحه ، وهكذا يبدو أن الوالد أصبح تعسا لأن ابنه أصـــبح راضيا ، ولو كان الابن تعسا حقا لاعتقد الوالد أن فى ذلك سعادته وسعادة الأسرة ٠

سأله الحافظ محمد وهو يبتسم :

ـ هل رأيته منذ جئت ؟

ـ حاولت ٠ لقد أردت أن أعدد له الطرق التى يستطيع بها الناس أن يصبحوا اذلاء ٠ كما أردت أن أسأله عن هـــذا الذى يعتقد أن حياتى تضايقه : انها محببة الى كحذاء قبيح الشكل أفسده طول السير به ، ويمكن للمياه أن تتسرب داخله ، كما يمكن ان يثير فينا الضحك ، ولكنه لايضايق القدم ، ولا ترغب أن تخلعه وسط الطريق ، اذ أنك لا تحس به فى قدميك لماذا أجعل الحياة تضايقنى ، لماذا أدع النفس تشعر بها ككابوس ؟

ـ أردت أن تقول له ذلك ؟ ولم ترغب أن تراه ٠

ـ كيف يكون باستطاعتي ان أقول له دون ان أراه ؟ لقد رغبت أولا أن أراه ، اذ ان ذلك يأتي في المكان الأول ، وأما بالنسبة له فقد كان المكان الأول لعدم الرغبة في أن يراني ، وهكذا رجعت برغبتي دون أن أحققها ٠

ـ اقال هذا لك ؟

ـ بعث بكلمته على فم الآخرين ٠ لقد كانت تحمل رائحة والدي ، وقد احدثت انعطافا وحنوا حتى لقد وددت ان أقبل الفم الذي حملها ، والذي كان صغيرا وبريئا لدرجة جعلته لا يعرف ماذا حمل ٠

ـ ينبغي ان تذهب ثانية ٠

ـ من أجل الفتاة ؟

ضحك الحافظ محمد وقال :

ـ كما تشاء ٠ غير انه يجب أن تذهب ٠

ـ كم مـــرة ينبغي أن اذهب ؟ كم يجب على الابن أن يذهب دون فائدة ؟

ـ مرة أخرى كذلك ٠

نظر اليه حسن بشكل يثير الارتياب وساله :

ـ هل كنت عند الوالد ؟

ـ كنت ٠

ـ هكذا ، كنت ٠ ولماذا ؟ اتريد أن تجمع رجلين عنيدين لينتج من هذا مسالة مظهرية ؟

ـ لينتج ما ينتج ٠ لقد قلت انك ستاتي اليوم ، للتحدث معه ٠ ومن السهل أن يستميل الانسان عطف والده ٠

ـ نعم ، وخاصة والدي ٠

تذكرت في كره حديثي مع المفتي ، لقد كان يشبه قليلا هذا الحديث غير انى كنت مضطرا الى ذلك ، واما هذا فما هو ؟

خطر ببالي في حقد انه ربما تصالح مع والده ٠ وبذرة من الحسد قلت لنفسي : سوف ينساني ٠

توضأت وذهبت الى المسجد ٠

كانت السماء ملبدة بالسحب عندما أقبل الليل ، وانني أذكر هذا جيدا ، فقد نظرت الى السماء كما ينظر الفلاح ، فعلت ذلك بتعودى القديم الذى لم يفارقنى بعد ، وان لم أكن فى حاجة اليه ٠ واستطعت كذلك ان اشم تغير الطقس لأيام عديدة مقبلة ٠ لقد خدعتنى السحب اذ ذاك ، وبكرت بما كنت اظن ، حيث كنت مشغول البال بنفسى للغاية ٠ كم كنت اود هذه السحب وأرغب فى الجو السيء ، وربما لم أستطع من أجل ذلك ان أتنبأ جيدا بحالة الطقس فى الايام المقبلة ٠ ودون سبب رجوت ألا يقوم الوالد بالسفر الى القصبة فى الجو المطير ٠

أخذ النهار يتلاشي ، وما زال الشفق يبدو فى الأفق ٠ وهانا اذكر انني رأيت أربعة من الفرسان عند مدخل الزقاق ، فى هذا الاحمرار السماوى الذى كان يظهر وراءهم بمثابة الخلفية للوحة ٠ لقد كانوا على درجة من الجمال ، وبدوا كرسوم طرزت على حرير أحمر ، كصور خيطت على رقعة من السماء حمراء داكنة ٠ لقد خيل للعين أنهم أربعة من المحاربين يقفون وحدهم فى حقل واسع قبيل المعركة ، وكان من الصعب ادراك حركاتهم وهم يقومون بتهدئة خيولهم ٠ وعندما اتجهت نحوهم ، قفزت الخيول ، محثة بالضربات التى لم أرها ، واندفعت فى صف واحد تغلق الزقاق الضيق بحيث لا تدع مكانا للمرور ٠

اقبلوا على !

لم أكن جبانا فى وقت ما ، والآن لا ادرى ماذا أنا ، غير أنى أعلم أن هذا الموقف لن تجدى فيه شجاعة منى أو جبن ٠ استدرت ، ان الباب بعيد ، كان على بعد عشر خطوات منى ، ولكن ادراكه كان متعذرا ٠ رفعت اليهم يدى ، وكان ذلك يعني : قفوا ، انكم ستدهموننى ! ولكنهم كانوا يضربون بالسياط أرداف الخيول ، يتعجلونهم ، انهم يقتربون منى فى سرعة ، والارض من تحتهم تدمدم دمدمة عنيفة لم أسمعها من قبل فى حياتى ٠ وأما الغيلان ذات الرءوس الاربعة فكانت تندفع نحوى مثارة ومتعطشة للدماء ، وكان اندفاعها نحوى سرعة لم تكن تتصور ٠ حاولت الهرب أو برق ذلك فى ذهنى فحسب ، ولكن القوة خانت قدمى ، فقد كنت أحس تنفس الخيول خلف عنقى ، وكنت أشعر بقشعريرة فى فقار ظهرى من الضربات التى لم تنصب على بعد ، سأقع ، سيدوسوننى ،

استندت الى الجدار ملتصقا به ، ومقللا ما استطعت من قدر بروزي عنه، ولكنني ما زلت عرضة للاصابة اذ يمرون ، وفجأة رأيت فوق رأسي اربعة من خطوم الخيل مشتوقة ، ضخمة ، حمراء ، مملوءة بالدم والزبد ، وكذا أربعة قوائم تضرب في الهواء ، ورأيت اربعة وجوه لحراس غلاظ اشداء، وأربعة افواه لهم مفتوحة ، حمراء ، مصطبغة بالدم كخطوم الخيل ، وأربعة سياط متخذة من الثور ٠٠ أربعة ثعابين كانت تفح على ، وتتلوى حول وجهي وعنقي وصدري ، لم آكن احس بالألم ، لم آكن ارى الدماء، كانت عيناي تنظر في فزع الى الفيلان المصلوبة ذوات القوائم والرءوس العديدة ٠ لا ! ـ كان بداخلي شيء يصيح دون صوت ـ شيء أشد من الخوف ، واصعب من الموت ، لم أتذكر حتى الله ، ولم يحضرني اسمه ، لم يكن يوجد أمامي سوى فزع دموي لا يمكن تصوره ٠

وانصرفوا بعد ذلك ، ولكنني ما زلت أراهم أمامي ، فقد بقيت صورتهم ثابتة في تلك الرقعة الدموية من السماء ، واستقرت لدى تحت جفني ٠ كنت اراهم في وضوح كأنني انظر الى الشمس ٠

لم آكن استطيع ، بل لم آكن أجرؤ على الحركة ، فقد كنت في خوف من ان انهار على احجار الطريق ، لم آكن اعرف كيف كنت واقفا ، اذا ما كنت أحس بوجود قدمي تحتي ٠

وفي تلك اللحظة اقترب مني ملا يوسف ، آتيا من جهة ما ، لا اعرفها ٠ وكان يبدو فزعا ٠

ـ هل أصابوك بجراح ؟

ـ لا ٠

ـ آه ، انهم أصابوك ٠

ـ الأمر سواء ٠

كان وجهه الممتلئ والذي تظهر عليه علائم الصحة يبدو شاحبا ، وكانت عيناه تكشفان عن الحزن والفزع ٠ هل اشتد حاله من أجلي ؟

يا لحسن الحظ اذ جاء هو بالذات ، سأكون أمامه شجاعا ٠لا ادرى لماذا ، ولكن يجب على أن اكون هكذا ٠ فأمام كل شخص سواه أستطيع أن اظهر خوفي ، وأما أمامه فليست لدى الجرأة ٠

قال في هدوء ودون سبب :

ـ هيا بنا الى التكية

وتذكرت اذ ذاك أننى ما زلت أقف مستندا الى الجدار ٠

قلت :

ـ سأتأخر عن الذهاب الى المسجد ٠

ـ لا تستطيع بهذا الشكل أن تذهب الى المسجد ٠ اننى سأنوب عنك اذا أردت ٠

ـ هل تسيل الدماء ؟

ـ نعم ٠

اخذت أسير نحو التكية ٠

امسك بابطى لكى يساعدنى ٠

خلصت ذراعى من يده وقلت :

ـ لا يلزم ٠ اذهب الى المسجد فالناس ينتظروننى ٠

توقف ، كما لو كان قد خجل ، ونظر الى فى عبوس ، وقال :

ـ لا تخرج من التكية يوما أو يومين ٠

ـ انك رأيت كل شىء ؟

ـ نعم رأيت ٠

ـ لماذا هاجمونى ؟

ـ لا أدرى ٠

ـ سوف أكتب شكوى ٠

ـ اترك هذا يا شيخ احمد ٠

ـ لا أستطيع أن اترك ٠ سأكون خجلا أمام نفسى ٠

ـ اترك ، انس ٠

انه لا ينظر الى عينى ، كان ينطق بهاتين الكلمتين فى رجاء ، كأنه كان يعرف شيئا ٠

ـ لماذا تقول لى ذلك ؟

لزم الصمت ، مخفيا نظره ، دون أن يعرف ماذا يقول ، اذ كان الخوف قد راوده ، أو دون رغبة منه فى القول ، اذا كان يعرف شيئا ، أو نادما على شىء تفوه به ، اذا كان قد تذكر أن الأمر لا يخصه ٠ يا الهى ، ماذا فعلنا به ٠

انني من أجله أخفيت الخوف والضعف ، ومن أجله اردت أن أذهب الى المسجد والدماء تسيل ، ومن أجله قلت انني سأكتب الشكوى • لقد رغبت أن أكون صامدا أمام هذا الرجل الشاب الذى كانت تربطني بـه علاقات غريبة • وللمرة الاولى رثى لحالي • وكنت أظن انه يكرهني •

قلت له وأنا أنظر الى وجهه وقد عاد اليه لونه :

ـ اذهب • اذهب الآن •

لقد كان طبيعيا جدا أن يذهلني الخوف من أجل وقوع حدث لايمكن تصوره • ولكني بأعجوبة ، ودون صدام نفسي ، استطعت أن أمر بأزمة اللحظة الاولى ، ونجحت حـاملا كل شيء في نفسي أن أنحي الخوف عني والقى به جانبا في مكان ما ، في مكان سحيق ، ما حيا أثره في هذه اللحظة انه شيء مخيف ، هكذاكانت تردد في حنـــايا النفس ذكراى الساذجة ، ولكنها لم تفلح في احياء شيء ما • لقد كنت فخورا بأنني أخفيت الخوف وظل هذا الشعور الجميل بشجاعتي يراودني • لم يكن على وجه يطمئن اليه ، ولكنه على أية حال كان كافيا لأن يجعلني ارجيء كل شيء •

وبينما كان مصطفى والحافظ محمد ينزعان ثيابي عني ويقومـــان بغسلي ، وقد استولت عليهما الدهشة وانتابهما الذعر ، كنت أحاول أن أوقف ارتجاف يدى وقدمي ، ولكن محاولتي كانت عبثا ، غير انني كنت أملك من القوة ما يحول بيني وبين الخوف والخجل • كانت النار المطمورة تحاول مرات عديدة أن تهب وتشتعل ، فقد انبعثت تلك الدمدمة المخيفة كما انبعث الفزع فجأة ، ولكني نجحت للمرة الثانية في أن أرد كل شيء الى ذلك الذى كان ولم يعد يؤلم • لقد انتهى الأمر ، كنت أقول هـــذا لنفسي ، فلم يحـــدث شيء من شأنه أن يشـــيرني الى حـد كبـير ، حمدا لله اذ لم يكن اشد ،حمدا له اذ انتهى عند هذا الحد • كنت أستمع في شوق الى الحديث الذى يدور بينهما لا ربط فيه ولا صلة ، والى تساؤلات مصطفى بين الفترة والأخرى : ماذا حدث ، اذ لم يكن باستطاعته أن يفهم شيئا ، والى تأوهات الحافظ محمد التي تنبيء عن الدهشة والفزع ،تختفي ليحل محلها تشجيعه الساذج ، أو زجره الغاضب لمصطفى ، أو تهديداته لشخص غير مسمى ، شخص مجهول كان يطلق عليه لفظ « هم » • كان سخطه البادى التلعثم يثير في نفسي شعور الاهانة الذى لم يرق الى درجة التأكد ، تلك الاهانة التي لحقت بي ، وعندما عاد ملا يوسف من المسجد

ووقف بجانب الباب صامتا ، أصبحت رغبتي في القيام بعمل ما أكثر قوة وأشد عزما • انتهزت هذه الفرصة على الفور ، خشية أن تدركني رغبة أخرى تتمثل في عدم قيامي بشيء • كتبت الشكوى الى قاضي الوالي ، وطلبت من يوسف أن يقوم بنسخها •

وعندما استلقيت على السرير لم يرد النوم أن يداعب جفوني • لقد كانت الشكوى تعذبني ، فهي ما زالت لدى ، وكنت مترددا أأرسلها أم أمزقها • انني اذا ألقيت بها فسينتهي كل شيء عند هذا الحد • ولكن سوف يحيا عندئذ كل شيء كان قد دفن ، وباستطاعة النار المطمورة أن تضطرم • وسأستمع للمرة الثانية الى الدمدمة التي تورث القلب الضعف وتسلمه الى عدم الحركة • واذا أرسلت الشكوى فسأحتفظ بما اعتقده من أنني أستطيع الدفاع عن نفسي ، ومن أنني أستطيع كذلك أن أتهم الآخرين • وأراني في حاجة الى هذا الاعتقاد •

خيل الى أنني لم أنم لحظة واحدة ، فقد أيقظتني خطوات لم تكن على شيء من الحذر كانت تمر في الغرفة ، كما أيقظني ضوء كان ينبعث من شمعة • نظرت فوجدت رجلا مسطح الوجه يقف عند رأسي ، وكان هو الرجل الذي جاء الى بتهديد المسلم • وأما الآخر الذي يحمل الشمعة فما كنت أعرفه •

سألت في فزع ، وقد انتزعت من النوم ، وتملكتني الدهشة لخشونة تصرفهما •

ـ ماذا تطلبان ؟

لم يعجل بالاجابة ، وأخذ ينظر الى في سخرية ، متطلعا كما كان يتطلع في تلك الليلة ، وفي مكر الاصدقاء ، كما لو كنا نحن الاثنين نعرف مزاحا يقرب بيننا ويعطينا الفرصة كي نشعر بالبهجة والسرور ، دون أن نقول شيئا • وكان الآخر يسلط على الضوء في سريري كما لو كان يسلطه على عاشقه •

وقال الرجل في سرور :

ـ لم يطع قولي • وقد حذرته •

ثم تناول الشمعة ، وأخذ يفتش في الغرفة ، ويقلب في الكتب ، وقد ظننت أنه سيلقي بها في غير اكتراث ، ولكنه كان يعيدها بعناية الى مكانها •

سألت فى حيرة ، راغبا ان اعرف :

ـ ماذا تطلب ؟ من سمح لكما بالدخول ؟ كيف تجرؤان على دخول التكية !

لقد كان صوتى خافتا وعلى درجة كبيرة من الاضطراب •

نظر الى فى دهشة ، دون أن يجيب بشىء •

وجد الشكوى وقرأها ، مشيحا برأسه •

وسأل فى حيرة :

ـ ماذا تريد بهذا ؟

واردف يقول :

ـ أمر يخصك •

ثم وضع الشكوى فى جيبه •

وعندما ثرت للمرة الثانية ، وقلت اننى سأشتكى الى المفتى ، نظر الى فى أسى ، ولوح بيده ، كما لو كان مملا له أن يدخل فى نقـــاش مع رجل ساذج •

وكرر :

ـ أمر يخصك •

ثم قال :

ـ هيا بنا ، ارتد ثيابك •

خيل الى أننى لم أسمعه جيدا • وقلت :

ـ اطلبت أن أرتدى ثيابى ؟

ـ نعم طلبت • وتستـــطيع ان تجىء هكذا اذا أردت • وأسرع ، ولا تجلب أذى لى ولنفسك •

ـ حسن ، سأذهب • ولكن لابد أن يدفع أحد الثمن •

ـ هذا هو الأفضل • ودائما يدفع أحد الثمن •

ـ الى أين تذهبان بى ؟

ـ آه ، الى أين نذهب بك !

ـ ماذا أقول للدراويش ؟ ومتى ساعود ؟

ـ لا تقل لهم شيئا • وستعود على الفور • أو ربما لن تعود أبدا •

لم يكن هذا مزاحا خشنا ، بل كلمة صريحة عن احتمالات حقيقية •

دخل الحافظ محمد الى الغرفة فزعا ، وقد بدا ابيض الجورب والقميص والوجه ، كان اشبه بميت قام من قبره ، وكان لا يستطيع التكلم • وفى الامكان أن يعد هذا فالا سيئا • وانتظرت أن يقوم بدور ما رغم علمى ان هذا ليس من المعقول •

قلت له مشيرا الى الرجلين اللذين كانا بانتظارى ، واللذين قد قست قلوبهما بحيث لا يمكن التاثير عليهما :

ـ لقد جاءا من أجلى ، لكى يذهبا بى • ساعود عن قريب ، هكذا آمل •

ـ من هما ؟ من أنتما ؟

كان الرجل يتعجلنى بقوله :

ـ هيا ، هيا ! من نحن ! ما كنت اعرف أن فى العالم أنواعا من المجانين ! لناخذك انت كذلك وستعرف من نحن •

صاح الميت دون انتظار ، اذ كان فى حالة فزع واضطراب :

ـ خذانى ! اذهبا بنا جميعا ! فكلنا مذنبون مثله !

قال الشرطى معللا :

• مجنون ! (ثم أردف :)لا تتعد دورك ، يمكننا ان نجىء من اجلك أيضا •

ـ من يفخر بالظلم ••

لم يكمل ذلك الذى كان فى الامكان أن يجلب له الهلاك ، فقد منعه عن ذلك سعال مفاجىء ، ولم يكن فى امكان سعاله أن يفيده فى وقت أكثر مما أفاده الآن • لقد أخذ يتصدع كما لو كان الدم باكمله يندفع وينصب فى حلقه ، وذلك لقلقه واضطرابه كما أظن ، دون أن أرثى له ، اذ أنه سيبقى هنا • كنت أنظر كيف يتمزق ويتقلص ، كنت أنظر دون أن أتحرك ، ولم يكن ينظر اليه غيرى ، وكنت فزعا أمام هذا الخروج غير المحبب فى الليل ، ولكن لم أرد أن أظهر ذلك •

اقتربت منه كي أساعده · فمنعني الشرطي ·

وقال في هدوء ، ربما يشبه أن يكون سبا أو احتقارا :

ـ مسكين ·

ثم أشار الى بيده لكي أخرج ·

وأمام التكية كان ينتظرنا رجل آخر ·

ساروا بجانبي وخلفي ، وكنت أخطو محصورا بينهم ، ومضيقا على منهم ·

كانت الظلمة تغشى القصبة ، فقد اختفى القمر وزال الصحو عن وجه السماء ·وكانت ليلة عديمة الرؤية خالية من الحياة ، سوى ما كان يطلقه الكلاب من نباح في فناء البيوت ، ردا على نباح يصدر من بعيد ، من جبل قريب من السماء ، لقد مر وقت انتصاف الليل ، والأرواح الآن تطوف بالعالم ، وأولئك الذين لم يقبض عليهم يغطون في نومهم غارقين في أحلامهم السعيدة ، والظلام يلفهم كما يلف البيوت والقصبة والعالم ، فهذا الوقت وقت القصاص ، ساعة القيام بالأعمال الشريرة · لم يعد هناك أصوات الناس ولا وجوهم ، لم يعد سوى هذه الظلال التي تحمى ظلي · لا ، ليس هناك من شيء سوى حرارتي المشبوبة تحيا بمفردها في هذه البيداء الحالكة ·

في بعض الأماكن كانت تظهر احيانا ذبالة شمعة أو مصباح ، وذلك من أجل مريض ، أو طفل استيقظ في وقت غير مناسب بتأثير من خوفي ، أو حفيف يسمع ويخشى منه وقوع شر ، وكان يفزعني تفكيري في ذلك العالم الهـــادئ ، الذي كنت أبعده لكي لا أراني أسير ضاربا في الظلام نحو مصير مجهول ، انني أسير دون حاجة الى ذلك ، ودون قصد مني الى مكان ، ويخيل الى أنني أسير ، وانني فقدت الاحساس بالواقع ، كما لو لم أكن في هذا العالم ، كما لو لم أكن في حالة اليقظة ، وكان ذلك من أجل الظلام ، من أجل الظلال دون الأشكال ، من أجل الشك في أن شخصي هو شخصي أنا ، وفي امكان كونه شخصي أنا · انه شخص آخر ، اعرفه ، وانظر اليه ، وربما بدا عليه التعجب لهذا ، وربما تملكه الخوف من أجله · أو لعلني ضللت الطريق ، لا اعرف أين أنا ، لابد أنني في مكان ما ، أمر به مرة واحدة في حياتي ، أمر في الطرق التي حددها لي قدري · انني لم أمر بهذا المكان قط ولا أستطيع أن أخرج منه ، ها سوف يشعل أحد

النور الآن ، لكي يدعوني الى ملجأ أمين ، ولكن أحدا لم يشعل النور ، ولم يكن هناك من يهديني بصوت وددت أن أسمعه الى الطريق الصحيح، كان الليل ما يزال مستمرا ، وكانت نهاية الشخص الآخر كما كان الشك في شخصي يكونان معا حلما سيئا ، سوف أستيقظ وسوف أشعر ببرد الراحة .

لماذا لا يصيح الناس عندما يساقون الى الموت ، لماذا لا يعلنون عن أنفسهم ، لماذا لا يطلبون المساعدة . لماذا لا يهربون ؟ ان لم يكن هناك من يسمع صيحاتهم أو اعلانهم عن أنفسهم ، اذ يغط الناس في نومهم ، وان لم يكن أيضا مكان للهرب ، اذ الأبواب جميعها مغلقة باحكام . لا أقول هذا لأجلى ، فلست محكوما على بالاعدام ، سوف يفرجون عني ، سيعودون بي عن قريب ، سأعود وحدي ، في طرق معروفة ، لا في هذه الطرق التابعة لغيري ، والتي تبدو مخيفة ، ولن أسمع أبدا كيف تنبح الكلاب . كيف ترسل نباحها في يأس وقنوط من أجل الموت ، ومن أجل الأرض الخالية البلقع ، سوف أغلق الباب ، وأسد أذني بالشمع لكي لا أسمع . هل سمع هذا النباح كل من ذهبوا به ؟ أكان لهم بمثابة الوداع الأخير ؟ لماذا لم يصيحوا ؟ لماذا لم يهربوا ؟ لو عرفت ماذا ينتظرني لأخذت أصيح ولا نطلقت من أجل الهرب . وسوف تفتح كل النوافذ وكل الأبواب على مصراعيها .

آه . لا ، لن يفتح أحد الأبواب . ولذلك لا يهرب أحد ، فهم يعرفون ذلك . أو انهم يأملون ان يعودوا سالمين . ان الأمل بلاغ الموت ، انه قاتل أشد خطرا من الكره . فهو مختبىء يعرف كيف يجذب ، يهدىء ، ينوم ، يهمس في الأذن بما يرغبه الانسان ، يقوده تحت السكين . كان الوحيد الذي هرب هو اسحاق ، قادوه في تلك الليلة كما يقودونني الآن ، لا ، لقد كان عدد الحراس أكثر ، فهو اذن شيء آخر ، كما أنه مهم لهم ، أما أنا فلست مهما لأحد ، انه دون شك لم يسمع كيف تنبح الكلاب ، ولم يفكر أنه يحلم وانه سوف يستيقظ ، كان يعرف الى أي مكان يذهبون به ، ولم يكن له أمل أنه سيبقى على قيد الحياة ، لم يكن يخدع نفسه كما فعل الآخرون . وانما قرر على الفور الهرب ، وكان هذا عنده بمثابة التفكير الأول والتفكير الوحيد ، ولذا كان يسير وديعا ، اذ كان يخاف ان يعلن التفكير عن نفسه بنفسه ، فقد كان قويا الى ذلك القدر ، وكان اسحاق ينظر دون انقطاع الى الظلام ، كان الليل مقمرا ، خائنا ، يظهر العداوة . ولكن اسحاق كان ينظر الى الظلال ، الى أمكنة الاختباء ، باحثا

عن ظلال أشد كثافة ، وفجأة قرر الهرب عندما بدا له انهم غير منتبهين وان الفرصة لن تتـــكرر · وفي لحظة واحدة ، في لحظة واحـدة قصيرة فقط ، كنت اياه ، بين يدي القفز ، بن يدي الهرب ، انهم خلفي وبجانبي ، اننا مرتبطون برباط أشد قيدا من رباط الصداقة ، اشد قيدا من رباط الاخوة ، والآن سينقطع هذا الرباط ، وستصبح بيننا قطيعة اضطرارية اليمة ، فهم ليسوا شيئا بدوني ، سوف تؤلمهم هذه القطيعة ، وسوف يتقرر كل شيء في لحظات قصيرة من الوقت يتعذر ادراكها ، كما يتعذر معرفة مقدار ما استغرقته من زمن ، لن نعي سوى تلك اللحظة التي يستغرقها القفز ، وللمرة الثانية ، وللمرة الثانية أيضا ، بدا لي أن الظلام بأكمله أصبح شفافا أكثر من اللازم ، وان كل خطوة قصيرة للغاية ، وان جميع امكنة الاختباء أصبحت مكشوفة تماما · عبثا أن احاول ، فالى أين الهرب ؟

انتابني الضعف ، وما كنت أحاول ، وكان ذلك من أجل التفكير وحده · اذ ما كنت قد عزمت ، وما كنت في حاجة الى العزم · فهذا ليس لاسحاق : وانما لي ، ولعله اقل من الواقع او أكثر : انه استحالة تحدث بطريقة ما ·

كانوا يقودونني من ظلام الى آخر ، دون أن يكون هناك اتضاح لشكل او مكان ، اذ ما كنت أرى شيئا ، فقد كنت مشغولا بنفسي ، مشغولا بالتخيل الذي أفقدني حتى ذلك الذي كان باستطاعتي أن أتعرف عليه · كنا نعبر الظلام ، وكنت أعرف ذلك بما كان منا من سير وحركة ، وبما كان من انقضاء الوقت ومروره ، وان لم أكن على علم في أثناء المرور بذلك ·

لقد التقوا في مكان ما بأحد الأشخاص · وتبادلوا الهمس من أجل امر من الأمور وأحاط بي معهم شخص آخر ، فقد أصبحت قيمة لا يجرؤ على اضاعتها احد ، ولم أكن اعرف بعد من معي ، وان كان الأمر سواء ، فكلهم متساوون ، كلهم ظلال ، كلهم يقومون بهذا العمل الليلي من أجلي · انهم يستطيعون أن يحل محلهم آخرون ، غير أن أحدا لا يستطيع أن يحل محلي ·

وعندما ضربت بجبيني عتبة الباب العليا ، عرفت أننا قد وصلنا · انني وصلت وأما هم فسيعودون · وستنوب عنهم الجدران ·

صحت خلال الباب المغطى بالحديد عندما دخلت ، غير معتقد أن فى العالم مكان يبلغ من الظلام هذه الدرجة :

ــ جيئوا الى بنور !

لقد كان هذا هو التعود الأخير المتبقى من الخارج ، الكلمة الأخيرة المتبقية • لم يسمعها احد ، او لم يرد أن يسمعها ، او لم يستطع أن يفهمها • لقد استطاعت ان تكون أشبه بالهذيان •

كانت الخطوات تبتعد فى مكان ربما كان ممرا • وربما كان هذا المبنى هو السجن • وربما كان الشخص أنا ، أو ربما لا ؟ نعم انه أنا ، ويا للأسف • اننى لا افقد تفكيرى فيما يشبه الحلم من الضباب ، ولا انفصل لكى استطيع أن القى نظرة الى نفسى من البعد كما لو كنت أنظر الى شخص آخر ، اننى واع ، يقظ ، وكل شىء واضح فى نفسى ، على الرغم منى ، ليس هناك من خداع وليس هناك من زيف •

لم ابتعد لفترة طويلة عن الباب ، ولم تفارق أنفى رائحة صدئه الحادة ، فهذا أول مكان وقفت فيه فى الظلام وكان مخصصا لأجلى ، وقد أصبح معروفا لدى منذ لحظة واحدة ، وبذا صار اقل خطورة • وعندئذ أخذت اسير بجانب الجدار ، لكى اختبر مساحته وأعرف نظامه ووضعه ، دون أن يساعدنى البصر فى شىء ، تاركا للأصابع أن تقوم بهذه المهمة ، وفى كل مكان كنت أحس برطوبة شديدة تنبث من هذه الجدران التى فقدت استواءها ، كما لو كانت هناك بئر فوقى تتسرب منها المياه الى الجدران فتورثها هذه الرطوبة الشديدة • كانت الرطوبة تحتى كذلك ، وكنت أحسها بقدمى اللتين كانتا تلتصقان فى شدة وقبح بشىء لزج • وصلت من جديد الى الباب والى الرائحة الشديدة التى يبعثها صدؤه ، والتى بدت لى أيسر تحملا من نتن الرطوبة ، دون أن أجد شيئا •

كان الخلاء محدودا ، وكانت البيداء مسورة بالأحجار ، فهنا لا أرى أشياء كثيرة ، ولا أدرى هل تكون لى حاجة حتى الى ذلك الذى كنت أعرفه من قبل • لا فائدة فى هذا المكان لعينى أو يدى أو قدمى أو الخبرة أو الفهم ، وقد كان باستطاعتى أن اعود الى حالة الأحياء البدائية كما اوردها الحافظ محمد •

كم أجهدت نفسى فى الحياة من أجل هذه المساحة من الرطوبة لا تزيد عن الخطوتين اذا هى قيست ، ومن أجل هذا الظلام التام !

صغير منزلى الجديد هذا ، ولكنى استطيع أن أستلقى فيه لو كان صالحا للاستلقاء . لقد وجدت ، اذ كنت أفتش ، حجرا مستندا الى الجدار ، وكنت اقف بجانبه دون قبول منى للجلوس عليه . وكانت ما تزال امامى الفرصة كى اقرر . كنت كاننى أنتظر ان يفتح أحد الباب لكى يطلق سراحى قائلا : تفضل ، اخرج ! وربما كان الناس جميعا ينزلون بصعوبة كهذة فى رطوبة ووحل ، آملين فى شىء ، منتظرين حلوله ، ثم يتركون الانتظار عندما يجدون أن آمالهم قد خابت . وهذا شىء لا يستمر طويلا . ولذا سرعان ما جلست ، جلست على الحجر . وهذا هو الانتقال ، محاولا ألا أستند الى الحائط ، ولكنى استندت بعد قليل ، شاعرا كيف تسرى الرطوبة ببطء الى داخلى ، ومتخيلا أنه من المستطاع أن يحدث تحليل بطىء يفصل الماء عن البقايا الفانية ، وما كان لى من عمل غير هذا .

لا أدرى أكانت الأماكن المجروحة قد ظلت تؤلمنى الى الآن ولكنى لم اكن اعى ذلك ، ام انهـــا كفت عن الألم امام ذلك الذى يرى أهم وبعد أخطر . اننى احس بها الآن ، وقد يكون ذلك لأن الوقت قـد حان لكى تؤلمنى ، أو لأن الجسم قد ثار ضد النسيان وذكرنى بوجوده . قبلت هذه المساعدة المفاجئة دون وعى ، واخذت اضغط باصابعى الجروح ، موزعا آلامها ، منسقا بينها ، لكى لا تكون فى مكان واحد . وكنت أسد بنفسى فتحات الجروح لكى لا يسيل الدم . كنت أشــعر به لزجا فى اليد . لقد كانوا يغسلونها الليلة الماضية فى التكية بماء البابونج وبالقطن الطبى النظيف . وأما أنا فاحشر داخل النسيج الممزق كل ما تجمع على أصابعى من قذارة الجدران ، والأمر بالنسبة لى سواء ، اننى لا أفكر فيما سيكون ، بل أفكر فيما يكون الآن ، فالألم شديد ، لقد تلظى فى الظلام ، وأحس أننى موجود به ، جسمى يعود بى الى حياة الحقيقة والواقع . لقد كنت أحتاج الى هذا الألم ، انه جزء منى أنا ذلك الحى ، أعيه ، وانه يشبه ذلك الألم على وجه الأرض . انه دفاع عنى من الظلام ، ومن البحث الضائع طلبا لاجابة ما ، انه يقف عائقا بينى وبين ذكراى أخى ، ذلك الذى يمكن أن يظهر فى حجر من تلك الأحجار المظلمة التى يقوم بها قبرى ، بسعاله الذى لا أملك جوابا عنه .

أغرقت فى النوم ، واضعا راحتى على الجرح ، كما لو كنت أحرص على عدم زواله ، جالسا على الحجر ، مستندا على الحائط ، ومرة أخرى

وجدته تحت راحتي كما لو كان في العش · كان يعيش ويؤلم · وقد اردت أن أسأله : كيف نمت ؟ وهكذا لم أكن وحيداً ·

لقد سررت عندما رأيت بالقرب من السقف طاقة صغيرة ، كشفها لي ضوء الصباح · وعلى الرغم من أن ضوء النهار ظل رغبة شديدة وهاجسا قويا في نفسي فان ظلامي لم يكن بعد شديدا كما كان · ظهر النهار في ذلك العالم ، وظهر من جراء ذلك ضوء في نفسي ، وان كان الليل لم يزل مستمرا · كنت أحدق في تلك النقطة الرمادية فوقي ، مشجعا ، كما لو كنت أنظر الى بزوغ النهار في أبهج حلاه الوردية ، يعلن عن نفسه في تلال واسعة كتلك التي كنت أراها في طفولتي · البزوغ · الضوء · النهار · هـذه كلها ـ وان كانت ايماء فحسب ـ موجودة ولم تتلاش بعد · وعندما حولت نظري عن مصدر هـذا الضوء المسكين ، انتابتني غشاوة ، وأصبح الظلام في سردابي للمرة الثانية غير شفاف ·

وفور أن عادت عيناي الى ما الفته من حالة الظلام رأيت أن هذا الظلام ظلام أبدي وان كانت ترى هناك ضرورة للعين مع ذلك · لقد كنت أدير بصري حولي ، ولـكنني لم أقف على شيء سوى ذلك الذي رأته أصابعي ·

فتحت الطاقة المربعة في الباب ، ووصل الى الأذن صريرها ، ولكن لم يدخل النور ولا الهواء · كان أحد يطل ببصره من ذلك الظلام الآخر · اقتربت من الطـاقة ، وأخذنا ننظر أحدنا الى الآخر في مسافة صغيرة جدا · كان وجهه مغطى بالشعر ، خاليا من التجاعيد ، ولم أر شيئا من أجزاء وجهه ، لا العينين ولا الفم ·

سألت وبي خوف من عدم استطاعته الاجابة :

ـ ماذا تريد ؟ من أنت ؟

ـ « كمال »

ـ الى أين جاءوا بي ؟ ما هذا المكان ؟

ـ اننا نوزع الطعام مرة واحدة فقط · في الصباح ·

كان صوته أجش معتما ·

ـ هل سأل أحد عني ؟

ـ أتريد أن تأكل ؟

كان كل شيء يبدو لى قذرا ، زلجا ، نتنا ، وكنت أشمئز حتى من التفكير فى الطعام ٠

ـ لا أريد أن آكل ٠

ـ هكذا يقول الجميع ٠ فى اليوم الأول ٠ ثم يطلبون ٠ لا تنادنى فيما بعد ٠

ـ هل طلبنى احد ؟

ـ لا ، لم يطلبك احد ٠

ـ سيطلبنى اصدقائى ٠ فلتحضر لتخبرنى ٠

ـ من أنت ؟ وما اسمك ؟

ـ درويش ، شيخ التكية ٠ واسمى أحمد نور الدين ٠

أغلق باب الطاقة ، ثم فتحه ثانية ٠

ـ أتعرف دعاء ؟ أو حجابا ؟ للشفاء من مرض النقرس ؟

ـ لا أعرف ٠

ـ يا خسارة ٠ انه يهلكنى ٠

ـ رطوبة هنا ، وسوف نمرض جميعنا ٠

ـ الأمر سهل بالنسبة لكم ٠ انهم اما أن يفرجوا عنكم واما أن يقتلوكم ٠ واما أنا فاعيش هنا على الدوام ٠ هكذا ٠

ـ الديك لوح ما من الخشب ، أو قطعة من بساط قديم ٠ فاننى لا استطيع أن استلقى ٠

ـ سوف تتعود ٠ ليس لدى شيء ٠

الدرويش احمد نور الدين ، انه نور الدين ، وشيخ التكية ٠ كنت قد نسيته ، فقد قضيت الليل بأكمله وليست لى وظيفة ولم يكن لى اسم ٠ تذكرته ، أحببته أمام هذا الرجل ٠ أحمد نور الدين ، الواعظ والعالم ٠ قمة التكية وعمادها ، مجد القصبة ، سيد العالم ٠ والآن يطلب لوحا من الخشب وقطعة من بساط قديم من الخفاش « كمال » لكى لا يستلقى فى الوحل ، وينتظر أن يقوموا بشنقه وينزلوا به ميتا الى هذا الوحل الذى لا يريد أن يستلقى فيه وهو حى ٠

من الأفضل أن يظل بغير اسم ، وتظل معه جروحه وآلامه ، ويظل النسيان معهما ملازما اياه فى كل صباح • ولكن هذا الصباح الميت الذى لم يتجل بزوغه قد أيقظ أحمد نور الدين ، واخمد فيه الأمل ، وأبعد عن الوجود ما انتاب جسده من جروح وآلام • لقد أصبحت هذه الجروح مرة ثانية عديمة الأهمية أمام تهديد اشد واخطر كان يتصاعد من داخل لكى يهدمنى •

كنت أحفظ نفسى من الذهول ، وأما كل شىء عداه فباستطاعته أن يكون • فلو اعترانى لما استطاع احد أن ينقذنى ، ولحرقنى ، ولاهلك كل شىء فى نفسى ، ولترك بها فراغا يعد أشد من الموت • ولكنى كنت اشعر كيف يدب الذهول فى نفسى ، وكيف يتحرك ، وكيف استطاع المفكر أن يصبح عاجزا عن الاستناد الى شىء ما ، واخذت أدير البصر حولى فى فزع ، ابحث عن شىء يمكننى الاستناد اليه • لقد كان موجودا حتى الأمس ، حتى لحظة سابقة ، أين هو الآن ، اننى ابحث عنه دون جدوى ، لا أثر له فى أى مكان ، انهرت فى الوحل ، رغم ماكان منى من محاولة ، فعبثا حاولت ياشيخ نور الدين •

ولكن الموج الذى ارتفع ،توقف ، لم يأخذ فى الازدياد • كنت أنتظر فى دهشة وكان هناك السكون •

نهضت ببطء ، قابضا بيدى على الجدران ، مستندا براحتى على بروزها الزلج ، فقد رغبت ان أكون واقفا - وما زال الأمل يراودنى ، سوف يطلبوننى ، سوف يجيئون ، فالنهار لم يعد أن بدأ ، ولن تقتلنى لحظة الضعف ، ومن الخير أننى أخجل منها •

واخذت أنتظر ، وأنتظر ، وفى اثناء مرور الساعات الطويلة كنت احافظ على حرارة الأمل ، وكنت أغرى النفس بالألم وحرارة الجروح ، وكنت أتسمع الخطوات وانتظر ان يفتح الباب وأن يصل الى صوت يعلمنى حضـــور الأصدقاء • وأخـذ الليل يســـدل أستاره ، وعرفت ذلك بما كان من عدم احتياج الى عينى • كنت انام فى طين كريه الرائحة ، وقد بلغ منى التعب مبلغا ،وكنت استيقظ دون رغبة منى فى الجلوس على هذا الحجر ، وكنت آكل فى الصباح طعام « كمال » ، ومرة ثانية كنت أنتظر ، وكانت الأيام تمر ، وبزوغات النهار الحالكة تتالى ، ولم أكن اعرف بعد هل كنت أنتظر •

واذ ذاك ، وكنت منهوك القوى ، غارقا فيما يشبه الأحلام من تعب الانتظار ، ممتصا من الرطوبة التى كانت تتشربها عظامى ، مصابا بالحمى

التي كانت تدفنني وتذهب بي للحظة من قبري ــ أخذت أتحدث مع أخي هارون ٠٠

والآن اننا متساويان يا أخي هارون ، هكذا كنت اقول له وهو صامت لا يتحرك ٠ لقد كنت أرى عينيه فقط ، بعيدتين ، حادتين ، تائهتين في الظلام ، وكنت اتابعهما محاولا أن اجعلهما دائما تجاهي ، وأحيانا كنت أسير وراءهما ٠ اننا الآن متساويان ، وكلانا تعيس ، واذا كنت مذنبا في يوم فلست الآن كذلك ، انني أعرف كيف كنت وحيدا ، وكيف كنت تنتظر أن يجيء أحد لزيارتك ، كنت تقف بجانب الباب ، وتسمع الأصوات ، والخطوات ، والكلمات ، ظانا أنها تهمك ، وكان يتكرر ذلك على الدوام ٠ لقد بقينا منفردين ، أنا وأنت ، لم يجيء أحد لزيارتي ، لم يسأل عني أحد ، لم يتذكرني أحد ، لقد بقي طريقي خاليا ، دون اثر ودون ذكرى ، كم وددت لو لم أر ذلك ٠ انك كنت تنتظرني ، وأنا كنت أنتظر « حسن » ، ولم يحدث أن حقق أحدنا رغبته ، وليس هناك من تتحقق له جميع الرغبات ، وكل يبقى وحيدا في النهاية ٠ اننا متساوون ، تعساء ، اننا أناس ، يا أخي هارون ٠

اقسم بالزمن ، الذي هو بداية ونهاية لكل شيء ، ان كل فرد منا على الدوام في خسار ٠

سألت « كمال » كعادتي ، ولم يكن الأمل يراودني بعد :

ــ هل حضر أحد ؟

ــ لا ، لم يحضر أحد ٠

أردت أن أظل متعلقا بالأمل ، اذ لا يمكن العيش بدون انتظار ، ولكن لم أكن أملك القدرة لذلك ٠ تركت مكاني كحارس بجوار الباب وأخذت أجلس كيفما اتفق في اي مكان ، هادئا ، منهزما ، وكان الهدوء يتوغل في داخلي كلما تقدم الوقت ٠ وبدأت أفقد الشعور بوجودي ، وأخذ الحد بين الحلم واليقظة في التلاشي ، وحقا كان يحدث ماكنت أراه في الحلم ، كنت أجول بحرية في طرق شبابي وطفولتي ، ولم أكن أجول قط أحلامي في أزقة هذه القصبة ، كما لو كان بامكان هذه الآفة أن تقودني من الأحلام الى السجن ، وكنت أعيش مع الرجال الذين كنت التقي بهم منذ زمن بعيد ، وكان كل شيء يبدو جميلا ، اذ لم تكن تتملكني شدة الانفعال لأنني لم أكن قد عرفتها بعد ٠ وحتى « كمال » كان حلما ، وكذا كان الظلام من حولي ، وكذا كانت هذه الجدران المبللة ٠ وعندما

كنت أعود الى عالم اليقظة لم أكن أستطيع التحمل كثيرا • فحتى لهذا التحمل يجب أن يكون لدى الانسان قدرة •

أصبح لى واضحا كيف يموت الانسان ، ورأيت أن ذلك ليس من الصعوبة بمكان • كما انه ليس سهلا كذلك • ليس الموت شيئا سوى أن الانسان يشعر فى كل لحظة بأن حياته تنقص وبأن وجوده يقل وبأن تفكيره يضعف ، كما يحس ويدرك أن دورته الدموية الغزيرة تأخذ فى الجفاف ، ويبقى خيط دقيق من وعيه المتزعزع يأخذ فى الافتقار حتى يصبح عديم الأهمية • واذ ذاك لا يحدث شيء ولا يكون شيء ، بل يكون لا شيء ، ومهما يكن فالأمر سواء •

وعندما قال « كمال » ذات مرة شيئا خلال الطاقة ، وكنت اذ ذاك فى ذلك الذبول الذى لا أحس فيه بمرور الزمن ، اذ كان ينقطع دون أن يعود ليأخذ فى الاستمرار ـ لم أستطع أن أفهم على الفور مايقول ، ولكنى عرفت أنه شيء مهم • تيقظت وفهمت : لقد جاء أصدقائى بالهدايا •

ـ من هم الأصدقاء ؟

ـ لا أعرف • لقد حضر اثنان • خذ •

عرفت ولم أكن فى حاجة الى السؤال ، كما كنت أعرف انهما سيجيئان • كنت اعرف ذلك منذ زمن • لقد كان الانتظار طويلا ، ولكننى كنت أعرف •

كنت أخمش بأصابعى الباب لكى أنهض • وفى الحق لم يكن جلوسى هنا • الى جانب الباب عن طريق الصدفة •

ـ اثنان ؟

ـ نعم اثنان • وسلما هذا للحارس •

ـ ماذا قالا ؟

.. لا أعلم •

ـ قل للحارس ليسأل من هما ؟

لقد أردت أن أسمع اسمين معروفين : حسن وهارون • لا • حسن واسحاق •

أخذت ماحملاه الى من الطعام ، والتمر ، والكرز الذى كان بثورا خضراء عندما جئت الى هذا المكان ، وكان قبل زهورا وردية اللون ، وكنت

ارغب اذ ذاك ان يسرى في عروقي عصارة أشجاره ، وأن ازهر دون ألم في كل ربيع كما تزدهر تلك الاشجار ، وحقا رغبت في ذلك مرة ، منذ زمن بعيد ، عندما كانت حياتي لاتزال جميلة • ربما كانت تبدو لى آنذاك عسيرة ، ولكنى عندما افكر فيها من هذا المكان ، احس بشوق اليها ورغبة في أن تعود •

كنت أخشى أن تقع اللفافة من يدى ، فقد كانت يداى خاويتين ، مسرورتين ، وعلى درجة من الجنون والضعف ، وكانتا تضغطان بشدة على هذا البرهان الذى يشهد بحياتي والذى ضممته الى صدرى • لقد عرفت أنهما سيجيئان ، عرفت ذلك ! اخذت أحنى راسى على هذه اللفافة وأتنسم رائحة طازجة لصيف‌مبكر ، وبى شوق ورغبة شديدة للاستزادة من التنسم ، فسوف تتسرب الرطوبة عن قريب الى هذه الرائحة الشفافة الحمراء يبعثها الكرز ، كما أخذت المس جلده الحديث الغض بأصابعى الموحلة ، فبسرعة وبعد ساعة سيتغضن وتتقدم به السن • وعلى كل فالأمر سواء • انه علامة وخبر من ذلك العالم • لست وحيدا ، ومازال الأمل موجودا • وعندما كنت أفكر أن النهاية قريبة لم تكن تسيل دموعى ، والآن كانت تنهمر دون انقطاع من نبع أحيى في عينى ، تاركة دون شك آثارها على ماغطى وجهى من وحل • لتنهمر فقد بعثت من بين الموتى • لقد كانت تكفى ، ولو علامة صغيرة للغاية تشير الى أننى لست منسيا ، لكى يعود الى مافقدت من قوة • ان جسدى واهن ، ولكنى لست أبالى بذلك ، فقد ادفأتنى الحرارة فى مكان ما فى داخلى ، حتى لم أعد أفكر فى الموت ، ولم يعد الأمر لى بعد على السواء • لقد وصلت اللفافة فى اللحظة الأخيرة ، لكى تمسك وتوقف انزلاقى على الصخور التى تنحدر فى شدة وتدفع الى الهاوية ، لكى تؤجل موتى - وحقا كان قد بدأ • (اننى ايقنت ، وليس فى هذه المرة فحسب ، أن النفس فى أغلب الأحيان تستطيع أن تحافظ على الجسد ولكن الجسد لا يستطيع على الاطلاق أن يحافظ على النفس : انها تتعثر وتضيع وحدها) •

وللمرة الثانية كنت أنتظر •

كنت اقول فى نفسى : لقد تذكرا يا أخا هارون •

وكنت افكر فى حسن ، كما كنت أفكر فى اسحاق •

سوف يقومان بالثورة ، ويعملان على تحريرى •

سوف يشقان طريقهما فى الممرات السرية ويخطفاننى •

سوف يتحولان الى هواء ، الى طيور ، الى أرواح ، وسيصبحان كائنات غير مرئية ، سوف يجيئان ·

سوف تحــدث معجزة أو امر لم يكن فى الحســبان ، ولكنهما سيجيئان ·

سوف يهدم الزلزال هذه الجدران القديمة ، ولكنهما سوف ينتظران لكى يخرجوا بى من بين الانقاض ·

سوف يكون حسن واسحاق أول من يفتحان هذا الباب ، مهما يكن أمر من جاءوا ، ومهما يكن أمر ما حدث ·

لم تكن تراودنى اية فكرة عادية ، وانما كانت الافكار جميعها تأتى على غير نسق ، وتجرى فى تيار غير مألوف · كنت أتســمع دوى تحريرى كما أتسمع بشائر الفرح والسرور ، وانتظر دمدمة تأتى بمثابة الثار من تلك التى كنت أخنقها فى خوف فور ظهورها فى داخل النفس كهاجس · ولم يكن هذا الانتظار يؤدى ، ولو لمرة ، الى نهاية من تلك النهايات المألوفة · ربما من أجل قبرى الذى سجنت فيه ، وربما من أجل قرب الموت الذى لفحنى ، ربما من أجل الممرات العميقة والأبواب الصلبة التى لا تفتح بالكلمة أو الرجاء ، وربما من أجل الهلع الذى حدث لى والذى يستطيع أن يحل محله هلع آخر أشد منه · كنت أنتظر يوما ما للحساب، وكنت واثقا أنه سيأتى · لقد أعلن عنه هذان الاثنان الزائران ·

وفى اليوم التالى وصلتنى أيضا بعض الهدايا · وكان الزمن للمرة الثانية يتواصل ، وكان من قــدم للزيارة اثنين كذلك ، دون معرفة لاسميهما ، ولكن كنت أعرف من هما ، كما كنت انتظر الزلزال ·

سألت « كمال » وانا فى دهشة لعدم فهمه ، أو لعله كان يفهم :

ــ متى يحدث الزلزال أو الحريق أو الثورة ؟

وسألنى بدوره :

ــانك درويش · أتعرف هذا القول « اذا وقعت الواقعة » ؟ ألسنا نفكر فى شىء واحد ؟

ــ نعم أعرف ·

ــ اقترب منى · تكلم ·

ــ لا أريد ·

ـ ياللخسارة . لست رجلا حسنا .

ـ ماذا تريد بما سقت من قول ؟

ـ انني أرغب في سماعه .

ـ من أين تعرفه ؟

ـ من سجين كان هنا قبلك ، وكان رجلا حسنا .

ـ ان هذا القول الذى سقته من القرآن ، في سورة الواقعة .

ـ ربما كان ذلك .

ـ « اذا وقعت الواقعة » ...

ـ اخفض صوتك . تعالى الى .

ـ « اذا وقعت الواقعة ، ليس لوقعتها كاذبة ، خافضة رافعة ، اذا رجت الارض رجا ، وبست الجبال بسا ، فكانت هباء منبثا ، وكنتم أزواجا ثلاثة » .

فى ظلام لم تشتد قتامته ، كنت أرى في غير وضوح وجهه الذى لم يكن له معالم تحدده داخل اطار مربع ، شديد القرب من عينى ، وقد استند بذقنه على الحافة الحديدية الحادة لهذه الطاقة المربعة . كان يستمع فى دهشة الى ذلك الذى كنت أسوقه ، وفى اهتمام لم أستطع انافسره .

ـليس هذا .

ـ أتكون سورة « العنكبوت » ؟

ـ لا أعلم . الأمر سواء . اية أنواع ثلاثة هي ؟

ـ « فأصحاب الميمنة ما أصـــحاب الميمنة ، وأصحاب المشئمة ما أصحاب المشئمة ، والسابقون السابقون ، أولئك المقربون ، فى جنات النعيم ، ثلة من الأولين ، وقليل من الآخرين ، على سرر موضونة ، متكئين عليها متقابلين ، يطوف عليهم ولدان مخلدون ، بأكواب وأباريق وكأس من معين ، لا يصدعون عنها ولا ينزفون ، وفاكهة مما يتخيرون ، ولحم طير مما يشتهون ، وحور عين ، كأمثال اللؤلؤ المكنون ، جزاء بما كانوا يعملون ، لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما ، الا قيلا سلاما سلاما » .

« وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين ، فى سدر مخضود ، وطلح منضود ، وظل ممدود ، وماء مسكوب ، وفاكهة كثيرة ، لا مقطوعة ولا ممنوعة ، وفرش مرفوعة » .

ـ هنيئا لهم ٠

كان همسه مشوبا بالاعجاب ومملوءا بالحقد ٠

ـ « وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال ، فى سموم وحميم ، وظل من يحموم ، لا بارد ولا كريم ٠٠٠ لآكلون من شجر من زقوم ، فمالئون منها البطون ، فشاربون عليه من الحميم ، فشاربون شرب الهيم ٠٠ نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين » ٠

ـ ولماذا ؟ هل هم مذنبون ؟

ـ ذاك شىء يعلمه الله ، ياكمال ٠

ـ اما يزال لديك مثل هذا ؟

ـ « يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم ، قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا ، فضرب بينهم بسور له باب ، باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ، ينادونهم ألم نكن معكم ؟ »

ـ آه ، يا آلهى يارحيم ٠ ومرة أخرى دون نور ٠ ١

لزم الصمت بعد ذلك فترة طويلة كان عقله الذى اثارته الآيات يتعذب فى اثنائها ٠ وكان تنفسه يبدو عنيفا ٠

ـ وأنا ؟ اين ساكون ؟

ـ لا أدرى ٠

ـ أأكون من أصحاب اليمين ؟

ـ ربما تكون ٠

ـ « بشراكم اليوم جنات تجرى من تحتها الأنهار » هذا ماقاله الذى كان قبلك ٠ كما كان يقول عن الشمس ٠ وأين ساكون أنا ؟ ان ذلك من أجل قيامهم باعمال الخير ٠ الذى أنا من هذه الأعمال شىء ؟ خمسة عشر عاما على هذا النحو قضيتها هنا ٠ وهناك الشمس ، والأنهار، الفواكه ٠٠ من أجل الأعمال الخيرة ٠

ـ ماذا حدث لذلك الرجل ؟

ـ مات ٠ كان رجلا صالحا وهادئا ٠ وكان يقول لى : وانت ستكون

هناك وجميع الصالحين من الناس · وقلت له : ان هذا لشيء جميل · من أجل الشمس ، ومن أجل المياه الصافية ، ومن أجل مرض النقرس ·

ـ كيف كانت حالة موته ؟

ـ كانت صعبة · فروحه لم تكن تريد أن تخرج من جسده · كان يجاهد كي يتخلص من قبضات القائمين بأمر موته · كنت حاضرا كذلك · وهكذا قمت بالمساعدة ·

ـ في اي شيء قمت بالمساعدة ؟

ـ لقد خنق ·

ـ وأنت قمت بالمساعدة كي يخنقوه ؟

ـ لقد جاهد من أجل التخلص ·

ـ الم يكن يحزنك هذا ·

ـ كان يحزنني ، من أجل هذه الشمس التي كان يتحدث عنها ·

ـ كيف كان يسمى ؟ الم يكن اسمه هارون ؟

ـ لا أعلم ·

ـ اذهب ، ياكمال ·

ـ ربما ساكون أنا كذلك ، في الجانب الظاهري من السور ·

ـ بدون شك ياكمال ·

سألني اذا كنت أرغب في الانتقال الى زنزانة أخرى ، ليست مظلمة كهذه وليست تبلغ درجتها من حيث الرطوبة ·

ـ الأمر سواء ، ياكمال ·

ـ أتكرر لي فيما بعد « اذا وقعت » ؟ لا أطلب سوى الآيات الأولى فقط · فهنا ظلام وشيء يقزز النفس ، وقد قضيت خمسة عشر عاما في هذا المكان · ليس من العدل ان يكون هكذا أيضا هناك ·

ـ اذهب ، ياكمال ·

كانت تتدافع حولى جمله المبتورة ، المتقلصة ، الشوهاء ، وكان يبدو أنها تعاني صعوبة في تجمعها وتماسكها ، واما أجزاؤها المفقودة التي اعتراها الذهول فقد بقيت في اعجوبة مترابطة ، معبرة عن رغبة ما من رغبات الانسان ·

أخذت أفقد وعيي للمرة الثانية ·

وعندما فتح كمال باب زنزانتي ذات مرة بعد هذا اليوم ، وربما بعد فترة طويلة ، أو ربما لم يكن قد فتحها ـ لفحني شعوران متناقضان تمام التناقض ، خوف من أن يقوم بخنقي ، وأمل في أن يقوم بالافراج عني · لقد اندفعا الى في لحظة واحدة ، كما لو كانا كائنين طائشين قد فقدا الصبر وأخذا يتدافعان ليحرز أحدهما السبق · أو لعل المسافة بينهما كانت قصيرة الى درجة جعلتني لا أستطيع أن افرق زمنيا بينهما الا بصعوبة بالغة · لقد رفضت الفكرة الأولى على الفور اذ انه كان وحده ، وعلى التو ظهر السرور في نفسي : تمثل لى الافراج ! اذ كان في الامكان أن يحدث كل من الأمرين ، ولم تكن هناك ضرورة لأن يوجد سبب للافراج · فما داموا يقتلون دون ذنب فربما يفرجون دون سبب أو مبرر ·

ولكن لم يكن أى من الأمرين ، وانما كان على أن أنتقل الى زنزانة أخرى ·

قبلت دون سرور ·

دخلت في قبر يخص غيرى ، والآن أصبح يخصني كذلك ، ووقفت بجانب الباب لكى أرى المكان وآلفه ·

ـ هس !

لقد بدا لى أمرا غريبا ذلك الانذار يصدر من شخص ما في ظلام خافت ، ولكن حدث في تلك اللحظة أن تحركت حمامة كانت في فتحة صغيرة بالجدار وانطلقت مرفرفة الى الخارج · وقد وقع بصرى عليها عندما اندفعت ضاربة بجناحيها ·

قال لى ذلك الذى كان يطلب الى السكوت لكى لا أفزع الحمامة :

ـ الآن بامكانك ان تصرخ كيفما تشاء ·

ـ لم أكن أعرف · اتعود الحمامة ثانية ؟

ـ انها ليست مجنونة · لقد ضلت طريقها صدفة ·

ـ انني آسف · أتحب الحمام ؟

ـ لا أحبه · ولكنك ستقع هنا في الحب ، وستحب كل شيء حتى الخفافيش ·

ـ لم يكن لـــدى فى زنزانتى حتى الخفافيش ٠ ربما من أجل الرطوبة ٠

ـ انها لا توجد ههنا أيضا ٠ فهى لا تتحمل النأس ٠ لقد امسكت بواحد عنـــدما دخل صدفة عن طريق الخطأ ، وأردت أن أربطه بشريط مزخرف من صدارى ، ولكنى تقززت منه ٠ اجلس ، اختر لك مكانا ، فالأمر سواء ٠

ـ أعرف ذلك ٠

ـ كم قضيت فى سجنك ؟

ـ قضيت وقتا طويلا ٠

ـ ألا يكونوا قد نسوك ؟

ـ كيف ينسون ؟

ـ هكذا ، ينسون ٠ لقد حكى لى سجين كان هنا ، قبضوا عليه فى مكان ما من (كرايتا) ، وذهبوا به أياما واسابيع من مكان الى مكان ، من سجن الى سجن ، حتى جاءوا به هنا ٠ وهنا نسوه ٠ اخذت الشهور تمر ، وهو جالس يتململ فى هذا المكان ، لم يدعه أحد ، ولم يسأل عنه أحد ، لقد نحوه عن تفكيرهم ، وانتهى الأمر بذلك ٠ كل مانرجوه الا يحدث لك ماحدث معه ٠

ـ لقد جاء الى الأصدقاء ٠ فقد عرفوا اين انا ٠

ـ هذا هو مايجعـــل الأمر أشد ٠ لقد عرف الأقارب مكان ذلك الرجل وجاءوا اليه ، بالرغم من انه أوصاهم الا يبحثوا عنه ٠ اذ بهذا كان يمكن على الأقل أن يظل على قيد الحياة ، وأما اذا تذكروه ففى الامكان أن يكون الشر فى ذلك ٠ وحقا لقد ذهبوا به ذات ليلة ٠ وربما ارسلوه الى المنفى ٠

كان صوته يوحى بالسخرية ، كما لو كان قد أراد عن قصد أن يخوفنى ، ولكن الحكاية فى ذاتها ليست مستحيلة ٠٠

سألته وقد انتابتنى الدهشة من طريقته وقصده :

ـ لماذا تتحدث هكذا ؟ لقد ظننت أن الحزن ينتاب الجميع هنا الى درجة الموت ، وأنهم متفقون على الأقل فى رغبتهم ألا يجـــرح أحدهم الآخر ٠

ضحك الرجل . ضحك بكل مافي وسعه . وقد بدا لي ذلك غير متوقع الى درجة جعلتني أظنه مجنونا ، وان كان يضحك بطريقة عادية للغاية وفي شيء من السرور كما لو كان داخل بيته . وربما كان هذا هو السبب في ضحكه وسروره على هذا النحو .

ـ لماذا أتحدث هكذا ؟ ان الحكمة بتمامها هنا تتمثل في أن تكون صابرا . وان تكون مستعدا لجميع الاحتمالات . هذا هو مايتطلبه هذا المكان . واذا أحسن مما تنتظر ـ والحمد لله ـ فعندئذ ستكون من السعداء الفائزين .

ـ كيف تستطيع أن تنظر هكذا بمنظار أسود ؟

ـ اذا لم تنظر بمنظار أسود ، ففي الامكان أن يحدث ماتراه أشد سوادا . وما من شيء من جانبك يؤثر ، لا يفيدك أن تكون شجاعا أو جبانا ، أو أن تسب أو تبكي ، لا فائدة من ذلك على الاطلاق . فعليك اذن أن تجلس وتنتظر المصير ، فهو أسود بمجيئك هنا . انني أفكر هكذا : اذا لم تكن مذنبا فذاك خطؤهم ؛ واذا كنت مذنبا فذاك خطؤك . واذا كنت دون ذنب فتلك مصيبة لحقتك ، كما لو كنت سائرا ووقعت في بئر عميقة . واذا كنت قد ارتكبت ذنبا فقد أصابك لا أكثر ولا أقل .

ـ يبدو أن الأمر في نظرك بسيط للغاية .

ـ انه ليس هكذا بسيطا كما تتصور . ينبغي التعود أولا واذ ذاك يكون بسيطا . انظر ، انا أعتقد أنني غير مذنب ، كما تعتقد أنت دون شك انك كذلك . وهذا في الواقع ليس صحيحا ، اذ لا يمكن أن يعقل أنك لم تقم في حياتك ، ولو مرة واحدة ، بما يستوجب التكفير بتحمل العقوبة . ولكن الأمر سواء ، فحينذاك لم تصبك العقوبة ، والآن حيث لم تكن مذنبا في شيء اصابتك . وكان طبيعيا أن يخيل اليك أنه يجب عليهم أن يفرجوا عنك . غير أنك لا تتساءل عن كيفية الافراج عنك ؟ فلتحاول أن تفكر كما هم يفكرون . اذا لم أكن مذنبا فهم لاشك أخطأوا ، لقد سجنوا رجلا بريئا . واذا هم يفرجون عني فسيكون في ذلك اعتراف بخطئهم ، وذلك مالم يعد سهلا ولا مفيدا . ليس هناك أحد من العقلاء يستطيع أن يطلب منهم أن يقوموا بالعمل ضد أنفسهم . ولو حدث أن تقدم شخص بهذا لكان مطلبه غير واقعي ولبدا مضحكا . اذن يجب أن أكون مذنبا . وكيف يفرجون عني وأنا مذنب ؟ أتفهم ذلك ؟ لا ينبغي

ان نكون جائرين أكثر من اللازم • فكل منا ينظر من زاويته ، ويعتقد ان الأمر يكون في مكانه اذا سار حسب نظرته ، ولكن عندما يقومون هم بذلك يصيبنا عندئذ الضيق ونشعر بالضجر • لابد أنك ستعترف ان هذا لا يتفق والمنطق •

ـ واذا كانوا قد نسوك فمن هو المذنب اذن ؟

نخصني هذا الاحتمال : لقد نسوك ، والظلام يسدل ستره عليك، مكان ما في العالم ، وأنك هناك حيث رغبت أن تذهب ، وانك تشعر بالسرور والبهجة ، وربما حسدوك على هذا ؛ واما أنت فهنا تنتظر ، بلا جدوى ، ليس هناك من ذنب ولكنه مستمر على الدوام ، وليس هناك من عقوبة ولكنها نافذة على الدوام ، وبصورة أشد مما لو كانت قد أعلنت •

ـ من هو المذنب ؟ النسيان • انه من طبيعة البشر ، وكثيرا مايحدث • ولو تدبرت الأمر جيدا لما وجدت ان أحدا أساء اليك • ان هذا هو قدرك • ولعلك أوقعت الذنب على نفسك ، وذلك لأنك لست مذنبا ، اذ لو كنت مذنبا لما نسوك ، ان هذا يمكن أن يعد اعترافا بأنك برىء •

لقد أدركت الآن انه يمزح ! أي انسان يكون هذا الذي يمزح بهذه الطريقة ! انه سوف يعذبني • كم كان من الأفضل لو بقيت هناك وحدي •

قلت له بنبرة تنم عن العتاب :

ـ ان مزاحك قبيح يا صديقي •

ـ اذا كان قبيحا فلا يعد اذن مزاحا • اذ المزاح لا يمكن وصفه بالقبح على الاطلاق •

وعندئذ عرفته • لقد احتبست أنفاسي ، صرخت ، أو هكذا خيل الى أنني صرخت ، فقد كان لزاما أن افعل ذلك ، اذ كنت مضطرا ، ففي هذا المكان لم أكن أجرؤ أن افكر في الالتقاء به •

هذا هو اسحاق !

اسحاق تفكيري الغالب ، وذكراي الأسرع حضورا ، والرغبة المضطربة لي أنا الذي لا يدرك ولا يمكن تحققه ، والضوء البعيد لظلامي،

والأمل الانساني الذى يلوح لى ، مفتاح السر المطلوب ، والامكان الذى يفوق المعهود كما يهجس ذلك فى نفسى ، الاعتراف بالمستحيل ، الحلم الذى لا يمكن تحققه ولا يمكن رفضه ، اسحاق ، مثير الاعجاب بالجرأة المجنونة التى قد نسيناها ، لأننا لم نعد فى حاجة اليها ٠

لقد قبضوا على بطل الحكايات الصحيحة الوحيدة من حكايات الاطفال ، البطل الذى يخلقه خيال صاف ويحفظه ضعف ناضج ٠ لقد هدموا بذلك أحلام الناس ٠ انهم أقوى من الخرافات والحكايات ٠

وقد كان هو أيضـــا يؤمن بتلك الخرافات ، وكان يقول انهم لن يقبضوا عليه أبدا ٠

صحت كما لو كنت أنادى مفقودا :

ـ اسحاق !

وسألنى الرجل فى دهشة :

ـ من تنادى ؟

ـ اياك أنادى ٠ اسحاق أنادى ٠

ـ اننى لست اسحاق ٠

ـ الأمر سواء ٠ لقد سميتك أنا هكذا : كيف سمحت أن يقبضوا عليك ؟

ـ ان الانسان مخلوق لكى يقبض عليه فى لحظة ما ٠

ـ انك لم تكن تفكر هكذا من قبل ٠

ـ ولم اكن كذلك مسجونا من قبل ٠ ان ذلك الذى كان يوجد من قبل وهذا الذى يوجد الآن شخصان مختلفان ٠

ـ أتسلم اليهم نفسك يا اسحاق ؟

ـ أنا لم أسلم نفسى ٠ لقد سلمت اليهم ٠ وكان ذلك خارج ارادتى ٠ اننى لم ارغب ولكنه حدث ٠ لقد ساعدتهم بوجودى ٠ اذ لو لم أكن موجودا لما استطاعوا أن يفعلوا لى شيئا ٠

ـ أيكون هذا هو السبب الوحيد لوجودك ؟

ـ السبب والمسبب ٠ انه الفرصة على الدوام لك ولهم ، ومن النادر أن تبقى دون استغلال ٠ ودون اعتبار سواء أكنت هنا أم هناك ٠ غير أني لا أدرى الى متى يستمر الذنب ، أيستمر حتى بعد وصولنا الى العالم الآخر ؟

ـ اذا لم تكن قد قمت بعمل شيء فانت غير مذنب ٠ سيتولى الله مالحقك من ظلم ٠

ـ انك تجيب فى عجلة ٠ يجب التروى والتدبر ٠ هل السلطة مفوضة من قبل الله ؟ اذا لم تكن فمن أين لها الحق فى أن تحكمنا ؟ واذا كانت فكيف تستطيع أن تخطىء ؟ واذا لم تكن فسنهدمها ؛ واذا كانت فلها علينا السمع والطاعة ٠ واذا لم تكن من الله فماذا يجبرنا على تحمل الظلم الكثير ؟ واذا كانت من الله فهل هذا الظلم الكثير أو العقوبة من أجل غايات أسمى ٠ واذا لم تكن فقد نفذ اذ ذاك على وعليك وعلينا جميعا حكم القهر ، وعندئذ نكون للمرة الثانية مذنبين ؛ لأننا نتحمله فى سكون٠ والآن تفضل لتجيب ٠ ولكن لا تقل على طريقة الدراويش أن السلطة من الله ، غير أنه فى بعض الأحيان يقوم بتنفيذها الرجال الأشرار ٠ ولا تقل ان الله سبحانه سوف يذيق الظالمين من عذاب الجحيم ؛ اذ أننا لن نعرف شيئا أكثر مما نعرفه الآن ٠ ان القرآن يقول هذا كذلك : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » ٠ وهذا أمر من الله ، اذ الله سبحانه يهتم بالغاية أكثر مما يهتم بك وبى ٠ هل هم ظالمون اذ ذاك ؟ أم أننا نحن الظالمون ، وسيصيبنا اذ ذاك نار الجحيم ؟ وهل ذلك الذى يفعلونه قهر أو دفاع ؟ ان ادارة أمور الناس هى السلطة ، والسلطة هى القوة ، والقوة هى الظلم من أجل العدل ، وأما الفوضى فهى شيء أشد : عدم النظام ، ظلم وقهر عام ، خوف شامل ٠ والآن يمكنك أن تجيب ٠

لزمت الصمت ٠

ـ لاتستطيع أن تجيب ؟ اننى فى دهشة ؟ اذ أنكم معشر الدراويش لاتستطيعوا أن تفسروا شيئا ، ولكنكم تستطيعون أن تجدوا لكل شيء اجابة ٠

ـ انك على استعداد منذ البداية لكى لا تكون متفقا معى فى شيء مما قلته ٠ ومن الصعب أن يتفاهم رجلان يختلف تفكيرهما ٠

ـ من السهل أن يتفاهم رجلان يعملان فكرهما ٠

أخذ يضحك للمرة الثـــانية • ولم يكن هذا الضحك من قبيل السخرية ، فقد كان يمسه بالقدر الذى يمسنى ، غير أنه كان مساعدا لى اذ جعلنى أتخذه سببا لكى أقطع حديثى الذى لم أكن أشعر بثقة ازاءه • لقد شعرت للمرة الأولى بالحيرة تجاه الأسئلة التى كانت تبدو واضحة أمامى • ان البراهين التى اتخذها حسب هواه كانت توصف بالسذاجة ويشوبها قليل من المزاح ، وعلى الرغم من ذلك لقد بدت لى صعوبة الاجابة عنها • ولم يكن ذلك من أجل عدم وجود هذه الاجابة ، وانما كان من أجل عدم كفاية براهينه • لقد ترك الارض الخصبة لى ، لأقوم بالقاء بذورى فيها • انه منذ البداية قسم كل ماكان باستطاعتى أن أقوله ، حدد الدائرة التى كان باستطاعتى أن أتحرك فيها ، جاء بى فوق حافة الفراغ الذى أحاطنى به ، وحقر من قيمة آرائى الممكنة بما أبدى من سخرية • لقد تغلب على بما كان منه اذ فرض على طريقة تفكيره وألزمنى بمراعاة الاحترام لكل مايمكن استخدامه من طرق التفكير •

قال لى وهو يتصنع الاعتراف •

ــ انك شريف وعادل • لا تريد أن تجيب بكلمات فارغة ، وليست لديك كلمات صحيحة ، على الرغم من أننى كنت أضع الاجابات فى فمك •

ولكى يكون باستطاعتك أن تفندها كنت تسخر •

ــ لقد أردت أن نتحدث دون قصد لشىء من الاعتبارات • ولكن المصيبة تكمن فى أنك لا تجرؤ على التفكير • انك تخاف ولا تعرف الى أية جهة تستطيع فكرتك أن تقودك • لقد تكرر كل شىء فى نفسك وأصبحت تغمض عينيك وأخذت تمسك بطريقك القديم • انهم جاءوا بك الى هذا المكان من أجل شىء لا أعرفه ولا يهمنى ، وهأنت لا تقبل تفسيراتى بشأن الذنب الانسانى • أراك تظن أن هذا مزاح • ربما يكون مزاحا ، غير انه فى الامكان أن يستخلص منه فكرة فلسفية محببة لا تقل شأنا عن سائر الأفكار الفلسفية الأخرى . وعلى الأقل يكون لها تطبيق جميل ، اذ يكون فى امكانها أن تصالح بيننا وبين كل ما يصادفنا او يحل بنا • لقد غلبتك شدة الغضب اذ تعتقد انك لست مذنبا • يا للخســارة • اذا لم يفرجوا عنك فسوف تموت عن قريب بسبب ما يعتريك من العذاب ، وسيصبح اذ ذاك كل شىء على ما يرام • ولكن ماذا سيحدث لو انهم أفرجوا عنك

لو حدث لكان ذلك من أعجب المصائب التى أعرفها • ان ذلك الذى فى الأرض تملكه انت بمقدار ما يملكونه هم ، ولكنهم عزلوك عنه • أتريد ان تذهب وتصبح من قطاع الطرق ؟ أتريد أن تكرههم ؟ أتريد ان تنسى ؟ اننى أسألك لأننى لا أعرف أى هذه الأمور أشق • كل شىء منها ممكن ، ولكنى لا أرى حلا • اذا اتجهت لتصبح من قطاع الطرق فسوف ترتكب ظلما ، فلماذا اذا تغضب عليهم ؟ واذا أخذت تكرههم فسوف تسمك ارادتك السيئة اذا لم تفعل شيئا ضدهم ، وضد نفسك ، لأنك أصبحت اذ ذاك مثلهم ، وسيقبضون عليك للمرة الثانية ، وسيكون ذلك بمثابة الانتحار • واذا آثرت أن تنسى استطعت أن تجد عوضا ما باعتقادك انك كريم ، ولكنهم سوف يظنون انك جبان ، وأنك منافق ، ولن يثقوا بك • وعلى أى من الأحوال ستكون منفصلا ، وهذا هو الذى لا تستطيع أن تقبله • لو لم يحدث شىء مما حدث لكان هذا هو الحل الوحيد الممكن•

صحت فى دهشة :

ـ ان هذه هى فكرتى !

ـ فالأمر اذن أشد ، لأن هذاهو الشىء الوحيد الذى لا يمكن بحال أن يكون •

اسحاق ! انه اسحاق آخر ، يختلف عن سابقه ، ولكنه هو من حيث الحقيقة • كل شىء تغير ولكنه على ما هو عليه من حيث الجوهر • اسحاق الذى لا يجيب بل يسأل ، والذى يسأل لكى يضع الأحاجى والألغاز من أجل السخرية • ولا يمكن الوصول اليه • لو لم يبد الأمر مضحكا لقال لى للمرة الثانية كما قال آنذاك اذهب ، اذ ليس بوسعى ان اذهب الآن ، واما هو فيستطيع ، سوف يخرج اذا أراد ، ستحدث المعجزة ولم يعد بعد فى هذا المكان ، وسيبحثون عنه دون جدوى ، اذ ليس فى امكان الجدران أن تحول بينه وبين الذهاب ، كما ليس بامكان الحراس أن يكونوا عقبة فى سبيل ذلك ، انه لو عزم على الذهاب لما كان باستطاعة أحد أن يعوقه عن تنفيذه ، فالاحاطة به بغية امساكه أمر غير ممكن كما هو الحال بالنسبة لتفكيره • سوف يذهب دون اجابة ، وان كان يعرفها فهو لا يريد أن ينطق بها • انه يتركنى دائما مشتت الفكر ، ويزعزع فى نفسى كل ماأعرفه • وكان من العبث أن يتضح لى فيما بعد ما كان ينبغى أن أجيبه به ، وذلك لأننى لم أجبه ، وما كان باستطاعتى ذلك ، اذ كانت ثقتى به فى تلك اللحظات أكثر من ثقتى بنفسى ، كما كان من العبث أيضا أننى لم أكن أثق بنفسى الا بعد أن تتحقق ثقتى به ،

فقد كنت اخاف أن يفند آرائي كلها عند سماعه اياها ، ولذا كنت الزم الصمت ، فقد كان باستطاعتي أن اتمسك برأيي فقط عندما افلح في الدفاع أمامه عنه • وهذا مالا أجرؤ عليه ، انه يفكر على خلاف تفكيري ، فتفكيره يسير في طرق غير متوقعه ، دون الزام لنفسه وللآخرين ، كما يتصف بالجرأة والحدة • وهو الى جانب تفكيره هذا لا يحترم ما يكون له مني احترام • انه ينظر الى كل شيء في حرية ، وأما انا فأتوقف أمام كثير من الأشياء • انه يهدم ولا يبني ، ويقول ما لا يكون وليس ما يكون • فالأفكار ليست هناك صعوبة في الاقناع به ، اذ ليس له حدود ، ولا غايات ، لا يرمي الى شيء ولا يدافع عن شيء • ان الدفاع عن شيء أصعب من الهجوم عليه ، لأن الذي يتم يأخذ على الدوام في التناقص ويستمر في التباعد عن التفكير •

قلت محاولا أن أدافع عن نفسي :

ـ ان الحياة تجنح دائما نحو المنحدر • ولابد من الجهد المتواصل لكي يسمح لها بذلك •

ـ ان التفكير هو الذي يدفعها الى الانحـدار ، لانه يبدأ أن يعارض نفسه • واذ ذاك ينشأ التفكير الجديد ، المعارض ، ويكون على درجة من الجودة حتى يبدأ تحققه • واذن ليس جيدا ذلك الذي يكون ، وانما ذلك الذي يرغب • وكان على الناس عندما يجدون فكرة جيدة أن يحتفظوا بها داخل الزجاج حتى لا تتلوث •

ـ اذن لا توجد اية امكانيات كي نقيم نظاما لهذا العالم ؟ وكل هذا ليس سوى ضلال ومحاولة منذ الأزل الى الأبد ؟

لم يجب • لقد ذكر فكرة عجيبة ، كانت تبدو لي هكذا في البداية ، واصبحت فيما بعد أمرا لا يهمني •

ـ وهذا هو العالم أيضا • نحن في سرداب ، واقامة نظام فيه يعني العمل على جعله أشد صعوبة وأكثر مرارة •

واذ ذاك بدأ فقدان الوعي • وخيل الى أنني كنت أعي كيف أخذ هذا الفقدان ينتابني ، ولكنني لم أستطع الافلات من سيطرته ، لقد كان في هذا اللاشيء بعض اللذة الغالبة ، تتمثل في ذلك الطفو دون جهد ودون غاية ، كما تطفو الورقة في المنطقة الخطرة من مجرى النهر • لقد كان فكرة لا تعرف التقلص • ولعبة عجيبة جميلة ليس لها من هدف . وتحليقا لا يصاحبه الخوف ولا يراوده القلق • فقد كان حقدا لا يعتريك

النوم من أجله ، وواجبا مستحبا لا يمكن التهرب منه ، شأنه شأن التنفس ودوران الدم ·

سألته دون اهتمام ودون قلق :

ـ لمن يكون أشد صعوبة وأكثر مرارة ؟

ـ لنا نحن ، ولهم أيضا · سوف يسجن بعضنا بعضا · وسوف نتعود على ذلك · وسوف نتحول الى فئران عمياء ، الى خفافيش ، الى عقارب ·

ـ لن نريد حتى الخروج · سوف نألف الهدوء والظلام ·

ـ لن نخرج · وسوف نبقى هنا الى الأبد ، اذ لا يمكننا أن نظل دون انتقال الى الأبدية ·

ـ لن ينسى بعضنا بعضا ·

ـ سوف نسجن الأعداء هناك ، سـوف نطردهم ونلقى بهم على الأرض ، ثم ننساهم ·

ـ عندما ينزعون من الجحيم سيلقى بهم فى معترك الحياة ·

ـ سوف يكون التعساء هناك · وسوف يصيحون : « أعطونا قليلا من الظلام · لقد كنا معكم ! »

ـ وسنرد عليهم بقولنا : « ابحثوا عن ظلام لأنفسكم ! اصنعوه بأنفسكم ! »

ـ كيف سيكونون تعساء ! سوف يصيحون قائلين : « حررونا ! اسمحوا لنا بالنزول اليـكم · » ونحن سنجيبهم قائلين : « لقد ظلمتم أنفسكم · وما كنتم بنا مؤمنين » ·

ـ لقد ظلمتم أنفسكم ·فلابد أن تبقوا هناك

ـ انني سوف أخرج الى الأرض أحيانا ·

ـ انك على الدوام غير مطيع ·

ـ انك ستكون درويشا دائب الحركة · ستراقبنا كي لا نفتح أعيننا ، وكي لا نبتعد عن ولايتنا المظلمة ·

ـ سنحافظ على عالمنا ·

ـ انني لا اريد أن أكون فأرا أعمى أجرى هنا وهناك ٠

ـ لقد بدأت تنمو لنا مخالب صغيرة ، ويكسو جلدنا الشعر ، ويظهر لنا خطم ٠

ـ لا أريد أن أكون فأرا أعمى ٠ اذهب ٠

كنت أجلس القرفصاء ٠ وقد أسندت جبهتى على جدار مبلل بادى الخشونة ، ولم أكن على درجة من القوة لكى أرفع رأسى عنه ٠

وكان شخص ما يقوم بجانبى ٠

لقد ساعدنى على النهوض قائلا :

ـ لقد أفرج عنك ٠ وهناك الأصدقاء ينتظرونك ٠

أخذت أسترجع ذكراى ، بتفكيرى الشاحب البعيد ، وكان ينبغى على أن أفرح ، ولكننى لم اقم حتى بالمحاولة ، اذ لم أكن أشعر بحاجة ما الى ذلك ٠

سألت « كمال » :

ـ اين اسحاق ؟ لقد كان هنا ٠

ـ لا تشغل بالك ٠ لا تهتم بالآخرين ٠

ـ كان هنا الآن ٠ منذ لحظة ٠

وفى الممر كان ينتظر رجل مجهول ٠ لقد جاء بى الى هنا ثلاثة ٠ والآن لست مهما بالنسبة لهم ٠

قال لى ذلك الرجل :

ـ هيا ٠

أخذنا نسير خلال الظلام صامتين ، وكنت أتخبط بين الجدران ، وكان الرجل يمسك بى كى يجنبنى التخبط ، كنا نسير وكنت أفر ، كنت أظل بعيدا عنه فترة طويلة ، ثم أعود اليه ، وكنت أفكر من ينتظرنى ؟ وكان الأمر بالنسبة لى على السواء ٠ واذ ذاك خرجنا من ظلام حالك الى ظلام أقل منه ، وأدركت عندئذ أننا فى الليل ، فى الليل الفانى ، ما أجمل الأشياء التى تغنى ، ليل الصيف ومطره ، وقد أردت أن ابسط يدى لكى يزيل المطر ما علق بهما من وحل السرداب ، ولكى يخمد ما بى من حرارة ، ولكن كانت اليدان متدليتين فى حالة من الضعف ، ولم أكن أشعر بحاجة اليهما ٠

القسم الثاني

١٠

« وقد خاب من دساها »

منذ زمن بعيد كان هناك طفل يتحدث عن الخوف الذى ألم به ·
وقد كان حديثه هذا أشبه بكلمات هذه الأغنية القصيرة :

في أسفل السقف المغطى سطحنا
عرق يصيبك دائما في الرأس
وكذاك ريح تلطم الباب الصغير
للطاقة الصغرى ترى في السقف
وهناك يسكن آمنا في الشق
فأر يطل برأسه
ويرى بجانب عينه

كان عمره ست سنوات ، وكان ينظر بعينيه الزرقاوين الضاحكتين الى الجنود ، والى ، أنا الدرويش الصغير المجند ، فقد كنا رفيقين وصديقين، ولا أدرى أكان يحب في حياته أحدا من الناس كما كان يحبني ، وذلك لأنني كنت استقبله في سرور محاولا ألا أظهر أمامه أنني أكبر منه سنا ·

كان الوقت صيفا ، وكان المطر والحرارة يتعاقبان ، وكنا نتخذ من الخيام سكنانا وقد ضربت في أرض سهلة ينتشر بها البعوض ويكثر فيها نقيق الضفادع ، وتبعد مسيرة ساعة على الأقدام من نهر « سافا » ، وتستقر بجانب الخان السابق ، الذى كان يسكن فيه الطفل الصغير مع أمه وجدته التى ضعف ابصارها حتى لتعد نصف مبصرة ·

حللنا فى هذا المكان منذ الربيع ـ وها نحن فى الشـــهر الثالث لاقامتنا فيه ـ نهاجم بين الحين والآخر هؤلاء الأعداء الذين تحصنوا على شاطىء النهر · وقد فقدنا فى البداية كثيرا من رجالنا ، ولذا هدأنا ، مدركين أننا لا نستطيع بهـذه القوات أن نلحق بهم ضررا ، وأما قواتنا الأخرى فقد كانت تحارب فى ميادين يعلمها الله فى أنحاء الامبراطورية الواســعة ، وهاقد توقفنا هنا واصـــبحنا نحن والأعداء كل يمثل عقبة للآخـر ·

أخذ الوقت يبدو مرهقا مملا · فقد كانت الليالى خانقة ، وكانت الأرض السهلة تتنفس فى هدوء تحت ضوء القمر كما يتنفس البحر ، كما كان هناك عدد لا يحصى من الضفادع التى تقبع فى مكانها وتفصلنا بنقيقها المرتفع المتواصل عن العالم الآخر ، وتغرقنا بأزيزها الذى كان يخمد عند بزوغ الفجر وانتشار سحب الضباب ، مشكلا بخارا أبيض اللون أو رماديه ، ينســاب كما كان ينســـاب فى بداية نشأة العالم ، سابحا فوق رءوسنا · وكان أصعب شىء دقة هذا التجدد ، ثباته على الدوام واستمراره ·

كان الضباب ورديا ، وكانت الفترة من بدء ظهـوره حتى تلاشيه تعد أجمل فترات اليوم ، لم يكن جوها مشـــبعا بالرطوبة ، ولم تكن تنتشر فيه أسراب البعوض ، ولم يعـد العـذاب الذى يتراءى بين النوم واليقظة موجودا · لقد كنا نغط فى نوم عميق كما لو كنا غارقين فى الجب ·

وعندما يهطل المطر ، واذ ذاك يبدو الوقت أكثر ارهاقا ومللا ، كانت دائرة الأفق تضيق ، وكنا نجلس القرفصاء فى تزاحم وصمت ، معذبين بقسوة البرد ، كمـا لو كان الشـــتاء قد أخذ يبدأ من جديد ، وأحيانا كنا نتحدث فى شىء ما ، أو نترنم ببعض الأغنيات ، وقد احتدمت نفوسنا وأصبحنا خطرين مثل الذئاب · كانت الخيام تتشرب مياه المطر وتصيبنا بقطرات رمادية اللون · وكان الماء ينبع كذلك من تحت أسرتنا ، كما كانت الأرض كلها تتحول الى وحل يجعل من الصـــعب السير أو التنقل ، وكنا نقع على الدوام فى شرك مصيبة تحل بنا ·

وكان الجنود يحتسون الخمر ويلعبون الميسر ، تحت غطاء بسطوه فوق رءوسهم ، كما كانوا يتشاجرون ويضرب بعضهم بعضا · كانت هذه

الحياة اشبه بحياة الكلاب ، وكنت أقضيها متظـاهرا بالهدوء ، دون أن اشير بشيء الى أن هذا النوع من الحياة صـــعب بالنسبة لى ، ودون أن اتحرك حتى عندما كان المطر يبللنى ، أو حتى عندما تتحول الخيام الى دار للمجانين ، الى قفص للوحوش البرية ، كنت أجبر نفسى على تحمل كل قبيح وكل صعب دون أن انطق ولو بكلمة ، كنت صـغير السـن ، وكنت أفكر أن هذا يعد جزءا من التضحية ، وعلى الرغم من ذلك كنت اعرف أن الأمر قبيح وصعب • كنت أنا الفلاح وطالب علوم الدين انتفض عندما يصل الى سمعى سب أو قول قبيح ، حتى عندما أدركت أن الجنود يطلقون هذا السباب ويستخدمون تلك الأقوال دون أن يلاحظوا أنها تحمل شيئا غير مقبول • وعندما كانوا يريدون أن يســبوا أو يقولوا كلمة قبيحة ، مستعدين لذلك وواجدين المتعة فيه ، كان الأمر يصــبح فى الحقيقة شــيئا لا يطاق • لقد كانوا يقومون بذلك فى غضب هادىء ، وفى لذة عنيفة ، متوقفين ومتسممين فى اثارة صدى هــذا الجماع غير الطبيعى للكلمات • وكانت تأتى على لحظات أبكى فيها من هذا العذاب •

لقد سمعت عن الحياة وعن الناس اشياء عديدة لم أكن قد سمعتها من قبل وكنت اقبل بعض الأشياء بسرور لمعرفتها ، وبعضا منها بارتباك ولفزع ، وهكذا كنت أحصل على الخبرة ، متخليا عن السذاجة ، ولكن دون أن انقطع عن الحزن •

كنت أجلس مع الجنود حتى عندما يصبحجوهم يبعث على الاشمئزاز ، وكنت أسمح لنفسى أن انفصل بعد أن اقوم بتهدئة نفسى ، بعد أن أكسر حدة مشاعرى ، أو ابتعـد بأفكارى ، قابلا كل شيء كضرورة نطلق عليها الحياة ، وليست جميلة دائما• قلما كان منى من محاولة لردهم الى الصواب• لقد سخروا منى فى ضحك عنيف عدة مرات (اذ كنت ، سوى وظيفتى كدرويش ، مثلهم ، ولم تكن لى رتبة تدافع عنى) ولذا تنازلت من أجلى ومن أجلهم عن التدخل فيما يفعلون ، وقاصرا عملى على الصلوات التى كانت مدرجة فى قائمة اعمال الجنود ، شانها شان السير او الحراسة • واذ ذاك كانت تخطر ببالى فكرة عجيبة يائسة مؤداها أن الانسان الذى يكون أكثر ثقافة واوسع اطلاعا يصبح فى موقف صعب اذا لم يـكن يحميه المنصب وتلك الرهبة التى يخلعها عليه • انه اذ ذاك يصــبح منفردا : فمقاييسه تخالف مقاييس الآخرين ، ولا تعود بالنفع على أحد ، ومن ثم تجعله منفصلا •

ولذا كنت ابقى وحيدا غالبا ، أقرأ في كتاب ، او أسبح بالكاري ، دون أن أفلح في ملاحظة احد من هؤلاء النـاس أرغب في الاقتراب منه ومصادقته • وربما كان ممتعا • لقد كانوا ـ منفردين ـ على صورة من عدم الاهمية لا يمكن تصورها • انني لم اكرههم عندما كنت افكر فيهم كمجموعة ، بل لقد كنت احب قليلا هذا المخلوق ذا المائة رأس ، المخلوق الغليظ والقوى ، ولكنني لم أسـتطع ان اتحملهم فرادى • كان حبى ، او شيء أقل من ذلك ، يتعلق بهم ككل ولا يتعلق بأحد من أفـراده ، وكان يكفينى ذلك •

وذات مرة ، بينما كنت أجلس في الحقل ، على جذع شجرة منشن ، وقد دفنت قدماى فيما تخلف من عمليات النشر والقطع ، وكنت اذ ذاك وحدى ، وقـد أصم أذني صوت الجـدجد حيث كانت الشمس تشتد حرارتها (وعلى الدوام كان هنـاك شيء يثرثر ، يصفر ، ويغنى في هـذه الأرض السهلة) ، كما نالني اشمئزاز من ذلك الذى سمعته مما حكاه الجنود عن امرأة شابة في الخان ـ رأيت طفلا قـد توقف في العشب ، وكان يغوص فيه حتى العنق ، ثم أعلن لى عن نفسه فى ثقة • وقد تم التعارف بيننا •

كم وددت لو لم يجدني ؛ فقد خيل الى انني في خوف من أن يقرأ في عيني ذلك الذى سمعته عن أمه •

لم يكن من المستبعد ذلك الذى حكاه الجنود • لقـد كانت امرأة وحيدة في جوارنا ، وكانت القرى الأولى تبدو للعين على البعد عند حافة هذه الأرض السهلة ، وقد كان الجنود يذهبون هناك وخاصة في الليل من أجل النساء ، وكنت أعرف ذلك ، وليس هناك أحد قد انعدم ضميره كما هو الحال لدى الجندى الذى يعرف أنه من الممكن أن يموت في أية لحظة ، ولا يريد أن يفكر في الموت ، لا يريد أن يفكر في شيء ولايبالى بما يخلف وراءه من خراب • وأما النساء فهن أشد حلما وأكثر وداعة من اجل اشفاقهن القديم على الجنود والذى أصبح على مر الزمان أمرا ملازما لهؤلاء الجنود ، ومن أجل احساسهن بمفـارقة الخجل لهن ، اذ يحمله الجنود معهم في أسـفارهم البعيدة • ان المكان الذى يمر به الجيش لا ينبت العشب وانما ينبت الاولاد • لقد كان صعبا بالنسبة لى أن أقبل ذلك من أم الصبى الذى ظهر فى العشب وحدث التعارف بينى وبينه •

كان باستطاعتى أن أقبل ذلك من كل امرأة ، ولكنى لم استطع قبوله من امرأة معينة • لقد كنت أعمم العالم بهذه الدرجة حتى كان أن فقدته •

انها صغيرة الجسم ، ضعيفة فيما يبدو ، شابة لم تزل بعد ، ولم تكن تثير الاهتمام في سرعة ، ولكن نظرها المركز ، وحركاتها الهادئة ، وتصرفاتها الثابتة كانت تلزم الرجل الا يمر بها فى هدوء ودون مبالاة • واذ ذاك كان باستطاعته أن يكتشف عينيها اللتين لم تتشتت أشعة ابصارهما ، وفمها الجميل الذى يبدى قليلا من الابتسام وشيئا من السخرية والعناد ، وحركاتها المتناسقة التى لا يمكن أن يقوم بها سوى جسم صحيح مرن • لقد كانت تواجه الشدائد فى حياتها بشجاعة • وعندما أصبحت أرملة أصرت على أن تحتفظ بطريقة ما بالخان وبالضيعة التى تحيطه ، والتى كانت الحرب تتلفها شيئا فشيئا ، حتى بدت تشبه أرض المقابر والصحارى • لم تغادر هذا المكان ، بل كانت تحافظ على الشيء الوحيد الذى كانت تملكه ، محاولة أن تحول مصيبتها الى ما يعود عليها بالنفع • كانت تبيع الطعام والشراب لمن يأتى من الجنود ، وكانت تسمح لهم أن يقامروا في الخان ، كما كانت تستنزف منهم تلك النقود الهزيلة التى تصرف لهم ، معطية اياهم ذلك الذى لم يكونوا يملكونه • وقد حاولت جهد طاقتها أن تبعد ابنها عن البيت وعن الجنود ، ولكنها لم تكن تفلح على الدوام في ابعاده • لقد تحدثت معها فى هذا • وردت فى هدوء قائل « اننى من أجله اشتغل • سوف تكون حياته صعبة اذا بدأ من لاشيء » •

وهأنا الآن عرفت أنها تعيش مع الجنود • ربما كانت مجبرة ، وربما لم تكن تستطيع أن تدافع عن نفسها ، وربما قبلت مرة ثم اخذوا بعد ذلك يهددون ، فكان أن تعودت ، لا أدرى ، لم أرد أن أسأل احدا ولكن كان يعذبنى ذلك الذى سمعته • وكان هذا من أجل الصبى • أيعرف هو أم سيعرف ؟ ومن أجلى أنا كذلك • كنت الى تلك اللحظة التى سمعت فيها ذلك اقدر شجاعتها ، ثم اخذت أفكر بعد كما يفكر كل رجل شاب ، وان كنت أخجل من تفكيرى هذا • ولكنها الآن أصبحت كالماء الذى يجرى فى حرية ، كالطعام الذى يقدم للمرء ، اصبحت فى متناول اليد • لم يكن يدافع عنها شيء بعد ، سوى خجلى ، وكنت أعرف أن الخجل ليس عقبة كبيرة للغاية ، ولذا كنت اربط نفسى أكثر بالصبى ، لكى ادافع عن نفسى وعن نفسه كذلك •

لقـد كنت أسمع له أن يقودنى فى طرقه الصبيانية كما يشاء ، لنتحدث بلغته ، ولنفكر بطريقته ، سعيدا عندما كنت أحقق على وجه التمام ذلك ؛ اذ كنت أشعر أننى أصبحت هكذا غنيا • كنا نصـنـع مزامير من عشبة سيفية الأوراق ، ونتمتع بصوتها الحاد ذى الأزيز ، ذلك الذى كان يصدر حين يقطع حدها الاخضر ما ينطلق من هواء الفم • وكنا نقطع فى مهارة وعنـاية ما جمعناه من أعواد شـجر البيلسان ، ثم نقوم باخراج نخاعها الرطب ليكون لها جوف تملؤه أصوات عديدة خفية ، كما كنا نصنع من الورود الزرقاء والصفراء نقطفها من المستنقع اكليلا ليحمله الى أمه ، وقد حثثته فيما بعد كى يزين بالاكاليل أغصان الحور ، حتى لا يطوف بذهنه أمر قبيح •

سألنى :

ـ هل ستنبت الزهور فى أغصان الحور ؟

قلت معتقدا بعض الشىء أنا الآخر فى ذلك الاحياء الزهرى لشجرة رمادية :

ـ ربما ستنبت •

وسألنى ذات مرة :

ـ أين الشمس ؟

ـ وراء السحاب •

ـ هل تكون دائما هناك ؟ حتى عندما تكون السماء ملبدة بالغيوم ؟

ـ نعم دائما •

ـ ألى استطاعتنا أن نراها اذا صعدنا الى قمة شجرة الحور ؟

ـ لا نستطيع •

ـ ولو صعدنا المئذنة ؟

ـ لا نستطيع ، ففوق المئذنة يكون السحاب •

ـ ولو أحدثنا ثقبا فى السحاب ؟

وحقا لم لا يحدث الناس ثقبا فى الســحاب ، من أجل الصبيان الذين يحبون الشمس ؟

وعندما كان يهطل المطر كنت أجلس معــه فى احدى غرف البيت

الواسع ، ثم اخذ يقودني الى السطح ، وهناك صدمني أحد العروق في رأسي ، كان يحكي لي حكاياته الجميلة عن قارب كبير كهذا البيت يسبح في النهر ، يسبح في هذه الأرض السهلة ، كما كان يحكي لي عن حمامته المحبوبة التي ترفرف بجناحيهـا فوق سريره عندما يأوي الى النوم في الليالي الخانقة ، وعن جدته العجوز التي لا تبصر ولكنها تعرف جميع الحكايات في العالم ٠

ـ وعن الطائر الذهبي ؟

ـ وعن الطائر الذهبي ٠

ـ وما هذا الطائر الذهبي ؟

كان معلمي الصغير يبدي دهشته قائلا :

ـ ألا تعرف ؟ انه طائر من الذهب ٠ ومن الصعب الحصول عليه ٠

كنت اذهب فيما بعد الى بيته نادرا ، اذ لم تكن افكاري طاهرة ، كما كنت أتحدث لغته في صعوبة ٠ وعندما كنت اذهب كنت أبدو على خلاف طبيعتي كنا نجلس في المطبخ ، وكانت أمه تدخل وتخرج ، وتبتسم لنا كما تبتسم لطفلين صغيرين ٠ كنت اخفي عيني ٠ لم اكن اريد ان آكل ، أو أشرب ، كنت أرفض عندما كانت تقدم الى طعاما أو شرابا ، فقد أردت أن اكون على خلاف الآخرين اذ كنت مثلهم ٠

وقال الصبي ذات مرة مقترحا :

ـ ابق عندنا ٠ لماذا تخرج والمطر يسقط ؟

وضحكت المرأة عندما رأت كيف احمر وجهي ٠

وذات ليلة ، وفي وقت الفجر بالتمام ، هاجمنا العدو ، وطردنا من خيامنا ٠ وقمنا ـ وقد بوغتنا ـ بمقاومة ضعيفة ، ثم جمعنا في شيء من الصعوبة أسلحتنا وأشياءنا الضرورية ، وانطلقنا في أرض سهلة وليس على أجسادنا سوى ملابسنا البيضاء ، وكنا نحمل في ايدينا مهمات الجند المتواضعة ، وقد توقفنا عندما بزغ النهار ولم يكن أحد يرى وراءنا ٠

احتل العدو مكاننا كما احتل الخان ٠ وحفر جنوده بعض الخنـادق وأخذوا ينتظروننا في غير خوف ٠

رددناهم الى مكانهم على شاطيء النهر بعد سبعة أيام ، ومرة ثانية احتللنا مكاننا حول الخان ٠

واذ ذاك خرج جنديان منا من الخان ،فقد حدث الهجوم المفاجيء وهما بداخله ، أو لعلهما لجئا اليه ، وهناك مكثا مختفيين هذه الأيام السبعة العسيرة ، حيث كانت جنود العدو تدخل وتخرج وتتنقل حول الخان • وكانت المرأة تقوم باطعام هذين الجنديين • لقد كنا شاكرين لها حتى عندما حكيا لنا انها كانت تعيش مع جنود العدو • وساد الصمت •

ورجوت الضباط ان يامروا بنقل الصبى وجدته العمياء بالعربة الى احدى القرى القريبة •

وسأل الصبى :

ـ وأمي ؟

ـ ستلحق بكما فيما بعد •

وما أن ابتعدت العربة وبدت صغيرة الحجم في الأرض السهلة حتى قاموا بقتل الأم رميا بالرصاص •

لقد عرف الصبى دون شك ماذا حدث لأمه ، كما أصبحت دون شك أغنية عن السقف أشد مرارة •

تذكرت الصبى وخوفه ، وأنا أجلس في غرفتي وأعود بأفكارى الى الوراء ، الى أيام صباى •

كان لبيتي سقف يغطى سطحه ايضا • وكنت أجلس منحنيا على سرج قديم كان يوجد على السطح وحيدا في هذا العالم من المخلفات التى فقدت شكلها السابق واتخذت شكلا آخر ، وكان هذا الشكل يتغير حسب أوقات النهـار وحسب انفعـالاتى النفسية ، حسـب شدة ضوء الشمس وضعفه ، وحسب حالتى الفرح والحزن فى نفسى • كنت أنطلق راكبا على السرج من أجل تحقيق الرغبة فى أن يكون شيء ، فى أن يحدث شيء من أحلام الصبية الضبابية التي كانت تتغير فى سرعة وعناد ، والتى كانت غير حقيقية شأنها شأن هذه الاشياء فى الظلمة التى تغشى السـطح •

كان هذا السطح المغطى بالسقف الهرمى يخلقنى ، كما كان يخلقنى عديد من الأماكن ، والمناسبات ، واللقاءات ، وبعض الرجال ، وكنت أشب وأترعرع فى آلاف من التغييرات ، وكان يخيل الى دائما أن كل شيء من الماضى كان يتلاشى مع تغير جديد ، وكان يضيع كشيء عديم الاهمية فى ضباب ما مر بى من الزمن • واذ ذاك كنت أجد على الدوام ودون توقع آثار كل ما كان ، كحفريات كشفت من جديد ، كطبقات تمثل ذاتى ،

وعلى الرغم من أنها قديمة وقبيحة فقد كانت ترى جميلة وحبيبة الى نفسى. كان الزمن يحمل هذا الجزء منى ـ ذلك الذى قد كشف ولم يصبح ضائعا بعد ولم يعد مجرد ذكرى ـ ويعيده من فوق السها والثريا واصلا اياى به • وهكذا كان له وجود ثنائى ، وجود باعتبـــاره جزءا من شخصيتى الحالية وآخر باعتباره ذكرى ، وجود يمثل واقعى الحاضر وآخر يمثـــل بداية واقع جديد •

على هذا السطح حيث كنت أنشد العزلة ، مكتشفا نفسى ، وأطلب الملجأ من الفضاء العارى لموطنى ، وان كنت أحبه أكثر من أمى ، كنت أفكر كثيرا عن طائر ذهبى ورد فى حكايات جدتى • لم أكن أعرف ماذا يكون هذا الطائر الذهبى ، ولكن عندما كنت اسمع سقوط قطرات المطر على السقف الخشبى ، واصطكاك باب الطاقة بفعل الرياح ، وارى عديدا من الأعين تطل من أركان السقف ـ كنت أتخيل حصولى على طائرى الذهبى ، كما يحصل عليه البطـل فى حكايات جدتى التى لا يزال وقعها فى الآذان ، عالما أنه هكذا بطريق ما غريب ليس فى الامكان ايضاحه تتحقق السعادة •

لقد نسيته فيما بعد ، فالحياة قد قشعت أحلام الشباب ، تلك الأحلام التى يمكن أن تنبعث من تخيلات حارة لا يعتريها العوائق ، ومن رغبات حرة لا تعرف الحدود • انه ولد فى فترة السذاجة • ولكنه ظهر من جديد، كابتسامة ساخرة ، وذلك عندما أصبحت حالتى على قدر من الصعوبة لم أحسه من قبل •

حدث أن كان صبى يعيش فى بيت والده على شاطئ النهر ، وكان يحلم احلاما ذهبية ، اذ لم يكن يعلم شيئا عن الحياة •

وكان هناك فى الخان المقام على السهل صبى آخر يكثر من التفكير فى الطائر الذهبى • لقد قتلوا أمه لأنها ارتكبت المعصية ، وأما هو فقد شردوه فى العالم •

لقد كنا اربعة من الاخوة ، وكان كل منا يبحث عن طائر الســعادة الذهبى • وقد لقى أحدهم مصرعه فى الحرب ، وأصاب ثانيهم الســـل الرئوى فقضى عليه ، وأما الثالث فقد قتل فى القلعة ، وأصبحت أنا الأخير لا أبحث عن طائرى بعد •

أين تكون الطيور الذهبية التى ترف فى أحلام الناس ، وفوق أى بحر من البحار العديدة او أى جبل من الجبال الوعرة نستطيع أن نحصل عليها ؟ أتظهر لنا هذه الرغبة العميقة من الرغبات التى تمليها سذاجة

الأطفال اشبه بعلامة دالة على الحزن قد ارتسمت في المناديل وتزينت بها الجلود الفاخرة لتلك الكتب التي لم نعد نستخدمها بعد ؟

حاولت أن اقرأ حكايات ابي الفرج ، والزمت نفسي ذلك ، دون ان يكون لدى كبير رغبة ودون ان أجد في نفسي ضرورة • فقد اردت ان اسمع أفكار الآخرين لا أفكاري فحسب •

فتحت الكتاب كيفما اتفق ، فوجدت حكاية عن الاسكندر المقدوني• وتروي الحكاية ان أحدا قدم للامبراطور هدية مكونة من أوان زجاجية رائعة وقد أعجب الامبراطور بالهدية ولكنه على الرغم من ذلك حطمها بأكملها ، فسألوه : لم قمت بتحطيمها ؟ ألم تكن رائعة ؟ أجاب : بلى ، ولذا حطمتها انها بلغت من الروعة ما يجعلني أشعر بالحزن والأسف اذا ما حدث ان فقدتها • وبمرور الأيام سوف تتكسر قطعة اثر اخرى ، وسينتابني حزن أشد مما ينتابني الآن ••

كانت الحكاية توصف بالسذاجة ، ولكنها على الرغم من ذلك أفزعتني • ان مضمونها يبعث المرارة ، يجب على الانسان أن يقصي عنه كل ما في الامكان أن يقع تحت سيطرة حبه ، لأن الفقدان وخيبة الأمل لا يمكن تجنبهما • يجب علينا ان نتنازل عن حبنا لكي لا نفقده • يجب علينا أن نهلك حبنا ، لكي لا يهلكه الآخرون • يجب علينا أن نعرض عن جميع الارتباطات تجنبا لحزن آت •

انها فكرة قاسية يائسة • اننا لا نستطيع أن نهلك كل ما نحب ، وسيبقى الامكان على الدوام لكي يهلك الآخرون لنا ذلك •

لماذا يعتقد الناس أن الكتب تتصف بالعقل والحكمة اذا كانت مرة المذاق ؟

لا تستطيع حكمة احد ان تساعدني: ولذا افضل أن أعود الى البداية وسيكون ذلك دون جهد مني ودون اجبار من نفسي • انني لا ابحث عن الشيء ولكن الشيء يبحث بنفسه عن نفسه ثم يتحقق له الوجود •

ان المطر ما زال مستمرا منذ أيام ، وقطراته ما زالت تنقر في شراسة وحقد سقف التكية الهرمي الذي غطي بالقرميد ، والأفق تغشاه الظلمة ويكتنفه الغموض ، وفوقي على السطح تسير أقدام غير مرئية ، ويوجد عرق أعلاه يصدم الرأس ، كما توجد ريح تصفق باب الطاقة في

السقف الهرمي ، وفأر يطّل برأسه من أحد الأركان • وعدا ذلك توجد طفولة واحدة تتطلع بعينيها الحزينتين عبر الظلام •

نجحت للحظة أن افكر كما يفكر ذلك الصبي الوحيد البعيد ، وأن تكون لي مشاعره وخوفه • كل شيء كان سرا جميلا ، ولم يكن له سوى مستقبله أو سوى استمرار لا يعرف الحدود ، وكانت له الى جانب ذلك حالات قوية ، سرور عميق أو حزن عميق • لم تكن هذه احداثا بل حالات نفسية ، كانت تاتي أحيانا وحدها ، كما يهب النسيم ، كما تمتد ألسنة الظلام ، كما يظهر لألآء غامض ، كما تستولى النشوة • أو تلوح أجزاء من صــــور ممزقة ، او اشخاصا تلمع في الظلام لمعان البروق ، أو ضحكات لشخص ما في صباح مشمس ، أو انعكاسا لضوء القمر في نهر هادىء ، أو شجرة متعرجة تقوم عند منعطف الطريق ، ولم يكن يخطر ببالي وجود تلك الفترات لحياتي الســــابقة في داخلي ، كما لم أكن أعرف لماذا بقيت مستقرة هذا الزمن كله • هل من الممكن أنها كانت تعني شيئا عظيما في المــاضي ، ولذا تسربت الى أعمــاق ذاكرتي ، وتوارت كما تتوارى أدوات اللعب القديمة • انني نسيت ذاتي السابقة ، وقد طواها الزمن البعيد، وها قد اخذت تطفو الآن بقاياها المهشمة ومخلفاتها البالية •

كل هــذا الذي ذكرت يمثلني أنا الآن ، أنا المقطع ، أنا المكون من القطع الصغيرة ، من الانعكاسات ، من البروق ، من المصادفات ، من الأسباب لا يمكن تعرفها ، من المباني التي كانت توجد ثم توارت ، والآن لا أعرف بعد ماذا أكون من هذه الأخلاط والأمشاج •

أصبحت اشبه بمن يسير ليلا وهو نائم •

كنت أجلس طويلا في الليل دون حركة ، وقد وضعت في جانبي الغرفة شمعتين مضيئتين كي ابعد بهما الظلام • وكنت انظر ــ مستترا كالليل حولي ، وهادئا كالعالم فيه ــ الى زجاج النافذة الأسود الذي كان يفصلني عن الظلمة ، والى الجدران الرمادية التي كانت تفصلني عن كل شيء ، دون أن اجرؤ على ابعاد نظري عنهــــا ، كما لو كانت ستنشق لو اغفلتها لحظة واحدة • وكنت أستمع ، دون ان أحاول النهوض ، ودون أن أنتقل مِن الركن الذي جلست فيه كي تظل الغرفة باكملها أمامي ــ كيف يهطل المطر بشدة وكيف يكركر الماء داخل ميزاب خشبي مسدود ، وكيف يخشخش الحمام بأظفاره ويعلن عن نفسه بهديله الناعس •وكانت هذه الأصوات جميعها تسري في هدوء وبنغمة واحدة ، وقد أصبحت جزءا

من الليل الذى توقف عن السير ، وجزءا من العالم الذى خمدت فيـــه الحياة .

لم اكن أبحث بعد عن الأسباب ، او الأمر الكلى ، أو التيارات التى تسرى فى غير انقطاع .

وفى نهاية محاولتى تحديد هذه الأشياء ، ووضع نطاق حولهـــا ، واقامة تخوم لمعانيها ، كان يقف الليل الطويل الاسود ، والميـــاه التى تتزايد على الدوام .

والى جانب ذلك كان صبى الأرض السهلة يمثل امامى كذكرى تبعث العذاب والقلق .

لقد وجدته فيما بعد ، وجئت به الى المدرسة والى التكية . وقد تم التعارف بيننا عند اللقاء فى صعوبة بالغة ، وذلك لما كان قد حدث من تغير فى نفسى وفى نفسه كذلك .

ماتت جدته العجوز وبقى وحيدا فى هذا العالم . أصبح راعى غنم فى القرية التى تركوه فيها ، وكان يتيما اذ لقيت أمه مصرعها فى الحرب تاركة له استحقاقاتها المشكوك فيها على سبيل الذكرى ، وتاركة له عبئا مبرحا تحمله نفسه .

كان اشبه بزهرة من زهور المستنقع نقلت الى الجبال ، أو جرادة قطع الصبيان جناحيها ، أو صبى من سكان السهول سلبه الناس الطمأنينة واثقلوه بالهموم . وكانت سماته الخاصة به لاتزال موجودة ، وجهه ، جسمه ، صوته ، وعلى الرغم من ذلك لم يكن هو الشخص الذى كان .

لن أنسى كيف كان يجلس على الحجر تجاهى ، خامد النفس ، لاينطق بشىء ، شارد الذهن ، دون ما اثر لذلك السرور الذى يشبه سرور الطير والذى كان يتألق فى الماضى على وجهه ، ودون ما أثر حتى لحزن ، ودون ما شىء ، كان يجلس مطحونا . وكنت اقول له سوف تكون معى وساهتم بأمورك وستتعلم فى المدرسة ، ولكن نفسى كانت تريدنى أن أصيح : اضحك ، اجر وراء الفراشة ، تكلم عن الحمامة التى ترف فوق فراشك . ولكنه لم يكن يريد ان يتحدث بعد فى شىء .

والآن ، وبينما كان المطر يسقط ، وبينما كنت فى هذا الفراغ الذى ظهر امامى أتشبث ــ كما يتشبث الغريق ــ بالطفولة ، بالكتب ،بالاشباح

كان يدخل في هدوء الى غرفتي ، وكنت أحيانا افاجئه عند بابها ، وذلك عندما يخيل الى أن الهدوء اصبح على غير ما كان •

وكان حين يدخل يقف ملصقا ظهره بالحائط ، دون أن ينطق بكلمة •

واذ ذاك يدور هذا الحوار :

ـ اجلس ، يا ملا يوسف

ـ لا بأس •

ـ ماذا ترغب ؟ •

ـ أيلزمك شيء أقوم بنسخه ؟ •

ـ لا •

وكان يبقى لحظات بعد ذلك لم نكن نعرف في أثنائها كيف نتحدث ، اذ يكون الموقف حرجا بالنسبة لي وله ، وكان يتصرف دون كلمة تخرج من فمه •

انني لو سئلت ماذا يقف حائلا بيني وبينه ، وأي نوع من العلاقات تصل بيننا ، وأي عذاب يفصل أحدنا عن الآخر ـ لما عرفت أن اجيب • في وقت ما كنت أحبه وكان يحبني كذلك ، والآن ينظر احدنا الى الآخر نظرة الموتى • كانت تربط بيننا الارض السهلة ، قبل حدوث المصيبة ، كما كان يربط بيننا ذلك السرور الذى كان يتلألأ فوق ذلك الزمن كما يتلألأ ضوء الشمس • وعلى الرغم من ذلك كان أحدنا يذكر الآخر على الدوام أن السرور لا يمكن أن يستمر وقتا طويلا •

لم يكن يتحدث قط عن طفولته ولا عن أرضه السهلة ولا عن الخان ، ولكن كان يخيل الى أنني أرى في عينيه كلما التقت بعيني ذكراه ماثلة من أجل موت أمه ، كما لو كنت قد ارتبطت ارتباطا وثيقا بهذه الذكرى التى كانت تمثل اصعب ذكرى له • ربما نسى كيف كان الحادث ، ومن أجل ذلك يرانى الآخر مذنبا ، لأنني كنت جنديا كما كان الآخرون • وقد حاولت مرة أن أوضح له ولكنه قاطعني خائفا بقوله : أعرف ذلك •

لم يكن يسمح لأحد أن يخترق دائرة ذكراه الممنوعة ، أو يقوم باخلال نظامه المظلم الذى خلقه في نفسه • وهكذا أخذنا كلما تقدم الوقت في التباعد ، وكلانا يخفى قسوته ، لقد كان قاسيا من أجل شكه وثورته وما حل به من المصيبة ، وكنت أنا كذلك من أجل نكرانه الجميل •

لقد تصالح حســــن مع والده ، وكان يتحدث فى ذلك بشىء من المزاح ، وبخاصة عندما أعلن أنه جمع بين ولى الامر والحماة وطفل مدلل فى شخصية واحدة ، ولكن سروره كان يتلألأ على وجهه • انه قد اتفق مع والده أن يوقفا جزءا من ممتلكاتهما من أجـــل الثواب والذكرى على الفقراء والمشردين ، وكان يواصل السعى هنا وهناك أياما عديدة من أجل انهاء الأعمال الخاصة بما اتفقا عليه ، والحصــــول على التصديقات من المحكمة ، ومن أجل طلبه الرجل المناسب والشريف والذكى والماهر الذى يمكنه أن يتولى امور الوقف ، اذا كان فى الامكان الحصول على هذا الرجل ـ كما يقول حسن ضاحكا ـ • لم أكن متاكدا أكان سروره أشد بتصالحه مع والده أم بخروج هذا القــــدر الكبير من المال من حوزة يد نسيبه « عينى أفندى » • ان حسن كان يقول فى سرور : ـ اذا لم ينشق قلبه فلا شك أنه قد من حجر •

لقد اشترى حسن المصحف الذى نسخه ملا يوسف لكى يقــوم باهدائه الى والده ، ولم يكن يوسف يريد أن يقبل ثمنا له ، ولكن السبب الذى ابداه حسن كان مقنعا :

ـ ان عملا يستغرق سنتين لا يمكن ان يهدى بهذه السهولة •

ـ وأية حاجة لى فى هذه النقود ؟ •

ـ قدمها لمن هو فى حاجة اليها •

كان يبدى عجبه ناظرا الى المصـــحف : انه فنان يا شيخ أحمد ، وأما أنت فتسكت عن هذا وتخفى أمره وتخشى أن يأخـــذه منك • انه يذكرنى بالمبرد المشهور • ربما يكون فنه أجمل من فنه • انه أشد اثارة وأعمق صدقا ، اسمعت عن المبرد يا ملا يوسف ؟ •

ـ لم اسمع •

ـ لقد أصبح غنيا ومشهورا من أجل الموهبة التى تشبه موهبتك • وأما أنت فلا يعرف عنك احد فى قصبتنا هذه ، حتى أولئك الذين ياتون الى التكية • ان رجالنا يذهبون بالموهبة الى اســـــتامبول أو الى مصر ، والآخرون يوافوننا بالأخبـــار عنهم • اننا لا نعرف أو لا نهتم أو لا نثق بانفسنا •

قلت دون أن الاحظ عتابه :

ـ ان المجد هنا صغير مهما تكن الاسباب • لقد اردت أن نرسله الى استانبول ولكنه لم يقبل •

بدت الحيرة على الشاب كما بدت فى المرة الاولى عندما حدثته فى ذلك • غير ان خوفه كان اقل مما كان آنذاك •

وقال فى هدوء :

ـ انني اقوم بهذا العمل ارضاء لنفسى ، ولم اكن أفـــكر فى يوم ايحمل قيمة أم لا •

وضحك حسن قائلا :

ـ اذا كان صـــدقا ما تقول فاري لزاما على أن أقف احتراما لك واعترافا بمقدرتك وفنك •

واذا انصرف الشاب وقد تملكته الحيرة من أجل المدح أخذ حســن يشيعه بنظراته •

ـ مازال هناك أناس يا صديقى ينتابهم الخجل ويشــــتد لديهم الاحساس • ألا يروقك هذا ؟ •

ـ سيظل يوجد على الدوام أمثاله •

ـ الحمد لله • أننا كثيرون جدا نحن الذين لا نعرف بعد هذا • ان اناسا كهؤلاء يجب الاحتفاظ بهم من أجل البذرة • (ثم أردف قائلا :) يبدو أنك لا تهتم به كثيرا •

ـ انه كثير الصمت ومنطو على نفسه •

ـ نعم • انه خجول ، وكثير الصمت ، ومنطو على نفسه • فليساعده الله •

ـ لمـــاذا ؟

ـ ان وظيفتكم الدرويشية غريبة ، انكم تبيعون هذه الكلمات التى يشتريها النـــاس من أجل الخوف او التعود • اما هو فلا يرغب ذلك . أو لعله لا يعرف أن يبيع الكلمات ، كما لا يعرف أن يبيع صمته وكذا موهبته • فهو لا يحفل بالنجاح • باى شىء يحفل اذن ؟

عبثا تحاول أن توقف حسن اذا أثار اهتمامه أحد • وكثيرا ما تكون هذه الاثارة دون سبب ، أو من أجل سبب يهمه هو فحسب •

ـ لماذا تستطلع أمره الى هذا الحد ؟

ـ انني لا أستطلع امره • وانما نحن نتحدث •

ـ انك تملك قدرة عجيبة تمكنك من الاحساس بالرجل التعيس •

ـ أهو تعيس ؟ •

حكيت له جميع ما كنت اعرفه ، أو ما يكاد يكون الجميع ، حكيت عن الارض السهلة ، والصبي ، وامه ، وبينما كنت احكي بدا لي واضحا ان الشـــاب أصبح ضـــحية كما أصبحت • ولم أكن أعرف أي عذابينا أكبر ، لقد لحقه العذاب في بداية حياته ولحقني في نهايتهـــا • لم أقل ذلك ، ولكنني كنت اشعر انا كذلك كيف أصبحت آسفا لهذه المصـــيبة أكثر من اللازم ، فقد انتزعت من نفسي شخصا آخر وأخذت اتحدث عنه الى جانب ذلك •

كان حسن يستمع منحرفا ببصره عني ، دون أن يقاطعني ، وقد بدا عليه الانفعال والتأثر ، ولكنه كان يقظا الى درجـــة كافية لكي يدرك المضمون • وقد قال :

ـ يبدو انك فهمته الآن فقط • كان ينبغي ان تقدم اليه المساعدة •

ـ انه لا يرغب أن يساعده أحد ،ولا يسمح لأحد أن يقترب منه ، كما أنه لا يثق بأحد •

ـ لو اقترب منه أحد لآمن بما يكنه له من الحب • انه كان طفلا •

ـ كنت احبه ، فانا الذي جئت به الى التكية •

ـ انني لا الومك • كلنا على ذاك النمط • اننا نخفي الحب ، وبهـــذا نعمل على اخماده • ان الخسارة لحقتك ولحقته •

انني أعرف ماذا كان يقصد بهذا : في الامكان ان يحل يوســـف الآن محل أخي • ولكن أحدا لا يمكن ان يحل محله •

انني لم اساعد يوسف ! ومن ساعدني ! •

كنت أتحدث عن نفسي ، ولكنه لم يكن يسمع سوى اسم الشاب • انني بحكايتي عنه جعلت في البعد نفسي • أكان ذلك من أجل حداثة سن

يوسف أم من أجل ما أحسه من الفخر والقوة ؟ ان الأقوياء لا يأسف عليهم أحد ٠

ــ والآن ؟ كيف الحال بينكما ؟ أتسكتان عن كل شيء ؟ ٠

ــ ان التعساء سريعو التأثر للغاية ٠ ومن الممكن أن يجرح أحدنا الآخر ٠

ليس من المفيد التحدث فى ذلك الذى يصعب ايضاحه ، من اننى احب ذكرى تلك الارض السهلة وأكره انفصالية يوسف الباردة وسكوته المظلم الذى يقتل الأمل ٠ لقد بسطت وأوضحت هذه العلاقة المتشابكة ، مكتشفا صدقا جزئيا فيما يحدث على التدريج من تجنب أحدنا الآخر ، ولكن على الرغم من ذلك تبدو العلاقة فيما بيننا قوية ، اذ الانسان يستطيع الابتعاد بسهولة عن ذلك الذى ساعده ، فهو يحفظ فى اغتباط ذكراه الجميلة عن نفسه ٠ اننا ــ أنا ويوسف ــ كشخصين تقوم بينهما أقوى درجات القرابة ، وحتى لو حدث سوء التفاهم بيننا لكان شديد الشبه بذلك الذى يحدث بين الأقرباء ، وهو على الدوام قريب من الحب ٠

ضحك حسن وقال :

ــ ويوجد كذلك كره الأقرباء ٠

انه بهذا لم يفاجئنى ٠ فقد مكث فترة يتحدث جادا ٠

اجبت أيضا فى مزاح :

ــ لم نصل الى ذلك بعد ٠

منذ ذلك الحين كانا يتقابلان كثيرا ٠ كان حسن يأتى الى التكية أو كان يدعوه الى البيت ٠ لقد كانا يتعجلان معا انهاء أعمال حسن ، كما كانا يقومان بكتابة العقود واجراء عمليات ما حسابية ، ثم يخرجان قبيل الغروب فى نزهة على شاطىء النهر ٠ وكانت علائم التغير تظهر على ملا يوسف : فقد عرفت أن عاطفة حسن غير المباشرة تحوطه وتغشاه أشبه بالضباب الندى ٠ ولكنه كان مايزال يحمل معالمه السابقة ، التى كان ينفرد بها عن الآخرين ، غير انه لم يكن بعد يائسا ولا صلبا فى تعامله ٠ كما لو كان يحيا من جديد ذلك الصبى البعيد ، ولكن فى بطء كما يبدو ، اذ مازال الظل يغطيه ٠

كان يرى متوترا اذا لم يحضر حسن ، وكان ينظر اليه متلالىء الوجه

عندما يبصره مقبلا ، كما كان يفرح لصفائه ولكلمة صداقة ينطق بها ، ولم يعد ينصرف كما كان يفعل من قبل عندما نبدأ ـ أنا وحسن ـ فى الحديث ، بل كان يظل بجانبنا ، وقد أوشك أن ينسى مراعاة الاصول المتبعة ، بما له من ذلك الحق الذى خولته اياه صداقته الجديدة • وكان حسن سعيدا بهذا الولاء الصامت ، وبهذا التهلل الذى كان يستقبله به الشاب •

ومرة تغير كل شيء • تغير في سرعة عجيبة ، وعلى حين غفلة • فقد انقطع حسن عن الحضور الى التسكية ، كما أنه لم يقم بدعوة يوسف الى بيته بعد ، لقد انقطع اللقاء ما بين الرجلين •

سألته مشدوها :

ـ ماذا حدث مع حسن ؟ •

أجاب فى حدة :

ـ لا أدرى •

ـ كم من الوقت مضى على تغيبه ؟ •

ـ خمسة أيام •

كان يبدو مطحونا • وللمرة الثانية أصبحت نظراته مضطربة ، وكانت الظلال الكثيفة تكسو وجهه ، ذلك الذى كان قد بدأ يصفو بما كان يزايله من سحب العبوس •

ـ لماذا لم تذهب اليه ؟ •

اطرق براسه وأجاب فى صعوبة :

ـ ذهبت ولم يسمحوا لى بالدخول •

لقد وجدت أنا نفسى صعوبة في ان ارى حسن •

هذه المرأة الصغيرة التى كانت تنظر الى الجميع بنظرات مشتتة والتى كانت تبتسم فى هدوء من أجل ذكرى أو انتظار ، واضعة بشعرها احدى الزهرات ، ومرتدية أجمل الملابس ، ومتطيبة بأزكى العطور (وزوجها يظن دون شك أنها فعلت هذا من أجله وكان يحس من أجل ذلك بالسعادة) ـ قد سمحت لى بالدخول فى خوف ، راجية منى أن اقول انني وجدت الباب مفتوحا ودخلت ، وسيكون اعتذارها بأنها نسيت أن تحكم اغلاق الباب أيسر من ذكرها انها سمحت لى بالدخول • ثم قالت

دون ان يكون منها ما يشير الى عتاب : ثلاثة أيام وثلاث ليال لا يخرجون • لقد بدا كل شيء في نظرها سارا •

وجدته في الحجرة الواسعة المعدة للجلوس يلعب مع زملائه بالكعاب •

كانت الغرفة في غير نظام ، وكان يملؤها دخان لفائف التبغ ، يسرى متماوجا كالضباب في تلك العتمة التي سادت المكان ، بسبب هذه الستائر السميكة المسدلة على النوافذ ، وكانت الشموع ماتزال تلتهب وان كنا اذ ذاك في وقت الضحى ، ووجوه القوم يبدو عليها الشحوب والضنى • واما حولهم فكانت تنتشر الاطباق والكئوس • كما تستقر أكوام عديدة من النقود •

كان وجه حسن يبدو جامدا صلبا ، كما كان ينم عما يعانيه صاحبه من التشتت ، ويكاد يوحي بالشر •

نظر الى في دهشة ، ولم يكن في نظرته شيء من الانعطاف • كم ندمت لأنني حضرت •

ـ لقد أردت ان أتحدث معك •

ـ انني الآن مشغول •

كان يمسك كعبا قد صنع من سن الفيل ، فالقى به على الكليم ، مفرقا في اللعب • وسمعته يقول :

اجلس ، اذا أردت •

ـ ليس لدى وقت •

ـ فيم أردت ان تتحدث ؟ •

ـ ليس الامر هكذا مهما • وسوف نتحدث في مرة اخرى •

خرجت مهانا ، وفي الوقت نفسه متعجبا • من هذا الرجل ؟ ثرثار فارغ ؟ شمس ابريل ؟ ضعيف تنتصر عليه العيوب ؟ •

تملكني الغضب ، وانتابني الضيق مما كان يشغل فكرى من انه لا يوجد رجال طيبون على الدوام • انه ينثر الكلمات الجميلة على الدوام وينساها على الفور •

وعندما وصلت الى نهاية الممر الطويل خرج حسن من الغرفة •

رأيته للمرة الاولى مهملا ثيابه ومظهره • وبدا كما لو لم يكن هو • لقد زال من عينيه صفاؤهما ووضوحهما ، وبدتا كدرتين غائرتين ، فقد أتعبهما كثرة الشراب وطول السهر • وكان يرى في الضوء على صورة قبيحة من الارتجاف •

كان أحدنا ينظر الى الآخر دون ان تبدو عليه بسمة •

ونطق قائلا في عبوس :

ـ لا تؤاخذني • لقد جئت في وقت غير لائق •

ـ أرى ذلك •

ـ ليس هناك من بأس في أن تعرف كل شيء عني •

ـ لقد غبت أياما عديدة • وقد أردت أن أعرف السبب في ذلك •

ـ كانت لدى أعمال • غير هذه •

ـ وقد حضرت من أجل يوسف كذلك • هل حدث بينكما شيء ؟ لقد كان يريد مقابلتك ولكنك لم تسمح له بالدخول •

ـ لست على الدوام مستعدا للحديث •

ـ لقد تعود عليك • كما انه احبك •

ـ اما أنه أحب فهذا شيء كثير للغاية • واما أنه تعود فهذا لا يعني شيئا • وليست على تبعة شيء منهما •

ـ لقد مددت يدك اليه ، وأخرجته من العزلة ، ثم تركته • لماذا ؟ •

ـ لا استطيع ان أربط نفسي بأحد مدى الحياة • وهذه هي مصيبتي أنا الآخر • انني أحاول ولا أفلح • ما وجه الغرابة في هذا ؟ •

ـ لقد أردت ان أعرف سبب ذلك •

ـ ان السبب في نفسي •

ـ لا شيء اذن ، أرجو المعذرة •

ـ لقد ذكرت انك كنت تحبه • هل أنت واثق من ذلك ؟

ـ لا أدري •

ـ اذن لم تكن تحبه • لماذا جئت به الى هنا اذا كنت لا تريد ان تمد اليه يد الود والصداقة ؟

ـ لقد فعلت ذلك ٠

ـ انك قمت بواجبك فحسب ، منتظرا أن يقدم اليك شكره ٠ ولكنه كان يأخذ في التباعد بمرور الوقت ، ويقبع داخل نطاق الكره ٠

ـ الكره ؟ نحو من ؟

ـ نحو الجميع ٠ وربما نحوك كذلك ٠

سألته وقد أفزعني هذا الامكان ، وان كان قد دار بخلدي من قبل :

ـ ما الذي يدعوه الى كرهي ؟

ـ كان يجب عليك أن تخلق منه صديقا ، أو تقوم بطرده ٠ اما هكذا فقـد تورطتما تورط حيتين بلعت احداهمـا ذيل الاخرى وأصـبحتا لا تستطيعان الانفصال ٠

ـ كم تمنيت ان تقوم أنت بتحقيق ذلك الذي لم أحققه ٠

ـ وانا بدوري تمنيت أن يقوم به أحد غيري ٠ وهكذا الحـال مع الجميع ٠ ومن أجل ذلك نحن لا نفعل شيئا ٠ أيكفي هذا الآن ؟ انهم هناك ينتظرونني ٠

كانت تنتشر منه رائحة الشراب والدخان ، وكان يبدو عنيدا ولاذعا، ضيق الصدر مستعدا للتشاجر ٠

ـ اذكر لك يوسف كل هذا ؟

استدار وذهب دون أن ينطق بكلمة ٠

وكان من الخير أن رأيته على تلك الحال ٠

ان حسنا رجل متناقض مع نفسه ٠ انه لا يعرف ما يريد ، أو لعله يعرفه ولكنه لا يستطيع تحقيقه ، وهو رجل حسن النية ، غير أنه لايحتمل السير حتى النهاية ، انه يحاول ولكنه لا يفلح ، وربما تكون مصيبته حقا في بداياته اليائسة على الدوام ، في بنائه للجسور التي لا يعبر فوقها ٠ هذه هي لعنة الرغبات التي لا تخمد ، والتي لا تتحقق كذلك ٠ انه يبحث على الدوام في حماس ، ثم تراه يتراجع سريعا ، فارغا وعقيما ، كما لو كانت الفكرة تجره والانسان يرفضه ٠ هذا هو الضرر الذي يثير العجب والعذاب الذي يبرح بالانسان ، وليس ذلك عن أجـل تراجعه ، بل من أجل عودة لمحاولة البدء من جديد ٠ واذن يكون كل ما يلحقه يرجع اليه سببه لا الى الآخرين ٠

ومع ذلك كنت أبحث عن سبب خارج عنه ٠

٠ انه مذنب لطرده يوسف ٠ وعلى الرغم من ذلك سألت نفسي هذا السؤال البعيد عن المنطق قائلا : لماذا ؟ دون أن ارى أنني هكذا القي المسئولية على شخص آخر ٠

لقد بحثت عن السبب لهذا الخمود السريع لحماس حسن ٠ ماذا فعل يوسف ؟ أردت أن يجيبني حسن ، ولكنه اتهم نفسه فقط ٠ سجلت هذا الاتهام الموجه الى نفسه لحسابه ، ولكنى عدت أسأل نفسي : ماذا فعل يوسف ؟

سألت نفسي ، كما سألت حسن ، من أجل نفسي ، فقد كان السر يعذبني كالظلام ، وكنت اربطه مسحورا ، كما كنت اربط كل شيء ، بمصيبتي التي احاطت بي واصبحت طعامي وهوائي ، عصارتي وجوهر حياتي ٠ كان يجب على أن أكشف السر ؛ فكل شيء كان متوقفا على ذلك، وكنت أجهد نفسي في سعير من الحمى لأختبر للمرة الثانية كل رجل ، وكل حدث ، وكل كلمة تتعلق بي وبأخي الميت ٠ أيمكن ان يبقى سرا على التمام ذلك الذى يحدث بين الناس ؟

ان هذه القطيعة بين حسن وملا يوسف أجبرتني على أن أعود الى الوراء ٠

كل شيء كان يرد على ذاكرتي مرات عديدة ، وكل شيء كان لدى معروفا ، ولكنى للمرة الثانية كنت أعمل على اثارة ذلك الذى هدأ وسكن، حتى أخذت تتولد في هذه اللعبة العسيرة علاقات مفاجئة وتوقع غير بين للحل ٠ وكان يخيل الى في لحظات التبصر أنه لا يوجد أى هدف من القيام باجراء هذا التشابك المضني ، وأنه لا يمكن أن يفيدني بشيء هذا السير وراء المضمون الخفى لحركة عديمة الأهمية للغاية ، أو لكلمة ما بدرت من شخص ، ولكنى لم أستطع أن اتراجع ، بل أطلقت نفسي تسير مع القدر٠ وعندما ألم بكل شيء سوف أرى عندئذ ماذا كشفت ٠ كان هذا أشبه شيء بالمقامرة ٠ كلاهما محاولة يائسة ولكنها تستهوى الانسان وتجذبه ٠ لم أكن أنتظر فوزا محققا ، ولكن السعي لاكتشاف المجهول له سحره وروعته ٠ ان هذه الذرات الذهبية التى كنت أصادفها أثناء اختيارى كانت تحثني - مجبرة اياى - على أن أواصل السعي حتى أصل الى الجذور ٠

وربما كان هذا دفاعا عن الخوف الذى كان في امكانه ان يهاجمني٠ انه لم يكن بعيدا ، كان يتلألأ حولى ويحاصرني كدائرة من النار ، وكنت

احمى نفسى بخداعى اياها بأننى اقوم بشىء ، بأننى أدافـع عنها بشىء ، وبأننى لست فى نهاية الضعف · ولم يكن من السهل أن أحيى فى نفسى هؤلاء الناس الذين كنت التقى بهم من قبل ، وأن أجبرهم على أن يقولوا مرة ثانية كلماتهم المعروفة · ولكنى فى هذه التحركات المذهلة التى قمت بها ، فى هذا الأزيز ، فى هـذا الهمس ، فى هذه الفـــوضى ، فى هذا الاتصـال الجنونى أحيانا ـ نجحت فى أن أربط نفسى بفـكرة واحدة كما يربط البحار نفسـه فى مؤخرة سفينته لكى لا تدفع به الأمواج عندما تهب العاصفة ·

وعندما أحل العقد ، عندما أقوم وحدى بالاختيار ، سوف أدرك هل القى بى مصادفة فى احضـان مياه كدرة أو انهناك اسبابا وهناك مذنبين·

فى هذا العالم المنعزل ، المحدد بصوت هطول الامطار وهديل الحمام، وبكدرة النهار كثر غيمه ، وظلمة الليل قد اشتد ســواده ، كان الشهود ينزلون بغرفتى ، غير متعودين عليها فى البداية ، مذعورين مثلى ، ولكنى كنت انجح شيئا فشيئا فى حضهم على النظام ، فاصلا أحدهم عن الآخر كما يحدث فى عملية الاستجواب · وكنت أقسمهم قسمين : قسما يضم المهمين وقسما يضم غيرهم · وكان غير المهمين هم المذنبون فى نظرى ، اذ أن امرهم قد اتضح · وأما المهمون فكانوا أولئك الذين لم يفضوا بكل شىء ·

وعندما راجعت كل ما كان فى الامكان مراجعته ، فى أثنـــاء تلك المحادثات التى كنت جانبا فيها وكانت أشباح الشـــهود وكلماتهم تمثل جانبا آخر ـ رأيت من الواجب على أن أضع تحت منظار الفحص والاختبار هذه الشكوك والظنون · لم استطع أن أفعل ذلك مع الاشباح والكلمات، تلك التى تظل كما هى على الدوام · بل ذهبت الى لقاء حل لهذا السر ، ذهبت للبحث والتحرى بين الناس الاحياء ·

انتظرت كى يمر بعض الوقت ، ويسدل النســيان على كل شىء · ولحسن الحظ أن الناس ينسون بسهولة ذلك الذى لا يخصهم · حاولت أن أقنع كل انسان بأننى قد نسيت كذلك أو أننى قد تعزيت ، أن اظهر أننى خفت وعكفت على الصــلاة · فليتحدث كل بما يشاء وليقل البعض ما يريد ·

دعوت ملا يوسف · وكنت أجبره فى استجوابات ليلية منفردة على ان يذكر جميع أقواله وأفعاله · وكنت أحس بانفعال وتوتر اذ كان الحديث

بيننا مهما . اعترفت بانني اخطات امام الله وامام الناس ، متصرفا بصورة غير معقولة فيما أصابني من مصيبة ، ومتبعا طريقة لا تليق بحال مع وظيفتي التى اقوم بها . لقد غطى الحزن والحب على بصرى ، وكان هذا هو اعتذارى الوحيد . لقد نسيت أن الله سبحانه قد أراد هذا ، وانه عاقب اخي ، أو عاقبني ، أو عاقبنا معا ، من أجل ذنوب لا نعرفها . عاقبنا بيد الآخرين ، ولكن بارادته .

كان يستمع بامعان ، ودون ذلك الحذر الذى كان يتسلح به عادة . هل كان ذلك من أجل حديثى المطمئن وصوتى الهادىء ، أو كان ذلك لتوجعه من ذكراه مصيبته هو ، وكان ينظر الى في حرية ودون تحاش . وعلى الرغم من ذلك كان شديد الانفعال تكاد تعصف به ثورة الغضب .

وسالنى فى حدة :

ـ اية ذنوب ؟

ـ سوف نعرفها في يوم الحساب .

ـ انه يوم بعيد . وماذا نفعل حتى يحل ذلك اليوم ؟

ـ ننتظر .

ـ وهل تعد مذنبة تلك اليد الاخرى التي يعاقبنا الله بها ؟

فوجئت ، اذ لم يكن يتحدث من قبل بهذه الحدة . ولم يكن يسال بهذا الغضب . لقد قطع اعترافى بآثامي وأخذ يتحدث عن نفسه . انه يفكر فى الجنود الذين قتلوا أمه ، من أجل ذنوبها العجيبة ، وقتلوه هو دون ما ذنب أو جريرة . انه اندفع من تلقاء نفسه يتحدث فيما كنت أرغب ان يكون فيه حديثه .

قلت في هدوء :

ـ لا ادرى يا بنى . اننى أعلم علم اليقين أن كل شخص سوف يكون مسئولا أمام الله عن كل ما يفعل . وأعلم كذلك أن الناس جميعا ليسوا مذنبين ، وانما المذنبون هم الذين ارتكبوا الذنب حقا .

ـ اننى لا أسال من اجل هؤلاء الذين ارتكبوا ذنبا ، وانما من أجل أولئك الذين حملوا الذنب .

ـ انك تسال من أجل نفسك . لقد حملت الذنب . ولذا لا أعلم الاجابة . اننى اذا قلت انهم ليسوا مذنبين فسأغضبك وسيكون قولى مجانبا للعدل . واذا قلت انهم مذنبون فسأساندك فى الكره .

ـ اى كره ؟ من الذى اكرهه ؟

ـ لا أدرى • ربما تكرهنى انا ايضا •

كان يجلس الى جوار النافذة ، وينظر الى أصابعه المتشابكة ، وكان وراءه نهار رمادى ، وسماء ملبدة بالغيوم تشبهه • وعندما سمع كلمات حسن ، تلك التى تضمنتها جملتى الاخيرة ، استدار فجاة ونظر الى مذعورا ، مفاجئا ، حادا ، وتبين اذ ذاك صدق كرهه • ثم حرف نظره عنى وقال وهو يكاد يهمس :

ـ اننى لا أكرهك •

قلت متعجلا تهدئته ، خائفا أن يهم بالانصراف ، كما كان يفعل من قبل :

ـ الحمد لله • الحمد لله • اننى أرغب فى استرجاع ثقتك اذا كانت قد تلاشت • واذا لم تكن فذاك خير • اننى اقدر الصداقات الجديدة • انها حب نحتاج اليه على الدوام ، ولكن الصداقات القديمة شىء أكثر من الحب ، اذ أنها جزء منا • فانت وأنا قد التحمنا مثل شجرتين ، وستفسد كلتاهما اذا تم الانفصال ، فجذورنا قد تضافرت ، واغصاننا قد تعانقت • والى جانب ذلك كان باستطاعتنا أن نصل الى كثير من كوننا ننمو فى قطعة واحدة من أرض الذكرى ، عائشا كل منا حياته الخاصة ، كان باستطاعتنا ان نكون شيئا واحدا • اننى اشعر بالأسف الآن ازاء كل شىء جعلناه يفلت منا • لماذا كنا نسكت ؟ ونحن نعلم أن كلا منا يفكر فيما حدث ، فهذا شىء لا يمكن نسيانه • اننى أؤاخذ نفسى أكثر مما أؤاخذك ، فانا أكبر سنا واكثر تجربة • ان ما يدافع عنى فقط هو ذلك الذى أعرفه من أن حبى نحوك كان دائما على مستوى واحد • لقد كان انعزالك يردنى عنك ، فقد كنت تحتفظ فى غيرة بمصيبتك لنفسك ، كما تحتفظ انثى القردة بولدها الميت ضامة اياه الى صدرها • يجب على الانسان أن يدفن الموتى ـ رحمة بنفسه • غير أننى كنت الوحيد الذى أستطيع ان اساعدك فى ذلك • لماذا لم تسالنى قط عن امك ؟ اننى الوحيد الذى اعرف كل شىء عنها • لا تتقلص ولا تغلق عليك نفسك ، فاننى لن أقول شيئا يمكن أن يوجعك ، لقد كنت احبها كما احبك •

ـ كنت تحبها ؟

كان صوته كدرا ، أجش ، خطيرا •

ـ لا تخف • لقد كنت أحبها كاخت لى •

ـ لماذا كانت . لقد كانت بغيا .

أفزعتني تلك الملامح التي ارتسمت على وجهه ، والتي لم أكن قد رأيته بها من قبل . كانت توحي بالجدة وتعلن عن القسوة والاستعداد لارتكاب أية حماقة ، نعم افزعتني على الرغم من علمي أنه خشن غليظ وانه يتعذب من أجل الحزن الذي أيقظه وأثاره هذا الحديث الاول عن امه . وفاجأتني كذلك تلك الوحشية التي كان ينقب بها عن جروحه . أيتعذب هو بهذا القدر ؟

قلت مهدئا اياه :

ـ انك فظ بسبب ما تعاني من الشدة . فامك كانت امرأة طيبة ، كانت ضحية ولم تكن مذنبة .

ـ لماذا قتلوها اذن ؟

ـ قتلوها لأنهم حمقى .

لزم الصمت ، ملقيا ببصره الى أرض الغرفة ، وقد استطعت أن أتخيل كم كان الامر صعبا بالنسبة له ، وان كنت لم أستطع ـ وقد قف شعري ـ سوى أن أحس بفظاعة عذابه . واذ ذاك سألني ناظرا الى في عداوة وفي أمل أخير بعدم مقدرتي على الدفاع عن نفسي :

ـ وماذا فعلت أنت ؟

ـ كنت أطلب العفو عنها ، ولكن كان هذا دون جدوى . وذهبت بك الى قرية أخرى حتى لا ترى . وأخذت أبكي بعد ذلك منفردا بنفسي ، مشمئزا من الناس ، ورائيا لهم ، لأنهم كانوا يحولون دون أن تلتقي عينا احدهم بالآخر يوما كاملا من أجل الخجل .

ـ يوم واحد ليس كثيرا . من ... كيف قتلوها ؟

ـ لا ادري . لم أكن اجرؤ على النظر . ولم أرد أن أسأل .

ـ بم كانوا يتحدثون عنها فيما بعد ؟

ـ لم يكونوا يتحدثون عنها بشيء . فالناس ينسون بسهولة ذلك الذي لا يفخرون به .

ـ وأنت ؟

ـ لقد غادرت هذا المكان بعد أيام . فقد كنت خجلا من أجلهم ، كما كنت حزينا من أجلك واجلها لمدة طويلة ، وبخاصة من اجلك ، فقد كنا صديقين ، ولم يكن لي صديق أعز منك .

اغمض عينيه ، واخذ يتمايل كما لو كان دوار ألم به . ثم قال فى هدوء دون أن يوجه بصره الى :

ـ أأستطيع ان انصرف ؟

ـ هل انت مريض ؟

ـ لست مريضا .

وضعت يدى على جبهته ، وبجهد قمت بهذه الحركة العادية ، وكدت أن أتراجع ، شاعرا بالتهـــاب يدى قبل أن تمس جبهته ، وعندما لمست جلده الساخن تحمل بصعوبة أن يبقى على هذا الوضع والا يبعد راسه عن يدى ، وكان على صورة غريبة من التقلص ، كما لو كان ينتظر السكين .

قلت :

ـ اذهب . لقد أصابك وأصابنى العذاب من هذا الحديث . يجب علينا أن نتعود .

امرت مصطفى أن يشترى له عسلا ، وكنت أطلب اليه أن يخرج للنزهة وأحثه أن يقوم مرة ثانية بنسخ القرآن كما كنت أعرض عليه أن نكلف أحدا ليشترى مدادا أحمر اللون وآخر ذهبيه ، ولكنه كان يرفض، مصبحا بمرور الأيام أكثر غرابة وأشد انطواء على نفسه مما كان قبل ، كما لو كان اهتمامى به قد أصبح بالنسبة اليه عذابا حقا .

ـ سوف تفسده بالتدليل .

هكذا قال الحافظ محمد متظاهرا بإبداء عتابه ، ولكن لم يكن من العسير على المرء أن يكتشف رضاه عن ذلك . فقـــد كانت تأسره طيبة الآخرين وان لم يرد على الاطلاق أن يربط نفسه بأحد . لقد كانت هذه الاعمال بالنسبة له اشـــبه شىء بطلوع الشمس ، كلاهما شىء يتمتع برؤيته .

وقلت مدافعا عن نفسى :

ـ لقد ضعف . ولا شك أن شيئا يعتريه .

ـ حقا انه ضعف . ألا يكون قد وقع فى حب ؟

ـ وقع فى حب ؟؟

ـ لم تدهش ؟ انه شاب . وكان من الأفضل أن يتزوج ويقيم خارج التكية .

ـ بمن يتزوج ؟ بتلك التى وقع فى حبها ؟

ـ لا ، لن يكون ! أيندر وجود الفتيات فى القصبة ؟

ـ اراك تعرف شيئا ٠ لماذا تتركنى للتخمين ؟

ـ لا ، لا أعرف كثيرا ٠

ـ قل لى ذلك الذى تعرفه ٠

ـ ربما لا يكون من الشرف ان أقول ٠ ولعلى انا الوحيد الذى يظن هذا ٠

لم أكن الح عليه من أجل القول ، فقد كنت أعرف انه فى ضلال ، كما كنت أعرف أنه سوف يذكر كل شىء ٠ لقد بدا ما أظهره من التردد مثيرا للضحك ؛ فقد أخذ يواصل الحديث لكى يكشف كل شىء ٠ والله يعلم ماذا رأى وماذا تخيل بسذاجته ٠ ولم أكن أتوقع ان أظفر من حديثه بكثير من الأخبار ٠

ولكن عندما انهى حديثه بدا لى الأمر غريبا ٠ فقد قال انه ذهب الى والد حسن ، وفى طريقه رأى ملا يوسف أمام بيت القاضى ٠ كان يقف فى تردد ، وكان ينظر الى نوافذ البيت ، ثم اتجـه مندفعا الى البـاب وتوقف ، وفى احتراس وبعد أن أدار بصره يمنة ويسرة أخذ يبتعد عن البيت ٠ لا شك انه كان يريد شيئا وكان ينتظر شيئا أو كان يبحث عن أحد ٠ وعندما التقيا (الحافظ محمد وملا يوسف) لم يسأله الحـافظ محمد شيئا ، ولكن الشاب ذكر له أن مروره هنا جاء مصادفة فى أثناء تنزهه ٠ وما قد أثار ما قاله فى نفس الحافظ محمد الشـك كما أورثه الهم ، لأن مروره هنا لا يمكن أن يكون بطريق الصدفة ولا فى أثناء التنزه٠ وكم كان يود لو لم يكن ذلك الذى ظنه ٠ ولذا كان يكتم الأمر حتى الآن٠

سألته مذعورا ، وقد جاء بى صدفة أمام الحل الذى يكشف السر:

ـ ماذا كنت تظن ؟

ـ اننى أخجل حتى من ذكره ٠ ولكنه كان يتصرف تصرفا غريبا ٠ والى جانب ذلك كذب على لكى يبرىء نفسه ، ومعنى هـذا انه كان يحس بالذنب ٠ لقد ظننت انه وقع فى الحب ٠

ـ وقع فى حب من ؟ أخت حسن ؟

ـ وهأنت قد ظننت أيضا ٠ واذا لم يكن هذا حقا فليؤاخذنى الله من اجل ظنى الآثم ٠

قلت فى عبوس :

ــ ربما كان ذلك . فكل شيء يحدث مع الناس .

ــ يجب التحدث معه . غير أن المرء سوف يجهد نفسه سدى .

ــ اتظن ذلك ؟

نظر الى فى دهشة ، دون أن يفهم السؤال ، ودون أن يفهم أنه ينبىء عن الحقد . وقال انه يرثى لحال هذا الشاب ، فسوف ينال منه هذا الحب كما ينال الصدأ من الحديد ، دون أن يحقق ولو ذرة من النجاح ، وستكون الفضيحة بالنسبة له وبالنسبة لنا كذلك ، يشهدها الناس ، وتشهدها هي ، تلك المرأة الشريفة المتزوجة . وأما هو ــ أى الحافظ محمد ــ فسوف يدعو الله كي يهدى الشاب ، كما سيدعوه أيضا لكى يغفر له هو اذا كان قد رأى خطأ وظنه السوء .

لقد كان مكتئبا عندما فرغ من حديثه ، كما سيطر عليه النوم . ولكنه لو كان قد سكت عنه وظل كاتما اياه لعذبه ذلك السكون وأرقه هذا الكتمان .

حبذا لو كان حقا ذلك الذى كان يتحدث به هذا الرجل الذى يخاف من الذنب حتى فى الأماكن التى لا وجود للذنب فيها ومن يدرى ، أليس من الممكن وجوده فيها ؟ لماذا يكون مستحيلا ؟

لقد أثارتنى هذه الفكرة السيئة عن أمر حبه ، وبسطتها أمامى ، وأخذت أقلبها لأنظر اليها من جميع نواحيها ، مكتشفا امكانياتها العظيمة التى تكمن فيها . كنت أحفظ فى ذاكرتى لهذه الشابة يديها الجميلتين اللتين كانت احداهما تلاطف الاخرى دون وعى وتضغط عليها فى شهوة ، وكنت أحفظ لها كذلك قوتها المختزنة التى تشع من عينيها الباردتين قد اشبهتا مياها بعيدة الغور ، كما كنت أحفظ جرأتها الهادئة التى كانت تثار بها لشيء ما . وأخيرا كنت أحفظ هذا كذلك ، أن كل شيء كان قد حدث ، أن هارون قد قتل ، أنه كان مقتولا عندما طلبت الى أن أخون أخاها حسن . ودون شك أنها لم تكن على علم بأمر أخى ، ولعلها لم تكن قد سمعت حتى باسمه ، ولكننى كنت أنسى ذلك ، وبقيت فى ذاكرتى صارمة عنيفة ، كما كان زوجها القاضى كذلك ، لقد كانا فى نظرى عقربين متعطشين الى الدماء ، ولم يستطع قلبى أن يتمنى لهما أى خير . ولذا كان الكره يهتف صائحا فى داخلى : حبذا ، حبذا ! لقد رأيت هذه الشابة فى لحظة قد استولى على الضعف فيها أسيرة لسلطان الشباب يطفر من جسم

يوسف ، كما رايت قاضيها العجوز وقد أخزاه هذا الذنب الذى يرتكب والذى يراه الناس أمرا طبيعيا منذ القدم لمثل هذه الحالات من الزواج ٠

ولكنى سرعان ما أبعدت هذه الفـــكرة عني ، فقد كنت أعرف أنها فكرة قبيحة ، وأنها اهانتني بما كان يستولى على من الرغبة للثأر الوضيع، وانها كشفت لى أمرا هاما : كشفت لى أن ما ظهر لى من الرغبة ليس سوى مظهر يمثل ضعفى وخوفى امامهما ، والخوف والضعف يولدان الشهوات الوضيعة ٠ لقد أفسحت فى مخيلتى مجالا لمعركة يقودها الآخر فى مكانى، وكنت استمتع للحظة ، قابعا فى أحد الأركان ، بهزيمتهما ٠ واية هزيمة تكون هذه ، واية تسوية تكون ازاء ذلك الذى فقدته ؟

لقد خجلت وفزعت ٠ وانطلقت اقول لا ، ثم عزمت عزما أكيدا على الا أوافق على افساح المجال لغيرى ٠ فأى شيء عزمت عليه يجب على القيام به ٠ وسواء فى ذلك أكان العفو أم الوصول الى تسوية ٠ هذا هو ما أراه شريفا ٠

ومرة ثانية دعوت ملا يوسف ٠ وكان ذلك بعد حديثى مع الحافظ محمد ٠ استقبلته مقلبا هدية حسن « حكايات ابى الفرج » ذات الجلد الفاخر ، وناظرا الى الطيــور الاربعة الذهبية التى ارتســـمت فى أركان الكتاب ٠

ـ أرأيت هذا ؟ انه هدية حسن ٠

ـ ما أجملها !

أخذ يلمس بأصابعه الجلد الفاخر وأجنحة الطيور الذهبية المنتشرة، ثم أخذ ينـــظر الى الحروف العجيبة التى تعلن أوائل الأسماء ، كذا الى الحروف الرائعة التى كتب بها الكتاب ، ثم اعتراه التغير فجاة ، كان هذا الجمال الذى يثيره يبعث الهدوء فى نفسه ويخمد ذلك الاضطراب الذى كان يلازمه حين دخل الغرفة ٠

كنت اعرف أن باستطاعتى أن أحرز تفوقا عظيما عليه لو أننى تركته ينتظر ويعانى من الخوف متصورا حديثنا المقبل وينقب محموما فى خزانة ذنوبه ، فلكل انسان ذنوب ؛ ولكننى تنازلت عن هذا التفوق الذى كان فى الامكان أن يقدمه الى خوفه ٠ فقد كنت أفضل أن أحرز ثقته على أن أحرز هذا القدر من التفوق ٠

قلت له اننى أعيد الحـديث الذى كان بيننا قصدا ، لأن اضطرابه كان ما زال مستمرا ، وهذا هو أشد الحـالات وأعنفها ، وذلك شيء قد

مررت به وخبرته ، وبخاصة عندما يصيبنا التردد ، وعندما نحس اننا نقف في العــذاب مكتوفي الأيدي غير مستطيعين في بعض الاحايين أن نحـــدده ، وعندما تزعزعنا كل هبة من هبات الرياح مقتلعة ايانا من الجذور • انني أرغب أن أساعده ، قدر استطاعتي ، وقدر ما يريد هو أن يقبل المساعدة • وافعل ذلك من اجله ومن اجلي كذلك ، فربما كنت في نظره مذنبا ، وقد فاتتني الفرصة لأجعله أكثر ارتبـــاطا بي ولأرد له بهذا شعور الثقة والأمان • لقد فقدت أخي ، فلياخذ هو مكانه • انني لا أطلب ان يذكر لي كل ما يحدث معه ، فلكل انسان حقه في أن يحتفظ بفكرته ، أيا كانت ؛ كما انه ليس من الســـهل دائـما على الانسان أن يكشف عن نفسه ، فاننا غالبا ما ندور كما تدور طواحين الهـواء ، ولا نستطيع أن نحدد موقفنا ، مذهولين بما انتابنا من عدم الأمن والطمأنينة• اننا نتأرجح بين اليأس والرغبة في الطمأنينة ، ولا ندرى ماهولنا • ان الوقوف عند نقطة واحدة والاتجاه الى جانب واحد هو مايجب على الانسان فعله وهو ما يصعب عليه في الوقت نفسه تحقيقه • فمهما يكن قرارنا في غير ذلك الذي يثير ضميرنا ، فسوف يكون افضل لنا من ضياعنا الذي يسديه الينا التردد • ولكن لا ينبغي التعجل باتخاذ القرار ، بل ينبغي العمل من أجل مساعدته ورعايته ومســاندته حتى يحين وقت ميلاده • ويمكن للأصدقاء أن يقللوا من العذاب في عملية وصولنا الى القرار ، ولكن ليس بامكانهم أن يقـــوموا بتنحيته عنا • وعلى الرغم من ذلك فوجودهم ضروري كما هو الشأن في وجود القابلة في أثناء عملية الولادة • وهذا ما أعرفه من خلال تجاربي الشـــخصية • فعندما كنت في حالة أشد ، وعندما ظننت أن المخرج الوحيد هو أن أخمد بيدي أنفاسي ، بعث الله الى « حسن » ليشجعني وينهض بي • ان اهتمامه وطيبته ، وربما جرؤت أن أقول : وحبه ، قد أعادت لي الثقة في نفسي وفي الحياة • ولعله كان من الممكن أن تبدو علائم اهتـــمامه للبعض على قدر ضئيل من القيمة ، ولكنها كانت حقا ـ بالنسبة لي ـ على جانب كبير منها لا يمكن تقديره • لقد توقف ما لحقني من دوار جنوني ، وهدأ ما تملكني من فزع، وأحسست وسط ذلك الثلج الذي يحيطني بريح تنبعث من طيبة الانسان ـ فليعف هو عني ، فليعف ملا يوسف ، بسبب ما أحسه الآن من شدة الانفعال من أجل هـــذه الذكرى الحبيبة ، ولكني أؤكد ان أحدا لم يمد الى يد الود والمساندة في حياتي أعظم من تلك اليد التي مدها الى حسن • لقد كنت وحيدا ، مهجورا من جميع الناس ، متروكا في هدوء مصيبتي الفارغ ، لكي ينفذ في حكم الظلم الى النهاية ، وكنت على وشك أن أشك في جميع

ما كنت أومن به ، اذ كان كل شيء ينهدم على ويطمرني • ولكن كان يكفي أن أعلم أنه يوجد في هذا العـــالم رجل صالح ـ فليكن هو ذلك الرجل الصالح الوحيد ـ لكي يجعلني في سلام مع الآخرين • وربما يكون غريبا أنني أقدر تصرفاته أو معاملاته التي ينبغي ان تكون عادية فيما بيننا هذا التقدير الكبير وامنحه من أجلها هذا الشكر العظيم ، ولكني رأيت أن تصرفاته لا تعد عادية على الاطلاق ، وانها بالذات ميزت هذا الرجل عن الآخرين • هذا الى جانب انني كنت مذنبا نحوه • ولذا أصبحت مساعدته تبلغ الذروة في نفسي •

رفع ملا يوسف رأسه •

نعم كنت مذنبا • لقد ارتكبت في حقه أمرا قبيحا ، قبيحا للغاية • بغض النظر عن كنهه وعن الدافع له ، على أنني أستطيع لو بحثت أن أجد السبب الذي دعاني اليه ، وربما أجد المبرر كذلك • ولكن هذا ليس مهما• انني كنت في حاجة الى صداقته كحاجتي الى الماء والهواء ، ولكني كنت مستعدا أن افقده لانني لم أستطع ان أخفي كذبي أمامه •• لقد رغبت أن يعفو عني ، ولكنه فعل أكثر من ذلك : منحني حبه الأكبر بعد ذلك •

سأل ملا يوسف في جهد :

ـ هل ألحقت به شرا ؟

ـ لقد خنته •

ـ ولو حدث أن احتقرك ؟ أن اهملك ؟ أن أذاع أمر خيانتك ؟

ـ لظللت أكن له الاحترام • فقد لقنني للمرة الثـــانية أن الكرامة الحقيقية لا مساومة فيها • لقد قدم لي المساعدة مضاعفة ، وبهذه المضاعفة رفع من قدره • وقد قلت لحسن ان أمثاله يعدون خيرا حقيقيا ، انهم هدية يبعث الله بها الينا ، وحقا انني أظن هكذا• انه يدرك بحاسة لديه مجهولة من من الناس في حاجة الى المساعدة ويقدمها اليه كما يقدم الدواء • انه ساحر لانه انسان • وهو حين يقدم المساعدة لأحد لا يتخلى عنه بحال ، فهو أشد أمانة وأكثر اخلاصا من الأخ • وأجمل من ذلك أن حبه لايجشمك شيئا في سبيل اكتسابه • ولو كان الأمر يتطلب ذلك لما ظفرت به ، أو لفقدته منذ زمن بعيد • انه يرعاه بنفسه ، انه يهبه دون أن ينشد سببا آخر سوى هذه الحاجة التي يشعر بها وحده ، ولا يطلب له عوضا سوى رضائه وســـعادة الآخرين • لقـد تعلمت من درسه الذي لقنني اياه أن الانسان يربح عندما يعطي ، ثم انني لم أعد بعد هشا ، فقد صقلني حبه،

وامدنى بقوة كى أكون أنا الآخر سـندا لغيرى • ان حبه علمنى الحب ، وسامتحه ملا يوسف اذا كان فى الامكان أن يساعده •

كنت أبتسم فى هدوء وحرارة ، ممسـكا ـ ربمـا فى جهد ـ بكل ما أردت ان اقوله وما بدا لى مهما ، ومحيرا بعض الشىء بسبب ما كان يشغل تفكيرى من أن «حسن» ليس على استعداد لأن يطيل فى تبيين أمر صداقته الى هذه الدرجة • ولكن ، لكل طريقته الخاصة ، ومهمتى كانت اشق وأعسر •

لقد كان ملا يوسف اشد تواضعا واقل تحدثا مما كان وقت حديثنا السابق • ولكنه لم يكن أقل اضطرابا • كان يجلس امامى جلسة المتشهد وقد تقلص جسده ، وانتابته الحمى ، واخذ يحاول محـاولات عدة كى يضعف من تقلصات أصابعه التى كان يقبض بها على لحم فخذه مواريا فيه اياها لشدة معـاناته وفرط توتره ؛ كما كان يغمض ويفتح فى ضعف عينيه الحارتين ، رافعا اياهما نحوى فى عذاب • لم يستطع أن يخفى كم كانت كلماتى الهادئة تجتاحه اجتياح العاصفة • وفى اللحظة التى خيل الى فيها انه سيبدأ نشيجه أردت أن أطلق سراحه ، لكى لا أعذبه وأعذب نفسى • ولكنى أجبرت نفسى على أن انهى ما بدأته • لقد كان القدر ينفذ فينا ارادته •

قلت له ان صداقة حسن وهديته التى ابتدأ بها كل ما بيننا قامتا بدفعى الى التفكير المنجى واتخاذ القرارات المنقذة • ان الشىء الوحيد الذى بقى لى من بيتى ومن أمى هو ذلك المنديل الذى طرزت أركانه بالطيـور الأربعة الذهبية ، والذى أحتفظ به فى صندوقى الخـاص • لقـد نسخ صورتها حسن على أركان جلد الكتاب ، واستمالنى بذلك كمـا يستمال الطفل ، كما يستمال المجنون • وعندئذ ادركت ذلك الذى كان من الأهمية بمكان • وكنت أسأله كذلك أحيانا أما زال يذكر الطـائر الذهبى الذى يرمز الى السعادة • ولقد أدركت الآن أنه يرمز الى الصداقة ، الى الحب تجاه الآخرين • فكل شىء عداه يمكن أن يخدع الانسان ، وأما هذا فلا ، لأنه يتعلق بأنفسنا •

لا أستطيع أن أقول له : كن صديقا لى • ولكنى أستطيع أن اقول: ساكون لك صديقا • ليس لى احد أقرب منه ، أقرب من يوسف • فليكن لى بمنزلة الابن ، ذلك الذى لم أظفر به ، فليـكن لى بمنزلة الأخ ، ذلك الذى فقدته • وانا كذلك ساكون له كل ما يرغب ان يكون له من قريب، وكل مالا يملك من ذوى الرحم • اننا الآن متساويان ، فقد ظلمنا الأشرار

من الناس • لماذا لا يكون أحدنا للآخر سندا وتعزية ؟ ربما سيكون الأمر بالنسبة لى أيسر ، لانى أحمل فى قلبى على الدوام ذلك الصبي الذى درج بتلك الارض السهلة ، حتى عندما كانت مصيبتى أهم شىء لي من سائر الأشياء • وآمل الا يكون الأمر بالنسبة له صعبا كذلك : سوف أكون صابرا ، وسانتظر لكى تحيا من جديد تلك الصداقة التى كان يشعر بها ـ كما أعلم جيدا ـ نحوى •

هل مالت نفسه للخضوع لى ؟ هل برحت به كلماتي التي وجهتها اليه ؟ هل أوقف صراخه على أطراف شفتيه الجافتين ؟

عبثا نحاول ، فلا نجاة لنا يا صديقي يا من حال القدر بينك وبين صداقتى •

ولذا أستطيع ان اقول له الآن (واصلت حديثي دون اشفاق) حتى ذلك الذى لو لم آكن اهتم به لما أردت قوله ، او لقلته له بطريقة اخرى ، بهدف آخر ، بقصد الحفاظ على منزلة طريقتنا • واما هكذا فليكن حديثنا هذا حديثا وديا يتعلق بي وبه فقط • لن يكون سهلا بالنسبة لى أن اقول له ، ولا بالنسبة له أن يسمع ، ولكن الأمر سيزداد سوءا اذا لزمنا الصمت •

نعم ، قالها وهو يتنفس بصعوبة بالغة ، وقد اعتراه الخوف ، وتملكه الاضطراب ، واستبدت به رغبة التطلع فى الكشف عما قصدته بكلماتى ، وصعقه ذلك الذى سمعته أذناه من حديثى ، دون أن يعلم ما اذا كان الأمر قد انتهى عند هذا الحد ، لأن توتره كان يدل على أنه ينتظر على الدوام شيئا ما ، شيئا مهما ، شيئا أهم من سائر الاشياء : السبب الرئيسى لهذا الحديث • لقد أعطيته اياه ، دون أن أكشف شيئا ، فقد تركته يكشف هو عن نفسه •

قلت :

اننى لا أتحرى أين يذهب وماذا يعمل ، لقد عرفت ذلك بطريق الصدفة ، واننى آسف لما كان من امر معرفتي لو كان حقا ذلك الذى كنت أخشاه • (كان يخيل الى ان عينيه سوف تندفعان من مكانهما ، كان ينظر الى كما لو كان ينظر الى الأفعى ، وقد بدا مسحورا ، كان يتعجل كلماتى ، على الرغم من أنه كان يخشاها) • ماذا كان يطلب امام بيت القاضي ؟ لماذا يعتريه الشحوب ؟ لماذا تتملكه الرجفة ؟ ربما يكون من الأفضل أن اقطع الحديث اذا كان يثيره الى هذه الدرجة ، ولكن هذا كله بالذات كان

يجبرني على أن أواصل الحديث ؛ اذ يبدو ان الأمر ليس بريئا • انني أعرف عنه الشيء الكثير ، اعرف أو أتكهن بذلك الذى يحدث معه ، واذا كان كل شيء يبدو قبيحا فان توتره شـــاهد بأن ضميره حي متيقظ وانه يقوم بوخزه من حين الى حين •

كانت راس الشاب تاخذ في الانحناء كلما تقـــدم الوقت ، وكان ظهره يتقوس تحت عبء الخوف الذى اثقله وأناخ به حتى لتوشك فقار عموده أن تتكسر •

لقد حاول في ضـــعف ان يكرر كيف كان مروره امام بيت القاضى بطريق الصدفة ، ولكنني لوحت له بيدى رافضا حتى الحديث في ذلك •

كان ينتظر ممســكا عن التنفس ، وكنت انتظر انا كذلك متنفسا بصعوبة بالغة • لم أكن أعرف حتى اللحظة الاخيرة هل ساقول له ذلك الذى يعد أمرا وحيدا من حيث الأهمية ، والذى لو اعترف به لشويته من أجله على النار • كان شيء يصـــيح في داخلي مذهولا ، ملطخا بالدماء ، ولكنني كنت أمسك بشـــكواى في شفتي اللتين كانتـــا في تناوب تعض احداهما الأخرى ، مجاهدا كي لا تسمحا بانطلاق الشكوى • ولو حدث ان تغلب عليه الخوف التام واجبره على أن ينفي كل شيء فسابقى في حيرة وتردد •

واذ كان الأمر كذلك فقد شـــددت عليه ، واجهدته حتى النهاية ، جننته : كدت أنتظر ان يكشر عن أســنانه ، أن يزمجر ، أن يفترسني ، كي يستطيع أن يرى ما أخفي في قلبي •

ان هذا كان يؤكد شكي ، ولكن لم تكن هناك ادلة بعد •

والآن يجب ان افك الحصار فجأة ، وأن أجعل كل شيء على صورة مضحكة • فاذا ظهر على وجهه علائم الارتياح أدركت اذ ذاك أنني اخطو في الطريق الصحيح • انه مذنب •

ذكرت على مسمعه ، بعد أن تغلبت على الفوضى في داخلي وعلى زوبعة دمى الصماء ، ماخمنه الحافظ محمد من أنه ربما وقع في حب اخت حسن• ولو ثبت ما خمنه الحـــافظ لاسفت ولحزنت ، اذ أن قلبه الظمآن للحب سوف يصبح مظلما وسوف يصيبه الجفـــاف من أجل تلك الرغبة الآثمة والتي لا أمل فيها • ان هذا سوف يقتله وسوف ينحيه عن الناس ، وربما عني كذلك • وارجو ألا يعاتبني ، فانا انصحه كما لو كنت انصح أخي ،

ذلك الذى لا تستطيع نصائحي أن تساعده في شيء بعد • وأما من حيث بكائى فآمل أن يفهمه ، ربما الآن ، أو فيما بعد ، عندما يخلف وراءه الجزء الاكبر من حياته ، عندما يكون مضطرا أن يفكر في الخسائر فحسب وأن يحارب لكي يحتفظ بحب الأصدقاء الذين لم يتخلوا عنه بعد •

لقد كنت أبكي حقا ، كنت أذرف دموع الحزن والغضب • وقـد تملكني الانفعال بقدر ما تملك هذا الشاب الذى انتابته الحيرة • لم يبق لنا سوى أن ننهي هذا الحديث المروع بالعناق • ولكن ما كان في وسعي ان اقوم بالتظـاهر الى هــذه الدرجة • ولو هم هو بذلك لخفت أن اقوم بخنقه ، اذ كنت قد عرفت كل شيء •

نعم عرفت كل شيء ، وكان ذلك عندما خرجت من أدغال التكهنات التي بدت لي كألف سكين قد شرعت واستعدت للطعان ، وكانت احداها تحمـل الموت السريع ، وكان هو ينتظرها ، وعندما بعدت به عن أدغال التكهنات وحللت عقدا عديدة لا حصر لها كنت قد ربطته بها ربطا يفضي الى الهلاك ، وعندما حررته من الخوف الوحشي بتحذيرى اياه في لطف ــ صحت السماء فوقه فجأة ، ولم يعد فيها ما يوحي بشيء من الصواعق أو الرعود ، والتهب وجهه المضنى بما كان من أمر فجاءته العارمة ، بما تملكه من السرور الجامح من أجل هبتي اياه حياته •

مجنون ــ ظننت ذلك ناظرا اليه في كره ــ يظن أنه قـد أفلت من الفخ •

وعندئذ حدث ذلك الذى لم أكن أتوقعه ، ذلك الذى ماكنت استطيع ان اتنبأ بحدوثه • لقد أضاء جوانب نفسه سرور التحرر للحظة فحسب وبقي لديه زمنا قصيرا للغاية ، وعلى الفور فقد هذا السرور قوته التي كان عليها في البداية كما فقد انتعاشه • حتى لكان فكرة أخرى قد لدغته في اللحظة نفسها ، وفقد وجهه كل علائم الحيوية ، وأثقله الحزن الممض •

لم هذا ؟ هل خجل من تهلله ؟ هل طرحه ارضا هذا السرور المفاجيء؟ هل رثى لحالى من أجل سذاجتي التي تشبه سذاجة الأطفال ؟ أم أنه تذكر فجأة كم يكون خطيرا هذا الانكار ؟

انحنى في بطء بجبهته حتى لامست أرض الغرفة ــ وكان عجيبا هذا البطء ــ كما لو كان يؤدى التحية لعظيم ، كما لو كان يسجد ، وبصعوبة بالغة استند على يديه ، وخيل الى أنهما لا تستطيعان حمله ، ونهض واقفا كأنه في حلم • وخرج كأنه في حلم ، مذهولا أشد ما يكون الذهول •

لقد كنت قاسيا عليه وعلى نفسي • ولكنني لم أكن أملك طريقة أخرى• لقد أردت أن أعرف • ان حسنا كان يعيش مع أناس على نقيض هؤلاء الذين أعيش معهم ، وفي وسط آخر ، وكل شيء كان يكشف له بيسر وسهولة• وأما أنا فلم يكن أحد يريد أن يكشف لي شيئا ، لذا كان لزاما على أن أقلب نفسي ونفس يوسف ، فأجعل باطنهما ظاهرا ، لكي أكشف الحقيقة• لقد كان طويلا هذا الطريق ، فقليلا قليلا وجزءا جزءا كنت أحصل على ما أريد • كان يلزمني وقت طويل لا توصل الى معرفة ما يهمس به رجلان عاديان أحدهما للآخر في زاوية زقاق في أثناء لقائهما العابر • لقد هزمتني الفكرة التي كشفت عن نفسها عندئذ : كم كنت منفصلا عن الناس ، كم كنت أحيا بينهم وحيدا • ولكنني أرجأت التفكير فيها الآن ، وسوف أفكر فيها فيما بعد ، عندما ينتهي كل ما أنا بصدده الآن •

انقطعت الأمطـــار وأصبح الجو على الفور مشمسا حارا ، دون أن يكون هناك تدرج في هذا الانتقال • خرجت من التكية الى الزقاق وأخذت أغدو وأروح محـــاذيا شاطىء النهر ، وكنت أنظر في أثناء ذلك كيف يتصـــاعد البخار من الارض المغطـاة بكثيف من العشب ، وأحيانا كنت أتوقف ببصري عند ذلك الصحو التام يرى في طول السماء وعرضها ، وكان يبدو لي أنها هكذا هناك فوق الارض السهلة وفوق بيتي وموطني ، انني لا أحس برغبة في أن أترك هذا المكان وأعود الى التكية ، فقد تلاشى الخوف مني ، وانقطع ما كنت أسمعه من زمجرة المياه الهادرة التي كانت تهددني في ظلام الليل ، كما زال ضعفي كذلك • هاأنذا : ـ كنت أقول ذلك لأحد في شماتة ، عالما أن كوني ما أزال على قيد الحياة يعد تهديدا• كنت أشعر بحاجة الى التحرك ، لأفعل شيئا محددا يعـــود بالنفع ويأتي بالفائدة •

كان لي هدف •

اختلطت بالناس ، متمسكا بالهـــدوء وحريصا على الاتزان ومزودا بالصبر ، وكنت أقبل شاكرا كل ما كان في امكانهم أن يقدموه الى • كنت أقبل شماتتهم وسخريتهم وما يدلون به الى من المعلومات ويحيطونني به من الأخبار •

لم أكن أسير على غير هدى • واذا تصـــادف أن انحرفت عن الطريق الصحيح ، أن ضللت وأخذت أسير في مجاهل الارض ، فقد كنت أعود دائما الى الطريق الذي كنت أبحث عنه • كان مرشدي اليه اصراري ، وكلمة تصدر من شخص ما ، وما يساورني من التكهنات وتمتم الآخرين

بمصيبتي ، وتعجبهم من أجل تغيري • وكنت كلما تقدم الوقت أخطو بخطوات أشد ثقة في تحرياتي عن السر ، وأكثر غنى وأشد فقرا من أجل هذا التلألؤ ، من أجل تصدق الآخرين بكلماتهم ، كلمات الكره وكلمات الاشفاق •

كنت أتحدث مع الخفير ، مع « قره زاعم » ، مع الحراس ، مع المتذمرين ، مع المشكوك فيهم ، مع هؤلاء الأناس الذين كانوا فرادى يعلمون قليلا ، ولكنهم باجمعهم يعلمون كل شيء ، وكنت اظهر لهم وجه الحليم الذي لا يطلب ثأرا ولا ينشد عدالة ، وانما يريد أن يصل علاقات مقطوعة بينه وبين الناس ، وينعم بالهدوء في محبته نحو الله ، تلك التي تبقى لنا حتى عندما نفقد كل شيء • كان كثير من الناس لا يشعرون بشفقة نحوي ، كما كان كثير منهم على جانب كبير من القسوة والصرامة ، ولكنني كنت اظل متزنا حتى عندما كانوا ينهالون علي بالشتائم ، وكنت أحاول مطرق الراس أن اجد ولو ذرة من الحقيقة في انتقال أصواتهم من درجة الى أخرى ، في سبهم ، في تهللهم ، في رثائهم المظهري وربما الحقيقي ، وحتى في كرمهم الذي كان أكثر مفاجأة لي من حقدهم • وكنت أختزن كل شيء في ذاكرتي •

وعندما اجتزت هذا الطريق الوعر ، وقد عرفت فيه حتى ما لم أكن في حاجة اليه ، ماتت سذاجتي ، ماتت من خجلي •

هكذا تخرجت في المدرسة الاخيرة ، ووصلت الى نهاية مراحل التلقي • كان ينبغي أن يحدث ذلك الذي كنت اتوقعه • ولكن لم يكن يوجد هناك شيء ليحدث ، كما أنني لم أكن أنتظر شيئا بعد • لقد كنت مهزوما • وكان هذا هو كل ما ظفرت به • واما بين الناس فقد بقيت قصة جميلة عن درويش مضحك كان يتحدث في هدوء معهم عن حياتهم وعن حياته ، داعيا اياهم الى الحب والصفح ، مثلما صفح هو ، كما كان يعزى نفسه وانفسهم بمشيئة الله وقدره ، وبالايمان به ، وبالحياة الآخرة ، تلك التي هي أعظم وافضل •

وعندما عدت من زيارة عبد الله أفندي ، شيخ تكية سنان الدين (فحتى اليه قد ذهبت : وتبين اذ ذاك أن كلا منا كان يشك في الآخر ، وأنه بذلك قد خدع نفسه ، ويعلم الله كم أصابني هو بشر ، من أجل هذا الشك الفارغ ، وكم أنا أصبته كذلك) ـ رأيت ملا يوسف في الحديقة ، بجانب النهر • لقد ارتجف عندما فتحت الباب ودخلت ؛ وكان ينظر الى في اضطراب ، وقد اتقدت عيناه وأوحتا بالمرض •

لقد كان يعرف الى أين اذهب وماذا أطلب ٠

لم يحى أحدنا الآخر ٠ ذهبت الى غرفتى التى بدت مظلمة باردة ، وكنت اتخيل أنها ستكون قاعة كبيرة مضيئة للمحاكمة عندما تحين هذه الساعة ، ولكنها لم تكن حتى على ذلك الحـال الذى كانت عليه دائما ٠ كانت ترفضنى بفقرها وجدبها ٠ فقد كنا تناسينا أنفسنا ، عندما كنت أجرى هنا وهناك سعيا للوصــــول الى السر ، وقد فقدت فى هذه الآونة انعطافها نحوى ، ولم أجد عوضا لهذا الانعطاف فى مكان آخر ٠

وقفت بجانب النافذة وكنت أنظر فى تشتت الى النهار الذى تلألئه أشعة الشمس ٠ وكان هذا كل ما كان فى استطاعتى أن أفعل ، وان كنت أعرف أنه شىء بلا معنى ٠

وعندما فتح الباب عرفت من الداخل ٠ لم اقل شيئا ولم يقل هو كذلك ٠ وخيل الى أننى أسمع تنفسه الشاق العميق بجانب الباب ٠

ظل هذا الصمت الرهيب فترة طويلة ، وظل هو واقفا خلفى كما لو كان فكرتى السوداء ٠ كنت أعرف أنه سيأتى ، هكذا ، دون ان ادعوه٠ لقد انتظرت هذه اللحظة فترة طويلة ٠ والآن كنت أرغب ان ينصرف ٠ ولكنه لم يقم بذلك ٠

نطق هو أولا ، وكان هادىء الصوت واضح النبرة ٠

ـ اننى أعلم أين ذهبت ، وعم كنت تبحث ٠

ـ وماذا تريد اذن ؟

ـ لم يكن بحثــــك دون جدوى ٠ أصــدر حكمك ، أو اصفح اذا استطعت ٠

ـ اذهب ياملا يوسف ٠

ـ أتكرهنى ؟

ـ اذهب ٠

ـ لو أعلم أنك تكرهنى لكان ذلك أيسر على نفسى ٠

ـ أعرف ٠ ولو تحقق ذلك لكان لك الحق أيضا فى ان تكره ٠

ـ لا تعاقبنى بالصمت ٠ ابصــــق على او اصــفح ٠ فالامر لم يعد بالنسبة الى سهلا ٠

ـ لا أستطيع ان أقوم بأحد من الأمرين ٠

ـ لماذا تحدثت الى عن الصداقة ؟ لقد كنت تعرف كل شيء حينذاك .

ـ لقد ظننت أن ذلك حدث بطريق الصدفة ، أو بدافع من الخوف .

ـ لا تتخل عني هكذا .

لم يكن يرجو ضارعا ، بل كان يطلب . وكان ذلك يمثل شجاعة اليأس ، ولزم الصمت اذ ذاك ، وقد فترت شجاعته ببرودتي ، ومن ثم اتجه نحو الباب . ولكنه توقف واستدار . وكان يبدو عليه الانتعاش ، حتى ليكاد يكون مسرورا .

ـ لقد وددت أن تعرف كم عذبتني بحديثك الى عن الصداقة . كنت أعرف أن ذلك لا يمكن أن يكون حقيقة ، ولكني أردت أن يكون . لقد رغبت أن تحدث معجزة . ولكن لم يتم ذلك . ان الأمر أيسر وأسهل الآن .

ـ اذهب يا ملا يوسف .

ـ أأستطيع أن أقبل يدك ؟

ـ أرجوك ، اذهب . لقد أردت أن أبقى وحيدا .

ـ حسنا ، سأذهب .

اقتربت من النافذة ، وأخذت أنظر الى غروب الشمس محدقا ، دون أن أعي ماذا أرى ، ولم أحس به حينما خرج ولا عندما أغلق الباب . وللمرة الثانية كان هادئا وكان يحس بذلة وانكسار ، ولكنه كان يشعر برضى لانتهاء الأمر على هذا الوضع . لقد أطلقت الفار من المصيدة ، دون أن أشعر في نفسي بشيء من السرور ، ودون ان أحس نحوه بشيء من الازدراء .

كان نظرى ينتقل بين تلك القمم العالية للجبال ، وكذا بين النوافذ العديدة للمنازل وقد كستها جميعا حمرة الشفق .

وهكذا كان ، وماذا اذن ؟ لا شيء . الغروب ، ثم الليل ، ثم الفجر ، ثم النهار ، ثم الغروب ، ثم الليل ، لا شيء .

كنت أعرف ان فكرتي ليست على درجة كبيرة من التعقل ، ولكن الأمر كان لدى على حد سواء ، حتى لقد كنت أنظر الى نفسي بشيء من السخرية ، كما لو كنت أنظر الى شخص آخر : كان من الأفضل ألا تنقطع تحرياتي ، اذ لو استمرت لظل لي هدف ولبقيت لي غاية .

دخل الغرفة اذ ذاك الحافظ محمد ، دخلها مندفعا وعليه علائم الاضطراب والفزع ، حتى ليكاد يبدو أنه فقد موازينه • وظننت عندئذ أنه ليس هناك سوى أن يستولى عليه سعاله ، كما كان يستولى عليه دائما عندما يصيبه الاضطراب ، حتى أجدنى مضطرا ان أحل وحدى لغز هذا الوجه الذى انتابه الذعر • ولكن لحسن الحظ تأجل سعاله الى مابعد • وبطريقة ما تمتم معلنا أن ملا يوسف شنق نفسه فى غرفته ، وأن مصطفى فك الحبل عن عنقه وانزله •

اتجهنا الى أسفل •

كان مستلقيا على السرير ، وكان وجهه يجمع بين الزرقة والحمرة ، وعيناه مغمضتين ، وكان يتنفس فى اضطراب وصعوبة •

وكان مصطفى مقعيا الى جواره يسقيه الماء ، فاتحا فى صعوبة فمه بملعقة فى يمناه وبالأصابع الضخمة ليده اليسرى • وقد أشار الينا براسه كى نخرج • أطعناه ، وخرجنا الى الحديقة •

كان الحافظ يتأوه قائلا :

ـ ياله من شاب تعيس •

ـ لقد بقى على قيد الحياة •

ـ الحمد لله ، الحمد لله • ولكن لماذا فعل ذلك ؟ أمن أجل الحب ؟

ـ ليس من أجل الحب •

ـ لقد خرج توا من غرفتك • فيم كنتما تتحدثان ؟

ـ انه خان أخى هارون• كان زميلا له ، وخانه • لقد اعترف بنفسه•

ـ لماذا قام هو بالذات بخيانته ؟

ـ لقد كان جاسوسا للقاضى •

ـ آه ، يا الهى يا عظيم !

ان هذا الشيخ البار الذى كان يغذى شرفه بعدم خبرته ، لو كنت قد لطمته على وجهه لكان هذا أيسر تحملا له مما فعلته من تزويد خبرته بهذه القذارة •

جلس الشيخ على مقعد الحديقة ، وأمسك فى ضعف بمسنده ، وأخذ يبكى فى هدوء •

وربما يكون هذا هو الأفضل ، وربما يوصف بأنه أكثر تعقلا من كل ما يمكن فعله •

١١

« حتى اذا ضاقت عليهم الارض بما رحبت وضاقت عليهم انفسهم ••• »

اتسع نطاق اضطرابى حيث أخذ في الامتداد الى الوراء : تذكرت كيف كنت محاطا منذ زمن بعيد ، كيف كانت عيون الآخرين تترصد منذ سنوات طوال كل خطوة من خطواتى ، مترقبة ان تكون احداها خاطئة • ولكنني لم أكن اعرف شيئا • وانما كنت أسير هنا وهناك كما يسير النائم معتقدا أن كل شيء يخصنى يتعلق بى وحدى وبضميرى ، ان هذا الابن الروحى كان ساهرا على ، بامر الآخرين ، تاركا لى من امر الحرية ذلك الاعتقاد الفارغ فحسب بأننى املكها • اننى اعيش اسيرا منذ سنين ، والله يعلم اية عيون هذه وكم كان عددها • كنت اشعر بأننى محتقر ومضيق على فيما مضى ، فاقدا حتى ذلك المكان الحر الذى كنت اتصوره مكانى قبل أن تحل بى المصيبة • لقد اغتصبوه ولم يكن هناك من قيمة لان اعود اليه بالذكرى • لقد بدات الكارثة قبل ان اعيها بوقت طويل • من الذى لم يكن يترصدني بعينه ، من الذى لم يتسمع لما أقوله ، كم من الحراس المتطوعين أو المستأجرين كانوا يراقبون طريقى ، ويحفظون تصرفاتى ، ويجعلون منى شاهدا ضد نفسى • لقد كان عددهم يتزايد حتى وصل الى درجة مخيفة • وكنت أسير فى الحياة دون خوف وظنة ، كما يسير المجنون على حافة الهاوية ، والآن اصبح كل شيء يبدو لى هاوية ، حتى الطريق السوى الممهد •

تحولت القصبة الى اذن كبيرة ، وعين تترصد أنفاس كل فرد وخطواته • لقد فقدت طبيعتى وثقتى • وبدا لى هذا واضحا عندما كنت ألتقى بالناس • فاذا حدث أن ابتسمت بدا هذا مداهنة منى أو تملقا وزلفى ؛ واذا تصادف أن تحدثت فيما لا يهم من الأمور بدا هذا محاولة

مني للتخفي ؛ واذا بدر مني حديث عن الله وعدالته بدا هـذا بلادة مني وحمقا ٠

لم أكن أدري حتى ما ينبغي أن أفعله مع صديقي ملا يوسف ٠ أقول في مرارة : صديقي ، ولكنني أظن لو كنا صديقين حقا لكان الأمر أشد سوءا ٠ وأما هكذا فانني فيما يتعلق به لا أخسر شـــيئا ٠ انني أعلم أن باستطاعتي أن أخفف من اصابتي لو قلت للبعض راثيا لحالي : أنظر ماذا فعل صديقي ٠ ولكن لم أرد ذلك ٠ اذ لو فعلت لاتهمت هكذا رجلا واحدا فقط ، ولانتهى كل شيء على حســـاب بينه وبيني ؛ اذ لو أحسست أنني مصاب بخيانة صديق لحصرت اهتمامي فيه ولنسيت الآخرين٠ وأما هكذا، زاجا به في زمرة الآخرين ، فكنت أوسع بحالي الذنب والخسارة ٠ وكنت أفعل ذلك في غير وعي ، وبرغبة غير واضـحة لكي تكون المقاييس أكثر ضخامة ، مثل المي ، ومثـل ما يكون لي بمثابة العوض ، أقول : الألم ، ولكنني لا أحس به ٠ وأقول : العوض ولكنني لا أسـعى الى تحقيقه ٠ لقد أصبحت أدين الناس بدين فادح ، ولكني لا أطلب شيئا منهم ٠

كان ملا يوسف يلتقي بي والخـوف يتراءى في عينيه القاتمتين ، وكنت حين أراه ابتسم ابتسامة مجهدة وقد اسـود داخلي بأكمله ٠ كان يخيل الي في بعض الاحيان فقط أنني اســـتطيع أن أخنقه وهو نائم أو حين يجلس مستغرقا في تفكير عميق ٠ واحيانا كنت أرغب في أن أنحيه عني ، بأن أرسله الى تكية أخرى أو الى مدينة غير هذى ٠ ولكنني لم أكن أفعل شيئا ٠

لقد تأثر حسن والحافظ محمد لمـا كان مني من رحابة الصدر ومن الصـــفح عنه ، ومن العجيب أنه كان يطيب لي ذلك الاعتراف بهذا الذي لم يكن حقا ، اذ لم أكن قد نسيت ولم أكن قد صفحت ٠

كان هذا هو ما أرجع الى حسن وأعاد لي الرضا الذي يصعب تفسيره من أجل استمرار الصداقة بيننا ، أعاد لي الاشراقة في داخلي دون سبب ويكاد يكون دون معنى ، ولكني كنت أقبلها كمـا لو كانت هدية قدمت الي ، وكنت أتمنى أن تستمر دون انقطاع ٠

قال دون أن يشير الى ما كان مني من احســـاسه بل الى ما كان من فائدة ، وكان اعترافه يرن في خشونة :

ـ لقد تصرفت بالعقل عندما تركته وشأنه ٠ انك ان طردته فسوف يأتي آخر مكانه ٠ انه أقل خطرا حيث عرفت من هو ٠

ـ لم يعد بعد من يكون خطرا بالنسبة الى • ساتركه وشأنه ،وليعش كما يعرف • انني لا استطيع حتى أن أكرهه • لعلني ارثى لحاله •

ـ وانا كذلك ، أنه من غير المفهوم أن تقتصر حياة الانســان على مصيبة تحل به واخرى يلقيها على الناس ، أن يفــكر فى مصيبته ويعد مصيبة للآخرين • انه بالتأكيد يعرف كيف يبدو الجحيم •

ـ لماذا لم تقل لى حينما عرفت ؟

ـ لم يكن فى الامكان أن أساعد فى منع شىء • فكل شىء كان قد تم • لقد تركتك للبحث والتعود عليه • والله يعلم ماذا كان بوسعك أن تفعل لو عرفت فجأة •

ـ لقد ظننت أننى سأفعل شيئا عنـدما أعثر على المذنب • ولكن لا استطيع أن أفعل شيئا •

ـ انك تفعل كثيرا •

ـ أنا لا افعل شيئا • بل أترك الوقت كى يمر ، فقد فقدت السند، انني لا أجد السرور بعد فى ذلك الذى أقوم به •

ـ لا تسمح لنفسك أن تفكر هكذا • قم بفعل شىء ما وقاوم •

ـ كيف ؟

ـ ارحل ، توجه الى أى مكان • الى بيتك فى قرية «يوهوفاتس» غير مكانك والناس والسماء • ان الوقت وقت حصاد • شمر أكمامك وقف بين الحاصدين • استحم فى عرقك واجهد نفسك •

ـ ان الجو كئيب الآن فى بيتى •

ـ اذن استعد لترحل معى • فانا اســتعد الآن للسفر ، الى نهر سافا • سوف نبيت فى الخانات بين البراغيث أو تحت أشجار الزان ، فسوف نمر بنصف البوسنة وسوف نجتاز الحـدود بيننا وبين النمسا اذا أردت •

ضحكت وقلت :

ـ انك تظن أن السفر يشيع السرور والرضا لدى الجميع كما هو الشأن عندك • وربما كان بمثابة الدواء •

لمس قولي مكانا حساسا منه ، وبدأ الوتر يؤز ، وقال وهو يشتعل حرارة : كان يجب أن يؤمر كل شخص بالسفر من حين الى حين • وربما أكثر من ذلك •• اي بحيث لا يتوقف على الاطلاق في مكان ما مدة أطول مما تقتضيه الضرورة • ان الانسان ليس شجرة ، وارتباطه بمكان ما هو مصيبته ، انه يعزل من الشـــجاعة ويقلل ثقته بنفسه • فالانسان حين يربط نفسه بمـــكان واحد يخضع لجميع ما يمليه عليه من شروط ، وان اشتدت قسوتها ، ويخوف نفسه بذلك المجهول الذى ينتظره • والتغيير يبدو فى نظره انسحابا من المكان وتركا له •• ضياعا لمال أقرضه للآخرين بغية تثميره ، وسوف يحتل شخص آخر مكانه الذى احتله من قبل ، وأما هو فسيظل مضطرا على الدوام لأن يبدأ من جديد • ان التسمر فى مكان واحد هو بداية الشيخوخة ، لأن الانســان سوف يظل شابا الى الوقت الذى يعتريه الخوف فيه من أن يبدأ من جديد • وفى البقاء يتحمل الانسان أو يهاجم • وفى الذهاب يرعى حريته مستعدا لتغيير المكان وما فرض عليه من شروط • الى اين يذهب ! وكيف ؟ لا تضحك ، فانا اعرف انه لا جهة لنا • ولكننا نستطيع الانطلاق أحيانا ، بان نصنع حرية متخيلة ، ونتصور كأننا نذهب وكأننا نغير المكان • ثم نعود ثانية هادئين وفى تمام الاطمئنان مخدوعين •

لم أكن اعرف على الاطلاق متى ســتنحرف كلماته الى السخرية • أكان يخشى من تأكيد معين ، أم انه لم يكن يعتقــد فى قرارته بشيء من التأكيدات ؟

ـ أمن أجل ذلك أنت دائم الترحال ؟ لكى تحتفظ بالحرية المتخيلة ؟ أيعنى ذلك أنه لا توجد حرية ؟

ـ توجد ولا توجد • اننى أتحرك فى دائرة ، أذهب واعود • حر ومقيد •

ـ اذن أينبغى ان اذهب أنا أم أبقى ؟ اذ الأمر سواء فيما يبدو • اننى اذا كنت مقيـــدا فلست حرا • واذا كنت أنشد العودة فعلام اذن الرحيل ؟

ـ فى هذا يكمن كل شيء : العودة • من نقطة واحـــدة فى الأرض يتولد الاشتياق الى نقطة اخرى ، فتأخذ فى الذهاب لكى تصل اليها • فبدون هذه النقطة التى ارتبطت بها ليس باستطاعتك ان تحبها هى ولا أن تحب العالم الآخر ؛ اذ بدونها ليس باستطاعتك ان تنطلق لانك لست

فى مكان من الأمكنة . كما أنك لا تعد فى مكان اذا كنت تملك هذه النقطة وحسب ، لانك اذ ذاك لا تفكر عنها ولا تشتاق اليها ولا تحبها . وهذا مالا يعد جميلا . يجب أن تفكر وتشتاق وتحب . اذن استعد للرحيل . اترك التكية للحافظ محمد ، حرر نفسك منهم ودعهم يتحررون منك ، وكن مستعدا أن تجد نفسك على باب الامبراطورية الاخرى ممتطيا صهوة جواد عادىء وقد تسلخت أردافك .

ـ ليس الأمر على التمام مما يحتفى به .

ـ نعم ستكون جروح أيها الدرويش .

ـ والمكان ربما يكون غير مريح .

ـ انه كسائر الأمكنة الاخرى . لا يمكنك أن تركب الحصان ، راسك الى أسفل وقدماك الى اعلى ، فربما بدا ذلك للبعض عجيبا . سوف يرمز هذا الى الثورة . هل اتفقنا اذن ؟

ـ نعم ، لا أنوى الذهاب الى أى من الامكنة .

ـ واعجبا ! انك اشبه فى نظرى بفتاة متعالية لا يمكنك أن تعرف بحال الى اية نقطة وصلت معها . فيايتها الفتاة المتعالية صاحبة اللحية ، يبدو أنك تصرين أن تبقى على الدوام مترددة . ولكنك اذا غيرت رأيك واذا تغلب عليك الملل وانت تتصارعين مع الفكرة الوحيدة كما تتصارعين مع الشيطان الاسود فابحثى عنى ، وانت تعرفين فى أى مكان تجدينني .

لم أكن اريد ان اهجر القصبة واذهب الى مكان آخر . لقد تمنيت مرة من قبل ان اذهب ، وأن اضرب في الارض سائرا فى طرق مجهولة . ولكن كان ذلك منى احلاما فارغة ، رغبة مهيضة للتحرر ، تفكيرا فى ذلك الذى لا يمكن أن يكون . والآن لم يعد يظهر هذا التفكير . فقد ربطتنى بهذا المكان مصيبتى التى حلت بى . انها سمرتنى به كما يسمر السهم النافذ فريسته بالجدار . لقد بقى لى القليل من الافكار ، ومن الحركات ، ومن الطرق . كنت أجلس فى الحديقة تحت اشعة الشمس او فى الغرفة أقرأ فى كتاب ، كما كنت أتنزه بجانب النهر عالما أننى أفعل ذلك بالتعود دون ارادة منى ودون استمتاع . غير أننى كنت فى كثير من الاحيان افاجىء نفسى بما كان منها من شعور بالمتعة لجلوسى تحت أشعة الشمس ، او لقراءتى فى كتاب ، أو لمشاهدتى انعكاسات الأشعة على صفحة الماء . لقد أخذ كل شىء يبدو فى ناظرى على حالته الطبيعية ، وربما بدا جميلا مطمئنا .

كان يخيل الى انني بدأت أنسى ، وان الهدوء قد سيطر على نفسي ، ولكنني فجأة وبدون أن يكون هناك سبب واضح وبغير ما فكرة يمكن أن تولد هذا السبب ، أحسست بطعنة نارية تخترق جسمي ، وتحمل ألماً شديداً خفيا اشبه بآلام التقلص . ما يكون هذا ؟ ـ كنت أسائل نفسي، كشخص مفاجيء ، مخافة أن أعترف بهذه الثورة غير المرغوبة ، مواريا اياها بأمور صغيرة كانت في متناول يدي أو تحت سيطرة أفكاري .

وعلى الرغم من ذلك كنت أتوقع شيئا ما .

كنت في حالة نفسية مبهمة ، ومتقلبة ، كنت كالرجل الذي لا يشعر بصحة أو مرض ، والذي تصيبه علامات المرض المؤقتة بأشد وأقوى من تلك التي تلازمه دون انقطاع .

انتزعتني الكراهية من هذه الحال التي كنت عليها . وكان ان أحيتني وقوت من عزمي ، مضطرمة ذات يوم في لحظة كما تضطرم النيران . وقد عبرت بالاضطرام لأنها كانت حتى هذه اللحظة جمرات مطمورة ، ثم هبت مجنونة من الشدة محرقة قلبي بلفحها ولظاها . كانت في داخلي منذ زمن بعيد دون شك ، وكنت أحملها مثل الجمرة ، مثل الأفعى ، مثل الورم الذي اشتد فانفجر لتوه ، ولم أكن اعرف كيف ظلت مختفية حتى الآن ، ولا لماذا بقيت ساكنة وصامتة ، ولا لماذا ظهرت في لحظة لم تكن أشد مناسبة من غيرها من اللحظات السابقة . لقد كانت تنضج في صمت مثلما ينضج كل شعور ، ثم ولدت قوية شديدة وقد غذاها طول الانتظار .

وللعجب الشديد أنه كان يطيب لي ان افكر كيف ظهرت فجأة وقد كنت اشعر بها في نفسي منذ زمن مضى ، كما كنت اتظاهر بانني لااعرفها. لقد كنت أخشى من أن تندفع قوية ، والآن لقد قويت نفسي بها ، حاملا اياها ومتقيا بها كالدرع ومدافعا بها كالسلاح ومخوفا بها كالحريق ، وبي نشوة من اجلها كنشوة الحب . لقد كنت اظن أنني أعرف ما هي ، ولكن اتضح أن كل ما كنت أعرف من الكراهية حتى الآن لا يعدو ظلا شاحبا منها . ان هذا الذي استولى علي يعيش في داخلي كقوة مظلمة مخيفة .

سوف أحكي على مهل ، وفي غير عجلة ، كيف حدث هذا . لقد حدث حقا وكأنه الزلزال .

١٢

« ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات »

ذهبت مع حسين الى الصائغ الحاج سنان الدين يوسف، وكان حسن يجذبني معه في كل مكان يقصده ، واذ ذاك أدركت اننا صديقان وأنه يطيب لى ان أكون بجانبه • لم يكن هذا بعد طلبا للحماية ، وانما رغبة في التقارب الانساني ، دون تطلع الى شيء آخر من كسب أو منفعة •

وفي سوق الجواهر لقينا على خوجه ، في ثيابه الممزقة ، ونعله القديم ، وطاقيته القبيحة • لم أكن أود أن ألتقى به ، فهو عادة بذيء القول لا يحسن اللقاء ، ويتستر خلف مظاهر الجنون لكي يستطيع أن يقول ما يريد • ويأتي بذلك في خشونة بالغة •

وجه سؤاله الى حسن دون أن ينظر الى قائلا :

ـ أتوافق على أن نأخذ في هذا الحديث الذى لن يكون لك منه فائدة؟

ـ أوافق • عن أى شيء يكون حديثنا ؟

ـ عن لا شيء •

ـ يعنى عن الناس •

ـ انك تعلم كل شيء • ولذا لا تهتم بشيء • في الصباح طلبت يد أختك •

ـ ممن طلبت يدها ؟

ـ من والدها ، من القاضي •

ـ ان القاضي ليس والدها •

ـ اذن هو خالتها

ـ حسنا • ماذا قلت للخالة ؟

ـ قلت : أعطينيها زوجة لي ، فحرام ان تذهب نضارتها ويضيع جمالها سدى • انها ستبقى عانسا بوجودها هكذا الى جانبك • وساقبل الميراث أيضا يأتيني معها ، وعلى كل حال فهو ليس مالك ، وسوف أحمل عنك على الأقل مدة تقدر بالف سنة مما تستحقه أنت في نار جهنم ، وسيكون الأمر بالنسبة اليك اخف • وقد قال اتركني وامض في طريقك• واجبت انني اسير في طريقي ولكن لماذا لا تسمح لها ان تسير هي أيضا في طريقها ؟ اتكرهها الى هذه الدرجة ؟ لقد ظننت انها على الاقل هي الوحيدة التي لا تكرهها • وأنت الى أين تسير ؟

ـ الى الحاج سنان الدين يوسف الصائغ •

ـ اذهب • ولن أذهب معك • فأنا لا أعرف حقيقة الرجل •

ـ لا تعرف حقيقة الحاج سنان الدين ؟

ـ لا أعرف • انه يشغل نفسه بالمساجين فقط ، يحمل اليهم الطعام في يوم الجمعة ، وسيصبح فقيرا من أجلهم ، فهو ينفق عليهم كل مايملكه•

ـ أهذا عمل سيء ؟

ماذا يمكنه ان يفعل لو لم يكن هناك سجناء ؟ لا شك سيكون تعيسا • لقد اصبح مولعا بالسجناء كما يولع الآخرون بالصيد او الخمر • وهل ينبغي ان يرتبط ولع الانسان بمصيبة الآخرين ؟ ربما ينبغي ، أنا لم أفكر في ذلك •

ـ أيعد أمرا سيئا أن يتعود الانسان على القيام بعمل صالح ؟

ـ اينبغي ان يصبح العمل الصالح تعودا ؟ أنه يعرض كما يعرض الحب ، وعندما يعرض يجب علينا اخفاؤه لكي يبقى خاصا بنا • كما تفعل أنت •

ـ ماذا افعل أنا ؟

ـ انك تحمل صدقة الى الحاج سنان الدين من أجل السجناء ، ولكنك تفعل ذلك في خفاء • لقد حدث هذا منك وأنت تخجل أن تظهر حبك • ولذا تذهب بمفردك •

ـ لست الآن بمفردي • الا تعرف الشيخ نور الدين ؟

ـ كيف لا اعرف الشيخ نور الدين ! اين هو ؟

ـ هنا معى ٠

ـ معك ؟ أنا لا أراه ٠ لماذا لا ينطق بكلمة لكى اسمعه على الاقل ؟

ـ انك لا تريد ان ترانى ، ولا أدرى لماذا ٠ أغاضب أنت على ؟

وعبثا كان يبحث عنى بجانب حسن وهو يقول :

ـ هانت ترى أنه ليس موجودا ٠ لا صوت له ولا صورة ٠ لا وجود للشيخ نور الدين ٠

وذهب دون تحية ٠

كان حسن يبتسم فى حيرة ، وكان ذلك دون شك من أجلى ٠

ـ لاذع ٠

ـ لاذع وخبيث ٠

ـ انه رجل عجيب ٠

ـ لماذا لم يرد أن يرانى ؟

ـ لقد كان يتحدث حديثا عاقلا ٠ وكان فى حاجة الى مظهر من مظاهر الجنون كى يبرر تصرفاته ٠

لا ، ليس هذا جنونا ٠ لقد اراد شيئا وكان يهدف الى شىء ٠ انه قال لا وجود للشيخ نور الدين ٠ ربما كان ذلك لاننى لم أعد ذلك الذى كنته من قبل ؟ أو ربما لاننى لم ارد الضربة ؟ أو لأننى لم افعـــل شيئا توجب الرجولة فعله ٠ وها تبين أنه لا وجود لى ٠

ـ ما رأيك فيه ؟

وجهت هذا السؤال لحسن ، دون رغبة منى أن أكشف عن مدى ألمى لعدم ارادته أن يرانى ، ودون ان افكر أننى فى الحقيقة أكشف نفسى بذلك الذى لا أستطيع نسيانه ٠ ولحسن الحظ أن حسن أراد مجاملتى وقام بذلك فى ارتباك ٠ وقد عرفت من كلماته الـكثيرة التى كان يلقيها ومن حديثه الذى اتسم بطابع الجد ٠

ـ لا أدرى ٠ انه عادل وصادق ٠ غير أنه يغلو مجاوزا بذلك الحدود، وقد أصبح ذلك متعة له ـ كما يقول ـ وعيبا كذلك ٠ انه لا يدافع عن

العدالة ، وانما يهاجم بها ، فقد أصبحت سلاحا له وليست غاية • ولعله لا يدرى أنه أصبح لسان الآخرين الذين يلوذون بالصمت ، يحمل كلمتهم غير المنطوقة ، ويجتاحه شعور بالرضا لجراته على مالا يجرؤ عليه الآخرون، انهم يعرفونه حيث أصبح حاجتهم الشوهاء للحديث ، ولو كانت لديهم الجراة لارضاء انفسهم بقول ما يريدون لما كانت لهم حاجة فى وجوده • انه طبيعى لا يتحاشى القول لانه يملك ســـندا يعتمد عليه ، وغير ملزم ويتسم بالمبالغة لأنه وحيد • ومن أجل هذا يرى خشنا ، ومن اجله يتجاوز الحدود • لقد اقنع نفسه بانه صار ضمير المدينة ، وكان فقره ثمنا لهذا الرضا • ربما يكون أحيانا كالريح الرخاء ينشر البهجة بين الناس ، ولكنى اعتقد أنه لايقدم خدمات جليلة لصالح الصدق أو العدالة • انهما يبدوان فى نظره من الامور الشاذة الغريبة • ويكادان يشبهان الثار وشدة الارضاء ، ولا يشبهان فى شىء هدفا كريما يجب على الناس أن يســـعوا لتحقيقه • لقد أصبح عدوا لنفسه ، اذ تحول الى النقيض لكل ما كان يتمنى فى يوم أن يصل اليه فى صدق واخلاص • وربما يصدر منه ما يكون انذارا ولكنه ليس بحال هدى • لأننا لو فعلنا جميعا وفكرنا مثلما يفعل هو ويفكر ، ولو تحدثنا بصراحة وخشـــونة عن كل عيب لدى الآخرين ، ولو تصدينا لاولئك الذين لا ينالون اعجـــابنا ، ولو طلبنا من الناس أن يعيشوا على النهج الذى نعتقده ، لأصبح العالم كله دارا للجنون اعظم مما هى عليه الآن • ان القسوة باسم الكرامة شىء مخيف ، ولو قمنا بها على هذا النحو لقيدت أرجلنا وايدينا ولقتلتنا بالنفاق • وأفضل منهـــا تلك التى تعتمد على القوة ، اذ باستطاعتنا على الأقل أن نكرهها • وهكذا نعزل أنفسنا ونحتفظ فى داخلنا بالأمل •

لم أكن افكر هل كان صحيحا ذلك الذى كان يتحـــدث به ، كما لم أكن افكر هل كان يتحدث فى صدق • لقد كنت اعرف أنه يقف الى جانبى وانه يحمينى من هجـــوم ظالم : لقد أحس بمـــا يثير فى القلق ويعذبنى • لم يكن فى استطاعته أن يهدئنى هكذا بهـــذه الدرجة ، لا بالسخرية ولا بالشدة ولا بالرفض التام ، مثل ما هدأنى بهـــذه الافعال التى استخدمها فى حديثه والتى نسقها فى روعة ومهارة ليحسن وقعها فى اذنى • لقد بلغت هذه الأفعال فى نفسى منزلة الاقناع ، لانها لم تكن شيئا صغيرا وبقى لى حق أن أكمل الافكار وأدافـــع عن نفسى • انه رجل مهرج ! ــ هكذا كنت اعتقد فى غضب ــ انه كلب ضال فى الطرق ! لقد وقف فوق العالم كله واخذ يبصق على الجميع دون تفرقة ، على المذنبين

وغيرهم ، على المخطئين والضحايا • ماذا يعرف هو عنى لكى يكون فى استطاعته أن يصدر حكما على !

ولكن غضبى لم يستمر طويلا ، كما أنه لم يكن شديدا • لقد نسيت منذ وقت قريب على خوجه ، ولم يبق فى نفسى سوى حرارة طيبة لكلمات حسن • لم اعد افكر فيما قاله ، أعرف أنه كان جميلا واننى كنت راضيا• لقد مد الى يده للمرة الثانية ودافع عنى • وهذا هو أهم بكثير من حقد لئيم لم يعهد لدى الآخرين صدر من ذلك الشاذ الذى يدعى على خوجه •

وبينما كان حسن يتحدث الى سنان الدين يوسف عن هذا اللقاء وهذا الحديث كنت أفكر كم كان يبدو رجلا صالحا على جانب من المراعاة والتهذيب • وكم كنت سعيد الحظ بحصولى عليه • لقد كانا يضحكان ، كان سنان الدين يضحك فى هدوء بعينيه الصافيتين وجوانب شفتيه الدقيقتين ، وكان حسن يضحك فى قهقهة عالية ، مبديا أسنانه التى اصطفت وكأنها لؤلؤ قد نظم ، كما كانا يتحدثان دون أن يجهدا نفسيهما كى يظهرا بمظهر العاقلين أو الجادين ، فقد بدآ متهورين كطفلين متآلفين، كصديقين يتمتع احدهما بالآخر •

كان حسن يبالغ محرفا كلمات على خوجه • وقد ذكر كيف أن على خوجه لم يرد أن يحضر لانه يخاف من الحاج سنان الدين • فقد بلغ اهتمام هذا الحاج بالسجناء حد الهواية والمتعة كما هو الشأن فى الصيد والقمار والحب بالنسبة للبعض من الآخرين • فلو حدث أن أصبح العالم خلوا من السجناء لكان فى ذلك الحزن الشديد للحاج سنان الدين ، اذ فيم اذ ذاك يرضى عاطفة احسانه وكرمه ؟ انه لا يستطيع أن يبقى بدونهم• ولو زال السجناء لظل تعيسا وضائعـا ، ولذهب الى السلطات يرجوها قائلا : لا تهلكونى • ضعوا فى السجن أحدا ! ماذا سأفعل بدون السجناء؟ انه اذا لم يكن هناك من يستحق ليسجن فسيقترح هو أن يزج بأصدقائه فى السجن لكى يستطيع أن يشغل نفسه بهم • واذ ذاك ستكون هذه أفضل طريقة لاظهار حبه نحوهم •

ـ من المرجح أنك ستقدم على دخوله ارضاء لى •

بهذا نطق العجوز ضاحكا ومستقبلا مزاح حسن ، غير مبال بذلك الذى قاله الرجل فى الأصل عنه • وعلى الفور حول مجرى الحديث الى حسن قائلا :

ـ وماذا قال عنك ؟ الم يقل انك عاجز عن ان تقوم بالخير وبالشر كذلك ؟ الم يكن هكذا يراك كما يخيل الى ؟

ـ فى الحق انه يرانى رجلا سـيئا لا يجلب لنفسه نفعا ، ورجلا صالحا مادمت لا أحمل مسئولية ما • اننى فى نظره أشبه بملك مخطىء، وعذراء فاجرة ، ومحتال شريف •

ـ انك رجل فاجر وكريم ، هادىء ومندفع ، حصيف وعنيد • انك تستطيع ان تكون كل شىء وأن تكون لا شىء •

ـ اراك لا تقدرنى كثيرا •

فأجاب وقد تنضر وجهه :

ـ لا ، لا اقدرك •

كانت نظرته تقول : لا اقدرك بل أحبك •

كان الجو هادئا ولطيفا فى هـذا الدكان النظيف ، وكانت الطراوة تنبعث من ارضيته الخشبية التى غسلت منذ قليل ولم تجف بعد ، وكانت تنفذ خلال الفتحة الحجرية للبـاب المفتـوح حرارة خفيفة يولدها نهار الصيف ، كما كانت تصل الى الأذن دقات صـغيرة متتـابعة تصدرها « شواكيش » الصاغة ، اشبه بما يصدر من الاطفـال فى لعبهم أو بما يحسه النائمون فى احلامهم • وأمام عينى كان يظهر ظلام خفيف من سقف الدكان الحجرى ، كان يبدو مخضرا اذ كان ظلا لشجرة كثيفة قامت على الزقاق ، كما كان يبدو أثرا لانعكاس مياه عميقة الغور • كنت أجد فى نفسى شعورا بالبهجة والرضا والاطمئنان • وبينما كان حسن يحكى عن على خوجه كنت اعرف أنه لن يذكر شـيئا عنى ، وما كان هنـاك خوف يراودنى من خيانته أو عدم حذره • كان الهدوء يساقط على كما تتساقط الذرات الملقحة للنبات ، أو كما تتساقط قطرات الندى الصيفى من أجل هذين الرجلين • لقد كانا شجرتين من ذرات الظلال ، كما كانا نبعين قد صفت فيهما المياه • أيكون هذا خداعا أم أن ذكرياتى تتحول الى رائحة • ولكن يخيل الى أننى كنت اشعر بطراوة ورائحة خفيفة كانت تهب منهما • لا أدرى نوعها ، أكانت تلك التى تصدر عن أشجار الصنوبر ، عن عشب الغابات ، عن نسيم الربيع ، عن صباح يوم العيد ، عن شىء طاهر عزيز •

لم يحدث منذ زمن طويل ان شعرت بمثل هذه الطمأنينة التى منحنى اياها هذان الرجلان •

ان صفاءهما الذى يشبه صفاء القمر ، وصداقتهما التى تقوم دون صياح وتهليل ودون كلمات موشاة تنطلق معبرة عنها ، ورضاءهما من أجل ذلك الذى يعرفه كل عن الآخر ـ قد أجبرنى على أن أشاركهما الابتسام ، دون أن يكون لذلك مبرر من العقل ، مذكيا فى نفسى شعورا بالاحسان ربما كان غافيا أو مرغوبا ، وذلك كما يحدث عندما تقع أنظارنا على الأطفال • لقد أصبحت شفافا ، خفيفا ، دون ما أثر من معاناة شريرة كانت تعذبنى منذ وقت طويل •

ـ هيا أزوجك لكى تهدأ •

قالها العجوز فى عطف وعتاب • ومن المؤكد ان قوله هذا لم يكن لأول المرات • ثم أردف يقول : هيا أيها الرجل الشرير !

ـ لم العجلة أيها الحاج • اننى لم أكمل الخمسين من عمرى بعد • وما زالت تنتظرنى طرق عديدة أشد اليها الرحال •

ـ الا يكفى ما قمت به الى الآن أيها المتشرد ! ان أبناءنا يقيمون بجانبنا طالما نكون اقوياء ، ويتركوننا عندما نحس بحاجتنا اليهم •

ـ اترك الابناء ليسيروا فى طريقهم •

ـ ساتركهم أيها المتشرد • أليس فى امكانى على الأقل أن أحزن ؟

وعندئذ كففت عن الابتسام • كنت أعرف أن ابنه يعيش فى استانبول • وربما من أجله أخذ يشغل نفسه بالسجناء ، لكى ينسى حزنه لعدم رؤيته اياه منذ سنين • وربما أيضا من أجل هذا تعلق بحسن ، اذ أنه يذكره بهذا الابن •

التفت حسن نحوى ، وأخذ يعاتب العجوز فى مرح قائلا :

ـ ها هو يحزن لان ابنه تخرج فى المدارس ولم يبق هنا ليقوم بصياغة ما يحمله له الآخرون من ذهب ! ولأنه يعيش فى استانبول ولا يعيش هنا فى هذه القصبة المتعفنة ! ولأنه يرسل اليه رسائله يضمنها عبارات الاحترام له ، ولا يطلب منه النقود ليصرفها فى لعب القمار ومعاشرة البغايا • قل له يا شيخ نور الدين كى لا يلقى بالتبعة على نفسه •

لقد ذهب انشراحى فجأة • فان ذلك الذى رد به سنان الدين عليه أو الذى كان فى الامكان ان يرد به ، وهو أن السعادة فى الغربة أمر مشكوك فيه ، وأن الحب أهم من كل شىء ، وكذا حرارة الحياة بين أولئك

الذين على استعداد لان يقدموا لك حتى دماءهم ـ كان في استطاعته أن يذكرني بأبي وأخي • نعم كان باستطاعته ولكن ذلك لم يكن • ان هـذا الالتفات الذي حدث من حسن نحوي ، والذي كان لأول مرة في الحديث كله ودون ما حاجة اليه ، وذلك من أجـل مراعاته لي كي لا يتركني على هامش الحديث ـ قد اشـعرني بأن الموقف لا يتطلب وجودي وأنه يكفي وجود أحدهما مع الآخر •

لقد كنت واثقا منذ قليل أن حسن لن يذكر الظلم الذي ألحقه بي على خوجه • فقد كنت أعرف أنه سيحميني • وقد أدركت الآن انه لم يكن في حديثهما مكان لي • لقد أيقظني من ضلالي وردني الى صوابي ما ابداه من ذلك الاهتمام المتأخر الذي أفسد كل ما كان يراودني من احساس •

من الصعب أن اجرد نفسي منَ ذلك الرضا الذي كان يملؤني ، وأن انحي تلك الذكرى الجميلة التي أردت الاحتفاظ بهـا ، ولكني ما كنت استطيع أن أقوم باخماد شكي • لقد كرر حسـن كلمات علي خوجـه عن نفسه وعن الحاج سنان الدين ، وربما كررها بسخرية أشد ممـا كانت عليه في الواقع • وأما كلماته عني فقد سكت عنها • أكان ذلك من أجل مراعاته اياي فحسب ؟
لماذا لم يذكرها ؟ من أي شيء كان يود أن يحفظني • اذا كان يرى حقا أنها من قبيل الجنون ؟ انه لم يكن يراها كذلك • وها من أجل ذلك قد سكت عنها • انني أعرف تماما لماذا لم يرد علي خوجه أن يراني •• انني بالنسبة له وبالنسبة للقصبة لست موجودا على الاطلاق • لا صوت ولا صورة ، هكذا قال • لا وجود له ، لا وجود للشيخ نور الدين ، فقد مات شرفه الانساني • ان ذلك الذي بقي لا يعد سـوى هيكل من ذلك الرجل السـابق • واذا لم يكن يراها حقيقة أفما كان في استطاعته أن يوردها على طريق المزاح كما أورد تلك التي تتعلق به وبسنان الدين ؟ لعله كان يود ألا يمس حدة شـعوري • واذا كان الأمر هكذا فانني قد ربحت ، وان كان لي في ذلك شيء من الألم •

وبينما كنت أحاول أن اتحرر من قيـود كانت تضغط على قلبي ، سامعا ذلك الذي كانا يتحدثان عنه ، رأيت كيف مر الرجل في الزقاق ، ذلك الذي من أجله تطيرت افكاري كلها فجأة • فقد نسيت سخرية علي خوجه وصمت حسن عن كل شيء ، ذلك الصمت الذي لا يمكن تفسيره • لقد مر بالدكان اسحاق المتشرد ! لاحظت كل ماهو خاص به ، مشيته ، انتصاب قامته ، خطواته الهادئة ، جرأته !

ـلاقلت شيئا كي ابرر به خروجي المفاجيء ، ثم انطلقت في عجلة الى الزقاق ٠

ولكن لم يكن هناك اسحاق ٠ أسرعت الى زقاق آخر باحثا عنه ـ من أين جاء الى القصبة ؟ في وسط النهار ، دون أن يغير ملابسه وشكله. دون أن يكون منه اسراع في السير ٠ كيـــف يجرؤ على ذلك ، عن أي شيء يبحث ؟

ان وجهــه يمثل أمام عيني ، ذلك الوجه الذي رؤي من خــلال ظلام الدكان ، متلألئا وواضحا ، مثلما كان في تلك الليلة في حديقة التكية ، انه هو ، وكلما مر الوقت تاكد لي أنه هو ، كنت أتعرف على خطوط وجهه في هذه المرة ؛ انه هو ، اسحاق ٠

ودون أن انكر لماذا أنا في حاجة اليه ، ولماذا يهمني أن أراه ـ كنت أسير وراءه ، ويا للأسف اذ النـاس لا يتركون رائحة وراءهم كما يترك الظربان ، ويا للأسف أيضا لأن أعيننا لا تسـتطيع أن تخترق الجدران عندما تصبح رغبتنا حمقاء مجنونة ، وقد رايت أن أناديه باسمه ، ولكنه ليس له اسم ، لماذا ظهرت يا اسحاق ، لا ادرى احسن ظهـورك أم لا ، ولكنه ضروري ، فقد قال : انني سأحضر ذات مرة ، وها هو قد حضر ، وكانت هذه المرة هي الآن ، وكل شيء قـد انبعث في نفسي مرة ثانية ـ الألم ، العذاب ٠ وعاد مثلما كان ، وكنت أظن أنه مات وتسرب اليه العفن. كما ظننت أنه غرق في قاع نفسي ، وأصبح بعيدا عن امكان تناولي ، وهاهو ليس كذلك ٠ اسـحاق ، اين أنت ؟ اأنت فكرة ، اأنت بذرة ، أم أنت زهرة قلقي ؟ لقد رايته تلك الليلة ، في الحديقة ، ورأيته منذ لحظات في الزقاق ٠ انه ليس شبحا ، ولكنني لا أصل اليه ٠

عدت الى الدكان منهزما ٠

ونظر الى حسن دون أن يلقي سؤالا ٠

وقلت :

ـ لقد خيل الى أن احد اصدقائي مر في الزقاق ٠

ولحسن الحظ لم يريا شيئا من ارتباكي ، وما من شك في أنهما قد انهيا كل ما يتعلق بهما من امورهما الخاصة ، في الفترة التي كنت أبحث فيها عن اسحاق ، ثم شرعا في حديث يختلف عن حديثهما السابق كان الصوت فيه مغايرا والكلمات من نوع آخر ٠ ان الأمر سواء بالنسبة لي ،

فقد أصبحت أشمئز من صداقتهما . لقد بدت أشبه بمزاح او بكذب جميل . ولا شك أن هذا الذي يراودني الآن مما هو خاص بي بعد أكثر جدية واعظم اهمية .

ومرة أخرى فصلت نفسي عن العالم ، وفي لحظة سد أمامي الطريق الذي كان يقودني الى الناس ، وأخذت أفكر في علي خوجه ، في اسحاق ، في نفسي ، وقد انتابتني الحيرة وغشاني الظلام ..

لم يكن يهمني حديثهما ، وعلى الرغم من ذلك كنت اسمعه دون فهم لمعناه .

ـ لا ـ قالها حسن يرفض شيئا ـ لا وقت لدي ولا رغبة لي .

ـ لقد ظننت انك رجل شجاع .

ـ متى قلت انني رجل شجاع ؟ عبثا تحاول بحثك لي ودفعك اياي . لا أريد أن اتدخل في ذلك . ومن الأفضل الا تتدخل انت كذلك .

ـ انك مندفع ، عنيد ، لست بشيء .

بهذا أنهى العجوز حديثه في هدوء .

ولكن هذا اظهر انه لم يعد هناك حب .

هكذا افضل ، ذلك ما رأته نفسي المريضة ، مبررا دون وعي ما كان مني من انفصال . هكذا أفضل ، دون كلمات حلوة ، دون ابتسامة فارغة ، دون خداع . فكل صداقة تظل جميلة ما دمنا لا نبغي من ورائها شيئا ، ومن الخطر أن نقوم بوضع الأصدقاء موضع الاختبار . ان الانسان يثق في نفسه فحسب .

وبينما كنت هكذا اطعم بتدنيس الآخرين قلقي ، دون ان يكون ذلك عن رضى مني أو استجابة لحقد ـ أرخى الظلام سدوله على الدكان ، وأصبحت الظلال الزرقاء سوداء الاهاب .

استدرت ، فاذا المسلم يقف على عتبة الباب .

وسمعت الحاج سنان يدعوه دون أن يقف قائلا :

ـ ادخل .

وأما حسن فقد نهض في هدوء وبطء وأشار الى مكان ليجلس .

انتحيت جانبا دون أن يكون هناك ضرورة لذلك ، كاشفا بذلك عن ارتباكي وتحيري . لقد رأيته عن قرب للمرة الأولى بعد موت هارون . لم أكن أدري كيف سيتم هذا اللقاء ، كما لم أكن أعرف كيف يكون الآن وأنا أختلس النظر اليه في اضـــطراب مرددا بصري بين حسن والحاج سنان الدين ، ويدعي كذلك ، وقد تملكتني الحيرة وانتابني الذعر لا أمامه بل أمام نفسي ، اذ لم أكن أعرف ماذا سيحدث ، هل ستندفعني نحوه اصابتي في لحظة من أشـــد اللحظات كهذه وبطريقة من أعنف الطرق ، أو أن الخوف سوف يجبرني على أن ابتسم له في خضوع على الرغم من كل ما كنت أشعر به ، الأمر الذي لو فعلته لأحسست من أجله باهانتي لنفسي على مدى الحياة . بدأت أفقد ثباتي ، وأحس باضطراب غدتي الدرقية وبالدم يندفع في شدة الى قلبي . وتناولت علبة التبغ التي قدمها الى حسن (كيف أحس بقلقي ؟) ، وبصعوبة أخذت أفتح غطاءها ، وأتناول بيد مضطربة جزءا مما بها من دخان أصفر أخذت تتساقط فتات منه في حجري . واسترد حسن العلبة وملأ منها غليونا قدمه الى ، وأخذت أدخن ، جاذبا أنفاسا عميقة من دخان شديد ، وللمرة الأولى في حياتي كنت أمسك احدى يدي بالأخرى ، وأخذت أنتظر أن ينظر الى المسلم ، أن يقول لي شيئا ، وقد أحســـت أنني أتصبب عرقا .

قال للحاج سنان الدين انه لن يجلس وذكر أنه عرج على الدكان مصادفة ، فقد كان يمر بهذه الناحية وخطر بباله أن يسأله شيئا .

(لقد هدأ تدفق الدم وصار تنفسي أيسر من ذي قبل ، وكنت أنظر اليه مطرقا ببصري ورأيته أشد اكفهرارا وأكثر قبحا مما كان حينذاك ، وان كنت لا أدري ما اذا كان قد خطر ببالي مرة أنه مكفهر وقبيح) .

لم يكن ما وجهه اليه من سؤال يدخل في اختصاصه . غير أنهم قالوا له ان الحاج سنان الدين لا يريد أن يدفع ضريبة سفر الامداد أو ما يسمى بالمعونة الحربية ، تلك التي صدر بها القرار السلطاني ، الأمر الذي جعل الآخرون يترددون في دفعها ، فاذا كان الرجال الشرفاء مثله ، مثل الحاج سنان الدين ، لا يقومون بأداء واجبهم فماذا يمكن أن ينتظر من الآخرين ، أصحاب البطون والمتشـــدقين بالكلمات ، هؤلاء الذين لا يهمهم أمر الوطن ولا الدين ، والذين لا يبالون بهلاك كل شيء بشرط أن تبقى نقودهم في خزائنهم دون أن يمسها أحد . انه يأمل أن يكون ما حدث من جانب سنان الدين قد حدث عن غير قصد ، بأن يكون قد

نسيه أو أهمله ، وأنه سوف يقوم بأداء هذا الواجب في أسرع وقت ممكن، على الفور ، لكي لا تثار ضجة لا مبرر لها ولن تعود بالنفع على أحد •

ـ لم يحدث هذا عن غير قصد •

بهذا أجاب الحاج سنان الدين في ثبات ، دون خوف ودون عناد ، بعد أن انتظر في صبر ان يفرغ المسلم كل ما عنده ، ثم واصل يقول :

ـ لم يكن عن غيرقصد، ولم أكن قد نسيت أو أهملت ، بل كان ذلك لأنني لا أريد أن أدفع ما ليس بحق • ان الثورة في وادي «السافا» ليست حربا • لماذا اذن تدفع المساعدة الحربية ؟ وأما القرار السلطاني الذي تذكره فلا يتعلق بهذا الشأن ، ويجب انتظار رد الباب العالي على الطلب الذي تقدم به أعيان القوم ، وكلهم يعتقدون هكذا ، كل يعتقد ذلك في قرارة نفسه وليس أحد تابعا لأحد في هـذا ، فاذا جاء القرار السلطاني ردا على الطلب بالدفع فسندفع على الفور ملتزمين بما جاء به •

ـ ان الحاج سنان الدين أنما يريد أن يقول ان أكثر الأمور ضمانا هي التي نقوم بها تلبية لرغبة السلطان واطاعة لأوامره ، واننا اذا دفعنا الآن نكون قد فعلنا ذلك بارادتنا نحن كمـا نكون قد خالفنا القانون ، والارادة الشخصية ومخالفة القانون يخلقان الفوضى ويشيعان الفساد •

بهذا تدخل حسن وأمارات الجد تلوح على وجهه ، وقد خطا من الجانب وساعداه متقابلان على صدره ووقف فاصلا بينهما وبدا عليه استعداد ودي لأن يوضـح للمسلم في شيء من التفصيل كل ما لم يكن قد فهمه •

ولكن المسلم لم يكن يحب المزاح ، كما ان هذا الايضاح الذي بدا ساذجا في مظهره لم يسبب له شيئا من الازعاج • ودون أن يظهر نفاد صبره من أجل هذا التدخل ، ودون أن يظهر غضبه من أجل سـخرية ظاهرة ، ودون ان يظهر حتى احتقاره الذي لا ينبغي من أجل منصبه ان يبحث له عن سـبب ـ نظر الى حسـن بعينيه الثابتتين الثقيلتين اللتين لا يستطيع أحد حتى زوجته أن يقول انهما مستأنستان ، ثم التفت نحو الحاج سنان الدين قائلا :

ـ كما تريد • لا يهمني ، غير أنني أظن أنه في بعض الأحيان يكون الدفع أرخص •

ـ لا يهمني كونه رخيصا ، بل يهمني أعدل هو •

ـ ان العدل فى بعض الأحيان يكلف غاليا ٠

ـ والظلم كذلك ٠

نظر احدهما الى الآخر نظرة طويلة ، لم أكن أرى نظرة المسلم ، ولكننى كنت اعرف كيف تبدو ، وأما العجوز فقد كان يبتسم فى أدب ولطف ٠

استدار المسلم وخرج من الدكان ٠

لقد كنت أتمنى أن اخرج فى أسرع وقت ممكن الى الزقاق ٠ فان الهواء الذى كان يزفره سوف يختفي ، كما أن الكلمات التى سوف يطلقانها سخرية به سوف تذهلنى ٠ ولكن هؤلاء الرجال كانوا يفاجئوننى على الدوام ٠

ـ و ٠٠ ؟ هل غيرت رأيك ؟

هكذا سأل العجوز دون أن ينظر وراء المسلم ٠

ـ لا ٠

ـ ان كلمة حسن لا تراجع مثلما تراجع كلمة الامبراطور ٠ اننى لا اظفر اليوم بنجاح فى شىء ما ٠

ضحك العجوز كما لو كان رفض حسن قد أثار سروره ، وبدأ يأخذ فى توديعه :

ـ متى ستأتى مرة أخرى ؟ اننى سوف أبدأ أن اكره أعمالى وأعمال الآخرين كذلك ، اذ أنها تفصلنى عن الأصدقاء ٠

لم ينطقا بكلمة واحدة عن المسلم بعد أن خرج ! كما لو لم يكن قد حضر الى الدكان ، كما لو كان فقير قد مر يطلب احسانا ، فقد نسياه فور تخطيه عتبة الدكان ٠

تملكنى العجب ٠ اى تكبر يكون هذا ، اسوقى أم ارستوقراطى ذلك الذى يرفض على التمام من يرى أهلا للاحتقار ؟ كم من السنوات وكم من الفصول يجب ان تمر كى تخمد رغبة الانسان فى السخرية ، فى البصق ، فى السب ؟ لم أرانهما كانا يفعلان ذلك عن قصد أو انهما كانا يغالبان انفسهما ٠ ومهما يكن من شىء فقد نحياه عنهما فى يسر وبساطة ٠

كادت فعلتهما توخز نفسي · كيف يتسنى اغفال هذا الرجل هكذا بسهولة ؟ لابد أن ينال قدرا أكبر من الاهتمام ، وان يعمل لمثله حساب ـ ليس من الممكن نسيانه ، ليس من الممكن محوه ·

سألت حسن ونحن نمر بالزقاق ·

ـ كيف حدث انكما لم تنطقا بكلمة عن المسلم اثر خروجه ؟

ـ ماذا يوجد كي نقوله عنه ؟

ـ انه كان يهدد ويشتم ·

ـ انه يستطيع أن يظلم ، أما الشتم فليس باستطاعته · يجب ان تتقيه كما تتقي النار ، كما تتقي خطورة ممكنة · هذا كل ما في الأمر ·

ـ انك تتحدث هكذا لأنه لم يوقع بك ظلما ·

ـ ربما · وأما أنت فقد كان يعتريك التوتر · هل داخلك الخوف ؟ لقد كان بعض التبغ يتساقط من بين أصابعك ·

ـ لم يكن بي خوف ·

نظر الي ولعل صوتي قد فاجأه :

ـ لم يكن بي خوف · وانما مر بذاكرتي كل شيء ·

مر بذاكرتي كل شيء ، والله اعلم كم تكون هذه المرة ، ولكن كان ذلك بشكل مخالف لما كان من قبل · لقد انتابني التوتر عندما دخل ، وحينما كان يتحدث مع الحاج سنان الدين لم استطع أن اعين ولا ان أوقف أيا من افكاري ، فقد كانت تتسابق غدوا ورواحا في حلبة مخي وقد انتابها الذعر وتملكتها الحيرة وأخذت في التشابك ، وبدت حارة من ذكرياتي ، من جرحي ، من غضبي ، من الملي ، الى أن مسني بنظرته الباردة المصوبة نحوي ، تلك النظرة التي أثقلها الحقد والاحتقار ، والتي كانت تختلف عن التي ينظر بها اليهما · واذ ذاك في تلك اللحظة القصيرة، عندما تقابلت نظرة كل منا بالأخرى أشبه بتقابل طرفي سكين حاد ، كان في امكان الخوف أن يتغلب علي ، وحقا كان قد ظهر ، وفجأة وجدته يغمرني كما يغمر الفيضان ما يصادفه من الأرض ·

كنت أمر من قبل بلحظات عسيرة كتلك ، وكنت أشهد صراعا يدور في نفسي مع آراء متناقضة ، باذلا جهدي من أجل المسالمة بين

طغيان الشهوة وتبصر العقل ، ولكنى لا أدرى أحدث ان تحولت مرة فى حياتى بهذه الدرجة مثلما تحولت فى تلك اللحظة الى حلبة تتصارع فيها الارادات المتناقضة ٠٠ وأن هاجمنى من قبل عدد من أسراب الرغبات الباغتة تحاول اختراق خطوطى الدفاعية كهذا العدد الذى يهاجمنى الآن ، وكان يحول بينه وبين انطلاقه جبنى وخوفى ٠ لقد كان يصيح فى داخلى الغضب المسعور ، قائلا لقد قتلت أخى وجرحتنى بل قمت باهلاكى ٠ وفى الوقت نفسه كنت اعرف انه ليس من صالحى ان يرانى المسلم مع هذين الرجلين ، اللذين يحتقرانه ويقاومانه ٠ وهكذا ، دون قصد ، ودون ارادة ، فى موقف بدا متناقضا ، كنت ضده وكنت أود الا يعرف هو ذلك ٠

ويبدو أن هذا الخوف بالذات كان سببا للفصل فى الأمر ٠ لقد انتزعه من نفسى هذا الخجل الذى اصابنى ، ما اصعبه وما امره ، ذلك الخجل الذى تنبعث منه الشـجاعة ٠ لقد هدأت اثارتى كما هدأ الأزيز الأحمق ينبعث من داخلى ، ولم تعد أفكارى تتسـابق عبر نفسى مثلما تتسابق الطيور فوق منطقة شب فيها الحريق ، وادركت اذ ذاك فكرة واحدة فقط ، لقد سـادنى جو من الطمأنينة كانت تغنى فيه الملائكة ، ملائكة الشر ، مغتبطة مهللة ٠

وكانت هذه ساعة سارة لتحولى ٠

أخذت أنظر بعد ذلك ـ وقد كدت أشعر أننى مضاء بنار جديدة من داخلى ، فقد كنت أنظر الى قفاه القوى ، والى كتفيه المقوستين قليلا ، والى صورته المضغوطة ٠ وكان الأمر بالنسبة لى سـواء ، هل سـيدير بصره نحوى ، كما كان الأمر بالنسبة لى سواء ، هل سينظر الى بابتسامة أو بشىء من الاحتقار يمليه عليه حقده ، ان الأمر سواء ، انه لى ، احتاج اليه ، فقد ربطت نفسى به بكرهى اياه ٠

اننى أكرهك ، بهذا كنت أهمس فى حماس محولا نظرى عنه ، اننى أكرهه ، هكذا كنت أعتقد وأنا أنظر اليه ٠ أكره ، أكره ، كانت تكفينى هذه الكلمة الوحيدة ، لم استطع ان اصل بتكرارها الى العدد الذى أرغبه، لقد كانت بالنسبة لى لغة شابة وحديثه ، غزيرة وأليمة ، مثل شـهوة الحب ٠ هو ، هكذا كنت اقول فى نفسى ، دون أن أعطيه الفرصة كى يبتعد عنى ، ودون ان أسمح لنفسى أن افقده ٠ هو ، هكذا كنت أفكر فيه كما يفكر المحب فى حبيبته ٠ وكنت احيانا أسمح له بأن يبتعد عنى

قليلا ، كما يحدث مع الوحش البرى عند المطاردة • لكى أستطيع أن اقتفى أثره ، واحيانا كنت أجعله قريبا منى ، لكى يكون نصب عينى على الدوام • كل شىء فى داخلى كان يسوده عدم النظام وتنتابه الحيرة ويرى مبعثرا هنا وهناك • وجميع ما كان يسعى الى الخروج ويبحث عن الحل قد هدأ وسكن واخذ يستجمع قوته تلك التى كانت تتزايد فى استمرار •

لقد وجد قلبى سنده •

اننى أكرهه • بهذا كنت اهمس فى حماس وأنا أسير فى الزقاق • أكرهه ، هكذا كنت أظن وأنا أصلى صلاة العشا ••• أكرهه • كنت أكون قد نطقتها بصوت عالٍ وأنا ادخل التكية •

وعندما استيقظت فى الصباح كانت الكراهية تنتظر رافعة الرأس كتلك الأفعى التى تتلوى فى ثنايا مخى •

لن يتحقق انفصال بينى وبين الكراهية فيما بعد • فانا لها ، وهى لى • وبها صار للحياة معنى •

كان يطيب لى بعض الشىء فى البداية ما كان يعترينى من حماس حالم ، كما يطيب للانســان تلك اللحظات الاولى من الحمى ، فقد كان يكفينى ذلك الحب الأسود العنيف ، وقد بدا لى اشبه شىء بالسعادة •

لقد أصبحت أكثر ثراء ، واقدر تحديدا ، واعظم كرما ، وافضل خلقا ، وربما اقوى عقلا كذلك • ان العالم الذى خرج عن ركيزته قد عاد واستقر فيها ، فقد اخذت اعمل ثانية من اجل أن تقوم العلاقات بينى وبين كل شىء ، كما اخذت أتحرر مما الم بى من الفزع المظلم من أجل حياة لا معنى لها ، وكان النظام المرغوب يبزغ متلألئا أمامى •

تراجعى أيتها الذكرى المريضة لأيام طفولتى ، ابتعد عنى أيها الضعف الزلج ، تراجع أيها الخوف المتردد • لم أعد بعد شاة منسلخة أجبرتها المطاردة على الدخول فى غابة الأشواق ، فليس من شان تفكيرى الآن أن يتحسس فى الظلام مسلوب البصر • لقد اصبح قلبى كاحدى هذه القدور المتوهجة التى يطبخ فيها من الأشربة ما يذهب بالعقول •

كنت انظر الى اعين كل شىء فى هــدوء وجراة ، دون أن أخشى شيئا • وكنت اغشى كل مكان يغلب على الظن أن ارى المسلم فيه ، او المح على الأقل كورعمامته ، كما كنت انتظر فى الزقاق طلعة القاضى كى أخطو وراءه ناظرا الى ظهره المتضائل المحدودب ثم آخذ فى الابتعاد منفصلا

عنه وأنا منهــك بتأثير موجدتي عليه • ولو كانت للكراهية رائحة لأمكن أن يشم من ورائي رائحة الدم • ولو كان لهــا لون لتركت قدماي من خلفها آثارا سوداء • ولو كان في الامكان أن تشتعل لاندلعت ألسـنة اللهب من جميع فتحاتي •

انني أعرف كيف ولدت ، وعندما اشتدت وقويت لم تكن هناك حاجة لتبريرها • لقد أصبحت بنفسها سببا وغاية • ولكنني كنت أرغب الا تنسى بداياتها ، لكي لا تفقد قوتها وحرارتها • كما كنت أرغب الا تغفل أولئك الذين يدينون لها بكل شيء وألا تصبح بحيث تعم الجميع • فلتبق اذن قاصرة على أولئك المذكورين فقط •

ذهبت ثانية الى عبد الله أفندى ، الى شيخ التكية المولوية ، ورجوته كي يساعدنى في العثور على قبر أخي • قلت له انني قصدته لأنني لا أجرؤ على أن أطلب ذلك من أولئك الذين في أيديهم ان يرحموا وإلا يرحموا ، اذ لو رفضوا مطلبي لأصبحت جميع الأبواب مغلقة امامي ، ومن أجل ذلك وجدتني مضطرا أن أقدم من ينوب عني في هذه المهمة ، وسأظل محتفظا بالأمل طالما وجدت من هو اهل لأن ينوب • وبينت أنني قصدته اولا ، ولي أمل في احسانه واحتساء بعلو منزلته ، اذ ان منزلتي لم تعد عالية ، والله وحده يعلم انني لم أكن متسببا في فقدها • ولو حدث أن ساعد لكان له على دين عظيم ، فقد رغبت ان اقوم بدفن أخي وفق شريعة الله كي تنعم بالهدوء في عالمها الأخير •

لم يرفضني ، ولكن بداله انني أصبحت من أجل مصيبتي أقل منزلة وأضعف علما • وتحدث قائلا :

ـ ان روح أخيك قد هدأت • ولم تعد الآن من عالم الأناس ، بل انتقلت الى عالم آخر ، عالم لا يعرف الحزن ولا القلق ولا الكراهية •

ـ ولكن روحي ما زالت روح انسان

ـ أتفعل ذلك اذن من أجل نفسك ؟

ـ من اجله ومن أجل نفسي •

ـ أفي نفسك حزن أم كراهية ؟ اياك والكراهية ، لكيلا ترتكب ذنبا نحو نفســـك ونحو الآخرين • اياك والحزن ، لكيلا ترتكب ذنبا نحو الله •

ـ بى من الحزن ما تقتضيه الطبيعة الانسانية • واحاول أن اتجنب الذنب يا شيخ عبد الله • فكل ما يتعلق بى أصبح فى يد الله • وفى يدك أيضا •

كان لزاما على ان أستمع وعظه فى هدوء ، وان اتودد اليه وأستميل عطفه ورضاه لتعلق امرى به • فالناس عندما يظنون انهم آكبر واعظم منا يجدون فى أنفسهم استعدادا لأن يكونوا كرماء •

لم آكن قويا بقدر يسمح لى ان آكون نافذ الصبر ، ولم آكن أيضا ضعيفا بقدر يجعلنى ان آكون غاضبا • لقد كنت استخدم الآخرين تاركا لهم أن يحسوا بعظمهم ويشعروا بقوتهم • وكان لى هذا سندا وحدى ، اذ ما الذى يدعو الى الاهتمام بهذه التوافه من الأمور ؟

لقد ساعدنى وحصلت على التصريح لدخول القلعة كى أبحث عن قبر أخى • وصحبنى حسن • وجاء معنا الخدام يحملون التابوت الفارغ ويصحبون معهم المجارف •

والى مقابر القلعة قادنا رجل لعله الحـــارس ، الخادم ، اللحاد ، فقد كان من الصعب أن يحدد الانسان عمل ذلك الرجل الأبكم ، الذى لم يتعود الحديث ، ولم يتعود أن ينظر الى أعين الناس ، والذى كان يتطلع فى خوف ، والذى كان يبدو أنه يقوم بهذه الخدمة فى غضب ، كما لو كان هناك صراع مستمر فى نفسه بين رغبة فى أن يساعدنا ورغبة فى أن يقوم بطردنا •

ـ هناك •

قالها مشيرا برأســـه الى تل مقفر يشرف على القلعة ، تل يتميز بخراجات تمثلها الأقبية الحديثة وجروح تمثلها المقـــابر المشقوقة ، وقد ترعرع هذا التل بين شجيرات العليق وبعض النباتات الطفيلية •

ـ هل تعرف أين قبره ؟

نظر الينا خلسة دون ان ينطق بكلمة • وكان يمكن ان يعنى هذا :

ـ كيف لا أعرف وقد قمت بدفنه !

كما يعنى أيضا :

ـ كيف اعرفه ؟ انظر كم قبرا هناك دون علامة أو اسم •

كان يسير بين مقابر مبعثرة لا اثر فيها لنظام ، وقد حفرت في عجلة ودون وبغير احترام ، كما تحفر الأماكن لحفظ بعض الثمار • وكان يتوقف عند بعضها ، وينظر لحظة فيما انخفض منها ، ثم يشيح برأسه قائلا :

ـ نيقولا • صعلوك •

او يقول :

ـ بكير • حفيد محمد

وعند بعضها كان يلوذ بالصمت •

ـ أين هارون ؟

ـ هنا •

اندفعت أتنقل وحدي بين الحفر المطمورة ، لكي أجد أخي الميت • ربما يهديني اليه ما يولده في من اثارة وما أشعر به اذ ذاك من حزن ، وما أجده من علامة ما أحسها في نفسي ، وربما ينبهني لمكانه خرير دمي ، او سقوط دمعتي ، أو اهتزاز جسدي ، أو سريان صوت مجهول • فلعلنا لسنا على الدوام خاضعين لسلطان حواسنا العاجزة • أليس في الامكان أن ينطق بطريقة ما سر خروجي واياه من بطن واحدة ؟

ـ هارون !

هكذا كنت أنادي في همس ، وأنا انتظر ان يأتي الجواب من داخل • ولكن الجواب لم يكن يوجد ، كذا لم تكن هناك اية علامة او شيء أحسه من اثارة ، وحتى الحزن ما كنت أشعر بوجوده • لقد كنت اشبه بقطعة الطين وكان أن بقي السر اصم صامتا • كان يتملكني فقط شعور بالفراغ يتصف بالمرارة واحساس بهدوء لم يكن هدوئي ، كما كانت تطوف بي بعض المعاني البعيدة التي كانت أهم من جميع ما يعرفه الأحياء •

ونسيت الكراهية اذ كنت وحدي بين المقابر •

ولكنها عادت الي بعودتي الى الناس •

وجدتهم يقفون عند حفرة تشبه سائر الحفر • وسمعت حسن يقول :

ـ ايكون هذا ؟ وهل من المؤكد ؟

ـ ان الأمر لدى سواء ، بامكانكم ان تحملوا اي واحد منهم · ولكن ان اردتم فها هو ذا

ـ كيف عرفت ؟

ـ عرفت ، لأنه دفن في قبر قديم

وحقا وجد الخدم عظام شخصين ، فجمعوا عظام احدهما ووضعوه في التابوت ثم غطوه بغطاء من الجوخ واندفعوا منحدرين على حافة التل ·

من نحمل ؟ ـ أخذت أفكر فزعا · إنحمل قاتلا ، سفاكا ، ضحية ؟ لمن هذه العظام التي أثرناها ؟ ان عدد القتلى كثير وليس هارون وحده هو الذي دفن في قبر الغير ·

أخذنا نسير وراء الخدم الذين يحملون على أكتافهم ، صندوقا به عظام لأحد الأشخاص وفوقه غطاء من الجوخ الأخضر ·

وكان حسن يهز ساعدي في رفق كما لو كان يوقظني ·

ـ اهدأ ·

ـ لماذا ؟

ـ ان نظراتك عجيبة ·

ـ اهي حزينة

ـ كم اود ان تكون حزينة ·

ـ منذ لحظات ، حينما كنت في المقابر ، كنت أنتظر دون جدوى أن ينبهني شيء عند مروري بقبر هارون ·

ـ انك تكلف نفسك باكثر من اللازم · وارى كافيا أن تكون حزينا لقد بقيت فكرته لدى غامضة ، ولم تكن لي الجراة على السؤال · كنت أخاف أن يفطن الى ذلك الذي يحدث في داخلي · فما كان له أن يعيدني الى الحزن دون سبب ·

وفي السوق ، وفي الأزقة كان الناس ينضمون الى جمعنا ، وكنت أشعر بكثرة الأرجل تزداد خلفنا ، اذ ان وقعها كان يأخذ تباعا في التلاحم بعد ان كان يسمع متفرقا ، كما أن الحشد اخذت تزداد كثافته · لم أكن

أتوقع هذا العدد ، فان هذا الذى فعلته كان من اجل نفسى لا من أجلهم ، ولكن هاهو مايخصنى اخذ يفلت منى ليصبح خاصا بهم كذلك • لم احاول أن أستدير كي اراهم ، ولكنى وقد ثارت مشاعرى كنت أحس كيف يحملنى هذا الحشد الذى بدا كأنه الموج ، والذى أخذ يعلو بى ويجعلنى اكثر اهمية واشد قوة ، اذ كان هو اياى فى شكل مكبر • كان الجميع يحزنون يتهمون ، يكرهون ، فى صمت بهذا الحضور •

ان هذه الجنازة بالصورة التى هى عليها تبرير لكراهيتى •

وسمعت حسن ينطق بشىء فى همس

ـ ماذا تقول ؟

ـ لا تخطب • لا تتحدث بشىء عند القبر •

فحركت الراس قائلا لن أتحـــدث • لقد كان ماحدث بالمسجد له ظروفه • كان الناس يسيرون ورائى عند حضورى الى القصبة عائدا من باب الموت ولم نكن نعلم ـ أنا وهم ـ ما الذى ينبغى حدوثه • والآن نحن نعلم • انهم لا ينتظرون منى كلمة ولا اتهاما ، فقد أدركوا كل شىء واستقر فى نفوسهم • ومن الخير أننى قمت بهذا العمل ، ولن يكون دفننا لهذا الذى كان انسانا فيما مضى من أجل اثبات براءته ، بل من أجل شىء أعظم : سوف نزرع هذه العظام لتكون ذكرى للظلم • ولينبت ماينبت ومايريده الله •

وهكذا أصبحت كراهيتى أكثر سخاء واشد عمقا •

وأمام المسجد وضع الخدم التابوت المغطى بالجوخ الأخضر على الحجر المخصص لذلك • وذهبت فتوضأت ثم وقفت أمام التابوت واخذت أتلو الدعاء • وبعد أن فرغت سألت ، لا على النحو الذى أسأل به دائما بمقتضى وظيفتى ، وانما اندفعت أستحثهم فى تهلل :

ـ تكلموا أيها الناس ، كيف كان هذا الميت ؟

ـ كان صالحا !

بهذا انطلقت عشرات الأصوات تجيب فى ثقة •

ـ هل تغفرون له كل ماقد بدر منه ؟

ـ نعم نغفر •

ـ اتشهدون له أمام الله ٠

ـ نشهد له ٠

لم تكن هناك شهادة من قبل لرجل ميت أمام رحلته الأبدية أشد صدقا وأكثر حماسا من هذه الشـــهادة ٠ وقد كان بامكانى ان اكرر السؤال عشر مرات ولو فعلت لتعالت أصواتهم بالاجابة أكثر من ذى قبل ، ولكن من الممكن أن ناخذ فى الهتاف مهددين فى غضب حتى ليبدو فى أفواهنا الزبد ٠

وعندئذ حمل الناس هذا الميت القديم على أكتافهم واخذوا يتبادلون حمله فيما بينهم مظهرين له عـــلائم التشريف ودلائل الاكبار بغية فى الثواب ورغبة فى العناد ٠

قمت بدفنه بجانب جدار التكية ، المواجه لفتحة الزقاق ، كى يكون درعا بينى وبين الناس ودليلا يحذرنى منهم ٠

لم أنس أن المسلمين قديما كانوا يدفنون موتاهم فى مقابر جماعية ، وانهم متساوون حتى بعد الموت ٠ ثم بدأت التفرقة عندما انقسموا فى حياتهم الى طبقات ٠ وأنا الآن فرقت أخى كى لا يختلط بالآخرين ٠ لقد مات لأنه قاوم ؛ فليقاوم وهو ميت كذلك ٠

عندما بقيت وحيدا ، حيث تفرق الناس بعد أن ألقوا بقطع من الطين فى اللحد ، ركعت بجانب الربوة المنتفخة ، التى تمثل الدار الأبدية لشخص ما ، وذكرى أخى هارون ٠

ـ هارون ! (بهـذا كنت أهمس فى الدار الأرضية ، فى الربوة الحارسة) هارون ، أخى ، الآن أصبحنا أكثر من أخوين ، انك ولدتنى الآن لأكون ذكرى ؛ وأنا ولدتك اذ عزلتك لتكون شاهدا ٠ سوف تلتقى بى صباحا ومساء ، فى كل يوم ٠ وسوف أفكر فيك أكثر مما كنت افكر وأنت حى ٠ ولينسك الجميع فذكرى الناس قصيرة ، اما أنا فلن انساك ، لن انساك ولا انساهم ، أقسم بتلك الحياة وبهذه الحياة يا أخى هارون ٠

كان ينتظرنى فى الزقاق على خوجه ، اذ كان يحترم حديثى مع ظلال الميت ٠ وكم كان بودى أن اتحاشى الالتقاء به ، وخاصة الآن ، حيث كنت فى ثورة نفسية بعد اتمام الدفن ، ولكننى لم استطع ٠ ولحسن الحظ كان جادا ولطيفا وان بدا عجيبا كما هو دائما ٠ لقد قدم لى تعزيته ، ورجا الصبر لى وللناس جميعا من أجل ماحل بنا ، والصبر عام للجميع وليس

وقفا على أحد ، وان كان من الممكن أن يكون هذا الفقدان ربحا ، لأن الأموات يمكنهم أن يكونوا أعظم نفعا من الأحياء ، وهم يكونون دائما على الصورة التى نحن فى حاجة اليها ، لا يتقدمون فى السن ، لا يتشاجرون، ليس لهم رأى ، ويوافقون فى صمت على أن يكونوا جنودا ، ولن يخونوا حتى يناديهم الآخرون كى ينضموا تحت علم آخر ٠

سألته :

ـ ألا ترانى ؟ ألا تعرفنى ؟

ـ أراك وأعرفك ٠ من لا يعرف الشيخ نور الدين !

انه لا يحتقرنى ، لم أعد بعد فى نظره شيئا لا يرى ٠

ماذا يأمل أن ينال منى حين يعترف أننى موجود ؟

وحدث أن اتفق حسن والصـانع سنان الدين على بناء ضريح من الأحجار الصلبة فوق القبر وسور حديدى حوله ٠

وبينما كنت عائدا من صلاة العشاء فى يوم الجمعة الأول للدفن رأيت فى الظلام شمعا يلتهب فوق قبر هارون ٠ وكان هناك أحد يقف بجانب القبر ٠

اقتربت من القبر وتبينت أن الواقف ملا يوسف ، وكان يتلو بعض الأدعية ٠

ـ أأنت الذى أشعلت الشموع ؟

ـ لا ٠ لقد كانت مشتعلة عندما جئت ٠

لقد وضعتها يد شخص ما وقامت باشعالها ترحمـا على الفقيد وتمجيدا لذكراه ٠

ومنذ ذلك الحين كانت تضاء الشموع على شاهدى قبره فى ليالى الأعياد المباركة ٠

كنت دائما أتوقف فى الظلام وأنظر الى ذلك اللهب الصغير المضطرب مثارا حزينا فى الأيام الأولى لدفنه ، ولكن سرعان ما أصبحت بعد ذلك فخورا ٠ هذا هو أخى السابق ٠ وهذا اللهب الذى يضىء هو روحه ٠

فظله هو الذى يجذب هؤلاء المجهولين الذين يأتون ليشعلوا النيران الصغيرة تمجيدا لذكراه ·

لقد أصبح بعد موته مناط الحب لساكنى القصبة · وفى حياته كاد أن يكون غير معروف لأحد ·

وأما بالنسبة لى فقد أصبح ذكراى الدموية المريرة · وفى حياته كان لى أخا وحسب ·

١٣

« .. ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة اصلها ثابت وفرعها في السماء » .

ان موالاتى لأخى قد أعادت الى صداقة حسن . ربما كان وراء كلماته وتصرفاته قصد ما خفى . رغبة لكى يوقف اندفاعى فى ذلك الطريق الذى كان يتوقعه والذى كان يخشاه ، او لعلنى كنت أخدع نفسى فربما كانت شدة اثارتى تريني ذلك الذى لا وجود له . ولكن سواء أكان هذا أم ذاك فما كان بالامكان أن أشك فى صداقته .

كذا لم يكن فى الامكان أن يشك في صداقتي . لقد أحببته ، وادركت ذلك بشدة طلبى اياه وتعودى لأن أكون معه ، وبعدم معاتبتى اياه مهما قال ومهما فعل ، ويكون مايخصه أصبح شيئا هاما بالنسبة لى . ربما يكون الحب هو الأمر الوحيد في دنيانا الذى لا يحتاج الى تفسير أو بحث عن أسبابه . ولكن مع هذا أرانى أسعى الى ذلك ، ولو من أجل أن أذكر ثانية ذلك الرجل الذى أدخل فى حياتى السرور بهذه الدرجة .

لقد ارتبطت به (تعبير جيد : ارتبطت ، كأننى فى العاصفة ، فى الباخرة ، فى قمة صخرة شاهقة) لأنه ولد ليكون رفيقا للناس ، ولأنه اختارنى بالذات من بينهم ، وكان يجدد السرور فى نفسى على الدوام استطاعته أن يكون هو بالذات صديقا ترتفع صداقته الى هذه الدرجة ، وهو الذى يبدو للجميع أجوف ساخرا .

كنت دائما أظن أن الصديق هو ذلك الرجل الذى يحتاج الى المساندة ، هو ذلك النصف الذى ينشد مايكتمل به ، يرى فاقد الثقه فى نفسه ، ميالا الى المراهنة ، مملا بالضرورة ـ وان يكن محبوبا ـ ثرثارا

يفرغ ماعنده كما هو الشأن لدى المرأة ٠ وأما هو فجزء مكتمل ، دائم المرح ودائم التجدد ، عاقل ، جرىء ، مضطرب ، واثق فى كل مايباشره ٠

لم يكن في وسعي أن أضيف اليه شيئا او أسلبه شيئا ، فقد كان بدوني ومعي ما هو في حقيقته ، ولم يكن بحاجة الى فى شىء ٠ وعلى الرغم من ذلك فانني لم أشعر بأنني أقل منه ٠ سألته مرة كيف حدث أن منحني بالذات صداقته ٠ فكان جوابه : الصداقة لا تختار ٠ انها تحدث ـ دون علم بالسبب ـ كما يحدث الحب ٠ ثم انني لم أمنحك شيئا بل لقد منحت نفسي ٠ انني أحترم الرجال الذين يستطيعون وقد حلت بهم المصيبة أن يبقوا كرماء ٠

شكرت له هذا الاعتراف وتملكني اعتقاد بصدقه ٠

وكانت صداقته بالنسبة لى بالغة القيمة والأهمية ، وبخاصة من أجل تلك الكراهية التى أخذت تزداد فى نفسي ٠ انني لا أدرى أتستطيع كراهيتى أن تعيش وحدها وان كان من المؤكد أنها تستطيع ٠ غير أن الأمر هكذا أفضل ٠ لقد صار لى الآن جانب أبيض يقابله جانب أسود ٠ هذا ما أكون ، منقسم ولكنى مكتمل ٠ لم يكن الحب والكراهية يمتزجان ، ولم يكن أحدهما يعرقل الآخر ، أو يجد القدرة فى القضاء عليه ٠ فقد كنت فى حاجة ماسة الى كليهما ٠

كنت أدخل فى حياة حسن بحق الصداقة ، وبارادته الطيبة ، ولكن اذا كنت آمل ، أو أخشى ، أن كل مايخصه سوف يصبح لى واضحا ومعروفا فقد خدعت نفسي ٠ وليس ذلك من أجل محاولته أن يخفى ولو صغيرا من الأمور وانما لأنه بئر عميق تغطيه الظلال ولا يمكن رؤية قاعه فى يسر وسهولة ٠ وذلك أمر لا يرجع لكونه هكذا ، بل لكون الجميع على هذه الصورة ، يتعذر علينا رؤيتهم فور تعرفنا بهم ٠

لقد نقل والده ليعيش معه فى بيته ، وأولاه كل اهتمامه ، وكان هذا الاهتمام يوحي بشىء من الغرابة ويجلب نوعا من السرور وينحى ماقد يكون من الهموم ، وكأنما كان حسن لا يراعى كثيرا مرض العجوز ، وكان يعامله كأنه فى صحة تامة ، كان يحكى له عن كل شىء ، عن السوق ، عن الناس ، عن الأعمال ، عن الزواج ، عن زفاف الفتيات ، حتى عن الفتيات اللاتى يتزايد جمالهن سنة بعد سنة وربما كان يرى ذلك لتزايد سنه هو ، واذا كان الأمر هكذا فمن الخسارة اذن أن الوالد لا يراهن ، اذ لو رآهن لبـدين له كحور الجنـان ٠ وكان العجوز يبدى

علائم الاكفهرار ، ولكن كان يلمع في وجهه دلائل الرضا : لقد مل من تركهم اياه الى هذا الحين بين أحضان المرض واعدادهم من أجل انتقاله الى الآخرة • وهاهو يقول في مرارة ، وربما كان يشير الى البيت المظلم الكبير الذى كان يرقد فيه :

ـ ان الناس يتحدثون أمام الأطفال وأمام الشـــيوخ بالحماقات فحسب • وأما ابني هذا ، الجامح ، فانه يعاملني معاملة انسان لانسان لحسن الحظ ، لأنه لا يحترمني •

كان حسن يضحك وينطق بالرد على غراره ، كما لو كان أمامه زميل ورجل في صحة تامة •

ـ منذ متى لا أحترمك ؟

ـ منذ زمن بعيد •

ـ منذ تركت استانبول ورجعت الى هنا ؟ منذ أصبحت متشردا ، أتجر بالماشية ؟ انك ظالم ، ياوالدى • انني رجل صغير ، ذو عقل عادى ، قليل الكفاءات ، ولن يدرس الاطفال فى مدارسهم شيئا عني •

ـ انك أكثر كفاءة من الآخرين الذين يشغلون المناصب العليا •

ـ ان هذا ليس بالصعب ياوالدى ، فهناك كثير من الحمقى يحتلون المناصب • وأما أنا فماذا أستفيد بالمنصب وماذا يستفيد المنصب بى ؟ انني هكذا راض • هيا نترك هذا الحديث فاننا لم ننجح فى أن نصل الى شىء فيه • ومن الأفضل أن أسالك فى أمر كى تقدم لى النصيحة • ان عملا يربطني برجل سمح ، متكبر ، بليد ، عديم الشرف ، ساذج ، ينظر الى من عليائه ، وأراه يحتقرنى ، حتى ليكاد يحملنى على ان أقبل نعله ، ولم يكتف بأننى اتغاضى عن بلادته وعدم شرفه ، بل يغضب لأننى لا أعلن أنه عاقل وشريف ، وأسوأ من ذلك أنه يعتقد فى قرارة نفسه أنه يتصف بهاتين الصفتين • انني أرجوك أن تبين لى ماذا أفعل ؟

ـ لم تسألنى عن هذا ؟ ألق به الى الشيطان ، هذا هو مايجب عليك أن تفعل !

ـ لقد ألقيت به الى الشيطان ياوالدى ، آنذاك ، فى استانبول (وضحك حسن) وجئت هنا لكى أصبح تاجر الماشية •

كان احدهما يحب الآخر حبا غريبا ، متهافتا ، ولكنه حب يقوم على الحنان حقا ، كما لو كانا يريدان أن يعوضا الزمن الذى كان يفصل فيه العناد بينهما ٠

كان العجوز يرغب ان يتزوج حسن (وكان حسن يسخر بقوله لا أستطيع أن اتزوج قبلك) وأن يترك عمله كتاجر للماشية ويكف عن اسفاره الطويلة ، كي لا يتركه وحده ، حتى انه كان يستخدم الحيلة احيانا ، فيزعم أنه في شدة المرض وأن لحظة الموت يمكن أن تفاجئه في أية ساعة ، وسيكون الأمر بالنسبة له أيسر اذا وجد بجانبه وقتئذ من هو من لحمه ودمه ، اذ سوف تخرج روحه دون أن يجد صعوبة ٠ (وكان حسن يجيبه بقوله : من ذا الذى يعرف من السابق) ٠ ولكنه وافق ان يحرم نفسه من تلك الحرية الواسعة التى من شأنها ان تنكمش بوجود الحب ، وذلك دون حماس كبير ، وبخاصة من أجل الأسفار ؛ فالوقت وقت الخريف ، وقت قيامه بالسفر ، فقد تعود على ذلك كما تعود طير اللقلاق ٠ فالسنونو قد رحل ، وعن قريب سيصبح الوز البرى فى اعالى السماء ، شاقا طريقه ، واما هو فسوف ينظر الى السماء خلف اسرابه ويتخيل مالأسفاره من لذات عجيبة ، فقد فصله عن ذلك حب آخر جديد٠

وهناك فى البيت حدثت تغييرات هامة ٠ فهذا الخادم الضخم الذى يدعى « فضل » زوج هذه الحوراء الفاتنة المسماه « زينب » والتى كانت تعيش مع الخادم الشاب ـ اصبح بمثابة الراعية المخلصة للعجوز ٠ وقد اتضح أن يديه الضخمتين بامكانهما أن تقوما بحركات بالغة الحنان وبرعاية شديدة الرقة ٠ ومنذ ذلك الحين كان حسن يترك نقوده فى غرفة والده لأنه كان يعرف خادمه وكان يخاف أن ينضب شرف ذلك الخادم ٠

كما قضى حسن على هذه العلاقة الغرامية باجراء حاسم ٠ وكان ان تحطمت الصلابة الظاهرية لهذا الغرام بأيسر مما يستطيع خيال ساحر أن يتصوره ٠ لقد سلم خونة الحب الذين يوجدون على الدوام قلعتهم الحصينة دون مقاومة ٠

بعد أن تحسنت صحة العجوز بحيث لم يعد الموت قريبا منه عدل عما كان قد قرره من أن يشمل الوقف جميع أمواله ٠ ولكن على الرغم من ذلك كانت حصة الوقف كبيرة، وكان الأمر يتطلب أن يعين الى جانب متولى الوقف شخص يقوم بمساعدته ٠ (وكان قد وافق أحد كتاب القلم بالمحكمة ويتصف بالذكاء والشرف أن يقبل ذلك الجزء المقترح الذى يقدمه

ناظر الوقف عملا بالمثل القائل عصفور فى اليد خير من عشرة على الشجرة:
وعندئذ اتضح لى من أخبر حسن بمصيبة هارون) • استدعى حسن الخادم الأصفر الى غرفته وعرض عليه تولى منصب شريف ذا راتب كبير على شريطة الا يأتى الى هذا البيت الا قاصدا اياه لأمر يتطلبه ، وعلى شريطة الا يلتقى بزينب ولو فى مكان ما الا عن طريق الصدفة ، واذا حدث هذا فليمر بها دون أدنى كلام • فان تمت موافقته ووفى بهذا الالتزام فليغتنم فرصة سنحت له ، ولكنه ان وافق وخدع فليذهب على الفور الى أى مكان يشاء •

كان حسن على استعداد لأن يقبل مقاومة الشاب وحزنه ، كان يفكر هل فى امكانه أن يتراجع وان يترك كل شىء ليستمر كما هو ، اذ كان قد ندم لوضع الشاب أمام هذا الاختبار القاسى • ولكن الشاب وافق على الفور : لقد كان ذكيا وذا كفاءة • وشعر حسن بالغثيان •

وبعدئذ استدعى المرأة لكى يخبرها بالأمر ، ولكن الشاب كان قد بادر باخبارها عن كل شىء بنفسه ، بأنهما باللأسف لا يستطيعان أن يتقابلا بعد ، فانه ذاهب ينشد حظه ، وأما هى فمعها حظها ، ويرجو ألا تذكره بشر ، وأما هو فسوف لا يذكر حياته فى هذا البيت الا بخير ، وهاهى ارادة الله قد شاءت ذلك •

لابد من مراقبتنا اياه ، هكذا كان يرى حسن فى غضاضة •

وكانت زينب تقف الى جوار الباب صامتة ، وقد أطل الشحوب من خلال تلك السمرة التى تكسو وجهها ، وارتجفت شفتها السفلى كما هو الشأن لدى الطفل ، وانسدلت يداها فى ضعف على فخذيها الممتلئتين واستتر معظمهما فى ثنايا سروالها •

وهكذا ظلت حتى عندما خرج الشاب من الغرفة • وكذا عندما اقترب منها حسن وأحاط عنقها بعقد من اللؤلؤ كان قد ورثه عن أمه •
ـ « لكى تراعى والدى أكثر » ـ هكذا قال لها ، رافضا أن يعلن أنه يدفع بهذا ثمن حزنها ،وتاركا اياها بزينة طاهرة أمام زوجها •

مر اسبوعان وهى تغدو وتروح فى مسكنها وفى فنائه ، والعقد يزين عنقها ، تتأوه وتنتظر ، تنظر آونة الى السماء وأخرى الى الباب • ثم توقفت عن التأوه ، وعادت اليها ابتسامتها ثانية • لقد نسيت حزنها أو لعلها عمدت الى اخفائه •

ولكن حزن زوجها قد استمر مدة أطول • ـ ياله من فارغ بدونه ، وأما هو الجاحد فقد نسينا ـ هكذا كان يردد في عتاب بعد فترة طويلة من انتقال الشاب •

لم يكن حسن راضيا عن نفسه وعنهما أيضا ، وهو الذى فعل كل مافعل ليتم الأمر على هذا النحو ، وكأنما كان يود أن يكون على خلاف ذلك •

هاهو يقول مبتسما :

ـ وهأنذا تدخلت لكي أحل العقدة ، فماذا أصبت ؟ لقد حركت أنانية الشاب ، وأسلمت الشابة الى التعاسة ، وجعلتها لا تبالى بشيء ، والقيت على عاتق الزوج زوجة غضوب ، واقنعت نفسى مرة اخرى انني أسيء التصرف عندما افعل شيئا عن قصد • فليذهب كل شيء ، لا شيء يمكن أن يكون على هذه الصورة المقلوبة سوى العمل الصالح يجيء عن قصد ، وليس هناك من يستطيع أن يبلغ درجة من الحمق كتلك التى يبلغها من يريد أن يفعل شيئا وفق مزاجه فحسب •

ـ وما الذى لا يرى فى صورة مقلوبة ولا يوصف بالحمق اذن ؟

ـ لا أدرى •

انه رجل غريب ، غريب ولكنــه محبوب • انه لم يكن واضحا لى تماما ، بل حتى لنفسه أيضا ، وكان يحاول على الدوام أن يكتشف نفسه ويبحث عن ذاته ، غير أنه لم يكن يفعل ذلك فى شيء من التعب أو الضيق ، الشك الساخر ، ذلك الذى كان ينازعه فى اغلب الأحيان •

كان يود أن يحكى ، وكان بديعا اذ يحكى ، فجذور كلماته تمتد فى أعماق الارض وفروعها تناطح السماء • وقد أصبحت اجد فى هذه الكلمات حاجتى ورضاى • لا أدرى ماذا كان يضيئنى منها ، وبعض هذه الحكايات أكاد لا أتذكرها ، ولكن بقى شيء من تاثيرها ، شيء غير عادى ، مضيء وبديع : حكايات عن الحياة ، ولكنها أجمل منها •

ـ انني ثرثاره لا يمــكن علاجه ، أحب الكلمات ، أى الكلمات ، والكلمات عن أى شيء • (هأنذا اسجل دون ترتيب ذلك الذى كان يقوله ، ذات ليلة ، عندما كانت القصبة هادئة مطمئنة تحت ستار الظلام) ان الحديث صلة بين الناس ، وربما كانت الصلة الوحيدة • هذا ما أعلمنيه

جندى كبير ، كنت واياه في الأسر ، ألقينا معا فى زنزانة ، وقيدنا معا بقيد ربط في حلقة بالجدار ٠

وقد سألنى الجندى :

ـ ألنا رغبة في الحديث أم الصمت ؟

ـ أيهما افضل ؟

ـ الأفضل أن نتحدث ٠ فبذلك لا نشعر بصعوبة التعفن فى هذه الزنزانة ٠ وبالتالى سيكون موتنا أيسر ٠

ـ اذن الأمر سواء ٠

ـ سوف ترى أن الأمر ليس سواء ٠ فسوف يخيل الينا اننا نقوم بعمل ما ، أن شيئا يحدث ، وفي هذه الحالة سوف يكون كره احدنا الآخر أقل ، وسوف يكون ما يجب أن يكون ، فذلك أمر قد تخطى حدود قدرتنا٠ لقد التقى جنديان أحدهما عدو للآخر بعد ان ضلا طريقهما فى الغابة ، ماذا يفعلان والى أين يسيران ، اخذ كل منهما يمارس مايعرفه وما يعد مهنته ٠ صوب أحدهما بندقيته نحو الآخر وجرحه ، ثم تناول كل منهما سيفه وأخذا يتقاتلان ، واستمر قتالهما حتى ظهر ذلك اليوم الصيفى حيث كسر سيفاهما ، وعندما لم يبق سوى سكين كل منهما قال أحدهما للآخر :

ـ انتظر حتى نستريح ٠ هاقد مضى وقت الظهيرة ٠ ولسنا ذئابا بل اناس ٠ اذهب فاجلس هنا ، وأما أنا فسأجلس هنا ٠ انك محارب ماهر ، لقد أتعبتنى ٠

ـ وأنت بدورك أتعبتنى ٠

ـ اتؤلمك الجروح ؟

ـ نعم ٠

ـ وأنا أيضا ٠ ضع عليها بعضا من التبغ ، لكى توقف الدم ٠

ـ يحسن وضع الطحلب ايضا ٠

ثم جلسا ، وتحدثا عن كل شىء ، عن الأسرة ، عن الأولاد ، عن الحياة الصعبة ، وبدا لهما أن كل شىء يتعلق بأحدهما يشبه مايتعلق

بالآخر ، وهناك اشياء كثيرة كانت هي بعينها • فهم احدهما الآخر ، واقترب منه ، وأخيرا وقفا وقالا في رضى : هانحن قد تحدثنا كما يتحدث الرجال • وقد نسينا حتى جروحنا • هيا بنا كي ننهي مابدأنا • ثم استل كل منهما سكينه ، واخمد أنفاس الآخر •

لقد كان الزميل المقيد معي في حلقة الزنزانة على جانب من المرح ، وقد سرني بهذه الموعظة الساخرة • سرني وشجعني • وربما لو كان غيره مكانه لقال ان الجنديين افترقا في الغابة افتراق الأصدقاء ، ولو قال ذلك لكان هذا كذبا قبيحا ، حتى ولو كان قد حدث حقا • أما على هذا النحو فربما كانت النهاية المؤلمة للقصة أكثر صدقا بسبب ماكنت اخشاه من أن يصورهما بوضع أجمل مما هما عليه في الواقع • وحيث انني لم استطع أن افسر هذا التعليل عقليا حتى لنفسي ، خاصة لأن نهايتها كانت تحمل قوة الصدق ، فقد بقيت في داخلي فكرة تشبه احلام الطفولة ، الأمل العنيد ، في احتمال تصالحهما • واذا لم يكن قد حدث تصالح بين هذين الجنديين بالذات فلعله قد حدث بين جنديين آخرين ، فقد كاد حتى في هذه القصة أن يحدث التصالح ، وان لم يكن هذا امرا يعني زميلي الجندي ، فقد كان يحكي كي لا يكون وحيدا • لقد مر بجزء كبير من العالم ، ورأى اشياء كثيرة ، وكان ذا قدرة على أن يحكي في امتاع وحيوية ، وعذوبة وود ، مبددا خوفي من أن يكون وجوده في الزنزانة معي أثقل على من كوني بمفردي فيها • كنت أستيقظ في الليل ، أتسمع تنفسه ، واسأله :

ـ هل أنت نائم ؟ احك اذا كنت لم تنم •

ـ ماذا ستفعل عندما تنهي الحكايات ؟

ـ سوف نعيد ماحكيناه ، بترتيب آخر ، بترتيب عكسي •

ـ وبعد أن ننهيها بهذا الترتيب العكسي ؟

ـ سيدركنا الموت عندئذ •

ـ راضين ، كذلكما الجنديين •

ـ راضيين كمجنونين أديا واجبهما •

وهنا قال دون قصد الى العتاب :

ـ انك مر •

ــ ألست انت كذلك ؟

ــ لست ، ولم أكون ؟ انظر ، انني ذهبت كي أحارب ، أي وافقت ان أكون جريحا ، اسيرا ، مقتولا ٠ وهاقد حدث أيسر الأمور ، لم أكون مرا ؟

كنت أحس اذا بدأ خرير صوته الهادىء أن الليل قد خفت وطاته وقل فراغه ٠ لقد كان يبني بيني وبين نفسه جسرا من نسيج العنكبوت ، جسرا من الكلمات ، التي كانت ترف فوقنا ، وتتخذ شكل القوس ، تنبع وتصب ، انه المنبع وأنا المصب ٠ لقد كان هناك شيء خفي ينسج بيننا ، جنون رائع يسمى الحديث ، كان يفعل المعجزة : كتلتان خشبيتان تستلقي احداهما بجانب الأخرى اخذتا على الفور تسرى فيهما الحياة ، ولم تعودا بعد منفصلتين على التمام ٠ وعندما تم تبادل الأسرى ورجعنا الى ديارنا حدث ان افترقنا دون حزن ٠ انه سيجد المستمعين له على الدوام ، وهو بحاجة اليهم ، وبدات أنا الآخر ابحث عنهم ٠ لقد أصبح الناس اقرب الى ، من أجل الكلام ٠ وليس جميعهم بالطبع ٠ فهناك من يصمون آذانهم عند سماع الآخرين ، وهؤلاء يعدون مصيبة بالنسبة لأنفسهم ولغيرهم من الناس ٠ ولكن لابد من المحاولة على الدوام ٠ وسوف تسأل : لماذا ؟ وأنا أجيب : لا لشيء ، سوى أن نقلل من الصمم والفراغ ٠ عندما كنت لا أزال في بداية عملي في التجارة سمعت عن امراة تعيش في مدينة « فيشيجراد » ، وهي أرملة لأحد ملاك الارض هناك ٠ ولم يكن لها سوى ابن ، يبلغ العشرين ٠ وباستطاعتك ان تتصور كم كانت تحبه ، كان ابنا ــ وحيدا ، وفيه كانت تتركز حياتها ٠ وعندما قتل الابن في الحرب أصابها الجنون ، في أول الأمر لم تكن تصدق أنه قتل ، ثم حبست نفسها في الغرفة ، وقصرت طعامها على الخبز الأسود والماء ، وكانت تنام على أرض عريت من الفراش ، وا ضعة كل ليلة على صدرها حجرا ثقيلا اسود ٠ كانت تود أن تموت ، ولم تكن لديها الجراة كي تزهق روحها ٠ ولكن الموت عنادا لها لم يكن يجيء ٠

هكذا ظلت تعيش عشرين عاما ، على خبز اسود وماء ، وحجر ثقيل على صدرها ، واصبحت عظاما يكسوه جلده ، اغبرت ، اسودت ، اخشوشنت ، ولو كانت قد علقت كما يعلق اللحم ينضجه الدخان لما كان حالها اشد مما هي عليه الآن ، ولكنها كانت تعيش ٠ ولقد هزني خاصة هذا الحجر الأسود الذي كانت تضمه كل ليلة على صدرها ، واشتد

احساسي اذ ذاك بمدى ماتعانيه من عذاب . انه هو الذى قادني اليها ، ذلك الحجر . كان البيت كبيرا ، يتكون من طبقتين ، وقد استحال لطول العهد لونه ، وبدت خدوش على جداره ، وقد أحاطت به ضيعة واسعة ، كان عجيبا أن ترى مشذبة منسقة ، وفي البيت كانت عجوز واحدة فحسب ، تقوم بخدمة زوجة المالك ، وقد ضعفت هى الأخرى وهرمت ، تحدثت قائلة انه لا فائدة من أية محاولة لمساعدة سيدتها ، فهذه هى ضيعة كبيرة وناظرها يتولى شئونها والسيدة لا تريد أن تتحدث معه في أمر الحسابات ، لا تريد أن تقبل النقود ، ولذا يحتفظ بها لنفسه ويعطى الاثنتين مقدار مايسد رمقهما ، والله لا يريد أن يأخذها الى جواره وينهى أمر عذابها . وحين رأيت السيدة كذبت عليها ذاكرا أن أحد أصدقائي ، وقد قتل فى الحرب ، حكى لى عن ابنها ، وانني جئت من أجل ذلك كي أراها ، اذ يبدو لى أنني كنت أعرفه أيضا . كذبت ، لأن الكذب كان هو الطريق الوحيد لكي تأخذ معي في الحديث . الحديث عن الابن بطبيعة الأمر . سنوات طوال ظلت صامتة ، سنوات طوال ظلت تنتظر الموت . سنوات طوال ظلت تفكر فى الابن ، وهى تسم نفسها بالألم ، والآن استطاعت أن تتحدث عنه . وأنا الذى قمت بتحريكها . نسيت ماقلته في البداية ، فالكذب لا ثبات له بحال ، وكنت أحكى عنه كما لو كنت أعرفه ، وماكان باستطاعتي ان اخطىء ، وما كان باستطاعتها أن تفطن الى أنني كنت صبيا حين قتل ابنها ، ولعلها كانت تظن ايضا ان ابنها كان يصغرني بكثير لأنه لم يكن يتغير في نظرها . ذكرت لها أنه كان جميلا عاقلا ، وصالحا مكرما للجميع ، وبارا بها ، وبذا كان يتميز بين الآلاف . كنت أصور فكرتها عنه ، وما كان باستطاعتي أن أبالغ . وكانت صفات المدح التى خلعتها عليه في نظر أمه ضعيفة ، غير كافية . وكان حديثها هادئا يصحبه فحيح كما كانت تخرج من فمها الذى اصابه الجفاف مقبلة مدللة ، قد اتخذت زينتها ، وتعطرت بالحب ، وغلفت بقطن رقيق مستوحى من الذكرى الطويلة . لقد كنت بالنسبة لها شخصا جديدا ، تجهله ، وكان ذلك جديرا بأن يجعلها تحكى لى كل شىء عنه ، تعويضا من صمتها العنيد . ولكنها فى قرارة نفسها كانت تود أن توضح لى لم كانت حزينة الى هذه الدرجة ، وقد توقفت عن الحـــزن في لحظات من حديثها ، اذ كانت تراه أمامها حيا وعلى صورة مثالية ، وأظن أنها نجحت في ذلك لأول مرة وعلى التمام ؛ اذ أنها وحدها ومع أقربائها كان بامكانها فقط أن تحييه الى درجة تستطيع بها أن ترى ظله ، مدركة أنه فى عداد الموتى . والآن قد نسيت أمر الموت ، نحت عن نفسها كل شىء سوى

الزمن البعيد ، ذلك الذى لم تكن تعرف فيه المصائب • كنت اعلم ان ذلك لن يستمر طويلا ، فسوف ترد فكرة الموت ، وكنت أنتظر أن يغشيها سحاب قاتم ، وسوف ادرك هذا بما يصيب وجهها من اغبرار ومهما يكن من شيء فقد تمكنت للحظة ان تحس بالتحرر • ومنذ ذلك الوقت كنت أزورها كلما مررت بهذه الناحية ، خارجا الى السفر أو عائدا منه ، وكانت السيدة تبحث في كل مرة عن صور جديدة في ذكراها ، وأخذت ترجع بصورة الابن الى الوراء مرة بعد مرة لتعود الى أيام حداثته ، وظل الابن على الدوام مثاليا ولم تفارقه الحياة • كانت تدفع به الى الماضى لتفصله عن اللحظة السوداء التى قطعت حياتها ، وكانت تترقب لحظة البعث هذه كما تترقب موعد الحفل ، كما تترقب قدوم العيد ، كانت تنتظرنى الأيام الطوال ، ولأول مرة بعد مرور السنين الطوال كانت الغرفة الكبيرة تدفأ اذا كان الجو باردا ، وكان الطعام يطبخ ذلك الذى لم تكن تأكله ، وكانت الحشايا التى أكلها العث تبسط والملاءات الصفراء فوقها تفرش ، من أجلى ، اذا قبلت ان ابقى بضعة أيام ، لأطيل لها الأعياد • انها لم تغير كثيرا طريقة حياتها ، لقد استمرت تأكل خبز الجودار الأسمر وتشرب الماء فحسب ،كما ظلت تنام على الخشب الذى غطيت به أرض الغرفة ، وعلى صدرها ذلك الحجر الأسود ، غير أن فكرة الموت لم تعد هى الوحيدة التى تكمن بعينيها • لقد نصحتها ووافقت أن تطلب من متولى امور الضيعة باقى أرباح املاكها ، لكى تبنى للأطفال مدرسة بقريتها ، ولكى تساعدهم بتقديم الطعام والملابس ، اذ لو كان الابن موجودا لفعل هذا دون شك • وكان ان بنت المدرسة وجاءت بالمعلم ، وساعدت الفقراء من الفلاحين لكى لا يذهب اطفالهم الى المدرسة عرايا أو جائعين ، لقد قامت بهذا العمل الصالح كى تخفف من عذابها •

وعندئذ قلت ساخرا من حكاية حسن هذه :

ـ وهكذا ، تم كل شيء على مايرام ، وكلهم كانوا سعداء كما يحكى فى القصص •

لقد خيل الى أن هذه الحكاية بما تحمله من موعظة قد وجهت الى ، لكى تكون بمثابة الأسوة أمام ناظرى : ربما كان ينبغى ان اجمع الاطفال والشباب انا الآخر حولى ، وان أسير بهم نحو حياة سعيدة • كان لحكايته وقع ساذج ، على خلاف ما آلف من حكاياته ، وعلى خلاف كل ما أعرفه عنه • ولكنه تخرج على يدى الجندى الكبير الذى كان زميلا له فى الزنزانة •

ابتسم ، ولم تكن ابتسامته هكذا ابتسامة المنتصر ، ولكنها مع ذلك لم تعلن عن الهزيمة ٠ واتبع ذلك بقوله :

ـ لا ، لم يتم كل شيء على ما يرام ٠ لقد فرح الفلاحون بمساعدتها المقدمة من اجل اطفالهم ، وراحوا يسكرون ويسكرون اقرباءهم أيضا ٠ وشعرت بذلك نساؤهم أيضا اذ اصبحت أيدى الفلاحين اشد ثقلا وأوجع ضربا ، فاخذن ينهلن باللعنات على الأرملة ، كما اخذ الفلاحون يلعنونها أيضا ، اذ كان لابد أن يعفوا أولادهم من السير وراء الأبقار ومن العمل فى الحقول ٠ ولم يكن الاطفال يذهبون الى المدرسة الا نادرا ، كما أن المعلم لم يكن من خيرة المعلمين، وبذا كان الاطفال يحصلون قليلا ، وحتى ذلك الذى كانوا يحصلونه كانوا ينسونه بعد سنة أو سنتين ، وكان الجميع فى القرية يقولون : أية مدرسة هذه ! تسلخ أردافك بكثرة الجلوس حتى تتعلم شيئا وخلال سنة واحدة تنسى كل شيء ٠ لقد عاشت زوجة صاحب الضيعة عشرين سنة وهى تنتظر الموت ، وماتت فى الربيع الثالث لبدء تعارفنا ، وهى تنتظرنى متعرضة للفح الرياح الباردة قد حملت حبات البرد ، اذ كنت قد قضيت فى سفرى هذه المرة مدة اطول مما عزمت ٠

ـ اذن ، لقد انتهى كل شيء على وجه سيء ؟

ـ لا ٠ لماذا ؟ لقد ماتت وهى تنتظر صديق ابنها ، أتفهم ذلك ؟ تملؤها الكلمات الجميلة ، وتتمنى أن تتحدث عن حبها ، ولم تكن تفكر فى أمر موتها ٠ أما الفلاحون فقد عادوا الى درجتهم التى كانوا يعيشون فيها ، دون خمر ودون مساعدة ، لأن الورثة قسموا الضيعة فيما بينهم٠ وظلت القرية تحفظ الذكرى الجميلة لصنيع زوجة صاحب الضيعة ، وتسحب كل شيء عداها ليدخل دائرة النسيان ٠ وبقيت القصة : فى هذا المنزل كانت تعيش امرأة عجيبة صالحة ٠ حقا ان أحدا لا يستفيد شيئا من هذا ، ولكن يمكن القول انه عمل جميل ٠

لقد أثارتنى هذه الحكاية التى تشبه الحياة فى لذعها وغرابتها ، والتى تشبهها أيضا فى صعوبة الاقتناص ٠ كما أثارنى ما كان من حسن من قبول ساخر أو رفض هادىء لدوامة الحياة القلقة ، تلك التى يجب على الانسان أن يعيها كى لا يصيبه الجنون ٠

ضحكت ، كى أخفت غضبا فى الامكان أن يظهر ، وضيقا من أجل هذه الموعظة ، ورحت أقول :

ـ اثبت على ناحية بحق الرحمن الرحيم ، حدد نفسك ، اتخذ لك سندا ٠ انك متردد فى جميع أمورك ٠

ـ انك على حق ، فأنا في كثير من الأمور متردد ٠ أيعد هذا أمرا سيئا ؟

ـ لا ، ولا يعد حسنا كذلك ٠

ـ يعني ، ليس حسنا ، وفي الوقت نفسه ليس سيئا كذلك ٠ وأما ثبات الانسان فهو أمر حسن ٠ وهل يمكن أن يكون سيئا كذلك ؟

ـ انني لا افهم ٠

ـ أيوجد شيء تثق فيه تمام الثقة ؟

ـ انني أثق في وجود الله ٠

ـ ولكنك ترى ، ان اولئك الذين لا يؤمنون بالله ايضا واثقون ٠ ولربما كان من الأفضل لو لم يكونوا هكذا واثقين ٠

ـ نعم ٠ وماذا بعد ٠

ـ لا شيء ٠

غير اني ندمت على الفور اذ ألقيت هذا السؤال ، دون ان الاحظ الفخ الذي نصبه لي منطق الحكيم الغادر ٠ كم كانت هذه الفكرة عاقلة وخطيرة في الوقت نفسه ! ولكنه قادني اليها متلاعبا ٠

انه واسع الاطلاع غزير المعرفة بشأن تردده ٠

لم يكن يزعجني أن كان الأمر هكذا ، اذ لم يعد يزعجني بعد شيء من ذلك الذي يخصه ٠ لقد أحببته الى درجة جعلتني ـ وانا اجادله ـ أسلم بصواب ما قال ٠ وكان حبيبا الى قلبي حتى في تلك اللحظات التي يجانبه فيها الصواب ٠

ان يوما واحدا يمر علي بدونه كان يبدو لي فارغا وطويلا ٠ كم كنت أنضج في هدوء تحت ظله ٠

كان ابوه ينتظر كل ما يمكن أن يفاجئه دون خوف ٠ وقد أحاطه ذلك الحب الذي دبت فيه الحياة ٠

لقد كنت أنا وابوه أشد رجلين في العالم احتياجا اليه ٠

ولذا حزنت عندما علمت أنه ينوي القيام بالسفر ٠

ذهبت الى بيته ، اذ لم أره يوما باكمله • فوجدته يلعب بالنرد مع أبيه ، جالسا الى جانب فراشه •

كان العجوز يلقى الزهر فى غضب بين المثلثات السوداء والبيضاء قائلا :

ـ (أخص) لعنة الله عليـك ، بم أتيت ! يا فضـل ، ان الحظ لا يحالفنى (هكذا كان يشكو للخادم)

ـ هل نفثت فى الزهر يا أغا ؟

نفثت ، وليست هناك فائدة • هل زينب هنا ؟ لكى تضع الزهر قليلا بين ثدييها •

ـ يا لعيب ما قلت ، يا أبى !

ـ ماذا يمكن أن يكون عيبا منى بعد ؟ أيكون عيبا يا فضل ؟

ـ لا ، يا أغا ، معاذ الله •

ـ يا أبى ، من الأفضل أن تمسحه بكم الدرويش •

ـ حقا ؟ الا تكون غاضبا يا أحمد أفندى ؟ والله ان هذا يفيد •

وهنا ابتسم لى حسن قائلا :

ـ اننى سعيد بمجيئك •

ـ ما رأيتك منذ البارحة •

وهنا قال العجوز فى غضب :

ـ ارجئا الحديث حتى أكسب • الآن بدأ الحظ يبسم لى •

ـ لقد تحسنت صحة والدى •

ـ أتريد أن تقول اننى أصبحت قوة جامحة ؟

وحقا لقد كسب ، وكان يرى متعبا ، كما كان يبدو صافيا لفرط سروره • كان أشبه شىء بالطفل ، أشبه شىء بحسن •

ـ سأسافر الى دوبروفنيك •

هكذا أخبرنى حسن ، وهو ينظر الى والده مبتسمـــا ، كما لو كان الوالد هو السبب فى ذلك •

ـ لماذا تسافر ؟

ـ من اجل التجارة • وسوف يسافر أصدقائي أيضا ، سنذهب معـــا •

ـ ستذهب المرأة اللاتينية وسيذهب هو ايضا • وأما مسألة التجارة فقد ابتدعتها •

ـ لم أبتدعها •

ـ ابتدعتها • لو كان سفرك من أجل التجارة لأفلحت في اقناعك بالعدول عنه ، أما من أجلها هي فلا أستطيع ، انها أهم •

ـ لقد توهم والدى امورا كثيرة •

ـ أصحيح هذا ؟ انني اذا كنت قد كبرت فليس معنى هذا أنني نسيت كل شيء وأما أن هناك اشياء لا أستطيع أن اعقلها فهذا أمر آخر •

ـ أيوجد شيء لا تستطيع أن تعقله ؟

ـ نعم •

كان العجوز يوجه حديثه الى ، كما لو كان غاضبا من حسن •

ـ نعم ، لا أستطيع أن اعقل أن يكون سفره مع زوجة وزوجها • أن يسافر الثلاثة معا • من المجنون الآن ؟ ابني أم ذلك الرجل (اللاتيني)

ضحك حســـــن دون أن يبدو عليه أنه أحس ولو بذرة من الاهانة وقــال :

ـ أم كلاهما • يبدو أنك لا تعترف بالصداقة ؟

ـ الصداقة ؟ مع النساء ؟ يابني ، فيم انفقت السنوات الثلاثين التى مرت من عمرك ! ان الصداقة مع النساء لا يعقدها الا الرجل الشاذ الذى يميل الى جنسه •

تدخلت فى هذا الحديث المزعج ، الذى كان حسن يتلقاه بالضحك ، حيث قلت :

ـ لعله صديق للزوج •

ـ عليك يا أحمد افندى لا ينبغي القاء اللوم ، فأنت رجل لا تستطيع

أن تدرك مثل هذه الأمور • ان الزوج عندهم يستقبل أصدقاء زوجته ، وأما الزوجة فلا تستقبل أصدقاء زوجها أبدا •

ـ كفى يا والدى سوف يصيبك الربو •

ـ لسوء حظك لن يصيبنى الربو ، فالجو اليوم صحو ، والهواء عليل ، ودون جدوى تحاول ان تخوفنى • كنت أقول له اذا كنت لا تهتم بها فلا تجعل وقتك يذهب سدى ، واذا كانت لا تريدك فابحث عن أخرى، واذا كنت تحبها وكانت تحبك فاغتصبها •

ـ لدى والدى كل شىء بسيط للغاية •

ـ وأما لماذا يذهب ، وماذا يبغى بذهابه معهما ، فليتول الشيطان فهمه • غير أنه مما لا شك فيه أنه سوف يأخذ معه الخدم المسلحين ، لكى لا يهاجم قطاع الطرق رفقاءه فى السفر • ولكن أليس من الممكن أن يكون هو أيضا عرضة لهجومهم ؟ ان لدينا كل شىء بسيط ! ولديكم أبسط مما لدينا أيها الابن المتخبط : فكل شىء لديكم غير معقول •

ـ أى صدق فيما قلته الآن يا والدى ! من أزمان بعيدة كان الأبناء أشد عنادا من الآباء ، ولو ظل الأمر كذلك لزال الفهم هكذا تماما ، ولكن لحسن الحظ أن الأبناء يصبحون عقلاء فور تحولهم الى آباء •

ـ متى تصبح عاقلا ؟

ـ من الصعوبة أن يفهم الآباء أبناءهم يا ولدى •

ـ لا تسخر ، أعرف ذلك • كم تبقى فى السفر ؟

ـ خمسة عشر يوما •

ـ لماذا هذه المدة ، يابنى الأسود ؟ أتعرف كم تكون مدة الخمسة عشر يوما ؟

ـ ربما امكث أكثر من ذلك •

ـ حسنا ، اذهب • اذا كان الأمر بالنسبة لك سواء فانه سواء بالنسبة لى أيضا • وربما عدت بعد خمسة عشر يوما لتزورنى فى قبرى • وعلى كل فاذهب •

ـ لقد قلت ان حالتك الآن أحسن من ذى قبل •

ـ فى سن مثل سنى يقف الوضعان « أحسن » و « أسوأ » احدهما ازاء الآخر ويأخذن فى التعاقب كما يتعاقب الليل والنهار • والشمعة ـ كما تعلم ـ يتحسن حالها عندما توشك على الفناء •

ـ هل تريد اذن أن أبقى ؟

ـ ان تبقى ؟ أولا انت تكذب وثانيا لو فرض أنك بقيت لعانت روحى كثيرا بسبب ذلك • لا داعى للمناقشة فقد فات الأوان • قم فاذهب • ولا تمكث اكثر من هذه المده •خمسة عشر يوما بالنسبة لى تعد كثيرا ، وبالنسبة لك تعد كافية • اصطحب معك عددا من الحراس ، فأنا الذى سادفع • وسوف يكون الأمر أيسر لى عندما اعرف أنك آمن •

ـ ان الشيخ احمد سوف يزورك مرارا فى أثناء سفرى •

ـ ان أجمل هدية جاءتك من قبل الله هى هذا الرجل الصـــالح الفطن • ولكن لا بأس من أن يستريح قليلا منك ، ولذا سوف لا نتحدث بكلمة عنك طوال هذه الأيام الخمسة عشر •

وفى الحق لقد تحدثنا عنه فى جميع أيام هذه المدة •

لقد عاد سفره بالضرر علينا نحن الاثنين • وقد عوضنا هذا الضرر بجعل اسمه ينوب عن شخصه • وكان الأمر بالنســـبة للعجوز أصعب مما كان بالنسبة لى ، اذ كان الأسى ينتابه فى كل يوم لا يجد فيه هذا الابن الذى اكتسبه من جديد ، والذى كان بوجوده يباعد بينه وبين فكرة الموت التى تراوده من حين الى حين • لقد كانت مضايقات الوالد بكثرة ما يطلبه من الابن حبا محكم التضـــافر شديد العنف ، كما كانت فى الوقت نفسه صرفا له عن مواجهة الظل القريب • فقد كان الطائر الأسود يحلق فوقه • وهو الآن يعرفه ، ويخاف منه • آكان من الأفضل بالنسبة له أن لو ظل بدون الحب ؟

لقد كنت حزينا انا الآخر من أجل سفره ، فقد جعلنى اعتاد رؤيته ، والآن بالذات كنت فى حاجة اليه •

كانت حياتى هنا تنقسم قسمين ، قسم يضم الماضى ، وقسم لا أعرف ما يكون فيه • كنت انتظر فى كمين ، كما يفعل الصياد ، مترقبا وصبورا، ولكن لم آكن على ثقة من أنه لا يوجد هناك كمين ينتظرنى ، ومن أننى لن اقع أنا الآخر فى الشباك • لو كان الصديق بجانبى لهـــدأ وجوده تلك القشعريرة التى تنتابنى من أجل خطوة غير مسموعة يرسلها الى القدر لقد

كان هناك فزع يتملكني من أجل احساسي بالقتامة وبالسرية ازاء كل شيء لا أراه ، هذه السرية التي سوف تتكشف لي ، ولكن كان يراودني أيضا في الوقت نفســـه اغتباط هاديء من أجل حدوث ما ،نتظر ، فقد وقع الاختيار على أن أكون منفذا لارادة أقوى من ارادتي • غير اني لست سلاحا وحسب ، ولا يدا تابعة لغيري ، كما ،نني لست قطعة حجر أو خشـــب ، بل انسان أنا ، وأخاف احيانا أن تكون نفسي أضعف من رغبتي ، أو أن تمزقني الكراهية المشبعة ، كما تمزق البذرة الناضجة غشاءها الذي تم نماؤها فيه •

انني أستطيع مع حسن أن انتظر في هدوء كما استطيع معه أن أنضـــج في أناة حتى أصل ،لى لحظة فيها يرفرف العلم الأخضر (١) فوق القصبة بدلا من أن يوضع فوقي جوخ الموتى •

كنا ننتظر أن يعود من السفر ذلك الرجل الوحيد الذي كنا نهتم به • لم يكن بامكان العجوز أن يخفي اضطرابه ، فقد بدأ يصيبه بشيء من الشتائم كما لو كانت السيطرة القديمة الخشنة لم تضعف بعد ، ولكن عاطفة الحنو والشفقة التي كان يحاول على الدوام اخفاءها كانت لا تلبث أن تتحول بعد قليل الى تحسر لم يستطع مقاومته •

– ليذهب الشيطان به وبتلك المرأة اللاتينية • لقد أصبحت أولى به وأحق من والده الذي أنجبه • ولو انها كانت على شيء لالتمسنا له بعض العذر • ان جراما واحدا من اللحم لا يكسو عظامها • ولكن ليكن له ما شاء ،فلتسحبه بعينيها الزيتيتين ، ولتتنقل به في أنحاء العالم الرحب مادام قد جن • خمسة عشر يوما ياولدي التعيس !! من الممكن أن تهطل الأمطار وان يقســـو البرد وأن يهجم قطاع الطرق • لا شيء يجدي من التحدث الى المجنون • اجلس انت ، يا والدي ، هنا في ركنك ، مستندا كالشبك (٢) ، وانتظر • سر كالمصعوق عندما يفتح الباب ، وعندما يسرع أحد على غير العادة في الصعود على السلم ، انهض مذعورا من نومك بسبب ما رأيت في حلمك القصير من صور سوداء وتكهنات شريرة • سنة من عمري سوف ينتزعها اذا نجوت من الموت الآن • لقد وعد أنه لن يرحل الى أي مكان ، وعد ولم يف • أنجب الولد لعذابك فقط ، كي تكون حياتك أصعب • آه ، غفرانك ربي ، بم أنا أثرثر •

---

(١) علم يخص المسلمين ويرفع في الاعياد الدينية والمناسبات الرسمية •

(٢) أنبوبة طويلة من خشب في نهايتها مكان لوضع التبغ •

كان الفضل يقترح على العجوز أن يأتيه ببعض الأصدقاء ليلعبوا معه النرد أو ليتبادلوا الحديث ، كما كان يريد أن يخرج بالمهر في الفناء ويأتي به أسفل النافذة بغية أن يتسلى برؤيته ، وكان يسأل أن يذهب الى الجبل ليحضر له قدرا من مياه العين ، تلك التي من شأنها أن تنقي الدم وتقويه ، ولكن العجوز رفض كل شيء وطلب فقط أن يضعوا له عددا من الوسائد على الأريكة من ناحية النافذة ، وأخذ يحدق بعد ذلك الى الباب الخارجي للبيت ، كما لو كان في الامكان أن يبكر حسن بالحضور ، أو كما لو كان هذا الوضع يسهل عليه تخيل عودته ·

كيف قضى هذه السنين الطويلة بمعزل عن ابنه ؟ ـ هكذا كنت افكر وقد فوجئت بهذا الحب وهـذا الحزن من أجل الفراق · وكان يتردد على ذاكرتي ما ورد على لسان حسن من تفسير عجيب لهذا الحب ، وذلك أن مخاصمتهما العنيدة كانت هي المبرر له ، واليها يرجع كونه على هذه الصورة · لو ظل هذا الحب على الدوام منذ البداية الى النهاية لاصابه التعب ولنسل ريشه · ولو لم تكن توجد الرغبة في احيانـه لجف وانقطع · لم يكن يزعجني هــذا الحب في البداية ، كنت أحس بفتور ازاءه ، ولعلني كنت أشـعر بنفور منه · وكنت اقول في نفسي بغضب ، ماذا تريد أيها العجوز ؟ أيجب على العالم أجمع أن يرى حبك هذا ؟ وهل من الصعب على الانسان أن يظهر حبه بمثل ما تظهره انت ؟ انه لأيسر على الانسان أن يتأوه وان يبكي من أن يعاني ما يعاني في صمت · وما هو حبك ؟ انه رقة العجوز ، خوف يراود الانسان قبيل الموت ، رغبة لامتداد الحياة ، أنانية تتشبث بقوة الأخرين ، سلطان دم الأبوة · ولماذا ؟ لأجل التلذذ بظلم بسيط والقبض على يد الابن في محاولة يائسة ، عندما افلت وولى كل شيء ·

غير انني بهذا الهجوم وبهذا التقليل من شـأن ذلك الحب كنت ادافع عن نفسي دون جدوى · فقد كان هذا الحب يهزمني · وكنت أفاجيء نفسي في أثناء تفكيري عن والدي وأحاول أن أقربه مني ، وأرى هل في الامكان أن أنتظر في سرور كلمته ، أن تتملكني هزة من أجل مرضه ، أن اتنازل من أجله عن كل ما أوده وتشتهيه نفسي ؟ والدي ـ بهذا النداء كنت أحس مندمجا في هذا الحب ، مستخلصا كل عذاب الحياة من نفسي كي أثير بالاشفاق حاجتي الماسة اليه ـ والدي ، أبي · ولكنني لم أستطع أن أجد كلمة أخرى ، فالانعطاف الشـديد لم يكن بيننا · وربما أصبت بضرر من جل هذا : غير أن ذلك الارتباط الذي

يكون بين شخص وآخر يعد ضرورة فطرية في طبيعة الانسان • وربما قبلت صداقة حسن بهذا النحو من الظمأ كي أترضى تلك الضرورة الانسانية ، التي تعد أقوى من العقل •

لقد تلقاني العجوز في بداية ترددي الى البيت بشيء من الارتياب • وكان يحاول أن يتحدث في بعض الأمور العابرة ، ولكن كلمات الاطناب التي يأتي بها كانت تخنقه ، وما كان باستطاعته أن يفلح في الكذب • تعجبت كم كان حسن يشبهه ، غير أنه كان مهذبا متأنقا على جانب من اللين والرقة •

قال يحدثني :

ـ عجيب أنت أيها الرجل ، تتحدث قليلا ، فتخفي بذلك نفسك •

فأسرعت أوضح له أن ذلك ربما يرجع الى طبيعتي الخاصة ، التي اكدتها بحياتي وفق ما يتطلبه نظام طريقتنا • وأما اذا كنت أبدو غريبا فذلك مرجعه دون شك الى جميع ما حدث لي •

ـ انك تتخفى وراء الكلمات • ولا أستطيع أن أرى ما في داخلك • ها قد لحقتك المصيبة ، لقد ذبحوك أسوأ ما يكون الذبح ، ولم أسمع منك شيئا من اللعن أو الحزن ، وكثيرا ما كنت تتحدث عن الأخ •

ـ ان ما حـدث لي يبلغ من الصعوبة حدا لا أملك ازاءه قدرة كي أتحدث عنه • انني أستطيع أن أقوله فقط لمن يكون بمثابة الأخ •

ـ هل وجدت من يكون بمثابته ؟

ـ نعم وجدت •

ـ لا تؤاخذني ، انني لا أسأل من أجلي •

ـ أعرف • فكلانا قد ارتبط به ، وكان ارتباطك أكثر بمقتضى قرابة الدم والأبوة • وأما ارتباطي فكان أساسه الصداقة وهي أقوى من كل شيء يمكن للانسان أن يحسه دون أن يستشعر ذنبا •

ولو كنت في حاجة الى أن أخدعه لخدعته ، وبسهولة ، لأن اسم الابن كان يخدر مكره وحذره الناتج عن طول تجاربه • ولكن الأمر لم يكن يتطلب ذلك ، اذ كنت حقا أعتقد هكذا بشأن ارتباطي به • وأما انني كنت أتحدث في مهابة فقد كان ذلك مراعاة للعجوز ، كي يكون وقعه لديه أجمل ، وكي أهدىء خوفه من الرجال الذين يتسترون •

لقد كان من أجل الابن يحاول أن يتكشف امرى ، ومن أجله كان يتقبل مجيئي اليه والتقائي به ۰ وكان المكر والثقة ينموان ويترعرعان من جذور واحدة ۰

وقد اتاح لنا غياب حسن ان ناخذ في نسج قصة عنه ۰ تبدا بقولنا : كان هناك امير ۰۰

وللعجب كان حسن بنفسه يتحدث في اغلب الأحيان عن هزائمه ، دون ما أثر لحزن ، بل كان يرى ضاحكا ۰ ولكن هذه الهزائم بمقتضى ما يعكسه التفكير المتناقض الذى كان يفطن اليه جيدا ، لم تكن تبدو شـديدة ومقنعة ۰ وربما كانت بسـحر صدقه المتهلل تتحول الى انتصارات لا يريد التحدث عنها ، ولا يهتم بأمرها كثيرا ۰

وحاولت بعد ذلك أن أفصل القصة عن الواقع ، ولكن على الرغم مما كنت أبلغ من معرفة الحقيقة فقد كنت اعانى صعوبة في أن أحرر نفسى من السحر ، ذلك الذى كثيرا ما نتورط فيه ، راغبين أن نحصل على بطل لأنفسنا نتعلق به ونتخذه قدوة ۰

وبحسب ذلك الجزء الذى لا أثر فيه للخرافة ، كان يبدو أن شيئا غير عادى لم يكن يتميز به الرجل ۰ فبعد أن اصطلى في المدرسة بنار الحماس الدينى ، وبعد أن تعلم في شبابه فلسـفة ابن سـينا الطبيعية والنقدية عند أحد المفكرين الفقراء الأحرار ، ممن كان يكثر أمثالهم في الشرق ، وكان يذكره كثيرا بالمودة والسخرية ـ دخل الحياة بحمل يحمله كثير منا : جعل الرجال الكبار مثلا أمام الأعين والحرص على اتباعهم ، واغفال هؤلاء الرجال البسطاء الذين سوف لا نلتقى الا بهم ۰ ويتفـاوت تحرر النـاس من هؤلاء الكبار غير اللائقين : فبعضهم يتحررون بسرعة ، وآخـرون يتحررون في بطء ويوجـد هنـاك من لا يتحررون ۰ وما هو حسن لم يكن باستطاعته أن يتأقلم عندما كان باستانبول، فهو شخص شديد التعلق بكل عاداته وتقاليده ، شديد المراعاة لكل ما يتعلق بأمر وطنه ، شـخص يعتقـد أن القيم الانسانية سوف تجد اعترافا بها في كل مكان ۰ وعندما وجد نفسه في عاصمة غنية ـ من شانها أن ترى العلاقات والارتباطات فيها بين الناس معقدة ، قاسية بالضرورة كقسـوة العلاقات بين أسـماك القرش في بحر بعيد الغور ، كاذبة الحسن ، منافقة التهذيب ، متشابكة كخيوط العنكبوت وما ينصبه من شرك ـ تشابك الشرف الساذج في رقصة حقيقية من

رقصات الشياطين • وبهذه المخلفات التى كان يرتديها ، والتى كان يحاول ان يشق بها طريقه فى حشود استانبول ، وبايمانه الساذج فى الشرف حيث بدا أشبه بالرجل الأعزل الذى يدخل المعركة ضد القراصنة الماهرين الذين تسلحوا بأخطر سلاح ، وبصحوه الذى لا يحمل الشر ، وشرفه وعلمه المكتسب ، دخل حسن فى حلقة الوحوش هذه بخطى الغافل الثابتة • ولكن حيث أنه لم يكن بليدا فقد أحس فى سرعة على أية جذوة يضع قدمه • وكان فى امكانه اما أن يوافق على كل شىء ، واما أن يبقى دون أن يحس به أحد ، واما أن يعود • ولكنه ، شاذا عن الآخرين كعادته ، ورافضا تلك القسوة الاستامبولية ، أخذ يفكر فى قصبته أكثر مما كان يفكر ، ويضع العيش الهادىء فى تلك القصبة فى مقابلة العيش العاصف فى هذه المدينة • كان الناس يسـخرون منه ، وكانوا يتحدثون عن تلك الولاية النائية المتخلفة ، وكان يسالهم فى عجب : فيم تتحدثون ؟ على مسافة لا تبلغ ساعة من السير على الأقدام توجد ولاية بلغت من التخلف درجة يصعب على الانسان تصورها • هنا ، بجانبكم ، غير بعيد من هذا الرواء البيزنطى ، وهذا الثراء الذى يزحف من أطراف الامبراطورية ، يعيش اخوانكم أنتم عيش الفقـراء والمساكين • أما نحن فلسنا فى رعاية أحد ، نعيش دائما على تخوم تتصارع القوى حولها • وعلى الدوام نكون ميراثا لأحد • هل من العجيب اذن أن نكون فقراء ؟ قرون طويلة مرت ونحن نبحث عن أنفسنا ونحاول التعرف على كياننا ، وعن قريب لن نستطيع أن نعرف حتى من نحن ، وقد بدأنا أن ننسى حتى أننا نريد شيئا ، والآخرون يمنحوننا الشرف بالسير تحت اعلامهم لاننا لا نملك علما لنا ، يجتذبوننا عندما يشعرون بالحاجة الينا ويلفظوننا بعد أن نقوم بخدماتهم ، اتعس ولاية فى العالم ، اتعس أناس فى العالم ، نفقد وجهنا ولا نستطيع أن نقبل وجه الآخرين، مبعدين لا يقبلنا أحد ، غرباء بالنسبة للجميع ، حتى لأولئك الذين كانوا منا ، وحتى لأولئك الذين لا يقبلون أن نكون من ذويهم • نعيش فى مفترق تخوم الأوطان ، فى مفترق تخوم الشعوب ، اننا هدف للجميع، ودائما تلحقنا التهمة من أحد • وعلينا تتكسر أمواج التاريخ ، كاننا صخور • لقد أضجرتنا قوة الآخرين ، ومن المصيبة خلقنا الفضيلة : أصبحنا كرماء بدافع العناد ، وأصبحتم قساة بطغيان الترف • من المتخلف اذن ؟

كان بعضهم يكرهونه ، وبعضهم يحتقرونه ، وآخرون يبتعدون عنه . وكان ازاء ذلك يزداد شعورا بوحدته وحنينا الى وطنه . وذات يوم ضرب مواطنا له كان يلقي في أثناء حديثه بفكاهــــات لاذاعة عن البوسنويين ، ثم خرج الى الشارع ينتابه الحزن والخجل ، بسبب ما كان منه وما كان من مواطنه . واذ ذاك ســمع صوت المرأة الدوبروفنيكيه وزوجها ، وهما بجانب أحد الدكاكين ، يتحدثان بلغته . وبدا له في هذه اللحظة أنه لا توجد لغة انسانية أجمل منها ، ولا يوجد أحب اليه من تلك المرأة الرشيقة ذات المظهر السامي وذلك التاجر البدين الذى ينتمى الى دوبرفنيك .

ومرت شهور عديدة لم يكن حسن يعمل خلالها شيئا ، واصبح مهدود القوى مفكك الاوصال بتاثير البطالة وتسكعه بدون جدوى في مدينة كبيرة كهذه ، وكان الوالد يرسل اليه النقود في سخاء ، مزهوا بهذه الوظيفة السلطانية التي يشغلها ابنه . وبينما كان التاجر الدوبروفينيكى ينهى اعماله ، كان حســـن يصحب زوجته الى أجمل الأماكن في استانبول ، وكان يسمع أجمل لغة من اجمل شفتين ، ناسيا أتراحه المضحكة ، ويبدو أن المرأة أيضا لم تكن تحاول الابتعاد والهرب منه . وفى الحق ان أكثر ما كان يجذب اهتمام السيدة الدوبرفينيكية الرقيقة التى نشأت في مدارس « الاخوة الصغار » ، الى هذا الشاب البوسنوى ، لم يكن مرجعه الى ذلك الجمال الذى اتصف به أو الى ما أصاب من تهذيب وثقافة ، بل كان يرجع فوق هـذا كله الى كونه بوسنويا . لقد كانت تتصور أن أهالى هذه الولايات النائية يتصفون بالخشونة والحمق ، وفراغ العقول وحدة الطبع ، وانهم يمتلكون شجاعة لا تنال كثيرا من التقدير عند أهل الاتزان بل قد لا تصادف شيئا من التقدير عندهم ، كما أنهم يتميزون بنوع من الفخر المضحك من أجل خدمتهم الامينة لمن لا يعد في منزلة الصديق أو الحليف . وأما هـذا الشاب فليس خشنا ولا فارغ العقل ولا جاهلا ، بل انه يعلو بتصرفاته الى الدرجة التى عليها أبناء النبلاء في دوبروفنيك ، فهو شيق الحديث ، مفيد الصحبة ، والى جانب ذلك هو معجب بها (وهذا هو ما رفع قيمة صفاته جميعا) وعف اللسان الى درجة كانت تجعلها تنظر مرتابة في مرآتها كلما عادت الى البيت . لم تكن تفكر في الحب ، ولكنها كانت قد تعودت أن تتلقى عبارات الغزل والاطراء . وكانت تنتظر منه هذه العبارات في اضطراب وقلق ، وعندما أحجمت عن الصـدور تملكتهــا

الدهشة واخذت تحدق فيه باهتمام بالغ . وما كان يتسنى لحسن وهو الشاب العف الذى لا يزال فى مقتبل العمر أن تجرى على لسانه كلمة سهلة لا تلزمه ولا تلزمها بشيء . ولم يكن حسن هو الآخر يفكر فى الحب ، فقد كان يكتفي بتهلله واغتباطه من أجل هذا اللقاء . ولكن الحب كان يفكر فيه : فقد تورط في الحب بعد قليل . وعندما كشف ذلك في نفسه أخفاه عنها محاولا تجنب اظهاره ولو بنظرة . غير ان المرأة أدركت ذلك على الفور ، اثر ظهور الوهج الشـديد في عينيه (وقد اضطرت للاعتراف اذ ذاك بأنهما جميلتان) وبدات تشد عرى الصداقة كى تحمى نفسها ، متصرفة تصرف الأخت دون ما أدنى حرج . وبمرور الوقت كان حسن يزداد اغراقا فى الحب ، فآونة يخترق لججه ، واخرى يطفو فوق أمواجه ، وليس في ذلك ما يدعو الى العجب . فقد كانت جميلة (اقول هذا عرضا لأن هذا ليس مهما فى الحب) ، وكانت على درجة من اللطف بالغة الرقة ، وهذا هو المهم بالنسبة للحب ، كما كانت أول مخلوق في العـالم أبعد عنه اضطرابه المحتدم واقنعه ان هناك أمورا لا يمكن للرجل الشاب ان يغفلها دون ان يصاب بضرر .

لقد قام بدور المساعدة لهذا الدوبرفينيكي لدى أحد البوسنويين ، هو ابن سنان الدين الصائغ ، حتى يتسنى له فى أسرع وقت ممكن انهاء عمله الذىاتى من أجله ، وهو الحصول على تصريح بالتجارة مع البوسنة والتمتع بنظام التفضيلية . بهذا استمال عاطفته وكسب وده ، لكنـه فى الوقت نفسه قصر زمن اقامتهما ، لقد كان سعيدا بما ناله من ثقة الرجل ، تلك الثقة التى بدت كما لو كان ذنب الحب قد غفر بها ، وكان تعيسا من اجل الفراق القريب الذى لو حدث لتركه يعانى مللا أشـد من ذلك الذي عاناه من قبل . ولكن أكان الرجل الدوبرفنيكي يشعر بالثقة نحوه ، أم انه كان يقيده بها لأنه ذو علم بالناس ، أم انه كان يثق بزوجته الى هذه الدرجة ، أم أنه كان لا يملك خيالا يذهب به هنا وهناك ويصور له بعض التصورات ، ام ان الأمر كان بالنسبة له سواء ، من الصعب الاجابة عن ذلك . غير أنه من الممكن أن نقول ان هذا الرجل لم يكن متهما فى هـذا الحب المضحك . اقول : المضـحك ، وأقول : الحب ، لأن الأمر حقا كان هكذا . وبدافع من الخوف أو من التشجع بالنسبة لهذا السفر القريب صرح حسن لماريا (وهذا الاسم أصله مريم) بأنه يحبها .

ولست أدرى أكان من أجل ما ارتسم على وجهها من شحوب ، وان لم تكن قد سمعت سوى ما كانت تعرفه ، أم بدافع من السذاجة ذلك الذى قاله حسن مما ليس في استطاعة الحكيم المجرب حتى أن يفكر في قوله ، من أنه حزين من أجل زوجها ، لأنه صديق له ، ولعل الأمر يجرحها كذلك ، لأنها امرأة شريفة ، ولكنه كان مضطرا لأن يعترف لها بذلك ، ولا يدرى ماذا سيصيبه بعد ذهابها • وهكذا كانت المرأة بدورها مضطرة الى أن تجعل من زوجها وشرفها وقاية لها ، وان ترده الى المكان الآمن ، مكان الصديق لهذه العائلة • ويا للعجب ، لكأنما كانت سذاجة حسن هذه قد أطاحت بشدتها وصرامتها : فقد بدأ أنها أحبته عندئذ • ولكن الأمانه لمبادىء الكاثوليكية التى كانت ترعاها هذه المرأة بحكم نشأتها فى رعاية الآباء القديسين ، وخوفها الصادق من الذنب ، قد دفنا هذا الحب في مسارب أعماق قلبها ، وأمليا عليه الا يجبرها على اظهاره ، وكان أن شملته سعادة غامرة ، اذ أدرك أنه حظى بحبها • وبعد أن قص عليها كل أموره ودخائله ، كاشفا لها حتى ذلك الذى لم يكشفه لأحد ، اقترحت عليه أن يذهب معهما فى الباخرة سالكا طريق دوبرفنيك فى اتجاهه الى البوسنه ، اذ أن شيئا لم يعد يربطه باستانبول • لقد ارادت أن تثبت لنفســها وله أيضا أنها لا تخاف من نفســها ولا منه • وقالت : — وأوضحت له ذلك لأنه لم يكن يعرف الفرنسية — طريق اطول قليلا ، يسلكه الطلاب عند عودتهم الى ديارهم بعد انتهاء عامهم الدراسى ، ولكنه أكثر أمانا • وكانت تدافع عن فكرتها بالفرنسية كذلك ، اذ كانت تشعر أنها تثير حماسه بمعرفتها تلك اللغة العجيبة ، التى خلقت للنساء • وفاتها أنها لو كانت تتحدث حتى باللغة الغجرية لأثارت أيضا حماسه • كما فاتها أن دفاعها كان ضعيفـا بسبب ما كانت تثيره في الرجل من حماس • وفى الباخرة كان التقاؤهما أقل كثيرا مما كان يأمل حسن ، فالتاجر كان يتحمل البحر الصاخب الهادر فى صعوبة ، وقد قضى مدة السـفر تقريبا فى فراشـه يتعذب ويتقايأ • ورأى حسن تلك الحالة التى كان عليها الرجل ، وأحس برائحة كريهة يلزم من أجلها تهوية القمرة ساعات عدة لتصبح من جديد ، فى لحظة ، بعد الغسل والتهوية ، على ما كانت عليه من القذارة والعفن ، وأما الرجل المسكين فقد كانت الصفرة والزرقة تتناوبان وجهه كما لو كان يحتضر • — وربما يدركه الموت ، هكذا كان يفكر حسن فى خوف ، وأمل أيضا ، ثم يعاوده النوم بسبب قسوته هذه • وكانت ماريا ، بنوع من فهمهـا السىء للتضحية والصـبر ، تقضى مع الزوج أغلب الوقت ،

وتقوم بتنظيف القمرة وتهويتهـا ، وتهدىء زوجها ، وتقبض بيد على رسغه وتضع الأخرى على جبهته عندما كان يتقلص من شـــدة التقيؤ الأمر الذى لا يقلل من عذابه والذى لا يجعل تلك الصورة المقززة لتزيد من حبها اياه • وحينما كان النوم يغلبه كانت تصعد الى ظهر السفينه ، حيث يكون حسن بانتظارها فاقد الصبر • ليرى صورتها الرشـيقة تناسقت أجزاؤها ، وكان يعد الدقائق فى خوف من أن يناديها واجبها فتهبط الى القمرة المنتنة ، ولا تملك ـ متأثرة بضحيتها ـ سوى أن تفكر فى نسيم البحر وفى الصوت الرقيق الذى كان يتحدث عن الحب • لم يكن حديثها يدور عن حبهما بل كان يتناول حب الآخرين ، والأمر فى ذلك سواء • انها كانت تترنم بأبيات الحب الأوربية ، وكان هو يترنم بالأبيات الشرقية ، والأمر أيضا سواء • وفى الحق انهما لم يكونا قط أشد احتياجا الى كلمات الآخرين مما هما الآن ، وكذا الأمر هنا سواء ، فقد بدا كأنهما ينطقان بأقوالهما • وكما كانا يحتجبان من الريح خلف مركز قيادة الباخرة أو خلف الصناديق والبالات على السطح كانا يتستران وراء ما ينطقان من شعر ، وكان الشعر اذ ذاك يجد تبريرا لوجوده فى الحياة حقا ، بالرغم مما يقال عنه • وعندما كان يستيقظ ضمير المرأة ، وذلك عندما تصبح اللحظات أكثر جمالا وروعة ، كانت تحكم على نفسها بضرورة النزول لمراعاة الزوج والتضـحية من أجله • واذ يهتم بالنزول كان الشاب يهمس بقوله : ماريا ـ مستغلا تلك الرغبة التى أبدتها فى ان يناديها باسمها مجردا ، التى بدت له مكرمة كبرى وفضل عظيم ـ هل تخرجين هذه الليلة ؟

ـ لا ، يا صديقى العزيز ، فالأبيات الكثيرة فى لقاء واحد شىء غير مستحب ، اذ من الممكن أن يصبح الأمر ذا حلاوة مفرطة • وعدا ذلك فالجو بارد ، ولو أصابك الزكام لما اغتفرت ذلك لنفسى •

ـ ماريا (وبدا كأنه يختنق) ماريا •

ـ ماذا ، يا صديقى العزيز ؟

اذن لن أراك الى الغد ؟

كانت تسمح له بأن يمسك يدها ، وكانت اذ ذاك تتسمع ضربات الأمواج ونبضات الدم فى يده ، ولعلها كانت ترغب وهى على هذه الحال أن تنسى الزمن ، ولكنها لا تلبث أن تفيق قائلة :

ـ جىء الى قمرتنا •

وكان يذهب الى قمرتهما ليختنق بهذا الجو الفاسد وهذا المكان الضيق ، وليرى في عجب كيف كانت ماريا تخلص في رعاية زوجها ، الأمر الذى جعله يخشى أن يصيبه هو الآخر دوار البحر ·

وعند اقترابهما من دوبرفنيك ، وفي الليلة الأخيرة من الرحلة ، ضغطت على يده في سرعة ، وعبثا حاول أن يلحق بتلك اليد الضاغطة ، ثم قالت :

ـ سأظل محتفظة على الدوام بذكرى هذه الرحلة ·

ربما كانت الذكرى من أجل حسن وأبيات الشعر التى كانت ترددها ، وربما كانت من أجل الزوج وتقيئه ·

وفي أثناء اقامته في دوبرفنيك كان مرتين ضيفا محببا في بيتهما ، بين جمع من الخالات والعمات والأقارب والمعارف والأصدقاء اتى للزيارة ، وفي كلتا المرتين كن يترقب الفرصة كي يهرب من هذا الحشد المجهول ، الذى كاد في شوارع المدينة لا يعير التفاتا الى زيه الشرقى ، وهو الآن في غرفة استقبال السيد لوقا والسيدة ماريا يحدق فيه كما يحدق في وحش أو في أعجوبة · وبدا كأنما الأمر غير عادى بحضوره ، حتى لقد أحس هو بالفزع وبكونه على غير طبيعته · وعلاوة على ذلك أنه حينما لاحظ اهتمام ماريا الفاتر ، ذلك الذى بدت له من أجله غريبة للغاية ، بعيدة كل البعد ، كاذبة في ابتسامتها ، اتضح له على الفور أن في بيتها بالذات يظهر افتراقهما الحقيقي · لقد كانا هنا شخصين غريبين، يفصل بينهما كل شيء ، وليس ذلك من الأمس فحسب · هذه العادات ، والتقاليد ، وطريقة التحدث ، وطريقة الصمت ، وتفكير كل منهما في الآخر من قبل دون معرفته جيدا ـ كلها كانت تمثل هاوية بينهما · لقد أدرك أن ماريا في هذه المدينة تحميها وتدافع عنها البيوت ، والأسوار ، والكنائس ، والسماء ، ونسمات البحر ، والمواطنون ، ونفسها التى لا ترى في مكان آخر كما ترى هنا · نعم يحميها كل ذلك وبالذات منه ، وربما منه فقط · ولعله يحميه هو الآخر منها بالذات · اذ كان الذهول يعتريه من كونه يعيش في هذه المدينة الرائعة وحده وهي على مقربة منه ، وقد جلب الى نفسه حزنا لم يكن قد أحسه من قبل ، وبفرح ألقى تحية الوداع على المدينة عندما وجد احدى القوافل التجارية قد اتخذت اهبتها للرحلة من « بيل » الى « بوسنه » ، وظل الفرح يلازمه وهو يرى ثلوج جبل ايوان ، ويشاهد ضباب بوسنه ، ويحس برياح جبل ايجمان

القارسة ، ثم أخذت البهجة تستولى عليه وهو يدخل الى القصبة المكفهرة ، وقد حشرت بين الجبال ، ويعانق أهلها ويمطرهم بقبله ، وبدت القصبة في ناظره أصغر مما كانت ، ولكن البيت بدا أكبر . وأفهمته أخته في لطف ان من الخسارة أن يلحق البلى بيت الأم بتركه خاليا . فقد كانت تخشى أن يتخذ من هذا البيت الكبير الذى يقطنه الأب دار اقامة له . وحدث أن خاصم حسن اباه عقب عودته ، وربما كان السبب الأكبر لذلك أن الشيخ كان قد نشر اخبار شهرة ابنه وذيوع صيته فى استانبول ، لكى يوغر صدر نسيبه القاضى الذى لم يكن الشيخ يطيقه ، وها هو يدرك الآن أنه قد خدع وأن الخزى قد أصابه . وعزا اهالى القصبة عودة الابن الى الفشل ، اذ أن أحدا لا يتصور أن شخصا يتميز بالعقل يعود من استانبول الى القصبة ويترك وظيفته المرموقة لدى السلطان لو لم يكن مضطرا الى فعل ذلك . وتزوج ، وكان ذلك بسبب ماريا وبسبب ما كانت تثيره الذكريات ، ومن أجل هذه الغرف الخالية ، ومن أجل الحاح الآخرين . وبصعوبة تحمل أن يبقى شتاء واحدا مع زوجته .. البليدة .. الثرثارة .. الجشعة ، ثم تحرر منها ومن أسرتها كذلك ، واهبا لهما ضيعته على مشارف القصبة ، والنقود التى أقرضهم اياها . وبعد ذلك أخذ يضحك . ان موطنه لم يعد فى نظره أرض الأحلام ، وهؤلاء المواطنين لم يعودوا فى نظره ملائكة ، وليس فى امكانه ان يقوم باصلاحهم او افسادهم . وهاهم بدأوا يشهرون به ، ويشكون فيه ، ويلمزونه كلما مر بهم ، كما أخذ أقاربه يجردونه من المال دون رحمة كما تفعل الذئاب ، مستغلين رغبته في التخلص من زوجته بأسرع وقت ممكن ، ولمدة طويلة ظلت تلوكه ألسنة الآخرين ، مرحبين به كي يقتلوا ما أصابهم من ملل . وكلما تذكر كيف كان يتحدث فى استانبول عن شهامة مواطنيه انتابه الضحك . ولحظ نفسه الحسن أنه لم يكن يعاتب أحدا ، ولم يدع الحزن يغشى داخله ، بل كان يقبل ذلك كله على أنه مزاح قاسى . وكان يقوله ان الآخرين ألعن من هؤلاء يدافع كما بدا لى عن اعجابه السابق بهم وتحمسه لهم أكثر مما يدافع عن الحق . ولم تمض ثلاث سنوات حتى عاد قلبه متعلقا بحبهم ، وتعود عليهم وتعودوا كذلك عليه ، وأخذ يحترمهم ، ولكن على طريقته الخاصة ، ينظر اليهم فى سخرية ولكن بدون حقد أو عداوة ، حريصا على احترام الحياة وما فيها أكثر من حرصه على ارضاء نفسه وتحقيق رغباته : ــ العقلاء هم هؤلاء الرجال ــ هذا ما قاله لى ذات مرة ، بنبرة تجمع بين السخرية والجدية ، أخذت تحيرنى كثيرا ــ انهم يأخذون الكسل من الشرق ، والعيشة الرغدة من الغرب

لا يتعجلون اذا أرادوا الشروع فى أمر أو الذهاب الى مكانه ، لأن الحياة نفسها تسير فى عجل ، لا يشغلون بالهم بما يخبئه الغد ، فما قدر سوف يكون ، وقليل ذلك الذى يستطيعون التأثير فيه ، انهم معا فى مصائبهم فقط ولذا يودون أن يكونوا معا كثيرا ، قليلا ما يثقون بأحد ، واسهل شىء على المرء أن يخدعهم بكلمة جميلة ، لا يشبهون الابطال ، ولكن ما أصعب تخويفهم بالتهديد ، لفترة طويلة لا يلتفتون الى شىء ، فالأمر سواء لديهم بالنسبة لما حدث حولهم ، وفجأة ، يشد انتباههم كل شىء ، فيأخذون فى تقليبه ، وفى النهاية يضعونه راسا على عقب ، ثم يعودون ثانية الى خمولهم وعدم اكتراثهم ، ولا يرغبون أن يعيدوا الى الأذهان ذكرى ما حدث ، يخافون من التغيرات لأنها كثيرا ما كانت تجلب لهم الشر ، وبسهولة يجلب لهم الرجل الواحد مثلا ، ولو كان يأتى لهم بالخير • عالم غريب ، يشهر بك ولكنه يحبك ، ويطبع قبلته على خدك ولكنه يكرهك ، يسخر من أعمال كريمة ولكن يظل يذكرها سنوات عديدة ، يعيش على عناد وثواب • ولا تدرى أيهما يتغلب ومتى • أشرار ، أخيار ، رحماء ، قساة ، ثابتون ، عاصفون ، صرحاء ، كاتمون ، كل هذا يمثلهم ، وبينه يكونون • وفوق هذا كله انهم لى وأنا لهم ، فهم كنهر وأنا منه قطرة ، وكل هذا الذى قلته عنهم كأنما قلته عن نفسى •

كان يوجد فيهم ألف نقص ونقص ، ولكنه كان يحبهم • كان يحب ويسب • وأخذ يتجه بقوافل تجارته الى الشرق والغرب ، وكان يقوم بهذا بدافع من العناد كى يظهر احتقاره لهذه الوظائف التى كان يشغلها ، غاضبا مما كان يوجهه اليه أعيان القصبة من عتاب ، وربما كان السبب الأكبر فى قيامه بهذا رغبته فى أن يستريح من القصبة ومواطنيه فيها ، وأن يكون بنجوة من الشعور بالكره نحوهم ، وأن يستمد الشوق والحنين اليهم ، وأن يرى بعينه الشر ماثلا كذلك فى جهات أخرى • وهذا الجولان المستمر من نقطة معينة فى الأرض تحدد معناه وتجعله ذهابا وايابا وليس تسكعا كان يعنى بالنسبة له حرية حقيقية أو متخيلة ، وذلك أمر فى نهاية مداه على السواء • وكثيرا ما كان يقول : لو لم توجد هذه النقطة التى ربطت بها لما أحببت بلادا أخرى ولما كان باستطاعتك أن تذهب الى أى مكان ، لأنك لم تكن اذ ذاك فى مكان •

أكانت فكرة حسن هذه ، التى لم تكن واضحة لى على التمام : حتمية الارتباط ، والجهد من أجل التحرر ، وضرورة الحب لما يخصك ، ووجوب تفهم ما يخص الآخرين ـ مسألة عفوية مع بقعة من الأرض

صغيرة ، واشباعا لشهوة الحصول على شيء أكبر ؟ أم تغييرا للمقاييس كي لا تصبح مقاييسنا هي الوحيدة الملزمة ؟ أم فرارا مقيدا حزينا وايابا أشد من ذاك حزنا ؟ (كان من الصعب على أن أفهم ذلك ، وخاصة بسبب فكرتي التي كانت تخالف فكرته : هناك عالم يدين بدين حقيقي ، وآخر يدين بغيره ، واما الخلافات والفروق الأخرى فامرها اقل أهمية ، وفي كل بقعة يكون الآخرون فيها بحاجة الى يمكنني أن أعيش) •

وفي ربيع ذلك العام الذي عاد فيه حسن من استانبول ، جاء الى القصبة السيد لوقا مع زوجته ، الدوبرفنتيكية ، وعادت الأمور الى مجراها الأول ، بجديد من القوة والتزام لبعض الحدود •

ولم تكن القصبة بدورها أيضا مكانا مناسبا لحبهما • ان أحدهما كان على الدوام غريبا كلما اجتمعا في مكان • واذا كانا قد حاولا تحطيم حدود المنطقة اللاتينية وحدود قصبة المسلمين فقد ظلت حدودهما الخاصة باقية • ومما لا شك فيه أن المرأة لم تستطع أن تستمر في خداع نفسها بأن ما بينهما لا يعدو أن يكون صداقة • ولكنها ما كانت تسمح لنفسها بغير النظرات والكلمات الحلوة • هكذا على الأقل فيما يبدو • ومن المرجح أنها في أثناء اعترافاتها بالخطايا أخذت تعترف في استغفار بالفكرة المذنبة التي راودتها عن حب حسن • وأما حسن فقد كان يذهب الى أسفاره ، ويعود وملء نفسه رغبة أخذت تقوى وتشتد في أثناء غيابه لشهور طويلة •أكان هذا الحب العجيب يحدد الهدف الحقيقي من تطوافه ؟ أكان من أجله يشعر بحتمية الارتباط ، ويقوم على الدوام بمجهود للتحرر ؟

ذاك جزء حقيقي من قصة حسن ، سمعته ، عرفته ، حشوته ، أكملته وربطته في كل كدر • انها قصة محدودبة بعض الشيء عن الرجل الذي يعيش بلا موطن حقيقي ، بلا حب صادق ، بلا فكر صائب ، الذي سلم بتارجح طريقة حياته تسليمه بالقضاء والقدر ، دون بكاء على ما هو عليه من وضع • ربما يكون في هذا التسليم شيء من الارتياح المحبب ، والشجاعة كذلك ، ولكنه يعد انحرافا عن الهدف من الوجود في الحياة •

وكان ادراك ذلك يعد كسبا عظيما بالنسبة لي ، اذ أصبحت أرى أنه لم يعد يفوقني قوة •

ولكني على الرغم من ذلك كنت أراني مسحورا ، وكان يطيب لي أن انسج حكايات عن صديقي الكبير تبدأ هكذا : ذات مرة كان هناك بطل

فريد • غطى بعلمه وعقله على جميع المدرسين باستانبول • ولو أراد ان يكون قاضى العـــاصمة أو وزير السلطان لتم له ما اراد • ولكنه كان يفضل أن تبقى له حريته وأن يترك كلمته الحرة تندفع معبرة عن فكرته • لم يكن يتملق أحدا ، ولم يجر الكذب على لسانه قط ، كما لم يكن يقطع على الاطلاق بما لا تطمئن اليه نفسه ، أو يحجم عن قول ما يعلمه ، كذا لم يكن يخشى أحدا من رجال « لالا » (١) أو أصحاب الثراء ، وانما كان يحب الفلاسفة ، والشعراء ، والضاربين فى الأرض ، والصالحين من الرجال ، والفاتنات من النساء • فقد غادر مع احداهن استانبول وذهب الى دوبرفنيك ، ولحقت هى به بعد عودته الى القصبة • وهو بطبيعته يحتقر المال ، والمنـاصب ، والقوة ، كما يهزأ بالمخاطر وينشـــدها فى مضايق الطرق المظلمة وثنايا الجبال غير الآهلة • وعندما يعزم فسوف يفعل مايود ، وسوف تطير شهرته الى الأنحاء البعيدة •

وحقا ، انه من المضـــحك أن يكون بقليـل من الاصلاح ، واغفال الجزئيات ، وترك الأسباب ، وتحوير طفيف للأحداث الواقعية ــ تتحول الهزائم الى انتصارات ، واخطاء الأهداف الى بطولات •

غير أنه لابد لى من الاعتراف بأن حسن لم يكن له دخل فى خلق القصة على هذه الصورة • فنحن الذين كنا فى حاجة اليها ، وأما هو فلم تكن له بها حاجة • لقد أردنا أن نؤمن بأن هناك رجالا يستطيعون أن يفعلوا أكثر مما جرت به العادة • وكان هو هكذا ــ الى درجة ما ــ وذلك بمقتضى قبوله لجميع ما يعرض له أو يصادفه • وقد اســـتطاع بابتسامته أن يعوض ما أصاب من خسائر ، كما استطاع أن يحقق عنى فى داخله ، وكان يعتقد أن حياة الانسان لا توجد فيها الانتصارات والهزائم فحسب ، بل يوجد فيها كذلك التنفس ، والنظر ، والسمع ، والكلمة والحب ، والصداقة ، والحياة البسيطة ، التى كثيرا ما يكون زمامها فى أيدينا •

وجميل أن توجد ، ويبدو أنها توجد ، بالرغم من كل شىء ، ولكن أمرها يبدو مضحكا ، اذ هو شبيه بما يدور فى رءوس الأطفال •

---

(١) يسكن هؤلاء الرجال حول نهر السانا فى منطقة تدعى « بانات Banat » وكانوا يقاومون الاتراك •

في الأيام الثلاثة التي سبقت عودة حسن تملك الاضطراب «علي اغا» الى درجة أفقدته القدرة على أن يتحدث ، أو يلعب النرد ، أو يتناول الطعام ، أو ينام ·

ـ أسمع شيء عن قطاع الطرق ؟

بهذا كان يسأل على الدوام ، ويرسلني أنا والفضل الى الحانات كي نقوم بسؤال اصحاب الخيل التي تنقل البضائع ، وكنا نعود بأخبار طيبة ، يتلقاها بعدم الثقة ، أو يتولى تفسيرها على حسب ما يحمله من هم وضيق :

ـ اذا لم يكن قد حدث منهم هجوم منذ وقت طويل فالأمر ينذر بالسوء · لقد احسوا في أنفسهم بالقوة ، اذ ان أحدا لا يطاردهم ، ومن الممكن في هذه الآونة بالذات أن يترصدوا القوافل في الطريق · يافضل ! ايت بعشرة من الرجال المسلحين ، واستأجر لهم الخيول ، واذهب اليه · وواصل السير ان لم تجده الى « تريبينيا » وهناك انتظره حتى يجيء ـ بهذا أصدر أمره فجأة الى الخادم ، دون أن يحول بصره الى باب الغرفة ، حيث دخلت ابنته ، زوجة القاضي ، فقد كان امر ابنه اهم بالنسبة له ـ

ـ سوف يغضب يا اغا ·

ـ ليغضب ! اختلق سببا ما · اشتر التين ، أو أى شيء تريد ، كل ما اريده الا ترجع بدونه · خذ النقود · وادفع ، ودعك من المساومة ، وأهلك الخيول ، فما عليك الا أن تصل ·

ـ وماذا سيكون بالنسبة لشئونك يا اغا ؟

ـ سوف انتظركم ، وليس غير · دعك من الأسئلة ، واذهب !

وهنا سألت الابنة أباها :

ـ ألديك نقود كافية ؟ أم ادفع انا ؟

يوجد لدى · اجلسى ·

وجلست على حافة فراشه بالقرب من قدميه ·

لقد أردت أن أخرج فور خروج الخادم · ولكن العجوز استوقفني ، كما لو كان لا يريد أن يبقى وحده مع ابنته ، قائلا :

ـ الى أين ؟

ـ اردت أن اذهب الى التكية ٠

ـ يمكن للتكية أن تبقى بدونك ٠ عندما يلحقك المرض مثلى سوف تدرك أن كل شيء يمكن أن يكون بدوننا ٠

واذ ذاك تدخلت الابنة لتقول فى هدوء ، ودون أن تبدو ابتسامتها ، معاتبة والدها فيما قال ، مراعاة لأمر حسن :

ـ غير أنه بدون كل شيء لا يمكن لنا أن نكون ، حتى عندما يلحقنا المرض ٠

ـ فيم العجب ؟ هل أنا مت ، كي استطيع ان اكون بدون كل شيء ؟

ـ لا ، لا قدر الله ذلك ، ولست اعجب ٠

لقد كنت اشعر بالضيق من اجلها ٠ وكنت لا ازال اتذكر ما دار بينى وبينهـــا من حديث ندبر به أمر الخيانة ، ولذا وجدتنى أتحاشى النظر اليها ، لكي لا تلتقى أعيننا ، انها كانت تنظر في اطمئنـــــان ، جميلة ، واثقة ، كما كانت فى أثناء ذلك الحديث الذى دار بيننا والذى لا يمكن أن أنساه ٠ وكان كل شيء أمامى يبدو كذكريات كانت تتولد دون ارادتى ٠

حاولت ان ادير بصرى تجنبا لرؤيتها ، ولكن صورتها كانت تمثـــل أمام عينى ، وكنت أحس بضياء يتألق فى داخلى واضطراب يتملكنى وحيرة تنتابنى ٠ لقد ملأت المكان كله ، جعلته على صورة غير التى كان عليها ، فاصبح مثيرا بدرجة عجيبة ،وكان أن حدث الذنب بيننا ، وكلانا يحمل السر فى نفسه ، كما لو كنا قد ارتكبنا الفاحشة ٠

ولكن كيف تسنى لها أن تبدو هكذا مطمئنة هادئة ؟

وسألت والدها فى ترفق وحنو :

ـ أفى حاجة أنت الى شيء ؟ اتشعر بضيق اذ بقيت وحدك ؟

ـ منذ زمن بعيد أعيش وحدى ٠ لقد تعودت ٠

ـ ألم يكن فى امكان حسن أن يؤجل السفر ؟

ـ أنا الذى طلبت اليه أن يقوم بالســـفر ٠ وذلك لقضاء بعض الأعمال ٠ ابتسمت من أجل هذا الكذب ، وقالت :

ـ كم يطيب لي ان يكون مع أصدقائه • فالأمر مع الصحبة أيسر • انهم سيقومون بمساعدته ، وسيقوم هو بدوره بمساعدتهم • اليوم علمت أنه سافر ، وأسرعت بالحضور لأرى كيف حالك •

ـ كان في استطاعتك أن تحضري ولو لم يكن قد قام بالسفر •

ـ منذ قليل قمت من الفراش •

ـ أانت مريضة ؟

ـ لا •

ـ لم كنت اذن في الفراش ؟

ـ يا آلهي ، أيجب علي أن أصرح بكل شيء ؟ يبدو انك ستصبح جدا • كان بريق اسنانها اللؤلؤية يبدو في أثناء الضحك ، ولم يكن يظهر عليها علائم الاضطراب أو الخجل •

وما سمع الوالد قولها حتى رفع رأسه ومنكبيه ، مستندا بمرفقيه على الفراش ، وحدق فيها في دهشة وقليل من الاضطراب ـ كما بدا لي ـ ثم قال :

ـ حامل انت ؟

ـ يبدو

ـ أحقا أم يبدو ؟

ـ حقا •

ـ آه ، فليتمم الله بخير •

اقتربت منه وقبلت يده • ثم عادت الى مكانها عند قدميه •

ـ كم وددت ذلك من أجلك أنت أيضا • فبلا شك سوف تكون مسرورا بحفيدك •

كان الوالد يوجه نظره اليها في اصرار ، كما لو لم يكن واثقا من الخبر ، أو كما لو أن الخبر قد أثاره •

وقال في هدوء ، وقد بدا عليه الاستسلام :

ـ كم يكون سروري حينذاك • كم ساكون مسرورا حقا •

ـ وحسن ؟ أينوى الزواج ؟

ـ لا ، كما يبدو لى ·

ـ خسارة · لو تزوج لكان ولد ابنك بالطبع أحب اليـــك من ولد ابنتك ·

وضحكت ، كما لو كان قولها على سبيل المزاح ، والحقيقة أنها لم تنطق ولو بكلمة واحدة دون قصد ·

ـ أرغب ان يكون لى حفيد ، يا ابنتى · منك أو منـه ، فالأمر سواء · غير أنه اذا كان من البنت فهو أكثر ضمانا أنه من دمى ، اذ فى هذا لا يمكن الخداع · لقد كان يراودنى خوف من عدم استقبالى اياه ·

ـ اننى دعوت الله ألا يتركنى عاقرا ، وها ، والشكر له ، قد استجاب · كيف لا ، كثيرا ما تساعد الدعوات فى مثل هذه الأحوال !
كنت أسمع هذا الحديث ، منهزما بامعان تفكيرها المتئد ، دهشا لجرأتها الخفية التى استترت تحت هدوء وجهها الجميل ، معجبا بثباتها الذى يشبه ثبات الرجال · لم تكن تشبه « حسن » أو والدها فى شىء من صفاتهما ، وكذا لم يكونا يشبهانها فى شىء من صفاتها · أخان دم الوالد فلم يبرز خصائصه فيها ؟ أم أنه نقل اليها ذلك الذى لم يستطع ان ينمو فيهما ؟ أم أن الابنة كانت تثار من أجل حياتها الفارغة ، من أجل فقدها للحب ، من أجل تلاشى أحلام الصبا ؟ لقد اخذت الآن ـ مخدوعة فيما توقعت ، وقاسية كما اصبحت ـ تنهى فى اطمئنان حسابها مع العـالم بأكمله ، دون حزن وندم ، وبلا شفقة ورحمة · كم كانت فى هدوء تنظر الى ، كما لو لم أكن موجودا ، وكما لم نكن قط قد تحدثنا هذا الحديث الوقح فى البيت القديم · لعلها تحتقرنى الى درجة تجعلها تنسى كل شىء ، أو لعلها لا تعرف الخجل بعد · اننى الى الآن لم أصفح عنها بشأن أخى الميت ، ولم أكن أعرف بعد ماذا أصنع بها فى نفسى ، فهى الوحيدة التى لم الحقها بأحد الجانبين ، جانب أصدقائى القلائل ، وجانب اعدائى الذين اشعر نحوهم بالكره · ربما كان ذلك من أجل اصرارها الذى تفكر به فى نفسها فحسب ، وعدم اهتمامها بأحد سواها · انها تعيش لنفسها ، ولعلها لا تدرى الى جانب ذلك انهـا قاسـية · أشبه بالماء ، بالسحاب ، بالعاصفة · وربما من أجل جمالها أيضا · لست ضعيفا أمام النساء ، ولكن وجهها ليس من السهل أن ينسى ·

وعندما خرجت ، أخذ العجوز ينظر لفترة طويلة الى الباب ، ثم حول بصره الى ، وقال مستغرقا فى التفكير :

ــ حامل · حامل · ما قولك ؟

ــ ماذا أستطيع أن أقول !

ــ ماذا تستطيع ان تقول ! ان تهنئنى ! ولكن لا ينبغى الآن أن تقوم بهذا فقد تأخرت · لقد سمحت للفرصة أن تفلت منك ، وهذا يعنى عدم تصديقك لهذا الأمر · انتظر ، فالأمر ليس واضحا حتى لى أنا · خلال سنوات طويلة لم يتمكن نسيبى العف من وضع شىء من البذور ، فشيخوخته بالطبع لم تكن تمنحه القوة · وهـذه الرغبات والدعوات قليلا ما تساعد فى هذا الأمر · ولم يبق الا أن أحدا أصغر سنا ــ اغفر لى يارب ــ تخطى سياج البيت ، وماذا يهمنى فالأمر لدى سواء ، وكم وددت أن يكون هكذا ، لكى لا تمتد الأرومة العفنة لهذا القاضى ، ولكن عسير على من يعرفها أن يعتقد ذلك · فهى لا تسمح لأحد أن يسيطر عليها ، اذ هى بنفسها فخورة كما أنها تخشى الخطورة · واذا سمحت بذلك لأحد قتلته لا محالة · غير أننا لم نسمع أن أحدا أصبح قتيلا · ولماذا حضرت كى تقول ؟ هذا شىء لا يمكن اخفاؤه ، سوف يعرف أحامل هى أم لا · لقد كانت واثقة من أنهـا ستجلب الى السرور · أسررت ؟

ــ لا أدرى · انك لم تهد اليها شيئا ·

ــ هانت ترى · أنا لم أهد ، وأنت لم تهنىء ، ثمت شىء ليس كما ينبغى ·

ــ لا شك انك اضطربت ولذا نسيت أمر الاهداء ·

ــ نعم اضطربت· ولكن لو كنت على يقين من صدق قولها لما نسيت· لقد أصابتنى بالقلق أكثر مما أدخلت على من السرور · لست أفهم ·

ــ لماذا أصابتك بالقلق ؟

ــ انها ترغب فى شىء · ولست أدرى مايكون ·

وفى اليوم التالى ، عندما حضرت بعد صـلاة العصر ، استقبلنى بنشاط غير عادى ، وقد بدا عليه سرور تكلفه ، ثم قدم الى تفاحا وعنبا ، أرسلتهما اليه ابنته ، قائلا :

ـ لقد سالتنى عما ارغب فى أن ترسله الى . وقد ارسلت بدورى هديتى اليها ، سلسلة من النقود الذهبية .

ـ خيرا فعلت .

ـ بالأمس كنت محيرا . وقضيت الليل ساهرا ، افكر وافكر . ما الذى يدعوها الى الكذب ، وماذا ترغب من ذلك ؟ اذا كان من أجل المال فهى تعرف أن جزءا منه سيبقى لها أيضا ، ولن أحمله معى الى العالم الآخر . ربما أدركت نسيبى التعيس ، القاضى ، لحظة قوة قبل أن يسلم الروح ، تماما كما يحدث للشمعة ، فقام بما يعد له العمل الشريف الوحيد فى حياته . أو ان الله قد وهب هذا بطريقة ما اخرى ، فالشكر له على أية حال ، غير أنى أعتقد انها صادقة ، ولا أستطيع أن اجد سببا ما يحملها على الكذب .

ـ ولا أنا .

ـ ولا أنت ؟ هانت ترى باستطاعة الحب الأبوى أن يخدعنى أنا ، أما أنت فليس بامكانه ان يخدعك .

لقد وثق بكلماتها ، لأنه أراد هذا ، وأما حسن فسينال كثيرا من العذاب بسبب سعادة والده هذه ، أيا كانت هذه السعادة .

رأيت أن أبقى أطول وقت ممكن مع على أغـــا ، فقد كان مضطربا بسبب ماكان من أمر ابنته ، ذلك الأمر الذى لم أكن انا اصدقه ، ولكننى لم أرد ان اصرح له بذلك ، كما كان منفعلا لقرب عودة ابنه حسن ، تلك التى يتملكنى الذعر عند تذكرها . غير أن ملا يوسف حضر الى البيت ونادانى كى اذهب الى التكية : فهناك ينتظرنى الأميرالاى عثمان بك ، فقد عرج على التكية فى أثناء مروره بالقلعة ، وهو يريد أن يقضى ليلته فيها .

كان العجوز يستمع باهتمام ، ثم نطق قائلا :

ـ عثمان بك الشهير ؟ أتعرفه ؟

ـ سمعت عنه فقط .

ـ اذا كان المكان لديك ضيقا ، واذا رغب الأميرالاى ، فادعه باسمى أن يأتى الى بيتى . فالمكان هنا واسع ، وتوجد اماكن خالية له ولمرافقيه . ولو نزل ضيفا على لنال البيت شرفا بذلك .

لقد عرض ضيافته حسب تعوده ، ولكنه كان يعرب عن رغبته فى جلال ووقار ، وبطريقة تقليدية . فقد كان يحس بضعف ازاء الرجال المشهورين ، ولذا غضب على حسن لأنه لم يصبح واحدا منهم .

ولكنه على الفور عدل عن رأيه قائلا :

ـ ربما يكون من الأفضل أن يبيت في التكية . ان «فضل» قد ذهب لمقـابلة حسن ، وزينب يكفيها أن تقوم على خدمتى ، وفى حالة كهذه لا أستطيع أن أقوم بواجب الضيافة كما ينبغى .

ادركت لماذا تراجع . لقد كان ذلك بسبب حسن . واذ ذاك قمت بطمأنته قائلا :

ـ لا اعتقد انه يوافق على الحضور ، ولو اتته الدعوة لذلك . فرجال السلطان ينزلون فى التكية عندما لا يريدون الاساءة الى مشاعر الآخرين فى منطقة ما . أو عندما تنعدم لديهم الثقة فى أهلها .

ـ وماذا سيفعل بالكتيبة التى معه ؟ .

ـ لا أدرى .

ـ لا تقل له شيئا . فلعل حسن لا يكون راضيا عن مبيت الاميرالاى فى بيتنا (واضاف ، متعاطفا مع رغبة الابن فى رحابة صـــدر وعظيم ارتياح) ولعلنى لا أكون راضيا كذلك . واذا كانت لديك حاجة لبعض الفراش ، أو الطعام ، أو أدواته ، فارسل لتاخذ .

ـ أيمكن لأحد من الدراويش أن يبيت لديك اذا تطلب الامر ذلك ؟ .

ـ يمكن لجميعكم .

وفى الزقاق قابلت يوسف سنان الدين الصائغ . وكان فى طريقه الى على أغا ، كعادته فى الذهاب اليه كل ليلة ، ولكنه الآن كان يقف فى مفترق الطرق ، كما لو كان يتسمع شيئا . وأخذ يواصل سيره عندما رآنى ، قائلا لى وقد بدا مشتت الفكر بطريقة عجيبة :

ـ لديك ضيف مشهور .

ـ أخبرونى الآن .

ـ سله عن أحاسيسه ومشاعره . لقد كسب شهرة ونال مجــدا وهو يحارب أعداء الامبراطورية ، والآن يذهب كى يقتل رجالنا . هناك

في منطقة نهر الساقا • يالها من شيخوخة قبيحة • كم كنت أود لو مات في أوج عظمته •

ـ ليس من شاني ان اساله عن ذلك يا سنان الدين •

ـ أعرف انه ليس من شانك ، ولو كنت في مكانك لما سالته ايضا • ولكن من الصعب عدم التأمل في ذلك •

وانصرفنا ، وتوقف سنان الدين عند باب البيت ، وخيل الى أنه يتسمع شيئا •

أرسلت الحافظ محمد وملا يوسف ليبيتا لدى على اغا ، واتخذت من غرفة الحافظ محمد مبيتا لى ، وخصصت غرفتي لعثمان بك ، وتركت غرفة ملا يوسف للحراس •

فوجئت اذ رأيت الاميرالاى ، فكم كان يبدو مسنا ، وكم بدت لحيته بيضاء ، وكم كان على درجة من التعب ، وكم كان مغرقا في الصمت ، ولكنه لم يكن خشنا كما كنت اتوقع • قدم العذر عن ازعاجه اياى ، واعلمني أنه لا يعرف أحدا من القصبة ، ورأى أنه من الأنسب أن ينزل في التكية ، الأنسب له ، وليس دون شك بالنسبة لنا ، على أمل أننا تعودنا على المسافرين القاصدين ، وأنه سيبيت هذه الليلة فحسب ، وغدا في الصباح الباكر سيواصل الرحيل • وذكر انه كان في الامكان أن يبيت مع كتيبته في الحقول ، ولكنه في مثل هذه السن يفضل أن يبيت في مكان مسقوف ، كما ذكر أنه كان في نيته أن يذهب الى صائغ هذه الجهة الحاج يوسف سنان الدين اذ هو صديق ابنه ، ولكنه لا يعرف من سيغضب اذا هو نزل عنده ، ولذا عزم على النزول في التكية • وان كان لديه أخبار ود لو يقولها له عن ابنه : لقد أصبح ابنه قبيل سفره سلحدار السلطان • واذن فقد صار باستطاعتي كذلك أن أقوم أنا باخباره ، فلربما جلب ذلك السرور اليه •

وقلت ، وقد كدت أكون مذعورا :

ـ كيف لا يجلب السرور اليه ! اذ أن أحدا من قصبتنا لم يصل الى مثل هذا المنصب الكبير •

ولكن قائد العسكر كان قد استنفد جميع كلماته واهتماماته ، وأخذ يركن الى الصمت متعبا مكدورا ، دون ما أثر لبسمة تبدو أو انشراح ، راغبا أن يبقى وحيدا •

فركته ، وذهبت الى الغرفة ، ووقفت تجاه النافذة ، ساهرا لا يغمض لى جفن ، ومضطربا أشد الاضطراب ٠

سلحدار السلطان ! واحد من أقوى الرجال فى الامبراطورية ٠

لا أدرى لماذا أثارنى هذا الخبر الى هذه الدرجـــة ، ولو كنت قد سمعته فى الماضى لما جذب اهتمامى فى شيء ، وربما كنت قد تعجبت ، أو سررت لسعادته ، وربما كنت قد رثيت لحاله ٠ اما الآن فقد أوشك ان يكون لى بمثابة السم ٠ طوبى له ، هكذا رايت ، طوبى له ٠ لقد جاءت اللحظة كى يثار من اعدائه ، وقد كان له دون شك بعض الأعداء ، وهم الآن يعيشون فى خوف ورعب ، منتظرين ان تبطش بهم يده التى اصبحت فى ليلة واحدة ثقيلة كالرصاص ، وحبلى تحمل فى احشائها أنماطا من الموت ٠ ويبدو أن الامر غير ممكن الوقوع ، شبيه بالحلم ، براق ، جميل الى أبعد الحدود ٠ يا الهى ، اية ســـعادة تتملك الانسان اذ يحس أن باستطاعته أن يفعل ٠ كم يكون الانسان مسكينا باقتصاره على التفـكير وتحليقه بآماله فى السماء ٠ اذ الضعف لا شك يقعده ويكسبه بين الناس الخزى والهوان ٠ ان السلحدار مصطفى لا ينام هذه الليلة مثلى أنا ، فقد هاج كل شيء فى نفسه وماج لفرط سروره ، ذلك الذى لم يتعـــوده من قبل ، فتحت بصره ترى اسطانبول يغمرها ضـوء القمر وقد اخلدت الى السكون وطوقت بالذهب ، من يكون الآخر الذى لا ينام من أجله هـذه الليلة ؟ انه يعرفهم جميعا ، يحفظهم عن ظهر قلب ، يعرفهم أكثر ممـــا يعرف ذوى رحمه ٠ ويسالهم فى هدوء ودون نفاد صبر :

ـ كيف تبدون ؟ وكيف تكون مشاعركم هذه الليلة ؟ ٠

ان القـدر لم يرفعه ليكلهم اليه ، حتى يعاقبهم أو يخوفهم ، وانما هناك أعمال اهم من هذا تنتظره ، ولكنه من أجل هذه الاعمال بالذات ليس باستطاعته ان يتركهم فى سلام ٠ آه ، ومن أجـــل الكره كذلك دون شك ٠ اذ من المستحيل أنه لا يشـــعر به ، ومن غير الممـكن أنه لم يكن يخفيه فى نفسه ، كان يعيش فى داخله اشبه بالضباب ، أشبه بسم فى الدماء ، ودون شك كان ينتظر هذه الليلة التى يراها كالليـــالى المقدسة ، لكى يثار لنفسه من جميع ما لحقه من الشرور ، ولما كان منه من ضعف سابق ٠

احسست فى هذه الليلة بازدواج فى مشاعرى ، فقد عرفت كم كان اغتباط السلحدار بهذه الرتبة ، حتى لقد شعرت به ، كما لو كان

اغتباطى ، والى جانب ذلك كان يطغى على احساس بألم مرير ، فقد ظلت احلامى قاصرة على دنيا الخيال ، ولم تعد أن تكون سوى نور يضىء داخلى ويبعث فى الحماس ، معزيا لى ، ومعذبا اياى ٠

كانت تتملكنى رغبة فى ان اصرخ فى الليل قائلا : لما هو بالذات ؟ أكان هو أشد احتيـــاجا لأن يعوض ما اصابه ؟ أكانت رغبتى أقل من رغبته ؟ عند من من الشياطين يمكننى ان اسجل روحى الحزينة لكى تغمرنى مثل هذه السعادة ؟ ٠

وفى الحق اننى كنت ارهق نفسى دون جدوى ، فالقدر يكون أصم عندما تنطلق الصرخات ، وأعمى عندما يختار المنفذين ٠

لو لم يكن الوقت ليلا لذهبت الى الصائغ يوسف ســنان الدين ، لأذكر له نبأ سعيدا يتعلق بابنه ، فهو لم يعرفه بعد ، ولو يدر بخلده ٠ لقد ترك لى ، شأنه شأن ما يترك لى من نفائس ، لأحرص عليــه ، وأنعم به ، بذلك الذى يخص غيرى ٠ وفى الحق أننى لو نويت لما حال الليل دون ذهابى ، ولشكر الرجل صنيعى ، ولو كنت قد أيقظته من نومه ، ولنسى أنه قام بلوم الاميرالاى ، ولتعجل أن يقـدم اليه شــكره ٠ لم اذهب ، اذ ربما لا يكون باستطاعتى الخروج بسبب الحراس عند الباب ، وسيكون الموقف حرجا ان أوقفـونى أو ردونى ، وربمـا أثار هـذا الامر الشكوك وعرض للخطر ، وماكنت أرغب فى أن أدخل غرفة الاميرالاى لأطلب تصريحا بالخروج ، اذ لو فعلت لتملكته الدهشة وقال : أيكون الامر هاما الى هذه الدرجة وعاجلا أيضا ؟ ٠

وحقا لماذا يكون هاما لى الى هذه الدرجة ؟ ٠

أحسست بثـورة فى نفسى من أجل الحقـد والكره والتعاطف مع سعادة الآخرين ، ولم يكن يثيرنى شىء على الاطلاق سوى هذه ٠ اذ لم يكن الامر فى ذاته يهمنى ، ولذا لم أتعجل أن أحمل هذا الخبر الى من يخصه ، وبقيت فى التكية ٠

ما كان لى أن أتصور أى دور خطير سيلعبه هذا القرار الصغير ٠

اننى لو ذهبت الى الحاج سنان الدين وأخبرته بما قد عرفته ، حتى ولو كان بقصــد ان أجلب له السرور ، أو بقصــد ان نقضى معا ليلة صاخبة ، لاتجهت حياتى الى طريق آخر ٠ ولن أقول انها تكون اذ ذاك أجمل أو أسوأ ، بل أقول انها تكون دون شك على خلاف ما هى عليـــه بالتمام ٠

جثم النوم على القصبة ، فأخذت تخمد فى هدوء ، وقد غمرها ضوء القمر فى هذه الليلة من ليالى الخريف ، ولم يعد يسمع هناك صوت أى صوت ، فقد مات الناس ، وهجرت الطيور ، وجفت مياه النهر ، وخمدت الحياة ، وهناك فى مكان ما على البعد تدب ، هناك فى مكان ما يحدث ما يتمناه الناس هنا ، وحولنا يوجد قفر وظلام ، وماذا يجب فعله لنخرج من قفر هذا الليل الطويل ؟ يا الهى لم لم تتركنى فى عماى كى أنعم بالهدوء فى ظلام جهالتى المطمئنة ؟ ولماذا تقيدنى الآن بأحابيل الضعف ، وتجعلنى هكذا كسيحا ؟ أطلق سراحى ، أو اطفىء ما انبثق من النور فى داخلى ، أو أوجد لى أيا من الحلول ٠

ولحسن الحظ ، أننى لم أفقد صوابى ، وان كان دعائى اشبه بالهذيان ، فلحظة الضعف لم تستمر طويلا ، وقبيل الفجر بدا الصبح ينبلج فى داخلى ٠ كانت ظلمتى تتلاشى رويدا رويدا ، ولاحت اذ ذاك فكرة ، غامضة ، مضطربة ، بعيدة ، ثم أخذت فى الاقتراب ، والوضوح ، والثبات ، حتى غمرتنى بضوئها كما تغمر الوجود شمس الصباح ٠ فكرة ؟ لا ! بارقة من السماء ٠

لم يكن اضطرابى دون سبب ، لقد تسلل السبب الى داخلى واستلقى دون أن أعيه ، ولكن البذور قد نبتت ٠

هيا ، لقد حان الوقت ، وجاءت لحظتى ٠ اللحظة الوحيدة ، اذ ربما لو انتظرت الى الغد لكان الوقت متأخرا ٠

عند بزوغ الفجر كان يسمع وقع حوافر الخيل فى الزقاق ٠ وعلى الفور خرج الاميرالاى من الغرفة ، كما لو لم يكن نائما ٠ وخرجت أنا كذلك ٠ وفى الضوء الكدر لبداية الصباح كان الاميرالاى يبدو مسنا ، أشبه بفاقد البصر نظرا لتورم جفونه ، مغبرا منهوك القوى ٠ كيف كانت ليلته هذه ؟ ٠

– آسف اذ ملأت الغرفة بالدخان ٠ لقد دخنت كثيرا ٠ ولم أنم ٠ وكذلك أنت ، لقد سمعتك وانت تذرع الغرفة ذهابا وجيئة ٠

– لو ناديتنى لكان فى امكاننا أن نتبادل الحديث ٠

– خسارة ٠

قالها متهالكا ، ولم ادر آكانت الخسارة لأننا لم نتحدث ، أم لانفاقنا الوقت فى الحديث ٠

أركبه جنديان على حصانه . ومضى يجتاز الزقاق الخالي مقوس الظهر وهو يجلس على سرجه .

عند عودتي من المسجد رأيت ملا يوسف أمام المخبز ، يتحدث مع الخفير وأحد الصبية الذين يتعلمون صناعة الخبز . وحين رآني تعجل ولحق بي ، ثم برر عدم حضوره الى المسجد بأنه صلى الصبح مع علي أغا والحافظ محمد ، وذكر أنه في طريق عودته استوقفه هذان ، وأخذا يقصان أن بعض الرجال من منطقة السافا قد هربوا في هذه الليلة من القلعة .

واذ ذاك مر ثلاثة من الحراس في سرعة يعبرون الشارع ، وما من شك في أن المسلم لم ينم هذه الليلة ، ولا القاضي كذلك . كثير منا قضى الليل بلا نوم . لقد كنا منفصلين بعضنا عن بعض ، ولكن القدر نسج خيوطا متينة بيننا . واهتم بكل شيء ، ومنحني الآن حلا نهائيا . لقد كنت بانتظار هذا الحل لعلمي أنه آت . ولكني عندما رأيته اهتزت ركبتاي ، وشعرت بألم في أحشائي ، واثقا في ثنايا مخي ، غير أني لم أدع ذلك الذي ظفرت به يفلت مني .

كنا نقف بجانب قبر هارون . وكنت أنظر الى الشاهد وقد تحدرت عليه قطرات تماسكت من ذوب الشموع المحترقة . ثم أخذت أتلو دعاء أطلب به الرحمة لروح أخي .

ورفع ملا يوسف يديه كذلك ، وراحت شفتاه تهمس بالدعاء .

ثم قلت له :

ـ كثيرا ما أراك تتلو الدعاء لصاحب هذا القبر . أتفعل ذلك من أجل الناس أم من أجل نفسك ؟ .

ـ ليس من أجل الناس .

ـ اذا كان من أجله ومن أجل نفسك ، فلست اذن فاسدا على التمام .

ـ لو استطعت لفعلت كل شيء في سبيل أن أنسى .

ـ لقد جلبت شرا كبيرا ، له ولي ، وكان ما جلبته لي أكثر لأنني بقيت على قيد الحياة ، لأحمل الذكرى ، لأتجرع العذاب . أتعلم ذلك ؟

ـ أعلم .

كان صوته بين الارهاق ، غائصا فى مكان ما من أعماق حلقه ٠

ـ أتعلم عن ليالى المؤرقة ، عن الظلام الذى دفعتنى اليه ؟ لقد أجبرتنى على التفكير فى كيفية اهلاكك واهلاك الشر فيك ، أأسلمك الى العدالة تقتص منك ، أم أخنقك بيدى ؟

ـ لو فعلت أيا من الأمرين لكنت على حق يا شيخ أحمد ٠

ـ لو علمت ما يكون الحق لفعلته ، ولكننى لم أكن أعلم ٠ لقد تركت كل شىء لله ولك ٠ كنت أعلم أن هناك من يعدون أكثر منك ذنبا ٠ وانك لم تكن سوى الحجر فى أيديهم ، سوى الفخ الذى ينصبونه للبلداء ٠ كنت أرثى لك ، ولعلك كنت ترثى لنا ٠

ـ نعم كنت ارثى يا شيخ احمد ، فالله شاهد على ، كنت أرثى ولازلت أرثى ٠

ـ لماذا ؟ ٠

ـ لقد كانت هذه اول مرة ينكب انسان فيها على هذه الصورة بسبب ما كان منى من طاعة ٠ اول مرة فيما أعلم ٠

ـ تقول انك ترثى ٠ أهو كلام تقوله وحسب ؟

ـ ليس كلاما فحسب ٠ لقد ظننت انك ستقتلنى ، وظللت ليالى كثيرة اتوقع مجيئك الى ، كنت اتسمع وقع خطواتك ، واثقا ان السكر سيقودك الى غرفتى ٠ ولو حدث ذلك لما حركت يدى دفاعا عن نفسى ، اقسم بالله ، ولما فتحت فمى استغيث بأحد ٠

ـ ولو طلبت منك حينئذ أن تفعل شيئا من أجلى ، فبم كنت تجيب ؟ ٠

ـ انتى على استعداد لأن أفعل كل ما تريد ٠

ـ والآن ؟ ٠

ـ والآن كذلك ٠

ـ اسألك اذن : أتريد أن تفعل كل شىء ، ويقينا كل ما أطلب ؟ فكر قبل أن تجيب ٠ واذا لم ترد فاذهب دون بأس فى طريقك ، وسوف لا ينالك منى لوم ٠ ولكن اذا وافقت فحذار أن تسأل عن شىء ٠ وحذار أن يعلم أحد غيرك وغيرى وغير الله الذى بفضله هدانى ٠

ـ سأفعل •

ـ انك تجيب في سرعة زائدة • حتى ليبدو انك لم تفكر • لعل الأمر ليس سهلا •

ـ لقد فكرت منذ زمن •

ـ ربما طلبت ان تقتل أحدا •

نظر الى فى ذعر ، وفى غير استعداد لمثل هذا ، لقد انطلقت كلمة الموافقة منـــه بأسرع من اللازم ، فالذكرى وهذا القبر قد أجبراه على الطاعة • لقد قال « كل شيء » ، ولكن كان له اذ قال هذا تقديره الخاص • والآن لم يرد أن يتراجع •

ـ ليكن اذا لزم الامر •

ـ مازال في استطاعتك أن تتراجع • فسوف أطلب كثيرا • واذا قبلت فلن يكون هناك تراجع •

ـ ليكن ما يكون • اننى موافق • وما يقبله ضميرك يقبله ضميرى أيضا •

ـ حسن ، احلف اذن أمام هذا القبر الذى حضرته وقل : ليلحق الله بى أشد العذاب اذا أفشيت السر لأحد •

كرر حلفه في صورة جدية وفى احتفاء ، كما لو كان يقوم بتلاوة دعاء •

ـ اياك ، يا ملا يوسف ، أن تبوح الآن ، وفيما بعد ، أو تحجم عن القيام بما وعدت ، أو تخون ، اذ لا يمكن لشيء أن ينقذك • سوف أكون مضطرا لأن أدافع عن نفسى •

ـ لن تكون بحاجة للدفاع عن نفسك • والآن ، ماذا يجب على أن أفعل ؟ •

ـ اذهب الى القاضى ، الآن وعلى الفور •

ـ لن أذهب اليه بعد • حسن ، سأذهب •

ـ قل له : ان الحاج يوسف سنان الدين هو الذى ساعد السجناء من أهل « سافا » على الهرب من القلعة •

اتسعت عينا الشاب الزرقاوين لشدة ما انتابه من الخوف والفزع • وبدت فجاءته اشد مما لو كنت قد طلبت اليه ان يقتل احدا •

ـ هل فهمت ؟ •

ـ نعم •

ـ واذا سألك عمن قال لك ، فقل سمعت ذلك مصادفة ، من اناس مجهولين في الخان ، أو اذكر ان أحدا همس به اليك في الظلام ، أو اعتذر بعدم استطاعتك ان تذكر اسمه • اختلق شيئا • ولا تذكرني ، كما لا تدعهم يدونون اسمك • حسبهم ذلك الاسم الذي قمت باهدائه اليهم •

ـ ستصيبه النكبة •

ـ قلت لا تسأل على الاطلاق • وثق أنه لن يصاب بنكبة • سوف نقوم بكل ما في وسعنا كي لا يحدث له شيء • فالحاج سنان الدين صديق لي •

لم يبد أنه كان في وعيه ، فقد كان وجهه يكشف عن ذهوله التام • ودون جدوى كان يرهق نفسه كي يعثر على أي قصد أو مدلول في جميع ما سمع •

ـ اذهب •

ظل بعد واقفا •

ـ ثم ماذا ؟ وبعد ؟ •

ـ لا شيء • عد الى التكية • فليس ثمة شيء يجب بعد • احذر أن يراك أحد مع القاضي •

وذهب كالأعمى ، لا يعلم ماذا يحمل ، ولا يدري أي شيء يخدم •

لقد صوبت سهامهم اليهم • ولا بد أن تصيب أحدا •

أخذت الاوراق الصفراء المحروقة تتساقط من الاشجار ، انها الاوراق بعينها التي كنت المسها في الربيع ، متمنيا أن تتدفق عصارتها في دمي لأصبح خدرا كما هو الشأن في النبات ، لأذبل في كل خريف وأتجدد بمقدم الربيع • وها هو قد حدث العكس من ذلك ، ذبلت في الربيع وأخذت تتجدد في الخريف •

حان البدء ، يا أخي هارون ، فاللحظة المتعطشة أخذت تجيء •

١٤

« قل جاء الحق »

كان فى استطاعتى أن أنظر الى الساعة وأخمن على وجه التمام : الآن ملا يوسف عند القاضى ، والآن الحراس أمام دكان الحاج سنان الدين ، والآن تم كل شىء • لقد وضعت فى حسابى نظمهم المألوفة ، وايمانهم بواجبهم ، ورغبتهم فى الثار • ولذا أيقنت أننى لم ألق الطعم هباء • ان النظم المألوفة تدفع الى القيام بتكرار ما يمارس من الاعمال ، والايمان بالواجب يسلب العقل ، والرغبة فى الثار تعجل باتخاذ القرارات • واذا لم يفعلوا شيئا كان على أن أشهد نهاية العالم •

واعجبا ، لقد كانت السوق على وضعها المعهود ، تعلوها تلك الجلبة المألوفة تصدر عن انطلاق الكلمات ، ووقع الخطى ، وما يكون من رنات وضربات ، أو يحدث من صراخ ، والناس يعملون أو يتحدثون ، وقد تسرب اليهم الملل وبدا عليهم الاعياء لما يقومون به من عمل يومى رتيب •

حتى الحمائم كانت تذهب وتجىء متنقلة على ارض الطريق فى هدوء •

اننى لم أحرك شيئا • ماذا حدث ؟ فى أى شىء اخطأت ؟ •

أكنت أنتظر من هؤلاء الناس فى السوق أن يقوموا بأكثر من هذا ؟ هل سيسكتون ، مثلما سكتوا اذ ذاك ، عندما سجنت ؟ أخدعت نفسى اذ القيت الطعم ، فلعل عقولهم قد تنبهت ؟ أذهبوا به من البيت ، وهؤلاء الناس لا يعلمون بعد ، أم ان الأمر لا يعنيهم فى شىء ؟ •

ولكن هذا غير ممكن • فأنا شىء آخر ، اذ ان طريقتنا تتركنا للمياه تحملنا عندما تحل بنا المصيبة ، لأننا أجزاء غير هامة فى الكل القوى ،

وترى ضافا عندما تصبح مهجورين • اما الحاج سنان الدين فهو شيء بذاته كالسوق ، واذا حدث له شيء فسيعتقد كل من هؤلاء أنه مهـدد كذلك • وهم معا يمثلون كليا ، كل واحد فيه هام لنفسه ، والخطر الذى يهدد أحدا يظلل الجميع كالسحاب •

ام انني تعجلت ، بدافع من نفاد الصبر ، ذلك الذى لا يتأتى معه حسن التقدير ؟ •

ام أنهم لا يجرءون أن يبطشوا به ؟ •

ام أن ملا يوسف خدعني ؟ •

أم أن العالم كله قد انقلب رأسا على عقب ؟ •

اخذت اسير على مهل في الزقاق بين المصاطب الخشبية التي برزت في مقدمة الدكاكين ، وأنا اسمع الخرير الهادىء لمجرى الحياة ، ذلك الذى ما تحملته قط من قبل بمثل هذه الصعوبة •

منذ قليل كنت منشرحا ومطمئنا ، وكنت أقود الأحداث ، واشعر انني فوقها • وكان يخيل الى ان الأشياء والناس أقل حجما ، وانني احلق فوقهم • وقد تحقق ذلك لأول مرة في حياتي ، وكان هذا الشعور بالتفوق يعد بالنسبة لى طبيعيا • حتى لقد كدت الا الاحظه عندما كان يخالجنى ، لقد كان ينبعث منى وكأنه الرائحة ، القوة ، الحق ، وما كنت لأفتخر به ، اذ هو شديد الالتصاق بى ويعد في الحق احدى صفاتي • والآن يبدو لى ذلك عجيبا ، كما يبدو بعيدا ، فالناس والحياة ليسوا تحتى وانما حولى ، وهناك نطاق ضرب حول الجميع ، فليس هناك استطاعة لانطلاق او هروب• لا أدرى أتوجد فى الحياة انتصارات أما الهزائم فهى توجد بالتأكيد •

ليس باستطاعتي ان اذكر كم استمرت هـذه الكآبة فى نفسى ، ولا أن أجزم أكان منى ادراك لهذا التغير فور حدوثه أم أن حواسى قد نبهتني الى ذلك عندما بدا لى الأمر عجيبا •

كان أول ما لاحظته الآن هو ذلك السـكون • ففى الدائرة التى حولى ماتت الأصوات فجأة ، وانقطعت خشـخشات الأرجل ، وما كان يسمع من دقات وضربات ، ثم أخذ السكون يمتد وينتشر • كان الامر أشبه بحالة الفزع ، أشبه بحالة الاختناق • واستمر ذلك لحظة واحدة فقط ، ومهما بدا الامر غريبـا ، ومفزعا ، حتى لكأنه الدم توقف عن

الدوران في أحد الجسوم الضخمة ، فقد أدركت على الفـــور ما حدث • وتنفست الصعداء •

لم أخطىء في التدبير يا أخي هارون ! كم قاســـيت من العذاب ، ولكني تبينت الناس •

واذ ذاك ظهرت الأصوات من جديد ، غير أنها كانت تختلف عن تلك التي كانت منذ قليل ، تختلف عن تلك التي كانت كل يوم ، انها خافتة وخطيرة ، بدأت شبيهة بالزفرات الحادة العنيفة ، ثم بالزمجرات المختنقة في الحلوق • تبينت فيها المفاجأة ، الخوف ، الغضب ، كما سمعت فيها الوعد المكتوم ، كهذا الذي ينذر بقرب العاصفة ، بقرب نهاية العالم ، لقد سمعت كل ما اردت ، وكان ان عاودني الاحساس باليسر والاطمئنان •

اخذت أسير وراء أهـــل الســـوق ، منضـــما الى جمعهم ، شاعرا باحتدادهم ، محسا رائحـــة لاذعة من أجسامهم (وتلك رائحة الفزع المفاجيء والغضب الذي لم يتحدد موقفه بعد ، ففي الحرب تبدو رائحـــة الناس لاذعة الحلاوة أشبه بالدم) • وكنت أسمع أسئلة تكاد لا تفهم ، انها أشبه بعبارات السحر ، بتمتمات جنونية ، بكركرة مياه في الغور ، بدمدمة تحت الارض ، ولم يكن المهم تلك الكلمات ، بل هذا الصفير الذي يصدر عن فحيح الأفعى ، وأصوات البطن الخافتة ، التي حولتهم الى شيء مجهول ، خطير ، لم يعودوا هم أنفسهم بعد يذكرونه •

سرنا متماوجين في السوق ، يجمعنا اتجاه واحد ، والرأس مرفوع مصوب تجاه شيء ننتظره ، وتقدمنا الى الأمام ، متلامســـين بالأكتاف ، محشورين بعضنا في بعض ، منصرفين عن أن ينظر أحدنا الى الآخر ، مخرجين الضعاف منا ، ولكنا على الرغم من ذلك كنا نزداد عددا ، كنـــا نزداد بالمجهولين ، متحولين الى حشد كبير ، منصهرين في خوفه وقوته • وبعذاب كنت أقاوم تلك الرغبة القوية الغريبة في أن أكون ذرة ثائرة مجنونة ، فقد سمعت زمجرة نفسي ، وأحسست بلفح خطر ما كان يهددني أنا كذلك • ومن ثم اخذت أحيي شعوري بالتفوق لكي لا أترك نفسي لحاجة قديمة ، للهجوم مع قبيلة مهددة •

كان دكان الحاج سنان الدين مفتوحا على مصراعيه وخاليا •

اندفعنا نجري الى الزقاق الآخر ثم الذي يليه ، وفي زقاق القزاز توقفنا أمام الحشد الذي كان واقفا • وبشيء من الصعوبة أخذت أشـق الصفوف •

وفى وسط الزقاق ، وقد بدا خاليا ، حيث اصطف أناس من الحشد على الجانبين ، وحيث تفرق أناس فى المقـدمة يفسحون الطريق ، كان الحراس يقودون الحاج سنان الدين ٠

اخذت اشق طريقى بمنكبى حتى صرت فى مقدمة أولئـــك الذين اوقفهم الخوف ٠ ليس بامكانى بعد أن أكون واحدا من هؤلاء المحتشدين ٠ لقد حانت لحظتى ٠

خطوت الى المساحة الخالية وقد شملنى الاضطراب ، فقد كنت أعلم ان عشرات الأعين تنظر الى ، وأخذت أسير وراء الحراس ٠ ثم صـــــحت قائلا :

ــ قفـــوا ! ٠

اغلق الحشد الزقاق ٠

توقف الحراس ، ونظروا الى فى دهشة ٠ ونظر الى الحاج سنان الدين كذلك ٠ كان وجهه هادئا ، وخيل الى أنه ابتسم ، ابتسامة صـــديق ، او هكذا تمنيت أن تكون ، وقد تملكنى الاضطراب ، كى تشجعنى ، وحقا كنت مضطربا ، بسبب هؤلاء الناس ، بسببه هو ذلك المحاط بالحراس ، بسبب اهمية ذلك الذى أقوم به ، بسبب أولئك الذين أحمل لهم الكره ، بسبب جميع ما كنت أنتظره فى هذه الأبدية الطويلة ٠

وفى ذلك الهدوء الذى توقعت مجيئه ، والذى أحسست به على الرغم من ذلك يلطمنى كأنه الماء الساخن ، أنزل الحراس بنادقهم وصوبوها نحو الحشد ٠ وفى غضب سالنى خامسهم الأعزل ، وكان مجهولا لدى :

ــ ماذا تريد ؟ ٠

كنا نقف أحدنا فى مواجهة الآخر كما لو كنا فى حلبة المصارعة ٠

ــ الى أين تذهبون به ؟ ٠

ــ وماذا يهمك ؟ ٠

ــ أنا الشـيخ أحمـد نور الدين ، عبد الله وصـــديق لهذا الرجل الصـــالح الذى تقودونه ٠ الى أين تذهبون به ؟ انى أسالك باســـم هؤلاء الناس الذين يعرفونه ، اسال باسم الصداقة التى تربطنى به ، اسال باسمه ، اذ هو لا يستطيع الآن أن يدافع عن نفسه ٠ واذا كنتم قد أبلغتم بسوء عنه فهذا كذب ، كلنا ضامن له ، وكلنا شاهد بانه أشرف

الناس في القصبة • اذا ألقيتم به في السجن فمن ذا الذى يجب أن يبقى خارجه !

ورد الرجل في اكفهرار :

ـ انك رجل ناضج ، ولا ينبغي أن ألقنك النصيحة • ومن الأفضل الا تتدخل •

وعندئذ قال الحاج سنان الدين ، وقد بدا عجيبا أن كان منشرحا :

ـ عد الى بيتك يا شيخ أحمد • شكرا لك من أجل كلماتك التى تنم عن الود والصداقة • وأنتم ، أيها لرجال ، الأفاضل ، تفرقوا • فهذا خطأ ودون شك سوف يصحح •

كل من قبض عليه يظن هكذا : أن هناك خطأ ، والخطأ غير موجود ، والموجود فقط هو ذلك الذى لا نعرفه •

انفسح الجمع الطريق ، وذهب الحراس بالحاج سنان الدين •وكنت أشيعهم بنظراتى ، واقفا في مكانى ، هكذا كانوا يقودوننى أيضا ، وكذا هارون ، غير أن احدا لم يخرج ليقول كلمة طيبة عنا • وأنا قلتها ، فقد كنت اعرف أننى أعلى منهم ، ولم يكن هناك شعور بالذنب تحسه نفسى وقد علمت أن الرجل الصالح قد سجن ، انه لو كان على خلاف ما هو عليه ، لما كان هناك معنى لكل ما فعلته ، ولما كان في الامكان أن يخـــدم أى هدف • ولو حدث أن اصيب بالنكبة لخدم ذلك هدفا أكبر واهم من أن يقتصر الأمر على حياة أحد أو موته • سوف افعل كل ما في وسعى من أجله ، وليكن ما يريده الله • ولحسن الحظ ، لم يحدث ذلك الذى يمكن أن يوصف بأنه لا حماقة بعده : قيامهم بالافراج عنه على الفور •

سار الناس خلف الحاج سنان الدين والحراس ، وبينمـــا كان الناس في المؤخرة يختفون عند منعطف الطريق ، رايت ملا يوسف يقف أمام أحد الدكاكين الخالية • لم أناده ، ولكنه اقترب ، كالمسحور ، وقد بدا الخوف في عينيه المترددتين • من اى شىء يخاف ؟ وخيل الى أن نظره وفكره لا يتابعان الحاج سنان الدين ، وانما تركزا عندى ، واعتراهمـــا التصلب والفزع ، واصبحا لا يجرءان أن ينحرفا عنى

ـ أكنت هنا طول الوقت ؟

ـ نعم •

ـ لماذا تنظر الى هكذا ؟ انك فزع · ماذا حدث ؟

ـ لا شيء ·

لقد حاول في جهد أن يبتسم ، ولكن بدا منه ما يشبه الاختلاج ، ما يشبه التقلص ، ومن جديد ظهر ذلك الخوف الذى كان يرغب سدى ان يخفيه ، ليصيب بالجمود وجهه الذى كان قد بدأ يفقد نضارته ·

اخذت أسير في الزقاق ، واخذ يسير خلفى، ويتبعنى متابعة الظلال ·

سألته ثانية ، في هدوء ، دون أن استدير :

ـ لماذا يعتريك الخوف ، أحدث شيء لم يكن في الحسبان ؟

أسرع يحاذينى ، كي لا تفوته كلمة واحدة ، ولم يكن ذلك بدافع من حبه · ثم قال :

ـ لقد فعلت كل ما أمرت به· وعدت ووفيت ·

ـ والآن تغضب ؟

ـ لا · لست غاضبا ، ليس بي أدنى غضب · لقد فعلت كما أمرت، ولقد رأيت بنفسك ·

ـ فماذا اذن ؟

استدرت نحوه ، وربما فعلت ذلك في عجلة شديدة ، دهشا لصوته المتردد وكلماته المتقطعة ، غاضبا لما كان منى من اهتمام بذلك ورغبة في سؤاله ، غير أننى أردت ان أعلم احدث شيء لا يجرؤ على الافصاح عنه ، اذ كل خطأ ارتكب يعد الآن خطيرا · وقد حدث عندما فاجأته بالنظر، وربما بسبب هذه الحركة غير المتوقعة ، أو بسبب ما يحمله صوتى من علائم التهديد ـ أن ارتعد ، وتوقف دون وعى ، كما لو كان يتجنب وقوع الضرب ، أو كما لو كان الخوف قد سمره وتحول وجهه الى قناع من اقنعة الخوف· واذ ذاك أدركت أنه منى يخاف · وقد أكد لى ذلك فمه المفتوح ، الذى لم يكن في استطاعة تلك العضلات المتقلصة أن تحركه وتعود به الى حالته الطبيعية ، وجسده الذى تقوس ، منهارا في لحظة

واحدة ، حيث فوجيء كذلك واقشعر • كل ذلك قد استمر فترة قصيرة ، قصيرة للغاية ، وسمحت بعد ذلك عروقه المتصلبة لدمه أن يواصل دورته من جديد ، واستعاد الفم شكله الطبيعي ، وبدأت الحدقة الزرقاء في وسط عينيه تنعم بحرية الحركة •

ـ تخاف مني ؟

ـ لا • لماذا أخاف ؟

اخذ الغضب يستولى على ، وما استطعت أن اجد وسيلته كي اصده •

ـ كنت ترسل الناس الى الموت ، والآن تتشابك أمعاؤك بما يعتريك من تقلص ، لأنك رأيت انني اعرف كيف يكون خطيرا • انني لا اتحمل خوفك هذا ، فهو طريق الى الخيانة • حافظ على نفسك • لقد وافقت عن طيب خاطر ، وليس باستطاعتك بعد أن تتراجع ، حتى أقوم بطردك •

لقد انفجرت غاضبا ، دون توقع ، كما لو كنت احس بحاجة الى ان انحي الثقل عن عاتقي ، الى ان أصيح ، بعد ساعات طويلة من التوتر كان يندفع مني اندفاع القذيفة ذلك الطمي الكدر ، الذى لم يسمح له العقل والحذر أن يتحرك من قبل • ربما لم يكن من العقل والحذر أن اتصرف الآن على هذا النحو ، ولكن بينما كنت أجلد الشاب بالكلمات التي ولدت منذ زمن بعيد في داخلي ، كنت أشعر كيف كانت تتدفق كالسيل من عروقي ، وقد افعمتني بلذة كاد يصعب على فيما مضى أن اتخيلها • وعندما ضعفت هذه الدفقة الاولى من الافراغ ، وعندما رأيت اى تاثير مهزوم يتركه على وجه الشاب هذا الانفجار الواضح من الكره والاحتقار ، خطر ببالى أن خوفه هذا يمكن أن يكون مفيدا : سوف يربطه بي باقوى مما يربطه الحب •

لقد جلب لى الرضا فزعه كذلك من أنه يرى أمامه رجلا مخالفا تماما عما كان عليه الشيخ نور الدين السابق • لقد شارك هذا الشاب في قتل ذلك الشيخ الهادىء الحكيم الذى كان يؤمن بعالم لا وجود له • أما هذا الشيخ الحالى فقد ولد فى العذاب ، ولم يكن له من ماضيه سوى الشكل والصورة •

انه يظن انني أثار • وذلك أمر لا يهمني ـ غير انني كنت اعرف أن هذا الشيخ الجديد نور الدين يشبه الى حد كبير ذلك الدرويش الشاب الذي كان يعبر النهر سابحا ، وسيفه بين أسنانه ، كي يهاجم أعداء الدين ، ذلك الدرويش المجنون الذي يختلف عن هذا الحالي بكونه لا يعرف المكر ولا الحكمة ، ذانك الشيئين اللذين يمكن للحياة الصعبة فحسب ان تهديهما •

رحمة الخلد عليك ، أيها الشاب الغر البعيد ، الذي كان يلتهب حماسا ، ويشعر ملء نفسه بضرورة التضحية •

رحمة الخلد عليك كذلك ، أيها الشيخ الجليل الكريم نور الدين يا من كنت تؤمن بقوة الحلم وكلمة الله •

اشعل لكما الشمعة في ذكراي وفي قلبي ، لكما يا من اتسمتما بالصلاح واتصفتما بالسذاجة •

والآن ، ذلك الذي يحمل اسمكما يواصل عملكما ، دون أن يتنازل عن شيء من صفاتكما سوى هذه السذاجة •

كان الزمن الذي مر بي حتى الآن أشبه ببحر تتهادى مياهه بين شواطئه الدائمة الكبيرة • ولكنه الآن أصبح كمجرى النهر السريع يذهب باللحظات الى غير رجعة • وليس في الامكان أن اسمح لنفسي بفقد اي منها ، فبكل يتعلق امكان او يكون احتمال • لو كنت افكر من قبل على هذا النحو لفزعت ، ولانتابني الذهول من هذا الخرير المندفع والحركة التي لا يمكن ايقافها ، وأما الآن فانني مضطر الى ملاحقة ذلك ، وقد هيأت له نفسي ، اذ أنني في عجلة من أمري • ولكنني لست متسرعا ، فقد وزنت بدقة كل لحظة سوف تأتي من ظلام الغيب ، والفعل الذي سيكون لها بمثابة البذرة كي تثمر ذلك الذي أترقبه ، عندما ينتظم كل شيء في سلسلة الأسباب والمسببات •

لقد كنت أعرف ما سيقوله لي علي آغا بعد ان يصل الى سمعه ماكان مني مع الحراس ، ذهبت بادىء ذي بدء اليه • وكان قد سمع كل شيء فقد وصل الخبر قبل ان أصل •واخذت أسمع منه ذلك الذي ظننت انني سوف أسمعه غدا ، أو بعد الظهر ، غير انه كان آكثر عذوبة ونضارة مما كنت أتوقعه • كان قد نهض الى حد ما في فراشه ، وكان يرى أصفر ، شاحبا ، نحيفا ، واخذ يلعن، يهدد ، يسب ـ ويقول لي انه كان على انا

الآخر ان اوجه اليهم مثل قوله ، ان اسب لهم ابا أو أما ، وان كان ذلك ـ على الاقل ـ غير مناسب بالنسبة لى ، بسبب رتبتى ومنزلتى ، ولكن على أية حال ، فقد تصرفت تصرف الرجال ، ولى الشرف ، وقلت لهم ذلك الذى يجب على الرجل الشريف أن يقولهعنالرجل الشريف ٠

وظللت واقفا أنتظر أن يتدحرج من فمه هذا الحشد من الكلمات، فسوف يثير نفسه بنفسه ، فليغضبوا ما شاءوا ، وكنت أرى أن جميعهم مهتمون به وأنهم منفعلون اشد الانفعال من اجله وأنهم يحسون بجراح شديدة لما لحقه ، غير أن أحدا لم يحزن ولم يغضب عندما ذهبوا بى ، ولم ينطق أحد منهم بذلك الذى ينبغىأن يقوله الشريف عن الرجل الشريف من ذا الذى يعد غير شريف ، أنا أم هم ؟ وربما كان من الانسب الايتحدث عن الشريف ، فكل شخص يرىالشرف فى ذلك الذى يتعلق به ٠ أما أنا فلست لهم ، ولست لأحد ، ويجب على أن أنهى كل شىء وحدى ٠ وحدى ، مثلما فعلت حينذاك ، ولكنهم منذ اللحظة سيكونون جنودى ، ولن يلزمونى بشىء ٠ لست لهم ، ولا أهتم بأمرهم ٠ لقد تركت رجلا منهم بين يدى الموج ، وهم سيحاولون انتشاله ، دون ان يعرفوا أنهم يعملون لصالحى ، وللعدالة ايضا ، لأننى فى جانب الله ، فليكونوا هم كذلك دون ارادة ٠

وقلت للعجوز مقللا من شأن تصرفى : كان من واجبى أن أفعل ذلك وسيكون من واجبى أن أقوم بأكثر مما قمت ٠ فسوف تضيع العدالة اذا لم نقم بحمايتها ٠ اننى لا أقف فى وجه السلطة ، ولكنى أخشى أن يلحقنى عذاب من الله اذا لم أقل كلمة ضـــد أعداء الدين ، وهم أولئـك الذين يعملون على هدم أسـسه ٠ فنحن اذا لم نقف فى طريقهم فـسيشجعهم على المضى خوفنا ، وسيتفاقم بعد ذلك شرهم ، محتقريننا ومحتقرين قانون الله كذلك ٠ أيمكننا وهل يتاتى لنا ان يسمح بذلك ؟

وانطلق على اغا يقول : أنالا أعرف كثيرا عن أعداء الدين ، ولكننا لا نستطيع أن نسمح بأنيلحقوا الظلم بأحد من الرجال الصالحين ٠ وان كنا قد ارتكبنا الذنب بتركنا الاوغاد وأهل السلبوالنهب يضعوننـــا بين شقى الرحى ٠ اننا ننظر اليهم من عل ، اذ أصبح الامر لدينا سواء وقد زاد ذلك من قوتهم ، ونسوا عندئذ من هم ٠ ولكن ليكن الامر كذلك انهم لو كانوا أشد عقلا وأكثر تبصرا لما كان لنا ان نستيقظ منسباتنا أرسل أحدا ليأتى بالقاضى ـ هكذا أمرنى ، مغفلا أمر الاعتبارات ، شأنه فى ذلك شأن كل رجل يعطيه غناه حقا فى أن يكون ذا سلطة على الناس ـ

كنت أخشى أن يقوم بطلب ذلك ،فاستعددت له من قبل ، دون أن أدرى ماذا يكون بامكان القاضى أن يفعل • لو رفض القاضى الحضـــور لكان ذلك خيرا ، ولأحدث في نفسه ثورة وفى نفوس الاهالى أيضا • ولكنه لو وافق وحضر ، وخوفه العجوز او رشاه كي يفرج عن الحاج سنان الدين ، لانتهى الأمر على صورة مهينة قبل أن يبدأ • ولذا قاومت رغبته بسبب تلك الذرة من الامكان فى أن أبدومضحكا • ولو حدث ذلك لما بقى لى سوى الانتظار بلا أمل ، عسى أنتسنح فرصة أخرى •

سالت فى هدوء ، واثقا من سؤالى •

ـ فيم تحتاج الى القاضى ؟ ان أمنه أهم شىء بالنسبة له ، أهم من كل ما تســـتطيع أن تقترحه عليه أو تهــدده به • وثق أنه اذا أفرج عنه فقد اتهم نفسه •

ـ ماذا تريد ؟ أن ننتظر ، وننشر الحب لنستخبره الامر • أم ان نركن الى تلاوة الدعاء ؟

ـ ينبغى أن نبعث برسالة الى استانبول ، الى مصطفى ، ابن الحاج سنان الدين ، لينقذ والده بأية وسيلة •

ـ ستصل وقد تاخر الوقت • يجب ان نخرجه قبل أن تصل •

ـ فلنقم بالأمرين معا • واذا لم ننقذه فليصبهم العذاب على الأقل

نظر الى فى تردد ، كما لو كان امكانموت الصديق قد هزم نفسه وقال :

ـ رجل شريف مثله ، لا يمكن لشر أن يجىء على يده • ماذا يمكن أن يلحقه ؟

ـ وأنا الآخر كنت اظن هكذا بالنسبة لأخى • وانت تعرف ماذا حدث له •

ـ هذا شىء آخر ، بالله عليك !

ـ كيف يكون شيئا آخر يا على أغا ؟ ان الحاج سنان الدين ليسصغيرا وعديم الأهمية كما هو الشأن بالنسبة لأخى ، فمن اجله يوجد من يتكلم ويدافع • هل هذا ما اردت أن تقوله ؟لعله هكذا ، ولكن القاضى والمسلم يعرفان كذلك أمر وجود المتكلمين والمدافعين • فلماذا اذن سجنوه ؟

لكي يفرجا عنه على اثر تهديدكم اياهما ؟ دعوكم من السـذاجة بالله عليكم !

ـ ماذا تريد أنت ؟ أن تثأر ؟

ـ أريد ان اقف في وجه الشر ٠

ورد العجوز في حشرجه :

ـ حسن ، لنقم بكلا الامرين ٠ من سيكتب الرسالة ؟

ـ لقد كتبتها ٠ ضع خاتمك عليها أيضا ، اذا أردت ٠ وينبغيأن نجد احدا ليحملها بأسرع وقت ممكن ٠ وينبغي ايضا أن ندفع له ٠ انني لا أملك لأدفع ٠

ـ سأدفع أنا ٠ هات الرسالة ٠

ـ سأحملها أنا الى من يتولى توصيلها ٠

ـ انك لا تثق بأحد ؟ ربما كنت على حق ٠

ان الخان مكان عجيب ، أتذكره بتلك الرائحة القوية التي تنبعث من أجسام الخيول ومن فضلاتها ، وبأولئك الغرباء الذين يردون اليـه من أمكنة ما وينصرفون عنه الى امكنة أخرى ، وبنظراتهم المشتتة تنبعث من عيونهم الخالية ، مسايرة لأفكارهم التي يرسلونها بمثابة عيون للاستطلاع أو يبقونها معهم شانها في ذلك شأن المتاع ، وقد جلسوا ضائعينفأشبهوا بذلك المطرودين ٠

والآن، واعجبا ، كان الجميع ينظرون الي ، في تطلع وارتياب ٠

وسألني صاحب الخان :

ـ هل الرسالة هامة ؟

ـ لا أدري ٠

ـ كم أعطى على الغا من النقود ؟
أريته اياها ٠

ـ يبدو أنها هامة ٠ أتريد ان اقوم لك بأمر الاتفاق مع احد خيالي البريد ؟

ـ يجب ان أذكر له الى من يسلمها ٠

ـ كما تشاء ٠

وجاء بأحدهم الى الغرفة ، ثم استدار وخرج ٠

كان خيال البريد في عجلة ٠ وما أن وقع بصره على الرسالة حتى صاح :

ـ رسالة بلا اسم ؟ قليل هذا الذى تدفعه ٠

اخذ ينظر الى بعينيه الصغيرتين في تحد ، وبدا وجهه خشنا بتأثير الرياح ، والشمس ، والمطر ، كما كان هناك شيء يتصف بالقسوة توحى به علائم وجه هذا الرجل الذى يشرق ويغرب حاملا أخبار الآخرين بما فيها من أفراح وأتراح ، دون أن يهتم بما تذرفه العين من دمع ، أو يعلنه القلب من فرحة وتغريد ٠

ـ لست أنا الذى ادفع ٠ فما أنا الا شخص يقوم بخدمة آخر ٠

ـ الأمر بالنسبة لى سواء ٠ ادفع لى الاجر كاملا على الفور ، أما الاكرامية فعندما أعود ٠

ـ نصف الاجر الآن ، ونصفه الآخر عندما تعود ٠ أما الاكرامية فستحصل عليها من الشخص الذى تسلمه الرسالة ٠

ـ هذا أمر غير موثوق به على الاطلاق ٠ اذا كان الخبر سارا فسينسون لفرحتهم أن يعطوا ٠ واذا كان سيئا فسينتابهم الحزن وينسون كذلك ان يعطوا ٠

ـ ان هذا الذى تحمل اليه الرسالة يشغل منصبا كبيرا ٠

ـ هذا هو ما يجعل الامر أشد سوءا ٠ ان هؤلاء يظنون اننا نحظى بشرف عظيم اذ نقوم بخدمتهم ٠ ادفع الاجر كاملا على الفور ٠

ـ يبدو أنك تخونني ، يا صديقى ٠

كان يحمل الرسالة على كفه كما لو كان يزن خطورتها

ـ لعلنى أخونك ٠ أتدرى كم من النقود يأتينى اذا أنا سلمتها الى شخص آخر ٠

ـ الى أى شخص ؟

ـ على سبيل المثال ، الى المسلم ٠

تملكتني قشعريرة ، وأحسست كم كان جسمي يتصبب عرقـا تحت القميص • لا يمكن للانسان على الاطلاق ان يتنبأ بكل شيء ، فالحظ يلعب بنا أكثر مما نتصور أو نظن • لقد كان هباء ذلك الذى قدرتـه وأعددته : اذ كان فى امكان الجشع لأحد خيالى البريد أن يقضى على فى الخطوة الأولى • لقد شم رائحة سذاجتى على الفور ، وكان ينقصنى كل شيء يمكن أن يبعث فيه الخوف •

فى غمرة الفزع الذى انتابنى كان اول ما خطر ببالى أن انقض على الرسالة مختطفا اياها مهما كلفنى الأمر ، ولذا أخذت يداى ترتجفـان استعدادا لأن تنقض على عنقه • ولحسن الحظ ، تجحت فى أن أسيطر على نفسى ، حتى لقد اخذت ابتسم ، وقلت فى هدوء :

ـ افعل كما تشاء • لا ادرى ماسطر فى الرسالة ، كما لا أدرى أتعود عليك بربح أم لا •

ـ ساتدبر الأمر •

ـ استمع الى يا صديقى • لعلك تمزح ، غير انى الآن لا أصدقك أعطنى الرسالة •

ـ تقول أمزح ؟ انني لا أمزح • لقـد اردت أن ارى هل هى خطيرة كى اعرف ماذا أحمل • والآنأدركت ، خطيرة هى • لقد قلت لى بنفسك •

ـ ماذا قلت أنا ؟

ـ كل شيء • لقد تجمدت عندما ذكرت المسلم • انك تعلم جيـدا ما سطر فيها • خذها • سيذهب خيال البريد الآخر خلال خمسة أيام • وسوف تدفع له أكثر •

دفعت له ما طلب ، وذكرت له اسم السلحدار ، وأخذت افكر وقد أحسست ببرد الراحة كيف كان يلعب فى حمق بحياته وبحياتى كذلك •

وخرجت متعبا ، بل كدت أكون منهـــوك القوى ، من جراء تلك الفكرة المروعة التى لاحت لى ، وهى الا أتركه حيا ومعه الرسـالة الخطيرة ولكننى أخيرا تركت له الرسالة عندما ادركت انه ماكر وحسب •

حدث منى ذلك فى سهولة ويسر ، وقد تحررت به على الفور من ذلك الضغط الذى كنت أحسه فى داخلى ، ولـــكننى ما كدت اخطو الى

الزقاق حتى عاودني الشك والارتياب · هل اتهمت نفسي بنفسي وأوردتها موارد الهلاك ؟ هل وضعت دليلا ضد نفسي في يد الخيال هذه غير الامينة؟ قبل هذا كنت أقول في غير وعي : سوف أفعل كل شيء بنفسي · ولكن كيف يتسنى للانسان أن يفعل كل شيء بنفسه ؟

توجهت مرتين لـكي استرد منه الرسالة ، وكنت أتراجع في كل مرة ، اذ لم تكن لدى عزمة حقيقية للخروج من تلك اللعبة · وفي المرة الثالثة ، عندما اجبرني الخوف ، جئت الى فناء الخان لكي اوقف كل شيء ، امزق الرســـالة التي كانت تصـــيح معلقة على · ولـكن خيال البريد لم يكن موجودا · لقد خرج الى السوق ، ولم يكن هناك احد يعلم سبب خروجه ·

واذ ذاك لم يكن في وسعي سوى ان انتظر · اخذت أسير فيالازقة المجاورة ، يعروني الاضطراب ويتملكني الخوف ، غاضـــبا على نفسي ، دون أن ادرى ااستمر في الدوران هكذا في حمق أم اذهب لأختفي ، ودون ان اشـــعر بشيء ما من الثقة حتى لقد كنت أشبه في ذلك بطفل اصابه الخوف ·

ـ لم يكن ينبغي أن اقدم على ما اقدمت عليه ـ بهـذا كنت أعاتب نفسي ، وان كنت لا ادرى على التمام في اى شيء اخطأت · أكان ينبغي ألا أبدأ بشيء ، أم الا ابعث بالرســـالة ؟ ان عـــدم البدء في شيء معناه رفع الايدى عن كل ما يتعلق به ، وعدم ارسال الرسالة معناه عدم القيام بشيء ، معناه الاستسلام ، وهذا ما لم أرده · ففي أى شيء اذن اخطأت ؟ أم أن اضطرابي الى هذا الحد يرجع الى المصـــــادفات التي لم تكن في حسباني ، والتي يبدو أنها تقوم بدور حاسم في الحياة ؟ أم انه يرجع الى التعلق الحتمي بكثير من الآخرين ، ولكنني لا أستطيع ان اثق باحد ؟

واذ ذاك ، وربما بسبب ما نالني من التعب ، احسست كيف اخذت في ضعف استسلم الى الهدوء ، تاركا نفسي تلجأ الى الانتظار · لم يعد هناك شيء يتوقف على ، وليس باستطاعتي بعد أن اغير شيئا · سوف يكون ما يقدره الله · ولكنه ليس من العدالة · ومهما يكن من شيء فهـو ليس من العدالة · لم يخطر ببالي التفكير في أمر خيال البريد علىالاطلاق فانه عديم الاهمية الى هذه الدرجة التي لا تجعلني افكر في امره ، فكيف أصبح في استطاعته الآن أن يهلكني ؟ حقا ليس بوسع الانسان أن يحيط فكره بجميع ما يمكن أن يصادفه في حياته من أخطار ·

وقبيل الظهر سألت عنه في الخان مرة أخرى ، دون أن أدرى لماذا كنت في حاجة اليه ، فقد مرت فترة من الزمن كان باستطاعته أن يفعل فيها كل ما يريده • ولكنني لم أجده ، لقد انطلق في سفره الطويل •

انه اذا كان قد كشف أمر الرسالة ، فسوف ينتهي الامر عنقريب وليس هناك من مكان ألجأ اليه عند الهروب •

لم أكن أملك من القوة ما يعينني على الانتظار • فقد انهكتني هاتان الساعتان اللتان شغلتا بسلسلة من الاحتمالات • وسرت قاصدا مبنى المسلم ، لكي أخلص النفس مما تعـــانيه من مرارة وما تحس به من اشمئزاز • وفي اللحظة التي عزمت فيها على الذهاب شعرت في داخلي بسهولة ويسر • فالنتيجة واحدة ، اذا قبضوا على أو قمت بتسليم نفسي وعلى الرغم من ذلك فالامر في أحدهما يختلف عن الآخر تمام الاختلاف ، لأنني وقد اخترت الطريق الثاني أذهب بنفسي للقاء الحل • لقد عاودتني شجاعتي ، وكذا ارتد الى انشراحي بصورة أكثر حيوية ، لأنني غيرت مركز تجاذب القوتين بجعلي القرار يصدر عن نفسي • اتجاهك نحو التهـديد يبدو أمرا صغيرا وأشبه شيء بالحيلة ، ولكنها تحمل في باطنها كل شيء انك تفعل ، ولا تنتظر • انك مشترك ، ولست ضحية • ومن يدرى لعل جوهر الشجاعة يكمن في هذا ؟ أكان ينبغي أن تمر هذه السنين الطويلة لكي أكشف هذا السر الهام ؟

ذكرت للحارس من أكون ورجوت مقابلة المسلم • ونبهته الا يقول : أحد الدراويش ، فليحفظ الاسم والرتبة ، فهما مهمان •

اذا سمح بمقابلتي كان في استطاعتي أن أقول له الكثير • أن أطلب الرأفة بالصديق الحاج سنان الدين • أن أوضح لماذا رجوت الحراس أن يفرجوا عنـــه • أن أنبه الى ما حدث في السوق من اضطراب • أن أذكر الأشياء العديدة التي لا تلزمني بشيء ولكنها تدل على النية الحسنة •

لم أكن تام الهدوء ، ولكنني أدركت أن هذا الذي افعله يعد افضل من سائر الأشياء التي يمكنني فعلها : هانا لا اختفى ، لا أهرب ، وانما أحضر بنفسي للحديث بنية حسنة وضمير صادق •

لا شك أنه سيسمح لى على الفور بالدخول اذا كانت الرسالة قد وصلته • وعندئذ سيتضح على وجه السرعة كل شيء • وحتى لو كانت

الرسالة قد وصلته فلا زال هنال أمل · ان صاحب الرسالة هو على أغا ، وأنا الذى قمت فحسب بتحريرها · وقد حضرت لأقول له ذلك ·

وبينما كنت انتظر ، مفكرا في جميع ما يمكن أن يوجهه من الاسئلة خطر ببالى أنني سوف أكون مضطرا ـ عدا ما اضطررت اليه من هـــذا الانتظار القبيح، وهذا الحديث الذى أعده واحشوه بما يحمل بعض الصدق وبما هو بمناى عنه ـ الى أن افعل كثيرا مما لا يعد جميلا ، من أجل ذلك الذى يعد جميلا · وربما ساكون مضطرا الى القيام بالاعمال التى ســـوف أخجل منها فى الفترة الفارغة من حياتى ، رغبة فى تحقيق العدالة التى تعتبر أهم من جميع الذنوب الصغيرة ·

ولكن لا يزال فى امكانى أن اتوقف ، اذا شاءت ارادة الله ذلك ·

الهى ـ كنت احس في داخلى بلهفة ، متطلعا الى السماء الرمادية فوق القصبة اثقلتها السحب المكتظة بالثلوج ـ الهى ، أيكون جميلا هذا الذى أقوم به ؟ اذا كان غير جميل ، زلزل ثباتى ، أضعف ارادتى ، أجعلنى مترددا · الهى ، اظهر لى علامة ، حرك أغصان الحور ولو بنسيم الرياح ، ولو حدث ذلك فى هذه الفترة من الخريف لما كانت فيه اية غرابة ،وسأتنازل عندئذ ، مهما بلغت منى الرغبة فى أن اقوم بذلك ·

لم تهتز اغصان أى من اشجار الحور على شاطىء النهر · لقد كانت تقف فى هدوء ، مشدودة القمم الى السماء تغشيها السحب والغيوم ، وقد انتابها الصمت وتملكها الفتور · ذكرتنى هذه الاشجار بمثيلاتها التى توجد فى قريتى حيث ولدت ونشأت ، والتى تقف على شاطىء نهر يعد أجمل وأكبر من هذا ، وتقوم تحت سماء أجمل وأكبر من هذه · لم تكن هـــذه الفرصة ملائمة لكى أستعيد الذكريات ، فقد بدت لى هذه الاشياء أشـــبه بوميض البرق ، أو بزفرة من الزفرات · وتلاشت · وبقى يوم غائم أمامى ، وسحب ثقال فوقى ، وطمى ماكدر فى داخلى ·

أيظهر ظل اسحاق ؟ هذا هو وقته ·

عاد الحارس · المسلم لا يستطيع أن يقابلنى ·

ـ أذكرت له من أنا ؟ ولم تنس اسمى ؟

ـ أحمد نور الدين · شيخ التكية · المسلم يقول لا وقت له · جىء مرة ثانية ·

لم يكن يعرف عن الرسالة ·

تلاشت على الفور جميع الأشباح ، نسيت أشجار الحور ، واليوم الكدر ، والحزن ، والذكريات · كنت على حق : لا ينبغى أن ننتظر شيئا ، بل يجب علينا أن نواجه كل شيء · اذا لم يكن الانسان بليدا وجبانا فهو ليس بضعيف ·

وفى فناء بيت على اغا كانت تقف خادمة صغيرة للقاضى فى ملابس رثة بالية · وهمست لى زينب تقول ان زوجة القاضى عند على اغا ، وقد اضطرت ان تذهب اليها مرتين تدعوها للحضور · فقد طلب على اغا مجيئها مهما كلفها الأمر ، وهى لا تعرف لماذا ·

توقفت فى بداية السلم · وخلال الباب الذى كان مفتوحا كما بدا لى اعلاه كان يصل الى أذنى الحديث · لو لم يفاجئنى هذا الحديث ولو لم أكن فى حاجة اليه لما تسمعته · كان العجوز يطلب من ابنته أن يحضر القاضى اليه بأية وسيلة · انه لم يرد أن يتنازل عن قصده ·

سمعت كيف يصيح مختنقا بالغيظ والغضب :

ـ ان الأمر هام ، لقد قام بفعل أحمق ، هو او الآخرون ، ولكنه سيكون مذنبا ايضا · ليحضر ، أو ليفرج عن الرجل ،كى اهدأ انا بدورى·

ـ اننى لا أتدخل فى أعماله ، ولا أهتم بها · وبخاصة الآن · وأرى من الأفضل الا تتدخل أنت الآخر ·

ـ اتظنين أننى ارغب أن أتدخل ؟ لا لست ارغب ولا أستطيع · اننى رجل مسن ، ضعيف ، مريض · كيف يتسنى لى أن أشغل نفسى بامور الآخرين ؟ ولكنى مضطر · انهم ينتظرون ذلك منى ·

أهذا صوت على اغا ، صوته الباقى ، الضعيف ، اللزج ، بتأثير رثائه لنفسه ؟ هل هذه الكلمات كلماته ؟ الهى الأعظم الن يكون فى وسعى الى الابد أن اعرف شيئا عن الناس !

ـ لست مضطرا ولكنك تريد · لقد تعودت أن تسمع كلمتك · انك تحب أن يسير الأمر على هذا النحو ·

ـ لا أحب · لا اريد بعد ، فليست لى طاقة بشىء ،كما ليس فى وسعى ان أعترف لهم بذلك · ساعدينى ، لكى يفرج عنه ، من أجلى · حتى لايقال

انني نسيت الصديق ، وحقا نسيت • ان هذه الانفاس الباقية لي من الحياة جعلتها من أجلك ، ومن أجل حسن • ولكن كيف أكشف لهم عن ذلك ؟

ـ حسن ، يا ابت ، سوف نواصل الحديث فيما بعد ، فليست هناك جبال تفصلنا أو محيطات •

ـ الأمر عاجل ، عاجل جدا •

ـ سوف أحضر غدا •

ـ احضري في الصباح الباكر ، لتعلميني به ، قال ، وكما يرى الليل انسب للحديث •

ما هذا ؟ لقد ظهر الشرخ الاول في مكان من الصخرة كنت احسبه اكثر صلابة • شعرت باحتقار تجاه ضعفه الذي يخفيه ، وأحسست اذ ذاك بخجل كما لو كنت قد فاجأته يرتكب خزيا •

هبطت الى حيث يوجد مكان الاحذية عند بداية السلم • ووقفت كما لو كنت داخلا لتوى •

رفعت يدها لتسدل ستر وجهها ، ولكنها عدلت عن ذلك عندما تبينت شخصي • وسألتها كيف حال الوالد ، فأجابت في اقتضاب ، وارادت أن تمر • وكنت مضطرا الى أن أستوقفها ،فلم اعد بعد خجولا كما كنت فيما مضى •

ـ كلمتين فحسب ، اذا لم تكوني متعجلة •

ـ انني متعجلة •

ـ في الربيع بدأنا الحديث ، ويجب علينا أن ننهيه • نعم لقد مات اخي ، ولكنني ما زلت حيا •

ـ دعني لأنصرف •

ـ هناك صداقة تربطني بوالدك ، صداقة عظيمة •

ـ وما شأني في ذلك ؟

ـ سوف أساعدك فيما ترغبينه ، كي لا ينساك ، قبيل الموت •ولست أطلب سوى أن تحثي القاضي في الافراج عن الحاج سنان الدين • والا فلا أمل لك في شيء • انني أعرض عليك الاتفـــاق • وستكونين اكثر استفادة •

ـ انت تعرض علي اتفاقا ؟

ـ نعم اعرض . ولا تحقرى من شان ما اقول .

مر كالبرق الخاطف فوق بياض عينيها ظل من كراهية أو احتقار . لقد اسأت اليها ، وهذا ما أردته . والآن لن يفرج القاضى عن الحاج سنان الدين ، وحتى لو كان قد قصد ذلك .

لم يكن الامر سهلا بالنسبة لى كى أكون حشنا ، لقد أصابنى غضبها كأنه السوط . ولو انها تكرمت بأن تكون عدوة لى لكنت فى حاجة الى رحمة الله .

دخلت غرفة علي أغا ، مفكرا فيما برق فى عينى المرأة اكثر مما كنت افكر فى جمالها . الى اين تسير فكرتها المغلقة التى بلغت حرارتها حدا لا تستطيع معه أن تركن الى السكون ؟ الى اى غاية يرمى صمتها الحذر ؟ ربما كان فى امكانها ان تكون زوجة صالحة،واما صالحة كذلك ، وماذا هى عندما لا تكون ذلك ؟

ـ هل سلمت الرسالة ؟

كنت أنظر الى العجوز مشتت الفكر ، فقد كنت لا أزال فى دوامة من أجل احتقار المرأة اياى .

ـ لقد حضرت اليك الابنة ؟

ـ انها تحضر كل يوم . فهى قلقة لأننى آكل قليلا . هل تحدثت معها ؟

ـ أهى تتحدث مع أحد ؟

ـ تتحدث كما يبدو لى . انك لا تحبها ؟

ـ رجوتها من أجل الحاج سنان الدين . كى تحث القاضى على الافراج عنه .

ـ و .. ؟ ماذا قالت ؟

ـ لا شىء .

ـ غريبة هى أحيانا .

ـ كيف حالك الآن ؟ يبدو أنك منتعش .

ـ انني أشعر بالتحسن الى درجة تمنيت معها ـ اغفر لي يا رب ـ أن يسجنوا كل يوم صديقا ٠

ان هذا الصوت منتعش وشديد الثقة ، ألم أسمع منذ قليل صوتا مخالفا لهذا ، خائفا وباكيا ؟

اية لعبة تكون هذه التي يلعبها ؟ ومع من ؟ مع نفسه ، من أجل الآخرين ؟ أو مع الآخرين ، من اجل نفسه ؟ ومن يكون هو ؟ عقدةالعادات والتقاليد ؟ صورة متخيلة ؟ ذكرى ممتدة ؟ أيهما أهم اذلك الذى يتوقعه الآخرون منه ، أم ضعفه هو ؟ وكلاهما يعيش في نفسه ، ويصدر القرار ٠ ان فخره القديم يدفعه للتدخل ، ولكن حالته الراهنة تحول دون ذلك ، فتعبه وهو على أبواب الموت يتطلب منه أن يغمض عينيه ، ولكنه يتظاهر أمام الناس بقوته السابقة ، بظلالها التي بقيت ٠ أينتهي كل انسان هكذا مقاوما من أجل استرداد شخصيته السابقة واستعادة ما كان له من سلطان وسيطرة في سالف الأيام ؟

اية ناحية ستكون الراجحة ٠

قلت وأنا أجلس ناحية قدميه :

ـ كان خيال البريد يخوفني ٠ لقد كان وقحا عندما وجد أن الرسالة لا تحمل اسما ٠

ـ لماذا لم ترسله الى ٠٠ عفوا ٠ كان يجب أن تدفع له ٠ ولو فعلت ذلك للان على الفور ٠

ـ لقد خفت بدرجة كبيرة ٠ وهذا ما دفعني الى التفكير ، هل يكون الامر على ما يرام ، باثقالي عليك بهذا العبء وقيامي بحثك على أن تتدخل

ـ لا أدري عن أي شيء تتحدث ٠

كان صوته ينبيء عن نفاد صبره ، كما كان ينبيء عن الشعور بالاهانة ٠

ـ يمكنك ان تحث مجنونا ، أو صبيا غير عاقل ، أما ان تحثني فلا ٠ لقد تحدثت عن الرسالة فحسب ٠ وأنا قلت انه يجب علينا أن نقوم بأكثر أتكون ذاكرتي قد خدعتني على التمام ؟ بأي شيء أثقلت علي ؟ ان القيام لا أقوى عليه ، ولكن الكلام ـ لحسن الحظ ـ أستطيعه ٠ ولا يمكن لأحد أن ينزع عني اهتمامي بالصديق ٠ فهذا أمر يتعلق بضميري ٠

ـ من الممكن أن يكون خطيرا ٠

ـ لا شيء بعد يمكن ان يكون خطيرا بالنسبة لى ٠ أو اذا شئت فكل شيء خطير ٠ ان الموت يتربص وراء الباب ، ينتظر ٠ وعندما أقوم بشيء لا افكر فيه ، لا يهمنى أمره ٠ احس أننى أعيش ٠

كان حديثه حديث الواثق ، وكان وقعه يحمل على الاقتناع ، مثله مثل حديثه الآخر منذ قليل ٠ واحدهما يجب أن يكون أكثر دلالة على شخصا أقرب الى ذلك الذى يدور بفكره ويرغب أن يكون ٠

على أية حال ، فالأمر سواء ٠ سوف أثبته على الناحية التى أراها أنسب لمتطلباتى ، واثقا به ٠ قلت متملقا :

ـ يطيب لى أن تقول هذا ٠ اننى أقدر الرجال الشجعان والكرماء ٠

ـ ويجب ذلك٠ اذا وجدتهم ٠ غير أن الرجال المسنين ليسوا بشجعان ولا كرماء ٠ ولست أنا أيضا ٠ ربما أكون ماكرا فقط ، وهذا مكتسب من طول الحياة وكثرة التجارب ٠ ماذا باستطاعتهم أن يفعلوا بى وأنا فى هذه الحال ٠ أيودون أن يسجنوا أو يقتلوا رجلا أخذ يسير فى طريقه الاخير؟ هؤلاء الناس حمقى ، سوف يرحمون الرجل المسن غير المفيد ، ويهلكون الشاب ، الذى لم تزل أمامه الحيـاة ٠ ولذا سآخذ كل شيء على عاتقى كل شيء على التمام ، سوف أستغل هذا التفوق ، اذ أنه لا يسنح سوى مرة واحدة فى الحياة ٠

كان يضحك آخذا فى السعال ٠

ـ خبث ، أليس كذلك ؟ أن يكون الانسان بطلا دون خطورة ٠

خبث وهزل ٠

لست أدرى أيعد هزلا ، كما أننى لست واثقا هل سيرحمونه ٠ ولكن ليكن ، أيها العجوز ، كما تحب وكما تشاء ٠ لو أنك أصبت بنكبة لحزنت ولو لم أنجـح أنا لكان حزنى أكثر منـك ٠ لم نعد نحن الاثنين مهمين ، لا أنت ولا أنا ٠

وكم كان عجيبا أنه الى الآن لم يسألنى ولو مرة واحدة لماذا سجن الحاج سنان الدين ، وهل هو مذنب ٠ قلت انه ، كما سمعت ، مشترك فى حادث الهرب الذى قام به المسجونون من أهل « سافا » وأنه سجنه بعد بداية المطاردة لوجهاء القوم ، بسبب تزايد رفضهم اطاعة أوامـر

السلطان والولاة ، ذلك الذى بدأ بامتناعهم عن دفع المساعدات الحربية ·
وهذه المطاردة التى تمثل ضربة مسددة الى أسفل الذقن يجب أن تزرع
الخوف ، بعد الثورتين اللتين قامتا في منطقتى نهر السافا ، والكراينا ،
لكي لا يكون الحادث السيء في هاتين المنطقتين بمثابة القدوة لحادث مثله
هنا · الامر الذى لا ينبغى أن يكون·ومن أجل هذا بالذات · وحتى لايتسع
نطاق البلبلة ، وحتى لا يحدث ذلك الذى لا يرغبه أحد من العقلاء ، يجب
الاطاحة بأولئك الذين يخلقون الدسائس ويقومون بالتآمر وينشرون
الغضب ، أولئك الذين يقومون بالظلم متظاهرين أنهم يطبقون القانون
والذين فى امكانهم بتصرفاتهم السيئة أن يجبروا الآخرين ان يقوموابأعمال
التخريب وسفك الدماء · ولو ساعدت مصيبة الحاج سنان الدين فى أن
يبعدهم الله عنا ، فلن تذهب سدى هذه المصيبة ، ولا ما يؤرقنا من هموم

لوح العجوز بيده معلنا عدم مبالاته بذلك الذنب الذى الحق بسنان
الدين ، وربما كان ذلك لأنه لم يره كبيرا ، او لأنه لم يصدقه ، وأما
بشأن المطاردة فقد قال ان خوف الناس هو الذى يدفعهم الى اشاعة
ذلك ، وان لم يكن مستبعدا من العقل ، لأن الأمور لم تتحسن على الاطلاق
بل أخذت تزداد سوءا ، أو لعله يبدو لنا هكذا لأن هذا الذى يكون بعد
أصعب من ذلك الذى كان ، وعلى الدوام يكون الدين المسدد أخف من ذلك
الذى لايزال على عاتقنا · انه لا يصدق أن أحدا سمع بشأن تلك المطاردة .
اذ لو كان بنيتهم أن يقوموا بها لتجنبوا الافصاح عنها · واذا كان قد حدث
منهم ذلك الافصاح فقد اتضح أنهم لا ينوون القيام بالمطاردة بل يريدون
تخويف الناس · وأما بخصوص السلطة فانها دائما ثقيلة ، وستظل
تجربنا علىذلكالذى لاترتضيه نفوسنا·ماذا سيحدث لو أقصىهؤلاء الناس
خلال سنى عمره غير ، وطرد ، أو قتل عديد من القضاة ، ومن المتسلمين،
وممن يحملون رتبة القائمقام ، وليس باستطاعته أن يحصى عددهم ،فهل
تغير شيء بسبب ذلك ؟ تحليل ذلك الذى تغير · والناس لا يزالونيعتقدون
ان الأمر يمكن أن يكون على صورة أخرى ، ولذا ينشدون التغيير · انهم
يحلمون بالسلطة الحسنة · ولكن ماذا تكون ؟ أما ما يتعلق به فانه يحلم
بأصحاب الرشوة ، انهم أحب الناس اليه ، اذ أن له طريقا يملكه اليهم ·
وشر الناس لديه الشرفاء ، الذين لا يحتاجون الى شيء ، والذين
لا يتصفون بالضعف ولا يرضون بالهوان ، والذين لا يعرفون غير القانون
الذى يعد سلطة تعلوهم · ويصعب على الرجل العادى أن يفهمه · ويرى
أنه ليس فى استطاعة أحد أن يفعل الشر كما يفعلونه هم · انهم يخلقون

قدرا من الكراهية ، يكفي لقرن من الزمن • وأما هؤلاء الذين نشأوا بيننا فانهم لا يعدون شيئا • انهم صغار في كل شيء • لا يعرفون أن يكونوا أشرارا ولا أخيارا • لديهم قدر من القسوة وقدر من الحصافة • يكرهون القصبة ولكنهم يخشونها • ولذلك نراهم غاضبين ، وميالين للثأر اذا استطاعوا ، أو ظنوا أنهم مستطيعون • ولو واتتهم الجرأة لتنفيذ مايرغبون لعرف الجميع كم هم خطرون ، ولكنهم على الدوام يخشون الوقوع في الخطأ • غير أنه من الممكن وقوعهم فيه اذا تساهلوا أو بالغوا • وأفضل ما يخفف من حدتهم ويكسر من صلابتهم هو التهديد ، وخاصة اذا بلغهم في هدوء وفي صورة تقوم على التلميح لا التصريح ، لأ نهم لايجدون سندا ولا يملكون لشخصياتهم قيمة ، وهم يعتمدون دائما على الصدفة وعلى أحد من أولئك الكبار ، ومن الممكن أن يكونوا على الدوام بمثابة الكسور في رصيد أحد من النـاس • وعلى أية حال ، هم مساكين ، ولذا يكونون في بعض الاحيـان على غاية من الخطورة • ان كل ما يتمناه العجوز هو أن يساعد الحاج سنان الدين ، والامر سواء بالنسبة له أسيبقى هؤلاء هنا أم سيذهب بهم الشيطان •

ان تفكيره يختلف بعض الشيء عن تفكيري ، ولكنني لو عارضته لبدا الامر حماقة ، ولذا لن يكون ذلك مني حتى يكون منه ما يقف حائلا دون تحقيق رغباتي •

رجاني كي يبيت ملا يوسف عنده • اذ ليس عنده أحد من الخدام •

اطرق الشاب براسه ، ليخفي سروره ، عندما اذنت له بالبقاء •

دنا الاصيل كدرا ، وبدت السماء مثقلة هامدة ، وفوق القصبة كانت تنتشر أعلام السكون •

مكث الناس ينتظرون شيئا طيلة نهارهم ، مصيخين السمع ،مدققين الأعين ، وقد شردت أذهانهم عن أحاديثهم العـادية وأعمالهم اليومية ، وازداد الهدوء بعد اضطراب الصباح ، وران الصمت على المكان ، كما لو كانت الجيوش المتحاربة قد انسحبت عائدة الى مقارها ، تنتظر الليل أو الصـباح لتبدأ المعركة • وهذا الهدوء بالذات ، وهذا السكون ، وجبهة القتال هذه الخالية ، بلا صياح ، للأسباب ، بلا توعد ـ أشياء كلها تبعث التوتر ، ذلك الذي كان يتزايد لحظة اثر أخرى • وستكون النهاية عندما ينفجر كل شيء • كان كل ينظر الى الآخر ، كما ينظر الى المارة ، ثم يلقي ببصره عبر الزقاق ، كانوا ينتظرون ، كل شيء • يمكن أن يكون علامة •

وانا الآخر كنت أنظر عبر الزقاق . لم يبدأ بعـدولكنى أنتظر ، وجميعا ننتظر ، فشيء سوف يحدث ، عن قريب، لقـــد أخذت دعائم القصبة القديمة تحدث صريرا ، وأصبحت الاذن لا تكاد تسمع هبوب الرياح من أعلى الجبال الشاهقة ، وأخذ العالم يزمجر .

انطلقت الطيور هاربة تصيح ، متجهة صوب السماء السوداء ، ولزم الناس الصمت ، واحسست بألم فى دمى من أجل الانتظار .

١٥

« فالحق ، والحق اقول »

قضيت وقتا طويلا من الليل دون نوم • ثم أخذت أغفو فتـــرة لأستيقظ اخرى ، مواصلا تفكيرى فى النوم واليقظة ، دون استطاعة منى للتفريق بينهما ، موقنا أننى لم اغمض عينى واننى سوف أقضى الليل كله هكذا ، نصف مرتد لملابسى أو نصف خالع ، لكى لا تفاجئنى الأحداث وأنا على غير استعداد •

لم استطع ان افكر بصورة تدريجية ، وربمـــا كان ذلك بسـبب النوم الذى يقطع الخيوط ويهدم النظام • أو بسبب نفاد الصبر ، ذلك الذى كان يجبرنى على الوصول الى أهم الامور بأسرع وقت ممكن ، وهكذا كنت أعيش على الدوام فى لقاءات مستمرة مع هؤلاء الثلاثة • وخاصـــة مع القاضى ، لقاءات توصف بالتأنى والتروى ، متابعا جميع حركاتهـم التى تبعثها المفاجاة ، الخوف ، الأمل ، مطولا بقدر الامكان هذه اللحظات الباعثة ، تلك اللحظات التى ترى رائعة عندما يأخذ كل شيء فى الانحطام لقد اقتلعت الجذور فحسب ، ولم يصل ذلك الى وعيهم الكامل بعد ، انهم يعيشون بحسب تعـودهم القديم ، ولم يفقدوا بعد سيطرتهم أو يحسوا باحتقار نحو أنفسهم • ان ما يعد جميلا هو خوفهم لا ارتضاؤهم للسكوت خوف ، ضباب ، ذرة من الامل ، قلق فى الأعين • او لعل ما يعد أفضل من ذلك (أعود بهم الى اللعبة• أجبرهم على أن يبدءوا من جديد) : كل شيء بالنسبة لهم قد انتهى ، وهم لا يعرفون ، لا يعتقدون ، بل يقفون فى صلابة فى ثبات ، كما كانوا حينذاك ، كما كانوا دائما حتى الآن انني لا أود أن أراهم مهدمين، اذ أن كراهيتى تضعف عندما تنطلق فكرتى ، دون ارادة منى ، ودون اطاعة منها لى ، مجاوزة ما أرغب واشتهيه • فالكراهية ،مثلها مثل الحب تحتاج الى الناس الأحياء •

هببت من نومى على اثر طلقات قوية تنطلق فى مكان ما من القصبة أهذا هو البدء ؟

كانت الليلة القاتمة لا تزال تجرر اذيالها • أوقدت الشمعة ونظرت الى الساعة المعلقة فى الجدار • عن قريب سيبزغ الفجر •

ارتديت ملابسى وخرجت الى ممر التكية •

كان الحافظ محمد يقف ببـــاب غرفته ، ملتفا بمعطف كسى باطنه بالفراء •

الا ينام هو أبدا ؟

ـ سمعتك ترتدى ملابسك • الى أين تذهب هكذا مبكرا ؟

ـ اية طلقات تلك ؟

ـ ليست هذه أول مرة تسمع فيها هذه الطلقات • وماذا يهمك من امرها ؟

ـ الا تكون من أجل الحاج سنان الدين ؟

ـ ولماذا تنطلق من أجل الحاج سنان الدين ؟

ـ لا أدرى •

ـ لا تذهب • سوف نعلم عندما يطلع الصباح •

ـ ساعود على الفور •

ـ الوقت ظلام ، وخطير ، وهناك اناس على اختلاف انواعهم • ياالهى يا رحيم ، أأصابتك مصيبته الى هذه الدرجة ! أمن من أجـــل احسانك ينبغى أن تصاب بنكبة انت الآخر !

ـ ينبغى أن أرى •

ـ ماذا تتوقع ؟

اندفعت أسير بجـــانب سياج خشبى ، وجدران لبعض البيوت ، واختبأت فى الظلام عندما مر بى بعض الجنود ، اذ أننى بعد أن سجنت كان يغمرنى خوف غامض لسماع خطى الآخرين السريعة ، وجريهم المذعور كنت اخاف من كل شىء يحدث فجأة • والآن وددت أن أعرف ماذا يحدث هناك • لقد اردت ان اصل، ان ارى ، أن أتدخل •

فى أى شىء أتدخل ؟

وحقا ، ماذا أتوقع ، في أي شيء آمل ؟

ان جميع آمالي قد تعلقت بالرسالة التي حملها خيـــال البريد الى السلحدار مصطفى في استانبول • واذا لم يرد من هنـــاك قريبا قرار القتل ، أو على الأقل أمر بتنحية المذنبين ، فلا وجود اذن لعاطفة البنـوة نحو الأبوة ، كما لا وجود للشرف كذلك • وفي هـذا لا يجـدي حتى التفكير ، فقيمة الحياة عندئذ لا تساوي قطعة نقد من النحاس •

ولكن حتى اذا لم يكن يوجد ذلك فانني أثق بوجود الكبرياء لدى هؤلاء الأقوياء • وهذا مالا يمكن أن يتأتى فيه خداع • أيقبل ســلحدار السلطان على نفسه أن يجر حكام القصبة الصغار والده بين السجون ؟ لو حدث أن وقف أمامه أحد أقوى منه لحارب ضد عاره ، وأما عن هـؤلاء فسيتناثر ريشهم في جميع الجهات ، فطبعه دون شك ليس ملائكيا ، كما أن يده ليست هينة . وقد استطاع بأن يصعد الى هذا المنصب •

سوف يقوم لي بكل شيء ، وما على سوى الانتظار ، وهذا هــو الأفضل والأضمن • ولكنني لم أستطع بأية طريقة أن أتهرب من أهـل السوق ، وخاصة حينما اخترت الحاج سنان الدين لكي يكون الطعم ، واشركتهم في أمر هذا الحدث • انهم يستطيعون أن يفسدوا كل شيء ، ولكن ماذا كان في امكاني ان افعل سوى ذلك ؟ لو استطاعوا التوصل مبكرا الى الافراج عن الحاج سنان الدين ، دون جلبة ودون افساد وتخريب لضاعت جميع الجهود سدى • كنت أتوقع أنهم سوف يقومون بما هــو أعظم وأصعب • ولا ادرى بماذا • ربما قد ذهب ممثلهم الى الوالي بالشكوى ربما سيدفعون الى الأوباش والجنود السابقين كي يقوموا بخطف السجين• ربما سيحرضون الانكشاريين كي ينحوهم عن السلطة • فقل أن يعرف أحد ما ينوون فعله ، ولكنني كنت آمل ألا يمر شيء في هدوء • يجب أن يسمع الى أبعد حد ممكن • رغم أنني أود بأن يحدث شيء بدوني • اذ كان لزاما على أن أعوض خسارتي •

التقيت عند الجسر الحجري بالخفير •

ـ الى أين تذهب هكذا مبكرا ، يا حضرة الشيخ •

ـ لقد خدعتني الساعة •

ـ الهي ، ما هذه الحياة • من يستطيع النوم لا ينام ، ومن يود على الدوام أن ينام قدر له أن يتسكع طول الليل •

ـ هل من أخبار جديدة ؟

ـ كيف لا ! توجد على الدوام أخبار جديدة • غير أن أحدا لايحكى لى شيئا ، ولذا لا اعرف •

ـ فى مكان ما دوت منذ قليل بضع طلقات •

لحسن الحظ ، ليس فى منطقتى •

ـ ايمكنك ان تسال عن ذلك ؟

ـ بالنسبة لى غير مهم •

ـ سادفع •

ـ انك لم تدفع حتى عن ذلك الذى كان اهم بالنسبة لك • ومن يدرى لعل هذا لديك هو الاهم • انتظر ، لم تغضب ؟ سوف أخبرك بدون مقابل لقد سالت جارى الخفير • واتضح أنه لا يعرف هو الآخر • واذا ذكر لى أنه لا يعرف كان المعنى على التمام كان شيئا لم يحدث • وليس لى بعد أن أسال احدا •

اخذت النوافذ تضىء وكانها الأعين تفتحها البيوت •

عندما اكتمل وضوح النهار ، جاء الى ملا يوسف يحمل خبرين ، احدهما ان « حسن » قد عاد فى الصباح البـــاكر الى البيت ، فقد ظل يواصل سفره طول الليل ، والآخر ، وكان اشد غرابة من الاول ، أن السوق معطلة •

وحقا كانت المحال والدكاكين موصدة ، وستائر نوافذها مسدلة ، واقفالها الخارجية محكمة ، ولم تكن السوق ترى من قبل فى أعظم الاعياد هكذا خالية •

كان الخياط الشاب ، نزيل القصبة ، يضم مصراعى باب دكانه فى سرعة وهو يتلفت فى ذعر •

ـ لماذا أرى السوق معطلة ؟

ـ لا أدرى • لقد جئت مبكرا واخذت اعمل ، وعندما تطلعت لاحظت ان احدا لم يفتح •

هز الباب يستوثق انه اغلق ، ثم وضع المفتاح بسرعة فى جيبه ، كما لو كان يخفيه ، وذهب مسرعا يخترق الزقاق •

وعلى البعد لمحت تاجرين يقبلان ، وكانا يسـيران فى بطء ، كمـا يسير الحراس ، وينظران فى هدوء خلف الخياط ٠

سألتهما :

ـ الم تقولا له ان السوق ستكون معطلة ؟

ـ ومن قال لأحد ؟

ـ الم تتفقوا ؟

نظر الى فى دهشة :

ـ من أجل أى شىء نتفق ؟

ـ لماذا اذن اغلقتم المحال ؟

ـ أنا فضلت هكذا الا أفتح اليوم ، وربما حدث من الآخرين ذلك ٠

ـ ولكن لماذا ؟

ـ لماذا ؟ وما يدرينا لماذا ٠

ـ أحقا لم تتفقوا ؟

ـ يا افندى بالله عليك كيف يمكن لأهل السوق جميعا أن يتفقوا

ـ ها هى الدكاكين جميعها مغلقة ٠

ـ وهى بالذات من أجل هذا أغلقت ٠

ـ من أجل ماذا ؟

ـ من أجل عدم الاتفاق ٠

ـ الا يكون هذا من أجل ما حدث بالأمس ؟

ـ قد يكون من أجل ما حدث بالأمس ؟

ـ أو بسبب تلك الطلقات التى سمعت فى الصباح ؟

ـ قد يكون من اجلها ٠

ـ او بسبب شىء آخر ؟

ـ ربما يكون

ـ ما هذا الذى يحدث فى القصبة ؟

ـ لا ندرى ٠ وبسبب هذا فضلنا الاغلاق ٠

لم يكن بصرهما موجهـا الى ، بل تجاوزنى لينظر خلفى ٠ كان

مظهرهما يوحي بالجد ويدل على الشرود ، وقد استطعت أن أحس بمدى ما يحملانه من الهموم ، وبفشلي في أن أصل معهم الى شيء ٠

ـ وماذا سيكون الآن ؟

ـ لا شيء باذن الله ٠

ـ واذا كان ؟

ـ فها نحن قد أغلقنا الدكاكين ٠

أكانت أسبابنا نحن الدراويش تبدو لهم غير مفهومة مثلما تبدو لنا أسبابهم ؟

لا أستطيع أن أقول انهما غير صادقين ، ولا أنهما حذرين ٠ غير أنني أستطيع القول انهما يشعران بخطر ما : واذ يكون الأمر كذلك فكل انسان له لغته ٠

حكيت لحسن هذا الحديث ٠ لقد ترك التاجران تأثيرا غريبا في نفسي ، هذان اللذان تحولا في ليلة واحدة الى شخصين أجنبيين ، بسبب ذلك الذي قمت بتحريكه ٠ ألم يكن ينبغي ان يصبحا أشد قربا الي ؟ قلت لحسن ذلك بطريقة أخرى : الم يكن ينبغي أن يكون فكر احدنا شبيها بفكر الآخر ، وقد أثارنا سبب واحد ٠

كان حسن يرتدي ملابسه في غرفته ٠ لقد استحم ، وقال للمرة الثانية انه متعب ، انهم كانوا يسرعون في طريق العودة ، من أجل الوالد ، وقد ضعف صديقه الدوبرفنيكي ضعفا شديدا ، ومن المؤكد انه سيقضي في النوم يومين كاملين ٠ أما هو فلم يبد متعبا ، بل بدا مشتت الفكر مشغول البال ٠ ان علائم التشتت في وجهه المرح كانت تجعله حالما ، منفصلا عن كل شيء ٠ كان هناك شيء مشع متهلل يبعث على الضحك ويوصف بقلة الاتزان ينير داخله ويحول بينه وبين أن يمد بصره الى عالمه الخارجي كي يراه ٠ وحينما كنت أحكي له كان يجيب بقوله : نعم ، بكل تأكيد ، ولكن كان يخيل الي انه لم يكن يفهمني ، كما لم أكن انا الآخر أفهم التاجرين ٠

قلت له ، وقد مازجني شيء من الحيرة وشيء من السرور بعثه الى تشتته :

ـ انك لم تصل بعد الى القصبة

ـ ماذا ؟ آه ، بشأن هذا ! انني اذن وصلت ، وقد زججت بنفسي في كل شيء : ان الوالد مريض جدا ، والحاج سنان الدين مسجون ، والاميرالاي عثمان بك ذهب ليسفك دماء أهل سافا ، أيوجد بعد شيء آخـر ؟

كان يبتسم في سعادة ، وكأنما كان يستمع الى أشد الأخبار سرورا ٠

ـ كيف يكون علي اغا مريض جدا ؟ لقد كان ليلة الأمس في حالة حسـنة ٠

ـ لقد أثاره سجن الحاج سنان الدين ٠

ـ كلنا نشعر بانزعاج وقلق ، كلنا نخاف عليه ٠

ـ لماذا ؟ سوف يفرجون عنه ٠ لقد وجد أناس يحبون المال ٠ تصور أنه يوجد هناك أناس مثل هؤلاء !

انه لم يحس في هذا الصباح بأن هناك أمورا عسيرة ، فقد كان يضحك وهو يقول :

ـ طول حياته كان يهتم بالسجناء ، الى أن تحول هو نفسه الى سجين ٠ أمر بالغ العجب : أن يتحول المحب الى من يحب ٠

ـ اننا في حزن من أجله ٠

بدا ما قاله عتابا ٠ لقد أردت أن أحول بينه وبين أفكاره الغريبة ، ولكنه لم يسمح بذلك ٠

ـ وأنا كذلك حزين من أجله ٠ انظروا الآن كيف أنه كان طول حياته ينال ثوابا من أجل الآخرين ٠ والآن ينال الآخرون ثوابا من أجله ٠ ربما يعد هذا عدلا ٠

انني أعلم أنه لا يميل الى المشاركة الوجدانية ، ولكن قوله هذا كان يرن في الآذان حادا قاسيا ٠ وربما كنت أنتظر منه الكثير ، وليس باستطاعته أن يفكر في غير سعادته ٠

ـ كيف كان حالك في دوبرفنيك ؟

ـ حسنا ، لا زال الوقت هناك صيفا ٠

عجيب ألا يكون ربيعا ٠

سمع الباب الخارجي يفتح ، واقترب حسن من النافذة ٠

انه الخادم فضل أتى من الزقاق ، واشار له كي ينزل ٠

وسألني حسن :

ـ ايمكنك أن تبقى مع والدي ؟

ـ ليس لي وقت كاف ٠

ـ ابق ولو قليلا ٠ ساعود بعد لحظات ٠

كان علي اغا في الحالة نفسها التي كان عليها أمس ، وربما كان أكثر انتعاشا واشد حيوية ٠ سألني :

ـ الى أين ذهب حسن ؟

ـ لا أدري ٠ لقد قال انه سيعود بعد لحظات ٠

أخذ يسألني ماذا يحدث في القصبة ، وانتابه العجب لكون السوق معطلة ، ورجاني أن أحمل حسن على البقاء في البيت ، من أجله ، فمن ذا الذي يعلم ماذا يمكن أن يحدث في هذه الفترة من المرض ٠

ـ لماذا قلت لحسن ان حالتك قد ازدادت سوءا ؟

ـ هذه هي الحقيقة ٠ لقد ازدادت حالتي سوءا ٠

ـ منذ متى ؟ لقد كنت ليلة أمس مثل الطائر ، وهذا بالذات ما أردت أن أقوله لحسن ، ولكنني لم أجد الفرصة لأقوله ٠

ـ أليس لديكما شيء أعقل من هذا تتحدثان فيه ؟ لقد ازداد حالي حسنا ، والآن ازداد سوءا ، وأردت أن يكون بجانبي ، فما وجه الغرابة في ذلك ؟

ـ لا شيء ٠ انك ترغب ، في الحقيقة ، أن تربط حسن بسريرك ، الى أن يمر هذا كله ٠ أليس كذلك ؟

ـ بالنسبة له هذا أفضل ٠ انك تعرف كم هو مندفع ٠ وسوف يفعل ما ليس لك على الاطلاق أن تتوقعه ٠ انظر ، هل عاد ٠

عندئذ ، وضح لي كل شيء ، تصرفه العجيب ، وتشجيعه أمام ابنته كذلك ، ورجاؤه أن يفرج القاضي عن السجين ، وتعلله بالمرض في الصباح لقد كان كل هذا من أجل حسن ، لكي يحميه من الخطر ، لكي

يمنعه من أن يقوم بتصرف احمق • ولذا كان يلزم ابنه بمرضه ، ولذا كان يلعب تلك اللعبة العجيبة التي لم افهمها • كان يرغب أن ينقذ الحاج سنان الدين في أسرع وقت ممكن ، لكي يعفي حسن من القيام بهذه المهمة • لقد ولد الحب فيه الخوف ، كما منحه المراس والتبصر •

حدثته قائلا :

ـ لا يساورك القلق من أجل حسن • فهو لن يقوم بشيء يمكن ان يوصف بالحمق •

ـ لماذا ؟

ـ انه لا يفكر في غير الدبرونيكية • فالبلابل تغرد في قلبه • ويخيل الى انني أسمع تغريدها •

ـ تظن أنني لا أسمعها ؟ هذا هو ما أخاف منه يا صديقي •

ـ من أي شيء تخاف ؟

ـ من ذلك التغريد • فمن أجله سيقوم بتصرف أحمق • فالمرء اذ ذاك طيب القلب ، رقيق المشاعر ، يحزن لما يصيب الآخرين •

ـ يحزن ، ولكنه لا يقوم بشيء • فالحب أناني •

ـ أيها الدرويش ، ماذا تعرف أنت عن الحب ! انني قدمت نفسي من أجله • أتعد هذا أنانية ؟

اردت أن اسأل العجوز ، وسوف أسأله ذات مرة ، ماذا في امكانه أن يفعل من أجل ابنه وماذا باستطاعته ان يخون من أجله ، والى أي شيء سيتحول حبه لو أصيب ابنه بنكبة • انه لا شك سيتحول الى كراهية ليس بعدها من كراهية •

بالنسبة له يوجد في حياته هذا الحب فقط ولا شيء سواه ـ وهو يحافظ عليه حتى قبيل الموت ، حيث ينتظر أن يلفظ انفاسه الأخيرة • وربما كان الحب يحافظ هو الآخر عليه ، مستبقيا اياه على قيد الحياة • ومن يدري فلعل هذا مكر شديد الاحكام بعيد الغور ، خوف من الموت قد استحال الى حب ، لكي تزدهر الورود الأخيرة في القلب الهرم • ان قلب الابن طاقة ورد ، ليست بحاجة الى التسميد كي تترعرع ، وحب الوالد بالنسبة له ليس سوى احد متاعبه الملقاة على عاتقه بحسب

الواجب . وربما كان من الأمور المعوقة له . أما بالنسبة للعجوز فهو حبل نجاته الوحيد .

أقول : ربما ، لأنني لا أدري .

ساد الهدوء القصبة ، وبدت كما لو كانت تحتضر ، فقد أخذت أنفاسها تتردد في بطء ، كما أخذ السكون ينشر اعلامه رويدا رويدا .

كنت أجلس في فناء المسجد ، على حجر ، قرب ينبوع الماء ، في الوقت الذى كان فيه الناس يطوفون بالسوق وبالأزقة ، زرافات ووحدانا ، كانوا يطوفون كانهم فى حلم ، قد استبد بهم الحماس ، واعتراهم ما يشبه الغيبوبة ، ومن أجل شيء ما كانت تبدو عليهم التعاسة وآثار الغدر وفراغ العقول ، كانوا يطوفون ، رغبة فى أن يمر الوقت ، أو يجيء ، مطوقيننى بتطوافهم الحالم وبتلك الشبكة التى تصنعها آثار اقدامهم .

سألت :

ـ ما الذى يحدث ؟

لم يسمعنى احد .

أأزعجهم وأثارهم الى هذه الدرجة سجن الحاج سنان الدين ؟ أية علاقات عجيبة تلك التى ربطت بينهم ، وأية دائرة تلك التى أغلقت عليهم ، غير معروفة لدى ، وغير مسموح لى بالاقتراب منها ؟ ماذا حل بهم ؟ انهم ليسوا غاضبين ، ولا مكتئبين ، انهم منفصلون عن كل شيء وليس غير . وهم ينظرون الى القصبة والعالم كذلك بنوع من التطلع الفاتر ، من التطلع المثقل بالنوم ، ولكنه تطلع يكمن فيه الاصرار .. وينتظرون . لقد فقد كل علاماته الخاصة ، وأصبح للجميع علامات مشتركة ، بحيث لا يمكن لأحد ان يفرق بينها .

يجب على أن أقوم بشيء ، فالجنين أخذ يترعرع ، ذلك الذى لا يمكن رؤيته . والوقت فارغ ، يفصلنى عن نفسى ، وعنهم كذلك ، ولكنى لم استطع ان اعرف أين مكانى .

وبدا لى كما لو كنت قد دخلت حيا مجهولا ، ووجدتنى بين أناس مجهولين ـ كنت أتحاشى ان أنظر اليهم ، وكنت انظر الى أقواس المياه المتدفقة ، التى كانت تتكسر على الحجر ، متحولة الى سرب من القطرات.

ولم تكن هذه الأقواس تتحلى بشيء من اللون ، وأنى لها ذلك وقد اختفت الشمس وراء السحب • وكنت أظن أن تلك الطبيعة التى تعيش لنفسها فحسب والتى تأخذ في الاستمرار سوف تعمل على تهدئتى • ولكن حدث أن أخذ الضيق يتزايد فى نفسى •

واذ ذاك رأيت أنهم توقفوا ، كانوا يسمعون شيئا لم أستطع أن أسمعه ، ثم تحركوا فى اتجاه واحد •

سألت أحدهم :

ـ الى أين ؟

ـ الى هناك •

ـ لماذا ؟

ـ كلهم يذهبون •

كانت تصل الى الأذن صيحات تنبعث من ناحية المسجد الكرشوملى• وسرت الحياة فى الجمع ، وأخذ يتدافع فى سرعة •

سدت الأزقة ، ولم أستطع أن أرى أو أسمع شيئا ، وحاولت أن أشق طريقا لنفسي وسط الجماهير ، وفجأة ألفيتنى وسط حشد متموج ، كما لو كنت قد وقعت فى دوامة • وأخذ الحشد يضغط على ، يدفعنى الى الأمام والى الوراء ، من سور الى آخر ، دون أن يتركنى ولو للحظة واحدة لنفسى ، معانقا اياى فى شدة ، عناقا حارا ، قلقا ، حانيا ، حرجا ، وكان الحال سيئا ، ومضحكا ، وبدا الأمر كما لو أن الشيطان نفسه قد أخذ على عاتقه أن يضفرنى فى عيدان معترشـــة تتمثل فى مئات من أرجل الناس وأيديهم ، وأن يفصلنى هكذا عن جميع ما كان يحدث • كان فى استطاعتى وقد ضغطت فى حشد من الناس أن أتدافع ، كما يفعلون هم ، كما كان فى استطاعتى أن اصـــيح ، أن أهدد ، ولكن لم يكن بامكانى اذ ذاك أن أصدر قرارا • وهكذا وقد ضفرت فى هذا الحشد دون أن أملك التخلص منه أصبحت واحدا من هؤلاء الذين يمثلون قوة هائلة حمقاء قد فقدت نفسها •

واذ ذاك بدأ يحدث لى حادث غريب : أخذت أنسى ما كنت أريده من وضع ، فقد بدا عندئذ مستحيلا وغير مقبول ، وكانت جذور نشأتى وذكراى التى تكشفت بعد احتجاب تشغلاننى للحظات طويلة ، وتعملان على ضمى اليهم ، مسوية بيننا • وعندئذ لم أعد أحس أننى محصـــور

بينهم ، وأنني قد حشرت ولا أملك الفكاك . كما لم يعد يجرحني دفعهم اياى اذ يتدافع الحشد . وما كنت أحس بضيق كذلك لرائحة العرق تفوح من أجسامهم ، بل كنت انسى انه كان لزاما على أن اشق طريقا الى جهة ما اردتها ، ان أصل الى مكانى المناسب ، أن اقرر شيئا فى الأمر . فهنا ، وسط الحشد ، مكانى الصحيح ، فلست سوى واحد منهم ، يثير انفعالى ذلك الحشد ، تلك الصيحات ، هذه القوة المتضافرة ، وكنت استند بكتفى على الناس حولى ، وارفع يدى أهدد وأتوعد شخصا لا يرى بيننا ، متحررا من جميع المخاوف ، موقنا ان الوقت قد حان للثار من الذنوب ، حتى تلك التى قد طال عليها العهد ، وانتقلت الى الدم جيلا بعد جيل ، وكنت أصيح بصوت عال كما يفعل الآخرون . بماذا كنت اصيح ؟ لا أدرى . ربما : بالموت ! فهذا ما كان يدور فى خلدى . ولعلى كنت أضم صوتى الغامض الى أصوات الآخرين ، فى شكل صراخ ، فى شكل تهديد ، كى يكون ما يصدرونه فى صورة أعظم واقوى ، فقد كنت لهم . لا ! بل كنت لى ، صاحب الصوت الذى يعادل مائة صوت ، صاحب اليد التى تعادل مائة يد ، صاحب الراس التى تعادل مائة راس . الف عذاب كان فى نفسى ، يخص الناس ولكننى أحمله . كنت اطلقها صرخات شديدة : آآآ ! قاصدا : الثار ! قاصدا : الدم ! قاصدا : النهاية ! لأى شىء تكون النهاية ؟ آه ، لكل ما هو سىء ، لكل ما ليس للناس . كنت اعرف ذلك ، دون أن افكر فيه . كانت السماء المضيئة تتفتح أمامى .

عندئذ اخذت انفصل ثانية ، واقتلع نفسى من جذورى ، وبدأت احس بمرافق الناس واشعر برائحة عرقهم ، وكنت اغضب لصياحهم ولعدم استطاعتى الخروج من بينهم . افرجوا عنى ! ـ هكذا كنت أصيح، كارها اياهم ، مسجونا ومكبلا بهم ، غريبا عنهم على وجه التمام .

وسمعت اذ ذاك ما به يصيحون ، وعرفت من أى شىء يشكون ، ومن من الناس يهددون . لم يذكر أحد منهم الحاج سنان الدين ، ولم يتذكره ، حتى ولو بطريق الصدفة . لقد كانوا يذكرون فقط ذلك الذى كان يتعلق بهم وحدهم ، ذلك الذى يؤلمهم هم انفسهم . وقد كانت تؤلمهم اشياء عدة ، نقص السلع الاستهلاكية ، غلاؤها ، خوفهم ، مظالم كبيرة وصغيرة ، وعود كاذبة ، سنين قاحلة ، رغبات معطلة بالخداع ، ليال سريعات التتابع ، أعمار مبكرات الشيخوخة ، حب قصير العمر ، كراهية

طاعنة في السن ، احساس بالقلق وعدم الأمان ، ذل وامتهان • كل ذلك يشكل تعاسة نسميها الحياة •

كان ذلك كله يتجمع لديهم ، وقد تجمع ، انه رصيد عظيم •• ركام هائل من الخرق البالية ، جعلهم الآن يصيحون ، كانهم في سوق للبيع والشراء ، معلنين عدم رضاهم ، مظهرين في مرارة وفرة ما يمتلكونه ، مرحبين بتقديمه هدية لمن يريد ، أو راغبين في اعطائه مقابل الكراهية أو الدم •

وفي فترات استرداد الأنفاس بين صرخة وأخرى ، كان الناس يقصون في اقتضاب ، تماما كما يحدث في ساحة المعركة بين طلقة وأخرى ، ذاكرين كيف قتل في الليلة الماضية حارس في القلعة ، قتل دون ما طلقة من بندقية او طعنة من سكين ، وظلت قدماه تحملانه وهو ميت ، وكيف أن طفلا ولد في حي « قرنفل » بعين واحدة في جبينه • لقد أرادوا أن يشيروا بذلك الى أن القدر يقف من ورائهم ، مشاركا اياهم في ثورتهم وغضبهم •

اصبح الأمر لا يطاق • وكلما تقدم الوقت اشتد حرارة ، وازداد احتداما ، وتملكه الجنون ، أخذ الحشد يجرني ، يدور بي ، كما تفعل دوامة الماء ، اصبحت كشظية من خشب ، كجزء من فتات ، يدورون بي في دوامة ، أستند بمرفقي الى أضلاع شخص ما ، أصيح ، ويصيح الآخرون أيضا ، أدوس شخصا ما ، يهدر السيل الذي يحيط بي ، اتعثر ، سيدوسونني أنا كذلك ، أتشبث بعنق شخص ما ، مثل الغريق، والآن يشق السيل طريقه متجها الى ناحية أخرى ، سوف نختنق جميعا ، سمعت دمدماته في زقاق آخر ، وخف الضغط ، أخذت أتنفس في يسر ، واجري خلف الآخرين ، أحاول أن أوقفهم ، أن أهدئهم ، لقد تملكني الخوف ، انهم لا يعرفون بعد الى أين يجرون ، وماذا يريدون ، انهم أحجار متدفقة ، انهم سيل قد انطلق لا يلوى على شيء •

كانت الطلقات تدوى أمام مبنى المسلم •

ـ ما هذا ؟

ـ الحراس يطلقون •

لم يتوقف أحد •

عندما وصلت ، ابصرت شابا ممددا على الأرض قد لطخته الدماء ،

وكان يرتدى قميصا من البز لطخ هو الآخر · كان يحيط به عدد من الناس ، وكان هناك شخص لم استطع رؤية وجهه يجلس مقعيا بجانب القتيل يحاول أن يرفع راسه ·

لقد اخترق الحشد الأبواب واندفع الى داخل المبنى ، وقد امكن للاذن خارجه أن تسمع فى سهولة ما يحدث من اتلاف وتدمير ·

لم يكن المسلم والحراس بالداخل ، لقد هربوا ·

اقتربت من الرجل الذى كان قد أقعى ومال بصدره على الشـاب الملطخ بالدماء · كلاهما كان فى زى ريفى ، وقد أسفت لعدم كون الأمر على وضع آخر ·

ـ اهو ميت ؟

كان المقعى بجانبه يحمل راسه على ذراعه الأيسر كما يفعل مع الطفل ، وفى خوف كان ينظر الى وجهه الذى اشبه بياضه لون الجدار ، منتظرا أن يعود اليه احمراره ، أن تهتز شفتاه ، أن يكون كل شىء كما كان منذ قليل ·

كلا الاثنين فى سن الشباب ·

ـ هل هو اخوك ؟

ـ جئنا الى السوق ـ كان يقول ذلك فى حيرة وارتباك ، داعيا ايانا بعينيه المتورمتين ، وهو لا يزال يعيش فى اللحظات التى سبقت هذه اللحظة ، دون أن يجرؤ على الاقتراب منه ـ كى نشترى الملح ··

ـ أرحه على الأرض ·

ـ ·· والمسامير · فنحن نبنى لنا بيتا ·

ـ أرحه ، انه ميت ·

ـ لقد قلت له : اننا جئنا بلا فائدة ، فالسوق معطلة · وقال لى···

مس وجه الميت بأصابعه الريفية الغليظة مسا رقيقا ، واخذ يناديه فى همس :

ـ شوقى ! شوقى !

سوف يغضب الوالد لبقائكما طويلا ، وسيلقى اللوم عليك لأنك لن تصحبه فى عودته الى البيت ، قم ياشوقى ، استيقظ ·

شوقي ، أين أنت ؟

أين أنت ، يا هارون ؟

أين أنتم ، جميع الاخوة المفقودين والمقتولين ؟

لماذا يفصلوننا ، ما دمنا مفصولين بطبيعة الحال ؟ أمن أجل أن نعي ذلك ؟ أم من أجل أن نكره لأننا لم نكن نعرف أن نحب ؟

ـ لقد قتلوا أخاك • أتريد أن ندفنه هنا ؟

والآن كان يدفيء خده بباطن كفه •

ـ احمله • لتكن له على الأقل جنازة رائعة •

حمل الميت ، كما لو كان يحمل الطفل ، أو الطرحة ، أو حزمة من عيدان القمح • واخذ يدب على أرض الســـوق الحجرية ، ملقيا بيمنى قدميه الى أقصى اليمين وبيسراهما الى أقصى اليســـار ، وتلك طريقة تعودها من كثرة السير في الحقول المحروثة وكان لا يزال ينظر في وجه أخيه يراوده أمل أحمق عنيد •

سرت أمام الميت الشاب ، وبصوت عال كنت أتلو الأدعية •

وسمعت الناس كيف يصيحون ، وقد أحسست بكثرة عددهم ، ولم تكن حدة غضبهم قد خفت بعد •

وفي مفترق الطرق ، عند المحكمة ، وقفت الى الجانب ، لكي يرى الجميع ميتا محمولا بين يدي الشاب •

أحاط الناس به مشكلين نصف دائرة ، وأخذوا ينظرون صامتين •

تلوت الدعاء ، واندفعت أسير بجانب المسجد •

وخلفي ، وخلفنا ، كان يسمع الصراخ ، وانحطام الزجاج ، ووقع الضربات •

واصلت السير ولم ادر وجهي •

وبالقرب من المســـجد التقيت بالحافظ محمد ، ورجوته أن يهتم بالأخوين ، الميت والحي ، ثم اندفعت اخترق الزقاق •

ـ الى أين ؟

لوحت له بيدى • وحقا لم آكن ادرى الى أين •

ـ لقد بحث عنك حسن •

احسست كما لو كان هذا الاسم قد أضاءنى • لقد اتعبنى هذا الوقت الذى قضيته بدونه • اليوم ، الآن ، فى هذه اللحظة ، اراني فى اشد الحاجة اليه من أى وقت مضى ، ولكننى سارجىء قليلا ذهابى اليه •

اخذت لواصل الخطى فى التل ، كى أشعر بالصعود ، كى يرهقنى ما أبذله فى ذلك من جهد • انى ارغب فى أن أنفصل ، فأعصابى متوترة منذ الصباح الباكر ، وحضورى موجود فى كل لحظة •

ليواصل الزمن سيره بدونى ، وليفعه ما يريد ، بنفسه •

كان لزاما على أن ابتعد عن السوق ، فى هذه اللحظة بالذات ، أن أبتعد كما يبتعد عن النار ، لكى لا أكون متهما او شاهدا •

هانا احاول الانفصال •

الوقت خريف ، وقد دنا من نهـايته ، ها هى أشجار البرقوق قد عريت ، وأصبحت ســوداء الاهاب ، وقمم الجبال قد غشيتها سحب الضـــباب ، والريح تصفر فى هــدوء فى تلك الممرات التى تخترق بيوت الحى •

عن قريب سيسقط البرد ، هكذا كنت أقول لنفسى •

وذلك أمر لا يهمنى •

وهانا احاول أن أسير على مهل كما يسير المتنزه ، له فضل من الوقت ، وليس لديه ما يقلقه •

منذ زمن بعيد لم آكن هنا ، هذا ما قلته لنفسى •

والأمر سواء •

هأنا أرى الأطفــال يلعبون بعقلة الخشب ، يتبادلون القاءها فيما بينهم بعصيهم • ويا للعجب اذ أقول ان الأطفال يلعبون •

انظر ! لقد كان هذا هو ما يسترعى اهتمامى •

ان الأطفال هنا يلعبون ، وتحت فى السوق يرى الآباء يثورون •

وهأنا أرى : ان القصبة في الوادي تعيش في هدوء ولا اثر فيهـا لاضطراب · الناس يمرون بالأزقة هنا وهنـاك ، صغار الحجم ، غير متعجلين ، وقد بدوا بسطاء ساذجين · انهم اشبه شيء بهؤلاء الأطفال ، من هذا البعد ، من هذا الارتفاع · ولكنهم ليسوا اطفالا · انني لم أر الذعر يرتسم على وجوههم كما رايت منذ قليل ، وما كان باستطاعتي أن أعرف أشخاصهم بسبب احمرار بياض أعينهم وبسبب تكشيرهم عن أسنانهم · لقد بدوا أشبه بالمشوهين المتنكرين في أعياد الميلاد · هذا هو عيدهم الشرير ·

لا اريد ان افكر فيهم ، كما لا أريد أن أفكر في أي شيء ، فالوقت يمر ، وهو كفيل بانهـاء كل شيء بدوني · ليس في استطاعتي ان أوقفه ولا أن أتعجله ·

انه يقطر كهذا المطر ، قطرة اثر أخرى ·

لجأت الى حائط المسـجد المتهـدم ، محتميا بافريزها الملوى من تساقط المطر ·

وتفرق الأولاد كذلك ·

لمحت شيخا عجوزا ذا لحية بيضاء يتوكأ على عصا يقبض عليها بيد مرتعشة ، وبدا غريبا وسط هذا السكون الذي خيم على الحي ، كان يسير بطيء الخطى في طريقه نحو المسجد ، وحده ، دون أي من المؤمنين · انهم تحت ، في القصبة ، وأما هو فلم يكن يهمه ذلك · ان شـيخوخته تصرفه الى أمور أهم · وأمام المسجد أخذ يؤذن : كان أذانا دون جدوى ، كان نداء يسمع في صعوبة ، موجها الى من ليس موجودا ·

انها صلاة الظهر ·

منذ الصباح الباكر تحملني قدماي · وهانا أشـعر بالتعب ، كما لو كان قد أناخ على بثقله هذا الوقت الذي قطعته ·

كنت أشاهد وأنا أقف مستندا الى هذا الجدار الذي يفصلني عن العالم ، تتـابع النظرات في سرعة ، كما لو كنت أسمع تمتمات ضعيفة تنبعث من أدعية الشيخ · ان صوته يبدو كأنه من عالم القبور ، حزين لا يحمل شيئا من الأمل ، منعزل على التمام ، وكان أشد ما يشق على نفسي أنني أسمعه ، اذ أنه يحكي عزلتي كذلك · ليس باستطاعتي أن

أساعده وقد انفصلت عنه بالجدار ، كما ليس باستطاعته ان يساعدني هو بدوره ·

انني وحيد · وحيد · وحيد ·

وحيد ، كأنني متهم ·

ولكن ، لم أكون متهما ؟ أكان باستطاعتي أن أفعل شيئا ؟ لم يكن في امكان احد ان يوقف تحركهم في صباح اليوم · لقد حان وقتهم الذي كرسوه للشر ، كما يحين موعد الهلال ، فهو أقوى من ارادتي ، وأقوى من ارادتهم كذلك · كان في امكاني أن أمنعهم أو أدفعهم ، ولو فعلت أيا منهما لما غير في الأمر شيئا ولكان ما كان ·

ماذا يحدث تحت ؟ أو ماذا يكون قد حدث ؟ لا أدري ، ولا يهمني · لقد حصدنا العاصفة لأننا زرعنا الرياح ·

أكان ينبغي أن يحدث شيء ما ؟ من المؤكد أن كل شيء قد هدأ ، لقد تفرقوا وذهبوا الى بيوتهم ، شاعرين بالخجل وعدم الرضا ، وسوف يهبون الى زوجاتهم ما تبقى من غضبهم ومرارتهم كذلك · وهأنا أحاول أن أنفصل دون أن تكون هناك ذرة من حاجة الى ذلك ، صارفا دون جدوى اهتمامي المشتت الى الخريف ، الى أشجار البرقوق العارية ، الى قمم الجبال الحجرية ، الى البرد الذي اقترب سقوطه ، نعم دون جدوى ، لان تفكيري هناك تحت ، في القصبة · ربما لم يحدث شيء ، وأن ذلك الذي قمت به لم يسفر عن نتائج كنت أرغبها أو عواقب توقعت أن تكون ·

ولكنني اذا كنت أشعر بالضيق ، وربما بالخجل أيضا ، لانني أظهرت للثائرين هذا الشاب القتيل ، فانني لم أستطع أن أوفق بيني وبين امكان عدم حدوث شيء هناك · لقد وددت أن يحدث ، وقبلت أمام الله أن أحمل نصيبي من الذنب ·

ان هذه الحيرة مضنية للغاية ، ولكنها تجلب لي الرضا : فضميري حي حتى عندما يتعلق الأمر بأولئك ·

فالدرويش قاس كالصل ، شديد الانفعال كالعانس ، وهذا ماقاله حسن ذات مرة متهكما كعادته ، ربما كان على حق ، لان شعوري بالضجر لا يكاد يفارقني ·

وبينما كانت هكذا تمر بي الأشباح الحالكة والمضيئة ، وبينما كنت أدافع عن نفسي من التهمة التي لم أرد أن أسميها ، لمحت عن قرب

خمسة من الفرسان ، منطلقين في السير ، وقد ارتدوا معاطفهم الطويلة ، وربطوا بنادقهم في السيور ٠

نظرت فعرفت أنه المسلم وحراسه ٠

وعرفني بدوره ، وأوقف حصانه ناظرا الى نظرة تنبىء عن الدهشة وتوحي بالانتقام ٠

انتابني الخوف لأول وهلة ، بسبب هذا اللقاء المفاجىء ، وبسبب عزلة المكان ٠ فليس هناك من يستطيع أن يساعدني ٠ كما ليس باستطاعة أحد حتى أن يرى لو أصابني سوء ٠ واليوم يوم الاعمال الشريرة ٠

من المؤكد أن دهشته كانت كبيرة حينما رآني في هذا المكان ، اذ لم يكن من الممكن أن يتوقع ولو في الحلم وجودي فيه ٠ أكان يظن أنني قدره ، أم أنني وحش قد حرض عليه ؟ لقد كنت هدفا شديد الاغراء والاثارة ٠ وقد وقفت مصلوبا على مساحة بيضاء من جدار المسجد ٠

وكم كان عجبي اذ تلاشى الخوف مني سريعا ٠ واخذت أنظر مصوبا نظري اليه في استقامة ، منتصب القامة في تصد ٠ وكنت اعي كل شيء تمام الوعي ، كما كنت أذكر كل ما حدث فيما مضى ، وكأنه حدث منذ قليل ٠ انني لم أحاول أن أتذكر : فكل شيء كان مهيأ في داخلي ، وقد أصبح بمثابة سد غريزي لي ، بمثابة اشمئزاز فطري لا مجال للتفكير فيه ٠ ونظرت بعد الى مرافقيه الأربعة ، انهم هم الذين هاجموني في زقاق التكية الضيق حينذاك ، عندما بدأ كل شيء ٠ لا أدري مدى ما كان لدي من استعداد لأفعل لو هاجموني ، مثلما فعلوا آنذاك ، غير انني أقول ان هذه العيون الكثيرة المصوبة الي كالبنادق لم تكن تثير في نفسي شيئا من الخوف ٠

لقد كان الفضل لكراهيتي المتقدة ؛ فقد أمدتني بالقوة شأنها شأن الخمر بالنسبة لمن يحتسيها ٠

لو قرر المسلم لكنت في لحظة واحدة قربانه ٠ وكذا الحال لو أتيح له أن يعرف كم سيأسف على فوات هذه الفرصة ٠

ـ سوف نلتقي بعد أيها الدرويش ٠

فكرت أن أقول : حقق اللهم هذا اللقاء ، ولكنني لم أنطق بشيء ٠ لم يكن باستطاعتي سوى أن أنطق بكلمة لاذعة ، ولو حدث ان نطقت بها لما كان بامكاني بعد أن أراه أو أرى أحدا غيره ٠

استداروا بأحصنتهم وانطلقوا مارين بجانب المسجد ٠

كانوا في طريق الهروب من القصبة !

لو كان لدى وقت كاف لخرجت الى الطريق ونظرت خلف المسلم ، صابا عليه لعناتي ومظهرا سعادتي من أجل تلك اللحظة التي سوف تجمعنا ٠ ولكن لم يكن لدى لحظة واحدة لأضيعها ، فقد انتهت فترة انتظاري ٠ هاهو المسلم يهرب ٠ واذن قد حدث شيء ٠ لم يذهب سدى ما القيت من البذور ٠

لقد تلاشى ما كنت أشعر به من خجل وما كنت أجده من حرج ، كما زال ذلك الذى كان يعتريني ويؤرقني من ندم ٠ ليس هناك شيء يجعلني اخجل واندم ٠ بل يوجد ما استطيع به ان افخر ، ما استطيع به أن افرح ، لانني لست في جانب الشر ٠ ان الله قد حكم ، والشعب قد نفذ : فكراهيتي لم تعد خاصة بي وحدي ٠ لست وحيدا الآن ، ولست اراني في شك ، بل أجدني في فرح ، شاني شان كل مؤمن صالح يرى أنه في جانب الله ٠

اسرعت الى القصبة ، ملتقيا في طريقي بافراد قليلة من المارة ، كانوا في حيرة بالغة ، وبدا أنهم تأخروا صدفة بعد أن انتهت الفوضى الحمقاء التي اشعلت هذه الأزقة ٠

في السوق لم يكن أحد ٠ وكذا امام المحكمة ٠ كانت ابوابها محطمة ونوافذها مكسرة ، وبالقرب من الجدران كانت الاوراق ترى ممزقة ٠

وكان على أغا مقعيا يجمع الدفاتر ، والوثائق ، والقرارات ، وسجلات الجلسات ، تلك التي تراكمت كأنها البراهين تشهد بذنوب الاتهام وبالقسوة ٠ فهؤلاء الموظفون يسجلون كل كبير وصغير من الأمور ٠ ايكون ذلك لاعتقادهم أنهم ليسوا غلاظا أشداء ؟

انحنيت واخذت أقلب بعضها ، فهنا قد سجلت الجريمة التي تعد اكثر اهمية بالنسبة لي ٠

ـ ما الذى تبحث عنه ؟

ـ انني أبحث لأرى ماذا كتبوا عن اخي ٠

ـ لماذا ؟ لكي يكون لديك مبرر للكراهية ؟ سوف أحرق كل هذا ٠ انكم ذئاب ، لا تتورعون عن النبش في هذه القذارة لكي تجدوا اسبابا لجرائم جديدة ٠

ـ اذا أردت ان تجرح المشاعر فهذا أمر يسير • ليس عليك سوى أن تكون وقحا •

ـ لا أريد أن اجرح • انني اتحدث عن الاعمال الكريهة ، وذلك لأني احس من أجلها بالاشمئزاز •

ـ من أجل اى شيء ؟

ـ ارحمني ، دعني • فأنا احس بالاشمئزاز من الناس • اتركني فى سلام •

تركته فى سلام • وكان هذا أشد تعقلا وأكثر تبصرا • فاحتماؤه بالجنون يتيح له أن يكون أقوانا جميعا •

دخلت المحكمة ، ولم يكن بداخلها أحد ، كما كان الحال حينذاك ، عندما جئت من أجل أخى • انهـــا كما كانت ، وكذا الامر بالنسبة لهذا الهدوء الثقيل ، الذى يبدأ فى مصافحة سمعك بهمهساته التى تبدو اشبه بطنين خافت • وبالنسبة لهذا الاضـطراب الذى يعترى الداخل ، تثيره اشـــباح لاناس قد اختفوا فى أركان المحكمة ، بحيث تصعب على العين رؤيتهم • لقد غاب فقـط ما كان من هواء خانق ، وعبر النوافذ المكسرة والأبواب المحطمة كانت الرياح تغدو وتروح فى حرية تامة •

وفى غرفة القاضى كان يسمع حديث خافت • ان أحدا من الناس عنده •

خطوت الى قاعة الجلسات التى خربت ، وتوقفت عند مدخلها وقد نزع بابه ، وأنا فى حال من الاضطراب : ولمحت القاضى ملقى على الارض ميتا •

لم يكن احد قـد اخبرنى بذلك ، ولكننى عرفت أنه ميت • عرفت ذلك حتى قبل أن أجيء الى هذا المكان • عرفته عندما كنت أنتظر ملتصقا بجدار المسجد القديم • ومن أجل هذا ذهبت الى نهاية القصبة لكى يحدث ذلك دون وجودى •

وفى وسط القاعة وقف بعض الناس ينظرون فى رثاء : لست أدرى أكنت أنا الآخر ضمن اولئك الذين يرثون لحاله •

تقدمت بضـــع خطوات ، وتوقفت عند الميت ، ثم انحنيت ودفعت عنه الجبة التى كانت تغطى رأسه •

كان مصفر الوجه ، كما كان دائما ، غير أن جبينه كان مشوبا بزرقة وملطخا بالدماء . وكم كان عجيبا أن يرى مطبق الجفنين ، وما كانت ترى أية معالم للتعبير في وجهه ، فقد ظل أمام الجميع لا يكشف عن شيء لما كان طيلة حياته .

ـ أيها المسكين ـ هكذا دار بخاطري ، دون شعور مني بكراهية أو اغتباط ـ لقد فعلت كثيرا من الشر . فليصفح الله عنك اذا أراد .

كان الموت يفصله عني ، ولم تكن ثمة ذكرى ولو قبيحة تستطيع أن تستبقيه في ذاكرتي ، وقد كان هذا هو كل ما استطاع تفكيري أن يحيط به . انني لا أرثي ، ولا أتذكر ، ولا أصفح . انه ليس موجودا وكفى .

لم أرد أن اقبله ، من اجل الوداع ، كما جرت العادة . ولو فعلت ذلك لكان مني غاية في النفاق : فهؤلاء الناس يعرفون ما فعله بي .

تلوت الدعاء للأموات ، والى هذا الحد كنت استطيع أن افعل . وسمعت حين انتهيت وقع خطوات واستدرت . انها زوجة القاضي تقترب من الجثة .

انتحيت جانبا لأفسح لها الطريق ، دون إساءة مني لمشاعرها ، ودون رغبة مني في استطلاع ما يكون . لقد كنت أكرهه عندما كان حيا، ولو أن أحدا حزن عليه أو رثى له الآن لتملكتني الدهشة واستولى علي العجب . ولكن الموقف سيكون حرجا بعض الشيء عندما تأخذ زوجته في رثائه ، كاذبة ، حرصا منها على القيام بواجب العادات الجميلة .

كشفت عن وجهها ، منصرفة التفكير عن امر وجودنا ، وهوت جالسة على ركبتيها بجوار الميت . واخذت تنظر اليه طويلا ، دون ان تأتي بحركة او تصدر شيئا من التأوهات ، او تنطق بكلمة ، ثم انحنت وطبعت قبلة على كتفه وأخرى على جبينه . وبعناية بالغة مسحت وجهه بمنديلها الحريري ، واستبقت يدها للحظات على هذا الوجه الأصفر . وشهدت اصابعها ترتجف .

احقا كانت حزينة من اجله ؟ كنت اتوقع ان يكون منها الحزن ، الحزن العميق ، وحتى البكاء ، ولكني ما كنت أتوقع على الاطلاق أن أرى أصابعها ترتجف على وجهه . لقد هزتني رقتها ، تلك الرقة التي كانت تمسح بها الدماء ، وكأنها تمسح وجه طفل ، كانت تمسح في حنان ولطف ، كي لا تثير جروحه ، كي لا يكون منها ما يؤلمه .

اقتربت منها عندما استوت قائمة ، وقلت :

ـ اترغبين أن ينقل على الفور الى البيت ؟

أدارت راسها في سرعة نحوى ، كما لو كنت قد اصبتها بلطمة • وتذكرت فيـــما بعـــد ان عينيها كانتـا مزينتين بالكحل ، ومغرورقتين بالدموع • أكانت صدمتها عندما سمعت أيسر منها عندما رأت ؟ ولكنى حينذاك لم آكن أعلق اهتماما ، لانني دهشت من نظرتها التى كانت قد دفعتني بها ، والهبتني كأنها الجمر ، وطعنتنى كأنها الرمح • انها نظرة العدو القاتل •

لقـــد حيرنى ذلك التهـديد وذلك الحزن الذى لم أتوقعه على تلك الصورة • ربما لم تكن الحياة بينهما صماء في هذا البيت الخواء الى هذه الدرجة التى بدت لى ، ولعلها ستكون منـذ الآن • ودون ان ادرى لماذا ، ودون أن أجد سببا حقيقيا حزنت عليها كمـا حزنت على نفسى • أخذت أحس بالفراغ وبالوحدة كما هو الحال لديها • وربما كان ذلك من أجل التعب هبط على هبوط الظلمة حين يؤذن النهار بالزوال •

تذكرت فيـــما بعد كم بدت لى جميلة رائعة ، حتى لقد كنت أراها أجمل مما كانت فى تلك الليلة التى التقيت بها فى بيتها الكبير ، من أجل عينيها المغرورقتين ، وقسمات وجهها التى امتلأت بالكراهية • لقد تسللت احدى يديها فى اضطراب وغيبـوبة وخرجت من بين ثنايا عباءتها ، ثـم توقفت على الفور اذ أحست بالسكون •

اجتاحتنى رغبة عارمة فى أن اضع جبينى تحت هذه اليد التى كانت تبـــحث عن شىء ، وأن أنسى مغمض العينين كل شىء عن تعبى وعن هذا اليوم • وأن اتـسالم معها ومع العالم كله •

كان هذا الانشراح الكدر يستولى على ، حتىعندما خرجت الى الزقاق، الى اليوم الغائم المطير يزدان بندف مبللة من البرد ، وينوء بسحب متراكـة سوداء غطت العالم بأكمله •

أخذت الرياح تعصف فى داخلى ، فقد كنت اذ ذاك كهفا مقفرا •

كيف يعالج القلب الفـــارغ يا اسحاق ، ياذا الشبح الذى يخلقه ضعفى فى كل مرة من جديد ؟

كنت أسير هنا وهناك دون هدف ، واقف أمام الخان ، محدقا طويلا فى قافلة وصلت منذ قليل ، ولم آكن أدرى أيعد من الخـير أم من الشر

ان يكون الانسان مسافرا ، وعندما وصلت الى قبر هارون توقفت ، ولم يكن لدى شيء اقوله له ، حتى ذلك الذى يحسه المنتصر ٠

كان لزاما على ان اذهب الى التكية ، ان انفـــرد بنفسي ، لاستعيد قوتى ، ولكنى لم استطع ان اقرر حتى ذلك ٠

وعندئذ صادفنى ملا يوسف ، وشعرت على الفور بزوال فتورى ، كما لو كان الضباب الذى احس بوطأته قد ارتفع ليولى بعيدا ٠ لم يكن باستطاعتى وقد كانت لدى اعمـال هامة ان افكر فيه ٠ والآن برز امامى كمـا لو كان فى المـــاء ثم خرج ٠ وذكرته اذ رأيته ، وبى من الضـــيق والكراهية الشيء الكثير ٠

ذكر لى ان حسن يبحث عنى ، فهو يرجو ان اذهب الى بيت الحاج سنان الدين ٠

اوه ، حتى الحاج سنان الدين قد نسيته ٠ امن الممكن ان يكون قد وصل الى البيت ؟

لقد حكى لى فى ايجـــاز ، مستجيبا لطلبى اكثر من ان يكون ذلك صادرا عن ارادته ، كيف ان حسن علم صـباحا ان المسلم ارسل الحاج ســـنان الدين تحت الحراسة الى قلعة « الفراندوك » ، تلك القلعة التى يندر ان يعود من ارسل اليها ، وان المسلم قـد انطـلق مع حراسه نحو «الفراندوك» ليلحقوا بهم ، ولو كان الجسر المؤدى الى المدينة قد ظل باقيا، ولم تهدمه المياه وتجرفه معهـــا لذهب تعبهم وارهاقهم لخيولهم سدى ٠ ولكنهم بفضل ذلك لحقوا بأولئك الحراس وأخذوا منهم الحافظ سنان الدين بالقوة ٠ ثم قاموا باخفـائه فى احدى القرى وأرسلوا بعد ذلك من يقوم باحضاره الى القلعة ٠

لو القيت على مسامعى هذه القصة فى مناسبة اخرى ومن فم شخص آخر لكان اهتـمامى بهـا اشد ٠ اما الآن فقد كنت انظر الى الشاب فى ارتياب ، اذ بدا لى فاترا وضنينا بالقول ٠ كان يتحدث فى غير اكتراث ، كان هذا كله لا يهمنى فى شيء ٠

قلت ، فى غضب يصعب على كبح جماحه فى حضوره :

ـ لا احب طريقة نظرك الى ، ولا طريقة تحدثك ٠

ـ كيف انظر اليك ؟ وكيف اتحدث ؟

ـ انك تتخذ موقف الحذر المحتاط ، وأراك تبتعد عني كما تحاول أن تبعدني عنك ٠٠ من الأفضل أن تنسى ذلك الذى تعرفه ٠

ـ لقد نسيته ، ولا يهملى ٠

ـ ليس كما تزعم ! انه يهمك ، ولكن يجب عليك أن تنسى ٠ ان جميع ما فعلته لا يخصني أنا فحسب ٠

لقد فاجأني باجابته واجبرني على أن أتسلح من جديد بالحذر وبالعزيمة التي زايلتني منذ قليل ٠

واندفع يقول ، غير ملتمس ، بل طالبا :

ـ دعني اذهب من التكية ٠ فطالما انا على مقربة منك فسأظل اذكرك بامكان حدوث خيانات متوقعة ٠

ـ وستظل تذكرني كذلك بالألم الذى جلبته لى ٠

ـ وهذا يزيد الأمر سوءا ٠ دعني اذهب ، لكي ينسى أحدنا الآخر ، لكي نتحرر من الخوف ٠

ـ تخاف منى ؟

ـ نعم أخاف كما انك تخاف منى ٠

ـ لا أستطيع أن أدعك تذهب ٠ اننا قد قيدنا بسلسلة حديدية واحدة ٠

ـ سوف تهلك حياتي وحياتك أيضا ٠

ـ اذهب الى التكية ٠

ـ لا يمكن تحمل العيش على هذه الصورة ٠ فكلانا يتعقب الآخر . تماما كأنه الموت ٠ لم لم تتركني عندما أردت أن أموت ؟

ـ اذهب الى التكية ٠

وذهب وهو حزين ٠



« يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد »

ثلوج ، وامطار ، وضباب يغشى الجو ، وسحب تدنو من الأرض ، بواكير تنذر بطول اقامتها بمقدم شتاء لا نهاية له ، شتاء يكاد يمتد حتى يصل الى عيد مارى جرجس • وأخذت أفكر فى المفتى وعذابه الذى بدأ مبكرا ، فستة اشهر يخاف ، وستة مثلها يصيبه التجمد • ولست ادرى لماذا لا يترك هذه القصبة • لقد أصدرت أمرا ليأتوا اليه بأخشاب شجر الزان او شجر البلوط ، ويعيدوا فى داره بناء المداخن والمدافىء ، ويجعلوا مكان ايقادها من الخارج ، من الممر ، ويواصلوا الايقاد ليلا ونهارا ، ويقوموا بتبخير الغرف بغصينات شجر العرعر وجذور تنشر أزكى الرائحة •

وقد أصبحت انا كذلك حساسا بالنسبة للبرد ، ففى غرفتى وغرفة الحافظ محمد يطقطق الخشب فى مدفأة صنعت فى الحائط وزين جدارها بعدد من السلاطين الفخارية ما بين أحمر وازرق • وقد استأجرت خادما جديدا ايضا ، فمصطفى ليس فى وسعه أن يقوم بكل شىء • انه أصبح متذمرا الى درجة لا تحتمل ، يتمتم ويغمغم مشبها فى ذلك الدب العجوز • لما لم يعد باستطاعتى بعد أن أتحمل المكث فى غرفة باردة ، كما كان يحدث من قبل ، وخاصة عندما أعود من المحكمة وقد أصابنى البلل واعترتنى هزة ، وتشبعت بالرطوبة تشبع الخرقة تمسح بها الارض •

لقد تغيرت اشياء كثيرة فى حياتى ، ولكنى تمسكت بما تعودته قديما • وسمحت لنفسى بمزيد من رغد الحياة ، ولكنه فى الحق قليل ، وبمزيد من البساطة فى معاملاتى مع الناس ، وربما كان السبب فى ذلك اننى لم اعد بعد مهددا ، ولأن شرف القاضى ووظيفته يمنحاننى شعورا طيبا بالأمان • وبالقوة كذلك ، تلك التى لا اطلبها ولكننى أراها ، حتى

في نظر الحافظ محمد ، عندما أدخل في المساء الى غرفته ، لأسأله عن حاله ، ولأعرف ما اذا كان في حاجة الى شيء ٠

ان وظيفة القاضي لا تترك لي وقتا كافيا ، ومنذ وقت طويل لم يكن مني ، ولو نظرة ، بالنسبة لهذه الاوراق ٠ وعندما تذكرتها ذات ليلة أوشكت ، وانا اقرأ بعضها ، أن اشك في ذاكرتي ، وتساءلت أمن الممكن أنني كتبت ذلك ، وأنني كنت أفكر على هذا النحو ؟ كان أكثر ما أثار عجبي ذلك الذي ينبيء بخور عزيمتي ٠ أمن الممكن أنني كنت أشك الى هذا الحد في عدالة الله ؟

لقد فاجأني في البداية ما عرضه على وجهاء القوم من أن اقبل وظيفة القاضي ٠ انني لم أفكر فيها قط ، ولم ارغب ان أكون ذلك ٠ ولعلني كنت قد رفضتها لو عرضت على في ظروف أخرى ، ولكنها ـ اذ ذاك ، لاحت لي بمثابة النجاة ٠ لانني شعرت فجأة ، وبعد كل ما حدث في السوق ، أنني متعب ومنهوك القوى ٠ حيث كنت مؤرق النفس بوعيي التام بذلك الشرك الذي لم يعد خاصا بي فحسب ، والذي لم يكن قد نصب فحسب منذ الأمس ٠ فالانسان عرضة للاخطاء بصورة تتجاوز الحد ، وهو في حاجة ماسة الى الحماية ٠

يا للعجب ، لقد تمت الالفة بيني وبين المنصب الجديد في فترة وجيزة ، كما لو كنت قد انتظرت الى أن تحقق أحد أحلامي القديمة ٠ وربما كان يتمثل في ذلك الطائر الذهبي الذي تتحدث عنه كتب الاطفال ، وربما كنت في أعماق نفسي أنتظر هذه الثقة منذ زمن طويل ، منذ أمد بعيد ٠ وأما فيما يتعلق بأنني لم أكن أسمح بأن تصبح رغبتي الضبابية واضحة ، فقد كان مرجعه دون شك الى خوفي من خيبة آمالي اذا لم تتحقق ، وكنت أدفعها الى المكان القصي المظلم في أعماق روحي ، كما كنت أفعل مع جميع رغباتي الخطيرة ٠

سموت عن الخوف ، عن الأمور العادية ، ولم يكن يراودني العجب بعد من أجل هذا ٠ فمن ذا الذي يرى أنه غير مستحق لما نال من سعادة ؟

كنت اقف بجانب النافذة ، في الليلة الأولى لتسلمي منصب القضاء ، أنقل بصري في جنبات القصبة ، بالطريقة التي تخيلت بها السلحدار حين تولى منصبه ، كما أخذت مستمعا الى ما يحدثه دمي من خرير صاخب أنظر الى ظلي الكبير قد ارتسم على صفحة الوادي ٠ وتحت ، كان الناس وقد بدوا صغارا يرفعون أبصارهم متطلعين الي ٠

انني سعيد ، ولكنني على الرغم من ذلك لست ساذجا ، فانا ادرك تماما أن مصادفات عديدة قد ساعدتني ، مصادفات تتالت اثر هذا السبب الاول الذي تمثل في موت أخي • وحقا انهــا ليست مصادفات على وجه التمام : فتلك الضربة منحتني القــوة ، حركتني ، هكذا اراد الله ، ولو كنت قد جلست مكتوف الأيدي لما كانت مكافاته لي • وأما كون اختيارهم قد وقــع على بالذات ، فمرجعه انني كنت على جانب من الشجاعة ، وأن قدرا من البلوى قد اصابني ، وأنني الى حد ما أعد رجلا من عامة الشعب، ولم أكن ابلغ في تلك الأمور درجة كبيرة بل كنت فيها على قدر مقبول في نظر الشعب ووجهاء القوم كذلك • وقد رجح كفة اختيارهم اياي ، فيما يبدو لي ، انهم كانوا واثقين من أنهم سيسيطرون على في يسر وسيكون لهم ما يريدون •

فها هو حسن في معرض حديثه يقول لي :

ـ انك أنت الآخر تظن أنك ستفعل وفق ما تريد •

وقد رددت عليه بقولي :

ـ انني سأفعل ذلك الذي يفرضه القانون ويمليه على الضمير •

ـ كل منا يظن انه سيفوق الآخرين بحكمته ، لانه واثق انه الوحيد الذي لا يعد بليدا • ولا شك أن اعتقــادا كهذا يعد حماقة • اذن كلنا حمقى •

لم أشعر انني جرحت بقوله • فهذه الحدة تؤكد لي أن قلقا مايعذبه، ولا أدري مايكون ، وآمل أن يكون عابرا • فلو ظل طويلا للحقته الخسارة، وللحقتني ايضا • انني في حاجة اليه غير جريح ، غير مثقل ، دون أن تسيطر عليه افكار مرة • ولو كان على هذه الصورة لاحببته ايضا ، وكذا الحال لو كان على اية صورة أخرى ، وخاصة عندما أكون متساويا معه ، ولكن ما أحبه الى اذ يكون جانبي المضيء • انه لا يلزم بشيء ، انه ريح حرة منطلقة ، انه سـماء صحو صافية • انه ذلك الذي لا أكونه ، ولكن ذلك لا يؤرقني • انه الوحيــد الذي لا يحترم منصبي ، ويحزن على ما كنته سابقا ، وأما انا فأحاول ان أكون شبيها بالشكل الذي يراه لي ويريده • وأحيانا اعتقد انني هكذا • لقد بحثت عنه بعد التقائي بالقاضي الميت ، فقد كنت في حاجة اليه على وجه الخصوص ماسة ، كنت ارغب أن أراه هو فحسب ، فهو الوحيد الذي كان باستطاعته أن يدفع عني ما اعتراني من خوف عجيب • لقد ربطت نفسي به ، للمرة الثانية ، وللأبد ، وسأرده

الى نفسى كلما وجدتنى فى حاجة الى ذلك • ولا أدرى سببا لهذا ، وربما لانه لا يخاف الحياة • ان هـذا المنصب يكسبنى الأمان ، ولكنه يهب لى العزلة • فكلما علا الارتفاع ازدادت درجة الخواء • ولذا سوف أحافظ على الصديق ، اذ سيكون لى بمثابة الجند ، وبمثابة الملجأ أنعم فيه بالدفء اذ آوى اليه •

ولم يكد يمضى قليل حتى اصبحت حاجتى اليه أشد •

قبلت تلك الوظيفة ذات العبء الثقيل ، معتقدا أنها ستكون درعا لى وسلاحا فى المعركة التى كان لزاما على أن أخوضها • ولـكن لم يمض وقت طويل حتى وجدتنى مضطرا أن أدافع عن نفسى • ان الصواعق فى الحقيقة لم تنطلق بعد كى تصيبنى ، ولكن الرعد المنذر بالسوء كان يصل الى الآذان •

بعد أن تسلمت قرار السلطان بتنصيبى قاضيا ، ذلك القرار الذى اعلن به السلحدار مصطفى شكره ، كما قام بالتصديق على هذه الوظيفة التى أسـندت الى ـ قررت أن أسأل ضـميرى فحسب لكل ما أقوم به من عمل•وعلى الفور شعرت بجو من الفتور حولى•فأولئك الذين جاءوا بى الى هذا المنصب سكتوا على التو عنـدما رأوا أننى لا أتساهل • ولكن الأصوات أخذت تنتشر هنا وهنـاك تعلن مسـئوليتى عن موت القاضى السـابق • وعبثا كان بحثى عن أولئك الذين يتولون اذاعتها ويقومون بنشرها ، اذ بدا الأمر أشـبه ما يكون بتصيد الرياح • اقيل ذلك لأن مسـئولية القتل لم تلق على عاتق أحد ، أم انهم كانوا يعرفون ذلك من قبل ، ولكنهم بحاجة الى اعلانه الآن ، ربما لو كنت نظيفا على التمام لما دار اسمى على ألسنتهم يلصقون به التهمة فى كل مكان •

لا أدرى أكنت أنا كذلك على استعداد لأرضخ ، وخاصة بهذا العناد كما أبدو وبهذه الثقة التى احسها من أجل الحماية العليا ، كما لا أدرى أهم على استعداد بعد لأن يبرموا شيئا من الاتفاق بيننا • فهـا قد بدأنا نتحفز ، وها قد بدأ كل منا يتصيد الآخر •

كان المسلم يضايقنى أيضا ، السابق والحالى • فالسابق كان يجلس فى قريته ، يهدد ويبعث بالرسائل الى استانبول • والحـالى الذى شغل من قبل هذه الوظيفة فى مكان آخر ، والذى يعرف كم يكون تزعزع منصب المسلم ، كان يترك الأمور فى دهاء ومكر لتمر بغيره ، دون أن يثير غضب أحد ممن يستطيعون أن يجلبوا له شيئا من الضرر • حتى لقد علمت انه

قام باخبار المسلم السابق كي يختفي حتى لا يجده الحراس عندما يرسلهم في طلبه · ولم يكن هذا موضع مؤاخذة من أحد ·

وكذا كنت اشعر بضيق من أهالي القصبة · وشيء من ذلك كان مرجعه الى احتقاري لهم ، واكثره كان يرجع الى ما كنت أعلمه جيدا من مدى ما يملكون من شر وغضب هدام · لم أعد أدري بعد كيف أتحدث مع هؤلاء الناس ، اذ لم أكن أعرف من هم ، واما هم فكانوا يشعرون بانني لا أحبهم ، وكانوا ينظرون الى في فتور ، كانما ينظرون الى قطعة من الجماد·

ذهبت الى المفتي · وجرى كل شيء على الصورة التي جرى عليها حينذاك ، عندما ذهبت محاولا انقاذ أخي ، وقائما بدور المجنون · غير أنني قد رايت الآن أنه لا ينبغي لي أن أتذلل ، وعلى الأقل الى أقصى الدرجات · كان يسال : أي مسلم ؟ اي قاضي ؟ أو لعله قد أخذ يتحدث عن ملا(١) استانبول ، كما لو كان هو الرجل الوحيد الذي كان يعرفه في العالم · وذات مرة ، وفي نوع من المزاح بالغ السخرية ، وفي عملية استرجاع لذاكرته أتت متاخرة ، تلقف أمر أخي هارون ، وقال يسالني : أتم الافراج عنه من القلعة · وكان مالك ينظر اليه كما لو كان ينظر الى احدى خزائن الحكمة · وفي نهاية كل جلسة كان يأذن لي بالانصراف مصدرا اشارة من يده الصفراء تدل على نفاد صبره ، وانقطعت بعد ذلك عن الذهاب الى هذا المسكين ، الذي لم يرق به الحظ ليكون مفتيا ، فكان واحدا من أولئك الحمقى المعهودين · واخذ مالك يذيع أن المفتي لا يطيقني · وصدق الجميع ما أذاعه ، فهكذا كانوا يريدون ·

وكنت قد قررت في نفسي ألا أتقاضى راتبا لهذا المنصب الذي اشغله ، ولكنني كنت مضطرا لان أتراجع عن هذا القصد النبيل · وفي هذا العمل الجديد احطت نفسي بالثقات من الرجال ، كي أكون بنجوة من التخبط في الظلام ، ولكنهم كانوا يكثرون من مضايقتي بما يفضون به الى من اخبار سيئة مرت باسماعهم او نسجوها بخيالهم · وكل هؤلاء الكبار يفعلون مثل فعلتي ، ولذا كنا نعرف أحدنا عن الآخر كل شيء ، أو كنا نعتقد أننا نعرف · لقد دفعت لقره زاعم لكي يقوم باخباري عن كل مايدور ويحدث لدى المفتي · والله يعلم من من رجالي هؤلاء يتسمع كلماتي لينقلها الى الآخرين !

لقد كان ملا يوسف الذي حرصت على ان يكون بجانبي ، نظرا لحظه

---

(١) قاضي القضاة .

الجميل ، ومراعاة منى لجانب الحـــذر ـ هو الوحيد الذى يلوذ بالصمت منصرفا الى ما كلف به من عمل • واننى على يقين من اخلاصه ووفائه لى ، بدافع مما يحسه من الخوف • ولكننى لا أغفل مراقبته اذ أراقب الآخرين•

وهكذا كنت أعيش كمن قد غشيته الحمى •

تورطت بعد أن اشتد توترى فى القيام بعمل يمكن ان يعد قبيحا ، ولكن كان لهذا العمل ما يبرره • فقد أخذت ، باحثا عن الحماة ، آكتب الى نواب الوزير ، الى الوزير نفسه ، الى سلحدار السلطان ، مرسلا اليهم الهدايا والشكايا • أما الهدايا فقد كانت نافعة ، واما الشكايا فقد كانت تبعث على الملل • وكنت أعرف ذلك ، ولكننى لم أستطع أن أتصرف على خلاف ذلك ، فقد كنت أحس أننى بدأت أفقد عقلى • وكانت هذه الشكايا بمثابة تحذيرات من الاندفاع فى طريق الكفر ، نداءات لانقاذ ذلك الدين المهدد ، استغاثات لئـــلا يتركوننى وحدى فى المنصـــب الهام بالنسبة للامبراطورية • ومهما كان شعورى بضرر ما أوردته من هذه الايمان وهذه الضراعات ـ تلك التى لم يكن باستطاعتى أن أقدم فى ثنـــاياها مشروعا لتحالف معهم أو لعقد صداقة قوية او لتبادل منافع من شأنها أن تجلب الخير العميم ، حتى لقد بدا لى اننى آكشف بها عن ضعفى ـ فقد تملكنى شعور بالرضا لا يمكن وصفه أن أقوم بارسالها الى العالم اجمع وأنتظر ان يأتينى حل ما • لقد كنت فى هذا أشبه بالقـــائد المحاصر فقد جيشه ، يوجه النداءات وينتظر المساعدات •

أينبغى أن أقول ان هذا لم يساعدنى فى شىء •

لقد دق عنق المسلم السابق وحسب ، اذ بناء على طلبى لانهاء هذا الظلم والتلاعب بالقوانين وصـــل الى القصبة دفتردار الوالى ، وبعـــد أن استدعى المسلم للحديث أرسله تحت الحراسة الى «تراوفنيك(١)»، حيث تم خنقه •

وقد اتهمت فى هذا الموت أيضا • واستجابة لمطلبى ألزمنى الوالى بطاعة أوامره ، تلك التى رفضوها هنا منذ زمن بعيد • وقد وافقت انقاذا لنفسى •

راودنى التفكير فى أن اترك هـــذا كله وأعتزل المنصب • ولكننى ادركت أننى تأخرت • ولو حدث أن فعلت لانهـــالوا على فـــور مغادرتى لفتحة الحصن التى كنت آكمن خلفها •

---

(١) عاصمة الولاية اذ ذاك •

(اننى أدرك أننى اقص فى عجلة وابهام ، كما أدرك أننى اثب بعض الوثبات اذ أمر بالسطور ، ولكن ليس فى استطاعتى أن افعل سوى ذلك. فكل شيء قد التف من حولى وضيق على الخناق ، ولست أملك وقتا ولا أجد صبرا لاسترسل على مهل واراعى الدقة فيما اقول • لم أكن أتعجل عندما كنت هادئا ، أما الآن فانا انطلق فى سرعة واضغط الكلمات بعضها فى بعض ، كما لو كان اللهب يقترب من رأسى ، حتى أصبحت لا أدرى لماذا أكتب ، اننى أشبه شيء بمحتضر وحيد ، يحفر بظفره الملطخ بالدماء علامة فى الصخر تنبىء عنه ونذكره بها •)

وها هو حسن أخذ يبتعد هو الآخر أكثر فأكثر • وقد ظننت فى بادىء الأمر أن ملا يوسف قد أفضى اليه بموضوع الحاج سنان الدين ، ولكننى تاكدت أن هناك سببا آخر مخالفا على التمام • كذا لم يكن هذا بسبب وجود المرأة الدوبرفنيكية : فقد فرت من شتائنا القاسى • وكان يعلم أن الربيع سيعيدها ثانية الينا •

وقد ذهب ، لسوء الحظ ، حظه وحظى ، ليحضر بعض أقاربه من ضواحى « توزلا » ، وكانوا قد أصيبوا فى ثورة شبيت ، كما أصيب معهم آخرون • ان الاميرالاى عثـــمان بك قد قام بعمله على خير وجه ، قتل ، احرق ، طرد الكثير من أراضيهم ، وطوح بهم الى المنفى ، واستقبل الناس الشتاء وهم فى نكبة ما بعدها نكبة • وقد جاء بهؤلاء الاقارب من النساء والأطفال ، وآواهم فى بيته : ومنذ تلك اللحظة أصبح الرجل على خلاف ما كان عليه ، فهو الآن غليظ ، جاف ، ممل • يتحدث عن الحياة المنهارة ، عن آثار الحريق ، عن الموتى ولا قبور لهم ، وخاصة عن الأطفال بالقرب من البيوت المحرقة ، وقد خوت بطونهم ، وانتابهم الذعر ، وبدا الخوف مجسدا فى أعينهم بسبب ما حدث وشاهدوه أمامهم •

لقد تلاشت سطحيته التى كانت لا تبالى بشيء •• سهولته المشوبة بالسخرية •• ثرثرته المرحة •• بناؤه الجسور من تلك الكلمات الرقيقة العذبة • وأصـــبح حديثه قاصرا على تلك النكبة التى حدثت فى منطقة سافا ، يردده فى شيء من التقزز ، دون ما أثر لمرحه السابق ، وفى شيء كذلك من الابهام فى القصد والمعاناة فى النطق •

وكان يسمى أولئـــك المنكوبين ، الذين قتلوا واستقرت أجسادهم ببطن الارض السافية السوداء ، والذين يزجون بأنفسهم فى طرق بعيدة يقودهم الى المنفى ، بالمنتحرين وذوى الحمق من أهل البوسنة • كما كان يقول ان حماستنا تبلغ من الخطورة قدر ما يبلغه عدم فهمنا وادراكنا •

ماذا كان يدور بفكرهم اذا كانوا يفكرون فى شيء؟ أكانوا يظنون أنهم سيتغلبون على جيش السلطان ، ذلك الذى لا تعوزه الشجاعة أو الحماس، لأنه مسلح وذو غلظة ؟ أم كانوا يأملون أنه سيتركهم في سلام ، وهل في الامكان أن يترك أحد شرارة ترعى في منزل مهما كان قديما أو مهدما ؟ ألم يحن الوقت بعد لأن نزهد فى تلك القوة التى تدحرج الكتل الضخمة الخشبية وتلك الشجاعة الفارغة التى لا تترك وراءها سوى الخراب والدمار ؟ كيف يجرؤ الآباء الحمقى أن يحددوا على هذا النحو مستقبل إبنائهم ، تاركين فى أمانتهم العذاب والجوع ، والفقر المستمر ، والخوف من ظلالهم ، والجبن عبر السنين ، ومجد التضحية الحقير ؟

واحيانا كان يتحدث على خلاف ذلك ، ذاكرا أن شيئا لا يذل الانسان قدر ما تذله موافقته عن جبن أو اصداره عن عقلية تافهة · فنحن نخضع لارادة الآخرين ، تلك الارادة التي تكون خارج ارادتنا وفوقها ، الى حد يجعل من ذلك قدرنا · ان افضل الناس فى خير ساعاتهم يحاولون أن يتغلبوا على هذا الضعف وهذا الامتثال للغير · ان عدم الاعتراف بالضعف يعد غلبة ، يعد فتحا سيصبح فى يوم ما أكثر دوما وأعظم اتساعا، وعندئذ سوف لا يعد ذلك محاولة بل يعد بداية ، ولا يعد عنادا بل صونا للكرامة·

كنت أصغى اليه وانتظر أن يجاوزه هذا الذى ألم به ، اذ كنت أعرف أن حماسته وتبرمه لا تطول مدتهما · وليست له سوى حماقة وحيدة تدوم طويلا وتتمثل في حبه للدوبرفنيكية · وفي الحق ان هذا الحب يبلغ فى غرابته وغموضه درجة تجعلنا نراه حاجة الى الحب أكثر من أن يكون حبا· فحسن لا تتحقق ذاته ولا يعرف نفسه ، ولا يضع نفسه في حيز محدد ؛ انه يحاول كل شيء ولا ينهى أى شيء ، طالما هو يسمح لنفسه على الدوام أن يخطىء الهدف · انه سيخطىء الهدف حتى فيما جبل عليه من كرم ·

ذات مرة أشار الى الكسيح جمائيل ، الذى كان اولاده يجرونه فى عربة صغيرة ، وكان يخرج منها ويسير فى صعوبة بالغة ، متكئا على عكازتيه ، وجارا قدميه المشوهتين اليابستين ، حتى يبلغ دكانه الذى اتخذه لخياطة الملابس · وحينما يكون جالسا يدهش الناس بجماله وقوته ، وبوجهه الذى يبدو عليه سيماء الرجولة ، وكذا بعذب ابتسامته، واتساع كتفيه ، وقوة يديه ، وبقامته التى تشبه قامة البهلوان · ولكنه فور أن يقوم ينهار على الفور كل هذا الجمال ، ولا يرى اذ يتجه الى العربة الصغيرة سوى رجل كسيح لا يملك الناس أن يروه دون أن يرثوا لحاله · لقد شوه نفسه بنفسه · ففى سكره الشديد أخذ يطعن فخذيه بسكين حاد

حتى قطع عروقهما ومزق عضـــلاتهما ، وما يزال الآن وهو يشرب ينهال طعنا على البقايا اليابسة نقدميه ، دون أن يســمح لأحد بالاقتراب منه ، كما انه ليس باستطاعة احد ان يتغلب عليه ، اذ ما تزال يداه تحتفظان بقوة جبارة ٠ واتبع حسن اشارته بقوله :

ـ ان جمائيل يمثل صورتنا الحقيقية ، صورة البوسنويين ٠ انه قوة تقوم على بقايا يابسة ٠ انه جازر نفسه بنفسه ٠ لديه الكثير ولكنه يفقد الاتجاه والغرض ٠

ـ ومن نكون نحن اذن ؟ حمقى ؟ تعساء ؟

ـ أعقد الناس في العالم ٠ ولم يمزح التـــاريخ على الدهر مع احد مثلما فعل اذ ألقى علينا مزاحه ٠ فالى الأمس كنا ذلك الذى نرغب فى نسيانه اليوم ٠ ولكننا لم نصبح شيئا آخر ٠ لقـــد توقفنا في منتصف الطريق ونحن في ذهول ٠ ولم يعد في اســتطاعتنا أن نتجه الى أى مكان بعد ٠ اننا منقطعون ولكننا غير مقبولين من أحد ٠ اننا أشبه شيء بجدول كان يعيش في كنف نهر يرى له بمثابة الأم فاتى الســيل مندفعا كالمارد الجبار ففصل الوليد عن الأم ، وأصـــبح لا منبع له ولا مصب ، صغيرا بحيث يتعذر أن يكون بحيرة ، كبيرا بحيث لا يمكن للارض ان تمتصه ٠ ونحن ازاء هـــذا الشـــعور المبهم الذى يولده الخجل من أرومتنا وهذا الاحساس بالذنب من أجل ردتنا ـ لا نريد أن ننظر الى الوراء ، وليس لنا في الوقت نفسه من هدف أو اتجاه يدفعنا الى التطلع للأمام ، ولذا نحاول أن نوقف الزمن ، خوفا من أى حـــل يكون ٠ ها هم اخوافنـــا والدخلاء يحتقروننا ، ونحن ندافع عن أنفسنا بالفخر والكراهية ٠ لقـــد أردنا أن نحافظ على كياننا ، ونرعى أصولنا ، وها نحن فقدنا أنفسنا بدرجة تجعلنا لا نعرف من نكون ٠ ان المصيبة كل المصيبة تكمن في محبتنا هذه الارض وعدم رغبتنا في النزوح منها والبعد عنها ٠ ولا بد أن نعرف أن لكل شيء ضريبة ولهذا الحب أيضا ٠ انكون على وجه الصدفة حلماء للغاية وقساة غلاظا كذلك ، نرى على جانب من اللين وعلى جانب من الصـــلابة والشدة أيضا ، يخالجنا الفرح والسرور كما يخالجنا الحزن والغضب ٠ مستعدين دائما ان نفاجيء الغير وان نفاجيء أنفسنا أيضا ؟ أيكون على وجه الصدفة اختفاؤنا وراء الحب ، ذلك الامكان الوحيد لحالة غموضنا ؟ أيكون بلا سبب تركنا الحياة تمر بنا ، وبلا سبب نقوم باهلاك أنفسنا ، بطريقة تخالف تلك التى يقوم بها جمائيل ، ولكنها تماثلها من حيث الأمان والثقة ؟ ولكن لم نفعـــل ذلك ؟ نفعله لان الأمر يهمنا ٠ واذا كان كذلك فهذا يعنى أننا شرفاء ٠ واذا ثبت هذا فالاجلال كل الاجلال لتلك الحماقة !

ان الاستنتاج غريب غرابة التفكير كله • ولكنه في محله ، اذ بامكانه أن يبرر كل ما يفعله الانسان وما لا يريد أن يفعله • انني لم أكن مريضا بذلك المرض ، التاريخي والوطني ، نظرا لانني عن طريق الدين مرتبط بالحقيقة الأبدية وبذلك الرحب المتسع من العالم • ان رأيه ضيق الافق، ولكنني لم أرد أن اجادله ، وذلك لأن هناك هموما أهم كانت تراودني ، ولأنه صديقي ، ولانني كنت ارى أن تفكيره يميل الى الانحراف ولكنه غير خطير ، لأنه يخنق نفسه بنفسه • حتى ان شيئا ما قد فسره لي ذلك الضجر المتخيل ، الذي يعد نوعا من التفسير الشاعري لعدم اصابته الهدف ، كما يبدو أشبه شيء بتبرير يصدر من طفل عاقل كبير ، ذلك الطفل الذي يكون على وعي من أنه ينفق حياته سدى • وفي الحق ، ماذا كان في امكانه وهو الثري الشريف ان يفعل سوى ذلك ؟ انه لم يكسب بنفسه تلك الثروة ومن ثم لم يقدرها ، ولكنه في الوقت نفسه لم يرغب أن يجرد نفسه منها • ولذا كان يشيد في مهارة صرحا من الكلمات ينبيء عن أن الحياة تضايقه ، مبتكرا بعض كذبات صغيرة ، رغبة منه في أن يهديء نفسه ويسكن ضميره •

وخدعت نفسي بتصوري ذلك ، كما خدعتها بالنسبة لأمور كثيرة تتعلق بحسن •

وللمرة الثانية مرت فترة طويلة دون ان اسجل شيئا • لقد أصبحت الحياة مؤلمة •

وكنت كلما ازداد أيلامها أزداد تفكيرا في أخت حسن • وكنت لا ازال أذكر نظرها الغريب وصورة يدها التي كانت تنم عن الحزن • لم تسمح لي بدخول البيت عندما جئت لأدفع عن نفسي ما وصل الى سمعها من أخبار سيئة • وعندئذ عهدت الى أحد أصدقائي بالذهاب اليها وابلاغها استعدادي لطلب يدها ان هي وافقت • ورفضتني دون تبرير لذلك • وتأكدت بعد أنها حامل حقا ، وأنها صادقة الحزن على قاضيها • وكنت أظن أنها تنظر اليه بعينيها هاتين ، ولكن يبدو أنها وجدت في نفسه مالم يجده أحد • لعله كان رقيقا نحوها • بقدر ما كان قاسيا بالنسبة للجميع • ولم تكن هي على علم بغير هذا الجانب منه • سوف يزايلها هذا الحزن الذي ينتاب الأرامل ، ولكنني كنت شديد التبكير في طلب يدها ، ياللخسارة ، فلو حدث أن تزوجت بها لكان هذا أحسن دفاع بالنسبة لي ازاء تلك الاتهامات التي أسندت الي ، ولاصبحت احد أفراد هذه العائلة المبجلة التي كان في الامكان ان تصبح لي خير سند وخير معين • ولكن ما هو عيني

افندى يشكل عقبة فى سبيل هدلى على الرغم من انتقاله الى مثواه الأخير.

ان صديقى حسن قد جن تماما . واستطيع أن أفسر ذلك بان كل ما يمكن أن يدخل مخ الانسان فى استطاعته أن يصبح شهوة . وهذا لا يعد تفسيرا بحال ، ولكنه التفسير الذى لا أجد سواه . ان هذا الصديق سافر مرات عديدة الى منطقة نهر سافا ، ولم يكن يشغله سوى تفكيره . وقد سمعت أنه يقوم بشراء الضيعات المنزوعة من الثوار فى هذه المنطقة. وسالت والده عن صحة هذا الخبر ، فأجاب فى ابتسامة ماكرة :

ـ حقا نحن نقوم بالشراء . فهذا عمل مربح ، سوف تباع بثمن زهيد .

ـ الديك نقود ؟

ـ نعم .

ـ لماذا تقترض اذن ؟

ـ كل شيء لديك به علم ! اننى أرغب فى شراء مساحات شاسعة ، ولذا أقترض .

اننى لم أقم بعمل مثل هذا فى حياتى .

ـ تأخذ ضياع الفقراء ؟

ـ آخذ .

كان يضحك فى سرور كما يضحك الطفل . ان هذا سيشد أزره ويمنحه القدرة على الوقوف . لقد جن هو كذلك من فرط حبه لابنه . ان أسباب الجنون مختلفة ولكن المسببات واحدة . انهما سيهلكان أنفسهما.

وكنت انا اضحك أيضا ، مسرورا مثله ، مسرورا كما لو كنت لا أعرف السرور منذ زمن . وقلت :

ـ ان هذا سيبعد المرض عنك .

ـ اننى أحس بدبيب الشفاء .

ـ ستتحسن صحتك وستغدو فقيرا . أترى فى ذلك سعادة ؟

ـ سأمتلك صحة جيدة وسوف لا يبقى لى ما اتبلغ به . ولا ادرى أيعد هذا سعادة .

ـ من سينفق عليك ؟ ابنك أم ابنتك ؟ وأستطيع أنا بدورى أن أرسل اليك طعاما من التكية . وهكذا ستتمكن من أن تعيش .

ـ ساقف فى طابور المطعم الشعبى .

اخذنا نضحك كالبلهاء أو الحمقى ، واستمررنا فى الضحك كما لو كان ذلك خير مزاح على وجه الارض ، كما لو كان يمثـــل شـيئا حكيما مفيدا • كنا نضحك ، من أجل قيام الانسان باهلاك نفسه •

وكان يسالني :

ـ اعرفت أيها الماكر ؟ من اين عرفت ؟ لمـاذا لا تصدق أنني أعمل عملا مربحا ؟

ـ اعرف • كيف يتسنى لكما انتما الاثنين ان تقوما بما هو معقول من الامور ؟ وخاصة عندما حثك الابن علي ذلك • انه ليس معقولا ولكنه جميل •

ـ نعم لقد حثني ابني • واذ ذاك يكون معقولا وجميلا كذلك • لو كان لك ابن لعرفت ذلك •

ـ لعرفت كيف يولد السرور من الخسائر •

ـ أيعد ذلك قليلا ؟

ـ ليس بقليل •

انهما دون شك لن يبقيا دون شيء وهم يشترون الضيعات المنزوعة، لكي يؤويا فيها المساكين المشردين • ان عقل علي أغا سـوف يتغلب على حماسه وحماس ابنه ، ولكن سيكون هناك ضرر كبير ، اذ سيجتهد حسن في أن يرتكب أكبر قدر ممكن من الحماقة ما دام قد بدأ • انه يفعل كل شيء باندفاع في فورة ذلك الحماس الذى لا يسـتمر طويلا • وهو الآن واثق أن ذلك يعد العمـــل الوحيد الذى يجب عليه أن ينجزه ، سيظل يباشره حتى يتعب نفسه ، وحتى ينتابه الملل من أجله ، وسوف يحدث ذلك عن قريب ، ولا شــك أنه سيلقى على عاتق والده وعلى عاتقه أيضا ديونا كثيرة •

انني لم أكن قط املك شيئا ، ولم أكن أرغب في أن أملك كذلك ، ولكن دمى القروى ما زال يراوده الخوف من كثرة الانفاق وبعثرة الاموال• وهذا الذى يفعلانه يعد بداية لأن يجدا أنفسهما في مفترق الطرق • انه أشبه شيء بتصرف السكير لا يدرى حسابا لشيء ولا يعرف حدودا لانفاقه، أشبه شيء بالاندفاع القوى وبثورة الدماء عنـدما يرى التوقف صعبا بل يكاد يبدو مستحيلا ، أشبه شيء بالحماس الأحمق الذى لا يتبصر العواقب، أشبه شيء بجمـانيل الذى يهلك نفسه بنفسه • وعلى الرغم من ذلك كنت اشعر ازاء كل ما لم يستطع عقلي تقبله بنوع من وفرة الابتهاج ، وبأن هناك

سببا يصعب على ادراكه لما أحسه من الفرح العميق ٠ وكان ذلك لأن الأمر يبدو غير معقول ، ولأنه يثير الضحك ، ولأنه يذكرنا بالمزاح : هيا بنا نفعل شيئا غير عادى ٠ ولأنه يصعب تفسيره ٠

لا شك أنهما سيعودان الى صوابهما بعد فوات الأوان ، وسيريان بأنفسهما كم سيكون نبلهما غاليا بالنسبة لهما ٠ ولكن سيصبح كل شيء جميلا الى درجة لا تدع لهما فرصة للندم ٠ سيسكرهما الفخر بسبب مدح الناس لهما ، أولئك لا يدفعون من أجل ذلك ولو فلسا ٠

وأما أنا فقد كنت ازداد ادراكا بأن السلطة عمل صعب ومعقد ، كنت أمارس أمورا صعبة ، أدافع عن نفسي وأشن الهجوم على الآخرين وكنت أقوم بكل ما فى وسعى كى أصمد ، كنت أخوف وأتخوف ، كنت أشعر أنني مع المصائب ازداد قوة وأغدوا أعظم نفوذا ، اذ لم أعد بعد مضطرا لأن أكيل ضرباتى ، ولكنى مع الكآبة العجيبة ومع الضغن المبهم أخذت أفكر فى وجه حسن ، فى السرور الذى كان يتنازل به عن السند الأكيد فى الأمل الذى أيقظه فى قلوب الناس ٠ لم يكن هذا الأمر جادا ٠ وعلى الرغم من ذلك فانه أشبه شيء بامكان ما لا نستطيع الاحاطة به ٠

وكان أن وقعت بعد ذلك أحداث هامة ٠

(لو كنت أملك وقتا من الفراغ أكثر ، كما كنت فى الماضى ، لأحسست برغبة يمازجها سرور فى أن أفكر فى ذلك الذى يشبهان فيه الآخرين ، فقد أصبحا هامين لتعلقهما بالآخرين وتعلق الآخرين بهما ، وعندئذ لم تعد الأحداث هامة فى ذاتها ، بل باهتمامنا بها ، الأمر الذى يجعلنا نفصلها عن غيرها من الأحداث - أو نقوم بما يشبه ذلك ٠ ولا يخفى ما فى هذا البحث من متعة خاصة تجعلنا كما لو كنا نعيش فوق الأحداث ٠ أما الآن فأنا أحس أنني انغمست فيها ، وليس لى الا أن أسجلها فحسب) ٠

فى منطقة السافا ، وفى اليوم الذى حدد لبيع الضيعات المنزوعة ، صادف حسن عقبة غير متوقعة ، فقد أعلن المنادى للبيع أن مندوب الوزير سوف يشترى باسم الوزير جميع الضياع ، وكان هذا بمثابة أمر من الوزير بمنع الآخرين من منافسته ٠ ولكن ذلك كان يشكل عقبة فى نظرى ، وأما فى نظر حسن فلم يكن ذلك ٠ ودون أن يبالى برغبة الوزير اشترى عددا من الضياع ، والباقى ، وهو النسبة الكبيرة ، اشتراه مندوب الوزير ، بقيمة رمزية ٠ وقد ترك حسن بعض النقود من أجل

الاصلاحات الضرورية للبيوت وشراء الطعام للعائلات التي ستقطن فيما اشتراه من ضياع ، وعاد الى القصبة راضيا ٠

وحينما رأيته سألته مازحا ، لأنني لم أكن اعتقد أن ما ينجم عن غضب الوزير سيتأخر كثيرا :

ـ ما حاجتك لأن تختصم مع الوزير ؟ أأنت حقا لا تخاف أحدا ؟

وتولى العجوز الاجابة ٠ وكان يغدو ويروح متباطئا في غرفته ، وقد علق على كتفيه معطفه :

ـ من الله يخاف قليلا ، ومن السلطان لا تراوده ذرة من خوف ، وأما فيما يتعلق بالوزير فخوفه منه يعادل خوفه من حصانه الكميت ٠

وقال حسن وهو يرد لطمتي :

ـ لم أخاف ؟ ولي مثلك ٠ ولعلك اذا حدث أمر تقوم بحمايتي ٠

ـ من الأفضل الا تكون بحاجة الى حماية أحد ٠

ضحك العجوز وقال :

ـ ان الدرويش لا يجيب قط اجابة مباشرة ٠

وانطلق حسن في جد يجيب :

ـ لديه حق ٠ فمن الأفضل الا أكون في حاجة الى حماية احد ٠ أن أحمي نفسي بنفسي ٠ ليس من العدل أن أثقل على صديقي بالمصائب التي اخلقها وحدي ٠ فمن لا يعرف السباحة يجب الا يلقي بنفسه في الماء ، آملا أن يجد من يقوم بانقاذه ٠

ـ ولكنه لن يكون صديقا اذا لم يقم بانقاذ صديقه ٠ انك تفهم الصداقة فهمك للحرية ، واما انا فافهمها فهمي للواجب ٠ ان صديقي يعد كشخصي ٠ وحفظي اياه حفظ لنفسي ٠ أهناك حاجة لأن أقول ذلك ؟

ـ لا ٠ ان والدي يسترسل في حديث عديم الجدوى ، لكي لا أحكي ماذا فعل معي ٠ أتعرف أنه أخفى الذهب عني ؟ أخفى الفا من المسكوكات الذهبية ! وقد وجدتها عندما عدت ، في صندوق عليه قفل ٠

ـ لقد قلت لك بنفسي ٠

ـ نعم قلت ، لكن بعد أن عرفت ٠

ـ لماذا أخفيها ؟ وممن ؟ انها لك ، تفعل بها ما تريد . فلن أحملها معي الى القبر .

يا للفطنة ، ما زال العقل في خدمة العجوز !

وحتى لو حدث أنني قمت باخفائها ، أفي ذلك ما يوحي بسوء ؟ ولكنني في الحق لم أفعل ذلك ، بل وضعتها ونسيت . أفي ذلك غرابة بالنسبة لذاكرة رجل مسن ؟ .

وبمقتضى ما كان من اصرار حسن ، وما كان من ابتسامته التي كان يستقبل بها ذلك الدفاع الساذج من العجوز عن نفسه ، دون أن يجهد نفسه في انتزاع تعليل مقنع لما قام به العجوز ، وبما كان بينهما من التسامح السار المتبادل الذي اخذا يفضان به ما نشأ بينهما من نزاع ظاهري ـ استطيع أن أقول ان حسن نفسه لم يكن غير راض بما حدث على هذه الصورة . لقد قاما بما يجلب لهما الثواب وفي الوقت نفسه بقيت المسكوكات . كما أن تلك الأسرة لم تعد تزعجهما بعد .

ومهما يكن من أمر فهما يختلفان عن الآخرين ، لأن هؤلاء لا يقدمون مقدار ما يقدمانه . كما ان كرمهما الذي يصدر عنهما بمقدار ، أو يحاولان في جهد ابرازه ، كان أكثر قربا الى نفسي وأشد تأثيرا . فهو بالغ الانسانية ، وله حدود باستطاعتي أن أحيط بها . انه لا يخوفني بمخاطرة يقوم بها ولا يؤرقني بعدم اتزانه . فالكرم المختبل هو ما يفعله الطفل اذ يعطي كل شيء ، لأنه لا يعرف قيمة لشيء .

في اليوم الثاني لعيد الفطر جاء الى التكية «بيرى فويفودا» الذي كان يراقب حركات اولئك المشتبه في أمرهم ، وكان يرى أن جميع الناس ينطبق عليهم هذا الوصف ، وسلم الى رسالة «لوقا» الدوبرفنيكي صديق حسن ، المرسلة الى مجلس الشيوخ بدوبرفنيك . وكانت هذه الرسالة عن التجار الدوبرفنيكيين الذين غادروا القصبة هذا الصباح مع شحنات البضائع .

ـ لماذا أخذت هذه الرسالة ؟

ـ اقرأ ، وسترى لماذا أخذتها .

ـ هل الأمر هام ؟

ـ اقرأ ، وسترى هل هو هام .

ـ أين التجار ؟

ـ ذهبوا . اقرأ ثم قل لى هل كان ينبغى أن يغادروا القصبة .

ان الشيطان بنفسه قد ألقى على عاتقى هـــذا الرجل ، البليد ، العنيد ، الذى يتعذر قبوله الرشوة ، والذى يخامره الشك فى جميــع الناس ، والذى كان على وجه اليقين تمتــــد نظرته المرتابة لتصل الى والدته . ودون أن يفهم شيئا غير اتهامه للجميع ، كان يمطرنى بالرسائل والبلاغات ، محتفظا بفحواها فى ذاكرته ، ومستخبرا عما تم بشأن كل منها على حدة . وكان نصف المصائب على كثرتها تصلنى منه ، حتى لقد اصبحت اعتقد انه عقوبة الله بالنسبة لى ، وأن كل شخص يملك «بيرى فويفودا» الخاص به . غير أن هذا الذى يختص بى كان أشد من الجميع . لذلك انتابنى شك فى أن يكون قد نصب لى قصدا ، كمرءوس يراقبنى. وكان اختيارهم اياه موفقا للغاية . لم يكن تابعا لأحد . ولم يكن يخدم احدا سوى بلادته . وكان هذا يكفى ليجعلنى أنسلخ ثلاث مرات يوميا من جلدى . اما هو فلم يكن باستطاعة احد أن يجرحه أو يثيره . وعبثا حاولت أن أصلح من امره وخاصة فى البداية ، ثم عدلت عن ذلك بعد أن تعبت .

وكان يستمع الى فى مضض ، وقد رفع راسه عاليــــا ، تكبرا واحتقارا ، ولعله كان حقا فى دهشة ، فهو يشك فى عقلى وفى صلاحيتى ، واستمر يعذبنى بضميره الذى لايطيقه احد . لم يبق لى سوى أن اخنقه ذات مرة عندما يشتد غضبى ، أو أن اهرب برأسى الى حيث لا اعود ، عندما لا استطيع بعد أن اتحمله . ومن المؤلم انك تستطيع أن تجد ألف سبب لتدعوه مجنونا ، ولكنك لا تستطيع أن تجد ولو سببا واحدا لتعلن أنه غير شريف . لقد كان يثور فى نفسه مبدأ عدالة مشوهة ، ورغبة متلهفة من اجل أن يعاقب الجميع لأى من الأسباب ، ولم يكن يكتفى بجميــــع ما كنت أبديه من القسوة . ان الآخرين كانوا يتهموننى بسبب قسوتى ، وأما هو فكان يعاتبنى بسبب تساهلى . وأما الأعداء فقد جعلوا من كلا الأمرين سببا لاتهامى .

لقد حكى لى أن قطاع الطرق هاجموا تجار دوبرفنيك فى أسفل الجبل ، وبينما كان هؤلاء يردونهم هرب أحد خيولهم ، وانحرف الى احدى القرى فى طريق عودته الى القصبة . وبحث الدبروفنيكيون عنه دون جدوى ، ثم واصلوا سفرهم تاركين اياه ، لأنهم كانوا متعجلين كى يعبروا الجبل فى اثناء النهار . لقد سمع «بيرى فويفودا» عن تغيب هذا الحصان ،

وعلى الفور وجده ، وأجبر الفلاحين ليردوا كل ما أخذوه ، وعلى الفور كان على استعداد لـكي يعطوا ما يخصهم كذلك وليس ما يخص الآخرين فحسب . وهكذا وجد الرسالة ، وذهب بها الى الصراف سليمان ، ليقرأها له ، لأنه لم يكن يعرف قراءة الحروف اللاتينية .

أصابني دوار من جراء هذه القصة المقلقة ، ومن جراء هذا الحدث الذى يصعب متابعته . ذلك الذى لو سمعه أى رجل عاقل للوح بيده . وأما «بيرى فويفودا» فقد ظل يتابع الأمر الى النهاية جريا وراء الأشباح ، وأخيرا تمكن من اقتناص التقرير الجاسوسى !

ظل واقفا أمامي ينتظر . قرأت الرسالة وعرفت ما كنت أعرفه من قبل ، وهو أن الأجانب يكتبون عن ذلك الذى يرونه ويسمعونه فى بلاد الآخرين ، وكل أحد يعرف ذلك ، وكل أحديفعله ، ولكنهم على الرغم من ذلك يدهشون من الأمر عندما تصل أيدى السلطات الىواحد من تقاريرهم قرأت وتنفست الصعداء : لم يكتب شيء عن حسن ، لم يكتب ما كان في الامكان أن يلقى أى شك حوله ، وكذا لم يكتب شيء عني ، لم يكتب ما كان في الامكان ان يجرحني . لقد كتب الدوبرفنيكي أكثر ما كتب عن الوزير وعن ادارة البلاد . وكان فيما كتبه أشياء تكاد تكون صادقة ، ولكنها سيئة حين تقرأ . (.. لقد استنفدت فوضى الادارة قوة البلاد .. لو علمتم مدى غباء هؤلاء الناس وخاصة أولئك الذين يحملون رتبـة القائمقام والمتسلمون : لدهشتم ، كيف يمكن أن تكون السلطة فى أيدى أولئك الرجال ، الذين ليسوا من المجتمع الشريف على الاطلاق ... ان شبكة الجاسوسية منتشرة في البوسنة بين الموظفين وبين العملاء والأعوان، كما هو الحال فى بعض دول الغرب ... لقد أدخل الوزير الظلم ووضع نفسه ندا للامبراطورية ، وعد من ليس معه عدوه ... وبكلمة نستطيع أن تقول انه خلق الجحيم ، فهو ينقل الموظفين ويفصلهم ويسوس البلاد وفق مزاجه ، وقد صرح فى عديد من المرات بأنه لا يعرف القانون ... وهو يكره أتباع محمد وأتباع المسيح كذلك . ولكن الحكومة لن تتخلى عنه بسهولة ، لأنه قد جمع للامبراطورية خلال سبع سنوات كثيرا من المسكوكات الذهبية ، وهذه المسكوكات تعد سنده وعونه فى استانبول ... وهو بدوره يعد سندا لقبيلته ... وبواسطة هذه المجموعة التى تتصف بالفساد ، وتتجلى فيها القسوة ، وتسودها الخيانة ، استطاع أن يعلو أكتاف الشعب ، بحيث لا يجرؤ أحد على أن ينطق بكلمة ... ان هذا النظام الذى يقوم على الارهاب والســيطرة البوليسية ، كان من

الضروری بالطبع أن يجعل من البوسنة عضوا أشل فی الامبراطورية ، حيث لم يعد الصديق فيها يأمن صديقه ، ولا الوالد ولده ، ولا الأخ أخاه، ولا الزميل زميله ، فقد استولى الخوف على كل شخص من رجال عثمان السود ، وأصبح السعيد للغاية هو الذی لا يجری اسمه على ألسنة أهل بلدته ٠٠٠ » وذكر فی الرسالة أيضا أمر شراء الضيعات المنزوعة ، والثمن الذی اشتريت به ، ذلك الثمن البخس ، وأسماء الأصدقاء والأحباب من قبيلة الوزير ، وكل شیء يتعلق بما أخذوه ، وبما أعطی لهم، وبما اغتصبوه ٠ ان الدوبرفنيكی اذا أقام هنا بأرض البوسنة لم يكن مغمض العينين أو جاعلا لأذنيه سدا !) ٠

قلت ، من أجل «بيری فويفودا» الذی كان فی تلهف بالغ ينتظر رأيی :

ـ أمر مخيف ٠

ـ يجب القبض عليه ٠

ـ ليس من السهل القبض على الأجنبی ٠

ـ أيمكن للأجنبی أن يفعل ما يشاء ؟

ـ لا ٠ سوف أتشاور مع المفتی ٠

ـ تشاور ٠ ولكن يجب القبض عليه قبل ذلك ٠

ـ ربما ، سأری ٠

وخرج وهو بالغ الاستياء ٠

يا له من نكبة ألقت بها السماء ! انه لو لم يكن يدس أنفه فيما لا يعنيه ، لنعمت بالهدوء على الأقل فی هذه الناحية ٠ اذ أننی فی هذه الحال لا أكون على دراية ، ومن ثم لا يكون منی اهتمام أو تدخل ٠ أما الآن فأنا أدری ولا بد لی من الاهتمام ٠ ولكننی مهما فعلت ففی الامكان أن أخطیء ، وليس فی وسع ضميری أن يساعدنی ، ذلك الضمير الذی كنت أعتمد عليه اعتمادا كبيرا فی سالف الأيام ٠ ان هذه اللحظات من شأنها أن تورث الشيب قبل المشيب ٠

ان المفتی لم يكن لديه استعداد ليسمع شيئا يتصل بالعمل فی يوم العيد ٠ ولم يكن يسمح بذلك أيضا فی غير أيام العيد ، ولكن لم يكن يهمنی رأيه بل كان يهمنی اسمه ٠

واما المسلم فلم يكن في البيت • لقد ذهب الى السوق • هكذا قال أهل بيته • ووجدته في مكتبه • في العيد ! لقـــد كان على علم تام بالموضوع •

وقال دون تردد :

ـ يجب القبض عليه •

ـ ولكن لو حدث ان كنا على خطأ ؟

ـ سوف نقوم بالاعتذار •

تملكتني الدهشة لهذا الحزم الذي لم يكن عاديا على الاطلاق • كان من الافضل الا اسمع نصيحته ، لأنه لا يتمنى لي خيرا ، هذا ما أعرفه • ولكن لو حدث أنني قبلت نصيحته ، فالمسئولية ستكون مشتركة •

ـ يبدو أن هذا هو الأفضل •

وافقت ، ولكنني لم أكن على يقين بشأن الأفضلية •

غير أن «بيرى فويفودا» أزال عني هذا القلق ، وان كان قد أصابني بقلق آخر • فقد جاء يخبرنا ، وقد تملكه الغيظ بما حدث والرضا اذ تحققت شكوكه ، أن الدوبرفنيكي قد هرب من القصبة بمساعدة حسن• لقد ذهبا سيرا على أقدامهما الى الحقول ، وهناك كان خدم حسن ومعهم الخيول • ينتظرون مقدم الدوبرفنيكي • وعاد حسن غير مصحوب بأحد•

قال المسلم وهو يحرك رأسه :

ـ أمر حرج •

كل شيء كان ينطق بحيرته ، صوته ، وكتفاه المهدلتان ، واستناد ذقنه الى راحته ، كل شيء ، سوى تلك الابتسامة التي لا تكاد تبـدو ، حول شفتيه الدقيقتين • وسوف يبدو الأمر عجيبا اذا لم يقم باخبـار الوالي بانه قد ارتأى القبض ، ولكنه للأسف لا يملك اصدار قـرار بشأنه •

أما «بيرى فويفودا» فقد أخذ يدفع المسئولية عن نفسه ، بما كان يلقيه من اتهام :

ـ انني كنت انصح بالقبض عليه •

ـ أمر حرج ـ هكذا كان يردد المسلم ، موخزا اياى بذلك ٠

وكم يكون حرجا ، لقد كنت بنفسي أدرك ذلك ٠ والآن لم يعد الدوبرفنيكي مذنبا ، لأنه غير موجود ٠ وليس المذنبون سوى الذين بقوا ٠ المذنب حسن ، والمذنب انا كذلك لأنني صديق له ، ولأنني تركت الدوبرفنيكي ليهرب ٠ مذنب ، بسبب عمل الآخرين ، وبسبب بلادة الآخرين ، مذنب امام ذلك الوالى الذى كان يحميني ٠

لقد ارسلنا على الفور فى طلب حسن ، وكنت أنتظر وبرودة تسرى فى جسدى أن يظهر حسن مستاء لأمر قيامنا باستجوابه ، شاعرا نحونا باحتقار وبرغبة في العناد ، ولم أستطع ان أنبهه ، أن أستميله الى الحذر اذ الحمية لا تفيده في شيء ٠ وكنت آمل انه سيدرك موقفه وموقفي ايضا ، وهدأت نفسى تماما حينما سمعته يجيب ٠ لقد قال ، نعم ان الدوبرفنيكي غادر القصبة ، وكان متعجلا لأن خبرا أتاه يعلن ان والدته فى لحظات الاحتضار ٠ وقد وضع خدمه وخيوله تحت تصرفه ، لأن خيول الخان كانت فى حالة من الارهاق لا تستطيع معها مواصلة السفر ٠ وقام بتوديعه الى الحقول كعادته على الدوام مع أصدقائه ٠ وكانا يتحدثان فى أمور عادية ، عادية للغاية حتى انه لا يكاد يتذكرها ، ويستطيع تذكرها لو احتاج الأمر ، وان كان لا يرى اية أهمية لذلك ، ان صديقه لم يحدثه بشيء عن أى تقرير ٠ (ـ التقرير الجاسوسى ـ نطق بها المسلم على سبيل التوضيح) ٠ وها هو يدهش للغاية لأن الرجل لم يكن يشغل نفسه بشيء سوى التجارة ، ولم يكن يزج بنفسه فى أى عمل آخر ، حتى لقد كان يحث حسن أن يتجه بقوافله وتجارته الى دوبرفنيك بدلا من اتجاهه بها الى «سبليت» و «تريستا» ، اذا عاد ثانية الى الاشتغال بالتجارة ولم يذهب مع الدوبوفنيكيين الآخرين ، لأنه تسلم الرسالة المرسلة اليه من بيته بعد رحيلهم (ومن السهل التأكد من ذلك : فالرجل الذى حمل اليه الرسالة ، لا يزال في الخان) ، وقد جهز نفسه فى عجلة ، ولم يأخذ سوى الضرورى من الأشياء ٠

وعندما أطلعناه على التقرير ، أجرى بصره عليه ، ثم حرك رأسه مبديا دهشته اذا كان صديقه حقا قد كتب هذا ، فهو على الأقل لا يعرف ذلك ، اذ لم يحدث أن تراسلا من قبل ، كي يستطيع ان يدرك ان هذا خطه ، وذكر أن باستطاعته أن يدرك فكرته ، غير أنه لم يكن يراها هنا بالذات ٠ واذا ثبت أن كان هذا تقريره ، وبحسب القرائن يبدو أنه

كذلك ، فلا شـــك أن هذا الرجل يمتلك روحين ، وهذه التى ترى هنا لم يقم بالكشف لى عنها من قبل · لقد ضحك وهو يقرأ التقرير وقال انه يحس بجريرة الذنب لوقوعه ضحية الغفلة ، اذا كان فى الامكان أن يحدث الضرر من هذا · ولكن ، لحسن الحظ ، لم يكن ذلك من الممكن ، لأن كل ما كتب هنا ، يستطيع كل شخص ان يقوله عن أى بلد آخر ، وليس هناك بعد من يدهش لهذا · كما ذكر انه ليس من اختصاصه أن يقدم الينا شيئا من النصائح ، كما ان ذلك ليس من عادته · ولكنه يعتقد انه لا ينبغى النفخ فى النيران بغية توهجها ، ولا اخمادها اذا كانت قد خمدت بنفسها · لقد انزوت الفضيحة وتعذر على العار أن يطل برأسه · اذ الفضيحة لا تتمثل فى ذلك الذى يفعل ، وبالأخص فى ذلك الذى لا يفعل ، بل فيما يذاع وتتناقله ألسنة الناس · لقد انقضت السلطات ووضعت أيديها على النية فحسب · واذن لا توجد هناك اثارة لانفعالاتنا ، الا اذا كنا نريد ذلك · وهكذا ، يمكن لهذه الأمور أن تكون بمثابة درس لنا · واضاف أنه لا يوافق حقا على هذا العمل ، وانه ــ وان كان يرى منذ زمن بعيد أن الناس ليسوا ملائكة ــ لا يرغب أن يقـــذف صديقه بالشتائم ، اذ لو تم ذلك لبدا الأمر قبيحا ، وهو لا يرغب فى تبريره أيضا ، اذ لم يعد أحد فى حاجة الى ذلك بعد · انه يستطيع أن يتحدث عن نفسه فحسب ، وعلى الرغم من أنه ازاء هذا لم يعد يرى مذنبا فانه على استعداد لأن يقدم أسفه لنا وللوزير ، حيث قد زج باسمه فى ذلك الهراء الذى سبب لنا من الانزعاج والقلق أكثر مما يستحق ·

كنت أستمع فى اهتمام لما يقول · اننى اشك فى أنه لم يكن يعلم سبب هروب الدوبرفنيكى ، ولكنه كان يترك تأثيرا بأن قلبه نظيف ، ودون شك أنه كذلك ، اذ لم يكن تهمه الرسالة أو سمعة الوزير · وكان له رد مقنع هادىء بالنسبة لكل ما يوجه اليه ، ربما كنت أنا الوحيد الذى يشعر بنبرة سخريته فى كل كلمة يطلقها من فمه ، لأننى كنت أتابع فى اهتمام كل ما كان يتفوه به ، مسرورا بأنه يدفع الشكوك عن نفسه فى نجاح · وادركت للمرة الثانية ، كم يبلغ اهتمامى به ، وكم نالت منى مصيبته · لست على استعداد لأن اتركه فى سهولة كى يثار منه أحد ، ولكنى كنت أشعر بالاغتباط لأنه يدافع عن نفسه بنفسه · اننى أحب ذلك الذى هو عليه أكثر من حبى ذلك الذى أكون مضطرا الى القيام به ·

لم تكن تراودنى الهموم من أجل نفسى أمام الوزير : لقد كان فى حاجة الى ·

في يوم الجمعة ، بعد الصلاة ، أخبرني ملا يوسف بان دفتردار الوالي ينتظرني في المحكمة • اي شيطان جاء به الى هنا ، في هذا الجو السيىء !

عرجت على المسلم • وعلمت أنه منذ قليل قد ذهب الى البيت ، فقد المت به حرارة ما ، هكذا قالوا لي • وكنت أعرف لأية حرارة تكون هذه ، أنه ينقذ نفسه بها من جميع الصعوبات التي تصادفه ، ولكن الأمر لم يكن لي أيسر بمعرفتي ذلك •

استقبلني الدفتردار عند ذهابي اليه ببشاشة ولطف ، مبلغـــا اياي تحيات الوالي ، وقائلا انه يود أن ينهي على الفور ذلك الذي حضر من أجله ، كما يأمل ان عملنا لن يستمر طويلا ، فهو متعب من السفر ومن طول امتطائه صهوة الجواد • ويرغب أن يستحم في أسرع وقت ممكن ويخلد الى الراحة •

ـ أيكون الأمر عاجلا الى هذه الدرجة ؟

ـ يمكن أن يقال انه كذلك • ففي هذا اليوم يجب علي أن أبلغ الوالي ماذا أنجز من العمل •

وهكذا بلا مواربة ، نطق على الفور بكل شيء ، مشيرا بما أبداه في حديثه من نبر ، الى أن الرسالة قد أغضبت الوالي وأثارته • (ان هذا موجه الي ، لكن ينبهني الى صفة الجدية التي تشمل الأمر كله) ، كما أن غضبه قد شملني أيضا ، لأنني تركت الدوبرفنيكي يهرب ، وقد كان في استطاعتي ان احول دون ذلك • (هذه الكلمات قد تسربت اليه من هنا ، وها هي الآن تعود ثانية الى موطنها !) • لقد كتب الوالي الى مجلس الشيوخ في دوبرفنيك طالبا منه انزال العقوبة بالمذنب من أجل الأكاذيب والاهانات التي جلبها اليه ، مهينا بذلك البلد الذي يقوم بادارته مشمولا بعطف السلطان • واذا لم تلحق العقوبة المستحقة المذنب ، واذا لم يقوموا باخباره عن ذلك وتقديم الاعتذار الواجب للوالي ، فسوف يكون مضطرا الى قطع العلاقات التجارية وسائر العلاقات الأخرى مع دوبرفنيك ، اذ أن عدم حدوث ذلك يعني انتفاء وجود صداقة وطيدة بينهما ، وعدم تحقق الرغبة من جانبهم لاستمرار علاقات طيبة نافعة لنا ولهم ، وان كان نفعها لهم أكثر •

انه يعلن أسفه كذلك لأن قيامنا بواجب الضيافة ، ذلك الذى لا نتوانى عنه لكل من يحمل نية حسنة ، قد دفع فى مقابله قدرا من الأكاذيب الدنيئة تمسه شخصيا كما تمس أشراف القوم فى هذا المكان ، الأمرالذى يدل على أن قليلا من الحب وكثيرا من الكراهية يكمن فى قلب التاجر المذكور الذى كتب تلك الرسالة ۰ وكذا ، فانهم اذا تصرفوا كما يتطلبه الحق ويمليه الواجب ، واذا ظلت علاقاتنا كريمة طيبة ، الأمر الذى يتمناه من أعماق قلبه ، والذى يتمناه دون شك مجلسهم المـــوقر ، فليرسلوا الصديق الحقيقى ، صديقنا وصديقهم ، ومثله دون شك يوجد ، اذ ليست علاقاتنا وليدة الأمس ، وليرسلوا الرجـــل الشريف ، الذى سيحترم العادات وسلطة البلاد التى تفتح له أبوابها ، والذى لن يبصق على خبزنا وملحنا ولن يتصدق بصورة غير لائقة ليجلب العار الى جمهوريته التى قامت بارساله ، والذى لن يعقد الصداقات مع الشريرين الذين يوجـد امثالهم فى كل مكان ، كما يوجد عندنا ايضا ، والذين لا يريدون خـيرا لأنفسهم ولا للبلد الذى أنجبهم ، والذين اشترى خدماتهم التاجر المذكور بطريقته الدنيئة ، تلك الطريقة التى وقف عليها المجلس الموقر ۰

ـ انك تعلم دون شك من الذى يقصده الوزير ۰

ـ لا أعلم ۰

ـ تعلم ۰

انه ممتلىء ، ناعم البشرة ، تمثل قامته القصيرة مع امتلائه شكلا كرويا ، وعليه ثياب حريرية فضفاضة ۰ انه يشبه المرأة العجوز ، شأنه شأن أولئك الذين يلزمون صحبة الأكابر أعواما طوالا ۰

ـ ان الوالى يود أن يقبض عليه ۰

ـ لماذا يقبض عليه ؟ انه دفع التهمة عن نفسه ، ولا يعد مذنبا ۰

ـ ترى ذلك ، لقد أدركت عمن أتحدث ۰

نعم ، أدركت ، لقــــد عرفت كل شىء فور سماعى بحضورك ، وعرفت أنك ستطلب جلده ، ولكننى لن أعطيه ۰ اى شخص ســـواه أستطيع ان أتركه لكم ، أما هو فلا ۰

قلت للدفتردار ان رغبة جناب الوزير كانت دائما بالنسبة لى امرا الم اطعه فى كل ما طلب منى ؟ ولكننى الآن أرجو أن يتنازل عن رغبته

من أجل سمعته ، ومن أجل العدالة . ان الناس يحبون حسن ويقدرونه ، وسيتملكهم الغضب لو تم القبض عليه ، وخاصة بعد أن عرفوا أنه غير مذنب . واذا لم يكن الوزير قد وقف على تفاصيل الأمر فانني على استعداد لأن أذهب اليه لأوضح له كل شيء واطلب اليه استخدام الرحمة .

ـ لقد عرف كل شيء .

ـ لماذا اذن يطلب القبض ؟

ـ أليس الدوبرفنيكي مذنبا ؟ اذن يكون حسن مذنبا كذلك . وربما كان ذنبه أكبر ، فمن السهل توقع أن يكون الأجنبي عدوا للبلد وليس الأمر كذلك بالنسبة لمواطن يعيش بيننا . اذ أن ذلك مخالف للطبيعة .

كم وددت لو واتتني الجراة كي أقول : أيعد الوزير وهذا البلد شيئا واحدا ؟ ولكن عندما يتحدث الرجل مع الأقوياء يجب عليه أن يبتلع كل الأسباب المعقولة ، وأن يقبل طريقة تفكيرهم ، وهذا يعني أن يحكم مقدما بالهزيمة على نفسه .

وعبثا كنت أؤكد أن حسن ليس عدوا ، وأنه ليس مذنبا ، اذ لم يكن ثمت من الدفتردار غير التلويح بيده . وتحدث في النهاية ليذكر أننا وثقنا ثقة عمياء بقصته الكاذبة .

ـ ألم يكن يؤكد أن الدوبرفنيكي لم يستطع أن يحصل من الخان على الخيول التي يمكنها القيام بالسفر ؟ انهم في الحق لم يذهبوا الى الخان .

ـ من يقول ذلك ؟ المسلم ؟

ـ الأمر سواء . انه حق وقد تم التثبت . وليس الأمر يقتصر على هذا ، فهناك أكاذيب أخرى وردت في قصته . هل تحدثتم مع الرجل الذي حمل الى صديقه الدوبرفنيكي تلك الرسالة من بلدته ؟ لا . لم تتحدثوا . انه كان يكذب ، وهو مذنب ، ولذا يكون القبض عليه مبررا . وأما ما يرغبه الوالي من أن تقوموا أنتم بهذا الاجراء ، فذلك لئلا يقال انه يقوم بالظلم ، وهو ليس ظلما ، ولأنه لا يريد أن يتدخل فيما هو من اختصاصكم ، فكل شخص يجب أن يقوم بما هو في دائرة اختصاصه ، وبوحي من ضميره .

ـ باى ضمير ؟ فحسن أعز صديق ، وهو الصديق الوحيد ٠

ـ وفى هذا الخير كل الخير ٠ فسوف يرى الناس جميعا أن المسألة ليست مسألة ثار بل مسألة عدالة ٠

ـ ارجو من الوزير ومنك أن تعفيانى من هذا الأمر ٠ فاننى اذا وافقت لكنت قد اقدمت بذلك على فعل يتصف بالحمق ٠

ـ بل لأقدمت على فعل حكيم ٠ لأن الوزير يتســاءل كيف كان بامكانهم أن يصلوا الى معرفة كل شىء بهذه السرعة ٠

وها هو قد بدأ بيديه الضعيفتين يضيق الخناق حول عنقى ٠

ـ أتريد أن تقول ان الوزير يشك فى اخلاصى ٠

ـ اريد ان اقول ، كم من الأفضل الا يكون للقاضى أصدقاء ٠ الا يكون له على الاطلاق ٠ ولو صديق واحد ٠ لأن الناس يخطئون ٠

ـ ولكن اذا حدث أن كان له صديق ؟

ـ اذ ذاك يجب عليه أن يختار : اما الصديق ، واما العدالة ٠

ـ لن اريد أن أخطىء فى حق الصديق ولا فى حق العدالة ٠ انه ليس مذنبا ٠ لا يمكننى أن افعل ذلك ٠

ـ هذا شأنك ٠ ان الوزير لا يجبرك على شىء ٠ غير ٠٠٠

اننى كنت أعرف على التمام ما تريده بـ «غير» ـ لقد كانت «غير» هـذه تطوف حولى كطائر اســود ، وتقف فى كل اتجاه حولى كدائرة مغلقة من الأرماح مصوبة الى ٠ وكنت أعرف ذلك ، ولكنى كنت أقول فى حزم لنفسى : لن أترك لهم صديقى : وكان ذلك يمثل شجاعة لم تجلب لى شيئا من راحة النفس واطمئنان الضمير ٠ فقد أخذت الظلال من حولى تشتد قتامة ٠

قال الدفتردار ، وهو يفرك يديه طلبا للدفء :

ـ غير أنك قد تعرف كم من الناس لا يحبونك ، وكم من الشكايا أرسلت الى استانبول ، وكلها تطالب برأسك ٠ وأكبر عدد منها أحتفظ به الوزير عنده ٠ انه دفاعك ، ولو لم تكن حمايته لك لمزقتك كراهية الآخرين منذ زمن بعيد ٠ واذا كنت لا تعرف ذلك فأنت لا شك أحمق ،

وان كنت تعرفه فكيف يمكن أن تجحد المعروف الى هذه الدرجة ؟ ولماذا يحميك الوزير ؟ أمن أجل عينيك الجميلتين ؟ لا بل من أجل اعتقاده أنه باستطاعته أن يعتمد عليك · ولكن اذا تبين له عكس ذلك ، فلم يظـل مستمرا فى حمايتك ؟ فالسلطة ليست صداقة ، بل هى تحالف · وفى الحق انه لمن الغريب أن تكون فظا غليظا نحو الجميع ولينا حليما نحـو أعداء الوالى فحسب · ولكن الوالى يرى أصدقاء أعدائه أعداءه · واذا كان قد أسىء الى الوالى والى البلد ، وأنت لا تريد أن تدافع عنهما ، فهذا يعنى انك قد انتقلت الى صف آخر ·

قدم لى ورقة ما ، ونطق قائلا : اقرأ هذا ·

ودون استطاعة منى لأن اصل الحروف بعضها ببعض ، ودون فهم للمعنى او ادراك للفحوى ، قرأت الرسالة المرسلة من نائب ملا استانبول، التى يسأل فيها الوالى عن سر اصراره على الدفاع عن القاضى أحمـد نور الدين ، ذلك الذى قام باشعال ثورة السوق ، والذى جلب المـوت بسبب الكراهية الشخصية للقاضى السابق ، ذلك العالم الجليل والحكم الشريف ، وقد ثبت ذلك بما جاء فى شكوى أرملة القـاضى وتصريحات الشهود ، كما أن هناك شكاوى قدمها أشرف الناس ، الذين يشعرون بالمرارة من طغيان أحمد نور الدين ورغبته فى أن يمسك بيديه زمـام جميع السلطات · متجاوزا ما تمليه الشريعة وما تتطلبه الرغبة العليـا للامبراطور من ألا تكون السلطة التى وهبت من الله الى بادى شاه والتى يقوم باسنادها مجزأة الى موظفيه ، متمركزة فى اى مكان فى يد رجـل واحد ، لأن هذا يقود الى الظلم ويفضى الى الاجحاف · واذا لم يكن ما جاء بالشكوى حقا ، واذا كان الوالى يرى غير ذلك ، واذا كانت لديه اسباب أو مبررات ، فليخبره ، لكى يستطيع أن يهتدى الى تحديد موقفه ·

لقد هزمتنى الرسالة ·

كنت أعرف أن هناك حيلا تدبر وشكاوى تقدم ، ولكن هأنا لأول مرة أرى دليلا حقيقيا · وخيل الى أن سهما قد مرق على التمام بجانبى ، واحسست اذ ذاك بالخوف يعرونى ويستقر فى نفسى ·

ـ ما قولك ؟

ماذا كان لى أن أقول ؟ لزمت الصمت ولم يكن ذلك عن رغبـة فى العناد ·

ـ أتريد أن تكتب القرار ؟

اعنى يا الهى ، ليس باستطاعتى ان اكتب ولا أن ارفض · كان من الأفضل ان أموت ·

ـ اتريد ان تكتب ؟

أى شيء يكون هذا الذى يجبروننى عليه ؟ أن أحكم على الصديق ، على المخلوق الوحيد الذى أبقيته لحبى الذى يحس الجـــوع ولا يعرف الشبع ـ · وماذا أكون اذن ؟ حقير يخجل من حقارته ، مسكين لا يصارعه أحد في انفضاض الناس من حوله · ان كل ما هو انسانى فى داخلى كان يحافظ عليه · ساجهز عـلى نفسى لو قمت بتسليمى اياه · لا تجبروننى على ذلك ، انه أمر بالغ القسوة ·

قلت للرجل الفظ :

ـ لا تجبروننى على ذلك ، انه أمر بالغ القسوة ·

ـ لا تريد ان تكتب ؟

ـ لا اريد · ليس ذلك باستطاعتى ·

ـ كما تحب · انك قد قرأت الرسالة ·

ـ نعم · قرأتها ، واعلم ما ينتظرنى · ولكن أفهمنى أيها الرجـــل الطيب ! أيمكنك أن تطلب الى أن اقوم بقتل والدى أو أخى ؟ انه بالنسبة لى يعد اكثر من كليهما · بل يعـــــد لأكثر من نفسى · انه مرساتى التى اتشبث بها ، ولو لم يكن هذا الرجل لبدا لى العالم كهفا مظلمـــا · انه بالنسبة لى كل ما أمتلك ، ولن اتركه بحال · افعلوا بى ما تشاءون · لن أخونه ، اذ لا أريد ان أطفىء الشعاع الأخير الذى يضىء داخلى · ساضحى بنفسى ، ولكنى لن اتركه ·

كان الدفتردار يسخر بى قائلا :

ـ ان هذا الشىء جميل ، ولكنه ليس من الحكمة فى شىء ·

ـ لو كان لك صديق لعرفت أنه جميل وحكيم ·

غير أننى وا اسفاه لم أقل هذا ولا شيئا يشبهه · وكثيرا ما خطر ببالى فيما بعد كم كان شريفا لو اننى قلت شيئا كهذا ·

ولكن ما قد حدث على التمام ما هو العكس من هذا ٠

وانطلق الدفتردار يقول :

ـ أتريد أن تكتب القرار ؟

ـ أراني مضطرا ـ هكذا قلت ناظرا الى الرسالة أمامي ، ناظرا الى التهديد ٠

ـ لست مضطرا ٠ قرر وفق ما يمليه ضميرك ٠

دع الضمير بالله عليك آمنا ! سأقرر وفق ما يمليه الخوف ، وفق ما يتطلبه الفزع وسأرفع يدى عن نفسى أنا الذى عشت أحلم بالمبادىء والمثل ٠ سأكون ذلك الذى يتحتم على أن أكونه : قذارة ٠ وليصبهم الخزى من جراء هذه الفعلة ، لقد أجبرونى على أن أكون ذلك الذى كنت اشمئز منه وأتقزز ٠

ولكنى حتى فى ذلك ما كنت أفكر عندئذ ٠ كنت أحس بالضيق وكنت أشعر أن شيئا فظيعا قد بدأ يحدث ، شيئا عديم الانسانية الى درجة لا يمكن تصورها ٠ غير أن الخوف الذى دب فى كيانى دبيب الوسواس ، وهذا الخدير الوحشى لدم كان يخنقنى بشدة تدفقه وحرارته، قد طوحا بهذا الشعور وطرحا عليه غطاء يحجبه عن الأعين ٠ كانت تتملكنى رغبة فى أن أخرج ، لأملأ صدرى بالهواء ، لأتحرر من تلك الغشاوة السوداء ، رغم علمى أن كل شىء يجب أن يحل فورا ، وفى هذه اللحظة، واذ ذاك سوف أتخلص من كل شىء ٠ سوف أصعد الى الجبل ، الى أعلى قممه ، وسأبقى هناك وحيدا حتى المساء ٠ وسوف لا أفكر فى شىء ، بل سأتنفس ٠٠ وأتنفس ٠

تعجب الدفتردار وقال :

ـ ان يدك ترتعش ٠ أحزين أنت الى هذه الدرجة ؟

كنت أشعر بألم فى معدتى ، وكان يبدو لى أننى أوشك على التقيؤ

ـ اذا كنت حزينا الى هذه الدرجة فلم وقعت ؟

لقد أردت أن أرد بشىء على هذه السخرية ، ولكننى ما كنت أدرى بأى شىء يكون ردى ، ولذا لزمت الصمت ، ومطرق الرأس ، لفترة طويلة الى أن أدركت كيف أتصرف ، وعندئذ أخذت أرجو متلعثما :

ـ انني لا أستطيع البقاء هنا بعد • يجب على أن أذهب الى مكان ما ، الى اى مكان • غير أنه ينبغي ان يكون بعيدا •

ـ لماذا ؟

ـ من اجل الناس • من أجل كل شيء •

ـ اية تفاهة تكون أنت ! ـ هكذا قال الدفتردار في هدوء ، وفي احتقار عميق ، وان كنت لم اعرف ولم استطع أن افكر في سبب يعزى اليه أمر احتقاره • لم تجرحني كلمته ، ولم اشعر ازاءها بثورة ، بل كنت اردد هذه الكلمة القبيحة في نفسي ، كأنني احصيها بواسطةالمسبحة دون ان افهم معناها الحقيقي • ان الشيء الوحيد الذى كان يعيش في داخلي هو الشعور بانني معرض للخطر تمام التعرض ، كما لو كان المطاردون يحيطون بي من كل جانب• ان كل شيء حولي مغلق ، وليس هناك من مخرج • ولم يعد الامر سواء بالنسبة لي ، ان الخوف يتملكني •

ـ من سيذهب للقبض على حسن ؟

ـ « بيرى فويفودا » •

ـ فليذهب به الى القلعة •

خرجت الى الممر ، والتقيت بملا يوسف • لقد كان عائدا من مكان ما ومتوجها الى غرفته •

لحظة واحدة ، لحظة قصيرة • تسمرت عيناه عندما رآني ، وعلى الفور برق في خاطرى : انه كان يتسمع وانه على علم بما دار • واذا خرج فسوف يخبره • لقد أخبره من قبل بأمر الدوبرفنيكى ، وكيف الى الآن لم يخطر هذا ببالى !

ـ ابق هنا ولا تذهب الى اى مكان ، فسوف أكون في حاجة اليك

أطرق برأسه واتجه الى غرفته •

واخذت أنا والدفتردار ننتظر في صمت •

وكان الدفتردار يغفو جالسا على الاريكة ، وكلما سمع صوتا أو حفيفا تنبه ورفع جفنيه المتورمين في سرعة •

وعندما عاد « بيرى فويفودا » علمت أن كل شيء قد انتهى • ولم أجرؤ على سؤال الدفتردار عما ينوى فعله بحسن • اذ ليس لي حق بعد

ان اوجه مثل هذا السؤال · كما ليست لى قوة على بأن أكون منافقـــا الى هذا الحد ·

ها قد أصبحت وحيدا · أهناك من مكان أذهب اليه ؟

ثم اتنبه عندما دخل ملا يوسف غرفتي ، فخطواته متسحبة بطيئة كان واقفا بالقرب من الباب ينظر الى ، ولأول مرة كان يقف دون توتر امامي وذلك لأننا اصبحنا الآن متساويين · لم يبق لى سواه · كنت أكرهه ، اشمئز منه ، اخشاه ، وهأنا فى هذه اللحظة ارغب فى أن يقترب مني ، لنأخذ في الصمت معا · أو ليحـــدثني بشيء ، او احدثه أنا فى أمر ما ·· ارغب فى أن يضع على الأقل يديه على ركبتى ، أن ينظر الى على خلاف ما ينظر ، ان ينطق ولو بكلمة لوم · ولكن لا ، ليس له حق فى ذلك · وحتى عندما برقت في ذهنى هذه الفكرة ، وهى أن يقوم بلومي، برزت في نفسى المقاومة على الفور ، ولعلها كانت ثورة الغضب ، وشعرت كيف انه لم يكن بوسعى سوى أن أمثل كلمة وديعة طيبة ، أو لا اقبل شيئا لقد وصلت الى الحد الذى يمكنني عنده أن أصبح رجلا محطما ، أو وحشا كاسرا ·

ـ لقد قلت انك ستكون فى حاجة الى ·

ـ لست بعد ·

ـ أيمكنني الانصراف ؟

ـ أتعرف ماذا حدث ؟

ـ نعم اعرف ·

ـ لست مذنبا ، لقد أجبرونى بتهديدهم اياى ·

لزم الصمت ·

ـ لم يكن فى استطاعتى أن أفعل شيئا · لقد وجه سكين الى عنقى

ظل ملازما صمته ، وقد بدا كالدرع يصد كلماتى ، دون أن يسمح لى بأن اقترب ولو قليلا من نفسه ·

ـ لماذا تلزم الصمت ؟ أترغب أن تظهر بذلك مدى ادانتك لى ؟

انك لا تملك حقا لذلك · أنت بالذات لا تملك هذا الحق ·

ـ لو غادرت القصبة لكان خيرا يا شيخ أحمد ، فالأمر سيكون جد عسير · عندما يشيح الناس بوجوههم عنك · اننى أعلم ذلك حق العلم

لا ، كان يجب عليه الا يسمح لنفسه أن يتحدث معى هكذا • ان هذا يعد انكى من اللوم ، انه نصيحة فاترة تأتى بطريق المواربة ، انـه تهلل ينبىء بالشماتة • وعلى الرغم من ذلك • فقد كان قلبى المنقبض ينتظر اى شيء ، تعزية كان أو اثارة ، لكى يعود الى الحياة من جديد • ولعل الاثارة تكون أفضل ؛ اذ التعزية بامكانها أن تقضى بالتمام على مابقى لدى من قوة •

قلت وانا احس بالاختناق من تكرار كلمة كانت تؤلمنى :

ـ اية تفاهة تكون انت ! لقد ظننت حين تبين وقوفك على كل شيء ان الحديث بيننا سيسلك طريقة أخرى • انك لست على درجة كبيرة من الحكمة ، اذ لم تحسن اختيار اللحظة التى يمكنك أن تقوم فيها بواجب الثار • لا ، على اية حال لن يحتقرونى • سوف لا تحتقرنى انت كذلك ، وكن على ثقة من ذلك • لقداجبرونى على أن اضحى بالصديق ، فعلام احفل بعد بأن يكون منى مراعاة أو اعتبار لأى يكون !

ـ لن يكون الامر ايسر بسبب ما تظنه يا شيخ أحمد •

ـ ربما لن يكون • غير اننى أعلم انه لن يكون بالنسبة للآخرين أيضا • سوف اختزن فى ذاكرتى أنك أيضا قمت بدور فى نكبة حسن •

ـ اذا كان هجومك على يريح قلبك فلتواصل •

ـ لو لم يقم الدوبروفنيكى بالهرب لكان حسن يجلس الآن فى بيته فى ســـلام • الدوبرفنيـكى لم يكن يســتخبر الحصى حتى يكون على علم بما ينتظره فى الغد •

ـ لقد كان يعرف أن رسالته قد وقعت فى أيدى السلطات ، فهل كان بعد فى حاجة الى شيء آخر ؟

ـ هذا ما تعرفه أنت ؟

ـ اتسألنى أم تتهمنى ؟ يبدو لى أن الأمر مشقته اشد بالنسبة لأولئك الذين بقوا •

ـ انك لم تبق • بل أرغمت على البقاء • والآن تفضل اخرج !

وخرج دون أن يدير بصره الى •

عبثا تبدو جميع محاولاتي ، فالمصـــــائب تتوالى أشبه بأسراب اليمام ٠

وافرطت في النوم أنا والدفتردار حتى تجاوزنا وقت صلاةالفجر وكان ذلك بالنسبة للدفتردار بسبب سفره الطويل وانهائه عمله على خير وجه ٠ وبالنسبة لي بسبب ما كان ينتابني من الأرق بحيث لم أنم الا قبيل الفجر ، ولكنني كنت أول من وصل الى علمه النبأ الخطير ، وكان هذا هو ما ينبغي أن يكون ، فالنبأ أكثر تعلقا بي ٠ وحقا كان سماعي اياه من فم « بيرى فويفودا » ، اذ هو قبيح كمبلغه ٠

في البداية لم أكن أفهم شيئا مما يقوله لي ، فقد بدا الأمر خرافيا وغير متوقع ٠

وفيما بعد ظل كذلك ولكنني بدأت أفهمه ٠

قال الرجل البغيض :

ـ لقد نفذنا الأمر ٠ وقد انتاب أمير القلعة شيء من الدهشة ،ولكنني أفهمته أنه لا شأن له بهذا ، وما عليه الا أن يطيع مثلي أنا ٠

ـ اى أمر ؟

ـ أمرك ٠ بشأن حسن ٠

ـ عن أى شيء تتحدث ؟ عن ذلك الذى حدث في نهار الأمس ؟

ـ لا ٠ بل عن ذلك الذى حدث في ليله ؟

ـ ماذا حدث في الليل ؟

ـ لقد سلمنا حسن الى الحراس ٠

ـ أى حراس ؟

ـ لا أدرى ٠ حراس كي يذهبوا به الى تراوفنيك ٠

ـ أأعطى الدفتردار أمرا بذلك ؟

ـ لا ، بل أنت ٠

ـ انتظر قليلا ، أرجوك ٠ اذا كنت ثملا فعليك بقدر كاف من النوم ، واذا لم تكن ٠

ـ اننى لا أشرب الخمر اطلاقا يا قاضى افندى · لست ثملا وليست بى حاجة الى النوم ·

ـ يا ليتك تكون ، اذ بذلك يكون الامر افضل لك ولى · أحقا أنت على يقين من أن الامر قد صدر منى ؟ من جاء به اليك ؟

ـ كيف لا أكون على يقين من أنه منك · لقد كتب بخطك وختم بخاتمك ، وجاء به الى ملا يوسف ·

وعندئذ جلست ، اذ شعرت أن قدمى لم تعودا قادرتين على حملى ، واخذت أسمع قصة جميلة عن وقاحة الآخرين وعن مصيبتى ·

بعد منتصف الليل أيقظه ملا يوسف ، واظهر له أمرى الى أمير القلعة بان يقوم بتسليم حسن الى الحراس فى حضرة « بيرى فويفودا » اولئك الحراس الذين سيذهبون به الى تراوفنيك فى صحبة ملا يوسف· وقد نص فى الأمر على ألا تنزع القيود من يد حسن المذكور ، وأن يخرجوا به من القصبة قبل بزوغ الفجر · وانتظر الحراس على خيولهم أمام القلعة ، وذهبا هما ليوقظا أمير القلعة ثم سلماه أمرى · واخذ هذا يشمغم لعدم ابلاغه من قبل ، لكى لا يرسل السجين الى الزنزانات السفلى وازاء هذا عليهم جميعا أن ينتظروا ، وعليه أن يستعوض الله فى ليلته التى فقدها · انه لم يعد يعد يفرق بين ليل أو نهار ، وكرر له « بيرى فويفودا » ما ذكره منذ قليل ، من أن الجميع يلزمهم الطاعة ، واعلن ملا يوسف متذمرا أن هذا واجبنا وليس واجبه، ولكن ها قد أصبح من واجبه أن يفعل حتى ذلك الذى لا يوده ، لأن الأمر هام ، ولأن الوزير يرغب هذا ، اذ لا يريد أن يعرف احد شيئا فيما يتعلق بنقل حسن ، فالأهالى هنا حمقى ، وقد وضع هذا منذ وقت قريب ، وكذا من الخير ان تتم هذه العملية فى هدوء ودون أن يشعر احد · واضاف ايضا كيف أنه رجانى بأن يذهب « بيرى فويفودا » مع الحراس وحسن ، لانه لم يتعود الركوب ، اذ سوف تنال منه الجروح فى هذه الرحلة الى ترافنيك ولكننى قلت اننى لا أسمح لبيرى فويفودا بالذهاب نظرا لاحتياجى اليه ههنا ، اذ أننى بدونه أبدو فاقد اليد ، وعلى هذا كله قدم «بيرى فويفودا» لى شكره العظيم · (لا تقولوا أبدا انكم صادفتم أحمق رجل فى العالم ، فعلى الدوام يوجد من يكون أحمق منه !) · وعندما جاءوا بحسن ،وكان مقيدا ، طلب أن يحرروه من قيده ، وسأل الى أين يقودونه ، ملقبا

اياهم ببومات الليل ، وكان يعلن ثورته لأنهم أيقظوه من ألذ نومه ،وعندما اوضح له ملا يوسف في هدوء بأنهم يتصرفون وفق الاوامر فحسب ، ساله : متى سيبلغ الرشد ويتصرف وفق ما يمليه تفكيره لا ماتمليـــه الأوامر ، فقد حان الوقت لذلك ، ودون شك أنه قد بلغ سن الرشد ، أو لعله يرغب أن يكون خليفة « بيرى‌فويفودا » ، الامر الذى لا يوصى بـه أبدا ، لأنه لن يصل الى هذا الكمال « مطلقا ، وليس بوسعه سوى أن يكون « بيرى فويفودا » الصغير . ان هذا الاخير لم يفهم ذلك ، ولكنه يعتقد انه شيء مهين . ثم قدم ذلك أى حسن شكره لأمير القلعة على تلك الاقامة المريحة وعلى الهدوء التام الذى كان يحيطه ، لقد بلغت اقامته من الجمال مبلغا جعله يرى من واجب الشكر أن يتمنى لأمير القلعة مثلها . وقطع « بيرى فويفودا » هذه الثرثرة آمرا بالتحرك . واذ ذاك قال حسن:
ـ لك الحق ، فهناك أعمال لا حصر لها تنتظركم ، ومن الخسارة أن يضيع وقتكم سدى . وعندما رأى الحراس سالهم : ماذا يجب على يا أغـوات ويا أفندية أن افعل لكى أظل فى ذاكراكم الجميلة ؟ أأركب أم أركض رواءكم ؟ ـ لا تثرثر كثيرا ! ـ بهذا رد حارس من بينهم ضخم ، وبعـد أن أركبه على الحصان قيد رجليه بحبل . وعند تحركهم قال حسن بصوت عال : ـ بلغ تحياتى لصديقى القاضى .

ـ وذهبوا ركضا ؟

ـ كيف تعرف ؟

ـ لا فائدة الآن من كل ما أعرف . وأما أنت فيبـــدو أن الامر لم يتضح لديك بعد .

ـ ما الذى ينبغى أن يكون واضحا لى ؟

ـ أنهم هربوا وأنك ساعدتهم فى ذلك .

ـ لقد رأيت الامر الذى أصدرته .

ـ لم أصدر فى ذلك أمرا . لقد كتبه ملا يوسف .

ـ والحراس ؟ لقد بلغ بهم أنهم قيدوه .

ـ لعلهم فكوا قيده عند أول زقاق . ودون شك انهم خدامه .

ـ لا أدرى أخدامه هم أم ليسوا كذلك . وكل ما ادريه ان الخط خطك والخاتم خاتمك . ليست هذه أول مرة أتسلم فيها أمرا منك . اننى أعرف كل حرف من حروفك . وهذا مالا يتاح لغيرك أن يكتبه .

ـ اؤكد لك ايها الأحمق ، انني لم أكن أعرف شيئا من ذلك ،فكل شيء قد سمعته منك .

ـ آه ، ليس هذا بصدق . فكل شيء كنت تعلمه . انك دبرت ، وكذا كتبت ، وكان هذا من أجل الصديق . ولا ادري لأى شيء أهلكتني ؟ لماذا انا بالذات ؟ الم يكن في وسعك ان تجد أحدا غيري ؟ عشرون عاما أخدم في نزاهة وشرف ، والآن أصبحت قربانك . وهذا ملا يوسف سوف يؤكد ما قلته لك الآن .

ـ وحتى ملا يوسف لن يعود .

ـ هأنت ترى أنك تعرف !

وعبثا كان انكاري ، فقد استقر لديه أنني المذنب الوحيد .

دخل الدفتردار ، وهو يمسح وجهه المتلىء بمنديله الحريرى ،وقد بدت حمرته من شدة الانفعال ، ولكنه كان يتحدث في بطء وكما يبدو في هدوء .

ـ ماهذا ايها الدرويش ، أراك بدأت تعلن سخريتك ؟ وعلى كل حال ، لقد فعلت ما أردت ، وحل الآن دور الآخرين ليفعلوا ما يريدون . قل لى فقط ، علام اعتمدت ؟ أم أنك لا تبالى بشيء ؟

ـ انني لم افعل شيئا .لقد فوجئت مثلك تماما .

ـ وما يكون هذا ؟ انه أمرك وخاتمك .

ـ هذا ما أصدره كاتبى ملا يوسف .

ـ ما الذي تقوله ! ولماذا يفعل هذا كاتبك ؟ أكان هو من أقارب حسن ؟ أم صديق له كما تكون انت ؟

ـ لا ادرى .

وتدخل « بيرى فويفودا » قائلا :

ـ لم يكن صديقا له . انه رجل القاضى ، وكان يطيعه في كل شيء

ـ لست على درجة من الحكمة يا أحمدنورالدين .من ذا الذى اردت خداعه بهذه اللعبة الدنيئة ؟

ـ لو وقعت بنفسي لكنت حقا رجلا أحمق · ولو كنت قد فعلت هذا لما كنت الآن موجودا هنا · أليس هذا مفهوما لديك ؟

ـ لقد ظننت أننا حمقى واننا سوف نثق بقصتك الساذجة ·

ـ انني استطيع أن اقسم بالقرآن ·

ـ دون شك انك تستطيع · ولو فعلت لما ازداد الامر وضوحا · ان حسن صديقك ، صديقك الاوحد والأفضل ، فقد ذكرت بنفسك هذا وقد ظهر بالأمس الى أية درجة تهتم به · واما كاتبك فلم يكن لديه اى دافع شخصى لأن يقوم بما قام به · لم يكن منه سوى أن أطاع ، فهو رجلك المخلص لك والواثق بك · وحيث أنهالآخر قد هرب ، فباستطاعتك ان تلقى عليه التهمة بأكملها · بالله عليك ، لو جاء أمامك مثل هذا الحادث فبم يكون حكمك ؟

ـ لو عرفت الرجل مثل معرفتك اياى لو ثقت فى قوله :

ـ ياله من دليل قاطع !

واندفع « بيرى فويفودا » يقول :

ـ وأنا كذلك قلت له : انك كتبت كل شيء · من أجل الصديق ·
ورد الدفتردار بقوله :

ـ اسكت أنت ! لقد جعلوك مطية للوصول الى غرضهم ، وكان من الخير أن وجدوك ليجعلوا منك زهرة تتوج هذه المهزلة · كم سيكون فرح الوالى بذلك ·

وهكذا وجدت نفسي فى موقف غريب ، وكنت كلما أكثرت من التماس المبررات لنفسى قلت الثقة فى قصتى ، الى أن اصبحت غير مقتنعة حتى لنفسى · لقد قرن الناس اسمى بالصداقة والاخلاص ، وكان فريق يدينني من أجل ذلك ، وفريق يقابل ذلك بالاعتراف والتقدير · وكنت على استعداد لأن اقبل أحدهما وأرفض الآخر ، ولكن يبدو أن احدهما لا يمكن فصله عن الآخر · غير أننى قبلت ذلك الذى كان بامكانه أن يجلب السرور والرضا الى الانسان · وكاد الحافظ محمد أن يقبل يدى اعترافا وتقديرا ، كما أسمانى على خوجه الرجل الذى لا يخشى شيئا فى سبيل أن يظل رجلا ، وكان أهالى القصبة ينظرون الى نظرة التجلة والاحترام ، وكثيرا ممن لا أعرفهم كانوا يأتون بالهدايا ويتركونها عند

مصطفى ، ذاكرين أنها لى ، وقد أرسل على أغا والد حسن شكره الخاص بواسطة الحاج سنان الدين · لم أستطع أن أصد عنى هـذا الاعجاب الهادىء ، وبدأت آلف هذا التصرف ، واقبل فى صمت ميلهم الى وانعطافهم نحوى ، كجائزة لأعظم خيانة أراني قد ارتكبتها · أتكون الصداقة عند الناس الى هذه الدرجة من عدم الشك فيها ؟ أم ان الانفعال قد تملكهم لندرة حدوث ذلك الذى حدث ؟ لقد بدا كل شيء أشبه بمزاح ساخر : كثيرا ما قمت فى حياتى بما يعد صالحا ونافعا كى أنال احترام الناس ، ولكن هاهو العمل القبيح الذى فعلته ينيلنى اياه ، ذلك العمل الذى كان يراه الناس جميعا نبلا وكرما · لقد كنت أعرف أنه يجيء دون استحقاق، ولكنه مع ذلك كان يطيب لى ، واحيانا كنت أحس بضيق من جراء فكرة تطوف بخاطرى لتوحى الى بأنه من الواجب التصرف على هذا النحو الذى وقر فى أذهان الناس · ومع ذلك فاننى لو كنت هكذا قد تصرفت لما اختلف الأمر فى شيء لدى أحد سواى · وعلى كل فهذا الذى حدث يعد أفضل (ليس خيرا ولكنه أفضـل) ، فقد كان الناس يجلوننى كأننى فعلت ، ثم اننى واثق من أننى سأدفع التهمة عن نفسى ، اذ ان شيئا من ذلك لم أفعله · وعنـدما وصلت رسالة حسن وملا يوسف الى المفتى ، تلك الرسالة التى ارسلاها اليه من مكان ما على الحدود الغربية ، والتى كانا يبرئاننى فيها ، بذكرهما كل ما هو حق ، ثبت لدى الناس ماكانوا يعتقـدونه من أن اتفاقا قد تم بشأن الهرب (اذ لماذا يبرئاننى اذا كنت مخطئا فى حقهما) · اما أنا فقد اخذت هذه الرسالة بمثابة الدليل الذى أستطيع بواسطته أن اقنع الجميع ببراءتى · وكان الأمل يراودنى باننى أستطيع الآن أن أجد عددا كافيا من الشهود يقفون الى جانبى ، اذا وصل الأمر الى التحقيق ·

ولكن لم يحدث ان أجروا معى تحقيقا · وقد تم كل شيء بدونى ، وعلى الرغم من ذلك فثمة شيء أخير لا يمكن تنفيذه الا بحضورى ·

وقبيل المساء جاءنى قره زاعم ، وقد بدت عليه علائم الذعر ، وكان مجيئه لأمر يتعلق بنفسه أكثر مما يتعلق بى · ولعله لو لم يكن بحاجة الى أن ادفع له مكافأته الشهرية لما حضر ، وقد كانت عادته كلمـا حضر ليتقاضى مكافأته أن يحمل لى من الأخبار مايراه على درجة من الأهمية · وهذا الخبر الأخير الذى جاء يحمله قد رآه هاما كذلك ، وقد كان على حق فى هذه المرة ·

وطلب قبل أن يدلى الى بشىء أن تزاد قيمة المكافأة ، اذ كان عليه أن يدفع لخادم المفتى ، ذلك الذى أمده بالخبر .

ـ هل الأمر هام الى هذا الحد ؟

ـ أظن أنه كذلك . أعلمت أن خيال البريد قد وصل فى هذا الصباح قادما من استانبول ؟

ـ نعم علمت ، ولكنى لم أعلم لماذا .

ـ من أجلك .

ـ من أجلى ؟

ـ ألق اليمين على الا تخوننى . ضع يدك على القرآن . هكذا . سوف يلقون القبض عليك فى هذه الليلة .

ـ أجاء هو بأمر ما ؟

ـ يبدو أنه كذلك . أمر بالقتل .

ـ يعنى ، سيقومون بخنقى فى القلعة .

ـ يعنى ، سيفعلون ذلك .

ـ ماذا فى وسعى أن أفعل ، انه قدرى السىء .

ـ أيمكنك أن تهرب ؟

ـ الى أين أهرب ؟

ـ لا أدرى . وانما هكذا اقول . أليس لديك أحد يمكنه أن يساعدك ؟ كما قمت انت بمساعدة حسن .

ـ انا لم أساعد حسن .

ـ الأمر سواء بالنسبة لك الآن . انك قمت بذلك ، وليكن الأمر كذلك . نعم ساعدته ، ولا يكن منك هدم لخير بنيته .

ـ شكرا لك على حضورك ، فقد عرضت نفسك للخطر من أجلى .

ـ ماذا كان بوسعى غير ذلك ، ياعزيزى الشيخ أحمد ، فالفقر أجبرنى . ولتثق أننى حزين من أجلك .

ـ أنا لا أشك في ذلك ٠

ـ لقد ساعدتني كثيرا ، وكان أن عدت الى الحياة على يديك ٠ وكثيرا ماتذكرك أنا وزوجتي ٠ والآن سوف يزداد ذكرنا اياك ٠ اترغب أن يقبل احدنا الآخر يا شيخ احمد ؟ لقدكانت تجمعنا في زمن ما جبهات متعددة ، وخرجت أنا مرتقا وخرجت أنت دونما اصابة ، ولكن ها هو القدر يريد أن ترحل قبلي ٠

ـ اقترب لنتبادل القبلات يااقره زاعم ، واذكرني بالخير كلما سنحت لك الفرصة ٠

وذهب معروق العينين ، وبقيت في غرفة بدأ يهبط اليها الظلام ، مطعونا بالخبر الذي سمعته ٠

لا أستطيع أن أشك ، فمن المؤكد انه حق ٠ وعبثا كنت أحاول أن اخدع نفسي بآمال حمقاء ، فعلى خلاف ذلك لا يمكن الأمر ان يكون ٠ لقد أزال الوالي سده فاندفعت المياه الهادرة تحملني لتلقي بي في معترك الموج ٠

أخذت أكرر في ضعف : الموت ، النهاية ٠ ولم يكن باستطاعتي أن أفهم ذلك كما كنت افهمه من قبل ، في زنزانات القلعة ، عندما كنت انتظره في غير اكتراث ٠ والآن يبدو لي بعيدا ، غير متصور ، وان كنت قد وقفت على كل شيء ٠ الموت ، النهاية ٠ وفجأة ، كما لو كنت قد فتحت عيني على الظلام الذي أخذ يهددني ، تملكني الفزع من عدم الوجود ، من ذلك الفناء ٠ فهذا هو الموت ، هذه هي النهاية ! انه اللقاء الأخير بأفظع لحظات القدر ٠

لا ، أبدا ! اريد أن أعيش ! ومهما حدث أريد أن أعيش ، ليكن ذلك على قدم واحدة حتى توافيني منيتي ، على صخور راسية حتى يحين اجلي ٠ المهم أن أعيش ٠ ويجب أن أعيش ! ساحارب ، سأستخدم اسناني ، سأواصل الهرب حتى يسقط الجلد من باطن القدم ٠ سأجد احدا يساعدني ، ساوجه السكين الى عنقه كي يساعدني ، فانا قد ساعدت الآخرين ، وحتى اذا لم أقم بمساعدتهم ٠ سوف أهرب من النهاية ومن الموت ٠

وبعزم ثابت ، وبقوة يمنحها الخوف ، وبرغبة قوية في الحياة ، بالحركة ، وسيصادفني بزوغ الفجر في غابة ما عميقة ، في ناحية ما

توجهت الى باب الخروج • وقد وطنت نفسى على الهدوء كى لا يخوننى الاندفاع والنظر المذعور ، فعن قريب سيهبط الليل ، وسيخفينى الظلام ، وساكون أسرع من كلب سلوقى ، واشد من البومة فى عدم الاشعار بالحركة وسيصادفنى بزوغ الفجر في غابة ما عميقة ، فى ناحية مانائية•• نائية ، ولولا هذه الأنفاس المتلاحقة التى تصدر عالية كما لو كنت قد جريت وخلفى المطاردون وهذه الضربات الشديدة التى يحدثها قلبى لما خشيت شيئا ، اذ بامكانها ان تكون بمثابة الناقوس يكشفنى ويعلم الناس بأمرى •

ولكننى فجاة أصبحت منهارا • لقد تلاشى الانشراح ، وزايلنى الأمل • كما فارقتنى القوة كذلك • واصبح كل شىء عديم الجدوى •

وأمام المحكمة كان يقف « بيرى فويفورا » وفى الشارع كان يغدو ويروح ثلاثة من الحراس المسلحين • وأدركت أن هؤلاء كانوا من أجلى •

واتجهت أسير نحو التكية •

لم استدر لأنظر الى المحكمة ، اذ لعلنى أكون هنا للمرة الأخيرة ، ولكنها لم تكن بحيث يربطنى بها شىء • كما أننى لم ارد ، وحتى لو اردت لما استطعت ، أن أفكر فى شىء • لقد كنت أشعر بالفراغ فى داخلى ، كما لو كانت أحشائى قد انتزعت منى •

فى الزقاق ، وعند الجسر ، اقترب منى أحد الشبان ، وقال :

ــ عفوا ، لقد أردت أن أدخل المحكمة ، ولكنهم لم يسمحوا لى بالاتصال بك • اننى من قرية « ديفيتاك » •

وابتسم الشاب عندما قال ذلك ، وأوضح على الفور سبب ابتسامته قائلا :

ــ لاتغضب لابتسامى • اننى هكذا على الدوام ، وخاصة عندما أكون حائرا •

ــ اأنت فى حيرة ؟

ــ نعم • فساعة كاملة قضيتها فى تكرار ما اردت أن أقوله لك •

ــ وهل قلت ؟

ــ ها قد نسيت كل شىء •

وعاد يبتسم ثانية . لم يبد أنه فى حيرة على الاطلاق .

من ديفيتاك ! ان والدتى من هذه القرية . وشطرا من طفولتى قضيته فيها . كما أن جبالا واحدة تحيطنا ، ونهرا واحدا نلقى بأبصارنا على صفحته ، وعلى أشجار الحور تصطف على جانبيه .

أآتى بموطنى فى عينيه المبتسمتين لأراه للمرة الأخيرة قبيل النهاية؟

ماذا يريد ؟ افارق قريته كما فعلت انا من قبل ؟ أيبحث عن طرق للحياة أكثر اتساعا من تلك التى تنطوى عليها « ديفيتاك » ؟ أم أن القدر اراد بحضوره أن يمزح معى ، كى يذكرنى بكل شىء قبل ان أضع قدمى فى الطريق الكبير ؟ أم أنه علامة ، حافز يرسله الله الى فى هذه اللحظة .

لماذا يعلن الآن ، وفى هذه اللحظة بالذات ، هذا الشاب القروى عن نفسه ، هذا الذى أراه أقرب الى مما يظن ؟ أجاء ليخلفنى فى هذا العالم ؟

كان « بيرى فويفودا » والحراس يسيرون وراءنا . لقد حددوا طريقى وسيسمحون لى باجتياز واحد منها فحسب .

ـ أين نزلت للمبيت ؟

ـ لم أنزل فى مكان ما .

ـ أيكون هؤلاء خدامك ؟

ـ نعم . لا تلق بالا اليهم .

ـ من أى شىء يحرسونك ؟

ـ هكذا جرت العادة .

ـ أأنت أهم شخصية فى القصبة ؟

ـ لا .

ـ وعندما دخلنا جلس على البساط فى غرفتى ، وأخذ ضوء الشموع الخافت يتعثر فى تجاويف وجهه الذى برز عظامه ، وبدا ظله الضخم مرتسما وراءه على أرض الغرفة وجدارها ، وأخذت انظر كيف يمضغ فى شره طعام التكية المتواضع بفكيه الحديديين البارزين ، وربما لم يكن يدرى ماذا يأكل ، لأن فكره كان قد انصرف الى النتيجة التى سينتهى

اليها هذا اللقاء • غير أنه لم يكن قلقا ولا مترددا • واما أنا فقد كنت على العكس منه عندما حضرت آنذاك • انني أذكر طعامي الأول ، واذكر انني لم آكد ابتلع منه ثلاث لقيمات حتى احسست انني اكاد اختنق •

اننا مختلفان ، وعلى الرغم من ذلك فاننا شيء واحد • انه أنا ، أنا على صورة أخرى ، وبناء تختلف خاماته ، ابدأ الطريق الذى قطعته من جديد •

ولعلى لو بدأت من جديد لفعلت كل شيء فعلته ، وان كان العقل تغشيه بعض الظلم بتأثير الحزن مما وجدت من صعاب وعانيت من مشاق فى طريقى الطويل الذى قطعته •

ـ انك ترغب دون شك في أن تبقى في القصبة ؟

ـ كيف تعلم ؟

ـ ألا تخاف من المدينة ؟

ـ لم أخاف ؟

ـ ان الحياة هنا ليست يسيرة •

ـ أهى عندنا يسيرة ، يا أحمد أفندى ؟

ـ أتتوقع أن تصيب كثيرا ؟

ـ نصف من سعادتك يكفينى ، أيعد هذا كثيرا ؟

ـ أتمنى لك أكثر •

وأخذ يضحك فى انشراح •

ـ ليسمعك الله • وها قد بدأت تباشير الفرج ، فما كنت أتوقع ولو فى الحلم أنك ستستقبلنى هكذا •

ـ انها لحظة سعيدة تلك التى حضرت فيها •

ـ إنها سعيدة لى •

ربما • فلم يكون حظ الجميع واحدا ؟

كنت أنظر اليه فى اهتمام ، وربما فى جنون وانعطاف ، وكأننى أنظر الى نفسى فيما مضى ، أيام كنت صبيا غضا لم تصقله التجارب ولم

يعلق بقلبه غبار او تشب نفســه شـــائبة ، ولم يكن يخشى الحياة • وبصـــعوبة بالغة تمالكت نفسى كى لا اهم بالقبض على يده ، تلك التى اشتد عظامها وبدت صـــلابتها وثقتها ؛ واستعيد مغمض العينين صور الماضى وذكرياته • مرة فحسب ولو للحظة قصيرة •

راى الشاب حزنا يرتسم فى عينى ، لا يتعلق به • وسالنى وقد دفع عنه الحرج ماوجده من اعتمامى المفاجىء :

ـ انك تنظر الى نظرة غريبة ، كانك تحاول أن تتعرف على •

ـ لقد أعدت الى ذاكرتى شابا مثلك حضر الى القصـــبة منذ زمن بعيد •

ـ ماذا كان من أمره ؟

ـ لقد أدركته الشيخوخة •

ـ لتكن هذه مصيبته الوحيدة •

ـ هل انت متعب ؟

ـ لماذا تسال ؟

ـ أردت أن نتحدث •

ـ بامكاننا أن نقضى الليل فى الحديث اذا أردت •

ـ من أبوك ؟

ـ أمين بوشنياق •

ـ اذن نحن قريبان • وقريبان جدا •

ـ نعم نحن كذلك •

ـ ولم لم تقل ؟

ـ كنت أنتظر ان تسال •

ـ كم عمرك ؟

ـ عشرون •

ـ انك لم تبلغ بعد التاسعة عشرة •

ـ انني أمر بها ٠

كانت شدة الانفصـــال تخنقني ٠ واخذنا نتحدث ، وكان حديثنا يتناوله ، كما يتناول الشيخ العجوز والناس الذين كنت أعرفهم ، متهربين من ذلك الأمر الوحيد الذى يعنيني ٠ وكنا نقوم بذلك لا لرغبة منى فى التعرف على اخبارهم ، وانما لمجرد الحديث ، لمجـرد ان امس كل شيء مادام أمر غريب قد حدث ٠ فقد تطوع القدر أن يرســله الى فى هــذه الليلة بعينها ، لمجرد ان أشغل نفسي بالتفكير عن ذلك الذى كان حقيقة واقعة ذات مرة ، ثم أصبح الآن خيالات واشباحا ٠ لقد كان هــذا كل ما أملك ٠ وبقى ما يخص الآخرين ٠ وبقى الفزع ٠

ـ كيف حال والدى ووالدتى ٠

ـ يمكن القول انهما بخير ٠ كان من الممكن ان يكون الحال اسوأ بالنسبة لهما ٠ لقد اثر فيهما مقتل هارون تاثيرا كبيرا ٠ كمــا اثر فينا جميعا كذلك ٠ والآن قد هدات نفساهما بعض الشيء ، ولكنهما لا يزالان حزينين ، يقومان بمباشرة أعمالهـما الضرورية ، ثم يجلسان حول النار ويحدقان فيها ٠ انه الحزن ٠

وضحك ٠ وكان لضحكه رنين سار ٠

ـ عفوا ٠ يعتريني الضـحك حتى عندما أكون حزينا ٠ وهـكذا يعيشان ٠ ويقوم الناس بمساعدتهما على قدر اسـتطاعتهم ٠ ولا تزال لديهما بقية مما ارسلته اليهما ٠

ـ ماذا أرسلت ؟

ـ النقود ٠ الخمسين ريالا ٠ ان هذا المبلغ يعد عندنا ثروة حقيقية ثم انهما لايحتاجان الى الكثير ، فهما يأكلان مقدار ماتأكل الطيور ، ويرتقان ما يملكانه من ثياب ، واذن فحالتهما ليست ضنكا ٠

من الذى أرسل هذه الريالات الخمسين ؟ انه حسين دون شك ٠ ان هذه الليلة زودت بحنان لست فى حاجة اليه ، انها ليلة الأخبار السارة ، تسبق أسـوأ ليلة ٠ منذ زمن بعيد لم تزرنى ، وسـوف لا أحظى بعد بزيارتها ٠

لماذا لا اقوى على السير معه الى النهاية ؟ فبعد هذه الفرصة لن يكون هناك حنان ٠ سوف يكون ذلك الذى يجب أن يكون ٠

ـ والداك ، كيف حالهما ؟ كيف حال امين ؟

ـ انهما بصحة جيدة والحمد لله ٠ ولكن المعيشة جد متواضعة : فالزروع اما تذهب ضحية الفيضان ، واما تهلك بتأثير الحرارة ٠ غير أن لوالدى سجية حسنة تحملنا على التقبل وتخفف علينا من وقع الأمور ٠ وكثيرا ما يقول ان ضيق ذات يده تشكل احدى مصائبه ولو حزن لكان بذلك قد اتى بالثانية ٠ وبهذا تصبح الأولى أقل واصغر ٠

ـ ووالدتك ! أتعرف أنك رحلت تقصدنى ؟

ـ نعم ٠ كيف يمكن الا تعرف ! لقد كان والدى يقول ! ان لديه ما يكفيه من الأعباء والهموم ٠ وكانت هى تقول : انه على أية حال لن يكسر رأسه ٠

ـ أأدركتها الشيخوخة ؟

ـ لا ٠

ـ لقد كانت رائعة الجمال ٠

ـ أما زلت تذكر ؟

ـ مازلت ٠

ـ والآن لا تزال كما كانت ٠

ـ كان ذلك عندما عدت من الجيش ٠ عشرون سنة قد مرت منذ ذلك التاريخ ٠

ـ لقد كنت جريحا ٠

ـ من أخبرك بهذا ؟

ـ والدتى ٠

نعم ، اتذكر ذلك ٠ فى ليلتى هذه ، اتذكر كل شىء ٠ كنت قد اتممت العشرين او جاوزتها بقليل ، وكنت عائدا من الحرب ، من الأسر، وبجسمى جروح حديثة العهد ، قد التأمت لتوها ، واخرى لم تندمل بعد ، فخورا بشجاعتى ، وحزينا من اجل أمر بقى لى غامضا بعد أن حدث كل شىء ٠ ربما كان ذلك من أجل الذكرى التى كنت استعيدها مرات اثر مرات ، من أجل قداسة التضحية التى ارتفعت بنا الى السماء فأصبح

من الصعب على الانسان بعد أن يرى سائرا يضرب مع الناس فى الأرض، شاعرا بالفراغ ، مدركا عدم تميزه ٠

مازلت أذكر ذلك اليوم الفريد ٠

وحتى في الحلم رأيت تلك الصورة ٠٠ كان عددنا خمسين حين عزمنا في صباح باكر ، وقد أدركنا أننا محاصرون بالعدو وأنه لا نجاة لنا ، ان نموت موت الشهداء ٠ وكنا نعسكر في مرج وسط الأحراش ، يعلو سهلا واسعا حصدت بمجيء الخريف زروعه ، وعقدت فوقه سحب من دخان نيران العدو ٠ وقد استمع الزملاء الى نصيحتي وكنت واثقا من أنهم يعتقدون مثلما أعتقد ، وقمنا بالتيمم لعدم وجود المياه ، ثم أذنت ، دون أن أخفض صوتي ، وأدينا صلاة الصبح ، ثم خلعنا ملابسنا من أجل التخفف وبقينا في قمصاننا البيضاء ، وبسيوف عارية خرجنا من الغابة فور أن ألقت الشمس باشعتها على السهل ٠ لا أدرى كيف كنا نبدو ، تعساء أم أشداء ، ولم أفكر في ذلك ، كنت أشعر فقط بالحرارة في قلبي وبالقوة في جسدى ، انها حرارة لم تكن تعرف الحدود ٠ وفيما بعد خيل الى أنني رأيت هذه السلسلة من الأبطال الشبان ، في قمصانهم البيضاء ، وأذرعهم العارية ، وسيوفهم التي كانت تنعكس عليها أشعة الشمس المبكرة ، تخطو مصطفة الحلقات في السهل ٠ وكانت هذه أصفى اللحظات في حياتي ، وأعظمها انكارا للذات ، انها نور باهر يغشاني ، انها سكون مقدس لا يسمع فيه سوى وقع خطوتي ، وعلى بعد أميال ٠ وقد استغرب قره زاعم عندما قلت له ذلك ، اذ كان يظن أنه الوحيد الذي يعرف ماذا يخامر عقل المحارب ٠ (انني الآن لاأنشد شيئا قدر ما أنشد أن يتملكني ذلك الشعور ؛ ولكن ذلك أمر لا يمكن تكرره ٠ لقد كانوا يخافون منا ، وأخذوا يتقهرون أمامنا لفترة طويلة ، ويتربصون لنا كذلك ، وكان عددهم يفوق عددنا ، ثم بدأت تنهال ضربات دموية بيننا ، ولول من أجلها عدد كبير من أمهاتنا وأمهاتهم ، لقد كنت أول المتقدمين وأول من سقط ، جريحا ، مطعونا ، محطما ، ولكن ذلك لم يحدث فور بدء المعركة، ولا بعد نشوبها بقليل ٠ فقد ظللت أشهر أمامي سيفا ملطخا بالدماء ، أطعن به وأضرب كل من ليس على بدنه قميص أبيض٠وبتتالى القتال أخذ عدد القمصان البيضاء يتناقص ، اذ كانت تصطبغ بالحمرة كما اصطبغ قميصي ٠ وبدت السماء فوقنا أشبه بملاءة حمراء ، والأرض تحتنا أشبه بجرن أحمر ٠ وكانت الحمرة تكتنفنا ، ففيها ننظر ، ومنها نأخذ أنفاسنا، وفى وسطها نطلق الصرخات ٠ وفجأة أخذ كل شيء يضرب الى السواد ،

الى الهـــدوء · وعندما استيقظت لم يكن ثمة شيء يوجد ســوى ذكرى في داخلي · كنت أغمض عيني واحكي تلك اللحظة الكبرى ، دون رغبة مني في ان أعلم شيئا عن أمر الهزيمة ، أمر الجروح ، أمر مذبحة النخبة من الشباب ، ودون رغبة في ان أعلم أن عشرة منهم استسلموا بلا قتال ، كنت أرفض ذلك الذي كان ، ذلك الذي يبدو سيئا ، واحتضن في حرص وشغف تلك الصورة من التضحية الكبرى ، عندما اشتد القتال وبلغت المعركة ذروتها ، دون ان اسمح بأن تخف حدة لونها · وفيما بعد ، عندما تلاشى خداعي ، اخذت في البكاء · كنا في الربيع حين اخذت أسير في طرق موحلة ، عائدا من الأسر ، دون سيف ودون قوة ، وقد زايلني الانشراح وفارقتني نفسي السابقة · كنت أحافظ على ذكراي فقط وكأنها تميمتي ، ولكنها هي الأخرى كانت قد ضعفت بدورها ، وفقدت لونها ونضارتها ، وكذا حيويتها وأهميتها السابقة ، كنت أجر نفسي وقد لزمت الصـمت مجتازا وحل السهول المكفهرة العابسة ؛ وكنت اذا ما جن الليل أبيت صامتا في أكوام الحشائش اليابسة أو في احدى الحانات ، ثم أواصل السير يلازمني الصمت وتهطل على أمطار الربيع ، جاعلا اتجاهي بحسب ما يمليه على الظن كما يفعل الوحش ، مدفوعا برغبة تسيطر على في ان أموت في موطني ، وبين أولئك الذين منحوني الحياة ·

حكيت للشاب ، بكلمات بســيطة عادية ، كيف كان حالي حينما وصلت الى القرية في ذلك الربيع قبل عشرين سنة · ولم يكن لما حكيته من سبب ، وانما كان من أجل نفسي ، كما لو كنت احكي لنفسي ، اذ لم يكن الأمر يتعلق به · غير أنه لو لم يكن موجودا لما كان باستطاعتي أن أحكي ، اذ كان في امكاني ان أحـكي لنفسي · كـمـا ان فكري كان مشغولا بما سيحدث في غدي ·

كان يحدق الى وعلى وجهه علائم الجد وامارات الدهشة ·

ـ ولو كنت سالم الجسم منشرح الصدر لما عدت الى الموطن ؟

ـ عندما تخيب آمال المرء يبحث عن الملجأ · ويرى ســعيه اليه بمثابة العودة الى بطن امه ·

ـ وبعد ذلك ؟

ـ بعد ذلك ينسى · ويدفعه القلق للتحرك من جديد · وتلح عليه الرغبة في أن يكون ما لم يكن او كان · ويترك رزقه الذى قدر له لينشد رزقا آخر يفوقه ·

ـ انه اذن تعيس ، باعتقاده أن رزقه دائمـا يكون فى مكان آخر ، ليس هو فيه ٠

ـ ربما ٠

ـ ولكنني لم افهم ما قصدته بذكرك النور والسنا فى جبهة القتال ، ولم تعد ظهورهما أصفى لحظة فى حياتك ؟

ـ لأن المرء اذ ذاك ينسى نفسه ٠

ـ وماذا يفيد من ذلك ؟ وماذا يفيد الآخرون أيضا ؟

ان هذا الشاب لن يعرف شيئا عن حماسنا ، ولا أدرى أيكون خيرا له أم شرا ٠

ـ وماذا كان بعد ذلك ؟

ـ ألم تحك لك والدتك ؟

ـ انها تقول انك كنت حزينا ٠

نعم ، لقد كنت حزينا ، وكانت هى تعلم ذلك ٠ تعلمـه قبل ان تراني حين رجعت ٠ لقد شاع بين الناس أنني قتلت فى الحرب ، وكنت اشعر فى نفسى بأنني هكذا ، واحس كمـا لو كنت قد رجعت من عالم الموتى ، أو لعلني كنت اشعر باسوأ من ذلك ، كما لو كان طائر المـوت يحلق فوقي ، وكان شعوري هذا بدافع من الفراغ ، من خدر أحسه يسرى فى كياني ، من الكآبة ، من الظلام ، من الخوف لعدم معرفتي ماذا كان حدث ، فقد كنت فى مكان ما ، يؤلمني لمعان ضوء الشمس وانعكاسـاته الحمراء ، اذ كانا يتأججان فى الظلام أشبه بما يراه الانسان فى حالة المرض ، لقد تهدم شيء هناك حيث كنت ، كما تهدم هنا حيث كان يجب أن أكون ، واخذ ينهال كما تنهال رمال الشاطيء عندطغيان الماء ، ولا أدرى كيف استطعت ان أصل سابحا الى الشـاطيء ، ولماذا كان مني ذلك ٠

كانت والدتي تخمـــد الجذوات وتقوم بعمل التعويذات ، ملقية الرصاص الساخن وبعض الجمرات فى طاس مليء ماء ووضع فوق رأسى ، لانني كنت الزم الصمت فى اليقظة وأصرخ فى أثناء النوم ٠ وكان افراد اسرتي يذهبون الى شيوخ السحر كى يكتبوا لى بعضا من التمائم تبطل ما أكون قد صادفته من شر السـحر ، كما كانوا يذهبون بى الى المسجد ويقومون بتلاوة الأدعية ، ويظلون يطلبون علاجا لى من الله ومن الناس ،

وكان خوفهم يزداد بموافقتي اياهم على ما يريدون ، وبعدم مبالاتي بما يقومون :

ـ أذكرت لك والدتك شيئا آخر ؟

ـ نعم · ذكرت لي أن حبا كان يجمع بينكما · أما والدي فهو يضحك دائما عندما نأخذ في الحديث عن ذلك · ويقول انكما ـ أنت وهو ـ سعيدان · هو ، بما شاع بين الناس من أنك قتلت ؛ وأنت بما بقيت على قيد الحياة · ولو لم تكن قد سمعت بموتك لما وافقت على أن تكون زوجا له · وهكذا ظللتم على قيد الحياة ، وأصبحتم ثلاثتكم سعداء ·

انه يعلم كثيرا ، ولكنه لا يعلم كل شيء · لقد كانت تنتظرني حتى بعد أن سمعت بموتي ، ولوكان الأمر بيدها لظل انتظارها الى مدى يعلمه الله · انها لم تتزوج بل زوجوها بارادتهم · وحدث ذلك قبيل بضعة أيام من عودتي · لو كنت قد خففت من النوم ، ولوكنت قد وصلت الليل بالنهار في السفر ، ولو كان نيلي من التعب أقل ، ولو كانت السهول أقصر مدى ، والجبال التي كان علي عبورها أقل ارتفاعا ، لوصلت في الوقت المناسب ولما تزوجت هي بامين ، ولعلني لم أكن قد غادرت القرية ، ولما كان قد حدث شيء من هذا الذي يؤلمني ، لا موت هارون ، ولا هذه ليلتي الأخيرة · ومن يدرى فلعلها كانت ؛ اذ لابد أن تكون واحدة منها أخيرة ، كما لابد أن يكون هناك ما يسبب الألم ، وعلى الدوام ·

ويبدو أنه يريد أن يعلم فوق ما يعلمه ·

ـ أكان الأمر صعبا بالنسبة لك عندما تزوجت والدتي ؟

ـ نعم · كان صعبا ·

ـ ولذا كنت حزينا ؟

ـ كان حزني من أجل ذلك ، ومن أجل الجروح ، ومن أجل ما كنت أحسه من الارهاق ، ومن أجل الزملاء الذين قتلوا ·

ـ وماذا حدث بعد ذلك ؟

ـ لا شيء · فكافة الأمور تنسى وتصبح كأن لم تكن ·

ماذا ينتظر مني أن أقول ؟ انني لم أنس وان شيئا لا يزال يوجد ؟ أم انني لم أكن أبالي بالأمر ؟ ان تطلعه الى بهذه الصورة ينبىء عن

اهتمامه وتلهفه ، ولابد أن شيئا فى نفسه لم يتم اشباعه بعد • فضحكه متصنع ، كما لو كان يريد أن يخفى أمرا يساوره • آكان ذلك غيرة الابن على طهارة الأم ، تلك الطهارة التى لا يرغب أن يشك فيها ؟ ولكن شيئا كان يثيره ويحركه •

ـ يبدو أنك تحب والدتك كثيرا ؟

ـ وكيف لا احبها •

ـ الك اخوة واخوات ؟

ـ لا •

ـ أكنتم تتحدثون كثيرا عنى ؟

ـ نعم • انا ووالدتى • اما والدى فكان يسمع ويضحك •

ـ من أرسلك الى ؟

ـ هى • ووالدى وافق •

ـ ماذا قالت لك ؟

ـ قالت لى اذا لم يقم أحمد افندى بمساعدتك فلن تجد من يساعدك •

ـ لقد وافق والدك وأنت ؟

ـ وافقت كذلك • وهأنا قد جئت •

ـ ولكنك تحس بحرج لمجيئك •

علاه الاحمرار ، واشتد وهج خديه اللذين لفحتهما حرارة الشمس، وقال مقهقها :

كنت أتعجب لماذا تقوم أنت بالذات بمساعدتى •

ـ لأننا ذووقربى •

ـ وهما يقولان أيضا مثل قولك •

ـ لقد قلت لأمين : عندما يكبر ابنك أرسله الى • وسوف اهتم به• ولعل ظروفى تمكننى من ذلك •

وكان ان كذبت كي أهدئه ·

ويبدو انه أشد حساسية مما كنت أظن · فقد وجد من غير اللائق أن يرجواني أنا بالذات ، وبدا له ذلك أمرا عجيبا ·

أما أنا فما كنت أراه عجيبا · وهأنا قد عرفت الآن ، بعد أن انتهى كل شيء · انها لم تنسني · ولا أدري أكان يطيب لي ذلك ، لما كان من تلك الصورة المحزنة التي انتهى اليها الأمر · انها كانت تذكرني كثيرا ، وهذا يعني أن فكرها كان مشغولا بي · وهاهي تأتمنني على ابنها الوحيد ثقة منها بأنني سأساعده ، لكي لا يبقى من فقراء الريف · انها تحبه دون شك ، وتحبه الى درجة جعلتها توافق على الفراق كي تفصله عن وحل القرية وعدم ضمان العيش فيها · وربما كنت السبب الذي من أجله يرسل الناس أولادهم الى القصبة ، فقد كانت أخباري السارة التي تصل الى مسامعهم تغريهم بذلك ·

سوف تندمين أيتها المرأة الجميلة عندما تسمعين ·

لا أدري كيف تبدو الآن ، انني أذكرها بجمالها · وكذلك بعلائم عذابها التي ارتسمت على وجهها · ذلك الذي لم أر مثله قط فيما بعد ، والذي لم استطع نسيانه لفترة طويلة ، اذ أنني كنت سببا لهذا العذاب· من أجل هذه المرأة ، هذه الوحيدة التي أحببتها في حياتي ، لم أتزوج · من أجل تلك التي فقدتها ، من أجل تلك التي اغتصبت مني أصبحت أشد صلابة وأكثر عزوفا عن المشاركة بالنسبة للجميع : لقد كنت أشعر أنني سلبت ، ولم أكن أريد ان أمنح الآخرين ذلك الذي لم أستطع أن أمنحه اياها · ربما كنت أثار من نفسي ، ومن الناس ، عن غير قصد ، ودون معرفة مني · لقد كانت تثير في الألم وهي بعيدة · ثم حدث أن أن نسيتها حقا ، ولكن ذلك كان متأخرا من الخسارة انني لم أمنح حناني واختزنته ، لم أمنح أحدا اياه ، لا أبوي ، ولا أخي ، ولا امرأة أخرى · ولعلني أقول ذلك الآن دون ماسبب ، وقد أخذت أحاسب نفسي· لانني تركتها أيضا وذهبت الى الحرب ، دون حزن مني ، غير أنني حزنت عندما لم يعد في امكاني أن أغير شيئا ·

وفي اليوم الثالث بعد عودتي · وبعد أن ارهقتني عنايتها وهمومها من أجلي ، غادرت البيت ذات صباح ، وفجأة وجدتني على هضبة تطل على قريتي ، على الغابة ، على النهر ، وفي قفر تكثر فيه الصخور ويحلق فوقه النسور لمست بكفي شاهدا صخريا كبيرا يقف منفردا بين قفر

السماء والأرض · وقدظل ساكنا كحاله على مر العصور ، لم يكشف لأحد عن شيء ، وكنت انصت لأسمع صوت الحجر ، أو القبر ، كما كان بباطن الأرض يكمن سر الحياة والموت ، ثم اذهب لأجلس على حافة الهاوية ، مطلا على غابات وصخور لانهاية لها ، ومستمعا الى صفير يشبه صفير الأفعى ترسله الرياح العالية ، بقفرين قفر وحدتي وقفر عدم وجودي ، كما هو الحال مع الميت القديم الذى يرقد تحت الصخرة المنبسطة : ـ يا ! ـ كنت اناديه ، ذلك البعيد ، صائحا باعلى صوتي في فراغ الزمن ، وكان صوتي يتهادى عبر الأحجار المدببة · صوت لا يشركه غيره ، ورياح تفردت في هذا المكان ·

ونزلت بعدئذ الى الغابة ، واخذت اسير حيث كنت أضرب بجبهتي فروع الأشجار ، واحطم ركبتي بما تشابك واعوج من الجذور ، واتوقف بين تلك الأذرع الممتدة للشجيرات ، واعانق اشجار الزان ، واضحك ، واقع واضحك ، ثم أقوم واضحك · ـ يا ! ـ كنت انادي ذلك البعيد المنفرد ، الذى اراد وهو مسجون في قبره ان يكون في الأعالي · ـ يا !ـ كنت أصيح واضحك وانا اولى هاربا ·

تفاديت المرور في قريتها ، كي لا أراها ، وانحدرت الى النهر ، حيث لا توجد عزلة ولا يتسنى انفراد ، حاملا عزلتي في ذلك المرتفع وآتيا بها من البعد الى هذا المكان ، واخذت اغدو وأروح على الشاطىء المعبد للنهر ،وأنزل الى المنطقة التي يضمحل فيها الماء ، ثم اصعد واكرر ذلك ، كانني نمل ، وقد اغرتني قرقرة المياه في مجراها السريع ، واحيانا كنت اقف والماء يغمرني الى ركبتي واتصور انني آخذ في الغرق ، اغوص واغوص ، وأصل الى الدوامة ، ويزداد غوصي حتي يرتفع الماء الى ذقني ، الى شفتي ، ويصل الى قمة رأسي ، وأحس بخرير المياه فوقي ، وبالهدوء الأخضر حولي ، وبالحشائش المتمايلة تلتف حول قدمي ، وأنا اتمايل كذلك تمايل السنبلة على عودها ، وبالأسماك الصغيرة تدخل في فمي وتخرج من أذني · وبسرطان النهر يتشبث باصابع قدمي ، وبسمك بطيء كبير يحتك بفخذي في تراخ وكسل · صمت وسكون ، ولم اكن ابالي · ـ يا ! ـ كنت أصيح بلا صوت ، ثم أجلس في غابة الشجيرات بين نهر وطريق ، بين حياة وموت ·

لا أحد يوجد ، ولا أحد يمر بهذا الوادى الصغير بين القريتين ، فالناس فى حقولهم وحول بيوتهم ، وأنا وحدى يطيب لى الم عزلتى ، احس بالحزن من أجلها ، ولكنى لست على استعداد لأن ارضى بها بديلا ٠

وعلى أشجار الحور يحط اليمام ، وفى ضحل النهر يستحم الحمام ، ناثرا بأجنحته المنشورة قطرات من حوله تبدو خضراء وحمراء ، وعلى البعد ، فى مكان ما يقرع ناقوس متثاقل ٠ منطقة معروفة ، ألوان مألوفة، رنات عرفتها الأذن ؛ أنظر حولى : هاهى أشيائى ، أشم : هاهى رائحة هوائى ، وأصيخ السمع : ها هو ما أسمعه فى أرضى وسمائى ٠

غير أن هذا الفراغ أعده أيضا فراغى وكذا ما قد عدمت وجوده ٠

لقد كنت تواقا لأن أجىء هنا ، كنت أشم الرياح ، كما يفعل الذئب ، وكانت رغبتى تهدينى الطريق ، وهأنا الآن هنا ، ولم يحدث العجب الذى كنت آمل حدوثه ، وعلى الرغم من ذلك فالأمر حسن ، وجميل ، وهادىء ،هادىء كما هو الشأن فى الحلم ، أو كما هو الحال فى النقاهة ٠

ها أنا أمد راحتى والمس العشب الغض الذى انبثق لتوه من الأرض، والبض الذى يحكى بشرة الطفل ، وأنسى الأرض التى دبت فيها الحياة ٠

كنت افكر فى موطنى ، وفى بيتى الذى ولدت فيه ، وأنا أغذ السير كى أصل الى هذا المكان ، كما كنت افكر فيها فى بعض الأحيان ٠

أما الآن فاننى افكر فيها فحسب ٠

لو انتظرتنى لكان أفضل ـ بهذا كنت أهمس فى نفسى ـ ولكان أيسر ٠ لا أدرى لماذا ، ولكنه على أية حال كان أيسر ٠ ربما تكونين أهم من الموطن ، من مكان ولادتى ، فى هذا الوقت ، بعد اذ فقدتك ٠ ليتك غادرت دنياك اذ بذلك يكون الأمر أيسر وأفضل ٠ بدونك يزداد ألمى بما قطعت مسافات طويلة واجتزت من أماكن خالية ، وبما مر بى ويمر من احلام عجيبة فى نومى وفى يقظتى ، لست أقوى بدونك على صدها وابعادها ٠

اننى لا أشعر بحزن ، ومهما يكن فانا انادى ظلها ، صورتها التى تلاشت منذ زمن ، كى أودعها ، للمرة الأخيرة ، كى اتركها مرة ثانية ٠

ونجحت في استدعائها ، في خلقها من شجيرات دقيقة خضراء ، من انعكاسات ترى على صفحة الماء ، من شلالات الضياء تسكبها الشمس ٠

مثلت امامي على البعد جسما يكونه الظلال ٠ ولو حدث أن هب النسيم لتلاشت ٠

واتمنى هبوبه واخشى أن يهب ٠ ٠

تحدثت اليها قائلا :

ـ كنت أعلم أنك ستحضرين ٠

واردفت على الفور :

ـ لقد تأخر حضورك ، ولم يعد يوجد سوى ما يدور بخاطرى من أفكار ٠ فهيا كي نزيل ما بقي أيضا ٠

ثم قلت لها مودعا :

ـ في سلامة الله ٠ لن أسمح بأن تطارديننى كشبح ٠ انك دائما تقفين بين هذه الجبال ، أشبه بالقمر ، بالنهر ، بالشارة في أعلى المئذنة ، بالطيف المضيء ، وقد ملأت بجسمك هذا الفراغ كما تملئينه في المرآة ، ورويته بعطرك كما تروين السرو ٠ سوف اغادر هذا المكان منطلقا الى العالم ، الى حيث لا توجدين ، وفي ذلك المكان الآخر لن تستطيع أن تدنو منى صورتك ٠

سألتنى :

ـ لماذا تسند وجهك الى راحتيك ؟ اأنت حزين ؟

سوف أرحل ، قلت هذا ، وأغمضت عينى ، مطبقا أجفانى كعدسة المصورة عند التقاط منظر ، أو كباب صفقته فاندفع ينغلق ، وذلك لكى أسجن صورتها المتماوجة داخل نفسى ٠ سوف أرحل ، لكى أنظر اليك ، لكى لا أفكر في خيانة ٠

ـ أتعرف كيف كان حالى ؟ أتعرف حالى الآن ؟

سوف أرحل ، كي لا أكرهك ، كي يكون الأمر كأن لم يكن ٠ لقد ألقيت بأجزاء صورتك في طرق بعيدة ، وسوف تذروها الرياح وتبليها الأمطار كما آمل ٠ ومن نفسي سوف تمحوها اصابتى ٠

ـ لماذا رحلت فى أيام الخريف ؟ يجب على المرء الا يرحل مادام لديه اسباب تدعوه للبقاء ٠

ـ كنت مضطرا للرحيل ٠

ـ لقد تركتنى ٠ فعن أى شىء كنت تبحث فى العالم ؟ لقد رجعت ومعك حزنك ٠ أهذا كل ما حصلت عليه ؟

ـ كنت حزينا بسبب الجروح ، بسبب الارهاق ، بسبب الزملاء القتلى ٠

ـ وكنت حزينا من أجلى أيضا ٠

ـ نعم وكنت حزينا من أجلك كذلك ، ولكنى لا اريد أن أعترف لك ٠ كنت اقضى ليالى وأياما فى السفر كى أراك ٠ وكنت استلقى فى الليل تحت أشجار الغابات ، أحس الجوع واشعر بآلام الكدمات فى قدمى ، وارى أننى قد تصلبت بتأثير الأمطار الباردة ، وكنت أنسى كل شىء حين آخذ فى التحدث معك ٠ وكنت أقطع طرقا لا نهاية لها ، وكان من الممكن أن ينتابنى الخوف من عددها ومن تلك المسافات الشاسعة والأجزاء المترامية الأطراف فى هذا العالم ، لو لم اكن قابضا على يدك واسير محاذيا اياك ، يلتصق فخذى بفخذك وجانبى بجانبك ، متلهفا أن أصل الى الطريق السوى كى اغمض عينى لتكونى أشد قربا منى وأكثر وضوحا أمامى ٠ لماذا تبكين ؟

ـ أسترسل ، مبينا كيف كان تفكيرك عنى ٠

كان وجهها شاحبا ، وباسفل عينيها ظلال سميكة لأهدابها ، وعلى الأرض كانت ركبتاها المتضامتين ترتجفان وبجانبهما كفاها تلمس وجه العشب كما كانت كفاى منذ قليل ٠

ـ لماذا حضرت ؟

ـ اتريد أن ننطلق معا الى العالم ٠ سوف أترك كل شىء وأهرب معك ٠ لقد مرت ثلاثة ايام وهى زوجة لآخر ، وقد ابقت يداه أثارا على جسدها ، وأزال فمه شفوفيتها التى كانت تنعم بها ٠

قلت هذا ، وقد اعترانى الفزع ٠

وفى غموض ودون وعى نطقت لتجيب عن سؤالى :

ـ من أجل هذا بالذات •

قبضت على زنديها كما يقبض الغريق ، امسكتها وهي ملك لآخر ، دون أن ابالي ، امسكتها وكأنها ملكي منذ عهد بعيد ، لم يكن يعنيني ذلك العهد البعيد وانما كانت تعنيني تلك اللحظة ، الوحيدة ، الهامة ، التي كانت تمحو الزمن ، والحزن كذلك ، وانغرزت أصابعي المرتجفة في جسمها كأنها المسامير ، لم يعد باستطاعة احد أن ينتزعها مني ، وهي حية ، كنت أطبق عليها ببراثني الحادة ، وقد تسمرت بالأرض ، وجف بجانبي النهر فلم يسمع له خرير ، ولم يعد يسمع سوى دقات نواقيسي ، المجهولة ، التي لم تكن قد تحركت الى الآن ، كانت جميع نواقيسي تدق كأنها تنذر بالخطر ، سوف يتجمع الناس ، ولا يهمني امرهم ، فلا وجود لهم ، يا حلمي الذي أصبحت ضحية •

واذ ذاك توقفت النواقيس ، وعاد الناس ، وفتحت عيني ورأيتها ، حديثة الميلاد ، مخنوقة ، بيضاء ، كفيء وسط أعشاب خضراء ، قد استحالت الى مروشفاف ، والتصقت بالأرض ، واخذ الخشخاش يزهر من ابطها ، وزهرة الثلج تترعرع بين فخذيها ، وبراعم اشجار الحور تتساقط على بشرتها المتلالئة ، أأتركها كي تورقها البراعم ، أم اهبط بها الى دوامة النهر ، أم أحملها الى المرتفع الذي يشرف على الغابة واتركها تحت كومة من الأحجار هناك ؟ أأستلقي بجوارها ، واستحيل عشبا من أعشاب الربيع وعودا من أعواد الصفصاف ؟

وذهبت دون أن استدير ، ولا أدري أكان منها نداء أم لا ، واختزنتها ، غريبة ، في ذاكرتي كشاهد يعلن قبرا أو ينبيء بموت شهيد •

ـ يا ! ـ هكذا كنت ألقي بصيحاتي في بعض الأحيان عبر مسافات السنين ، مناديا تلك الكومة الربيعية البيضاء ، ولكنني لطول البعد لم أكن أتلقى استجابة لهذا النداء •

وهكذا حال النسيان بيني وبينها •

لو لم يحضر ابنها في هذه الليلة بالذات لما تذكرتها الآن فيما أعتقد • ومن يدري لعله ابني كذلك •

انني أعلم أن باستطاعتي أن أقول ، كما يقول كل أحمق : لو لم يحدث ذلك الذي حدث ، لكانت حياتي على خلاف ماكانت • لو لم أذهب

الى الحرب ، وأهرب منها ، وأدعو هارون الى القصبة ، ولو لم يكن هارون ‥ انه لشيء مضحك ، ماذا كانت حياتي اذن ؟ ولو لم أترك الفتاة التي أحببتها ، ولو لم يكن الهرب يبدو لى أيسر من معاندتى للعالم اجمع ، لما كانت وربما هذه الليلة • على انني استطيع ان اذكر انه لو لم يحدث ذلك كله لكرهت هذه المرأة ، ظانا أنها وقفت في طريق سعادتي وحالت بيني وبين نجاحي في الحياة • اذا ما كنت اذ ذاك أعرف هذا الذى اعرفه الآن • ان الانسان ملعون ، فهو يتحسر على جميع الطرق التي لم يمر بها • ومن يدرى ماذا كان ينتظرنى في الطرق الأخرى •

انطلق الشاب يقول ، وقد بدأ النوم يداعب اجفانه :

ـ لقد حصلت على سعادتك بتركك القرية •

ـ اذهب ، ونم ، فانك متعب •

ـ لقد حصلت على سعادتك بتركك القرية •

ـ سوف أوقظك في الصباح الباكر ، فانا مضطر الى السفر •

ـ بعيدا ؟

ـ اين الحافظ محمد سوف يتولى امورك ويعمل على راحتك ، أترغب أن تكون في التكية ؟

ـ الأمر سواء بالنسبة لى •

ولى ايضا • فليختر بنفسه ، ليجرب • لا استطيع أن أساعده في شيء • وليس باستطاعة احد ان يساعد احدا •

كان يريد ان يقبل يدى ، فهكذا نصحوه دون شك ، لكي يرضيني، ويعلن شكره الذى لا يشعر بوجوبه • ولكنني لم أسمح له بذلك •

وذهب ، متعبا ، فالطريق بعيدة من القرية الى القصبة (وتعد أبعد من القصبة الى القرية) ، وربما انتابه شيء من الدهشة لانتهاء الأمر على ما يرام ، وربما أدركه شيء من الحزن لبقائه هنا • لقد كان لقاؤنا فاترا يكاد يشبه لقاء الغرباء •

وكدت مشمئزا أن أفكر كيف كان من الممكن ان يكون لقاؤنا على خلاف ذلك : أن أعانقه ، أن اتبادل واياه القبل ، أن أسدى اليه عددا من النصائح الحكيمة ، أن اضغط مغرورق العينين على يده البارزة

العقد ، هامسا فيحزن : ابني ، أن ابحث في بلاهة عن علاماتي في وجهه، أن أرقفه بصورتي الأخيرة التي ستبقى له على الأيام ذكرى • وحقا كان من الخير ان يكون له بمثابة الذكرى شيء اروع جمالا وأعظم حكمة •

نعم ، كنت اقف على رأس سريره وبيدى شمعة ، وكان مستغرقا في نوم بلغ الغاية من العمق ، نوم لا يعرفه سوى الشبان والحمقى ، وبلا جدوى كنت ابحث عن شيء من حنو او انعطاف في نفسي نحوه • وكان الضوء الذي نشرته الشمعة يتراقص على الأجزاء البارزة من وجهه ، وكان صدره القوي يتنفس في اطمئنان ، وفمه القوي الشبيه بفمي ، يبتسم لشيء تركه ، ولم ينفصل عنه بعد • ودار بفكري : سوف يخلفني في هذا المكان ، وفي هذه الحياة أيضا ، قطعة لعلها من صلبي ، أنا في سابق عمري ؛ وتأخذ الحياة في الاستمرار • ولكن شيئا لم يتحرك في نفسي ، وظلت الفكرة التي كنت ألزم نفسي بها على ماهي عليه من فتور ، فما وجدتني انحني عليه لأقبله أو أمرر راحتي عليه • لست قادرا على الحنان •

وعلى الرغم من ذلك فانني أتمنى لك حظا سـعيدا أيها الرجل الشاب •

في مكان ما ، من هذا الظلام المحيط ، أعلن الخفير منتصف الليل • منتصف ليلي الأخير ، يومي الأخير : فبنهايتي سأستقبل بدايته •

انني أعلم ذلك ، وعجب أن يبدو كل ما يجب أن يحدث ، بعيدا ، وغير متصور الوقوع على الاطـلاق • وأراني الآن على يقين ثابت من أن حدوثه لن يكون • اعلم أنه سيكون ، ولكن شيئا في نفسي يبتسـم ، يقاوم ، يصد ، سوف يحدث ، ولكنه يبدو مستحيل الحدوث ، وهذا الذي اعرفه لا يعد كافيا لينهض دليلا على أن شيئا لابد أن يـكون • ومازال القلب بنبضاته يعلن عن تدفق الحياة ، ولست اعقل أن اتصور نهايتها• وربما أيضا من أجل هذا الذي اكتبه لم استسلم للموت ، بل أعمل على صده •

غير انني بعد أن القيت بقلمي لم استطع لفترة طويلة أن أتناوله بيدى الخدرة ، بسبب ما كان من ارهاقي أو ضعف عزيمتي ، وبسبب تفكيري الذي أعلن في جبن عن نفسه ، مُمليا على ألا فائدة فيما أفعله ، ولما اصبحت وحيدا دون دفاع ، انبعث العالم حولي • وما هذا العـالم سوى الهدوء والظلام •

قمت واقتربت من النافذة المفتوحة · لم يكن هناك سوى سكون ، سوى ظلام · سكون مطبق · سـكون نهائى · لا وجود لشىء فى أى مكان ، ولا وجود لأحد · لقد توقف النبض حتى فى العرق الأخير ، وخبت الأضواء حتى الضوء الأخير · لا صوت ، ولا نسمة ، ولا ذرة من ضياء ·

أيها العالم ، أيها الخراب ، لماذا تبدو فى هذا الوقت بالذات هكذا ؟

واذ ذاك فى هذا الصمم ، فى هذا الموت ، سمع صوت ينطلق من مكان ما صوت صار ، شاب ، طاهر ، واخذ يترنم باغنية عجيبة ، تبدو حالمة هادئة ، ولكنها ترى نضرة مناهضة · كانت أشـبه شىء بتغريد الطير وفجاة اختفى الصوت كما ظهر · لعله اختنق كالطير ·

ولكن بقى فى نفس حيا ، واكسب قلبى رقة وحنوا ، لقد أثارنى وأيقظ مشاعرى هذا الصوت الانسانى المجهول الذى لو سمعته من قبل لما التفت اليه · ربما كان ذلك لأنه ظهر فى هدوء كهدوء العالم الآخر ، وربما لأنه لم يكن يخاف ، او لأنه كان يخاف ، او لأنه كان قد ظهر معزيا ومشجعا لى ·

وظهر حنانى المتأخر ، واندفعت أنادى ، أيها الرجل ، أنت يامن تغنى فى الظـلام الرهيب · اننى أسمعك · ان صـوتك الهش يبدو لى كموعظة · ولكن فيم نفعه الآن ؟

آين أنت يا اسحاق ، يأيها المتشرد ، آكنت موجودا فى وقت من الأوقات ؟

انك خدعة كبيرة أيها الطائر الذهبى !

فى الغرفة الأخرى ينام الحافظ محمد ، وربما علم بامرى وينتظر أن اناديه او اذهب اليه ، تاركا اياى لأقوم بتصفية الحساب مع نفسى ، وأتوجه الى الله طالبا منه الرحمات · ومما لا شـك فيه أنه يبكى الآن بدموع الشيوخ الضعيفة ، وهو يرثى لحزن هذا العالم · انه يرثى لجميع الناس لا يحبهم بطـريقة وانا لا أحبهم باخرى · ولذا فنحن نشـعر بالانفراد ·

ولربما رثى لنفسى خاصة ، لعله فصـلنى عن هؤلاء البائسـين واحتضننى على أنه رجل أخير يقوم باحتضان الرجل الأخير ·

أقصده قائلا : انني وحيد يا حافظ محمد ، وحيد وحزين ، مد يدك وللحظة فحسب كن صديقا لى ، ابا ، ابنا ، انسانا عزيزا يسرني قربه مني ، دعني أبكي على صدرك اليابس ، وابك انت أيضا ، من أجلي، لا من أجل جميع الناس ، وضع كفك الرطب على يافوخي ، ولن يستمر ذلك طويلا ، فانا بحاجة الى ذلك لفترة قصيرة ، فها هي الديوك الأولى أخذت تصيح •

الديوك الأولى ! الابواق الحاسدة تحرض الزمن ، تلكزه لكيلا يظل نائما ، تستعجل المصائب ، تنهضها من عشاشها ، كي تنتظرنا متزعجة ثائرة • كفى عن الصياح أيتها الديوك ، وتوقف عن السير أيها الزمن !

أأصيح فى الليل ، أأنادى الناس ، أأطلب المساعدة ؟

عبثا أحاول • فالديوك قساة • وها هي تواصل انذارها بالخطر •

انني أجلس الآن جلسة التشهد واستمع • وفى سكون الغرفة ، فى مكان ما من الجدار ، من السقف ، من الرحب الذى لا يرى ، أخذت تدق ساعة القدر ، معلنة سيره المندفع ، لا يمكن توقفه وليس له بحال ان يعود •

وطغى على الخوف طغيان المياه •

ان الأحياء لا يعرفون شيئا • فعلموني ، أيها الموتى كيف يمكن الموت بلا خوف أو على الأقل بلا فزع ، اذ الموت لا مفهوم له كما هو الحال بالنسبة للحياة •

« ن ، والقلم وما يسطرون
والليل اذا يغشى والنهار اذا تجلى
والقمر اذا تلاها والنهار اذا جلاها
لا اقسم بيوم القيامة ولا اقسم بالنفس اللوامة
والعصر ان الانسان لفى خسر » •

وكتب حسن بن على

بيده :

لم أكن اعرف أنه كان تعيسا
الى هذا الحد •

رحمة وسلاما على روحه التى تعذبت !

١٩٦٢ ــ ١٩٦٦

المطبعة الثقافية

رقم الايداع بدار الكتب ٢٦٩٦/٩٧١



الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر

الثمن ٩٠ قرشا


GREAT IS OUR GOD
حصريات مجلة الابتسامة
WWW.IBTESAMA.COM
مجلة